مذكرات وشهادات

مذكرات عبد السلام أحمد جلود

الملحمة







المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

مذكرات عبد السلام أحمد جلود

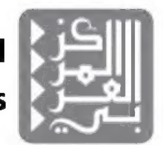
الملحمة

مذكرات عبد السلام أحمد جلود

الملحمة

مذكرات عبد السلام أحمد جلود

الملحمة



المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies

الفهرسة في أثناء النشر - إعداد المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

جلود، عبد السلام أحمد، 1944-

مذكرات عبد السلام أحمد جلود: الملحمة.

479 ص.؛ 24 سم. - (سلسلة مذكرات وشهادات)

يشتمل على إرجاعات ببليوغرافية وفهرس عام.

ISBN 978-614-445-429-9

1. جلود، عبد السلام أحمد، 1944- - مذكرات. 2. السياسيون الليبيون - تراجم. 3. رجال الدولة - ليبيا - تراجم. 4. ليبيا - أحوال سياسية - معمر القذافي، 1969-2011. 5. ليبيا - تاريخ - معمر القذافي، 1969-2011.

أ. العنوان. ب. السلسلة.

961.2042

العنوان بالإنكليزية

Memoirs of Abdessalam Ahmad Jalloud: An Epic

by Abdessalam Ahmad Jalloud

الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبّر بالضرورة عن
اتجاهات يتبناها المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

الناشر



شارع الطرفة - منطقة 70
وادي البنات - ص. ب: 10277 - الظعاين، قطر
هاتف: 00974 40356888

جادة الجنرال فؤاد شهاب شارع سليم تقلا بناية الصيفي 174
ص. ب: 4965 11 رياض الصلح بيروت 2180 1107 لبنان
هاتف: 8 991837 1 00961 فاكس: 00961 1991839
البريد الإلكتروني: beirutoffice@dohainstitute.org
الموقع الإلكتروني: www.dohainstitute.org

الطبعة الأولى

بيروت، كانون الثاني/ يناير 2022

الإهداء

إلى أمي التي فقدتها منذ أن كان عمري سنة واحدة؛ فلم أُسعَد أو أتمتّع بحبّها وحنانها وعطفها، كما أنها لم تُسعَد بشبابي ورجولتي. وإلى أبي الذي فقدته يوم أصبحت في الثانية وبضعة أشهر من عمري؛ فلم أنعم بحنانه وعطفه، وهو لم يتمتع أو يُسعَد برؤيتي شابًّا ورجلًا.

مذكراتي هذه مهداة إلى أمي وأبي، وإلى أعظم شعب على وجه الأرض: الشعب الفلسطيني. لو أنّ شعبًا آخر تعرض للمؤامرة الكونية، لصار مصيره كمصير السكان الأصليين في أميركا، أو تحول إلى مجموعات من البشر على شاكلة جماعات الغجر، لكن الشعب الفلسطيني العظيم تمسّك بأرضه وهويّته الوطنية وعزّزها بالهوية الثقافية والتعليم وبالذكاء المبدع. وأتذكر، خلال ولاية مناحيم بيغن، أن أحد الشباب الفلسطينيين نفّذ عملية بطولية ضد مجموعة من الجنود الصهاينة واستشهد. فأرسل والده برقية إلى بيغن يقول فيها: "أبشرْ وانتظر. لديّ سبعة عشرَ ولدًا. سوف أربّيهم وأعدّهم ليسيروا على طريق ابني الشهيد".

إن شعبًا يودّع فيه الآباء أبناءهم الشهداء بالتهليل والتكبير، وتودّع فيه الأمهات أبناءهن الشهداء الأبطال بالزغاريد والتصفيق، سينتصر حتمًا وتتحرر فلسطين من النهر إلى البحر. هذا هو منطق التاريخ ونواميس الكون، فالقوي اليوم ضعيف الغد، وضعيف اليوم قوي الغد. إن هذا الكيان هو نقطة في بحر من العرب وحين يهيج هذا البحر - وسيهيج حتمًا - فإنه سيقذف بهذا الجسم الغريب خارجه. وإلى شباب أمّتنا من الجنسين، وإلى الحالمين والعاملين بجد على تحقيق حلمهم وصنع فجرهم وصبحهم، وشعارهم لا خوف بعد اليوم، الخوف "يخاف" منّا، أهدي مذكراتي (الملحمة).

المحتويات

مقدمة الناشر

تمثل مذكرات وسير الفاعلين في الأحداث، والذين كانت لهم أدوار مباشرة أثرت فيها، أحد أهم مصادر الكتابة التاريخية عمومًا والكتابة التاريخية الحديثة العربية خصوصًا. فالمذكرات تكشف ما لا تكشف عنه الوثائق من حيوية التفاعل بين صاحب المذكرات والأحداث التي ينخرط فيها، وتقدم معلومات متنوعة ثرية للمؤرخ على أن يكون واعيًا لموقع الفاعل السياسي صاحب المذكرات وخصوصية زاوية النظر التي يرى منها الأحداث والشخصيات الأخرى.

إن طبيعة المذكرات ذاتية دومًا، وتتحكم فيها بؤرة نظر صاحبها بسرد الأحداث وتفسيرها وتأويلها، وحتى بانتقاء بعضها دون أحداث أخرى وقعت. وهو ما ينعكس في المذكرات كافةً. وليس المؤلف في هذه الحالة مؤرخًا أو باحثًا، وليس مطالبًا بأن يبحث في موضوعه أو يكتب عنه كأنه باحث. فهنا يأتي الدور المحترف للمؤرخ في نقد السرد والمعلومات والمنهج، حيث يمكن أن تشكل السير إحدى أبرز مصادره في الكتابة.

من الطبيعي أن تثير المذكرات، أي مذكرات، ولا سيما إن كانت لفاعل اجتماعي - سياسي مهم كانت له أدوار في مراحل تاريخية حساسة معيّنة، طويلة أكانت أم قصيرة، الجدلَ والنقاش والتساؤلات، وحتى ردود فاعلين آخرين أو باحثين ممحّصين أو شهود تلك المرحلة.

في ضوء هذه الرؤية يندرج اهتمام المركز بنشر المذكرات والسير الذاتية كونها تعكس صوتهم المباشر دون محرر وسيط. ولا يعني نشر المركز مذكرات أي فاعل تبنيًا لما يرد فيها من مواقف وسرد للتفاصيل. ويندرج نشر المركز العربي للأبحاث مذكرات الأستاذ عبد السلام جلود في هذا الإطار لأهمية دوره الفاعل في تاريخ ليبيا الحديثة، وفي علاقات ليبيا العربية والإقليمية والدولية المتشعبة في فترة مارست فيها ليبيا دورًا مهمًا على مستوى العلاقات الدولية والحركات الثورية في العالم الثالث على نحو خاص، وفي مرحلة محددة من مراحل تطور العمل القومي العربي، وكونه عاش الأحداث والوقائع في هذا السياق التاريخي من تجربته كفاعل سياسي ورجل دولة، وهي تجربة امتدت على مدى طويل لا يقل عن ثلاثين سنة في مرحلة عاصفة وزاخرة بالتحولات، وما زالت آثارها ومراجعتها وتقييمها ممتدة حتى يومنا. ولا يقل أهمية عن ذلك، البعد الإنساني المفيد في وصف طفولته وصباه وتشكّل شخصيته. فهو بذلك يصف ظروف تشكل نموذج للضباط الشباب الذين حلموا بالوحدة العربية والنهضة والتغيير وإعادة الاعتبار للحضارة الإسلامية في التصدي للهيمنة الغربية، وذلك في مرحلة ما بعد حرب 1967 وقبل دخول التيار الراديكالي القومي العربي الحاكم في طور الأزمة. ويعرض جلود أحد جوانب هذه الأزمة عبر ما عاشه من شخصنة متطرفة للحكم عند القذافي.

وكما هو واضح من النص احتفظ الرائد عبد السلام جلود، على الرغم من مرور السنين، بنفس ثوري ونبرة حادة قاطعة تميز بها رواد ثورة الفاتح في ليبيا، يتمسك بهما جلود في سيرته السياسية وفق النص، في مقابل تخلي القذافي الفعلي عن مبادئ تلك الثورة، كما يراها جلود، لصالح حكم الفرد على الرغم من تمسكه بألفاظها. وبما أن المركز العربي ليس مجرد دار نشر، بل هو مركز أبحاث، فقد حاولنا التدخل في التحرير لحذف أو إضافة ما نرى أنه مفيد لهذه المذكرات، وبما يقربها من الموضوعية العلمية قدر الإمكان، كما فعلنا في حالة مذكرات أخرى نشرها المركز لشخصيات بارزة. ولكن خلافًا لتعاملنا مع الدراسات والأبحاث التي تصل إلى المركز يكون للمؤلف في هذه

الحالة الحق في رفض أو قبول الملاحظات، فهذه مذكراته في النهاية؛ وهي لا تعبر عن المرحلة فقط، بل أيضًا عن شخصية الكاتب التي لا يجوز للناشر تغيير معالمها أو تحويرها. والشخصية في حالة المذكرات مهمة، وقد تكون بحد ذاتها موضوعًا للبحث. ولم يقبل صاحب هذه المذكرات قسمًا كبيرًا من ملاحظات التحرير في المركز. وهذا حقه. فهو يتحمل مسؤولية ما يرد فيها، ولا سيما على مستوى أقواله في المناسبات المختلفة والمواقف من الأحداث والأشخاص.

من المتوقع أن تثير هذه المذكرات المهمة، وما تزخر به من معلومات وتفاصيل ووجهات نظر وتقييمات للأحداث والفاعلين الآخرين، النقاش، وربما السجال أيضًا. وهذه هي طبيعة أي مذكرات تتسم بالأهمية. وما يهم المركز العربي للأبحاث هو أن تشكل إصداراته إضافة معرفية، وأن يكون النقاش مفيدًا.

قسم الإصدارات
المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات

مقدمة

تتحدر عائلة والدي أحمد، وكذلك عائلة أمي شعلة، من قبيلتين بدويتين مختلفتين، ولكنهما تنتسبان إلى القبيلة الأم، قبيلة المقارحة؛ فعائلة والدي تعود إلى قبيلة المحاربية، بينما تعود عائلة أمي إلى قبيلة المشلشة؛ ولذا فهما فرعان من القبيلة الأم، المقارحة، التي تتحدر أصولها من قبائل بني سليم وتنتشر على مساحة واسعة من الوطن العربي[1]. كانت القبيلتان تمتازان بصفات الشجاعة النادرة والمغامرة وروح الإقدام، وهذه الميزة كان لها أعظم الأثر في تكوين شخصيتي وصقل طريقة تفكيري في وقت مبكر. عاشت عائلتا والدي ووالدتي حياة البداوة التامّة بكل ما يعنيه ذلك من ترحالٍ دائمٍ وتنقلٍ متواصلٍ في الصحراء بحثًا عن الماء والكلأ. كان والدي يملك ثروة من الإبل والأغنام سمحت له بأن يعيش حياة كريمة، وكان مولعًا بركوب الخيل وشغوفًا بتربيتها. أحبّ والدي أمي وكان مفتونًا بها. وحينما رغب في الزواج بها، واجهه والد أمي بالرفض بذريعة أنه متزوج بامرأة أخرى، ثم حاولوا تزويجها لشخص آخر. ولك أن تتخيّل قوة شخصية هذه الفتاة في ذلك الزمان، حين تمرّدت على التقاليد والأعراف وأعلنت أنها إمّا

(1) المقارحة: قبيلة عربية من القبائل العدنانية - القيسية من بني سليم. كانت تسكن الحجاز ونجد واليمن، وتُعرف باسم المزاريع، ثم هاجرت إلى ليبيا وشمال أفريقيا. وفي مصر، استقر جزء كبير منها. وحينما وصلت القبيلة في حوالى عام 1050م إلى ليبيا استقرت على شاطئ البحر الممتد من مصراتة إلى طرابلس. وخلال فترة حكم الدولة العثمانية مُنحت القبيلة لقب "كرغلي" أي شريف، وأُعفيت من الضرائب، كما مُنحت بعض الامتيازات لأنها تصدّت لحملات فرسان القديس يوحنا على طرابلس وقاومتها.

أن تتزوج بوالدي، وإمّا أنها لن تتزوج. وأخيرًا رضخت الأسرة أمام إرادتها ووافقت على تزويجها بوالدي. توفيت والدتي وأنا في سن عامٍ واحدٍ وبضعة أشهر. لقد نقل والدي حبّ أمي إليّ. لا أعرف تاريخ ميلادي لأنني ولدت في الصحراء، ولكنني أعرف أنني دخلت المدرسة عام 1953 في مدرسة براك الشاطئ بولاية فزّان. بعد عام ونصف عام من ولادتي، حرص والدي، إثر وفاة والدتي، على أن أتشبّع بمشاعر الحبّ للمرأة التي أحبّها: أمي، وقرّر أن أواصل الرضاعة من ثدي امرأة (مرضعة). كانت هناك عدّة مرضعات لي، وحدث أن هؤلاء النساء كنّ من البشرة السمراء، وقد تلقّين مقابل إرضاعي كميات من القمح والشعير عن كل رضعة. لقد تعرضت وأنا طفل صغير إلى حادثين خطيرين كان أي منهما كافيًا للقضاء على حياتي.

الحادث الأول، ويمكن أن يصلح مادةً لفيلم هوليوودي، أنّ عائلتي كانت تعيش في البادية مع جزء من قبيلتي المحاربية، ومن عادة البدو أن يتوجه الرجال صباحًا إلى رعي الإبل والأغنام وممارسة نشاطات أخرى مثل الصيد، بينما يذهب الشباب لرعي الخرفان والجديان، أما النساء فيذهبن إلى مجموعة أعمال يومية، مثل جمع الحطب وإحضار المياه ...إلخ، بينما يظل الأطفال الصغار في النجع. وقد كانت الألعاب الرائجة بين الصبيان هي ركوب الخيل والجري ورياضة الصيد. حدث أن غادرت بيت الشَّعر، ومشيت لوقت طويل حتى شعرت بالتعب فنمت تحت شجرة. وحينما عاد الجميع إلى النجع. بعد الغروب، لم تجدني عائلتي في البيت، فسيطر الخوف عليها وانتابتها الحيرة، بل شلّ تفكير الجميع من الرجال والنساء.

في هذا الوقت، كان والدي مسافرًا. كان الجميع خائفًا من ردّة فعل والدي، حيث كان يخصني بحب شديد لا حدود له، حبه بصفته أبًا لي ممزوجًا بحب والدتي. أقول شلّت الحيرة تفكير الجميع، ما عدا "أمي مسعودة"، وهي امرأة سمراء البشرة من أفريقيا، وكان والدي متزوجًا منها سرًّا. أعدّت مسعودة خطة بعد أن تفقدت الأشجار وعرفت أنني لست نائمًا تحتها، ثم أضرمت النار

في بعضها وطلبت من الشباب أن يركبوا خيولهم وأن يقوموا بـ"اللهيد"[2]، ثم أطلقت الكلاب من رباطها، فأخذت تركض وتنبح ذهابًا وإيابًا، والقصد من كل هذا منع الحيوانات المفترسة من أن تقترب من المنطقة، ومن ثمّ حمايتي إلى حين العثور علي. ومع الصباح الباكر، عثرت عليّ عائلتي نائمًا تحت شجرة. وحينما عاد والدي من السفر، وابتهاجًا بما قامت به أمي مسعودة أعلن زواجه بها. ومع أن من عادات البدو آنذاك ألَّا يتناولوا الطعام مع نسائهم، فإن أبي، تقديرًا منه لهذه المرأة الذكية والشجاعة، قرّر منذ ذلك اليوم أن تتناول الطعام معه.

أما الحادث الثاني، فقد وقع لي يوم كنت طفلًا صغيرًا أعيش مع أسرتي في قرية زلواز، وهي قرية بسيطة بها الكثير من عيون الماء وتشتهر بغابات النخيل وحقول القمح والشعير وأشجار الرمان والتين والعنب، وتبعد نحو 7 كيلومترات شمال منطقة براك الشاطئ جنوب ليبيا. ونظرًا إلى الحرّ الشديد، كان الناس يتركون النوافذ والأبواب مفتوحة، لعل بعض الهواء البارد يدخل البيت. وفي إحدى الليالي، كنت نائمًا في واحدة من الغرف، ولما استيقظت في الصباح وجدت أمامي أفعى من النوع القصير - وهي من أخطر الأنواع - كانت تحدّق فيّ بحقد، وكأنها مقيّدة، ومن المؤكد أن الإرادة الإلهية هي التي قيدتها في مكانها وحالت دون أن تهاجمني، فخرجت مسرعًا من الغرفة وقد تملكني خوف شديد.

شاءت إرادة الله العليّ القدير أن يلحق والدي بأمي بعد عام واحد وبضعة أشهر من وفاتها. وكنت طفلًا صغيرًا لي من العمر ثلاث سنوات وبضعة أشهر. كنت أسمع من الرجال والنساء في جلساتهم أنّ والديّ ماتا مسحورين؛ كما كانت الشائعات تنتشر حول وفاتهما، والشائعة هي نصف الحقيقة. إنها الغيرة والحقد الأعمى.

---

(2) في **المعجم الوسيط**، لَهِيد: اسم فاعل من لَهَدَ، لَهَدَهُ الحِملُ: أَثْقَلَهُ وضَغَطَهُ، لَهَدَهُ دابَتَه: جَهَدَها وهَزَلها فهي لَهِيدٌ.

بعد وفاة والدي أساء إلينا بعض الأقارب، وساء وضع الأسرة المادي، فقد خسرت معظم ثروتها من الإبل والأغنام بسبب مرض الطاعون. لكن الأمر الإيجابي والرائع أن عددًا من الأصدقاء الأوفياء ممن وقف والدي معهم في حياته، وقفوا معنا في هذه الظروف، وأبدوا مشاعر التضامن والمساعدة، ومن بين هؤلاء عائلة الشريف ونيس، وعائلة ثامر من قبيلة ورفلة. ثم إنّ والدي، على الرغم من "ثقافته البدوية"، استثمر جزءًا من أمواله في حفر عيون الماء والآبار الأرتوازية في منطقة براك الشاطئ بفزّان جنوب ليبيا، وتحديدًا في منطقة الزلواز. وفي هذه المنطقة، توجد مزارع أشجار النخيل والتين والرمّان، فضلًا عن حقول الحبوب والخضروات والأشجار المثمرة الأخرى.

بعد أن فقدنا ثروتنا من الإبل والمواشي، هجرنا الصحراء واتجهنا إلى فزّان، حيث العيون والسواقي والمزارع. ثم قام إخوتي الكبار، بالاتفاق مع بعض فلاحي فزّان، بعمارة الأراضي وزراعتها مناصفة بيننا وبينهم. لقد عاشت الأسرة، بعد وفاة والدي وخسارتنا ثروتنا من الإبل والمواشي، حياة ضنك وعوز، والليبيون في هذا الوقت كانوا عمومًا يعيشون حالة فقر.

غادرت أسرتي الصحراء، وقد كانت تتكون من أربعة شبان وأخت واحدة، وهُم عمر وسالم والمهدي وجلود وآمنة، وكنت بلغت من العمر سنتين. ولذا، لم تبقَ في ذاكرتي صور عنها، لكن الصورة التي ظلت في ذاكرتي هي صور الواحات الجميلة في جنوب ليبيا. لقد انتقلت للعيش في كنف جدّي (لوالدتي). وعادة ما تحرص أسرة الطفل الذي يتوفى والده على أن يعيش مع إخوته وأعمامه. لكنني فضلت العيش مع جدّي، حيث كان يتبارى خالاتي وأخوالي في العطف والحنان عليّ، إلى درجة أنني لم أشعر بأي فارق في المعاملة والعطف. حاول إخوتي مرات عدّة أن يأخذوني بالقوة، وقد حدث في مرات كثيرة، شجار بين جدي وأخوالي من جهة، وإخوتي وأعمامي من جهة أخرى، وفي كل مرة كانوا يتفقون على أن يدعوا "الأشراف" لمأدبة غداء. بعد الغداء كان الأشراف يسألونني: "أين تريد أن تعيش؟" فأردّ عليهم: "في بيت جدي".

في هذه السن الصغيرة، كان لدي كلب ضخم يرافقني أينما ذهبت. وكان لدى جدي مزرعة تبعد نحو أقل من كيلومتر عن المنزل، وحينما أكون في المنزل أركب فوق ظهر الكلب، فيفهم أنني أريد الذهاب إلى المزرعة، والعكس في أثناء العودة. لمّا توفي جدي انتزعني إخوتي بالقوة من المنزل، وكانت هذه من أصعب اللحظات، حيث انتقلت من الحنان والعطف إلى مرحلة صقل الشخصية والمعاملة القاسية، لأن تقاليد البادية تحتّم على الأسرة بناء شخصية الطفل، بما يضيف إلى العائلة والقبيلة الرجولة والشجاعة. ولمّا نفق كلبي، شعرت بحزنٍ شديد. كانت هذه مرحلة تأقلم صعبة، وهي من أصعب مراحل حياتي، إذ فقدت الدلال والحنان اللذين كنت أنعم بهما مع جدي وخالاتي وأخوالي، لأعيش مع إخوتي حيث تهتم العائلة ببناء شخصية الطفل، وعادة ما تكون صارمة وأحيانًا قاسية، لكي تزرع النخوة والشهامة والشجاعة؛ لأن العائلة تريد أن يكون الطفل إضافة إلى العائلة والقبيلة؛ وهذا يفسر المثل الشعبي "إذا جعت اقصد أخوالك، وإذا ظُلمت اقصد أعمامك".

في منتصف الخمسينيات، وفي أعقاب ثورة 23 يوليو 1952 في مصر[3]، كانت ليبيا كلها تغلي بوعي قومي وحدوي وثوري. لقد أدت الثورة الجزائرية ثم الثورة المصرية وشخصيّة جمال عبد الناصر الكاريزمية، والقيادية، ثم وقوع العدوان الثلاثي على مصر عام 1956، والوحدة بين مصر وسورية في 22 شباط/ فبراير 1958، وحتى انتشار الفكر الماركسي في أوساط الشباب الليبي، دورًا حاسمًا في بلورة الوعي القومي والاجتماعي. في هذا الوقت، كنت طفلًا ثم شابًّا، مثلي مثل سائر الشباب الليبيين، أعيش حياة ضنك وعوز وفقر، وكانت أسرتي تجد مشقّة في تأمين الطعام والملابس الشعبية البسيطة. وكانت هذه حالة معظم الشباب الليبيين في هذا الوقت؛ إذ لم تتمكن أسرتي من توفير

(3) ثورة 23 يوليو 1952: قام بها صفوة من ضباط الجيش المصري الأحرار بقيادة جمال عبد الناصر، وقد أحدثت تحولات هائلة وعميقة في بنية المجتمع المصري سياسيًا وثقافيًا واجتماعيًا واقتصاديًا، وأممت الأراضي الزراعية ووزعتها على صغار الفلاحين ونشرت التعليم وأسست ثورة علمية وصناعية، وأممت قناة السويس وبنت السد العالي، وقد أصبح الشعب المصري العظيم سيد قراره، كما كانت على المستوى القومي ثورة قومية بامتياز، وشكلت قاعدة صلبة لحركة القومية العربية الناهضة يومئذ.

أي وسيلة ترفيه لي. ولذا، تولّدت لديّ حالة نهمٍ شديدة لقراءة الكتب، فصرت ألتهم كل ما تقع عليه عيناي من صحف ومجلات وكتب. على الرغم من أنني كنت مثل سائر الشباب الليبيين، أعيش حياة ضنك وفقر، فإنني اندفعت نحو القراءة، وكنت أحرص على الاستماع للمحطات الإذاعية المصرية، وخصوصًا إذاعة **صوت العرب**.

لقد أصبحت مدمنًا على القراءة والاستماع للمذياع، فتجذّر وعيي الاجتماعي القومي والوحدوي، وتبلورت شخصيتي منذ المرحلة الابتدائية. وأتذكر أنني يوم كنت في الصف الرابع الابتدائي بمدرسة مرزق، شاركت في مسابقة نظّمتها المدرسة حول "الوحدة العربية"، أحرزت فيها المرتبة الأولى، وقد كتبت نحو 40 صفحة. هكذا، تبلورت شخصيتي في وقت مبكر في مرجل الأفكار القومية والثورة، وبات عالمي منذ يومئذٍ هو عالم الثورة والاحتجاج والتبشير بأفكار القومية العربية. لقد أدى المدرسون الذين كانت ترسلهم ولاية طرابلس إلى ولاية فزّان دورًا كبيرًا في نقل علمهم لنا، وهؤلاء المدرسون كانوا يجمعون بين العلم والوعي، وقد نقلوا لنا علمهم بطريقة تربوية رائعة، وزرعوا فينا الوعي، وكانوا خير محفّز ومحرّضٍ لنا، وكذلك المدرسون الذين أرسلهم عبد الناصر إلى ليبيا. لقد كانوا قمة في العلم والوعي، وهم أيضًا نقلوا لنا علمهم بطريقة شائقة ورائعة، كما زرعوا فينا الوعي وكانوا الدعاة والمحرضين لنا، وكان للنوادي والمراكز الثقافية المصرية في ليبيا دور كبير؛ لأنها شكلت فضاءً للمحاضرات والحوارات والنقاشات السياسية والفكرية، إضافة إلى المكتبات، حيث أذهب بصفة شبه يوميّة للقراءة واستعارة الكتب.

وفي قلب هذه المشاعر المتأجّجة، كنت أشعر أن الله معي يحرسني ويحميني ويقف معي. وأتذكر أنني في المرحلة الابتدائية، تعرّفت مصادفة على تلميذ طيب، شهم ورقيق القلب، وكان كريمًا وعزيز النفس من أسرة غنيّة بمقاييس ذلك الزمان، اسمه الدوكالي علي مصطفى، وكان والده يملك متجرين لبيع المواد الغذائية والملابس، وعمّه كان عضوًا في مجلس النواب. الدوكالي هذا كان يدير أحد المتجرين بعد الانتهاء من الدوام المدرسي، وكنت كل يوم

أذهب للقائه في المتجر، وقبل أن يغلق بعد الغروب، يأخذ مبلغًا صغيرًا من النقود من الخزانة ويعطيني إيّاه، وفي الوقت نفسه كان يأخذ تقريبًا المبلغ نفسه، وبعد ذلك نذهب إلى مقهى أو مطعم لتناول الطعام والعصائر.

في المدرسة الثانوية بطرابلس عام 1961، تعرفت على شاب اسمه سالم المثناني، وكان شابًّا مثقفًا ومولعًا بقراءة الكتب، وكان رقيق القلب وكريمًا بلا حدود، فتكوّنت بيننا صداقة حميمة وصادقة حتى صرنا مثل توأمين. كان سالم موظفًا في إحدى محاكم طرابلس، وأكثر ما أثار دهشتي حينما أخبرني أنه يريد أن يتقاسم راتبه الشهري معي. كان يفعل ذلك بعد أن ننتهي من تناول طعام الغداء في مطعم شعبي اسمه مطعم المنصور بشارع 24 ديسمبر، قرب ميدان الشهداء، فكان يخرج من جيبه ظرفًا ورقيًا في داخله راتبه الشهري، فيقسمه بيننا بالتساوي. والغريب أنه، بعد انتصار الثورة، لم يتقبّل مني أيّ مساعدة وظل في وظيفته إلى أن توفاه الله، وكان يقول لي: "إذا أردت أن تخدمني اخدم ليبيا".

ثم تعرفت على صديق وزميل يعمل معه في المحكمة نفسها يدعى عبد الله الجنزوري، وكان طيب القلب بشوشًا. في هذا الوقت، شعرت بأنني مسكون بوعيٍ جديد يحمّلني مسؤولية أكبر من طاقتي بوصفي تلميذًا صغيرًا. وهكذا، وفي وقت مبكر من حياتي، شعرت بأنني بتّ مهمومًا بمشكلات الأمة والمجتمع. لقد بتّ أشعر بأنني أغوص عميقًا في التأملات والأفكار، وأن الثورة باتت جزءًا من وعيي وكياني. ومن المؤكد أن "وعي الثورة" المنتشر مع أفكار حقبة عبد الناصر هو الذي زرع في وجداني، بصفتي شابًّا ليبيًّا، فكرة الثورة، وهو الذي جعل مني شخصًا مهمومًا بقضايا الشعب والأمّة. في تلك الفترة كان كل شاب ليبي "مشروعًا للثورة".

في هذا الوقت، كان قرار استضافة المجلس الوطني للثورة الجزائرية[4] وقيادتها، هو قرار الشعب الليبي، وما كان للنظام الملكي العميل إلا أن يساير

(4) استضافت العاصمة الليبية طرابلس اجتماع المجلس الوطني للثورة الجزائرية بين نهاية أيار/ مايو وبداية حزيران/ يونيو 1962، وقد صدّق المجلس على ما بات يعرف بـ "برنامج طرابلس" الذي اشتمل على المضامين السياسية والاجتماعية والثقافية للجزائر كدولة مستقلة.

هذا القرار الشعبي. كان لهذا القرار أثره الواضح في تأجيج مشاعر الثورة، حيث عمّت مظاهر تشكيل جمعيات شعبية[5] لجمع التبرعات وأموال الزكاة وجلود الأضاحي. وانخرطت مع عدد من الشباب في هذه الجمعيات. وقد شاهدت، كما شاهد غيري، تلك الصور الجهادية "الفنية" الرائعة والمؤثرة حقًّا. كنّا نرى الفتاة الليبية، والمرأة، والعجوز الليبية، وهنّ ينتزعن القلائد الذهبية من أعناقهن أو الأساور من معاصمهن أو الخواتم من أصابعهن ليقدّمنها تبرعًا للثورة الجزائرية، وهذا كل ما يملكن.

لقد عملنا على استغلال هذا المناخ الثوري والجهادي لنشر الوعي التحرري والتحريض على الثورة والمطالبة بخروج القواعد الأميركية والبريطانية من ليبيا. كنّا نحرّض على خروج التظاهرات تأييدًا للثورة الجزائرية، وضد القواعد الأجنبية، وكان الهدف الرئيس من وراء ذلك هو خلق حالة من الجسارة الشعبية؛ تمهيدًا لتأسيس أرضية حقيقية للثورة.

في أواخر شتاء 1958، قام ولي العهد الأمير الحسن الرضا[6] بزيارة لولاية فزّان، وقد سعت سلطات الولاية لحشد الجماهير لاستقباله، ولكننا قمنا في المقابل بحركة معاكسة، حين شرعنا في تحريض الجماهير، وخاصة الطلبة، على الامتناع عن المشاركة في الاستقبال. وبالفعل، فشلت خطة الحكومة ونجحت خطتنا. وأتذكر أن النظام رتب لإقامة حفل استقبال أمام مقر الولاية، وكانت اليافطات والأعلام والرايات ترفرف في الشوارع المحيطة. قمنا بتنظيم حملة مضادة لمنع الشباب الليبيين من حضور الاحتفال. كانت اليافطات تقول: "الشباب الصاعد يحيّي الأمير القاعد"، والحقيقة أن "الأمير قاعد من دون شباب صاعد"، فقد نجحت حملتنا لسبب بسيط؛ هو وجود رفض شعبي للملكية والزيارة.

(5) تأسّس العديد من الجمعيات واللجان، مثل لجنة مناصرة الشعب الجزائري، وكانت ليبيا بمنزلة قاعدة خلفية ولوجستية للثورة الجزائرية، حيث كانت بها مستودعات الأسلحة القادمة من مصر، ومراكز التدريب، وشبكات التسليح، كما وفرت إقامة خاصة لقادة جبهة التحرير الوطني وأمّنت تنقلاتهم.

(6) حسن الرضا السنوسي (1928-1992): حفيد الملك محمد السنوسي وولي عهده خلال الفترة 26 تشرين الأول/ أكتوبر 1956 - 1 أيلول/ سبتمبر 1969.

في سبها[7]، وحين كنت أدرس في مدرسة الجديد، كان معي سالم الظاهر وإمحمد الحضيري. في هذا الوقت، كان الأخ معمّر ومحمد أبو القاسم الزوي وإبراهيم أبجاد والهادي فضل يعيشون في القسم الداخلي من مدرسة قاهرة[8] المركزية التي ساهمت في تنشئتي السياسية. وقد كان للأستاذ محمد مصطفى المازق تأثير بالغ في تكويني السياسي، وكان بالنسبة إلي وإلى الأخ معمّر أكبر محفّز ومحرّض، لأنه كان أستاذًا متمردًا. لم أكن قد التقيت معمّر القذافي، ولكنني كنت على اتصال وثيق به عن طريق محمد الزوي. كان الزوي صديقًا حميمًا لي ولمعمّر. جاءني الزوي ذات يوم وقال لي: "عبد السلام. اليوم التقيتُ معمّر، وهو يحضر لتظاهرات طلابية حاشدة تقوم أساسًا على اشتراك طلبة الجديد وقاهرة المركزية وعلى حشد مواطني سبها أيضًا". كان الغرض من التظاهرة، كما أخبرني محمد الزوي، الاحتجاج على التجربة النووية الفرنسية في صحراء الجزائر[9]، لكن العنوان كان يخفي الأهداف الثورية الحقيقية؛ فقد كان الغرض الحقيقي منها تأجيج مشاعر العداء للمحتلين والنظام العميل في ليبيا، وتهيئة الظروف لبلورة وعي ثوري جديد. اتفقنا على موعد التظاهرة وأشكال تنظيمها، ونجحت مع الأخوين سالم الحضيري وإمحمد الحضيري وغيرهما في الإعداد لها جيدًا، حيث توجهنا صوب مقر الولاية ومقر مديرية الشرطة. لكن - للأسف الشديد - فشلت مدرسة سبها المركزية في تنظيم التظاهرة، واكتشفنا أن الأخ معمّر ذهب ليلة التظاهرة إلى مدينة مرزق التي تبعد أكثر من 120 كيلومترًا. من الواضح أنه لم يكن مستعدًا لتحمل مسؤوليته، وهذه هي شخصية الأخ معمّر حينما يجدّ الجدّ، فهو يتخاذل ويتراجع تاركًا الآخرين يواجهون قدرهم.

---

(7) مدينة ليبية في الجنوب الشرقي من ليبيا. ومثلت عاصمة إقليم فزان.

(8) اسم المدرسة مأخوذ من قلعة قاهرة سبها، وهي قلعة سبها التاريخية التي يطلق عليها قلعة سبها أيضًا. وقد شكلت القلعة المركز العسكري للقوات الفرنسية التي سيطرت على إقليم فزان في أوائل عام 1943، واشتهرت في التاريخ الوطني الليبي بمعركة قادها الشيخ عبد القادر بن مسعود الفجيجي في منتصف حزيران/ يونيو 1949، وتُعتبر هذه المعركة آخر معركة في تاريخ المقاومة الليبية.

(9) أجرت فرنسا تجربة نووية في منطقة رقان الواقعة بالجنوب الغربي الجزائري يوم 13 شباط/ فبراير 1960، لتشكل فاتحة تجارب أخرى استمرت حتى عام 1966، وانتهت بدخول فرنسا النادي النووي على المستوى الدولي، وما زالت آثار التجارب النووية وتداعياتها السلبية مستمرة على البيئة والسكان.

شارك، في هذه التظاهرة، عدد كبير من المواطنين، وكان بينهم تاجر كبير اسمه إبراهيم الزوي، وهو خال عبد الرحمن الصيد، وقد ساهم في حشد مجاميع كبيرة من المتظاهرين، ثم وقعت مواجهة عنيفة مع الشرطة والقوة المتحركة، جرح على إثرها مدير المباحث العقيد المبروك مسيك، فاعتقلت الشرطة ثمانية وأربعين طالبًا كنت من بينهم.

لقد كانت فترة الخمسينيات والستينيات فترة صعود المد القومي وظهور الفكر الثوري الاجتماعي، وكان لثورة 23 يوليو إشعاعها وتأثيرها الهائل فيّ وفي أبناء جيلي. لقد كانت شعارات الحرية والاشتراكية والوحدة تلهب مشاعرنا، وكنّا نعقد حلقات نقاش وحوارات حول هذه الشعارات والأهداف، وكنّا نتساءل عن مدى أهمية ترتيب هذه الشعارات من وجهة نظر ثورة 23 يوليو وحزب البعث العربي الاشتراكي، وكانت غالبيتنا تتفق على أن التطبيق والنضال لتحقيق هذه الأهداف، إنما هما معركتان متداخلتان، وإذا ما أتيحت الفرصة لتحقيق أحد تلك الأهداف، بغض النظر عن ترتيبها من حيث هي شعارات، فيجب تحقيق ذلك. أضف إلى ذلك أن ثورة اليمن ضد الاستعمار الإنكليزي[10] ومقاومة حي كريتر في عدن البطولية، وكذلك ثورة الجزائر ضد الاستعمار الفرنسي[11] (في حي القصبة في الجزائر العاصمة) ومقاومة جبال الأوراس البطولية، كل ذلك شكّل في شخصيتي ثقافة الرفض والمقاومة والتمرد على الواقع. لقد كانت هذه مصدر إلهام، وكنت أستمد منها القوة. في هذا المناخ، تشكّل وعيي الرافض والمقاوم، وأصبحت مهمومًا بقضايا المجتمع والأمّة، وصرت متحفّزًا وجاهزًا في توظيف هذا الوعي وهذا الفكر في عملية تنظيمية تؤسس للثورة.

(10) الثورة التي انطلقت رصاصتها الأولى في 14 تشرين الأول/ أكتوبر 1962 ضد القوات البريطانية في جنوب اليمن. وتكلل نضالها بجلاء البريطانيين، والاحتفال في 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 1967 بإعلان جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية.

(11) الثورة الجزائرية التي انطلقت في الأول من تشرين الثاني/ نوفمبر 1954، بقيادة جبهة التحرير الوطني وذراعها العسكرية جيش التحرير الوطني ضد الاستعمار الفرنسي، وقد كُلِّلت باستقلال الجزائر في 5 تموز/ يوليو 1962.

الفصل الأول

ليبيا: الطريق إلى ثورة الفاتح

في السجن مع معمّر

خلال التظاهرة الطلابية في سبها بولاية فزّان، أُلقي القبض عليّ مع طلبة آخرين، وتمّ الزج بنا في السجن. وضعونا داخل قاعة كبيرة مزدحمة وشديدة البرودة، وحصل كل واحد منّا على بطّانية واحدة، فافترشنا الأرض. كان أخي عمر مسؤول "البصمات" في رئاسة الشرطة، فأحضر لنا بعض السندويتشات وقناني "البيبسي كولا والميراندا". لكن ما إن تناهى الخبر إلى محمد بن سيف النصر، شقيق والي فزّان، حمد بن سيف النصر[1]، حتى سارع إلى لقاء أخي عمر ودخل معه في جدال صاخب. كان محمد بن سيف النصر منزعجًا من فكرة إدخال طعام من خارج السجن، معتبرًا ذلك أمرًا مُفسدًا؛ لذا قال محمد سيف النصر مخاطبًا أخي عمر "يا بن جلود.. أنت تريد أن تفسد علينا الفروخ (الأولاد)"، فردّ عليه عمر غاضبًا: "يا محمد أنت لست رئيسي. رئيسي هو العميد السويني. لست أعرفك حتى في طريق الدخان (أي لا قيمة لك)". وقبيل غروب شمس هذا النهار المشحون، علمنا أن معمّر القذافي عاد من مدينة مرزق، وقد اتجه إلى السجن مباشرة ليقول لمسؤول السجن: "أنا معهم؛ إمّا أن تطلقوا سراحهم جميعًا أو فلتدعوني أكون معهم في السجن".

ما إن سمع مدير السجن كلمات معمّر حتى استشاط غضبًا وأمر بأن يلقى القبض عليه ويزج به في السجن معنا. ما إن دخل معمّر إلى العنبر حتى جلس إلى جانبي. وحتى تلك اللحظات لم أكن أعرفه من قبل. سألني: "ما اسمك؟"

---

(1) حمد بن سيف النصر (1844–1954): شيخ قبائل أولاد سليمان، وزعيم ما يُعرف بقبائل الصف الفوقي، وقد كان حاكمًا لإقليم فزان (1943–1951)، وبعد استقلال ليبيا وتأسيس المملكة الليبية المتحدة أصبح واليًا لفزان (1951–1954).

قلت له: "عبد السلام". فرد: "أنا معمّر". ثم أردف قائلًا: "من الأفضل لنا أن نفترش بطّانية واحدة ونتغطى بواحدة"، فوافقت على المقترح. كان هذا أول لقاءٍ لي مع معمّر. افترشنا بطّانية واحدة وتغطينا بأخرى، وبتنا ليلتنا الأولى في السجن. وبعد نحو ثلاثة أشهر، تمّ الإفراج عنّا بضمان عائلاتنا ألّا نعود إلى التظاهر مرة أخرى، باستثناء معمّر وطالب آخر يُدعى الشامي. وما إن غادرنا الزنزانة حتى شرعنا في اليوم التالي في إضراب مفتوح من أجل إطلاق معمّر والشامي. مع بدء الإضراب الطلابي حضرت القوة المتحركة[2]، وهي قوة موازية للجيش مهمتها تأمين النظام الملكي وحمايته، ودخلنا معها في مواجهة عنيفة، مستخدمين الحجارة والزجاجات الحارقة. أدّت هذه المواجهات إلى جرح عدد من أفراد القوة، وهو ما فرض على قيادتها مخاطبة المسؤولين: "إمّا أن تسمحوا لنا بالهجوم على الطلبة، وإمّا ننسحب، لأننا لا يمكن أن نحتمل هذا الوضع".

في نهاية المطاف، اتفقنا على الدخول في مفاوضات مع سلطة الولاية، وجرى التوصل إلى صفقة اتفاق تقضي بإنهاء الإضراب والمواجهات مقابل إطلاق معمّر والشامي. وهذا ما حدث بالفعل. بعد أيامٍ قليلة، زارني محمد الزوي، وقال لي: "الطالب معمّر معجب بك وبوعيك، وهو يرغب في عقد لقاء خاص وعلى انفراد معك في منطقة حجارة". وحجارة هذه غابة نخيل شمال قلعة قاهرة؛ فوافقت على فكرة اللقاء وذهبت لرؤيته. جاء القذافي حاملًا معه صرّة فيها القليل من الخبز والجبن وبضع تفاحات، وكان معه مذياع صغير. ثم بدأ حديثه معي قائلًا: "يا عبد السلام، التظاهرات والاعتصامات عمل سلبي ولا بد من الانتقال إلى العمل الإيجابي المنظم". أصغيت إلى كلماته ثم دخلنا معًا في حوار جاد وعميق حول هموم الشعب والأمة. في نهاية اللقاء، أعطاني معمّر مجموعة من الكتب منها مؤلفات ساطع الحصري، وكتاب **يا ولدي هذا عمك جمال**[3] وكتب عن الثورة

(2) القوة المتحركة: قوة عسكرية كان يقودها العقيد السنوسي الفزاني وتُعتبر خط الدفاع الأول عن العرش الملكي، ومهمتها منع الشغب، والحفاظ على الاستقرار والأمن. وقد كان مقرها في قرنادة بشمال شرق ليبيا في الجبل الأخضر، جنوب مدينة شحات.

(3) كتاب **يا ولدي هذا عمك جمال**: يتناول فيه محمد أنور السادات حقبة مهمة من تاريخ مصر بعد ثورة يوليو 1952 حتى حرب السويس 1956، ويستعرض دور الرئيس جمال عبد الناصر في مجلس قيادة الثورة كصانع لتاريخ مصر الحديث.

الفرنسية والثورة الماوية في الصين. في نهاية اللقاء، اتفقنا على عقد لقاء آخر. وفعلًا التقينا بعد أسبوعين، وأجرينا حوارات معمّقة حول الثورة والقومية والوحدة والاشتراكية، وتلاقت وجهتا نظرنا على الانتقال إلى العمل الثوري، وتأسيس حركة ثورية وحدوية هي "حركة الوحدويين الأحرار"، وأن نبدأ تأسيس أول خلية ثورية، وأن تكون الخلية مؤلفة من خمسة أعضاء، على أن تأخذ الخلايا الشكل العنكبوتي، بحيث لا تعرف خلايا التنظيم بعضها بعضًا، وذلك تجنبًا لمخاطر اكتشاف هذه الخلايا. كما قمنا بتأسيس جريدة **الشمس** التي توليت رئاسة هيئة تحريرها. في هذا الوقت، كان هناك نادٍ رياضي اجتماعي ثقافي في حي القرضة بمدينة سبها، وكان بعض العناصر البعثية والماركسية ومن حركة القوميين العرب يستغل النادي غطاءً لنشاطه. قررت أنا ومعمّر الانتساب إلى النادي لاستخدامه غطاءً لدعوتنا وعملنا الثوري. في النادي كانت هناك فرقة تمثيلية متميزة، وكان مدرّسونا في المرحلة الإعدادية في غالبيتهم من المصريين المتميزين. أحد هؤلاء، واسمه الأستاذ شعلان، كان مدرسًا لمادتَي التاريخ والفلسفة، وكانت لديه شهادة تخصص في كتابة السيناريو. كان الأستاذ شعلان ابنًا لتاجر قطن، وكان يتقاضى مثل كل المدرسين المصريين راتبًا عاليًا بمقاييس ذلك الوقت؛ ولذا كان يقدم مساعدات مالية للطلبة من راتبه الشهري. وكان من بين مقتنياتي من الكتب كتاب لفولتير كتبه قبل الثورة الفرنسية، تهكم فيه على الملكية وسخر منها. طلبت أنا ومعمّر من الأستاذ شعلان أن يقوم بتحويل هذا الكتاب إلى عمل مسرحي فوافق على ذلك، ثم أقنعنا إدارة النادي بأن تقوم الفرقة بتقديم هذا العمل المسرحي، وقمت مع عدد من الطلبة بجمع التبرعات لتمويل المستلزمات الضرورية (ملابس، وماكياج ...إلخ).

وبالفعل أبدعت الفرقة في تقديم عرض مسرحي رائع على مسرح نادي الموظفين في سبها، بحضور حكومة فزّان - باستثناء الوالي - وأعضاء المجلس التشريعي وضباط الجيش والشرطة وكبار الموظفين في الولاية. كانت مهمتي أن أقف على خشبة المسرح لأتولى التعليق على الأحداث التي ترويها المسرحية.

في عام 1961، أنهيت المرحلة الإعدادية، فذهبت لزيارة أخي سالم في طرابلس. أعجبتني طرابلس، ووقعت في حبها وصارت جزءًا مني وصرتُ جزءًا

منها. حينها قرّرت أن أواصل دراستي الثانوية فيها. كان انتقالي من فزّان إلى طرابلس صيفًا في العام نفسه. بعد أسبوع واحد من وصولي إلى العاصمة، قررت أن أذهب لمشاهدة البحر. كانت هذه هي المرة الأولى التي أرى فيها البحر، أنا القادم من الصحراء حيث كنت أسمع عن جمال البحر وسحره، فذهبت إلى المصيف البلدي، وهو أقرب مصيف إلى المدينة، وكانت تستغله الجالية الإيطالية، ومجموعة قليلة من المحظوظين الليبيين ممن كانت لهم حظوة عند المستوطنين الطليان. حينما دخلت المبنى كانت إدارة المصيف والاستقبال مشغولة بأمور روتينية؛ ولذا لم يسألني أي شخص عمّا أريد، وهكذا أخذت طريقي بيسر وسهولة إلى الشاطئ. لما وصلت إلى الشاطئ، كانت هناك مجموعة من الطليان والليبيين من ذوي الحظوة، وكان أحدهم يُدعى الزنتوتي والآخر علي كابو، وهؤلاء ما إن شاهدوني حتى سارعوا إلى شتمي وطردي ورموني بالحجارة؛ ولذا غادرت المكان واتجهت إلى مصيف آخر. كان شوقي عارمًا لرؤية البحر. اتجهت إلى المصيف الواقع بالقرب من جزيرة الدوران في باب قرقارش، وهو مصيف يُعرف بأنه لـ"الجالية اليهودية الليبية". هناك واجهني المشهد ذاته، وتعرضت للمعاملة نفسها؛ ولذا غادرت المكان واتجهت إلى مصيف آخر، ما إن وصلت وحاولت الدخول، حتى اكتشفت أنه مصيف خاص بالعسكريين الإنكليز[4].

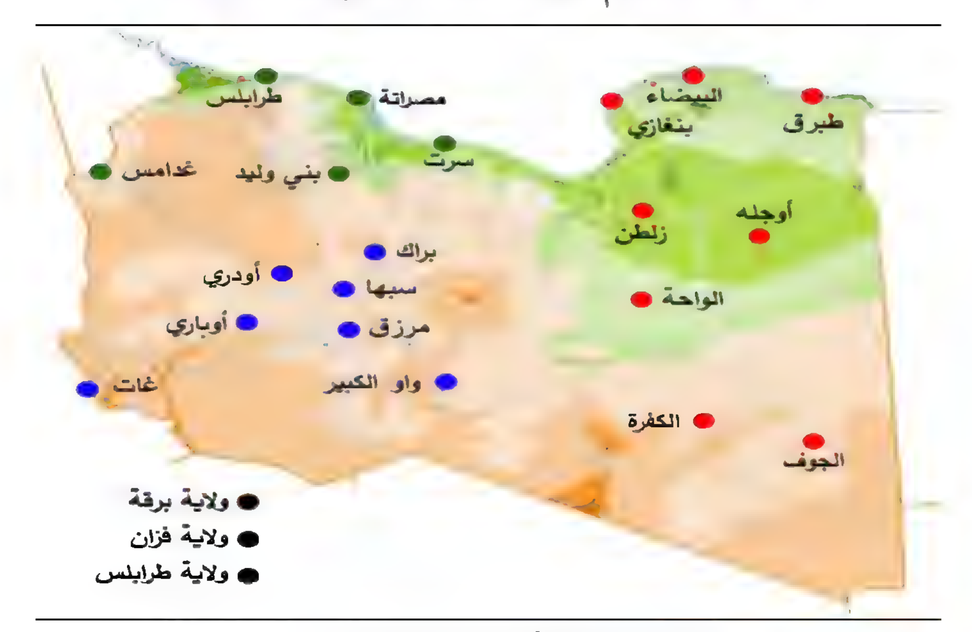
كان عند بوابة المصيف بضعة جنود بريطانيين مع كلاب حراسة، وما إن شاهدوني وأنا أهمّ بالدخول حتى سارعوا إلى منعي وشتمي وطردي وأفلتوا عليّ كلبًا. هذا اليوم، حفر حفرة عميقة في قلبي ووجداني وعقلي. إنها حفرة عميقة من المرارة والسخط، وأدركت بعمق أن ليبيا ليست ملكًا لليبيين، وأن اشتياقي إلى رؤية البحر ذهب سدى بسبب الغرباء الذين كانوا يتمتعون بالشواطئ وحدهم. وفي هذا اليوم، زادت قناعتي بأن الثورة هي الحل، وترسخت في ذهني فكرة تسريع مراحل تفجير الثورة، حيث باتت الصورة بالنسبة إلي هي ثورة تحرير قبل أن تكون ثورة اجتماعية.

---

(4) وقّعت الدولة الليبية في اليوم نفسه إعلان استقلالها، في 24 كانون الأول/ ديسمبر 1951، مع كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية من خلال ثلاث معاهدات عسكرية مؤقتة، بموجبها أصبح لتلك الدول الحق في استمرار وجود قوات عسكرية على التراب الليبي، بريطانيا في برقة وطرابلس، وفرنسا في إقليم فزان، والولايات المتحدة في قاعدة الملاحة.

إن لهذه المدينة سحرها ونكهتها الخاصة، كيف لا وقد كتب عنها المؤرخ الفرنسي جان كلود زلتنير (Jean-Claude Zeltner) كتابًا عنوانه **طرابلس: ملتقى أوروبا وبلدان وسط أفريقيا 1500–1795**، ذكر فيه أن مدينة طرابلس كانت في ذلك الوقت الأكثر غنًى ورفاهية بين مدن جنوب البحر الأبيض المتوسط وشماله، وأن هذا ليس بسبب ثرواتها، وإنما بسبب حيوية شعبها. هذه الشهادة من مؤرخ غربي زرعت الثقة في نفسي، كما عززت إيماني بعظمة الشعب الليبي، وتمنيت لو أن الشباب الليبيين يقرأون هذا الكتاب، وقد نقله إلى العربية المهندس جاد الله عزوز الطلحي[5]، وأريد أن أشكره على هذا العمل الرائع.

خريطة الأقاليم الليبية الثلاثة: طرابلس، برقة، فزان



المصدر: وحدة التصميم في المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات.

(5) جاد الله عزوز الطلحي: سياسي ودبلوماسي، شغل منصب أمين اللجنة الشعبية العامة، وهي المعادل الموضوعي لرئاسة الوزراء في ليبيا في فترتين؛ الأولى من 2 آذار/ مارس 1979 إلى 16 شباط/ فبراير 1984، والثانية من أيلول/ سبتمبر 1986 إلى 1 آذار/ مارس 1987. وقد كان له دور في الحياة الثقافية في البلاد، حيث ترجم من الفرنسية إلى العربية عددًا كبيرًا من المراجع التاريخية الغربية من بينها الكتاب الصادر عن مركز جهاد الليبيين للدراسات التاريخية بعنوان **البربر الذاكرة والهوية – أصول السكان في ليبيا – آراء غربية؛ وتاريخ الصحراء الليبية في العصور الوسطى.**

في عام 1962، حينما كنت طالبًا في إحدى مدارس طرابلس الثانوية، كان لي صديق اسمه مسعود ضوّ وكان يملك متجرًا في شارع عمر المختار بالقرب من النادي المصري. ذات يوم في صيف 1962 زرته في متجره. وبعد الغروب أغلق المتجر ودعاني إلى تناول العشاء معه حيث يسكن في منطقة عرادة. ركبنا دراجته النارية التي قادها بنفسه وكنت خلفه، وسلكنا طريق سيدي المصري؛ وبينما كنّا نسير على الدراجة النارية، مرّت بجانبنا سيارة مدنية مكشوفة يستقلها أربعة جنود أميركيين من جنود القاعدة الأميركية في الملاحة، وكانوا يتناولون الخمر في أثناء قيادتهم السيارة. حين مرّوا قربنا ضرب أحدُ الجنود صديقي مسعود بزجاجة خمر فارغة على رأسه، فأغمي عليه وفقد الوعي ونزفت الدماء من رأسه، فاصطدمت الدراجة النارية بشجرة. الأمر الطيب أنني تمكنت من التعرف على رقم السيارة. في هذه الأثناء، هبّ أحد المواطنين لنجدتنا ونقْلنا إلى المستشفى، لكنني طلبت منه أن ينقلنا أولًا إلى مركز شرطة بن غشير الذي لا يبعد كثيرًا عنّا، لتقديم شكوى ضد الجنود الأميركيين. وحين وصلنا إلى مركز الشرطة، فوجئت بأن الضابط المسؤول عن المركز يقول لي: "المعاهدة المبرمة بين أميركا وليبيا تنص على أن الجنود والضباط لا يخضعون للقوانين الليبية، بل للقوانين الأميركية"، فكان هذا الخبر المؤلم صاعقًا لي، ورسخ قناعاتي أكثر فأكثر بالعمل من أجل تفجير الثورة لتحرير ليبيا.

وفي هذا العام أيضًا، حدث في أثناء إحدى دورات معرض طرابلس الدولي، أنني كنت خارجًا من المعرض، لما وجدت في الشارع، أمام بوابة المعرض مباشرة، مجموعة من الأجانب، عرفت في ما بعد أنهم أوروبيون، كانوا يعنفون ويشتمون ويكادون يضربون بائع حليب يستخدم حماره للتجول في المدينة لبيع الحليب، وكان هذا المواطن يضرب حماره لكي يسرع. كانت هذه المجموعة تدّعي أنها "من جماعات الرفق بالحيوان". كان المواطن المسكين في وضع محرج وصعب وفي حالة رعب وخوف، ولم يعد يعرف كيف يتصرف لأنه لا يعرف لغتهم. حاولت التحدث مع هذه المجموعة لأفهم منهم ما الذي يجري، ولما عرفت القصة أخذت العصا من صاحب الحمار وبدأت بضرب الحمار وأنا أقول لهم: "أنتم تستخفون بعقولنا وبوعينا، وتدّعون أنكم

ترفقون بالحيوان وفي الوقت نفسه تقتلون الشعوب في فيتنام وفلسطين وكوريا. إن رفقكم بالحيوان يفقد أي صدقية وكأنكم تريدون أن تقولوا لنا إن الحيوان أهم من الإنسان". في النهاية، قال صاحب الحمار: "بارك الله بك يا وليدي خلصتني منهم وهم يرطنوا عليّ ولا أعرف ماذا أرد عليهم".

وأذكر أنني حينما كنت في المرحلة الثانوية، قرأت بعض مؤلفات عباس محمود العقاد، الكاتب والمفكر المصري المشهور، فأُعجبت بكتاباته، وأعترف بأنها كانت بالنسبة إلي آنذاك كالطلاسم، وكنت أقرأ كل فقرة أو فكرة مرتين أو ثلاث مرات، حتى إنّ كتاباته بدت صعبة ومعقدة مثل اسمه، وتولدت لدي قناعة أنه هو "عميد الأدب العربي" وليس طه حسين. ولما علمت أن لديه موقفًا معاديًا للمرأة، اندهشت من ذلك واعتبرت أن هذا يتناقض مع مكانته بصفته مفكرًا ومثقفًا من الطراز الأول، فقررت أن أرسل إليه رسالة رغم أنني أعرف أنها لن تصل إليه، وإن وصلت فلن يعيرها أي اهتمام. في هذه الأثناء كان معمّر يدرس في مدرسة مصراتة الثانوية، وكانت عائلة سيف النصر التي كانت تحكم ولاية فزان قد قرّرت طرد الطالب معمّر من كل مدارس ليبيا. لكن المستشار القانوني اعترض وقال للمجلس: "إن المجلس لا يملك صلاحية على الولايات الأخرى. لكن لو أنكم طردتموه من مدارس فزان فسوف لن تقبله أي مدرسة في أي ولاية، لأن أي مدرسة في الولايات الأخرى ستطلب منه شهادة حسن سيرة وسلوك". ولكي يتمكن معمّر من استكمال دراسته، كان عليه أن يحصل على شهادة براءة من ولاية فزان؛ وبما أنه مطرود من مدارس الولاية، فإنه لن يتمكن من الحصول على شهادة البراءة. ولكن لحسن الحظ، كان على رأس إدارة البصمات أخي عمر، فقام بتزوير شهادة حسن سيرة وسلوك، ولذا تمكّن معمّر من مواصلة دراسته الثانوية بولاية طرابلس في مدرسة مصراتة الثانوية. تلقى معمّر مساعدة من بعض أعضاء الحركة في المدينة، من بينهم محمد خليل، وسالم والي وغيرهما. كان الأخ معمّر يأتي لزيارتنا في طرابلس كل يوم خميس، ثم يعود مساء الجمعة، وكنّا نمضي عطلة الأسبوع معًا. كان يعيش وينام في منزلنا في زنقة أبو وذينة بشارع بن عاشور كأنه من أفراد الأسرة. في خريف هذا العام، وفي أحد أيام الجمعة، وبينما كنّا نتناول طعام الغداء - وعادة

ما يكون ذلك في وقتٍ متأخر - وكان وجبة شعبية تسمى "البازين"[6]، ارتفع أذان العصر، فتوقف معمّر عن تناول الطعام قائلًا: "أريد أن أصلي". فغضب أخي عمر وقال له: "هذا ليس إسلامًا. في إمكانك أن تصلي العصر إلى ما قبل المغرب"، ثم قال له: "يا معمّر أنت تدّعي أنك ملاك ولكن أنا خائف يومًا أن تطلع لنا شيطانًا (أي تظهر على حقيقتك)". كنّا في عام 1959، قد أسّسنا تنظيم حركة الوحدويين الأحرار. وفي عام 1960، اختار التنظيم لجنة مركزية سُميت اللجنة المركزية لحركة الوحدويين الأحرار برئاسة الأخ معمّر القذافي وعضوية كلٍّ من عبد السلام جلود، محمد الزوي، سالم الطاهر الحضيري، إمحمد الحضيري، محمد خليل، سالم والي، عمر المحيشي، إبراهيم أبجاد، الهادي فضل. في عام 1963، اقترح الأخ معمّر أن يتوجه أعضاء الحركة إلى الكلية العسكرية، متخلّيًا عن أساس الحركة - عام 1959 - وهو التوجه إلى الجامعات والمعاهد العليا لتفجير ثورة شعبية تطيح النظام الملكي العميل، كما أنها تقوم على أساس التجذّر في الشعب لإحداث التغيير. كانت الحركة تقوم على أساس الصرامة في اختيار الأعضاء من حيث الالتزام والسلوك وحسن الأخلاق والاستعداد التام للتضحية، وأن تتوافر في العنصر المواصفات الثورية والاجتماعية والأخلاقية "الملائكية".

لكن - للأسف - تمّ التخلي عن هذه الضوابط، حينما طرح معمّر فكرة "عسكرة الحركة"؛ ففي عام 1963، فاجأ الأخ معمّر الجميع، بأن طرح فكرة تحوّل الحركة من "حركة مدنية" إلى "حركة عسكرية"، وقال حرفيًّا: "نحن حينما نتوجه إلى الكلية العسكرية؛ فإننا لا نفعل ذلك لنصبح جنرالات، بل لكي يكون لدينا سلاح لتفجير الثورة وتحرير ليبيا، لأن ليبيا مستعمَرة بالقواعد الأميركية والإنكليزية وبوجود جالية إيطالية استيطانية كبيرة، تسيطر على الاقتصاد الليبي، إضافة إلى أن ليبيا ثلاث عواصم، وثلاثة جيوش وقوات متحركة في كل ولاية، وإن عملية تفجير ثورة من الجامعات والمعاهد هي شيء نظري وغير مضمون النتائج".

---

(6) طبق ليبي معروف أيضًا في تونس. يتكون من دقيق القمح وأحيانًا دقيق الشعير ولحم الخروف والمرق. وهو أحد الأطباق التقليدية التي يجري تحضيرها في الأعراس.

طرح معمّر على اللجنة المركزية قرار تحويل الحركة إلى حركة عسكرية، بحيث يتوجه كل أعضاء الحركة إلى الانتساب إلى الجيش الليبي[7]، ويكون هذا القرار قرارًا ملزمًا للجميع، ومَن لا يلتزم به يُطرد من الحركة تلقائيًا. عُرض القرار للتصويت داخل اللجنة المركزية، فحصل الأخ معمّر على 7 أصوات مؤيدة و5 أصوات ضد القرار، فقلت للأخ معمّر: "إن الفكرة التي التقينا عليها، سنة 1959 حينما أسّسنا حركة الوحدويين الأحرار، هي التوجه إلى الجامعات والكليات والمعاهد العليا، وإحداث ثورة شعبية تطيح النظام الملكي العميل، وتتجذّر في الشعب، وتقوم على أسس أيديولوجية وفكرية تعتمد على الشعب وأن يكون الطلبة والشباب عمومًا هم محرّك هذه الثورة، وأن تقوم الحركة على أسس أيديولوجية وعقائدية وتنظيمية، كما تقوم على الصرامة في اختيار الأعضاء من حيث الالتزام والمسلك والأخلاق وعلى الاستعداد للتضحية، وأن تتوافر في العضو مواصفات ثورية".

عارضت هذا الأمر بإصرارٍ وعنادٍ شديدين. لقد قاومت هذا التوجه، ولكن - للأسف - حصل هذا التوجه على موافقة أغلبية الأصوات؛ فأعلنت: "إنني في الوقت الذي أحترم فيه هذا القرار لكنني لن أطبقه على نفسي"، ثم قلت: "سأهتم بالتنظيم المدني". حاول الأخ معمّر إقناعي بتغيير موقفي، ولكن بلا جدوى. لقد كانت ثقافتي ضد عسكرة الحركة، فقد تشبعت بثقافة الجماهير الشعبية. ظل معمّر مُصرًّا على دخولي الكلية العسكرية قائلًا: "من الضروري أن نذهب معًا إلى الكلية العسكرية لكي نتعاون على ضمّ أكبر عددٍ ممكن من الطلبة العسكريين إلى الحركة".

وهكذا صدر عن قيادة الحركة في أجواء هذا النقاش المتواصل القرار التالي، وقد التزمت به:

(7) أنشأ الملك إدريس الأول السنوسي الجيش الليبي بموجب مرسوم بتاريخ 16 كانون الثاني/ يناير 1956، وتكون الخدمة فيه عن طريق التطوع. وتم بموجب هذا المرسوم تأسيس حرس ملكي، وتسري عليه الأحكام الواردة في قانون تأسيس الجيش.

1 - يجب على كل أعضاء الحركة الانتساب إلى الكلية العسكرية[8].

2 - على أعضاء الحركة الذين يتم قبولهم في الكلية العسكرية أن يعملوا من أجل ضمّ أكبر عدد ممكن من طلبة الكلية.

لذا، حصل انحرافان خطيران في مسار الحركة: الأول، "عسكرة الحركة"؛ والثاني، التخلّي عن المواصفات والشروط الصارمة لضمّ أو قبول أيّ عضو جديد، نظرًا إلى أن معظم أعضاء الحركة من المدنيين لم يتمكنوا من الانتساب إلى الكلية العسكرية لأسباب كثيرة، وأهمها الأسباب الصحية.

كان الأخ معمّر يدرس في ثانوية مصراتة، بينما كنت أدرس في إحدى ثانويات طرابلس حينما رفضت تطبيق قرار عسكرة الحركة، وركزت على الاهتمام بالتنظيم المدني للحركة، كنت في هذا الوقت قد فشلت في التوصل إلى أي اتفاق مع الأخ معمّر. ظل معمّر يحاول معي بلا كلل أو ملل وهو يقول لي: "أنت تفتقر إلى المرونة السياسية. أنت مثالي". وكنت أردّ عليه بالقول: "الموضوع موضوع ثقافة وقناعة. الفكرة التي التقينا عليها هي الذهاب إلى الجامعات والكليات والمعاهد العليا، والعمل داخل أوساط الطلبة لإحداث ثورة شعبية، هذه ثقافتي ولا أستطيع تغييرها". ومع كل ذلك، ظل معمّر يلحّ عليّ. ولمّا اقترب موعد تقديم طلبات الانتساب إلى الكلية العسكرية، بعث إلي برسالة يطالبني فيها بضرورة أن نذهب معًا إلى الكلية العسكرية، لنتعاون على ضمّ أكبر عددٍ ممكن من الطلبة إلى الحركة. ثم زارني في طرابلس، وحاول إقناعي، لكننا لم نتوصل إلى أي اتفاق، وتركنا الباب مفتوحًا من دون حسم. ولمّا تحدّد موعد تقديم طلبات الانتساب إلى الكلية العسكرية، وكان ذلك يوم الأربعاء في تموز/ يوليو

(8) الكلية العسكرية الملكية: جرى إنشاؤها بموجب مرسوم من الملك إدريس الأول السنوسي، في 22 حزيران/ يونيو 1957، على نحو تكون فيه تابعة لوزارة الدفاع التي كان يرأسها الصديق المنتصر (1912-1979) في حكومة عبدالمجيد كعبار (1957-1960)، والغاية منها، كما جاء في المادة الأولى من المرسوم، تخريج ضباط للجيش الليبي، حيث كان معظم الطلبة العسكريين الليبيين يدرس العلوم العسكرية في كل من مصر والعراق.

1964، وهو آخر موعد لتقديم الطلبات، جاء الأخ معمّر من مصراتة[9] إلى طرابلس.

وحوالى الساعة الحادية عشرة صباحًا، كنت كعادتي في مقهى الخضراء ألعب لعبة "طاولة الزهر". في هذه الأثناء وقف الأخ معمّر قربي. بعد أن حيّاني قال لي: "هل أعددت أوراقك؟" فقلت: "لا"، فغضب وطلب مني أن نذهب على عجل لإعداد الأوراق المطلوبة. وأذكر أننا ذهبنا إلى إدارة المباحث، وكان على رأسها العقيد خالد غريبة، فاستخرجنا ورقة "الخلو من السوابق"، ثم ذهبنا يوم الخميس إلى معسكر العزيزيّة لأقدم أوراقي. ويوم السبت ذهبت أنا ومعمّر لإجراء الفحص الطبي.

وحدث أن الأطباء، وهم من الصين الوطنية، كانوا في حالة إعياء وتعب شديدين. بعد أن فحصني الطبيب قال لي: "يوجد ثقب في طبلة الأذن". وهكذا فشلت في اجتياز الاختبار الطبي. كان الأخ معمّر ينتظرني خارج المستشفى، فسألني: "هل اجتزت الفحص؟"، فقلت له: "الحمد لله، فحتى صحّيًا أنا غير لائق للانتساب إلى الكلية العسكرية". وقبل أن أنهي كلامي، ذهب مسرعًا لمقابلة رئيس اللجنة، وكانت برئاسة حسن السنوسي، وهو عقيد ركن كان نموذجًا في العلم العسكري وفي سموّ الأخلاق، وقال له: "أرجوك أن تعطي هذا الطالب فرصة، لأنه طالب ذكي ومتميّز ولديه عقل منظم، وحرام أن تخسره المؤسسة العسكرية"، فوافق حسن السنوسي على منحي فرصة إعادة الفحص الطبي، وأنا لم أجد سببًا لإعطائي فرصة ثانية غير الإرادة الإلهية.

أما بالنسبة إلى محمد الزوي الذي نجح في الفحص الطبي، فقد واجه معارضة شديدة من خاله محمد عثمان[10] الذي كان رئيسًا للوزراء،

(9) مصراتة: تقع بالشمال الغربي لليبيا، على بعد 210 كيلومترات من العاصمة طرابلس في اتجاه الغرب، وتعتبر ثالث أكبر التجمعات السكنية الليبية كثافة بعد مدينتَي طرابلس وبنغازي، وتعتبر العاصمة الاقتصادية والتجارية للبلاد نظرًا إلى نشاط حركة الموانئ وازدهار الصناعة والتجارة.

(10) محمد عثمان الصيد: ويعرف باسم محمد بن عثمان تولى منصب رئيس وزراء ليبيا (1960–1963).

ومن أخيه يوسف الذي كان يعمل مديرًا لمكتب ولي العهد. لقد مارسَا عليه تأثيرًا كبيرًا، فاضطر إلى السفر إلى القاهرة لدراسة الحقوق، وقد زرته في منزله عدة مرات، في محاولة لإقناعه والضغط عليه، لكن ضغط أسرته كان أقوى. وكان من نتيجة هذا الوضع أنّ التنظيم المدني أصبح ضعيفًا لصالح التنظيم العسكري، وحلّت حركة الضباط الوحدويين الأحرار محلّ حركة الوحدويين الأحرار المدنية، وكان من بين الذين انتسبوا إلى الكلية العسكرية الأخ معمّر، وعمر المحيشي، ويوسف الدبري، ومفتاح إسبيع، وعبدالكبير الشريف.وأتذكر أنّ عبدالرحمن الصيد لم يتمكن من اجتياز الاختبار في الفحص الطبي؛ نظرًا إلى اكتشاف الأطباء وجود خلل في عمل القلب وتزايد نبضاته. في هذا الوقت، قرر محمد الزوي تحت ضغط عائلته السفر إلى القاهرة، فذهبت بنفسي للقائه وثنيه عن الرضوخ لضغوط العائلة، وأن يتوجه بدلًا من ذلك إلى الكلية العسكرية، لكنني اكتشفت خلال حواري معه أنه مرغم على السفر، وأنه يرفض الإذعان لقرار الحركة. ولذا، جرى فصله من الحركة.

ثم ذهبت إلى لقاء عبدالرحمن الصيد بعد فشله في الاختبار الصحي، لأننا قررنا أن نعمل بكل ما هو ممكن لضمان نجاحه في اختبار السنة التالية. قدّم عبدالرحمن الصيد أوراقه من جديد للكلية العسكرية، وقبل موعد الفحص الطبي، فذهبت مع الأخ إبراهيم أبجاد إلى طبيب مصري كانت لديه عيادة في حي الظهرة بطرابلس. وصفنا للطبيب المصري حال عبدالرحمن الصيد الصحية، فأعطانا دواء (كبسولات) قائلًا: "يجب أن يتناول صاحبكم حبتين قبل الفحص، بساعة أو ساعتين". وبالفعل، تناول عبدالرحمن الدواء وتقدّم للفحص الطبي واجتاز الاختبار بنجاح وتمكّن من الانتساب إلى الكلية العسكرية. في هذه الأثناء علمنا أن عمر المحيشي بدأ في مقاومة فكرة الدخول إلى الكلية العسكرية تحت ضغط عائلته، وأنه بدأ يميل أكثر فأكثر إلى العمل ضمن "التيار المدني". وكان علينا أن نمارس ضغطًا مضادًّا بلا توقف حتى يوافق المحيشي على تنفيذ قرار الحركة بالانتساب إلى الكلية العسكرية. بعد جهد شاق، أذعن المحيشي للقرار وتقبّل على مضض فكرة تقديم أوراقه إلى

الكلية العسكرية، خاصة أنه من أسرة غنية، وعادة ما ترغب الأسر الغنية في رؤية أبنائها مهندسين وأطباء ومحامين.

حينما أصبحت من طلبة الكلية العسكرية، تمكنت من اجتياز امتحان الصف المستجد إلى الصف المتقدم، وكان ترتيبي بين الطلبة هو الخامس، ولذلك حملت رتبة "أقدم نائب عريف"، وكنت مسؤولًا عما يُدعى بالمصطلح العسكري "حظيرة طلبة". وبما أننا كنّا نعيش في عنبر كبير يضمّ حظيرتين، فقد أصبحت عمليًا مسؤولًا عنهما، أي عن مجموعة من الطلبة العسكريين، من بينهم الأخ معمّر والأخ أبو بكر جابر يونس[11]. واكتشفت أننا في الحظيرتين نمثل في الواقع مجموعتين مختلفتين في الطباع والاهتمامات.

كانت لوائح الكلية وقوانينها تمنع على الطلبة اقتناء مذياع، ولأنني أنا والأخ معمّر لم نكن نستطيع العيش بلا مذياع، فقد كان لدينا مذياع خاص بنا وكنّا مدمنين سماع إذاعة **صوت العرب**[12]، وخاصة أحمد سعيد وجلال معوض، وخطابات الرئيس عبد الناصر. لقد وجدتني أمام مفارقة محرجة؛ فالمجموعة الثانية كانت تمتلك مذياعًا أيضًا، وكانت تستخدمه طوال الوقت للاستماع إلى الأغاني الغربية الراقصة، وكان بينهم خليفة التكبالي (1938-1968)، وهو مثقف يساري سبق له أن عاش في ألمانيا، وكان يكتب القصص القصيرة، ومعه شخص آخر يدعى محمد بن طاهر؛ فإذا ما سمحت لنفسي والأخ معمّر بامتلاك مذياع، ففي هذه الحالة يجب أن أسمح لبقية الطلبة بالحق نفسه، أو أن أقوم بمنعه عن الجميع. احتجّ الأخ معمّر لأن المجموعة الثانية كانت تستمع إلى موسيقى غربية صاخبة وترقص على أنغامها، فقال لي: "يجب أن تصادر المذياع

(11) أبو بكر جابر يونس: أحد الضباط الأحرار الذين شاركوا في ثورة الفاتح، وجرت ترقيته في كانون الثاني/ يناير 1970 إلى رتبة مقدم ثم عين رئيسًا لقيادة الأركان. قضى في عملية قصف طائرات الناتو لمدينة سرت برفقة معمر القذافي في 20 تشرين الأول/ أكتوبر 2011.

(12) **إذاعة صوت العرب**: هي إذاعة مصرية كانت تبث من القاهرة، تأسست في 4 تموز/ يوليو 1953، وقد ذاع صيتها لأنها كانت تنقل إلى الجماهير العربية خطابات الرئيس جمال عبد الناصر ومواقفه السياسية المؤيدة للقضية الفلسطينية والوحدة العربية ومقاومة الاستعمار الأجنبي، والتي كان لها بالغ التأثير في الرأي العام العربي.

منهم وتعاقب هذين الطالبين"، فرفضت وقلت له: "أخ معمّر أنا أعرف عملي جيدًا. هذان الطالبان لديهما مشكلات إدارية ولا أريد أن أتسبّب في طردهما، ولأن وجود مذياع محرّم على الجميع، ففي هذه الحالة يجب ألا يكون لدينا أنت وأنا مذياع؛ وهكذا، فإمّا أن نطبق القانون على الجميع أو لا". لكن الأخ معمّر نهض من مكانه وذهب مسرعًا للقاء ضابط الخفر، وهو في رتبة نقيب واسمه إسماعيل الصديق، قائلًا له: "نائب العريف عبد السلام لا يسيطر على الطلبة، وهناك مجموعة من الطلبة لديها مذياع تسمع فيه أغاني غربية راقصة". وبسبب هذه الشكوى التي تقدّم بها الأخ معمّر ضدي، تلقيت عقوبة بحرماني من مغادرة الكلية طوال أربعة أسابيع متتالية، مع "ست ساعات 'تذنيب' (أي عقوبة)"، وخصم 28 درجة من "علامات السلوك"، وهكذا أيضًا فقدت ترتيبي المتميز وأصبحت في المرتبة الثامنة. ونتيجة لتعرضي لعقوبات مُتكررة، تآكلت درجات سلوكي التي هي من ضمن المجموع؛ ولذا تخرجت في الكلية وترتيبي هو الثامن[13]. تسبب هذا في تدهور علاقتنا، أنا والأخ معمّر، مع خليفة التكبالي، ولكن بعد وقت قصير سعى التكبالي إلى إصلاح العلاقة معنا، وهذا ما جرى بالفعل. كان للتكبالي أخ يشغل منصب سكرتير عام مجلس النواب مقرّه في البيضاء[14]، بينما كانت عائلته تقيم في بنغازي، وقد دعانا إلى تناول طعام الغداء معه في منزل شقيقه، وكانت مائدة فيها كل ما لذّ وطاب وكنّا أحوج ما نكون إليها.

على الغداء تبادلنا شتى الأحاديث، فقال التكبالي: "أنا أكنّ لكما احترامًا شديدًا"، ثم أردف قائلًا: "لا أعرف ماذا يدور في رأسيكما أو ماذا تخططان؛ لكنني أشعر أنكما ستؤديان دورًا مهمًا، وسيكون لكما شأن عظيم". في الواقع

(13) أصدر الملك إدريس السنوسي مرسومًا ملكيًا بتعيين ضباط الجيش الليبي برتبة ملازم ثانٍ، في 8 آب/ أغسطس 1965، وكان قد وقّع على المرسوم وزير الدفاع آنذاك عبد السلام بسكيري، وضمّت القائمة عددًا من النواة الأولى لحركة الضباط الأحرار الليبيين على رأسهم معمّر القذافي وعبد السلام جلود.

(14) مدينة البيضاء: واحدة من المدن الرئيسة التي تقع في شمال شرق ليبيا أعلى قمة الجبل الأخضر، وتعدّ ثانية كبرى المدن في المنطقة الشرقية، بعد بنغازي.

انتابتنا الأخ معمّر وأنا مخاوف وهواجس من حديثه هذا، لكن الأيام برهنت لنا أنه كان رجلًا وطنيًا ومثقفًا حقًّا، فقد احتفظ بهذا السرّ لنفسه ولم يبح به لأحد.

في عام 1966، حصلت على منحة دراسية في الولايات المتحدة الأميركية، وأذكر أنني حين وصلت إلى قاعدة فورت هاملتون في نيويورك، علمت أنه يوم عيد الشكر.

في اليوم التالي لوصولي، سارعت إلى قراءة لوحة الإعلانات في القاعدة، وعلمت أن عليّ أن أذهب إلى مدينة سان أنطونيو في تكساس، فخفت ألّا أتمكن من مشاهدة مدينة نيويورك التي أبهرتني؛ ولذا قررت ألّا أنفذ الأمر، وبقيت في مدينة نيويورك مدة أسبوعين، وأذكر أنني نزلت في فندق مؤلف من تسعة طوابق في شارع 43، وبعد دراسة اللغة الإنكليزية انتقلت إلى ولاية فرجينيا بمنطقة فورث بولفوار، وقد تعرفت على طالب أميركي اسمه "تور" كان حائزًا شهادة الدكتوراه في طبقات الأرض (الجيولوجيا)، وقد جاء إلى مدرسة الهندسة لأداء الخدمة الوطنية، واكتشفت أنه كان ضد الحرب في فيتنام، فأصبحنا صديقين. كنّا نذهب دائمًا، أنا وتور في عطلة نهاية الأسبوع إلى مدينة واشنطن، وكان دائمًا يقول لي: "جلود بلدك ليس في حاجة إلى جنرالات، إنه في حاجة إلى أطباء ومهندسين". أحيانًا كنت أشعر بالريبة والخوف وأنا أستمع إليه، فأقول لنفسي: "أيقول تور هذا الكلام عن قناعة، أم هو شخص يعمل مع المخابرات؟".

كانت المدرسة التي درسنا فيها غالبًا ما تنظّم للطلبة الأجانب زيارات لبعض الجامعات. وفي إحدى هذه الزيارات التقيت ببعض الأساتذة. كان بعضهم يقول لي بطريقة استفزازية: "عندكم في الإسلام لكي تكون مسلمًا عليك أن تتزوج بأربع نساء؟". وكعادتي في الحوارات التي أخوضها، فقد كنت أستخدم أسلوب الهجوم، ولذا رددت على بعض هؤلاء: "وأنتم، يمكن لأي واحد منكم أن تكون لديه عدة صديقات"، ثم أضفت: "ليس من شروط الإسلام أن يتزوج المسلم بأربع نساء؛ لكنها رخصة محددة بشروط صعبة من بينها أن يكون الرجل عادلًا مع النساء"، ثم استطردت قائلًا: "الإسلام دين الحرية. إذا ما قررت المرأة

ألا تكون هي الزوجة الثانية فلن يكون هناك تعدد للزوجات، وقد حصل ذلك، فهذا ممكن، وقد حصل مرارًا وذلك مع ارتفاع مستوى الوعي عند النساء. لقد رفضن فكرة الزوجة الثانية، وكذلك الكثير من الرجال أصبحوا أكثر إيمانًا بفكرة الزواج بامرأة واحدة وخاصة في المدن". ولم يكن هذا الجواب بالنسبة إليهم متوقعًا. ثم قلت لهم: "المسلم مسلم حتى إن عزف عن الزواج".

التحضير للثورة

في هذا الوقت، كنّا نستغل العُطَل والأعياد الدينية لعقد الاجتماعات، وكنّا نُظهر الأمر على أساس أننا شبانٌ نحب رحلات التنزّه والاستمتاع بالطبيعة. وبالطبع، غالبًا ما كان هذا يثير انزعاج عائلاتنا وغضبها، لأننا لم نكن نقضي معها أيام الأعياد. كان يجري عقد معظم اجتماعات الضباط الوحدويين الأحرار في شقتي بمنطقة زاوية الدهماني في طرابلس، وأحيانًا في منزل الطاهر المحيشي، شقيق عمر المحيشي، الكائن في منطقة جنان النوار في شارع مزران في طرابلس. كان الطاهر يساريًا، وشغل منصب وكيل وزارة العمل والشؤون الاجتماعية، وكان كثير السفر؛ ولذا استغل عمر منزل شقيقه لعقد اجتماعاتنا. وذات يوم فاجأنا مصطفى الخروبي[15] بأن طلب منّا عدم الاجتماع في شقتي لأنها أصبحت "تحت رقابة الأمن والمخابرات"، بيد أننا اعتبرنا ذلك نوعًا من المبالغة في الحذر. وكان مصطفى كعادته حذرًا، ثم تأكدنا بعد انتصار الثورة أنه كان على حق، وأن شقتي كانت تحت رقابة صارمة. وبعد الثورة، قدّمت المجموعة المكلفة بمراقبة شقتي تقريرًا تسرد فيه التفصيلات كلها. وخلال اجتماع في منزل طاهر المحيشي، شقيق عمر، في تشرين الثاني/ نوفمبر 1968، تدارسنا اقتراحات متعلقة بـ"موعد تفجير الثورة". وكان هناك رأيان، أحدهما تبنّاه بعض الضباط، وهو يقضي بتأجيل موعد الثورة "خمس سنوات"، بينما تبنّيت أنا وعمر المحيشي رأيًا آخر يقضي بأن نقوم بتفجير

---

(15) مصطفى الخروبي (1939-2015): ضابط ليبي، شارك في تأسيس "حركة الضباط الوحدويين الأحرار".

الثورة بعد ستة أشهر. أمّا الأخ معمّر، فلم يوافق على الرأيين، وقال في نهاية الاجتماع: "لست مع هذا الرأي ولا مع ذاك". وهكذا أخفقنا في تحديد موعد الثورة. ثم عقدنا اجتماعًا في مزرعة المهدي العربي، في آذار/ مارس 1969، وكان النقاش ساخنًا والحوار محتدمًا ومنفعلًا. بدا التوتر على الجميع؛ ولذا انتهى الاجتماع بآراء ومواقف مختلفة، وانفضّ صاخبًا من دون التوصل إلى أي قرارات. ثم حددنا عدة مواعيد للقيام بالثورة في عام 1969. وكان الموعد الأول للثورة هو استغلال مناسبة إقامة حفل غنائي لأم كلثوم في طرابلس كان مبرمجًا في 12 آذار/ مارس 1969، حيث سيكون معظم المسؤولين الكبار، الوزراء وضباط الجيش والشرطة، ووجود كل هؤلاء في مكان واحد يسهل لنا عملية اعتقالهم. بيد أن وجود عدد غفير من المواطنين في الحفل حملنا على التراجع عن الفكرة في آخر لحظة. لقد خشينا من وقوع خسائر جسيمة في صفوف المواطنين، فضلًا عن ترويعهم. ثم حددنا موعدًا آخر. كان الموعد الجديد يتزامن مع أداء الضباط في الجيش لامتحانات الترقية. ونتيجة للاتفاق على هذا الموعد، قرر معظم الضباط الأحرار عدم التقدم للامتحان، لكننا اكتشفنا أن بعض الوحدات العسكرية في المنطقة الشرقية لم تكن جاهزة، حيث أبلغ أولئك الضباط الأخ معمّر أنهم ليسوا جاهزين للسيطرة على هذه الوحدات وتحريكها، إما لأسباب عملية وأما لأسباب أمنية أو لوجستية، لأن ذلك كان يتطلب اعتقال الضباط الكبار في هذه الوحدات، لكي يتمكنوا من السيطرة عليها وتحريكها وتنفيذ الخطة، وخاصة وحدات درنة[16] والأبيار[17] في المنطقة الشرقية. ولأسباب أمنية ولوجستية، قررنا تأجيل الموعد؛ وذلك ما أصاب الضباط الأحرار بالإحباط والغضب، حتى بلغ الأمر عند بعضهم درجة التمرد احتجاجًا على تأجيل موعد الثورة، وحرمانهم من الترقية.

---

(16) تقع مدينة درنة على ساحل البحر المتوسط في شمال شرق ليبيا، وتبعد نحو 1300 كيلومتر شرق العاصمة طرابلس.

(17) الأبيار: تقع شرق مدينة بنغازي، حيث تبعد عنها نحو 60 كيلومترًا، وجنوب شرق مدينة المرج التي تبعد عنها نحو 38 كيلومترًا. سميت بهذا الاسم لكثرة الآبار فيها، وهي ذات موقع استراتيجي حيث تقع شمالها غابات وأراض خصبة صالحة للزراعة.

بدأ النظام الملكي العميل يكتشف التنظيم، فشرع في مراقبتنا، واتخذت قيادة الجيش سلسلة من الإجراءات، منها مثلًا قيام كتيبتين مدرعتين بقيادة العقيد عبد الله البنغازي، قائد سلاح الدروع، باحتلال معسكري، كما أنهم سحبوا الذخيرة والوقود، ومنعوني أنا ومعمّر من دخول المعسكرات، كما أنهم أمروا باعتقالنا، وكذلك كانت كتيبة عمر المختار، وهي أهم كتيبة نعتمد عليها في طرابلس، حيث كان لنا فيها ثلاثة عشر ضابطًا من الضباط الأحرار، تم نقلها إلى سبها على مبعدة أكثر من ألف كيلومتر، وأعطوا منتسبي الكتيبة إجازات، وطلبوا منهم الالتحاق فرديًا والتجمع فرادى في سبها خوفًا من أن يؤدي انتقال الكتيبة كلها إلى سقوطها في أيدينا. وقد أدت المخابرات العسكرية في الجيش دورًا مهمًا في كشف التنظيم؛ فهي تتولى مهمة تأمين الجيش، ومنع قيام تنظيمات ثورية داخله، والتجسس، ومراقبة الضباط الذين تظهر عليهم علامات وممارسات لاختراق الجيش وتأسيس تنظيمات مناوئة للنظام. كما أصدرت رئاسة أركان الجيش قرارًا يقضي بمنعي أنا والأخ معمّر من دخول معسكرات الجيش. وفي أحد الأيام، زرت مقر كتيبة عمر المختار في معسكر الهضبة في طرابلس، وكنّا نعتمد على هذه الكتيبة في تفجير الثورة، نظرًا إلى موقعها الاستراتيجي؛ فهي تقع قرب العاصمة، ولأن لنا فيها ثلاثة عشر ضابطًا من الضباط الأحرار. وبينما كنت جالسًا في بهو مقر الكتيبة، فوجئت بدخول آمر الكتيبة العقيد حسين الشريف، فانفجر في وجهي غاضبًا وقال لي: "يا حيوان، يا صاحب الوجه الأملق. ماذا تفعل هنا؟ أخرج. هذه آخر مرة أرى فيها وجهك في هذا المعسكر". كما أصدرت رئاسة الأركان أمرًا باعتقالي أنا والأخ معمّر.

وبينما كنت في كتيبتي، كتيبة الهندسة في باب العزيزية، جاء حينها الرائد هامان من المخابرات العسكرية وألقى القبض عليّ، وزج بي داخل سيارة "لاندروفر" ذات ستائر سوداء. أخذني إلى رئاسة الأركان في باب العزيزية، ثم تركني عدة ساعات داخل غرفة مظلمة، فسيطر عليّ نوع من الخوف، وكان همّي هو "كيف سأحتمل التعذيب"، وألّا أدلي بأيّ معلومة عن الحركة. ثم عاد الرائد هامان وأخذني لمقابلة رئيس الأركان شمس الدين السنوسي. وما إن دخلت إلى

مكتبه حتى بادرني بالقول: "أنت ملازم. اسمك مكتوب بالرصاص[18]، ولكنك تتحدث في السياسة وتنتقد النظام". لم أرد على كلام رئيس الأركان. بعد أن وبخني وحذرني عدت إلى معسكري. علمنا في ما بعد أن الملك لا يريد لقدسيته وهيبته أن تُخدشا من جرّاء اعتقال ضباط صغار كانوا يفكرون في التمرّد عليه، ويُعرف عن الملك بأنه شخصية تتسم بالعناد والتمسك بقراراته الشخصية؛ ولذا رفض عملية الاعتقال لأنها سوف تسيء إلى صورته وقدسية عرشه، أو التشكيك في شرعية ملكه، كما أن الإعلان عن وجود محاولة "تمرّد" أو وجود تنظيم عسكري يحضّر لثورة سوف يحرك المياه الراكدة في ليبيا؛ ولذا اختار الملك طريقة ناعمة وهادئة للتخلص من ضباط الحركة.

كان الملك، وحاشيته وأعوانه، يعتقدون أن هؤلاء الضباط الصغار يحتاجون إلى ست أو ثماني سنوات ليصبحوا آمري كتائب وقادرين على تفجير ثورة، وهذه مدة كافية للتخلص منهم، ثم إنّ الجيش يتحرك بأوامر عسكرية عليا لا بقرارات ثورية من ضباط صغار. هذا هو التفكير السائد عام 1969، ليس في ليبيا وحدها، بل هذا هو التفكير التقليدي في العالم كله؛ ولذا أعطوا أمرًا بعدم اعتقالنا. كان العقيد عون إشقيفة، مدير العمليات، هو الذي وقّع على رسائل الاعتقال، وحينما جاء الأمر بعدم تنفيذ القرار، مزّق الرسائل وقال غاضبًا: "خلّو الفروخ (أي الأولاد) يعملوا ما يريدون". وبالفعل؛ حتى مطلع عام 1969، كان الجيش يتحرك بقرار من الجنرالات الكبار في أيّ عملية عسكرية لإطاحة الأنظمة، وسواء كان النظام العميل في ليبيا أو في أي بلد من بلدان العالم، فإنّ الضباط الكبار هم القادرون على تحريك الجيش.

لكن بعد ثورة الفاتح من سبتمبر 1969، أصبح الضباط الصغار الذين أسسوا وبنوا "حركة ثورية" أو أي تنظيم آخر هم الذين يمكن أن يحركوا الجيش بأوامر ثورية، وليس بالأوامر العسكرية العليا.

---

(18) "اسمك مكتوب بالرصاص": مصطلح عسكري استخدم في وصف الضباط الجدد الذين لم يمض وقت طويل على خدمتهم.

في عام 1968، أبرم النظام الملكي العميل مع بريطانيا صفقة بشأن الدفاع الجوي، فقرّر النظام تفريغ الجيش من حركة الضباط الأحرار، وذلك بإرسال أكبر عدد ممكن من ضباطنا إلى بريطانيا في عملية "إنهاء" للحركة. كان من بين شروط إرسال الضباط إلى بريطانيا للتدريب اجتياز امتحان اللغة الإنكليزية؛ فأصدرنا أمرًا لضباط الحركة أن يتعمّدوا الرسوب في الامتحان بأنْ يجيبوا عن الأسئلة بطريقة خاطئة. ومع ذلك تمكن النظام من إرسال بعض ضباطنا حتى ليلة الثورة. وفي ليلة الفاتح كان هؤلاء الضباط يستعدون للسفر في الصباح الباكر إلى بريطانيا، فتظاهرنا بتوديعهم، ولكنهم، بدلًا من أن يذهبوا إلى المطار، ذهبوا لتنفيذ مهماتهم الثورية. قبل أشهر من الإعداد لتفجير الثورة، بدأنا حملة لتهيئة المناخ الثوري في الشارع الليبي، وبدأنا بطباعة المنشورات التي تهاجم النظام وتدعو إلى الثورة عليه، وتوزيعها ليلًا في الأماكن العامة.

في هذه الأوقات، كنت والأخ معمّر نُجري اتصالات مع بعض الرموز الوطنية في طرابلس وبنغازي، وقد تمكنّا بمساعدة الأخ نوري نجم، شقيق الأخ محمد نجم، من ترتيب لقاء مع الأخ محمد بشير المغيربي ومصطفى بن عامر، وهما شخصيتان وطنيتان بارزتان في جمعية عمر المختار[19]، وعرضنا عليهما التعاون معنا في عملية إحماء الشارع وتهيئته للثورة بواسطة المنشورات وببعض العمليات الفدائية، مثل زرع العبوات في معسكرات الإنكليز وفي بعض

(19) جمعية عمر المختار: شهدت فترة الإدارة العسكرية البريطانية في ليبيا (1942-1952) تكوين عدد من الجمعيات والأحزاب السياسية في برقة وطرابلس، منها هذه الجمعية التي تعود فكرة تأسيسها إلى المثقف الليبي أسعد بن عرابي بن عمراني عام 1941، وذلك لتخليد ذكرى عمر المختار، والعمل تحت لوائها. وأعيد بعد الاحتلال البريطاني تأسيس الجمعية في 4 نيسان/ أبريل 1943 على يد كل من علي فلاق الأمين العام لبلدية بنغازي، ومحمود مخلوف (مثقف وأديب)، والمهدي المطرودي (القيادي والرياضي الليبي)، وباتت مدينة بنغازي مقرًّا لها بعد حصولها على إذن سلطات الاحتلال البريطاني. وكان للجمعية دور مهم في مقارعة سلطات الاحتلال البريطاني، ما أدى إلى حلها في تموز/ يوليو 1951. وقد كتب بشير المغيربي، سكرتير قسم الثقافة في الجمعية، الذي رأسه مصطفى بن عامر، كتابًا يوثق هذه المرحلة من تاريخ الجمعية بعنوان **وثائق جمعية عمر المختار: صفحة من تاريخ ليبيا**. ومن الجمعيات الأخرى رابطة الشباب الليبي (1945)، والجبهة الوطنية البرقاوية (1946)، والمؤتمر الوطني البرقاوي (1947). أما في طرابلس، فتأسس الحزب الوطني (1944)، وحزب الجبهة الوطنية المتحدة (1946)، وحزب العمال (1947)، وحزب الاستقلال (1947)، وهيئة تحرير ليبيا (1947).

المؤسسات الحكومية. قال لنا الأخ المغيربي والأخ مصطفى بن عامر إن الرئيس جمال عبد الناصر طلب عدم القيام بأيّ تحرك، لأنه - كما قالا لنا - في مواجهة اليهود؛ فهُم أمامه والأميركيون خلفه؛ ولذا لا يريد أي استفزاز للأميركيين، ولكننا لم نقتنع بهذه الرواية، فدخلنا معهما في نقاش صاخب؛ لكنهما أصرّا على موقفهما. ثم طلبنا منهما مساعدتنا على الاتصال بالشيخ محمود محمد صبحي أحمد علي بن عبد السلام[20] في طرابلس، لأنه رمز وطني وعضو في البرلمان، معارض للحكومة وللقواعد البريطانية والأميركية؛ فأخرج المغيربي دينارًا ليبيًّا من جيبه وقطعه إلى نصفين. أعطانا نصف دينار ممزق قائلًا: "اتصلوا بمحمود الهتكي، هو موظف في وزارة التخطيط بطرابلس. قولوا له إنكما جئتما من طرف المغيربي ومصطفى بن عامر وأعطوه نصف الدينار هذا". وللأسف، لما ذهبنا للقاء الهتكي، قيل لنا إنه تشاجر مع رئيسه، فعاقبه وتمّ نقله إلى سبها في الجنوب؛ ولذا قرّرنا أن نذهب إلى شارع مزران في طرابلس حيث يسكن الشيخ صبحي. دلّنا أحد المارة على المنزل، حيث كان أمام المنزل طفل صغير يلعب، عرفنا أنه حفيد من أحفاد الشيخ صبحي. سألناه إنْ كان الشيخ في المنزل، فقال: "نعم". قلنا له: "اذهب وقلْ له إننا نريد اللقاء به". عاد الطفل وهو يقول: "جدي يقول إنه غير موجود في المنزل".

قبيل تفجير الثورة في الفاتح من سبتمبر 1969 بشهرين، عقدنا اجتماعًا كبيرًا لعدد من الضباط الأحرار. وكان عددهم نحو 60 ضابطًا. جرى في الاجتماع تقييم جاهزية الحركة ودراسة نقاط الضعف والقوة، كما جرى بحث عدة اقتراحات بشأن موعد تفجير الثورة، والتدابير الاحترازية التي اتخذها

(20) رجل دين وفقيه من أعيان أهل طرابلس، ولد وتربى وترعرع بمنطقة ميزران بسانية في مدينة طرابلس عام 1920. درس في الأزهر في مصر، ثمّ رجع إلى ليبيا وهو في سن ثلاثة وثلاثين عامًا، واشتغل بعد رجوعه مدرّسًا في معهد المعلمين إلى أن أصبح مدير المعهد. ناضل من أجل استقلال بلاده من الاحتلال البريطاني، وعارض وجود القواعد الأجنبية داخل ليبيا، وشارك في عدد من التظاهرات التي كان يتزعمها. كما أصبح عضوًا في مجلس النواب الليبي بعد الاستقلال، وكان رئيسًا للجنة مناصرة الشعب الجزائري. عُين رئيسًا لجمعية الدعوة الإسلامية. عُين رئيسًا للجنة الإفتاء بعد إلغاء وظيفة مفتي الديار ثم استقال منها في عام 1980. وتفرغ بعد ذلك للدروس والمحاضرات الدينية في جوامع طرابلس. توفي في طرابلس في 25 حزيران/ يونيو 2013.

النظام وتأثيرها في الخطة، وقد كان الاجتماع في ساعات العصر واستمر إلى ما بعد الغروب. بعد الاجتماع استلقينا على الرمل، وكان بعض الضباط قد أحضر الخبز والجبن والفواكه، وبدأنا نتناول الطعام. لكن أحد الضباط، وكان يُدعى الشلماني، وقف فجأة يستأذن للانصراف قائلًا إن لديه ظروفًا خاصة ترغمه على المغادرة. وبينما كنّا عائدين إلى طرابلس، وعند وصولنا إلى مفرق باب بن غشير، "وسيدي المصري"، فوجئنا بأن الشلماني توقف عند إشارة المرور عائدًا من سيدي المصري حيث يسكن العقيد عبد العزيز الشلحي[21]. وعائلة الشلحي هي من حاشية الملك وكان يثق به كثيرًا. فتوجّسنا من الشلماني، وكانت لدينا شكوك حوله؛ وفعلًا، في ليلة الثورة، كان الشلماني يتصل بالشلحي لإبلاغه بموعد الثورة، لكن الإرادة الإلهية لم تمكنه من الاتصال بعبد العزيز الشلحي لأنه كان في سهرة خارج المنزل. قبل شهرين من الثورة، قامت كتيبتان مدرعتان جاءتا من منطقة ترهونة[22] بقيادة العقيد إبراهيم البنغازي، قائد القوة المدرعة في الجيش، باحتلال معسكري في باب العزيزية، وكانت الكتيبتان بكامل أسلحتهما وعتادهما. كان رئيس عرفاء كتيبتَي خليفة إحنيش في المعسكر، فركب سيارة أجرة على الفور وجاء إلى منزلي في زاوية الدهماني. لم يستأذن في الدخول، ركل الباب بقدمه ودخل عليّ قائلًا: "يا ريّس عبد السلام. كتيبتان مدرعتان بقيادة العقيد عبد الله البنغازي احتلتا المعسكر". ثم أردف قائلًا: "والله والنبيّ ما نخلّوهم (أيّ لا تتركوهم) يمسكونا مثل الفئران. يجب أن نقاوم حتى الموت"، فقلت له: "عُدْ إلى المعسكر وراقب الوضع عن قرب". ثم ذهبت إلى مبنى البريد العام واتصلت بالأخ معمّر وكان في بنغازي وأخبرته بالأمر، فقال لي: "عندما تذهب إلى المعسكر حاول أن تتعرف على أسماء ضباط الكتيبتين". كان السبب في

---

(21) العقيد الركن عبد العزيز الشلحي (1937–2009): ضابط عسكري ليبي، تخرج في الكلية الحربية في القاهرة عام 1954، وأكمل دراساته العسكرية في الكلية العراقية، حيث نال درجة ركن. أدى دورًا سياسيًا مهمًا في حقبة الملك إدريس السنوسي، حيث اعتمد عليه كمبعوث إلى الدول العربية. لذا سُجن بعد ثورة الفاتح 1969 وبقي تحت الإقامة الجبرية بعد الإفراج عنه في طرابلس حتى وفاته.

(22) ترهونة مدينة ليبية تبعد عن العاصمة طرابلس 95 كيلومترًا إلى الجنوب الشرقي منها.

اتصالي عبر البريد العام أن الحركة كانت قد اتخذت قرارًا بمنع استخدام الرسائل أو الهواتف الخاصة، وعند الضرورة يمكن أن نتصل عبر البريد العام. ذهبت بعد ذلك إلى المعسكر، ووجدت العقيد البنغازي في الساحة، فأديت له التحية العسكرية وسألته: "ما هذه القوة، ولماذا جئتم إلى معسكري من دون علمي؟" فقال: "ولماذا تسأل يا ريس عبد السلام؟"، فقلت: "كيف لا أسأل وهذه القوة العسكرية تدخل معسكري من دون علمي أو التنسيق معي؟"، فقال لي: "عليكم أن تحتملوننا. سنكون ضيوفًا عندكم فترة طويلة، لأن هذه القوة سوف تشارك في مناورة مع الإنكليز بطبرق، ولعدم وجود بواخر، فسوف نظل هنا لمدة طويلة". بالطبع لم أقتنع بهذه الرواية، كما أنني لم أتمكن من معرفة غير عدد قليل من الضباط، من بينهم محمد هدية ومحمد البرغتي. في اليوم التالي، جاء الأخ معمّر إلى طرابلس قادمًا من بنغازي، والتقينا في المعسكر، وتدارسنا الوضع الخطير، واتفقنا على أن هذا الوضع يجب أن يواجَه بمغامرة محسوبة أو غير محسوبة.

قلت للأخ معمّر: "يا أخ معمّر أنا مستعد للاستيلاء على هذه القوة العسكرية، وتحويلها من قوة لإجهاض الثورة إلى قوة لتفجير الثورة؛ إذا ما ضمنتَ لي أن تكون وحدات المناطق الشرقية جاهزة للثورة، لأننا مرات كثيرة حددنا مواعيد للثورة، ثم نكتشف أن وحدات المناطق الشرقية غير جاهزة". فسألني: "هل أنت متأكد من قدرتك على الاستيلاء على الكتيبتين؟"، فقلت له: "نعم أنا متأكد".

فقال لي: "حينما أصل الليلة إلى بنغازي، سوف أجري اتصالات مع الضباط الأحرار في هذه الوحدات. إذا أكدوا لي جاهزيتهم سأتصل بك وأقول لك أرسل لي مفتاح السيارة، وإذا لم يكونوا جاهزين سأقول لك لا ترسل مفتاح السيارة". وبالفعل تلقيت منه اتصالًا هاتفيًّا نحو الساعة الثانية والنصف فجرًا، وقال لي: "لا ترسل مفتاح السيارة". في هذه الأثناء، كان النظام الملكي العميل قد اتخذ عدة إجراءات احترازية تركزت في مدينة طرابلس لأنها العاصمة، وكانت هناك في معسكر الهضبة كتيبة مشاة هي كتيبة عمر المختار

التي كنّا نعتمد عليها في تفجير الثورة، حيث كان لنا فيها ثلاثة عشر ضابطًا من الضباط الأحرار.

ومن بين هذه الإجراءات الاحترازية التي قام بها النظام إعطاء منتسبي هذه الكتيبة إجازات فرادى، على أن يلتحقوا بمقرهم الجديد في مدينة سبها على بعد أكثر من تسعمئة كيلومتر جنوب طرابلس. كما سحب كل الذخائر والوقود والألغام الحقيقية [المتفجرة] من كتيبة الهندسة التي أنتسب إليها. لم يترك النظام إلا ألفَي طلقة للحراسة، وبعض الألغام غير الحقيقية [التدريبية]، وهذا ما فعله بقوات الدفاع الجوي والبحرية، حيث تم سحب كل الذخائر والوقود منها، لأن هذه الوحدات تتمركز في معسكر واحد بباب العزيزية، وكان النظام يعتقد أنها يمكن أن تتحرك معًا. كما أنه زاد من عدد الدوريات في المدينة وحول المعسكرات، وخاصة خلال الليل. بعد تأجيل موعد الثورة الذي صادف اختبارات الترقية، خسر عدد كبير من الضباط الأحرار فرصة الحصول على ترقياتهم، لأنهم لم يدخلوا الامتحانات، معتمدين على موعد تفجير الثورة. كان الكثير من الضباط في حالة إحباط، والكثير منهم ذهب في إجازة، وكذلك بعض أعضاء اللجنة المركزية للضباط الوحدويين الأحرار. وفي الليلة التي سبقت الثورة، اتصل بي الأخ معمّر من بنغازي وقال لي: "سأحضر صباحًا إلى طرابلس" ولمح لي، بالألغاز، أنه يعتقد أن الوقت مناسب ومهيأ للثورة. حينما كان الأخ معمّر يأتي إلى طرابلس، عادة ما أكون في استقباله في المطار، إلا هذه المرة. لما وصل إلى طرابلس ركب سيارة أجرة، وذهب إلى منزل رئيس العرفاء خليفة إحنيش في مساكن ضباط الصف بمعسكر الفرناج، فذهبت أنا وعوض حمزة لمقابلته. وجدته غاضبًا مني. بعد نقاش معمق ومن دون أن نصل إلى قرار، قرّرنا الذهاب إلى مدينة صرمان[23]، حيث يسكن الخويلدي. لمّا اقتربنا من المنزل، قال لي الأخ معمّر: "أيّ طفل يظهر أمامنا بالقرب من المنزل، سوف نسأله عن الخويلدي. إذا قال لنا إنه غير موجود، فعليك يا عبد السلام أن تستدير بالسيارة بسرعة لنغادر المكان، لأن أحد أعمام الخويلدي إذا ما صادف وشاهدنا، فلن يسمح لنا بمغادرة

(23) صرمان: تقع على شاطئ البحر المتوسط غرب مدينة طرابلس على مسافة تمتدّ 60 كيلومترًا.

المكان لأنه رجل مضياف ويحبّنا كثيرًا، ونحن لا نستطيع أن نضيع أيّ دقيقة من وقتنا. كان علينا أن نغادر المكان بسرعة". وبالفعل؛ لما كنت أستدير بالسيارة، خرج إلينا وألقى التحية من بعيد قائلًا: "مرحبا، مرحبا". رددنا على التحية، لكننا أسرعنا عائدين إلى طرابلس. لمّا وصلنا طرابلس، ذهب عوض حمزة إلى منزله، ثم ذهبت أنا ومعمّر إلى منطقة أشجار معروفة، وجرى بيننا نقاش حادّ وساخن. كان الأخ معمّر يرى أنّ الوقت مناسب لتفجير الثورة؛ وبالتحديد في اليوم التالي، وكان رأيي أن الوقت غير مناسب، لأن الكثير من الضباط في إجازات، وحتى بعض أعضاء الحركة. ثم ركبنا السيارة وواصلنا النقاش في طريقنا إلى المطار، حيث موعد الرحلة إلى بنغازي في العاشرة والنصف ليلًا. وبينما كنّا في الطريق إلى المطار، وحينما اختلفت مع الأخ معمّر ولم أوافقه الرأي، ولكي يضغط عليّ قال لي: "أنت صعب لا تفاهم معك"، ثم أردف قائلًا: "أوقف السيارة. أريد أن أنزل. إنْ لم تفعل ذلك سأفتح الباب وأقفز من السيارة"، فتوقفت. نزل معمّر، ثم استكملنا الحوار.

كنت أقود السيارة ببطء بمحاذاة الرصيف، وهو يسير قرب السيارة على الرصيف ونواصل حديثنا الصاخب. بعد نحو 20 دقيقة من الحوار، أقنعته بالعودة إلى السيارة. قلت له: "يا أخ معمّر، عدّة مرات حددنا موعد الثورة، وكان التأجيل دائمًا سببه وحدات المنطقة الشرقية التي لم تكن جاهزة، وكذلك الوضع النفسي والمعنوي للضباط، وبعضهم الآن في إجازات، بل حتى بعض الأعضاء، ونحن نحتاج إلى كل هؤلاء". ثم أردفت: "حينما تصل إلى بنغازي، وإذا ما تأكدت أن الوحدات العسكرية جاهزة، تحدث معي عبر الهاتف بالألغاز أو بطريقة ساخرة للتمويه". ما إن وصل معمّر إلى معسكره في منطقة قاريونس في بنغازي، حتى تحدث مع إمحمد المقريف، وقال له: "عبد السلام صمّ أذنيه ومن الصعب التفاهم معه، فهو يعتقد أن الوقت غير مناسب". كان إمحمد المقريف من الضباط الذين جندتهم وتربطنا ببعض أواصر محبة واحترام، فبادر على الفور للاتصال بي، وأخذ يلقي عليّ اللوم وطلب مني تغيير موقفي، فقلت له: "يا أخ إمحمد، هل أنتم متأكدون من جاهزية وحدات المناطق الشرقية؟ إذا كنتم كذلك، فأنا جاهز لإعطاء موافقتي"، فردّ المقريف: "هل تثق بي؟"،

فقلت: "أثق بك ربما أكثر من نفسي". قال: "حسنًا، فلنتوكل على الله". بعد هذه المكالمة، ذهب المقريف للقاء معمّر وقال له: "عبد السلام جاهز، لكنه يريد التأكد أنْ لا تأجيل بعد اليوم، لأن التأجيل كارثة وقد يصيب الحركة بالوهن والإحباط".

في هذا السياق، واجهتني بعض المشكلات والصعاب؛ ففي 31 آب/ أغسطس 1969، كان منتسبو كتيبة الهندسة في معظمهم متزوجين ويعيشون خارج المعسكر، وبعضهم في أحياء بعيدة جدًّا عنه، ولكن من حسن الحظ أننا وضعنا خطة للتدريب الليلي، وتشاء الصدف، بإرادة إلهية، أن تكون ليلة الثورة هي إحدى هذه الليالي، وكان من بين ضباط سلاح الهندسة العقيد محمد سعد وآمر كتيبتي الرائد أحمد أحواس، اللذان كانا يحرصان على مشاركة الضباط والجنود في جميع أنواع التدريبات الليلية والنهارية. عند انتهاء الدوام الرسمي في المعسكر في الساعة الثانية ظهرًا، وبعد قراءة الأوامر، قال لي آمر الكتيبة: "يا ريس عبد السلام، أنا مشغول الليلة، أشرف بنفسك على التدريب". وبالفعل، كان الرائد أحواس مشغولًا في ترتيب أموره استعدادًا للسفر إلى الولايات المتحدة في دورة دراسية، ففرحت فرحًا شديدًا وشكرت الله على نعمته؛ لأنه لو رافقنا في التدريب الليلي، فإننا لن نتمكن من الاحتفاظ بالجنود إلا باعتقاله. وكان هناك ضابط آخر من ضباط الكتيبة هو الملازم أبو نوارة، كان على صلة بصديق في مباحث أمن الدولة، زاره بعد العصر في المعسكر، وكانت زيارة مريبة خاصة أنهما ذهبا معًا في سيارة مدنية إلى منطقة التدريب.

قال لي خليفة إحنيش، رئيس عرفاء الكتيبة: "أستأذنك يا ريس عبد السلام، أعتقد من الأفضل إعدامهما ورميهما في الوادي"، فرفضت بشدّة وقلت: "لا". بعد انتهاء التدريب الليلي عدنا إلى المعسكر في الحادية عشرة والنصف ليلًا. وكانت الخطة تقضي بأن يتمّ إيقاظ الجنود الساعة الثانية فجرًا، ثم تغادر الوحدات معسكراتها في اتجاه الأهداف المحددة نحو الساعة الرابعة والنصف، ولكن لمّا وصلنا إلى المعسكر قال لي رئيس العرفاء خليفة إحنيش: "يا ريس عبد السلام، لا يزال أمامنا وقت طويل. بقاء الجنود هنا وعدم السماح لهم

بالعودة إلى منازلهم، قد يؤديان إلى تذمرهم وشعورهم بالملل، وربما يدفعهم ذلك إلى التساؤل عن سبب منعهم من العودة بعد انتهاء التدريب الليلي، وأرى أن تقوم بإبلاغهم الحقيقة، وأننا عازمون على تفجير الثورة. أرجو أن تلقي فيهم خطابًا تعبويًا لإعدادهم نفسيًا ومعنويًا ووطنيًا للثورة"، فوافقت، وطلبت منه أن يأمر الجنود بدخول "الهناجر" (القاعات الكبيرة)، وألقيت خطابًا حماسيًا أشعل فيهم روح الثورة. في نهاية المحاضرة قلت لهم: "أنتم اليوم تقومون بدور تاريخي ووطني نيابة عن الشعب الليبي كله، لاستعادة تاريخ الجهاد الذي سُرق، واسترداد الشرف الوطني الذي انتُهك، والكرامة والحرية اللتين سُلبتا، أنتم اليوم تتقدّمون الليبيين والليبيات وتشكلون طليعته الثورية. اليوم أنتم تفجّرون الثورة مع بقية إخوانكم من جنود وضباط القوات المسلحة في طول البلاد وعرضها". وفي تلك اللحظات، هتف الجنود بصوت واحد: "جاهزون.. جاهزون.. جاهزون.. ثوار، ثوار، ثوار، سوف ننتصر لعمر المختار". ثم وزعنا الذخيرة على الجنود. ونظرًا إلى وجود كميات قليلة فحسب، بعد أن قام النظام بسحب معظم ما كان متوافرًا، فقد كان لكل جندي من أصل عشرة، خمس طلقات، أما التسعة الباقون فقد كانوا بلا ذخيرة. وفي تمام الساعة الثانية صباحًا، أيقظنا جنود الدفاع الجوي والبحرية، وألقيت فيهم الخطاب نفسه، وبدأوا باستلام أسلحتهم وكان عددهم نحو 2800 جندي.

الثورة

في الساعة الثانية والنصف فجر الفاتح من أيلول/ سبتمبر 1969، كلفت ضباط صف بالسيطرة على الباب الرئيس لمعسكر باب العزيزية في طرابلس، حيث كان بإمرتي كتيبة الهندسة وقوات من البحرية والدفاع الجوي، وطلبت منهم أن يحتجزوا أيّ سيارة بركابها إذا ما حاولت الدخول إلى المعسكر. وحدث أن وقع حادثان طريفان. الأول، حين جاءت سيارة "فولكس فاغن" نحو الساعة الثالثة فجرًا. اعتقد ضباط الصف أن السيارة هي دورية للمخابرات الحربية، ففتحوا لها الباب، ثم أحاطوا بها من كل جانب ووجهوا نحوها بنادقهم، وطلبوا من السائق الدخول إلى المعسكر.

لما دخلت السيارة، اتّضح أن السائق هو جندي من كتيبتي يُدعى "أقصودة" كان قد اشترى السيارة وكان سعيدًا بها؛ ولذا خرج في جولة مع أصدقائه في المدينة ثم عاد إلى المعسكر، فقال له ضباط الصف: "عطكْ دعوة، خلعتنا يا رجل (أي لا سامحك الله لقد أرعبتنا)"، فقهقه الجنود وأخلوا سبيله. أما الحادث الآخر، فوقع نحو الساعة الثالثة والربع فجرًا، حين عاد ضابط صف من الدفاع الجوي اسمه التومي، وكان مخمورًا، ولمّا لاحظ وجود حركة غير اعتيادية تساءل عمّا يحدث، فقال له رئيس العرفاء خليفة: "غيّر ملابسك بسرعة والبس بدلتك العسكرية. بعد ساعة ونصف ستتحرك لإسقاط النظام". كان ضابط الصف التومي شابًّا مثقفًا، فقال لخليفة: "لن أتزحزح من هنا إلا حينما أعرف مَن على رأس الحركة وما هي أهدافها؟". بالطبع، لم يكن لدينا وقت ولا رغبة في حوار من هذا النوع.

جاء خليفة مسرعًا وأبلغني بالأمر وسألني "كيف نتصرف معه. أليس من الأفضل أن نقوم بإعدامه؟ بقاؤه حيًّا قد يتسبب في إفشاء سر الثورة"، فقلت له: "كلّا. ضعه في حجرة وأقفل الباب". كان لدينا في كتيبة الهندسة نحو عشرة من الجنود المشاغبين وغير المنضبطين والمثيرين للمتاعب، وغالبًا ما كانوا يتغيّبون عن الحضور إلى المعسكر، حتى إنهم لم يشاركوا في التدريب الليلي وظلوا لساعات متأخرة من الليل خارج المعسكر. عاد هؤلاء إلى المعسكرليناموا ليلتهم، ويبدو أنهم استيقظوا فجأة على وقع تحرك الجنود. وحين علموا أننا سوف ننطلق لتفجير الثورة جاؤوا إليّ وهم يبكون قائلين: "كيف تحرمنا يا ريس عبد السلام من هذا الشرف؟". لقد قام هؤلاء بأهم الأدوار في يوم الثورة.

وبحسب الخطة الموضوعة التي تتضمن السيطرة على الأهداف الحيوية، كالإذاعات الثلاث في كل من طرابلس وبنغازي والبيضاء، لأهميتها في تلك الفترة في التواصل مع الشعب الليبي، والسيطرة على البريد وقطع الاتصالات وتحييد القوة المتحركة وشلّ حركتها واعتقال رموز النظام من مدنيين وعسكريين وعلى رأسهم ولي العهد ورئيس الوزراء ونيس القذافي، ووزير

الدفاع حامد علي العبيدي، ووزير الداخلية أحمد عون سوف. لم يكن لدينا خطة بديلة: فلا بديل عن النجاح. فقد كان على جميع الوحدات أن تكون متأهبة لمغادرة المعسكر في الساعة الرابعة والنصف صباحًا. وفي أثناء صعود الجنود إلى سيارات النقل في الساعة الرابعة تقريبًا، توقف الخويلدي الحميدي أمام معسكري، وكان في سيارة نقل عسكرية مع بعض الجنود، قادمًا من مدينة ترهونة، حيث كانت كتيبتًا مشاة ومدرعات بقيادة الخويلدي وأبو بكر جابر يونس قد توجهتًا من ترهونة صوب طرابلس لتنفيذ الخطة. ولأن حركة الوحدات كانت بطيئة، ونظرًا إلى حماسة الخويلدي، ترك كتيبته في أثناء انطلاقها نحو طرابلس، وفضّل أن يسبق الكتيبة بساعات.

لمّا توقف الخويلدي أمام معسكري، ركب معه السيارة عبد المنعم الهوني[24]، وانطلقا نحو الإذاعة، وكنت قد ذهبت أنا والهوني إلى ترهونة واجتمعنا بالخويلدي وأبو بكر جابر يونس، وأبلغناهما بموعد الثورة وحددنا لهما المهمات بحسب الخطة ثم عدنا إلى طرابلس. في مساء هذا اليوم التقيت عددًا من الضباط الأحرار من مدينة الزاوية غربًا إلى مصراتة شرقًا، مرورًا بمدينة الخمس لإبلاغ أعضاء الحركة بالموعد والخطة والمهمات. قبيل الثورة بأسابيع، حصل خلاف وشجار بين عمر المحيشي وعدد من الضباط الأحرار في الكتيبة السادسة بمدينة الزاوية. كان السبب الرئيس في هذا الخلاف يكمن في شخصية عمر المحيشي؛ إذ إنه لا يحسن التواصل والحوار مع الآخرين نتيجة أسلوبه الاستفزازي والمنفّر، وأحيانًا المقزز، وفي شخصيته الاستعلائية، وقد جرّ عليه هذا نقمة الكثير من الضباط الأحرار، وكانوا يعاملونه بقسوة وكثيرًا ما حاولوا اتخاذ إجراءات ضده. لكن الأخ معمّر يحميه ويدافع عنه، وكثيرًا ما كان يأتيني ويقول لي يجب ألّا نتخذ قرار تفجير الثورة قبل التأكد من جذريتها، وكان يقول إن الكثير من الضباط الأحرار لا يملكون الثقافة والوعي لتفجير الثورة، وهذا اعتقاد يشاركه فيه الكثيرون، وكنت أقول له: "إن هذا ليس مفاجئًا لي،

---

(24) عبد المنعم الهوني: عمل مديرًا للمخابرات وترك العمل واستقر بمصر إلى أن عينه القذافي مندوبًا لليبيا لدى جامعة الدول العربية.

وهو ناجم عن تحول الحركة من حركة مدنية، حيث الشروط والمعايير الصارمة، إلى حركة عسكرية تستهدف أكبر عدد من الضباط". ولذلك، كنت قد قاومت وعارضت تحول الحركة إلى حركة عسكرية، ولكن - للأسف - حصل الأخ معمّر على موافقة أغلبية اللجنة المركزية للوحدويين الأحرار.

في هذه الأجواء، وقبيل الثورة، كنت أنا والأخ معمّر في طريقنا إلى الزاوية لمعالجة هذا الخلاف. ثم حدث عند وصولنا إلى منطقة باب قرقارش في جزيرة الدوران أن استوقفتنا دورية للشرطة وطلبوا منّا التعرّف على هوياتنا، فقال لهم الأخ معمّر: "نحن ضباط جيش"، فردّوا بوقاحة: "نحن لا نعرف ضباط جيش. هاتوا بطاقاتكم". فغضب الأخ معمّر وزعق في وجوههم: "احترموا أنفسكم"، ثم دخل معهم في شجار لم ينته إلا بالسماح لنا بمواصلة الرحلة.

حينما كنت في الولايات المتحدة، اشتريت أحد عشر مسدسًا مع ذخائرها واحتفظت بها في منزلي طوال سنتين. ليلة الثورة، وزعت المسدسات بين الضباط الذين كانوا معي. في هذه الليلة حدث أمر غريب ومثير، فحين كان الضباط والجنود يغادرون معسكر قاريونس[25] في بنغازي متجهين إلى الأهداف التي حددناها في الخطة، علمت أن الأخ معمّر "تخاذل" في هذه اللحظة وترك ضباطه وجنوده وذهب لينام في غرفته بالمعسكر.

في ما بعد - في أواخر الثمانينيات - أدلى الأخ عبد المنعم الهوني بتصريح، من القاهرة حيث كان يعيش، مذكّرا بهذه الحادثة. وحين استمع الأخ معمّر إلى تصريحه، لم ينكر، وقال: "فعلًا ذهبت إلى غرفتي ونمت"، وقال في معرض تبرير هذا "التخاذل": "أنا قائد الأوركسترا، ومهمتي هي ضبط الإيقاع وتنظيم الفرقة وبعد ذلك تنتهي مهمتي".

وصباح يوم الثورة، فوجئنا بأن أوامر صدرت للكتيبة السادسة المتمركزة بمدينة الزاوية بالتحرك إلى طرابلس، وبالتحديد معسكر تاجوراء، وحتى اليوم ظل تحرك الكتيبة لغزًا بالنسبة إلينا: أكان تحركًا لإجهاض الثورة أم عملية

(25) قاريونس: حي يقع في المدخل الغربي لمدينة بنغازي، ثانية كبرى المدن الليبية.

نقل روتيني؟ لقد واجهت ليلة الثورة تحدّيَين كبيرين: الأول، كيف يمكن الحصول على ذخيرة؟ فمن دون ذخيرة سيكون موقفنا ضعيفًا وصعبًا في حالة حصول أي مواجهة. لما سحبوا الذخيرة من كتيبتي، أخبرني رئيس عرفاء كتيبتي خليفة إحنيش بأنه يعرف ضابط الشرطة المسؤول عن مخازن الذخيرة، فطلبت من إحنيش أن يتقرّب إليه ويحاول أن يقيم معه صداقة وثيقة، والأهم أن يعرف مكان إقامته.

في الساعة الرابعة والنصف لما انطلقنا نحو أهدافنا، انطلق إحنيش مع مجموعة من الجنود صوب منزل ضابط الشرطة، فاصطحبوه إلى مخازن الذخيرة، ثم عادوا إلينا بسيارات محمّلة بكل أنواع الذخيرة، فارتفعت معنويات الجنود، وأخذوا يطلقون طلقات نارية في الهواء ابتهاجًا. كانت الأهداف التي حُددت لقواتي هي السيطرة على البريد وقطع الاتصالات، والسيطرة على وزارة الداخلية ومديرية الشرطة وجهاز الأمن ورئاسة الأركان، وشلّ القوة المتحركة الموجودة في معسكر قرقارش من دون الدخول في أي صدام معها، بل الاكتفاء بمحاصرة المعسكر ومنع هذه القوة من الخروج. ثم قمنا بزرع ألغام تدريبية حول المعسكر، ووجهنا إلى عناصر القوة المتحركة تحذيرًا صارمًا، بأن أي محاولة منهم لمغادرة المعسكر تعني تفجير الألغام وإبادتهم، ثم قام الجنود باعتقال كبار ضباط الشرطة الذين يقيمون في مركز المدينة. في هذه الأثناء، فكرت في خطة لتوفير الوقت والجهد. حين اعتقلنا عددًا من الضباط الكبار، وعلى رأسهم مدير الأمن علي عقيلة، كنّا نتصل عبر البريد العام مع بقية ضباط الشرطة الذين لم نعتقلهم؛ ولذا طلبت من العقيد علي عقيلة أن يتحدث إلى زملائه ويبلغهم أن الثورة انتصرت، وأن عليهم ألا يقاوموا حفاظًا على سلامتهم. وبالفعل، حققت الخطة أهدافها. أمّا التحدي الآخر، فكان يتمثل في السيطرة على الطرق الرئيسة المؤدية إلى القاعدة الأميركية (تُعرف باسم الملاحة)، وهي أكبر قاعدة جوية خارج الولايات المتحدة، وكانت تحتوي على قنابل نووية، ثم الحيلولة دون وصول ولي العهد أو رئيس الوزراء وكبار ضباط الجيش والشرطة إلى القاعدة. كان وصول أي واحد من هؤلاء إلى القاعدة يعني أنه يمكن أن يطلب من حكومة الولايات المتحدة تفعيل المعاهدة

العسكرية والتدخل لصالح النظام؛ فضلًا عن إمكانية استغلال إذاعة القاعدة، لتوجيه نداءات بمقاومة الثورة وعدم الاعتراف بها، ودعوة الشرطة والجيش إلى المقاومة والتصدي لهذا التمرد بحسب مفهومهم.

في الساعة العاشرة والنصف صباحًا، وصلت كتيبة مدفعية من مصراتة تحت إمرة الضباط الأحرار، فاتصل بي عبد الله الحجاز، أحد ضباط الكتيبة، وسألني: "أين ستتمركز الكتيبة؟ وما هو الواجب؟" فقلت له: "تتمركز في منطقة تاجوراء وتصوّب مدافعها في اتجاه القاعدة الأميركية[26]. وفي حالة إقلاع أي طائرات من القاعدة يجب تدمير 'هناجر' (مخابئ) الطائرات والمهابط. امنعوا أيّ طائرة من الإقلاع". وبالفعل تلقت القاعدة الرسالة وفهم ضباطها مضمونها الصارم، وهكذا تمّ شلّ حركة القاعدة الأميركية منذ ساعات الصباح الأولى. في الظهيرة، ذهبت صحبة الأخ عبد المنعم الهوني لمقابلة ولي العهد حسن الرضا السنوسي الذي كان قد اعتُقل في معسكري بباب العزيزية، وأخذنا معنا جهاز تسجيل، ثم طلبنا منه أن يتنازل طوعًا عن العرش، فوافق. وهكذا أعلنا عبر الإذاعة تنازل ولي العهد عن الحكم، وكان هذا أمرًا بالغ الأهمية؛ إذ كان الملك إدريس السنوسي في رحلة إلى اليونان، وقد أناب عنه ولي العهد. أتذكر أنني أنا والأخ معمّر كنّا خلال الفترة 1968-1969 نقوم بزيارة بعض المناضلين من القوميين العرب الذين وضعهم النظام الملكي العميل في السجون، وكان من بينهم الدكتور محمود المغربي، وعمر المنتصر، وعز الدين الغدامسي، وعبد السلام الزقعار، وسواهم ممن نسيت أسماءهم، ولكن من دون أن أنسى نضالهم، وقد بنينا معهم علاقات نضالية وشخصية حتى حين

(26) هي قاعدة ويلس (Wheelus) العسكرية الأميركية، كانت في الأصل قاعدة جوية إيطالية أقيمت في عام 1923، واستخدمتها القوات الجوية الألمانية، خلال الحرب العالمية الثانية، في معركة شمال أفريقيا، كما استخدمتها القوات الجوية الأميركية بداية من كانون الثاني/ يناير 1943، وأطلقت عليها اسم ويلس في عام 1945. ظلت الولايات المتحدة تستخدمها بعد استقلال ليبيا ووسعت منشآتها بحيث كانت تستوعب نحو 4600 أميركي. وفي ستينيات القرن الماضي فقدت هذه القاعدة أهميتها الاستراتيجية، إلا أنها استمرت مركزًا مهمًا للتدريبات. في 11 حزيران/ يونيو 1970 فرضت القيادة الثورية للفاتح من سبتمبر على الأميركيين الجلاء عن القاعدة، فتغير اسمها إلى قاعدة عقبة بن نافع الجوية، ثم إلى قاعدة معيتيقة الجوية نسبة إلى طفلة ليبية تقطن بجوار القاعدة ماتت إثر سقوط طائرة أميركية فوق منزلها.

كانوا في السجون. تولى هؤلاء المناضلون مناصب سياسية مهمة في أعقاب الثورة، فأصبح محمود المغربي[27] أول رئيس وزراء، بينما تولى عمر المنتصر مناصب وزارية عدّة، وكذلك الأمر مع الغدامسي الذي تولى حقيبة المالية. قبل الثورة بأشهر قليلة، علمنا أن بعض الضباط الوطنيين الأعلى رتبة منّا، شكلوا تنظيمًا. وعلى الرغم من أن التنظيم كان في بداياته، فإننا - أنا ومعمّر - قرّرنا الاتصال بهم، وأذكر أن من بينهم الرائد المكي أبو زيد، والرائد محمد عزوز، وعرضنا عليهم التعاون وتوحيد الجهود لإنجاز الثورة، وقال لهم الأخ معمّر: "نحن مستعدون لأن نضع حركتنا تحت تصرفكم"، لكنهم رفضوا أي شكل من أشكال التعاون، بل إنهم أنكروا أن يكون لهم "تنظيم". بعد انتصار الثورة بثلاثة أيام، اجتمعت بإخوتي وقلت لهم: "اسمعوا جيدًا ما سأقول. أولًا، أنا منذ يوم الفاتح، لست أخًا لكم. أنا أخ لكل الليبيين. ثانيًا، ستجدون الكثير من الليبيين يتقرّبون منكم ويطلبون صداقتكم فاحذروهم، وحافظوا على صداقاتكم القديمة". لقد تثقفت وتعلمت أن الحدّ الأدنى في سلّم الأيديولوجيات، هو الوطنية. لا أستطيع أن أنزل إلى العائلة أو القبيلة والعشيرة والطائفة.

على هذا النحو، تصرفت مع عائلتي وقبيلتي بقسوة، حفاظًا على إيماني بأنني لكل الليبيين. كما كنت عدوًّا للأجهزة الأمنية، والمستشارين المعيّنين أو المتطوعين، وحذرًا إلى أبعد الحدود منهم، لأنني تعلمت من التاريخ أن هؤلاء جميعًا يشكلون خطرًا على أيّ زعيم أو قائد سياسي؛ إذ إن دورهم هو تخويف القيادي والزعيم من الشعب، وخداعه بفكرة زائفة مفادها أن الجميع يكرهونه أو يقفون ضده، وأنهم وحدهم منْ يكنّون له الحب الصادق، وأنهم "مستعدون للموت من أجله". في صباح يوم "الفاتح" تمّت السيطرة على العاصمة ودار الإذاعة ومحطات الإرسال.

---

(27) محمود سليمان المغربي (1935-2009): سياسي ومناضل فلسطيني سوري ليبي. ترجع أصول والده إلى مدينة ككلة في الجبل الغربي، ووالدته من مدينة مصراته. وقد شغل منصب أول رئيس للوزراء في ليبيا بعد ثورة الفاتح فترةً قصيرة (8 أيلول/ سبتمبر 1969 - 16 كانون الثاني/ يناير 1970). وقد ضمت تشكيلته الوزارية التونسي محمد العيساوي الشتوي وزيرًا للتربية والإرشاد القومي، وكانت المادة 81 من الدستور الليبي تنص على أنه لا يتولى هذه الوزارة إلا ليبي، مما اضطره إلى تقديم استقالته.

قبل أيام قليلة من الثورة، كنت قد ذهبت صحبة الأخ إبراهيم أبجاد لاستطلاع منزل مذيع متميّز في الإذاعة اسمه محمد المطماطي، ولذلك ذهبت صباح يوم الثورة إلى منزله ومعي قوة عسكرية وقمنا بإحضاره إلى دار الإذاعة، ثم ربطنا الاتصال مع بنغازي لتمكين الأخ معمّر القذافي من إذاعة البيان الأول للثورة. بيد أن إذاعة البيان تأخرت؛ ولذا سيطر علينا الخوف، وبعد ذلك علمنا أنّ الأخ معمّر ظل في غرفته ولم يتوجه إلى دار الإذاعة من أجل إذاعة البيان الأول، لأنه كان يريد التأكد مِن أنّ الثورة انتصرت وسيطرت سيطرة تامة. في هذا الوقت، كنّا نعتقد أن الإخوة لم يتمكنوا من السيطرة على مدينة بنغازي والبيضاء وعلى محطة الإذاعة، فانتابنا القلق الشديد. وبعد ذلك علمنا أن القوات، التي تحركت من مدينة درنة إلى مدينة البيضاء قد طلبت من قوة من الجنود بقيادة أحد الضباط تنفيذ مهمة الاستيلاء على الإذاعة في البيضاء. ولكن المجموعة المكلّفة ضلّت الطريق في البداية، بينما كانت بنغازي تنتظر الربط الإذاعي ليذاع البيان[28] في

(28) نص البيان الأول الذي أذاعه الملازم أول معمّر القذافي من بنغازي في الأول من أيلول/ سبتمبر 1969، معلنًا نجاح الثورة ضد النظام الملكي: "أيها الشعب الليبي العظيم. تنفيذًا لإرادتك الحرة وتحقيقًا لأمانيك الغالية، واستجابة صادقة لندائك المتكرر الذي يطالب بالتغيير والتطهير، ويحث على العمل والمبادرة، ويحرض على الثورة والانقضاض، قامت قواتك المسلحة بإطاحة النظام الرجعي المتخلف المتعفن الذي أزكمت رائحته النتنة الأنوف، واقشعرت من رؤية معالمه الأبدان، وبضربة واحدة من جيشك البطل تهاوت الأصنام وتحطمت الأوثان، فانقشع في لحظة واحدة من لحظات القدر الرهيبة ظلام العصور، من حكم الأتراك إلى جور الطليان إلى عهد الرجعية والرشوة والوساطة والمحسوبية والخيانة والغدر. وهكذا منذ الآن، تعتبر ليبيا جمهورية حرة ذات سيادة تحت اسم 'الجمهورية العربية الليبية'، صاعدة بعون الله إلى العمل، إلى العلا، سائرة في طريق الحرية والوحدة والعدالة الاجتماعية، كافلة لأبنائها حق المساواة، فاتحة أمامهم أبواب العمل الشريف، لا مهضوم ولا مغبون ولا مظلوم ولا سيد ولا مسود، بل إخوة أحرار في ظل مجتمع ترفرف عليه إن شاء الله راية الرخاء والمساواة. فهاتوا أيديكم، وافتحوا قلوبكم، وانسوا أحقادكم وقفوا صفًا واحدًا ضد عدو الأمة العربية عدو الإسلام عدو الإنسانية، الذي أحرق مقدساتنا وحطم شرفنا، وهكذا سنبني مجدًا ونحيي تراثًا ونثأر لكرامة جُرحت وحق اغتُصب. يا من شهدتم لعمر المختار جهادًا مقدسًا من أجل ليبيا والعروبة والإسلام، ويا من قاتلتم مع أحمد الشريف قتالًا حقًّا، يا أبناء البادية، يا أبناء الصحراء يا أبناء المدن العريقة، يا أبناء الأرياف الطاهرة، يا أبناء القرى، قرانا الجميلة الحبيبة، ها قد دقت ساعة العمل، فإلى الأمام، وإنه يسرنا في هذه اللحظة أن نطمئن إخواننا الأجانب بأن ممتلكاتهم وأرواحهم سوف تكون في حماية القوات المسلحة، وأن هذا العمل غير موجه ضد أي دولة أجنبية أو معاهدات دولية أو قانون دولي معترف به وإنما هو عمل داخلي بحت يخص ليبيا ومشاكلها المزمنة. إلى الأمام والسلام عليكم ورحمة الله".

آنٍ واحد من طرابلس وبنغازي والبيضاء. وقد صاغ البيان الأخ معمّر، الذي كان موجودًا في بنغازي، وجعله عامًّا، وهدف إلى إعلام الشعب الليبي بقيام الثورة وانتصارها للشعب والعالم، وليطمئن العالم بأن الثورة عمل داخلي يخص ليبيا والليبيين، وأن الثورة تحترم الاتفاقيات الدولية.

أكدت لنا مجريات الأحداث أن النظام الملكي كان منهارًا، وأن ثورة الفاتح جاءت لتعلن سقوطه فحسب، ودليلي على ذلك ما يلي:

- لم تواجه الثورة أي نوع من المقاومة، ولم تطلق القوة المتحركة، الجيش الموازي، ومعها الجيش، رصاصة واحدة، ما عدا بعض أعمال المقاومة المحدودة في طرابلس. ولذا، عُرفت ثورة الفاتح في الأوساط الشعبية الليبية بـ "الثورة البيضاء".

- رغم إعلان حالة الطوارئ ومنع التجوال، فإن الجماهير رفضت الإذعان للقرار، وخرجت المدن والقرى عن بكرة أبيها إلى الشوارع في كتل بشرية هائلة دعمًا للثورة، وصعدت حشود من الجماهير فوق المدرعات والسيارات، وأخذت تغمر الجنود بالقبلات ومشاعر الحب والتأييد، كما أن الأسر الليبية خرجت لتوزع الطعام بين الجنود.

وتعود بي الذاكرة إلى حادثة مهمة وقعت في مدرسة سبها الإعدادية. كان أحد مدرسينا، واسمه محمد مصطفى المازق، من مدينة مصراتة، وكان على مستوى رفيع من الثقافة والوعي، وشجاعًا، وكان يرأس في هذا الوقت تحرير صحيفة **فزّان**، فحوّلها من صحيفة صفراء إلى صحيفة رأي تحظى باحترام القرّاء. وبعد أن أحيل إلى التقاعد، ذهب إلى مدينة بنغازي وأسس "وكالة آسيا للاستيراد"، وهو أول من أدخل بضائع الصين الشعبية إلى السوق الليبية، وكنت أنا والأخ معمّر نزوره في منزله أو في الوكالة، وكان على علم بتنظيمنا؛ ولذا أصبح أحد أكثر المشجعين والمحرضين لنا على الثورة، فكان يقول لنا: "يا أبنائي، الجيش والقوة المتحركة وكبار الضباط بنياشينهم هم عبارة عن هيكل كارتوني. هؤلاء مثل 'الهبي' (الرماد تنفخه يطير)".

كانت الجماهير، وهي تخرج لتأييد الثورة، تشكل صورة رائعة لتلاحم عفوي وصادق، وكنّا في منتهى السعادة حينما نشاهد من خلال شاشة التلفزيون هذه الصورة الرائعة. وقد سألني أحد الصحافيين الأجانب، لا أذكر من أي وسيلة إعلامية كان: "ماذا تتمنى؟"، فقلت: "أتمنى لو أني مواطن عادي لأعيش هذه اللحظات، لأن الذي يصنع الحدث لا يتذوق حلاوته".

وقد صدرت عن الثورة مجموعة من القرارات المهمة عشية قيامها، كطرد القوات الأميركية والبريطانية من ليبيا، وطرد الجالية الإيطالية، والبدء الفوري بالمفاوضات مع شركات النفط؛ لأننا كنّا نؤمن بضرورة استغلال زخم الثورة وتحقيق المفاجأة في هذه المعارك الثلاث. وبعد انتصار الثورة بأسابيع، تأسس بصفة عفوية تنظيم سياسي شعبي اسمه "التنظيم الشعبي"، وكان نتاجًا لتنادي بعض الوطنيين والقوى الثورية والواعية والفاعلين الاجتماعيين. كان التنظيم حركة شعبية ذاتية بامتياز، تكونت في الشوارع والأحياء في أهم المدن والقرى، واعتمد التنظيم على إمكانيات أفراده المادية. ومع أنه ضعيف تنظيميًا، فإنه كان فعالًا جدًّا وأدى دورًا رائدًا في احتضان الثورة، ووفّر لها عمقًا جماهيريًا، ولم يعتمد على "قوة الثورة" بل على قوته وإمكانياته، فكان تنظيمًا دعويًا فاعلًا. ثمّ طورت الثورة هذا التنظيم وأصبح جزءًا من مرحلة بناء "الاتحاد الاشتراكي" عام 1971. كان قرار تأسيس الاتحاد الاشتراكي[(29)] قرارًا "فوقيًا" في مرحلة انتصار الثورة، واعتمد على إمكانيات الثورة المادية والمعنوية، وقد اعتُمِدت معايير دقيقة في اختيار أعضائه، وكانت مهماته سياسية ودعوية، فأصبح تنظيمًا منضبطًا، وظل بعيدًا عن التورط في قمع الجماهير؛ لأننا اعتمدنا أسس بناء الأحزاب ومعاييره. وهكذا أصبح الاتحاد الاشتراكي هو "واجهة الثورة" السياسية والدعوية، وبات لديه رؤية جماعية، وانتقل سريعًا من مرحلة التعلق والإعجاب بالأشخاص إلى مرحلة الالتزام والإيمان بأيديولوجية الثورة. ثمّ تنبه الأخ معمّر لهذا الأمر، وشعر بأنه

(29) هو الحزب القائد للدولة عقب ثورة الفاتح 1969، فقد تأثرت ثورة الفاتح بثورة 23 يوليو في مصر، ونقلت تجربتها، حيث كان في مصر الحزب نفسه. وتجدر الإشارة إلى أن فرعي "الاتحاد الاشتراكي" في مصر وليبيا اندمجا في هيئة واحدة في أيار/ مايو 1972.

سيشكل عائقًا أمام تحوله إلى دكتاتور وشيخ قبيلة؛ ولذا قام بحله في نهاية عام 1972، وأسس محله ما سوف يعرف باسم "حركة اللجان الثورية"، وهي حركة مفتوحة لكل مَن هبّ ودبّ، وكان القصد منها أن تصبح أداة في قمع الجماهير وتخويفها، وجهازًا للتطبيل والتزمير.

في الأيام الأولى للثورة، ذهبت إلى مدينة بنغازي للاجتماع بالأخ معمّر. قرّرنا أن نستقل طائرتين تابعتين لوزارة الزراعة لرش المُبيدات. الطائرتان صغيرتان ويمكنهما أن تقلّا شخصًا آخر إضافة إلى الطيّار. اتجهنا من بنغازي إلى منطقة الأبيار ومنها إلى البيضاء لتفقّد الأوضاع في هذه المناطق، وكان هذا من وجهة نظري قرارًا متهورًا وقاتلًا؛ إذْ كان يمكن إسقاط الطائرتين ببندقية. لما وصلنا إلى منطقة الأبيار، لاحظنا في عيون بعض الضباط ووجوههم ممّن هم أعلى رتبة منّا، نظرات التآمر، وهذا ما لاحظناه في البيضاء. لقد رأينا في عيونهم علامات بدايات التآمر على الثورة في أيامها الأولى. كان من السهل جدًّا القبض علينا، وكان هذا كافيًا لإفشال الثورة. بيد أن العناية الإلهية شلّت تفكيرهم، وأدخل الله الرعب والخوف في قلوبهم؛ وهذا أكبر دليل على أن الله أراد أن ينتصر للشعب الليبي، وما نحن سوى "أداة". عدت مع الأخ معمّر إلى طرابلس بعد هذه الجولة، وكان مجلس قيادة الثورة قد أصدر، في 2 أيلول/ سبتمبر 1969، قرارًا بتعيين سعد الدين أبو شويرب[30] رئيسًا للأركان. كان أبو شويرب يتمتع بمواصفات تجعلنا نختاره لهذا المنصب؛ فهو إنسان طيب القلب وليس له أي مطامع في السلطة. وبوصفه عسكريًا محترفًا، فقد كانت له سمعة طيبة في أوساط الجيش. بيد أننا اكتشفنا، بعد إصدار القرار، أن أبو شويرب لم يكن في ليبيا. كان في رحلة إلى إسبانيا وعاد منها يوم 17 أيلول/ سبتمبر، أي بعد سبعة عشر يومًا من الثورة. رفض الأخ القذافي تعيينه على رأس مجلس قيادة الثورة، كما رفض قرار ترقيته إلى رتبة عقيد. وهكذا بدأ معمّر في وقت مبكر رحلة الخبث والخداع؛ فقد كان يتقمص

(30) سعد الدين أبو شويرب (1934-2014): ولد في طرابلس. أحد الضباط الأحرار، وقد برز اسمه مع ثورة الفاتح عام 1969.

شخصية الزاهد والملاك لإخفاء شخصيته الحقيقية بوصفه شيخ قبيلة، ورجلًا سلطويًا من طراز الشخصيات المتعطشة للمال والسلطة. في هذا الوقت، كان جمال عبد الناصر يتصل بنا في مجلس قيادة الثورة؛ ويطالبنا بإعلان معمّر القذافي رئيسًا للمجلس، وكان يقول لنا صراحة: "إذا لم تعلنوا هذا، فسوف يكون هناك خطر على الثورة، وقد تتعرض للسرقة". قرّرنا، أخيرًا تحت ضغط عبد الناصر، الإعلان بأن معمّر القذافي هو رئيس مجلس قيادة الثورة وترقيته إلى رتبة عقيد، وكتبت بنفسي نصّ خبر الترقية وتعيينه رئيسًا لمجلس قيادة الثورة في 8 أيلول/ سبتمبر 1969، ثم سلّمت النصّ إلى الإذاعة.

في الأسابيع الأولى للثورة، كنّا نمارس مهماتنا من مبنى وكالة الأنباء الليبية والإذاعة كذلك. في هذا الوقت، بدأ بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة يمارس ضغوطًا من أجل الإعلان عن أسماء أعضاء المجلس، وكان الأخ معمّر يقاوم هذه الضغوط مُعللًا الأمر بشتى الأسباب، حتى قال صراحةً ذات يوم: "من مصلحة الثورة ألا نعلن الآن عن أسماء أعضاء المجلس"، لكن لم يكن أحدنا مقتنعًا بكلام معمّر. وفي حين كنت في زيارة سريعة لفرنسا، دخل الأخ معمّر إلى المستشفى لإجراء عملية جراحية بسيطة، فبادر أعضاء المجلس إلى الإعلان عن أسماء "أعضاء مجلس قيادة الثورة"[31]، وكان هذا بمبادرة من إمحمد المقريف.

في 16 كانون الثاني/ يناير 1970، أصدر مجلس قيادة الثورة قرارًا بتشكيل الوزارة برئاسة الأخ معمّر، وتوليت حقيبة وزارة الداخلية. كان أكبر تحدٍّ واجهني هو العمل على تأسيس ثقافة وعلاقة جديدة بين المواطن والشرطة، وكيف تقوم مؤسسة الشرطة بمهماتها بصفتها "شرطة الشعب"، وكيف نقنع المواطن بأنّ الشرطة هي "شرطته"، بخاصة أنّ القيادة شنّت حملة إعلامية على النظام الملكي العميل، وكنّا نصفه بأنه "نظام بوليسي". وكذلك فعلت وسائل

(31) جرى الإعلان عن أسماء أعضاء مجلس قيادة الثورة، في 10 كانون الثاني/ يناير 1970، وهُم، على الترتيب كما جاء في نص الإعلان: 1. معمّر القذافي، 2. عبد السلام جلود، 3. مختار القروي، 4. بشير هوادي، 5. عبد المنعم الهوني، 6. مصطفى الخروبي، 7. الخويلدي الحميدي، 8. محمد نجم، 9. عوض حمزة، 10. أبو بكر يونس، 11. عمر المحيشي، 12. إمحمد أبو بكر المقريف.

الإعلام، بحيث اعتقد المنتسبون إلى الشرطة أننا نقصدهم، وأدى هذا الوضع إلى تدنّي معنوياتهم، بالتلازم مع ظهور السلبية في أعمالهم، بل كانوا يتوارون عن الأنظار، فقرّرت أن أنظّم عدة لقاءات في مناطق كثيرة، فقلت لهم: "حينما تتحدث القيادة ووسائل الإعلام عن الحكم البوليسي، فنحن لا نقصد المنتسبين إلى الشرطة، وإنما نقصد السياسة التي كان النظام الملكي العميل ينتهجها، أمّا أنتم، فتنفذون الأوامر لأنكم في النهاية مواطنون، ولو أنكم كنتم في الجيش لقمتم بالثورة". والمثل الشعبي يقول: "الذي سبقه أخوه في المعركة ما ذل". ورغم مشاغلي، فقد أشرفت بنفسي، بمعونة وكيل وزارة الداخلية أحمد فوزي إهلال - وهو عقيد في الجيش كنت تحت إمرته في مدرسة الهندسة، وكان يتمتع بقدرٍ عال من سمو الأخلاق والمعرفة والعلم - على اختيار الملابس الجديدة للشرطة.

في إثر ذلك، اقترح الأخ معمّر عليّ أن أتولى وزارات الاقتصاد والخزانة والصناعة، فرفضت، لكنه ظل متشبثًا بمقترحه هذا، حتى إن الرئيس عبد الناصر اتصل بي مرتين، طالبًا مني أن أتولى الوزارات الثلاث نظرًا إلى أهميتها وحيويتها، وقال لي حرفيًّا: "يا عبد السلام، الثورة هي تغيير حياة الناس ورفع مستواهم المعيشي والحياتي. أنت الوحيد الذي يستطيع أن يفعل ذلك". وتحت ضغط المطالبات المتكررة من الأخ معمّر وبعض أعضاء مجلس قيادة الثورة، وعبد الناصر، قبلت على مضض، فطلبت من النقيب الريفي علي الشريف، الذي كان يشغل منصب الأمين العام لمجلس قيادة الثورة، أن يتصل بوكلاء الوزارات الثلاث ويطلب منهم تجميع كل الموظفين والعاملين في قاعة مركز البحوث الصناعية بمنطقة طريق الشط، ثم ذهبت للالتقاء بهم، وقلت: "جاءت الثورة لتحرّر طاقاتكم وقدراتكم وإبداعاتكم كمواطنين أحرار، ولتبدأوا رحلة بناء بلدكم. إن الثورة هي التي منحتكم هذه الفرصة. من الآن فصاعدًا، يجب على كل فرد منكم، أن يشعر أنه 'معمّر' و'المحيشي' و'أبو بكر يونس' و'المقريف'. يجب أن تتحرروا من الخوف، وأن تثوروا على البيروقراطية. وهذا كله يتطلب منكم أن تتمتعوا بثقة عالية في النفس. هذه الثورة ثورتكم، وإذا ما وقع أحد في أي أخطاء، فأنا أتعهد أمامكم أنني من سوف يتحمل

المسؤولية. تصرفوا دون خوف واعملوا بنشاط". وقلت: "أنا أفرّق بين الخطأ المقصود الذي يرقى إلى درجة التآمر، والخطأ المصاحب للعمل والحركة"، ثم وقّعت أمامهم قرارًا كنت قد أعددته. بعد الثورة مباشرة، أصبح الدكتور محمود المغربي رئيسًا للوزراء خلال فترة قصيرة، وقد حاولنا أن تكون الوزارات من نصيب الوطنيين والمناضلين ضد الملكية وأصحاب الكفاءات والقدرات العلمية، وكان من بين الوزراء في الوزارة التي شكّلتها، الدكتور علي عميّش والدكتور عبد الرحيم بالو، ومنصور الكيخيا، كما أن صالح مسعود بويصير[32] الذي عين وزيرًا للخارجية كان عضوًا في مجلس النواب في العهد الملكي وحاول مع مجموعة من النواب المعارضين سحب الثقة من حكومة الملك، فجرى إلقاء القبض عليهم، إلا أن بويصير هرب إلى مصر متنكرًا في زيّ امرأة، ثم عاد بعد الثورة إلى ليبيا. ثم تولى المنصب الأخ معمّر القذافي، فأصبحت نائبًا لرئيس الوزراء ووزيرًا للداخلية. في هذا الوقت، قررت قضاء فصل الصيف في المصيف البلدي، وهو مصيف شعبي يعرفه كل سكان طرابلس، وكانت دورات المياه والحمامات مشتركة، واحدة للرجال وأخرى للنساء. كنت مع أسرتي في المصيف عام 1970 وكان رواد المصيف من بسطاء الناس والمواطنين العاديين ورجال الشرطة والجنود والعمال وعدد قليل من الكوادر. ذات يوم جاءتني مجموعة من المصطافين، وقال هؤلاء: "نحن نشعر بإحراج وحتى إهانة حين نشاهد عبد السلام جلود وزوجته وأولاده وبناته، ينتظرون، في الطابور، دورهم لاستخدام هذه المرافق. نريد أن نتبرع بمبلغ من المال لنبني لك ولأسرتك دورة مياه وحمام مستقلين"، فقلت لهم: "أنا أشكر لكم مشاعركم، ولكنني أشعر بسعادة وراحة نفسية حينما أقف في الصف أنا وأسرتي وننتظر دورنا مثلكم". وهكذا كنت كل عام أقضي الصيف وسط الناس. في مطلع الثمانينيات، وحين بدأت بوادر الخلافات مع الأخ معمّر، أخذ معمّر يشعر بالضيق وربما الغيرة من وجودي وسط الناس، وكان يقول لي: "يا عبد السلام، خلينا نبني لك استراحة خاصة على شاطئ البحر في أي مكان ترغب فيه"، فرفضت الفكرة من أساسها؛

---

(32) صالح مسعود بويصير: سياسي وصحافي ومؤرخ، شغل منصب وزير الخارجية (8 أيلول/ سبتمبر 1969 - 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1970).

لأنني كنت أدرك أنه يريد ضرب صدقيتي، ولأن كان لمعظم الضباط الأحرار والوزراء والقيادات الشعبية وقيادات اللجان الثورية إمّا استراحات خاصة وإمّا كانوا يقيمون في المدن السياحية. ويبدو أن العناصر الفاسدة كانت تنقل له صورة زائفة وكاذبة عن وجودي في هذا المصيف، وأن عبد السلام يقضي سهرات راقصة ويشرب الخمور مع المصطافين، حتى إنه فاجأني، كما فاجأ رواد المصيف ذات ليلة، بزيارة غير متوقعة، فوجدني مع المصطافين، بعضنا يلعب طاولة الزهر وآخرون يلعبون "الكوتشينة" (الورق) ونحن نتناول الشاي. أمضى معمّر معنا نحو ساعتين ثم غادر. في اليوم التالي، اتصل بي هاتفيًّا وهو يشتم "العناصر الفاسدة". وقال: "هؤلاء أعطوني صورة زائفة عنك وعن رواد المصيف"، فقلت له: "يا أخ معمّر أنا أشعر بالأسف لحالك حين تعتمد على هؤلاء الفاسدين وتستمع لأكاذيبهم". في عام 1983، قرر الأخ معمّر هدم المصيف وإزالته، وكان هذا مثار حيرة وتساؤل من كل سكان طرابلس تقريبًا، لم يكن أحد يعرف أي سبب مقنع لهذا التصرف.

في أواخر الثمانينيات، كنت أنا ومعمّر في منطقة "جهنم" التي تقع جنوب شرق مدينة سرت، وقد عُرفت بهذا الاسم لارتفاع درجة حرارتها في فصل الصيف. وبينما كنّا مع بعض نتجاذب أطراف الحديث، ونستعيد ذكريات الماضي، جاء وقت صلاة المغرب، فقمنا للصلاة، وأَمّنا معمّر، وكنت خلفه قليلًا، فلاحظت أنه لم يسجد بشكل صحيح، فقلت له: اسجد صح يا رجل لكنه لم يُعر طلبي أيَّ اهتمام. وبعد الصلاة قال لي: أنا لا أريد أن أفقص لأحد، حتى لربي، أي إنني لا أريد أن أنحني لأحد حتى لربي.

الفصل الثاني

حينما أصبحت رئيسًا لوزراء ليبيا

قبل أن أتولّى رئاسة الوزراء، كنت قد شغلت منصب نائب رئيس الوزراء وزير الداخلية والحكم المحلي، بناءً على قرار من مجلس قيادة الثورة بتشكيل الوزارة في 16 كانون الثاني/ يناير 1970.

في عام 1972، بعد أن توليت منصب رئيس الوزراء، ركّزت جهودي كلها في سبيل صياغة منهاج تربوي يجمع بين المعلومة وبناء الشخصية؛ لأن المنهج في الوطن العربي كان يقوم بتدمير شخصية الطالب وزرع الخوف في قلبه، وما قيمة المعلومة من دون بناء شخصية الطالب الواثق بنفسه وشعبه وأمته، وتمتّعه باستقلالية قراره؟ ولأنني كنت مؤمنًا إيمانًا جازمًا بأن الديمقراطية والتعليم هما أساس تقدم الشعوب ونهضتها، فقد شكلت لجنة عليا ولجانًا فرعية ضمّت أفضل علمائنا وكوادرنا. عقدت عدة اجتماعات لمناقشة وضع خطط إعداد المنهج التربوي والثوري. وحدث خلال أحد اجتماعات مجلس الوزراء أن دخل عليّ مدير مكتبي، حاملًا ورقة صغيرة من الأخ معمّر تحمل ما يمكن اعتباره "تعليمات" أو "توجيهات". فغضبت غضبًا شديدًا واستأذنت المجلس ثم غادرت الاجتماع مسرعًا إلى مكتبي، واتصلت بالأخ معمّر وقلت له: "اسمع يا أخ معمّر، أنا بصفتي رئيسًا للوزراء أمارس صلاحياتي بحسب القانون، وأرفض أن أستلم منك أيّ توجيهات أو ملاحظات، أرجوك هذه آخر مرة تتعامل فيها معي بهذه الطريقة"، فقال لي: "يا أخي فكّني منك (أي اتركني لا تتصل بي)"، وبالفعل، بقينا فترة من الزمن لا نتحدث مع بعض. ونظرًا إلى أن المجتمع الليبي مجتمع بسيط وصغير، فقد شاع الخبر. وأذكر أن أخي عمر جاء لزيارتي، وقال لي: "اسمع يا عبد السلام. إمّا أن تكون رئيس وزراء مضبوط (أي حقيقي) وإمّا لا، أي ألا تكون مجرد صورة". ومع كل هذا واصلت اجتماعاتي مع اللجنة العليا واللجان الفرعية لصياغة "منهاج تربوي جديد". كنت حينما أجتمع

باللجنة العليا واللجان الفرعية المتخصّصة أبدأ حديثي معهم بالقول: "يجب أن يركز المنهاج على بناء الشخصية أولًا، ثم المعلومة ثانيًا. لا قيمة للمعلومة إذا ما دمّرنا شخصية الطالب، يجب أن يُعدّ الطالب حتى يكون مواطنًا واثقًا من نفسه ويتمتع باستقلاليته الشخصية واستقلالية قراره، لأنني أؤمن بأن تقدم الشعوب والأمم يقوم على الديمقراطية وعلى التعليم. الأحرار هم الذين يبنون". وفي النهاية أصبح لدينا منهاج قوي ومتطور وعصري، وكنت أقول دائمًا لليبيين، لو تمكنّا من تعليم الليبيين وصرفنا كل أموال النفط على التعليم وخلقنا جيشًا من العلماء والباحثين والمخترعين، فسيكون النفط أدى مهمته. وقلت: "يجب أن نرسل خلال عشر سنوات ما لا يقل عن 100 ألف طالب للدراسة في الخارج في أميركا وكندا وأوروبا الغربية، ليشكلوا جيش الثورة العلمية، لأن الثروة الحقيقية هي ثروة التكنولوجيا، والمناجم الحقيقية التي لا تنضب هي مخازن الأبحاث والاختراعات لا مناجم المعادن والنفط والغاز".

بعد الثورة مباشرة كثفنا لقاءاتنا وحواراتنا مع كوادرنا ونخبنا ومثقفينا. ولأن الثورة خرجت من رحم الشعب، فقد كانت ثقتنا بالشعب الليبي لا حدود لها. وقد سمحت لنا هذه اللقاءات والحوارات أن نتعرف على تلك الكوادر والنخب والمثقفين. وأجرى مجلس قيادة الثورة تعديلًا وزاريًا دخل بموجبه العديد من أولئك الكوادر والمناضلين في تشكيل الوزارة، بعد أن اعتمدنا في المرحلة الأولى على مناضلين أغلبهم من حركة القوميين العرب، في إدارة تلك المرحلة.

شهدت بداية السبعينيات ثورة تعليمية؛ فقد مثّل المنهاج الجديد قفزة نوعية وإنجازًا ثوريًا حاسمًا، وأعلنّا إلزامية التعليم ومجانيته. وقد أصدر مجلس قيادة الثورة قانونًا في هذا الشأن في 9 تشرين الأول/ أكتوبر 1975. وبعد أن كانت معظم المدارس في العهد الملكي متهالكة، أو في بيوت لا تتوافر فيها أدنى الشروط التربوية والتعليمية، قامت الثورة ببناء المدارس والكليات والمعاهد والجامعات في طول البلاد وعرضها، ونفذنا برنامجًا ثوريًا لمحو الأمية، وبرنامجًا للمدارس المتنقلة، حيث تتنقل هذه المدارس مع تنقل البدو الرحل،

حتى تمكنا من توطينهم. وفي فترة قياسية تمّ استيعاب جميع الطلبة من الجنسين في المدارس. ولتمكين الطلبة الفقراء من دخول الجامعات والمعاهد العليا، أصدر مجلس الوزراء قرارًا بتقديم منحة شهرية لجميع الطلبة في الجامعات والمعاهد العليا، بلغت خمسين دينارًا شهريًا (ما يعادل 160 دولارًا). وقد قامت حركة ثورية طلابية في 7 نيسان/ أبريل 1976، قادها الثوريون والوطنيون لمواجهة مجموعة من الماركسيين الذين استغلوا عدم قبول الطلبة قرار التدريب العسكري العام. وحققت فترة السبعينيات والثمانينيات قفزة نوعية في إرسال الطلبة الليبيين إلى الخارج، حيث كانت ليبيا حتى منتصف الثمانينيات الأولى بين الدول العربية في عدد الدارسين في الخارج (ثم العراق ثانيًا، والمملكة العربية السعودية ثالثًا). وكنت أقول: حينما يعود هؤلاء الطلبة إلى ليبيا بعد أن ينهوا دراساتهم الجامعية والعليا، فإنهم سوف يحولون ليبيا إلى جنة على وجه الأرض. لكن "الطاغية" تنبّه لهذا وأعلن أن النفط ملك له ولأولاده، وتبنّى سياسة التخويف والتجهيل والإفقار، وأعلن صراحة أن على كل ليبي أن "يدبر رأسه (أي أن يبحث عن وسيلة للعيش) وأن دور السلطة هو دور الشرطي". وهكذا أوقف الطاغية إرسال الطلبة للدراسة في الخارج، وحين اعترضت على القرار، قال لي: "إن المخابرات الأميركية والكندية والأوروبية وكذلك العراقية والسعودية تجند الطلبة ضدي". إنه تفكير ساذج وسخيف، وقد أدّى أزلامه من الطلبة الدارسين في الخارج دورًا في إقناعه بهذا التفكير، كما دخلوا في صراعات ومشكلات مع الطلبة قصد السيطرة عليهم. وحينما رفض الطلبة ذلك، لفّقوا لهم التّهم زورًا وبهتانًا، بأنهم "معادون للثورة" و"يتآمرون عليها". ودفع هذا الطاغية إلى قطع المنح عنهم عام 1983، وقد اعترضت على هذا القرار، وحين اجتمعت به قلت له: "إن الطلبة ليسوا ضد الثورة، ولا يتآمرون عليها. إنهم ضد الطلبة الانتهازيين والذين يدّعون الثورية ويشيعون في أوساط الطلبة أنهم مكلفون منك". ثم قلت له: "إنك تعتقد أن المخابرات تجند الطلبة، ولكنني أقول لك الآن بعد قطع المنح عنهم سيكونون صيدًا ثمينًا في هذه الدول، لأنك حاربتهم في عيشهم ودراستهم". ثم قررت أن أعقد ملتقى للطلبة الدارسين في الخارج، وكان لي ذلك في غابة جودايم عام 1983 على طريق

طرابلس – الزاوية. وقد تخلف عدد قليل جدًا من الطلبة عن الحضور، وأجريت معهم عدة حوارات ونقاشات، وأجبت عن كل الأسئلة التي طرحوها، وبذلك حلّت الثقة والاطمئنان محل الخوف والشك. ثم أقمت لهم حفل عشاء، واتخذت قرارًا بإعادة المنح المالية لهم. في عام 1985، عُقد ملتقى آخر، هو الثاني للطلبة الدارسين في الخارج، حضره كل الطلبة، بمن فيهم الطلبة الذين لم يحضروا الملتقى الأول.

وأولت الثورة أيضًا تعليم القرآن وتحفيظه عناية خاصة. وأصدر مجلس الوزراء قرارًا بأن يُعامل حفظة القرآن معاملة خريجي الجامعات من حيث المرتّب والامتيازات المادية والمعنوية، كما عملت الثورة على نشر المدارس القرآنية في جميع أنحاء البلاد.

بعد أن قادت الثورة "ثورة النفط" و"ثورة الدول المالكة للخامات" بتحقيقها سعرًا عادلًا للبرميل إلى حد بعيد، وبعد أن توافرت الأموال، بدأت الثورة في إحداث تحولات هائلة وعميقة في بنية المجتمع، تحولات اقتصادية واجتماعية، ونفذت الخطط الخمسية والعشرية وتبنّت خططًا طموحة للتصنيع والإصلاح الزراعي. وتركزت خطط الإصلاح الزراعي في الجبل الأخضر وسهل المرج والكفرة والسرير وسهل الجفارة. وقد حدث أن جاءني بعض كوادر الجبل الأخضر، وقالوا لي: "اتركوا لنا جبلنا الأخضر أخضر"؛ لأن عمليات الإصلاح تتطلب قطع الأشجار والحشائش والأعشاب، وهذا يبيّن كيف أن العقلية المحافظة ترفض التغيير، وأصبحت ليبيا خلال السبعينيات والثمانينيات ورشة عمل كبيرة.

وقد رصدت الثورة الأموال لمداهمة مدن الصفيح والأكواخ التي كانت تحاصر المدن من زوارة وصبراتة في الغرب إلى طبرق ودرنة في الشرق، ونفذت أكبر مشروع للإسكان "مشروع الفاتح للإسكان"، وأسّسنا المصرف العقاري لإعطاء القروض العقارية لمحدودي الدخل من دون فوائد وبأقساط بسيطة لمدة 30 و40 سنة، ثم قرّرنا إعفاءهم من دفع الأقساط، أما الفئات المتوسطة فأعطيت القروض بفوائد بسيطة. وفي نهاية السبعينيات، كان عندنا

فائض في الشقق لسببين: كان الأول يتمثّل في الأعداد الهائلة من الشقق التي بنيناها؛ أمّا السبب الثاني، فلأن الكثير من الليبيين صاروا يبنون "الدارات" و"الفلل" نتيجة ارتفاع مستوى المداخيل.

وحققت الثورة أيضًا قفزة نوعية في مجال البنية الأساسية، حيث تمّ بناء شبكة خدمات عصرية حديثة[1]. وفي مجال الصحة، تم بناء مستشفيات حديثة، ووصلت معدلات الأطباء والأسرّة لكل ألف مواطن إلى معدلات قريبة جدًّا من المعدلات التي كانت في الدول المتقدمة. وحققت الخطط الاقتصادية والاجتماعية في العشرين سنة الأولى، معدلات نموّ تراوح بين 14 و16 في المئة، وقد وصل دخل الفرد إلى معدلات قريبة من معدلات الدول المتقدمة.

كانت فترة السبعينيات إلى منتصف الثمانينيات، هي الفترة الذهبية في حياة الليبيين. لقد أنشأنا مؤسسة السلع التموينية لاستيراد ودعم المواد الضرورية، وحافظت هذه الخطوة على القوة الشرائية لليبيين، وسيطرت على التضخم، وأشاد الكثير من المؤسسات الدولية المالية والاقتصادية بدور هذه المؤسسة.

وأصدرنا قانون الضمان الاجتماعي، فأرسلنا عدة وفود إلى دول أوروبا الشمالية لدراسة قوانين الضمان الاجتماعي في هذه الدول. وأذكر أننا لمّا أصدرنا القانون رقم (13) بشأن الضمان الاجتماعي في عام 1980، وبدأ العمل به، اكتشفنا أن العامل حينما يكون مريضًا ولا يذهب إلى العمل يحصل على راتب 110 في المئة من راتبه، وأذكر أن عبد العاطي العبيدي، وكان وزيرًا للعمل والضمان الاجتماعي، جاءني وقال لي: "هذا القانون دعوة للكسل وادعاء المرض"، فقمنا بتعديل القانون، وهذا يثبت كم كانت الثورة منحازة إلى العمال.

---

(1) رفعت ثورة الفاتح شعار "مسكن صحي لكل مواطن"، ولذلك التزمت بتوفير المساكن من خلال الإسكان العام والإسكان الاستثماري والإسكان الزراعي وإسكان محدودي الدخل، وتم منح أعداد كبيرة من القروض العقارية، وقد وصلت إلى التغطية الكاملة لمشروعات إسكان محدودي الدخل والإسكان العام.

ثم أسّسنا جمعية "الدعوة الإسلامية"[2]، وعينّا الشيخ محمود صبحي على رأس الجمعية، وهو رمز وطني كبير، وكان عضوًا في مجلس النواب في العهد الملكي، وكان ضمن مجموعة صغيرة من مجلس النواب، ولكنها نشيطة في معارضة النظام الملكي العميل، وكانت معارضة لوجود القواعد البريطانية والأميركية. إن جوهر "الصحوة الإسلامية" أو محتواها، الذي بشّرت به ثورة الفاتح من سبتمبر، هو الثورة على "إسلام الرجعية العربية"، "إسلام أميركا" الذي تحاكي فيه المساجد والجوامع الضخمة القصور الضخمة، مقرونةً بالعبودية والظلم والقمع والقهر؛ وتقديم "إسلام الله" عزّ وجل كما جاء به الرسول الكريم محمد (صلى الله عليه وسلم)، حيث الصلاة في جامع بسيط وحتى تحت شجرة، مقرونًا بالحرية و﴿أَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: 38) وبالعدالة والمساواة. كانت مهمة الجمعية الاتصال بالمسلمين أفرادًا وجمعيات، وتقديم الدعم المادي السخيّ، والمساهمة في إنشاء المساجد والجوامع ومدارس حفظ القرآن وتنظيم مسابقات حفظ القرآن وتجويده، وقد تميّز الطلبة الليبيون فحصلوا على أفضل المراتب. كما أسّسنا "صندوق الجهاد وجمع الزكاة" والتبرعات لتمويل نشاطات الجمعية. وبفضلها، تمكنت الثورة من الوصول إلى المسلمين في شتى أصقاع الأرض، والوقوف معهم، وتبني قضاياهم. لقد بعثت الثورة روحًا جديدة في الجسم الإسلامي، وأعطت المسلمين الثقة بأنّ القرن الحادي والعشرين هو قرن الإسلام بلا منازع.

في بداية التسعينيات، قرر الطاغية حَرْف الجمعية عن أهدافها؛ فأصبحت جهازًا دعائيًا في خدمته، وأصبحت الجمعية تبحث عن الذين يقبلون بالعمل في خدمته، لا في خدمة الإسلام كما كانت مهمتها عند تأسيسها.

---

(2) عقدت جمعية الدعوة الإسلامية العالمية مؤتمرها التأسيسي الأول عام 1970 وحضره ثلة من دعاة العالم الإسلامي وعلمائه، منهم الأساتذة: محمود صبحي رئيس الجمعية، أحمد حسن الباقوري، مالك بن نبي، عبد الحليم محمود، أحمد الشرباصي، عبد الله قنون، حسني جوزو، عبد القهار مذكر، عبد الكريم سايتو، الحبيب المستاوي، أحمد توتونجي، مطاع أدهمي، المهدي بن عبود، عمر بهاء الدين الأميري. وقد مثلت الجمعية واحدة من أكبر المنظمات الإسلامية العالمية المختصة التي يمتد نشاطها على مستوى العالم وحيثما وجِد مسلمون.

وفي هذا السياق، لا بد من أن يقف الإنسان وقفة تحية وإجلال للمخرج السينمائي العالمي الراحل مصطفى العقاد[3] الذي تمكن من اختراق إمبراطورية هوليوود السينمائية العالمية، ونجح في تقديم نفسه مخرجًا قديرًا ومميّزًا، ولولاه لما تمكنت ثورة الفاتح من تقديم الإسلام بصفته ثورة ثقافية عن طريق فيلم "الرسالة". لقد قدمت الثورة، عبر هذا الفيلم، الإسلام للعالم كله بصفته دعوة "ثقافية"، لأن المبدأ الأساس في الإسلام هو "الشورى"، ودعوته تقوم على الحوار والجدل والإقناع ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ (البقرة: 256)، ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ (الكهف: 29)، ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: 125)؛ ولذا فالإسلام لم يكن (فتحًا بالسيف)، وإن الآية الكريمة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ﴾ (آل عمران: 159) خاصة بالرسول. أما بعد وفاته صلى الله عليه وسلم، فيجب أن يعود المسلمون إلى القاعدة الأساسية وهي ﴿وأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: 38)، أي الديمقراطية. لقد شكل الفيلم، عن حق، فتحًا "ثقافيًا إسلاميًا". كان العمل في الفيلم، في البداية، يجري بين ليبيا ومصر والكويت، على الرغم من أن الدور الرائد من حيث الفكرة والعمل والتمويل يعود إلى ثورة الفاتح؛ إذ أمضيت أنا والأخ معمّر الليالي والأيام والأسابيع، وحتى الشهور في حوارات طويلة مع المخرج من أجل استشراف آفاق هذا العمل التاريخي، ولما تمّ الاتفاق على بدء العمل وكتابة السيناريو، ومن ثم عمليات التصوير، فوجئنا بأن الرئيس محمد أنور السادات أعلن الانسحاب من العمل تحت ضغط الأزهر، فقرّرنا المضي في العمل وتولينا تمويل الفيلم كليًا (نحو 60 مليون دولار).

---

(3) مصطفى العقاد (1 تموز/ يوليو 1930 - 11 تشرين الثاني/ نوفمبر 2005): مخرج ومنتج سينمائي سوري، ولد في حي الأزبكية بمدينة حلب، ثم غادرها إلى الولايات المتحدة الأميركية لدراسة الإخراج والإنتاج السينمائي في جامعة كاليفورنيا في لوس أنجلوس، وأقام فيها حتى أواخر مراحل حياته. يعدّ من أهم المنتجين والمخرجين العرب الذين أبدعوا في مجال سينما هوليوود؛ إذا أنتج خلال حياته نحو 13 فيلمًا، من بينها فيلم "الرسالة" (1976)، أول فيلم عربي عالمي يتحدث عن رسالة الإسلام، وفيلم "أسد الصحراء" (1981) عن المناضل الليبي عمر المختار، إضافة إلى سلسلة من أفلام رعب الهالوين التي تجد إقبالًا كبيرًا في الولايات المتحدة.

أحدث الفيلم "ثورة" في العالم كله، وسجل أعلى نسبة مشاهدة يمكن أن يحققها فيلم، وحصل أيضًا على أكبر عدد من الجوائز، وعُرض في صالات السينما في معظم دول العالم. وإزاء هذا النجاح الباهر، أعلن السادات في خطاب بمجلس الشعب أن مصر "مشاركة في صناعة الفيلم". بعد ذلك، في عام 1981، شرعنا في الإعداد لملحمة الجهاد الليبي من خلال فيلم "أسد الصحراء عمر المختار"[4]؛ هذا العمل التاريخي الجبار الذي نجح في تقديم جهاد الليبيين ضد الغزو الاستعماري البربري الإيطالي، وتعرّف العالم عن طريق هذا الإنجاز الثوري على جهاد الشعب الليبي الصغير في عدده، الكبير في تضحياته وجهاده، ضد أشنع استعمار في العالم. لقد تعرف العالم على معسكرات الاعتقال الجماعي التي كانت تحوي مئات الآلاف من الليبيين، حتى صار الليبيون إمّا في صفوف المقاومة والجهاد، وإمّا في معسكرات الاعتقال الجماعي، إضافةً إلى نفي الآلاف إلى إيطاليا. وإذا كان الاستعماران الفرنسي والإنكليزي يلجآن إلى نفي القيادات الوطنية والجهادية، فإن الاستعمار البربري الإيطالي نفى عشرات الآلاف من الليبيين إلى إيطاليا. وقد عُرض الفيلم في معظم دول العالم، وحقق أكبر أعداد مشاهدة وأكبر دخل وأكبر عدد من الجوائز، مقارنة ببقية الأفلام في تلك الفترة.

خاضت ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة أيضًا معركة ثقافية أخرى على مستوى العالم، واستثمرنا دورنا في نصرة الشعوب بأفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية، ووقوفنا مع حركات التحرر في العالم، وحركات اليسار، لحشد التأييد كي تصبح اللغة العربية لغة رسمية في الأمم المتحدة ومنظماتها، بصفتها لغة حيّة وعالمية إلى جانب اللغات الأخرى، وقد دفعت ليبيا أكبر مساهمة مالية في تمويل هذه العملية.

وفي المجال القومي، قامت ثورة الفاتح بتطبيق شعار "فلسطين قضية العرب الأولى". والفلسطينيون والعرب يعرفون كيف كانت الثورة الفلسطينية

---

(4) فيلم عمر المختار "أسد الصحراء" (Lion of the Desert): وهو فيلم حربي ملحمي تاريخي بإنتاج ليبي، وقد أدى دور البطولة الممثل الأميركي أنطوني كوين الذي جسد دور المجاهد الليبي عمر المختار في مقاومة الاحتلال الإيطالي للأراضي الليبية، وقام بإخراج الفيلم السوري مصطفى العقاد عام 1981.

قبل ثورة الفاتح، وكيف أصبحت. لقد تبنت ثورة الفاتح القضية الفلسطينية والثورة الفلسطينية عملًا وجهادًا، لا قولًا. لقد دعمنا الثورة الفلسطينية بالمال والسلاح، كما فتحنا ليبيا أمام الفصائل الفلسطينية لإقامة معسكرات التدريب ودربنا وسلّحنا الآلاف، ولقد اعتبرت واشنطن هذه المعسكرات، إضافة إلى "معسكرات التدريب" لحركات التحرير في أفريقيا وأميركا اللاتينية، معسكرات إرهابية ظلمًا وعدوانًا. وكانت قضية فلسطين أولوية الأولويات في حركة الثورة، وطبقنا على الأرض قومية العمل الفدائي وقومية المعركة. كما دربنا الآلاف من المتطوعين العرب، وحينما قررنا إرسالهم إلى سورية ومصر، رفض السادات وحافظ الأسد[5] استقبالهم. والقادة الفلسطينيون، سواء الذين على قيد الحياة أو الذين استشهدوا على طريق تحرير فلسطين، يعرفون ذلك، كيف لا وقد كانت كلمة "القدس" هي "كلمة السر" ليلة الفاتح. كنّا - أنا والأخ معمّر - نسهر الليالي مع القيادات الفلسطينية في التفكير والتخطيط من أجل تطوير الكفاح المسلح والعمل الفدائي، كي يكون أكثر ديمومة وأكثر جرأة، وقد كنّا نعمل معًا مشكّلين فريقًا فلسطينيًا واحدًا.

لقد كانت رحلة معاناة وكفاح مضنية، ولكن كنّا جميعًا نجد أنفسنا في هذا المناخ، كما قمنا بدعم حاضنة الثورة الفلسطينية النضالية والشعبية (الحركة الوطنية اللبنانية) بالمال والسلاح، بقيادة شهيد فلسطين والأمة كمال جنبلاط[6]. وقامت ثورة الفاتح بنشر الوعي الثوري والقومي الوحدوي في الوطن العربي، وانتشرت الثقافة الوحدوية من المحيط إلى الخليج، وأصبحت قضية الوحدة مطروحة بقوة على الواقع العربي. يكفي أن الملك الحسن الثاني[7] والحبيب بورقيبة وقّعا "اتفاقيتَي" الوحدة تحت دعوات وصيحات المد

(5) رئيس الجمهورية العربية السورية (1970-2000).

(6) كمال جنبلاط (6 كانون الأول/ ديسمبر 1917 - 16 آذار/ مارس 1977): زعيم سياسي لبناني، مؤسس الحزب التقدمي الاشتراكي، عُرف بمواقفه المؤيدة والداعمة للقضية الفلسطينية، حيث ترأس الحركة الوطنية إبان الحرب الأهلية في لبنان. انتُخب بالإجماع أمينًا عامًّا للجبهة العربية المشاركة في الثورة الفلسطينية عام 1973.

(7) ملك المملكة المغربية (1961-1999).

الوحدوي الذي خلقته ثورة الفاتح. ولكن - للأسف الشديد - فشلت هذه المحاولات، وهذه التجارب؛ لغياب الثقافة الوحدوية، ولعدم وجود طلائع تقود العمل الوحدوي، ولتناقض الوحدة مع "كراسي الحكام". أضربُ مثلًا على ذلك؛ فحينما كانت القوى السياسية في كل من المغرب والجزائر وتونس تقود الكفاح ضد الاستعمار الفرنسي، اتفقت هذه القوى على إقامة وحدة بينها بمجرد نيل الاستقلال، ولكنها تخلت عن هذا الاتفاق، لأنّ كلًّا منها كانت تريد "التمتع" بالحكم الوطني (إنه الكرسي)، يا سبحان الله، حركة الإخوان المسلمين الدعوية، التي عمرها أكثر من 80 عامًا، وأصبحت حركة سياسية تؤمن بصندوق الاقتراع، باتت "حركة إرهابية"، وحركتا "حماس" و"الجهاد الإسلامي" إرهابيتين، وكل فدائي ومناضل فلسطيني هو "إرهابي"، وحزب الله الذي أعاد الاعتبار للأمة والمقاومة هو "إرهابي"، ومِن جهة منْ؟ ليس من الولايات المتحدة فحسب، بل من "عرب أميركا" أيضًا؛ لأنهم لا يريدون مصر أن تقود الأمة والإسلام، متناسين حقيقة أن الإرهاب والفساد "ابنان شرعيان"، أو "غير شرعيين"، للعبودية والظلم والقمع والقهر الذي تمارسه هذه الأنظمة الرجعية، وكذلك الأنظمة الدكتاتورية الأخرى. إنه زمن "البترودولار" الذي أفسد كل شيء إلى حدّ التعفن. إنه الزمن الرديء بامتياز.

في المقابل، أعطينا الجُزر في البحر المتوسط أهميةً كبرى، وتحديدًا القريبة من الوطن العربي (مالطا وقبرص) خدمةً للأمن القومي العربي، حيث أقمنا أفضل العلاقات مع مالطا في عهد رئيس الوزراء دوم منتوف[8]؛ علاقات اقتصادية وسياسية وثقافية، وقد مارسنا ضغوطًا على رئيس الوزراء منتوف للتخلص من القوات البريطانية في مالطا، وفي أحد الاجتماعات معه في طرابلس تصرف معي بـ"عقلية التاجر" معتقدًا، أو يريد أن يقول لي، إذا أردتم منّا أن نتخلص من القوات البريطانية فعليكم أن تدفعوا لمالطا 78 مليون دينار

(8) دوم منتوف (1916-2012): سياسي مالطي كان له دور مهم في تاريخ مالطا، فقد ترأس حزب العمال المالطي (1948-1949)، وشغل منصب رئيس وزراء مالطا في حقبتين مهمتين في تاريخها؛ الأولى (1955-1958)، عندما كانت مالطا مستعمرة بريطانية، أمّا الثانية فهي بعد أن نالت استقلالها (1971-1984).

مالطي سنويًّا، فرددت عليه قائلًا: "لا تعتقد يا صديقي أن طرد القوات البريطانية هو خدمة لليبيا، لا، القوات البريطانية هي في مرمى نيراننا لا تشكل أي تهديد لنا. إذا كنتم تريدون استكمال سيادتكم بالتخلص من هذه القوات فنحن سندعمكم ونقف معكم".

وبفضل ثورة الفاتح من سبتمبر، تحررت مالطا من القواعد البريطانية. وحصل أن عقد اجتماع للأحزاب الاشتراكية الأوروبية في مالطا، وقد دعاني الصديق منتوف مشكورًا إلى إلقاء خطاب في الاجتماع، وكان مكتوبًا ومركزًا، ويجمع بين السياسة والأيديولوجيا والفلسفة، وقد أعجب الأخ معمّر بالخطاب، وأمر وزير التعليم بأن يُدرج الخطاب موضوعًا في كتاب القراءة للمرحلة الإعدادية والثانوية.

وقد أولينا جزيرة قبرص الاهتمام نفسه، وأقمنا معها أفضل علاقات صداقة وتعاون، واستثمرنا الجهد والمال في هذه الجزيرة، وكانت لنا علاقات صداقة ومحبة ممتازة مع المطران مكاريوس الثالث[9]، الذي زارنا عدة مرات، وكانت لنا معه أحاديث مطولة ومعمقة ومفيدة، فهو إنسان كله إنسانية، وله تقدير خاص للعرب ومناصر قوي لقضية الشعب العربي في فلسطين. وبوفاته، خسرنا صديقًا حميمًا ومناصرًا شديد المراس لقضايا الأمة.

ثم أولينا أفريقيا اهتمامًا خاصًا بعد الثورة مباشرة؛ لأننا نعتبرها العمق الاستراتيجي للأمة العربية، إضافة إلى أننا نعتبرها "قارة مسلمة"، وقد وقفنا بقوة مع حركات التحرير في أفريقيا، وقدّمنا كل الدعم المالي والعسكري والسياسي والإعلامي. لقد وقفنا مع المؤتمر الوطني الأفريقي في جنوب أفريقيا بقيادة المناضل الكبير نيلسون مانديلا[10]، ومع حركات التحرير: حركة سوابو في

(9) مكاريوس الثالث (13 آب/ أغسطس 1913 - 3 آب/ أغسطس 1977): سياسي ورجل دين، شغل منصب رئيس قبرص المستقلة منذ عام 1959 حتى وفاته، كان من دعاة الوحدة مع اليونان إبان الاحتلال البريطاني لجزيرة قبرص، وقد ارتبط بعلاقات إيجابية وثيقة مع الدول العربية.
(10) سياسي وثوري، عُرف بنضاله ومقاومته لنظام الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، تولى منصب رئيس جمهورية جنوب أفريقيا (1994-1999).

ناميبيا، وحركة تحرير أنغولا، وحركة تحرير موزامبيق، وحركة تحرير الرأس الأخضر، وحركة تحرير روديسيا بقيادة روبرت موغابي[11]، ودرّبنا وسلّحنا أيضًا عشرات آلاف المقاتلين في ليبيا، كما قاتل ضباطنا وجنودنا جنبًا إلى جنب مع مقاتلي هذه الحركات. لقد ساعد دعمنا ووقوفنا مع حركة تحرير أنغولا وموزامبيق وجزر الرأس الأخضر في بداية هزيمة الاستعمار البرتغالي. وقاد هذا إلى تقوية المعارضة في البرتغال ضد حكم أنطونيو سالازار[12]، وبدأت الأصوات تتعالى لسحب القوات البرتغالية من مستعمراتها في أفريقيا، وأدى هذا إلى تصاعد رياح الثورة والتغيير في البرتغال. كما قدمنا دعمًا ماليًّا وسياسيًا للثورة البرتغالية بقيادة الحزب الاشتراكي البرتغالي الذي كان يقوده السيد ماريو سواريش[13]، وتكونت بيننا علاقة صداقة قوية.

ثمّ إننا وضعنا استراتيجيا لمواجهة التغلغل الصهيوني في القارة الأفريقية، ونجحنا إلى حد بعيد في القضاء على هذا السرطان الصهيوني في أفريقيا، وبنينا علاقات اقتصادية وسياسية وثقافية قوية، واستثمرنا الكثير من الوقت والمال والجهد لدعم هذه الدول، سواء في شكل مساعدات وقروض، أو استثمارات. وبفضل هذه الاستراتيجيا، نجحنا في جعل أفريقيا تقف مع القضايا العربية، سواء في الأمم المتحدة أو المنظمات الدولية الأخرى، وخاصة قضية الشعب الفلسطيني، وخسرت الصهيونية معظم مواقعها إنْ لم نقل كل مواقعها، وأدّت الدول الأفريقية، مع دول عدم الانحياز، دورًا مركزيًا في استصدار

(11) حرب الغابة الروديسية، أو حرب تحرير زيمبابوي: هي حرب أهلية نشبت في زيمبابوي في تموز/ يوليو 1964 وامتدت إلى كانون الأول/ ديسمبر 1979 في دولة روديسيا غير المعترف بها، التي سُميت لاحقًا زيمبابوي روديسيا. وكان من أبرز أطرافها جيش التحرير الوطني الأفريقي الزيمبابوي، الجناح العسكري للاتحاد الوطني الأفريقي الزيمبابوي بقيادة روبرت موغابي.

(12) أنطونيو دو أوليفيرا سالازار (28 نيسان/ أبريل 1889 - 27 تموز/ يوليو 1970): سياسي برتغالي، شغل منصب رئيس الوزراء في البرتغالي في الفترة 1968-1932. قام بتقييد الحريات في البلاد وإقامة دولة شمولية، وتمسك بالاحتفاظ بسيطرة البرتغال على المستعمرات البرتغالية في أفريقيا.

(13) ماريو سواريش (1924-2017): مؤسس الحزب الاشتراكي في البرتغال، كان شخصية لها دور كبير في الانتقال الديمقراطي في البرتغال، والحياة السياسية في البلاد خلال عدة عقود، شغل خلالها مناصب وزير الخارجية، ورئيس الحكومة، ورئيس الجمهورية (1986-1996).

قرار من الجمعية العامة للأمم المتحدة، باعتبار الصهيونية "شكلًا من أشكال العنصرية"[14]. ولكن - للأسف - وبعد زيارة العار والخيانة التي قام بها السادات، وبعد أن كشف ياسر عرفات حقيقته واعترف بـ"الدولة اليهودية" في فلسطين في أكبر عملية إذلال - إذْ طلبت منه الولايات المتحدة أن يعلن اعترافه باللغتين العربية والإنكليزية - ألغت الأمم المتحدة هذا القرار عام 1991. بعد مؤتمر فاس بالمغرب، شنّت الصهيونية، بدعم من واشنطن والغرب، هجومًا معاكسًا عادت في إثره من جديد إلى أفريقيا، وأعادت معظم الدول الأفريقية علاقاتها السياسية والاقتصادية مع الكيان الصهيوني. ولأن العرب حاربونا بدلًا من أن ينضمّوا إلينا في "معركة أفريقيا"، وحاولوا تشويه دورنا، بدأ الأفارقة يقولون لنا: "تريدون منّا أن نكون عربًا أكثر من العرب؟".

وهكذا انتكس هذا الهدف الاستراتيجي والتاريخي الذي كان نتيجة كفاح ونضال استمرّا عقدين من الزمن، امتزج فيه العمل العسكري بالعمل السياسي والاقتصادي والثقافي. لقد ضيّع العرب، عن قصد وضعف، فرصة تاريخية لأنْ تكون أفريقيا صديقة وحليفة لهم، مشكِّلة "عمقًا" للأمة العربية. وفي هذا السياق، اعتبرنا أميركا اللاتينية والوسطى من الساحات المهمة لحركة الثورة لسببين: الأول، أن ثورة الفاتح ثورة عالمية، وهي نصير قوي لحركات التحرر وللشعوب المظلومة في العالم، لذا وقفنا معها وقمنا بدعمها بالمال والسلاح؛ والسبب الآخر هو محاربة الوجود والنفوذ الأميركي في هذه القارة؛ ذلك أنّ أميركا الجنوبية هي "الحديقة الخلفية" للولايات المتحدة التي تناصبنا العداء. لقد وقفنا بقوة مع ثورة نيكاراغوا بقيادة حركة التحرير

(14) قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة رقم 3379: اعتُمِد في 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1975 بتصويت 72 دولة بـ"نعم" مقابل 35 بـ"لا" (وامتناع 32 عضوًا عن التصويت). نص القرار على أن الصهيونية هي شكل من أشكال العنصرية والتمييز العنصري، وطالب جميع دول العالم بمقاومة الأيديولوجيا الصهيونية التي بحسب القرار تشكل خطرًا على الأمن والسلم العالميين. وكثيرًا ما يُستشهد بهذا القرار في المناقشات المتعلقة بالصهيونية والعنصرية. ألغي هذا القرار بموجب القرار 46/ 86 يوم 16 كانون الأول/ ديسمبر 1991.

"ساندنيستا"[15]، ودعمناها بالمال والسلاح، وكانت لنا علاقات شخصية مع زعمائها وعلى رأسهم المناضل الصلب دانييل أورتيغا. وبفضل دعمنا هذا انتصرت الثورة هناك، وأصبحنا صديقين وحليفين. ووقفنا أيضًا بقوة مع الحركات الثورية في إلسلفادور وبوليفيا وتشيلي والإكوادور، وغيرها من الحركات الثورية، وقدّمنا دعمًا ماليًا وتسليحيًا، كما دربنا الكثير من كوادر هذه الحركات ومناضليها. وأريد أن أؤكد أنه لا توجد حركة تحرير أو حركة ثورية في العالم لم نصل إليها ولم ندعمها.

وفي هذا الإطار، بدأ الاتحاد السوفياتي ينهار، بعد أن شاخ، في آخر عهد نيكيتا خروشوف وبداية عهد ليونيد بريجنيف. لقد ألقى خروشوف خطابه الشهير في نيويورك، خلال جلسة مجلس الأمن، وقال فيه إن المدافع والدبابات طريقها إلى "الأفران". في هذا الوقت، اعتبر ماو تسي تونغ وكيم إيل سونغ وفيدل كاسترو[16]، أن خروشوف "خان" الثورة الاشتراكية. وقد ارتكب الاتحاد السوفياتي خطأ استراتيجيًا قاتلًا حين اعتقد أن المعركة مع الولايات المتحدة والغرب هي ساحة "جدار برلين" وأوروبا حيث نصب الصواريخ في أوروبا الشرقية، وركز أيضًا على تطوير ترسانته النووية والهيدروجينية، وعلى تقنية الصواريخ القصيرة والمتوسطة والعابرة للقارات، في حين أن المعركة الحقيقية كانت في العالم الثالث، لأنه العمق الاستراتيجي للطرفين؛ ولذا فقَد الاتحاد السوفياتي العالم الثالث وظلت صواريخه وترسانته معلقة في الهواء بلا عمق استراتيجي.

---

(15) الجبهة الساندينية للتحرير الوطنية (Frente Sandinista): هي حزب اشتراكي ديمقراطي في نيكاراغوا. يُطلق على أعضائها اسم سانديnيين أو ساندنيستاس في كل من اللغتين الإنكليزية والإسبانية. اسم الحزب مشتق من اسم أغوستو سيزار ساندينو الذي قاد المقاومة النيكاراغوية ضد احتلال الولايات المتحدة لنيكاراغوا في الثلاثينيات.

(16) فيدل كاسترو (1926–2016): رئيس كوبا منذ عام 1959 بعد إطاحته حكومة فولغينسيو باتيستا، ليصبح رئيس الوزراء حتى عام 2008، عند إعلانه عدم ترشحه لولاية جديدة وانتخاب أخيه راؤول كاسترو مكانه. وكان كاسترو في عام 1965 أمين الحزب الشيوعي في كوبا. قاد تحويل البلاد إلى النظام الشيوعي ونظام حكم الحزب الواحد. أصبح في عام 1976 رئيس مجلس الدولة ومجلس الوزراء. وكان أعلى قائد عسكري.

حاولت ثورة الفاتح ملء الفراغ قدر الإمكان، وزدنا دعمنا لحركات التحرير في العالم الثالث، وكذلك الدول الفقيرة. وقد أولينا اهتمامًا خاصًا للاتصال، والتواصل، مع السود في الولايات المتحدة، وقدّمنا لهم الدعم في نضالهم من أجل نيل حقوقهم، وأولينا المسلمين السود عناية خاصة وعملنا على مساعدتهم في تنظيم أنفسهم من أجل أن يضطلعوا بدورهم على نحوٍ أفضل في المجتمع الأميركي، وعملنا على نشر الإسلام بينهم. وهكذا اتصلنا بالدول العربية لوضع خطة عربية من أجل الاتصال بالسود في الولايات المتحدة، لكن - كعادة العرب - لا حياة لمن تنادي. وكانت لنا أقوى العلاقات بالمناضل لويس فرخان[17]؛ ذلك أن السود هم نقطة الضعف في المجتمع الأميركي.

كان السود منشغلين بالموسيقى والرياضة، ويجب ألّا يفهم من كلامي هذا أنني أقلل من شأن الرياضة أو الموسيقى، لكن ما أقصده ألّا يكونا "أفيونًا" لتخدير السود وإلهائهم عن النضال من أجل المساواة ونيل حقوقهم السياسية والثقافية والاجتماعية.

وخلال المفاوضات مع شركات النفط، اكتشفت أنها تقوم بحرق الغاز المصاحب لعمليات استخراج البترول؛ ولذا أصدرت أمرًا ملزمًا لوزارة النفط بأن تطلب من الشركات البدء فورًا في عمليات حقن الغاز في الآبار، وأي شركة لا تلتزم بهذا القرار سوف تمنع من إنتاج النفط. لقد كانت ثروة ليبيا من الغاز تُحرق وتُهدر أمام أنظار النظام الملكي العميل كما اكتشفت - وكان الأمر صادمًا بالفعل - أن ليبيا لم يسبق لها أن قامت أو خططت لعمليات تنقيب عن الغاز الحرّ؛ فأصدرت أمرًا لوزارة النفط بالمباشرة فورًا بالتعاقد مع الشركات العالمية للتنقيب عن الغاز، ورصدنا لأجل ذلك الأموال المطلوبة في أول "خطة

---

(17) لويس فرخان (Louis Farrakhan): ولد في 11 أيار/مايو 1933 في مدينة نيويورك، وفي عام 1955 أصبح عضوًا في جماعة أمة الإسلام، ولمّا توفي أليجا محمد، زعيم هذه المنظمة، عام 1975، نشب خلاف فكري داخل جماعة أمة الإسلام، قاد إلى انشقاق فرخان عن جماعة وارث الدين محمد وأسس جماعة "أمة الإسلام" التابعة له.

خمسية" تعدّها ليبيا عام 1971، وبلغ احتياطي الغاز أكثر من 44 تريليون قدم مكعبة، فاتخذت قرارًا بعدم تصدير الغاز لرخص سعره، ولأنني أردت أن يكون الغاز ثروة بديلة من النفط، ولكن - للأسف - بعد استقالتي عام 1992 اتُّخِذ القرار الخاطئ بتصدير الغاز. في هذا الوقت، وبعد أن نجحت في قيادة "ثورة النفط"، بل "ثورة الدول المالكة للخامات"، وبعد أن حققنا إلى حد بعيد سعرًا عادلًا للبرميل؛ هو 40 دولارًا، جاء موعد اتخاذ القرار الاستراتيجي المهم، وهو تخفيض "إنتاج النفط" من 4,6 ملايين برميل يوميًا إلى مليونين ومئتي ألف برميل يوميًا، الأمر الذي ساهم في إطالة عمر النفط، لأنه "ثروة الأجيال"، وللمواطن الليبي أن يتصوّر في ما لو استمر الإنتاج بالكمية نفسها لمدة طويلة، ماذا سيكون مصير هذه الثروة. في أحسن الأحوال سيؤدي ذلك إلى استنزاف الحقول وتدميرها، وسيؤدي إلى نضوب النفط في أسوأ الأحوال.

وخلال المفاوضات مع شركات النفط، أخبرني الإخوة - في مجلس الوزراء ووزارة النفط ممن شاركوا معي في المفاوضات - أن الشركات عثرت، خلال عمليات الحفر، على الكثير من آبار المياه، وهي تقوم بإغلاقها؛ فأمرت بتشكيل لجنة مختصّة من هيئة المياه ومؤسسة النفط، لحصر هذه الآبار، ورسم خرائط دقيقة تحدّد مواقعها. وطلبت أيضًا من هيئة المياه أن تتعاقد مع مركز خبراء عالمي في المياه الجوفية، ودراسة هذه "الأحواض المائية" وتقييمها. وبالفعل، تمّ التعاقد مع المركز البريطاني للمياه. قدّم المركز دراسة مفصلة عن هذه "الأحواض" واحتياطاتها من المياه، وقدّم فرضيتين: إحداهما تقول إن بعض الأحواض يتغذى من بعض الأنهار في أفريقيا، وخاصة بحيرة تشاد. أمّا الفرضية الأخرى فتقول إنها لا تتغذى من أي أنهار. وقد أخذت شخصيًا بالفرضية الثانية. ثم قدّم المركز البريطاني دراسة أخرى للمياه، أكثر علمية ودقة عن طبيعة "الأحواض" وحجم احتياطاتها من المياه. هذه الدراسة شكلت، بالنتائج التي انتهت إليها، بداية التفكير في بناء "النهر الصناعي العظيم". كان مشروع النهر العظيم يقوم على مرحلتين، استهدفت المرحلة الأولى تزويد المناطق الشرقية بمياه الشرب، ومياه الزراعة، وكانت الخطة تقوم على أساس نقل المياه عبر الأنابيب الضخمة بمعدل 1,5 مليون متر مكعب في اليوم؛

400 ألف متر مكعب منها مخصّصة للشرب، و1,1 مليون متر مكعب مخصصة للزراعة.

لكن الأخ معمّر كان مُصرًّا على أن 1,5 مليون متر مكعب من المياه يجب أن تخصص للزراعة. كان هذا الإصرار المريب والغريب نابعًا من "الفكرة الجنونية" التي سيطرت على عقله بضرورة "أن يهاجر الليبيون أو يهجروا ليبيا" وأن "يتم استبدالهم بمصريين أو تونسيين أو أفارقة". كان الهدف الحقيقي من "تبادل السكان" بالنسبة إلى الأخ معمّر، هو ضمان ألا يتشكل أي خطر جماهيري يهدد سلطته، وهؤلاء المهاجرون من مصر وأفريقيا لن يقاوموا سلطته. وهكذا، وجدت نفسي أخوض صراعًا مكشوفًا وحادًّا مع الأخ معمّر. قلت له: "يا أخ معمّر، إذا ظل الليبيون عطاشى، ومياه النهر تتدفق أمامهم، ففي هذه الحالة لن يعني النهر الصناعي لهم شيئًا، وقد يلجأون إلى تفجيره سخطًا واحتجاجًا". وإزاء المخاوف التي انتابته من فكرة "ثورة عطش"، رضخ في النهاية ووافق على تصوراتي. وقبيل التوقيع على عقد مشروع النهر الصناعي العظيم، ودراسة العروض المقدمة من الشركات الأجنبية، اتصلت بالمهندس محمد المنقوش الذي كان رئيسًا لهيئة النهر الصناعي، وسألته عن الشركات التي قدمت عروضها، فقال لي: "هناك حتى الآن ثلاث شركات، واحدة كورية جنوبية بعرض قيمته الإجمالية 1,9 مليار دينار، وأخرى فرنسية وقيمة العقد ملياران ونصف مليار دينار، وأخيرًا شركة هندية"، ثم أضاف: "استبعدنا الشركة الهندية لأنها لا تملك خبرة في هذا المجال، ولأن مصرف تشجيع الصادرات في الهند رفض تقديم ضمانات للشركة، بما أن ليبيا لم تسدد للشركة مبلغ عشرة ملايين دينار مستحقة لها عن مشروع سابق، هو مشروع سد وادي غان"، فقلت للمنقوش: "من الخطأ استبعاد الشركة الهندية". كانت هيئة النهر الصناعي برئاسة المنقوش توشك أن تصدّق على عقد الشركة الكورية الجنوبية، فاتصلت بموسى كوسا، وكان مساعدًا لأمين مكتب الاتصال الخارجي آنذاك، وطلبت منه أن يحضر مع السفير الهندي إلى مكتبي. كانت الهند تتميز على الدوام باختيار سفراء نشيطين ومميزين وأذكياء، وحينما قابلت السفير الهندي ذكّرته بأننا نكنّ احترامًا وتقديرًا عاليين للهند وسياساتها، فهي التي أسّست مع جمال

عبد الناصر وكوامي نكروما[18] وأحمد سوكارنو وجوزيف تيتو[19] حركة عدم الانحياز[20]، ثم قلت: "التعاون الاقتصادي بيننا يأخذ بُعدًا سياسيًا استراتيجيًا، ولذلك نريد من الهند أن تساهم في تنفيذ هذا المشروع الحيوي. لقد طلبت من وزارة الخزانة أن تدفع مستحقات الشركة عن سد وادي غان". وبالفعل، وبعد أيام قليلة من المقابلة أبلغني السفير الهندي موافقة حكومة بلاده على المشاركة في تنفيذ مشروع النهر الصناعي، كما أبلغني أن وفدًا برئاسة نائب وزير المالية، ومدير مصرف "تشجيع الصادرات" وممثل الشركة سوف يحضرون إلى ليبيا. وبفضل مشاركة الشركة الهندية "في العطاءات" المقدمة لنا اضطرت الشركة الكورية الجنوبية إلى تخفيض أسعارها إلى 1,4 مليار دينار ليبي، وبذلك استطعت توفير مبلغ نصف مليار دينار ليبي، أي ما قيمته 1,8 مليار دولار، وما زال المشاركون في الاتفاق أحياء يرزقون، وهم المهندسون محمد المنقوش، ومحمد الزروق رجب، وعبد المجيد القعود، وغيرهم من المهندسين.

ثم تكرّرت القصة ذاتها مرة أخرى مع الأخ معمّر، لمّا شرعنا في المرحلة الثانية من المشروع، لجلب المياه عبر الأنابيب الضخمة إلى المناطق الغربية من ليبيا، حيث تقرر جلب مليونَي متر مكعّب من المياه، لكن الأخ معمّر أصرّ على

---

(18) من المناضلين الأفارقة الأوائل ضد الاستعمار، وكان أول رئيس لغانا المستقلة (1960-1966)، ورئيس الوزراء الأول (1957-1960).

(19) جوزيف بروز تيتو (1892-1980): قائد تاريخي يوغسلافي من أصل كرواتي، شغل العديد من المناصب منذ عام 1943 حتى وفاته. قاد المقاومة اليوغسلافية خلال الحرب العالمية الثانية ضد الاحتلال النازي، وكانت المقاومة أكثر الفصائل العسكرية نشاطًا في أوروبا المحتلة، وبفضل سياسته الاقتصادية والدبلوماسية الناجحة أصبحت له شعبية كبرى سواء في يوغسلافيا أو خارجها؛ إذ ينظر إليه بصفته رمزًا توحيديًا. وبفضل سياسته الداخلية، نجح في الحفاظ على التعايش السلمي بين قوميات يوغسلافيا.

(20) انبثقت حركة عدم الانحياز في سياق احتدام الحرب الباردة، من مؤتمر باندونغ (1955)، وأعلن عن تأسيسها رسميًا في مؤتمرها الأول ببلغراد في يوغوسلافيا (1961)، وكان رواد تأسيسها كل من رئيس وزراء الهند جواهر لال نهرو، وجوزيف تيتو رئيس يوغسلافيا، والرئيس المصري جمال عبد الناصر، والرئيس السوداني إسماعيل الأزهري، وتبنت منذ مؤتمرها الأول مجموعة من القرارات لصالح القضايا العربية وضد الاستعمار، وكان هدفها إبعاد أعضائها عن سياسات الحرب الباردة. وارتفع عدد أعضائها من 25 دولة في عام 1961 إلى 120 عضوًا في آخر مؤتمر لها بأفغانستان (2019).

أن توجه كل المياه "نحو الزراعة"، و"ألّا تخصص كمياه للشرب"، وكان عليّ أن أخوض، من جديد، معركة حامية مع الأخ معمّر. وكرّرت ما قلت سابقًا. بيد أن الأخ معمّر أبدى هذه المرة عنادًا ورفضًا، وأصرّ على موقفه، فلجأت إلى فكرة "زيادة الكمية إلى مليونين ونصف متر مكعب" أي بزيادة نصف مليون متر مكعب يوميًا لكي تكون حجتي أقوى. وبذلك حافظت على كمية مياه الزراعة، وفي الوقت ذاته، تزويد المدن الليبية في الغرب بكمية كافية من مياه الشرب، ثم اجتمعت بالمهندس عبد المجيد القعود والمهندس محمد المنقوش، وطلبت منهما أن تزوّدني هيئة المياه بتقرير مكتوب يجيب عن السؤال التالي: "هل يمكن ضخّ نصف مليون متر مكعب من المياه الإضافية من الأحواض نفسها من دون أي يُلحق بها أي ضرر؟". واشترطت في هذا الطلب أن يكون التقرير مكتوبًا، وطلبت من المنقوش، أن يطلب من الشركة الكورية الجنوبية أن تقدم تقريرًا يجيب عن السؤال: "هل في الإمكان أن نضخّ الكمية الإضافية من المياه عبر الأنابيب نفسها؟"، وبعد وقت قصير عادا وقدّما لي تقريرين كتبهما خبراء هيئة المياه والشركة الكورية الجنوبية. أكد التقريران إمكانية هذه الزيادة عبر الأنابيب نفسها، ونظرًا إلى وجود معدّات الشركة الكورية الجنوبية وعمالها، فقد ساعدنا هذا في تكليفها بتنفيذ المرحلة الثانية على أساس الأسعار نفسها، وبذلك نكون قد وفرنا في المرحلة الثانية ما يصل مجموعه إلى مليارين ونصف مليار دولار.

وفي قرار ثوري وتاريخي، قرّرنا "أن على مواطني الدول الذين يزورون ليبيا، أن تكون بيانات جوازات سفرهم باللغة العربية". في الواقع لم يتقبّل وزير الخارجية آنذاك منصور الكيخيا[21] هذا القرار، وجاء لمقابلتي معاتبًا ومُنزعجًا،

(21) ولد في مدينة بنغازي يوم 1 كانون الأول/ ديسمبر 1931، شغل منصب وزير الخارجية الليبية (1972-1973) وعيّن في منصب الممثل الدائم لليبيا في الأمم المتحدة (1975-1980)، ثم استقال بعد ذلك وانضم إلى صفوف المعارضة الليبية. وأعلن استقالته ومعارضته لنظام القذافي احتجاجًا على سياسات التصفية الجسدية، التي يمارسها النظام الليبي آنذاك عبر اللجان الثورية، إضافة إلى احتجاجه على مقتل زملائه من قيادات البعث. وانتُخب أمينًا عامًا للتحالف الوطني الليبي المعارض الذي أسسه عام 1986، وأرسى قواعد للحوار الديمقراطي للمعارضة الوطنية، ودعاها إلى تنسيق جهودها وتقسيم

وقال لي: "ما وسائل الضغط التي نملكها لفرض هذا القرار على الغرب؟ الغرب ليس في حاجة إلى ليبيا، وقد يقطع أي اتصالات معكم وحتى يقاطع نفط ليبيا، فهو لا يحتاج إليه كثيرًا"، ثم أعلن أنه لا يتحمّل مسؤولية هذا القرار، وخرج من مكتبه واعتكف في منزله. لكن المفاجأة أن الدول، وخصوصًا الغربية، قبلت القرار، فجاء الكيخيا إلى مكتبي وهو يشتم الغرب الذي وافق على القرار "ورضخ لإرادتنا"، ثم قال لي غاضبًا: "أنا لا أعرف لماذا قبلوا هذا القرار؟ لكنني اعترف لكم أن رؤيتكم الثورية أعمق وأكثر تبصّرًا منّا نحن السياسيين والدبلوماسيين". ومن غرائب الأمور أنني بعد وقت طويل من حديثي هذا مع الكيخيا، وبعد انتقاله إلى صفوف المعارضة، كنت أستمع إلى إذاعة **الشرق**، وفوجئت به وهو يدلي بتصريح يقول فيه: "على أميركا أن تأتي بدباباتها وطائراتها لتقتلع القذافي من ليبيا". بعد هذا التصريح، تأكد لي أن القذافي سيقوم بتصفية الكيخيا؛ ذلك أنّ تصريحات من هذا النوع سوف تعطي الغطاء الضروري للولايات المتحدة للقيام بعمل عسكري لإسقاطه؛ ولذا اتصلت على الفور بعاشور قرقوم[22] وهو صديق مشترك بيننا، وطلبت منه أن يحضر لزيارتي في منزلي بالمصيف. وحين حضر، طلبت منه أن يتصل بمنصور الكيخيا ويقول له أن يكون حذرًا، لأنّ القذافي سيقوم بتصفيته، وطلبت منه أيضًا أن يتصل بزوجة الكيخيا وإخوته لإبلاغهم خطورة الموقف. وللأسف، حدث بعد أيام قليلة أن سافر الكيخيا إلى القاهرة عام 1993 لحضور اجتماع "المنظمة العربية لحقوق الإنسان"، وهناك "اختفى". في الواقع، اعتقلته المخابرات المصرية بناءً على طلب القذافي وقامت بتسليمه.

الأدوار في ما بينها لمواجهة النظام. كما قاد برنامج عمل أزعج النظام الذي تخوف من دور الكيخيا الفاعل ونتائجه محليًا وعربيًا ودوليًا، واختفى في ظروف غامضة في أثناء مشاركته في اجتماع مجلس أمناء المنظمة العربية لحقوق الإنسان بالقاهرة في 10 كانون الأول/ ديسمبر 1993.

(22) عاشور قرقوم: دبلوماسي وسياسي ليبي، درس القانون بفرنسا، وعمل بعد تخرجه مباشرة في منظمة العمل الدولية بجنيف، وتمّ تعيينه في عام 1972 وكيلًا لوزارة العمل والشؤون الاجتماعية. وابتداءً من عام 1974 حتى تسعينيات القرن الماضي، عمل سفيرًا في الدول التالية: زائير (جمهورية الكونغو الديمقراطية سابقًا)، وفرنسا، والجزائر. وشارك في العديد من المؤتمرات الدولية والإقليمية منذ مطلع السبعينيات حتى تاريخ تقاعده في عام 2005.

في بداية السبعينيات، أصدرنا قرارًا بإدخال مادة التدريب على السلاح في المدارس والمعاهد والجامعات. لم يتقبّل الطلبة هذا القرار، فاستغلت فئة صغيرة من الطلبة اليساريين تذمّر الطلبة، وعملت على إشاعة مناخ من "التهييج" لتجييش الطلبة؛ في عملية يبدو ظاهرها أنها من أجل رفض القرار، لكن باطنها الحقيقي هو استغلال أجواء التذمّر لخدمة أهداف سياسية لهذه الفئة. ومن المؤكد أن هؤلاء نجحوا في تحركهم، فبدأت "حركة اعتصامات" رافقتها مظاهر معادية للثورة. وفجأة، "تبخّرت" العناصر الثورية وتوارت عن الأنظار، وكان هذا دليلًا على أن هذه التنظيمات السلطوية هي من طبيعة انتهازية. لقد استحوذت العناصر المعادية للثورة على المشهد. تابعت الأحداث عن كثب، فأرسلت إبراهيم البشاري[23] إلى بنغازي لمتابعة الوضع، لأنه يعرف جامعة قاريونس في بنغازي حيث درس فيها ويعرف الكثير عن الحياة الطلابية. بعد أن زار البشاري الجامعة، اتصل بي وقال: "الوضع خطير، وقد نجحت هذه المجموعة الصغيرة المعادية للثورة في تجييش الطلبة ضد قرار التدريب العسكري"، والحقيقة التي لم يقلها البشاري لي أنهم نجحوا في توجيه الطلبة في خدمة أهدافهم. وعلى الفور سافرت إلى بنغازي. ولما وصلت إلى مبنى القيادة اجتمعت بالرائد سليمان محمود والملازم امبارك عتيق، ولاحظت علامات الارتباك والخوف في وجوههم، فقررت الذهاب بنفسي إلى الجامعة بلا حراسة شخصية، وكنت وحيدًا مع سائقي ومن دون سلاح شخصي، فتجولت في كليات الجامعة وأقسامها في تحدٍّ واضح لهذه المجموعة. كان قراري هذا هائلًا وصاعقًا. فمن جهة، أصاب هذا الموقف القلة المتآمرة باليأس والإحباط، بحيث إنّها توارت واختفت. ومن جهة أخرى، أعطى قراري هذا زخمًا للطلبة الوطنيين، حيث دبت فيهم روح التحدي والثورية؛ فعاد الهدوء إلى الجامعة، وفشل التآمر على الثورة، وعادت اللحمة من جديد بين الطلبة الثوريين وعموم الطلبة، وجرى اعتقال الطلبة المشاغبين وبعض العناصر اليسارية. بعد عودتي من بنغازي، وفي أثناء اجتماع لمجلس الوزراء، دخل مدير مكتبي حاملًا ورقة. قرأت الورقة وهي تقول: إن رئيس اتحاد الطلبة عبد القادر البغدادي موجود

(23) وزير خارجية ليبيا (1990-1992).

في جامعة الفاتح بطرابلس، وإنه يريد التحدث معي لأمر مهم. فاستأذنت من الوزراء وعدت إلى مكتبي وتحدثت معه. قال لي: "الوضع خطير في الجامعة، والعناصر الثورية توارت عن الأنظار، بينما المجموعات الصغيرة المعادية للثورة تبدو أكثر تنظيمًا، وقد استغلت الأوضاع جيّدًا وأخذت تحرّض الطلبة على مقاومة قرار التدريب"، ثم قال: "لقد أحضرت هذه المجموعات الأحجار وقضبان الحديد والعصيّ والزجاجات الحارقة في عملية تآمرية للسيطرة على جامعة الفاتح. سارعت إلى الذهاب إلى جامعة الفاتح بطرابلس، وألقيت خطابًا حماسيًّا في جموع الطلبة، في ميدان كلية الهندسة وبحضور آلاف الطلبة. قلت لهم: "الجامعات مكان للحوار الهادئ والمسؤول، وليست مكانًا للصراعات والصدامات وافتعال المعارك. هذه القلة القلية تريد استغلال تذمركم، وهم متآمرون يعملون على استغلال مشاعركم لتحقيق مآربهم. إذا كانت لديكم اعتراضات جدّية على القرار، فأنا أدعوكم أن تجتمعوا ابتداء من يوم غدٍ، وأنتم من يقرّر، وبناء على نتائج اجتماعكم، سوف نتخذ القرار النهائي بشأن مادة التدريب، المهم أن تحافظوا على الجامعة مكانًا للحوار بين الجميع. أما خارج الجامعة فليتصارع الثوريون والرجعيون والماركسيون كما يريدون".

ألهب الخطاب حماسة الجماهير الطلابية، ودبت الروح في المجموعات الثورية التي توارت عن الأنظار، وتعالت الهتافات الثورية. وفي نهاية الخطاب تحمست لهتافات الطلبة وللتغيير الدرامي؛ فأخذت مسدس أحد أفراد الحراسة وأطلقت الرصاص في الهواء. بعد الانتهاء من الخطاب غادرت الجامعة، وحصلت مواجهة بين الطلبة الثوريين مسنودين ومدعومين من الطلبة و"المجموعات الماركسية" المتآمرة، وقام الطلبة باعتقال هذه المجموعة وكان عددهم 48 طالبًا، ثم أخذوهم إلى مركز باب بن غشير، وهو أقرب مركز شرطة إلى الجامعة وتمّ تسليمهم. في هذا الوقت اتصل بي محمد الحجازي، وكان مديرًا للإدارة والتنظيم في الاتحاد الاشتراكي، وأخبرني أن بين المعتقلين أربع فتيات من بنغازي، فطلبت منه ألا يجري توقيفهن مع الطلبة الموقوفين، بل يجب نقلهن إلى أحد الفنادق، ثم الاتصال بذويهن وعائلاتهن، ودعوتهم إلى الحضور إلى طرابلس لاستلامهن.

في عام 1981، شكلت مجموعة من المعارضين للنظام في الخارج، جبهة معارضة باسم "جبهة الإنقاذ"[24]، ويبدو أنها تمكنت من تسهيل دخول بعض عناصرها إلى مدينة طرابلس، قصد القيام بعمل تخريبي، ثأري، وهي محاولة لإثبات الوجود للأميركيين الذين كانوا يحتضنونهم ويقدّمون لهم الدعم، كما أوهمت الجبهةُ هذه المجموعةَ؛ كذلك أوهمتها بأن للجبهة وجود في داخل ليبيا وخاصة في طرابلس ومصراتة وأنهم سيتصلون بهم لتقديم الدعم والمساندة. لمّا وصلت هذه المجموعة إلى طرابلس، تمكنت من استئجار شقة بين شارع النصر وشارع الجمهورية في بناية مؤلفة من خمسة طوابق، وصادف أنني كنت أذهب كل يوم في الساعة السابعة مساءً إلى مقر التربية العقائدية أمارس لعبة كرة القدم التي أحبّها، ولكنني لا أجيدها، مع مجموعة من اللاعبين المتقاعدين والهواة.

وهكذا، كنت أمرّ يوميًا قرب البناية التي كانت المجموعة تقيم فيها، وفي أحيان كثيرة كنت أشاهد أفرادها وهم يقفون في الشرفة، وكنت أعتقد أنهم شباب من سكان البناية، وكان من الممكن اغتيالي عند مروري المتكرّر. لم تكن لديهم الجرأة؛ لأنهم كانوا مذعورين وخائفين، والأكيد أن العناية الإلهية حفظتني. اكتشفت الأجهزة الأمنية هذه المجموعة، وعلمت أنهم كانوا في حالة ذعر وخوف شديدين، فقد لاحظت أجهزتنا أنهم كانوا يصرخون في أثناء مكالماتهم الهاتفية بشكل هستيري، ويشتكون من "عزلتهم" وانقطاع أي اتصال لهم بأي مجموعات في الداخل، لا في طرابلس ولا في مصراتة، بعد أن اكتشفوا أن "لا وجود حقيقي للجبهة داخل ليبيا". وهكذا لما داهم رجال الأمن الشقة، طلبوا منهم عبر مكبرات الصوت عدم المقاومة وتسليم أنفسهم، لأنهم غير مسؤولين، وأنّ المسؤولين الحقيقيين هم القادة الذين جندوهم وأرسلوهم، وأنهم في النهاية يمكن أن يتم الإفراج عنهم. لكنهم رفضوا وقرروا المقاومة، فجرت عملية مداهمة للشقة وتمّ إلقاء القبض عليهم. ولأن هذه المجموعة

(24) الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا: أنشأها محمد يوسف المقريف ومجموعة من المعارضين لنظام حكم معمّر القذافي في 7 تشرين الأول/ أكتوبر 1981 في السودان، وكان الهدف الرئيس هو إسقاط حكم القذافي وتأسيس دولة ديمقراطية.

كانت خائفة ومرتبكة، فقد قررت "قيادة الجبهة" إرسال أحمد أحواس[25]، وهو المسؤول العسكري في الجبهة، إلى ليبيا لمعالجة الوضع على الأرض، وقد تسلل إلى الحدود الليبية عبر تونس. والأمر المؤكد أن الأميركيين ضغطوا على تونس للسماح له بدخولها والتسلل عبر الحدود إلى ليبيا، لكن أجهزة المخابرات الليبية علمت بهذه المحاولة، وكانت تنتظره على الحدود، ونصبت له كمينًا. وحينما اكتشف أحواس أنه في مواجهة مع "المجموعة" التي تنتظره، حاول الهرب عبر الحدود التونسية، لكن أجهزة المخابرات طاردته وتمكنت من قتله.

مفاوضات الإجلاء: إذعان الإنكليز والأميركيين بعد مناورات يائسة

كل الإنجازات التي حققتها الثورة كانت بفضل المفاجأة واستغلال زخم الثورة. في عام 1969، ترأستُ وفد الثورة إلى "مفاوضات الإجلاء"، وكان معي الإخوة عبد المنعم الهوني، وصالح بويصير، ومنصور الكيخيا. كنت أدرك بعمق أن النظام الملكي كان قد اضطرّ في وقت سابق إلى تشكيل لجنة برئاسة منصور الكيخيا للتفاوض مع الحكومتين الأميركية والبريطانية، ورغبت في معرفة ماذا جرى للجنة التفاوض، ففوجئت لما سألت الأخ الكيخيا عن مصير اللجنة، بأنه قال لي: "اللجنة لم تجتمع ولم تمارس عملها"، فقلت له: "لماذا؟"، فأجاب: "كنت أعلم أن الحكومة غير جادة"، فقلت له: "كان عليك أن تضع الحكومة أمام الأمر الواقع، وأن تفتح ملف 'قضية الإجلاء' كي تظل

(25) ولد عام 1938 بمدينة جردينة، من ضواحي مدينة بنغازي. التحق عام 1960 بالكلية العسكرية الملكية بليبيا، وتخرج فيها عام 1962. عمل في الفترة الممتدة ما بين عامي 1962 و1969 ضابطًا في سلاح الهندسة بالجيش الليبي، وآمرًا لسرية هندسة الميدان، رُقِّي إلى رتبة "رائد" قبل انقلاب سبتمبر بثلاثة أسابيع تقريبًا، أي في 9 آب/ أغسطس 1969. عمل في السلك الدبلوماسي الليبي بعد الثورة إلى أن استقال من منصبه (قائم بأعمال السفارة الليبية) في غويانا في شباط/ فبراير 1981، وأعلن انضمامه إلى المعارضة الليبية. شارك في تأسيس الجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا، وأسس جناحها العسكري، وأشرف عليه، وأصبح المفوض العسكري للجبهة الوطنية لإنقاذ ليبيا، إضافةً إلى عضوية اللجنة التنفيذية فيها.

مطروحة باستمرار على الشارع". لكن الكيخيا قال لي: "هذا ما حدث. اللجنة لم تعقد أي اجتماع".

منذ الوهلة الأولى لبدء المفاوضات مع الجانب البريطاني، شعرت بوجود تنسيق على أعلى المستويات بين البريطانيين والأميركيين. في الجلسة الأولى، قال لي رئيس الجانب البريطاني: "لقد اعترفنا بكم بناءً على ما ورد في البيان الأول للثورة"، وأخذ يقرأ فقرات من البيان. قال: "لقد أكدتم احترامكم والتزامكم بالمعاهدات والاتفاقيات، والآن أنتم تتخلون عن هذا الوعد". قلت له: "لقد كنّا نقصد من تلك المعاهدات والاتفاقات الثنائية المتكافئة التي لا تمسّ سيادتنا أو تنال من حريتنا، ومعاهدات القواعد تنتقص من سيادتنا وتنال من استقلالنا"، فعاد إلى القول: "لكنكم لم تذكروا ذلك في بيانكم؟". وخلال هذا النقاش، اقترح الجانب البريطاني استمرار العمل بمعاهدة القواعد حتى نهاية المدة القانونية، وأن بريطانيا ستكون مستعدة للقبول بعدم تجديدها، فرفضت الاقتراح وقلت له: "ليس هذا هو الأمر المطروح اليوم. ما هو مطروح على وجه التحديد هو الاتفاق على جدول زمني للإجلاء. يجب أن يتمّ ذلك، وهذا أمر مفروغ منه". لكن الجانب البريطاني ظل يناور، وعرض الاتفاق على بقاء المعاهدة ثلاث سنوات أخرى، فرفضت، فعاد ليقترح بقاء القواعد لسنتين أخريين، فرفضت مرة أخرى. في اليوم التالي ألقيت خطابًا حماسيًا في تجمّع جماهيري يطالب بالإجلاء الفوري للقواعد، وقلت مخاطبًا الحشود الجماهيرية: "لا وجود للقواعد في ظل الثورة. إمّا أن تبقى الثورة وتنتهي القواعد، وإمّا تنتهي الثورة وتبقى القواعد". وبقوة زخم الثورة وضغط الجماهير وصلابة الموقف الثوري، أذعن الإنكليز في نهاية المطاف لقرار الثورة المدعوم بالتأييد الشعبي والجماهيري العارم، وتمّ الاتفاق على أن يبدأ الإجلاء بعد ثلاثة أسابيع، وعلى أن ينتهي في 28 آذار/ مارس 1970.

بعد ذلك مباشرة، بدأنا المفاوضات مع الجانب الأميركي في قاعة البلدية في طرابلس. في الجولة الأولى، ألقى رئيس الوفد الأميركي كلمة مركّزة، تضمنت 17 نقطة تستند إلى أسسٍ قانونيةٍ، أشار فيها إلى تعهداتنا في البيان

الأول للثورة، واحترامنا للمعاهدات والاتفاقات الدولية، وأنهم اعترفوا بنا بناءً على التزاماتنا بهذه المعاهدات والاتفاقات الدولية، وأنهم يعتبرون "معاهدة القواعد" على رأس هذه المعاهدات، ويعرضون ويقبلون بعدم التجديد بعد انتهاء المدة القانونية، وأنهم سيحترمون إرادة الثورة بعدم التجديد. فكرّرت للجانب الأميركي ما قلته للجانب البريطاني، ثم قمت بالردّ على النقاط الـ 17 وفق التسلسل نفسه من دون كتابة، وكان صالح بويصير قد حاول أن يكتب لي بعض الملاحظات لكي تساعدني على الردّ، لكنني لم أقرأ هذه الملاحظات. في هذه الأثناء، كان صخب التظاهرات الجماهيرية العارمة يصل إلى قاعة البلدية التي تمّ تطويقها. كانت أصوات الجماهير الغاضبة تدوّي في القاعة، وكنت أنا وعبد المنعم الهوني نحمل مسدسين، فقال رئيس الوفد الأميركي: "لا يمكنني التفاوض تحت التهديد بالسلاح والصخب". فقلت له: "في مسألة السلاح هذه أنت على حق"، وطلبت من الأخ عبد المنعم أن نضع سلاحنا خارج القاعة، ثم تابعت القول: "إذا كنت ترى أن صيحات الجماهير وهتافاتها تزعجك، فإنها على العكس من ذلك تلهمني. وإذا كنتَ أنت تستلم الأوامر تباعًا من الخارجية الأميركية أو البنتاغون، فأنا أستلم الأوامر من هذه الجماهير. السلطة التي أستلم منها الأوامر هي هذه الجماهير". ثم قرأت عليه برقية أرسلتها جماهير مدينة بنغازي تقول فيها: "إننا برغم الأمطار الشديدة لن نغادر مبنى القنصلية الأميركية إلا بعد أن تعلنوا الإجلاء". استمرت الجماهير في ميدان البلدية في طرابلس في تطويق القاعة رغم استمرار هطول الأمطار. بعد انتهاء الجلسة، ألقيت خطابًا في الجماهير المحتشدة، وكرّرت قولي إنه لا وجود للقواعد مع وجود الثورة؛ فإمّا أن تبقى الثورة وتنتهي القواعد، وإمّا تنتهي الثورة وتبقى القواعد، وخاطبت الجماهير قائلًا: "إذا كانت أصواتكم الهادرة وصيحاتكم تزعج المفاوض الأميركي؛ فإنني أستلم الأوامر والتوجيهات منكم. إن أصواتكم هي أقوى سلاح لتحقيق الإجلاء. إن أصواتكم أيها الإخوة تلهمني، وأستمد منها القوة والإصرار على الإجلاء". كانت المفاوضات مع الأميركيين أصعب بكثير من المفاوضات مع البريطانيين؛ إذْ قدّم الجانب الأميركي مقترحًا بأن يتمّ الإجلاء بعد خمس سنوات، فرفضت وقلت: "إن قرار الإجلاء نملكه نحن، وإننا هنا للاتفاق على الموعد".

بعد إصرارنا، أذعن الجانب الأميركي بعد محاولات التهرب، وتوصلنا إلى اتفاق على "أن ينتهي الإجلاء" بعد شهر ونصف شهر، أي في 11 حزيران/ يونيو 1970. في إحدى المرات كنّا نحن أعضاء الوفد نلتقي مع الأخ معمّر القذافي، فقال صالح بويصير: "يا أخ العقيد. الرائد عبد السلام وحده وفدٌ كامل. لقد ردّ على رئيس الوفد الأميركي وعلى النقاط الـ 17 التي سردها، بالترتيب وبالتسلسل نفسه، وكانت الردود جميلة ومقنعة". وفي هذا التاريخ، ذهبت أنا والأخ إمحمد المقريف إلى قاعة الملاحة، لحضور مراسم رفع العلم الليبي في القاعدة، وتمّ إنزال العلم الأميركي ورفع العلم الليبي. كان آمر القاعدة من الأميركيين الأفارقة، وقبل أن يستقل آخر طائرة، تقدّم نحوي وودعني وهو يبكي قائلًا بتهكم: "أتمنى أن أعود بعد ستة أشهر لأرى هذه القاعدة وقد تحولت إلى مكبّ للقمامة". فقلت له: "سوف نوجه إليك الدعوة وسترى القاعدة أكثر كفاءة ممّا هي عليه الآن". وهكذا تحرّرت ليبيا من الاستعمار العسكري المباشر، بعد أن كانت عبارة عن مجموعة من القواعد العسكرية الأميركية والبريطانية، بفعل الإرادة الثورية، وبفعل زخم الثورة، وبفضل النضال الجماهيري الذي استمر طويلًا.

وفاة الأخ إمحمد المقريف

في عام 1972، قامت القوات المسلحة الليبية بتنفيذ تمرين عسكري يستهدف الهجوم على طرابلس من الشرق، وكان الأخ معمّر يتحرك مع القوات المهاجمة، وفي الوقت نفسه كانت هناك قوات تدافع عن طرابلس تتمركز في مرتفعات الخُمس. ذهبت أنا والأخ إمحمد المقريف بطائرة عمودية لتفقد القوات المدافعة. ولما انتهينا من تفقد هذه القوات، اقترح عليّ الأخ المقريف أن نركب الطائرة العمودية إلى سرت حيث وصلت القوات المهاجمة. وفعلًا، ذهبنا إلى سرت حيث المرحلة الأخيرة من التمرين. ولأننا لا نستخدم الطائرات العمودية خلال الليل لأسباب أمنية، فقد طلب منّا الأخ معمّر ألّا نعود إلى طرابلس الليلة. وقال "نقضي الليل معًا وفي الصباح تعودان إلى طرابلس". وكان البرنامج أن نتناول العشاء غرب سرت على بعد نحو 30 كيلومترًا، وهي منطقة عادة ما يقضي الأخ معمّر وقته فيها حينما يكون

في سرت. في طريقنا من سرت إلى غربها ركبت أنا والأخ معمّر في سيارة، وإمحمد في سيارة أخرى. بعد تناول العشاء وتجاذب أطراف الحديث عن ذكريات الماضي، وحوالى منتصف الليل، قال الأخ معمّر: "حان وقت النوم. في الصباح نلتقي لتناول الإفطار معًا قبل أن تغادرا". لكنني فوجئت بعد مغادرة الأخ معمّر بما قاله لي الأخ إمحمد، ونحن في الطريق من سرت: "لقد شاهدت سيارة مرسيدس تستعملها شرطة المرور كانت متوقفة على جانب الطريق، وطلبت منها أن تتبعنا لأننا نريد أن نعود إلى طرابلس الليلة". كنّا بعد الثورة قد منعنا استعمال سيارات المرسيدس ووزعناها على إدارات وأقسام المرور، وتحت إلحاح المقريف وافقت على العودة إلى طرابلس، حيث ركبنا السيارة. كنت أنا والمقريف نجلس في الخلف، وشرطي المرور يجلس بجانب السائق. ولما وصلنا إلى مصراتة قال السائق إنه يريد التزوّد بالوقود، فقال له المقريف: "أسرع. سوف تتزود بالوقود في مدينة الخمُس". بعد ذلك، نمت وأعتقد أن الجميع ناموا وربما حتى السائق، وقبل أن أغفو كانت سرعة السيارة 140 كيلومترًا في الساعة. وقبل أن نصل الخمس وقع الحادث المأساوي نتيجة السرعة، ولأن السائق كما يبدو كان نائمًا. بعد برهة استيقظت وكانت الدماء تنزف من رأسي ولم أجد المقريف بجانبي، وكان السائق والشرطي يئنان من الإصابة البالغة، فخرجت من السيارة وجدت المقريف ملقى خارج السيارة وكانت الابتسامة تعلو وجهه. ذهبت مسرعًا إلى الطريق الساحلي وحاولت إيقاف أي سيارة في الطريق. وبما أنه لم تتوقف أي سيارة، أخرجت مسدسي وأطلقت رصاصتين في الهواء، فتوقفت سيارة وطلبت من السائق نقل الأخ المقريف والشرطيين إلى مستشفى الخُمس، وحدث أن اقترب منّا أحد الفلاحين، حيث كانت مزرعته بالقرب من الطريق الساحلي، وقال: "هذا الشباب الطائش يسكرون ويقودون السيارات بسرعة جنونية ويهلكون أنفسهم"، فقلت له: "أنا عبد السلام جلود وهذا إمحمد المقريف"، فقال: "يا رسول، يا رسول، لا حول ولا قوة إلا بالله".

وساعدنا الفلاحُ في نقل الجرحى إلى السيارة، ثم واصلت سفري إلى طرابلس ودخلت المستشفى العسكري في قاعدة معيتيقة. ومعيتيقة اسم طفلة

ليبية فقدت حياتها قبل الثورة نتيجة سقوط طائرة حربية أميركية فوق بيتها، بعد أن طرأ عليها خلل فني. بعد الثورة، أطلقنا على القاعدة اسم "معيتيقة" بدلًا من قاعدة الملاحة. ولما وصل الأخ معمّر إلى مكان الحادث، وشاهد السيارة وهي محطمة رغم أنها سيارة مُصفحة وقوية، اعتقد أنني في حالة ميؤوس منها، خاصة أن المقريف فارق الحياة، ولكنهم لم يخبروني بوفاته لأنهم يعلمون مقدار حبي له. بعد الحادث، جاء الرئيس محمد أنور السادات من مصر لحضور جنازة الأخ المقريف، وبعد انتهاء مراسم التشييع، جاء لزيارتي في المستشفى لأنه يحترمني على الرغم من خلافي العقائدي والسياسي معه، وكان صحبته الأخ معمّر. ولما وصل إلى باب الغرفة، دخل السادات لكن الأخ معمّر لم يحتمل الدخول إلى الغرفة، لأنه كان يخشى أن يجدني في حالة ميؤوس منها. ولكن حين دخل السادات، وجدني جالسًا على السرير وأتحدث مع إحدى الممرضات، فخرج السادات من الغرفة مسرعًا، ونادى: "تعال يا معمّر. عبد السلام دا جنّ لا يموت أبدًا"، فدخل الأخ معمّر مسرعًا وقد أحضر السادات معه طبيبين مصريين، أوصيا بأن أمضي فترة النقاهة في مكان هادئ، واقترحا جزيرة كابري الجميلة في جنوب إيطاليا، وقد كلف السادات مدير الأكاديمية المصرية في روما بأن يكون مديرًا لرحلتي ومسؤولًا عن راحتي ونقاهتي. واستمرت النقاهة 40 يومًا، وكان مدير الأكاديمية رجلًا مثقفًا وفنانًا طيب القلب وخدومًا إلى أبعد الحدود. لقد شملني بإنسانيته أنا وزوجتي. وأنا اليوم أشعر نحوه بالعرفان بالجميل، وأريد أن أشكره على ما قام به من جهد، فقد جعل الرحلة ثرية ومريحة.

طرد "المستوطنين الطليان"

بعد نحو أربعة عشر يومًا من تفجير الثورة، وعلى وجه التحديد في 15 أيلول/ سبتمبر 1969، قرّرت أن أزور السجن الذي اعتقلَنا فيه قادةَ النظام الملكي (رؤساء وزراء، ووزراء، ومسؤولين كبار). في السجن، التقيت محمود

المنتصر[26]، أقوى رؤساء الوزارات التي تعاقبت على الحكم في ليبيا خلال العهد الملكي، فقلت له: "أنتم تآمرتم على الشعب الليبي، وبعتم البلاد للأميركيين والإنكليز، وسمحتم للجالية الاستيطانية الإيطالية بأن تسيطر على مقدرات الشعب الليبي"، فقال لي: "اسمع يا بن جلود. أنا لست خائفًا منك. لقد سمحنا بإقامة قواعد عسكرية أميركية وبريطانية لكي نعلمكم. لقد كانت عائدات ليبيا من الضرائب والجمارك 400 ألف دينار سنويًا، أي ما يقرب من 1,3 مليون دولار؛ بينما كنّا في حاجة إلى مليونين ونصف مليون دينار سنويًا. اتصلنا بمعظم الدول العربية طلبًا للمساعدة، لكنهم لم يساعدونا. لقد ذهبت بنفسي مع الملك السنوسي إلى مصر للقاء الرئيس جمال عبد الناصر، وطلبنا منه المساعدة المالية. طلبنا مليون دولار سنويًا. في اليوم الثالث للزيارة اتصل بي الملك هاتفيًّا وقال لي: يا محمود جهّز نفسك ومرّ عليّ في القصر لأنني قررت العودة إلى ليبيا. عند وصولنا إلى الطريق الصحراوي (طريق القاهرة/ الإسكندرية) قال لي الملك: هل يخطر عليك يا محمود أن عبد الناصر يريد مقابل تقديم دعم لنا بمليون دولار، تعيين شخص مصري وكيلًا للخزانة (المالية) في ليبيا؟ وأن تتنازل ليبيا عن واحة الجغبوب؟"[27].

ثم تحدثت مع محمد سيف النصر فقال لي: "اسمع يا بن جلود أنتم انتصرتم، وأنا الآن كبير في السنّ ولا أعتقد أنني سأخرج من السجن حيًّا. نصيحتي لكم أن تضعوا الليبيين في بطونكم لا في ظهوركم، أي اجعلوهم يحبونكم لا أن يكرهوكم". بعد طرد القوات الأميركية والبريطانية مباشرة، وجدنا أنفسنا أمام حقيقة أن الوقت قد حان لطرد "المستوطنين الطليان" بوصفهم جالية استعمارية، ومصادرة أملاكهم وأموالهم التي نهبوها من الشعب الليبي. في هذا الوقت، كان عدد المستوطنين الطليان يبلغ زهاء 160 ألفًا. كنّا ندرك بعمق حساسية طرد هذا العدد الهائل، وما قد يثيره من ردود فعل في العالم الغربي بأسره؛ لكننا كنّا ندرك في المقابل أن واجبنا الثوري يحتّم علينا القيام بهذه الخطوة، وهكذا قررنا أن نتخذ القرار بلا تردد، وأن نعيدهم إلى إيطاليا بواسطة السفن، تمامًا كما جاؤوا عام 1911. لقد اتخذنا هذا القرار لسببين:

---

(26) محمود المنتصر: رئيس وزراء ليبيا خلال الفترة 1951-1954، و1964-1965.

(27) واحة الجغبوب: تقع جنوب مدينة طبرق بحوالى 286 كيلومترًا وتتبعها إداريًا.

أولًا، لأن ثورة الفاتح من سبتمبر، كانت بالنسبة إلينا هي "المعركة النهائية" في كفاح الليبيين وجهادهم من أجل التحرر والاستقلال، وكان لا بد من مواصلتها حتى طرد هؤلاء المستوطنين.

ثانيًا، لأن هذا القرار التاريخي ينطوي على بُعد ثوري؛ فقد كان قصاصًا من الاستعمار الإيطالي البغيض، كما أنه وفاء للأجداد والآباء ولدماء الشهداء، ولأرواح آلاف الليبيين الذين عانوا في معسكرات الاعتقال الجماعي (العقيلة والبريقة، وغيرهما). لقد كانت بريطانيا وفرنسا تقومان بنفي القادة الوطنيين داخل البلدان المستعمرة، بينما كان الاستعمار الإيطالي البغيض يقوم بنفي عشرات الآلاف خارج ليبيا. ولذلك كان القرار ينطوي على وفاء حقيقي لذكرى عمر المختار، وأحمد الشريف، ورمضان السويحلي، وبشير السعداوي، وعبد النبي بالخير، وسليمان الباروني، وأحمد المريض، وغيرهم من الأبطال. ووفاء للزعماء السياسيين في المنطقة الغربية من ليبيا الذين عقدوا اجتماعًا، وهم بشير السعداوي،ورمضان السويحلي، وعبد النبي بالخير، وأحمد المريض، وسليمان الباروني، في مدينة مسلاتة، وأصدروا قيام الجمهورية الطرابلسية عام 1918 في إعلان عُرف باسم إعلان "سواني بن يادم"، وهي أول جمهورية في العالم العربي، ولتأصل الفكر الجماعي و"العقل الجماعي" في تفكيرهم، فقد شكلوا مجلسًا رئاسيًا للجمهورية من خمسة أعضاء يتم التناوب سنويًا على رئاسته.

لقد كانت الجالية الاستيطانية الاستعمارية تسيطر على قطاعات واسعة من الحياة الاقتصادية والتجارية في ليبيا، وكانت تمتلك وتسيطر على أهم المساحات الزراعية التي تقدر بأربعين ألف هكتار، فضلًا عن وجودها في أرقى الأحياء والشوارع والمناطق الراقية الممتدة من مصراتة إلى صبراتة، بينما كان الليبيون يسكنون في مدن الصفيح. ومع ذلك؛ حين جرى تنفيذ القرار، سمحنا لكل أسرة من هؤلاء بأن تحمل معها مبلغ ألف دولار فقط.

في عام 1972، قمت بأول زيارة لإيطاليا. في هذا الوقت، كانت روما قد استوعبت الدرس، وأدركت أنها أمام "ليبيا جديدة"، ثم تعدّدت الزيارات وتكرّرت. لقد سمحت هذه الزيارات بتكوين علاقات صداقة قوية مع

رؤساء الوزارات المتعاقبين، ألدو مورو[28]، وجوليو أندريوتي[29]، وبينيديتو كراكسي[30]، بينما ظلت العلاقات مع أنولدو فورلاني[31]، وشيرياكو دي ميتا[32] علاقات عمل. وكنت، خلال زياراتي المتكرّرة والمتعدّدة لإيطاليا، ألتقي مع كل من البابا بولس السادس[33]، والبابا يوحنا بولس الثاني[34]، وكانا لطيفين دائمًا معي، وكانا يعطياني وقتًا أكثر من المعتاد، وبعد اللقاء كانا يصطحبانني حتى بوابة الفاتيكان، وكان هذا أمرًا نادر الحدوث. وفي أحد اللقاءات مع البابا يوحنا بولس الثاني، صرح للصحافيين قائلًا: "إنه يصلي من أجل ليبيا ومن أجل القذافي".

كان التحدّي الذي واجه العلاقات الليبية - الإيطالية في هذه المرحلة، هو أن تقدم إيطاليا اعتذارًا لليبيين عن مرحلة الاستعمار وجرائمه، وأن تعترف بحق الشعب الليبي وتعويضه عمّا لحق به من خراب ودمار، ثم إرساء علاقات جديدة. رفضت روما تقديم اعتذار رسمي علني ومكتوب عن حقبة الاستعمار، وكانوا يقولون لنا إنهم كانوا أيضًا ضحايا الفاشية، وإنهم لا يتحملون أيّ مسؤولية عن جرائمها في ليبيا. أمّا بصدد مطلب "التعويضات"، فقد قدّموا مقترحًا بتقديم "10 مليارات دولار" في شكل مشاريع. رفضنا المقترح، لأنه لم يقدّم في صيغة رسمية مكتوبة، كما أننا اعتبرنا المبلغ "زهيدًا" ولا يتناسب مع

(28) رئيس الوزراء الإيطالي للمرة الثانية (23 تشرين الثاني/نوفمبر 1974 - 19 تموز/يوليو 1976).

(29) تولى جوليو أندريوتي رئاسة الحكومة في إيطاليا ثلاث مرات: (17 شباط/فبراير 1972 - 7 تموز/يوليو 1973)، و(29 تموز/يوليو 1976 - 4 آب/أغسطس 1979)، و(22 تموز/يوليو 1989 - 24 نيسان/أبريل 1992).

(30) رئيس الوزراء الإيطالي (4 آب/أغسطس 1983 - 17 نيسان/أبريل 1987).

(31) أرنولدو فورلاني: رئيس الوزراء الثالث والأربعون لإيطاليا (18 تشرين الأول/أكتوبر 1980 - 28 حزيران/يونيو 1981)، كما شغل منصب نائب رئيس الوزراء ووزير الخارجية ووزير الدفاع.

(32) شيرياكو دي ميتا: رئيس الوزراء الإيطالي (13 نيسان/أبريل 1988 - 22 تموز/يوليو 1989).

(33) بولس السادس (Paolo VI): بابا الكنيسة الكاثوليكية الثاني والستون بعد المئتين (21 حزيران/يونيو 1963 - 6 آب/أغسطس 1978).

(34) يوحنا بولس الثاني (Ioannes Paulus II): بابا الكنيسة الكاثوليكية الرابع والستون بعد المئتين (16 تشرين الأول/أكتوبر 1978 - 2 نيسان/أبريل 2005) في حبرية طويلة دامت ستة وعشرين عامًا.

حجم الدمار الهائل الذي لحق بليبيا وشعبها من جرّاء الغزو الوحشي والبربري الإيطالي. إن التعويض الأهم الذي حققناه بقوة الثورة هو طرد أفراد هذه الجالية البغيضة، وشحنهم في سفن عادت بهم إلى إيطاليا كما جاؤوا منها إلى ليبيا، وكانت هذه بالنسبة إلينا بمنزلة عملية ثأرية تشفي القلوب وتثلج الصدور.

أذكر، في إحدى زياراتي لإيطاليا، أن صديقًا إيطاليًا دعاني لتناول العشاء في منزله بمدينة بورتوفينو[35] الجميلة مع بعض المدعوين، وكان من بينهم السفير الأميركي في عهد الرئيس جيمي كارتر. وخلال العشاء قال لي السفير: "جيد أن الملك إدريس وضعك ومعمّر في السجن، ولكن الملك ارتكب الخطأ القاتل وهو أنه وضعكما معًا لتتعارفا". وكان من بين الحضور شاب أميركي ضد سياسة بلاده، وكان ضد حرب فيتنام ومتعاطفًا مع شعوب العالم الثالث، فاحتج على كلام السفير ودخل معه في نقاش ساخن، واعتبر كلام السفير استفزازًا لي.

ثورة النفط

كان للمفاجأة دور مهم في نجاح مفاوضات النفط. لقد أخذنا شركات النفط على حين غرّة، وقرّرت أن أبدأ بشركة "أوكسيدنتال بتروليوم" (Occidental Petroleum Corporation)[36]؛ لأنها الأضعف من بين شركات النفط، فهي لا تملك نفطًا خارج ليبيا. استدعيت السيّد أرماند هامر[37] الرئيس التنفيذي للشركة، وبدأت معه المفاوضات عام 1970، وحينها كنت أشغل منصب وزير الداخلية. هدّدته بوضوح: "إنْ لم يقبل برفع الأسعار، وتعويض ليبيا عن

(35) قرية إيطالية تاريخية، مشهورة بصيد الأسماك، تقع في إقليم جنوة.

(36) شركة "أوكسيدنتال بتروليوم" أو "أوكسيدنتال" (أوكسي): شركة أميركية، نطاق عملها في مجالات استخراج الطاقة الأحفورية (نفط/ غاز) وإنتاجها في الولايات المتحدة والشرق الأوسط وشمال أفريقيا وأميركا الجنوبية. يقع مقرها في منطقة ويستوود بلوس أنجلوس في كاليفورنيا.

(37) أرماند هامر (Armand Hammer) (21 أيار/ مايو 1898 - 10 كانون الأول/ ديسمبر 1990): رجل أعمال ومالك "أوكسيدنتال" للنفط، وهي الشركة التي أدارها منذ عام 1957 حتى وفاته. بنى علاقات وصلات وثيقة بالاتحاد السوفياتي. كان هامر محبًّا للظهور الإعلامي. وقد ظهر كثيرًا في التلفزيون معلقًا على العلاقات الدولية أو حاثًّا الباحثين على العثور على علاج للسرطان.

السنوات السابقة، فإننا سنوقف ضخّ النفط". كانت المفاوضات الأولى تجري طوال الوقت في مبنى وزارة الداخلية، وكانت تستمر ساعات طويلة. كان السيّد هامر يقول لي: "أنت شاب، وأنا لا أستطيع تحمّل هذه الساعات الطويلة"، وكان أحيانًا ينام على "الكنبة" في المكتب ليأخذ قسطًا من الراحة. لم تكن مفاوضات بالمعنى الدقيق للكلمة. كانت تهديدًا ووعيدًا من جانبي: إمّا أن يقبل بما أطلبه منه، وإمّا يواجه إيقاف الضخّ، بل حتى التأميم. كان السيّد هامر يتعرض لضغوط ليبية من جهة، ولضغوط شركات النفط الأميركية من جهة أخرى، ولكنه استطاع بجرأته وشجاعته المحافظة على مصالح شركته. بعد مفاوضات صعبة وطويلة وشاقة، وافق السيد هامر على رفع الأسعار وتعويض ليبيا عن فارق السعر؛ إذْ كانت ليبيا تتقاضى عن البرميل الواحد أقل مما كانت تتقاضاه إمارة أبوظبي. وكانت هذه مفاجأة لنا، فقد كان دخل ليبيا نحو 87 سنتًا للبرميل الواحد، في حين كان سعر برميل الماء 3 دولارات. ولأن الشركات لا تستطيع دفع هذه المبالغ فورًا، فقد وافقت على أن تدفعها في شكل أقساط سنوية، وبذلك أدخلت ليبيا مصطلح "الأثر الرجعي" إلى قاموس الاقتصاد العالمي.

بعد أن نجحت ليبيا في فرض شروطها على شركة "أوكسيدنتال"، أصبح موقف الشركات الأخرى ضعيفًا، فدخلت معها في مفاوضات جديدة لتقبل بما قبلت به "أوكسيدنتال". حاولت هذه الشركات، بلا جدوى، رفض فكرة الدخول في مفاوضات مع كل شركة على حدة، ولكن تحت الإصرار والعزيمة القوية، نجحتُ في فرض الأمر الواقع، والتفاوض مع كل شركة على انفراد. وطلبت من كل شركة قبول ما توصلتُ إليه مع شركة "أوكسيدنتال"، أو مواجهة إيقاف الضخ والتأميم. وبعد عناد ومماطلة، والقول إنها تحت هذه الشروط لا تحقق أي عائد مالي، أذعنت هذه الشركات العالمية العاملة في مجال استخراج النفط، وقبلت شروطنا مضطرّة. ثم بدأت المرحلة الثانية الأكثر صعوبة من المفاوضات؛ لأن الشركات كانت قد تعلّمت واستفادت من المباحثات الأولى، وقررت مواجهتنا بصفة جماعية؛ فمن جهة، أجرت مفاوضات "صورية" مع دول الخليج، وتوصلت معها إلى اتفاقات هزيلة بغرض إضعافنا. ومن جهة أخرى، أقامت "كارتيلًا" (تجمعًا) نفطيًا في مواجهتنا، وتمّ إبرام اتفاق جماعي بين هذه الشركات يقوم على الآتي:

1 - يكون التفاوض مع ليبيا بصفة جماعية.

2 - رفض الإذعان لمزيد من الشروط الليبية.

3 - عند تعرض أي شركة لوقف الإنتاج، ستقوم بقية الشركات بتعويضها.

لكنني رفضت المفاوضات الجماعية، وقلت: هذا لا يجوز. نحن لا نتفاوض مع دول، وأنتم شركات تعمل داخل ليبيا وعلى الأراضي الليبية، والحكومة الليبية هي التي تحدّد أسلوب التفاوض، وإنّ هذا مسّ بالسيادة الليبية والكرامة الليبية، وإن الشركات يجب أن تخضع للسيادة الليبية. لقد كانت الشركات قبل الثورة دولًا داخل الدولة، ورفضت أيضًا التفاوض مع مديري الشركات المحلية، وبقيت مُصرًّا على التفاوض مع مديري الشركة الأم في الولايات المتحدة، أو نوابهم، أو أعضاء مجلس الإدارة ممن يملكون صلاحيات اتخاذ القرارات.

اشترك معي في هذه المفاوضات من الجانب الليبي عز الدين المبروك، وعمر المنتصر[38]، وكامل المقهور، وعيسى البعباع. قال لي كامل المقهور[39]: "هذه ثورة حقيقية. يا ليت الشعب الليبي يعيش أحداثها ويكون حاضرًا معنا". وفي إحدى المرات، بينما كنت أتفاوض مع السيد بيريسي (لا أذكر اسمه كاملًا) نائب مدير شركة "إسّو" الأم[40]. وعلى عادة الأميركيين، وضع ساقًا على ساق، فركلته بقدمي وصرخت به: "أنزل رجلك". كنت أعلم أن هذه من عادات الأميركيين، ولكنني قصدت من ذلك أن يفهم أن وضع الشركات صار مختلفًا بعد الثورة. كانت المباحثات صعبة وشاقة، وكنت راغبًا في تحقيق انتصار آخر على الشركات الاحتكارية بمناسبة العيد الأول للثورة. قبل يومين من موعد هذه المناسبة، وعدت الشركات بتقديم عرضٍ جيد، وكنت أترك رؤساء الشركات أو نوابهم في حالة انتظار بممر البوابين. طلبت من أحد أعضاء الوفد الليبي أن

(38) أمين اللجنة الشعبية العامة (رئيس وزراء) بليبيا من 1 آذار/ مارس 1987 حتى 7 تشرين الأول/ أكتوبر 1990، كما شغل منصب وزير الخارجية (1992-2000) ليخلفه عبد الرحمن شلقم.

(39) كاتب وقاص ليبي وأمين (وزير) نفط أسبق (1982-1986).

(40) "إسّو"/ "إكسون موبيل" (ExxonMobil): شركة متعددة الجنسيات تعمل في مجال الطاقة الأحفورية، وتقع مقارها في مدينة إرفينغ بولاية تكساس في الولايات المتحدة الأميركية، وهي أكبر الشركات المُنبثقة من شركة "ستاندرد أويل" التي أسَّسها جون روكفلر.

يجلب لي العروض منهم. وعند اطلاعي عليها، وجدت أنهم عرضوا متضامنين زيادة 3 سنتات للبرميل، وقالوا: "إنْ زدنا سعر البرميل أكثر فسوف نخسر، ولن يكون النشاط مجديًا من الناحية الاقتصادية"، فغضبت غضبًا شديدًا وطلبت من أحد أعضاء الوفد الليبي أن يطلب حضورهم الواحد تلو الآخر. وعند وصول مسؤول كل شركة عند باب المكتب، كنت أرمي عليه أوراق العرض عن بعد وأنا أقول بالإنكليزية "Get Out (اخرج)". والواقع أنها لم تكن مفاوضات، بل كانت قرارًا: إمّا أن يقبلوا بشروطنا وإمّا مواجهة إيقاف الضخ والتأميم. ثم قررنا تأميم 51 في المئة من شركات النفط بناء على القرار رقم 66 لسنة 1973، القرار الذي وقّعت عليه، على أن يتم تعويضها على أساس القيمة الدفترية.وقد قاومت هذه الشركات قرار التأميم وهددت بالخروج من ليبيا، ثم رفضت التعويض، وطالبت أن يكون التعويض على أساس الاحتياطي القابل للاستغلال. ولأن القانون الاقتصادي يقول بأن البائع هو الذي يحدد سعر البضاعة التي يريد بيعها، وفقًا للعرض والطلب، إلا الخامات، حيث كان المشتري هو الذي يحدد سعرها، جاءت ثورة الفاتح لتصحيح ذلك، وأصبحت الدول النفطية هي التي تحدد أسعار نفطها. وفي أثناء المباحثات، كان المتحدث الرسمي باسم شركات النفط، يصرح "في الخليج توجد مفاوضات متكافئة، أما في ليبيا فلم تكن هناك مفاوضات؛ إمّا أن تقبل بالشروط وإمّا تواجه العواقب". وبفضل الله وبالعزيمة والإصرار انتصرنا في المفاوضات الثانية. وقد أدت ثورة النفط[41]، بل ثورة الدول المالكة للخامات التي قادتها ثورة الفاتح من سبتمبر، إلى تحقيق الأهداف التالية:

1 - رفع أسعار النفط، حيث حقق برميل النفط سعر 40 دولارًا، وهو سعر إلى حد بعيد عادل في حقبة السبعينيات؛ وإذا ما قورن بالقوة الشرائية اليوم فهو يعادل 160 دولارًا.

---

(41) في 17 تشرين الأول/أكتوبر 1973 اتخذ أعضاء منظمة الأقطار العربية المصدرة للنفط (أوابك OAPEC) قرارًا تاريخيًا بحظر تصدير النفط إلى الولايات المتحدة والدول الغربية المؤيدة لإسرائيل، مما أدى إلى خلق أزمات اقتصادية خانقة في البلدان التي شملها الحظر، وإلى ارتفاع سعر برميل النفط عدة أضعاف، ومكّن ذلك أوبك من تحديد السعر في السوق. وكانت المرة الأولى التي تستخدم فيها الدول العربية النفط سلاحًا استراتيجيًا.

2 - أصبحت منظمة الدول المصدرة للنفط (الأوبك) هي التي تحدد الأسعار على أساس عوامل السوق، وهذا هو الأمر الطبيعي؛ لأن البائع يحدد السعر بناء على العرض والطلب. لقد كانت الدول الصناعية المستهلكة للنفط هي التي تحدد الأسعار، وهي أسعار سياسية بخسة.

3 - أدت ثورة النفط إلى قيام الدول المنتجة للخامات لتشكيل تكتلات للسيطرة على ثرواتها وتحديد سعر عادل لها؛ ذلك أن غنى الدول الغربية ورفاهيتها يقومان على ثلاثة عوامل:

- التحكم في أسعار الطاقة والخامات.

- أن يستمر الاستقلال الصوري للعالم الثالث وألا يتطور إلى استقلال حقيقي يقود إلى استقلال ثقافي واقتصادي، وأن يظل العالم الثالث سوقًا.

- الاستخدام المكثف للتكنولوجيا ومنعها عن العالم الثالث، لكن - للأسف - تآمر هنري كيسنجر[42] وفاليري جيسكار ديستان[43] لتأسيس "مؤسسة الطاقة" في ثورة مضادة ضد الأوبك، وقد طلبت الولايات المتحدة من المملكة العربية السعودية بضخ 14,5 مليون برميل يوميًا حتى وصلت الأسعار عام 1983 إلى 7 دولارات.

ولأن هذا الانتصار هو ثورة أو "انقلاب" تاريخي خافت منه الدول الغربية على مصالحها واحتكاراتها، فإنها تآمرت وقررت إجهاض "ثورة النفط" حتى لا تستشري عدواها إلى الدول المالكة للخامات؛ ولذا بدأت بتشكيل تجمع لها (مؤسسة الطاقة) في مواجهة الأوبك، وطلبت من السعودية إغراق السوق بالنفط السعودي حتى وصل إنتاجها إلى أكثر من 14,5 مليون برميل يوميًا، وقد وصلت تكلفة استخراج المواد الخام إلى أكثر من سعرها في السوق العالمية، إلى حدّ أنّ هذه الدول "تموت مرضًا وجوعًا"، ولا تتمكن من استغلال ثرواتها.

(42) هنري كيسنجر: وزير خارجية الولايات المتحدة الأميركية (1973-1977).

(43) فاليري جيسكار ديستان (2 شباط/فبراير 1926 - 2 كانون الأول/ديسمبر 2020): رئيس الجمهورية الفرنسية (1974-1981).

إنها الرأسمالية المتوحشة. وقد كان للجزائر وللأخ عبد السلام بلعيد[44]، وزير النفط شخصيًا، دور مهم في تأييدنا، وقد عقدت عدة اجتماعات في ليبيا لوزراء نفط الجزائر ونيجيريا وفنزويلا من أجل الوقوف معنا.

حينما رفضت شركات النفط الأميركية التأميم وسعت إلى مقاومته بلا جدوى، اضطرّت إلى الانسحاب من ليبيا، ولكن بعد سنوات عادت مرغمة وقبلت بالتأميم. وأذكر أن الشركات الأميركية، حين قررت العودة إلى ليبيا، أقامت حفل استقبال للعاملين وأسرهم، ووضعت أمامهم ثلاثة خيارات: إما العودة إلى ليبيا، وإمّا الذهاب للعمل في السعودية، وإمّا أن يختاروا العمل في إيران. فوجئت هذه الشركات بأن معظم الموظفين والعاملين فضلوا العودة إلى ليبيا على الرغم من أن مرتباتهم في السعودية هي الأعلى، وكان من المدهش لنا أن هؤلاء برّروا عودتهم بجملة واحدة (نحن نحب الشعب الليبي لأنه يحترم الأجانب، وهم شعب مضياف، بل إنهم يشعرون بحريتهم الشخصية في ليبيا). بعد سنوات من هذه الواقعة، أخبرني وزير النفط عز الدين المبروك أن السيد بيريسي تعرض لحادث سير خطير هو وزوجته، وأن زوجته أصبحت مقعدة تستخدم كرسيًا متحركًا. لقد أحزنني هذا الخبر، وعلى الفور أرسلت له دعوة خاصة لزيارة ليبيا. وحينما وصلا وضعت تحت تصرفهما طائرة خاصة وطلبت من مدير المراسم أن ينظم لهما جولة سياحية في المدن الأثرية والواحات الجميلة. وقبل أن يعود إلى الولايات المتحدة، استقبلته في مكتبي فقال لي: "إنني أرى شخصًا آخر"، فضحكت وقلت له: "اللقاءات الأولى كانت لقاءات عمل سياسي، أما هذا اللقاء فهو وجداني وإنساني، ونحن في الشرق لا يمكن أن نعزل عقولنا عن مشاعرنا وأحاسيسنا".

ثم أراد جيسكار ديستان وكيسنجر، وهما العقلان المدبران لهذا التآمر، تأسيس "مؤسسة الطاقة" للتعبير عن مصالح الدول المستهلكة للنفط في مواجهة

(44) عبد السلام بلعيد: من مواليد 20 تموز/يوليو 1928 بعين الكبيرة (ولاية سطيف)، وهو من المناضلين الأوائل في الحركة الوطنية الجزائرية. شغل العديد من الوظائف الحكومية؛ منها رئيس الوفد الجزائري المفاوض مع الطرف الفرنسي بخصوص ملف الطاقة، والمدير العام لشركة "سوناطراك" (1964-1965)، ووزير الصناعة والطاقة (1965-1977)، ووزير الصناعات الخفيفة (1977-1979)، ورئيس الحكومة (1992-1993).

الثورة النفطية التي قادتها ليبيا، وقررا عقد اجتماع بين مؤسسة الطاقة والأوبك، والغريب أنهما حددا الدول التي ستحضر على أساس خمس دول لكل طرف. كما حددا أيضًا أسماء دول الأوبك التي ستحضر هذا اللقاء في الوقت الذي كان يجب أن يترك فيه للأوبك حق اختيار الدول التي ستمثلها. لكن العقلية الاستعمارية الاستكبارية لم تراعِ سيادة أوبك ولا احترام أعضائها، وكأنّ هذه الدول "محميات"، وهي أثبتت أنها كذلك بالفعل حينما قبلت قرار جيسكار ديستان - كيسنجر، وكانت هذه الدول، التي حددا أسماءها، هي السعودية وإيران والجزائر وفنزويلا ونيجيريا. ومن الغريب أن الجزائر قبلت استضافة قمة الأوبك عام 1975، وكنت قد مثلت ليبيا في هذا المؤتمر، وقد رافقني علي عبد السلام التريكي وزير الخارجية، وعز الدين المبروك وزير النفط ومحمد الزروق رجب وزير المالية. وفي أول جلسة، فوجئت بأن المؤتمر كان مُسخرًا للموافقة على هذه الدعوة، وكان الرئيس هواري بومدين[45] يترأس المؤتمر، فبدأ بالحديث عن الدعوة والترويج لها، فطلبت الكلمة - وكان الرئيس بومدين يحترمني إلى أبعد الحدود - فأعطاني الحق في إلقاء كلمة، فقلت: "نحن لم نستلم أي دعوة ولم نطلع عليها، فكيف لنا أن نبحث في شيء لم نطلع عليه"، فضغط بومدين على الجرس وطلب من السكرتاريا ترجمة نص الدعوة وتوزيعها. ولما أرادت السكرتاريا فعل ذلك، رفضتُ، وقلتُ: "نحن جئنا إلى هنا لحضور قمة الأوبك[46] كدول مستقلة تحترم نفسها، ولم نأتِ لبحث دعوة جيسكار ديستان - كيسنجر، فهما لم يحترما دول الأوبك وعاملاها كمحميات. إنهما

(45) هواري بومدين: اسمه الحقيقي محمد إبراهيم بوخروبة (23 آب/أغسطس 1932 - 27 كانون الأول/ديسمبر 1978)، وهو الرئيس الثاني للجزائر المستقلة. شغل المنصب بداية من 19 حزيران/يونيو 1965 بعد انقلاب عسكري على أحمد بن بلّة.

(46) أوبك: منظمة الدول المصدرة للنفط (Organization of the Petroleum Exporting Countries, OPEC)، وهي منظمة عالمية تضم إحدى عشرة دولة تعتمد على صادراتها النفطية اعتمادًا كبيرًا لتحقيق دخلها. يعود تأسيسها إلى عام 1960، في محاولة لكسر هيمنة شركات النفط العالمية على الأسواق، ولاضطلاع الدول المنتجة بدور في حركة العرض والطلب، ومن ثم التسعير. انطلقت المنظمة من مؤتمر بغداد قبل ستة عقود، حيث شاركت خمس دول في تأسيس أوبك، هي: السعودية، والكويت، والعراق، وإيران، وفنزويلا.

يريدان إشاعة الخلافات بيننا ليسهل القضاء على الأوبك، وهذه إهانة للأوبك وتدخّلٌ فظٌّ في سيادتنا. إنها قنبلة موقوتة لتفجير الأوبك". ثم قلت: "هذه الدعوة لا تخصنا"، فرفع شاه إيران محمد رضا بهلوي يده وقال: "أنا أتفق مع الرائد عبد السلام. هذه دعوة خاصة بنا وحدنا، يمكن أن نبحثها في اجتماعات جانبية". فثارت ثائرة بومدين، وكأن صحوة ضمير تفجرت فيه، وشن هجومًا على جيسكار ديستان - كيسنجر، وردد كلامي نفسه تقريبًا، ثم ألقيت كلمة أكدت فيها أن ليبيا ليست هي المنتصرة، بل إن مَن انتصر هو وعينا وإرادتنا جميعًا. ثم شكرت الجميع، وقلت في نهاية كلمتي: "أريد أن أسمع رأي الأمير فهد بن عبد العزيز" الذي كان وليًا للعهد، ولكنه لم يتحدث. ثم ألقى رئيس وفد نيجيريا، وكان نائب الرئيس، كلمة، قال فيها حرفيًا: "حينما كنت أستمع للرائد عبد السلام كأنني كنت أستمع لصلاح الدين الأيوبي". وعلق الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان[47] قائلًا: "ليبيا صادت وحنا كلينا". وحينما التقيت شاه إيران خلال إحدى فترات الاستراحة، صافحني وقال لي: "إنني أكرهكم، ولكنني أحترمكم". وقد وقّع صدام حسين[48] وشاه إيران[49] خلال القمة على اتفاقية "شط العرب" حيث تنازل عن حقوق العراق والأمة في شط العرب[50]. وبعد التوقيع الذي لم أحضره، طلب مني بومدين تأييد الاتفاقية، وقال لي صدام حسين: "إن العراق اضطر إلى توقيع هذه الاتفاقية لأنه لا يملك الأسلحة في مواجهة إيران حتى الذخيرة كانت تنقصه، ولكي يتفرغ العراق للجبهة الشرقية (بحسب قوله)"، فقلت: "أنا لم أطلع على الاتفاقية، واتصلت بطرابلس ليجهزوا لي النص". ثم قلت: "في الوقت الذي تناضل الأمة فيه لتحرير فلسطين

(47) حاكم الإمارات العربية المتحدة (1971-2004).

(48) نائب رئيس مجلس قيادة الثورة يومئذ.

(49) محمد رضا بهلوي (1941-1979).

(50) عُرفت باتفاقية الجزائر التي وقعت بين العراق وإيران في 6 آذار/ مارس 1975 بين نائب الرئيس العراقي آنذاك صدام حسين وشاه إيران محمد رضا بهلوي، بإشراف رئيس الجزائر هواري بومدين. والغرض منها وضع حد للصراع المسلح للأكراد بقيادة مصطفى البارزاني الذي كان يتلقى دعمًا ماديًا وسياسيًا من الشاه، ولكن صدام حسين ألغى هذه الاتفاقية عام 1980، الأمر الذي أدى إلى اندلاع حرب الخليج الأولى.

من النهر إلى البحر، أنا لا أوافق على التنازل عن أي شبر من أرض العرب من المحيط إلى الخليج". فتم قطع البث المباشر، فاستشاط كل من بومدين وصدام غضبًا، وأصيبا بالإحباط والمرارة.

وأذكر أن صدام حسين حين كان نائبًا للرئيس أحمد حسن البكر[51]، زارنا في ليبيا في الأسبوع الأول من ثورة الفاتح، أي في يوم 7 أيلول/ سبتمبر 1969. أبلغتنا سلطات مطار طرابلس أن طائرة عراقية على متنها شخصية مهمة تطلب الهبوط في المطار، فطلبنا منهم تحديد اسم الشخصية، وجاء الجواب أنه صدام حسين. كان صدام حسين "ضيفًا ثقيلًا" في هذه الزيارة لثلاثة أسباب: الأول، أنه فرض نفسه علينا ولم يطلب الموافقة على الزيارة؛ ثانيًا، استمرت الزيارة وقتًا أطول مما يجب، لأننا كنّا مضطرين إلى أن نجد الوقت للاجتماع به، وفي الوقت نفسه، كنّا في حاجة إلى كل دقيقة؛ ثالثًا، حاول صدام بعقليته الطاووسية أن "يحتوينا" في صراع حزب البعث العربي الاشتراكي مع جمال عبد الناصر حول قيادة الأمة، وقيادة الوحدة والثورة، وكنّا نضحك لأنه لا أحد يحتوينا؛ لا صدام، ولا غيره. وقد أثبتت الأيام بعد ذلك أن الولايات المتحدة والغرب، لم يتمكنا من احتوائنا.

(51) رئيس جمهورية العراق (17 تموز/ يوليو 1968 - 16 تموز/ يوليو 1979).

الفصل الثالث

العلاقة مع مصر

اللقاء الأول مع جمال عبد الناصر

كنت أول عضو في قيادة الثورة يقابل الرئيس جمال عبد الناصر. كان ذلك بعد نجاح ثورة الفاتح بشهر واحد فقط، أي في تشرين الأول/ أكتوبر 1969. ذهبت إلى مصر في طريقي إلى السودان للمشاركة في احتفالات الثورة التي قادها النميري. توجهت للقاء عبد الناصر فور وصولي مطار القاهرة، وكنت أعتقد أنه سوف يستقبلني في المكتب الرئاسي. توقفت السيارة التي تقلّني من المطار أمام منزله. نزلت من السيارة وفوجئت بوجود الرئيس قرب باب السيارة. احتضنني بقوة، وكنت أرتدي ملابسي العسكرية. ولهول المفاجأة، سقطت "طاقيتي" العسكرية وانزلقت عصاي من يدي. كان ترحيبه حارًّا ومفعمًا بالتقدير والمحبة. على الفور عقدنا اجتماعًا مطولًا لم يحضره أحد سوانا. قلت للرئيس عبد الناصر: "يقول لك الأخ معمّر والإخوة في القيادة، ماذا نريد لأجل محاربة اليهود؟"، فردّ عليّ بسرعة: "نريد طائرات قاذفة مقاتلة". صدمني الردّ؛ لأنني كنت أؤمن بأنّ التوازن مع العدو، هو توازن اجتماعي يتمثل في تحرير الإنسان العربي سياسيًا وثقافيًا واجتماعيًا، وبأنّ الصراع هو بين إرادتين، إرادة منتصرة وإرادة مهزومة، وأن تغيير الواقع العربي يأتي من انتصار الثورة. ومع ذلك قلت له: "أنا ذاهب لشراء طائرات الميراج من فرنسا بعد عودتي من السودان، فأرجو أن تجهز لي طاقمًا فنيًّا متخصّصًا يضع مواصفات الطائرة ليتولى الجانب الفني من المفاوضات لعقد الصفقة، وهُم سيكونون ضمن الوفد الليبي"، فضحك الرئيس عبد الناصر وقال لي حرفيًّا "أنتم شباب صغار لا تفهمون السياسة. مش ممكن الميراج تكون عندنا وعند العدو". لكنني أصررت على موقفي وأكدت له بأنني سأذهب على رأس وفد إلى فرنسا لأبحث هذا الأمر. ولما عدت من السودان، وجدت الرئيس

عبد الناصر قد عيّن فريقًا فنيًا ممتازًا. وبالفعل ذهبت إلى فرنسا في زيارة سرية على رأس وفد ليبي، بجواز سفر عادي، وباسم مستعار تحت غطاء "وفد زراعي". بدأت المباحثات بيني وبين وزير الدفاع ميشيل دوبريه[1]، واكتشف الفرنسيون أنّ الفريق الفني المرافق لي، والذي وضع المواصفات لكل الأجهزة التي يمكن أن تضاف إلى الطائرة، هو فريق مصري؛ ولذا مازحني الفرنسيون قائلين: "جلود. عندكم فنيون ممتازون ويملكون خبرة كبيرة بطائرات الميراج؟".

كانوا يريدون أن يقولوا لي: "نحن نعرف أنهم مصريون". كنت أقيم في فندق من الدرجة الثالثة، وكان ضباط المخابرات الفرنسية يقومون بالتغطية على الوفد بتغيير الفنادق. كانت الحكومة الفرنسية والرئيس جورج بومبيدو[2] شجاعين، وكانا يطلبان الحفاظ على سرية المباحثات حتى توقيع الاتفاق لخوفهم من الضغوط الإسرائيلية والأميركية، وكان إقدام الرئيس بومبيدو على عقد هذه الصفقة يعبّر عن شجاعة غير عادية.

كان من بين أعضاء الوفد الفني العقيد محمد التهامي والعقيد دله إبراهيم من سلاح الجو الليبي، وكان هناك مستشارون قانونيون، من بينهم المستشار محمد عزوز، ثم محمد كامل حسن المقهور الذي شغل منصب مستشار المحكمة العليا خلال الفترة 1969-1971 ومندوب ليبيا الدائم في الأمم المتحدة في عام 1972. فوجئت يوم 31 كانون الأول/ ديسمبر 1969 بإصرار الجانب الفرنسي على التوقيع فورًا، وإلا فسوف ترتفع الأسعار بدايةً من الأول من كانون الثاني/ يناير بنسبة 14 في المئة. عندها ألح عليّ الوفد الليبي على

(1) ميشيل دوبريه (5 كانون الثاني/ يناير 1912 - 2 آب/ أغسطس 1996): حصل على شهادة الدكتوراه في القانون الدولي من جامعة باريس، وقد كان أول رئيس وزراء للجمهورية الفرنسية الخامسة. يُعتبر من واضعي الدستور الحالي لفرنسا. خدم في عهد الرئيس شارل ديغول من عام 1959 إلى عام 1962. وكان قد تولى منصب وزير الدفاع في عهد الرئيس جورج بومبيدو (1969-1973).

(2) جورج بومبيدو (5 تموز/ يوليو 1911 - 2 نيسان/ أبريل 1974): سياسي فرنسي شغل منصب رئيس فرنسا من عام 1969 حتى وفاته في عام 1974. كان سابقًا رئيس وزراء فرنسا في أطول فترة لهذا المنصب (1962-1968).

التوقيع، لكنني رفضت، وأذكر أن العقيد التهامي غضب وقال لي حرفيًا: "ما بك يا رائد عبد السلام أتعتقد أننا نريد شراء دجاج؟"؛ ذلك أنني كنت أعتقد أنّ الأسعار لا تزال مرتفعة. طلبت لقاء وزير الدفاع دوبريه. وبالفعل، حضر إلى وزارة الدفاع بعد قطع احتفاله برأس السنة. قلت له: "لا فرق بين طائرات الميراج والميغ[3]. يمكننا أن نذهب إلى موسكو لشراء طائرات الميغ، ولكن الموضوع سياسي؛ عادة حينما تحصل ثورة تقدمية تتجه إلى موسكو، وحينما يحصل انقلاب يميني يتجه إلى واشنطن، ونحن بصفتنا شبابًا عربًا، نمثل شباب أمتنا. لقد قرأنا الكثير عن الثورة الفرنسية، ونؤمن بالوحدة العربية كما يؤمن شارل ديغول[4] بالوحدة الأوروبية. لدينا حساسية خاصة بالنسبة إلى استقلالية قرارنا، ولدى ديغول الشعور نفسه. نحن نقدّر ديغول والديغولية لرفضه الهيمنة الأميركية، ولإيمانه باستقلال أوروبا عن أميركا، وهذا هو الذي دفع ثورة الفاتح كي تتجه إلى فرنسا. لكل هذا، لا يمكنني التوقيع لأننا لم نتفق على الأسعار ولا على مدة التسليم ولا على مدة الدفع". وافق وزير الدفاع على تأجيل التوقيع، ثم قمنا في 10 كانون الثاني/ يناير 1970 بالتوقيع على الاتفاق. كان من المفروض أن يسلّمنا الجانب الفرنسي 13 طائرة ابتداءً من السنة الأولى، لكنني تمكنت من زيادتها إلى 28 طائرة، كما تمكّنت من خفض الأسعار بنحو 22 مليون دولار، وزيدت مدة الدفع من 4 إلى 6 سنوات، وعلى أن يستمر الدفع من دون أي زيادة لمدة سنتين إضافيتين بعد نهاية التسليم، وذلك لنضمن استمرار تأمين قطع الغيار والمساعدة الفنية والتدريب. كانت قيمة الصفقة تزيد على 120 مليون دولار، وهي أكبر صفقة تبرمها فرنسا، وتتضمن 110 طائرات

---

(3) طائرات ميغ (MiG): كان أول جيل من هذه الطائرات شبيهًا بتصاميم الطائرات الألمانية النفاثة التي صممت في أواخر الحرب العالمية الثانية، بدءًا بطائرات "ميغ-15" و"ميغ-17"، والطائرة الأسرع من الصوت "ميغ-19". صمم المهندسون السوفيات عددًا من الطائرات القادرة على الطيران بسرعة ومن كل هذه التصاميم، كانت "ميغ-21" حينئذ أكثرها نجاحًا على الإطلاق.

(4) جنرال ورجل سياسة فرنسي. في عام 1943 ترأس اللجنة الفرنسية للتحرير الوطني التي أصبحت في حزيران/ يونيو 1944 تُسمّى الحكومة المؤقتة للجمهورية الفرنسية. وهو أول رئيس للجمهورية الفرنسية الخامسة (1958-1969).

"ميراج-5" و"ميراج-3"[5]. طلبت من وزير الدفاع الفرنسي أن يعطيني رسالة تضمن فيها الوزارة أن الأسعار المتفق عليها هي نفسها التي يشتري بها الجيش الفرنسي. وبالفعل، أعطاني الرسالة. أُقيل مدير المبيعات العسكرية الفرنسي، ثم قُتل.

وفي هذه الأثناء، تمّ تهريب الزوارق الإسرائيلية التي بنتها فرنسا لإسرائيل من ميناء طولون. وقبل توقيع الاتفاق بأيام، نشرت مجلة **باري ماتش** (*Paris Match*) صورة لي وأنا أغادر فندق "لوتيسيا" بمنطقة "سان جرمان"، فقرّرنا الإسراع في توقيع الصفقة قبل أن ينتشر الخبر؛ لأن الحكومة الفرنسية كانت تخشى الضغوط الأميركية والإسرائيلية إذا ما تمّ الكشف عنها. وحدث أنني ذهبت إلى مصر وقابلت الرئيس عبد الناصر فقلت له: "شن رأيك يا ريس؟" فضحك. كان عبد الناصر سعيدًا بالصفقة. لقد كانت بالنسبة إليه حلمًا، فقال لي غاضبًا: "أنتو بتذلوني بقا؟ (أي أنتم تريدون إذلالي)". كان عبد الناصر سعيدًا في قرارة نفسه ولكن كبريائه جعله يرد علي بهذه الطريقة.

كان من المفروض أن تحدث الصفقة تحولًا هائلًا في مجرى الصراع العربي - الصهيوني، فقد رفعت معنويات الأمة العربية كلها، وعبّرت عن قدرة ثورة الفاتح على تغيير الموازين والمعطيات. ولأن القتال بين إرادتين، إرادة مُصمّمة على النصر وهي الإرادة الصهيونية، والإرادة العربية المهزومة، فإن الصفقة لم تحدث الأثر المأمول. لكنها كسرت احتكار العدوّ الصهيوني للسلاح الغربي.

في هذا السياق، أذكر أنني كنت في زيارة للقاهرة، وكان لدي موعد على العشاء مع محمد حسنين هيكل، وفي أثناء العشاء فاجأني هيكل بالقول:

---

(5) "داسو ميراج-5" (Dassault Mirage): تُعَدّ واحدة من أشهر مقاتلات القرن العشرين، وهي هجومية صممتها شركة "داسو أفياسيون" الفرنسية. ساهمت في كثير من النزاعات، أبرزها الحروب العربية - الإسرائيلية، حيث كانت تشكل عماد سلاح الجو الإسرائيلي في عام 1967، ثم شكلت أيضًا عماد سلاح الجو الليبي في بداية السبعينيات، وجاءت تطويرًا للطائرة الشهيرة "ميراج-3" التي تعد أول طائرة أوروبية تفوق سرعتها سرعة الصوت (2,2 ماك) ومعدل تسلق 83 مترًا/ الثانية مع سقف أقصى للتحليق 17,000 متر.

"بصراحة أنا زعلان منكم قوي. لماذا تكتبون كتابًا - وكان يقصد **الكتاب الأخضر** الذي كتبه الأخ معمّر - كان عليكم أن تجمعوا خطب عبد الناصر وتضعوها في كتاب"، فقلت له: "يا أخ هيكل نحن في ليبيا لا ننظر إلى عبد الناصر كما تنظرون أنتم إليه في مصر. علاقتنا بعبد الناصر تختلف عن علاقتكم به، نحن جيل جديد من الثوريين الذين يرون أنهم جزء من الظاهرة الناصرية، ولكنهم يمتلكون طريقًا خاصًا لتجديد الفكر القومي".

زيارة عبد الناصر لليبيا و"مشروع روجرز"

كانت الجماهير العربية في ليبيا متعطشة ومتلهفة للقاء الرئيس جمال عبد الناصر. في 27 كانون الأول/ ديسمبر 1969، زار عبد الناصر ليبيا، فخرجت الجماهير الليبية في بنغازي عن بكرة أبيها في كتل بشرية هائلة. كانت تتجه من مطار بنينا إلى مقر الإقامة، وكذلك في طرابلس من المطار إلى قصر الضيافة. كنت أنا والأخ معمّر وعبد الناصر نستقل سيارة "لاندروفر صالون مكشوفة"، وكان الموكب يتوقف باستمرار أمام الكتل البشرية الهائلة المتدفقة. كان عبد الناصر يسألنا: "كم عدد سكان ليبيا؟"، فنقول له: "5 ملايين" فكان يقول: "هذا غير ممكن. ليبيا 20 مليونًا. الذين حضروا لاستقبالي في بنغازي أكثر من 5 ملايين، والآن أمامي أكثر من 8 ملايين". عقدنا الأخ معمّر وأنا مباحثات، أو الأدق أجرينا حوارًا، مع عبد الناصر، وشرحنا له تصوراتنا عن الثورة الشعبية التي نريد تفجيرها، وتحويل ثورة الفاتح الطليعية إلى "ثورة شعبية".

في نهاية الحوار قال عبد الناصر: "من الممكن ألّا أعمل ثورة شعبية مثلكم بالضبط؛ ولكنني كنت أريد أن أضرب الأجهزة وأعود إلى الشعب، لكن اليهود والأميركيين سبقوني، ولم يتركوا لي هذه الفرصة - وكان بذلك يشير إلى عدوان 1967 - وأن أعيد بناء الاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي من جديد، وكنت سأعلن شيئًا قريبًا مما تفكرون به". لما خرجنا من الاجتماع، كان عبد الناصر يمسك بيدي وبيد الأخ معمّر، وأريد هنا أن أشير إلى أن روح عبد الناصر الثورية قد عادت إليه، وبدا صوته مجلجلًا كما كان في الخمسينيات

والستينيات، وتجلى هذا في خطاباته التي ألقاها خلال زيارته. لقد أعطته ثورة الفاتح أملًا جديدًا. خلال الزيارة بدا عبد الناصر سعيدًا إلى أبعد الحدود بالزيارة وباستقبال الجماهير الليبية له. وحدث خلال الزيارة أن الصهاينة نجحوا في تفكيك الرادارات المصرية في منطقة البحر الأحمر[6]، وأنهم قاموا بنقلها إلى فلسطين المحتلة، وكان المسؤول عن منطقة البحر الأحمر أحمد إسماعيل. ولما علم عبد الناصر بالخبر، اتصل هاتفيًّا بالقاهرة، وهو في حالة ثورة الغضب، وكنت أنا والأخ معمّر إلى جواره، وأصدر أمرًا بإعدام أحمد إسماعيل، وكان يقول: "أعدموه، أعدموه".

كان الخلاف الوحيد مع عبد الناصر يدور حول "مشروع روجرز"[7]. في تشرين الثاني/ نوفمبر 1969، قام الأخ معمّر بزيارة القاهرة وبغداد. كانت ليبيا والعراق من أشدّ معارضي المشروع. حاول حزب البعث في العراق استغلال هذا المشروع، لتصعيد الهجوم على عبد الناصر، ليس من منطلق "معارضة المشروع"، بل من منطلق "المزايدة على عبد الناصر"؛ لأنه انتزع زعامة القومية العربية، وكنّا نعي هذا الجانب من معارضة العراق لمشروع روجرز، حين سعى لجرّنا إلى المواجهة مع عبد الناصر.

اتصل الأخ معمّر بالرئيس عبد الناصر وقال له: "يا ريس نحن جيل جديد، ونحن لا نشكّ مطلقًا بالتزامك القومي بتحرير فلسطين، وأن قبولك لمشروع روجرز ليس استراتيجيًّا، وإنما هو عمل تكتيكي لإعادة بناء القوة وإنشاء حائط الصواريخ. ومع تأكدنا من هذا، إلا أننا، وأرجو أن تتفهم ذلك، لا نستطيع

(6) حادثة الزعفرانة: قامت إسرائيل في 9 أيلول/ سبتمبر 1969 بعملية عسكرية خلال حرب الاستنزاف، واعتمدت فيها على سرية دبابات تي-55 السوفياتية الصنع، من مخلفات حرب حزيران/ يونيو 1967، وذلك في منطقة أبو الدرج على ساحل البحر الأحمر. وقد اتجهت جنوبًا إلى الزعفرانة مدمرة كل الأهداف التي اعترضتها، حيث استثمرت خلو المنطقة تمامًا من أي قوات عسكرية سوى بعض نقاط المراقبة، وقد استثمرت هذه العملية دعائيًا لرفع معنويات الجبهة الداخلية.

(7) مشروع روجرز/ مبادرة روجرز: مبادرة حملت اسم وزير خارجية الولايات المتحدة وليام روجرز (1969-1973) في 5 حزيران/ يونيو 1970. كان الهدف منها وقف إطلاق النار مدة 90 يومًا بين مصر وإسرائيل. ولكن سرعان ما انهارت هذه المبادرة، حيث أعلنت مصر رفضها تمديد وقف إطلاق النار واستمرار حالة اللاسلم واللاحرب في 4 شباط/ فبراير 1971.

إلا أن نرفض المشروع". كان أكبر تحدٍّ واجهنا في هذا الوقت، هو كيف نرفض مشروع روجرز من دون أن نسيء إلى عبد الناصر. هذه هي المعضلة. وحينما اجتمعنا في مجلس قيادة الثورة، قررنا رفض المشروع وإصدار بيان بذلك، وقد قمت بصياغة البيان بمنتهى الدقة والقوة، وفي الآن ذاته بحرص شديد على عدم الإساءة إلى عبد الناصر، حتى لا يدخلنا ذلك في خلاف أو مواجهة معه. قبل إعلان البيان، اتصلنا بعبد الناصر لإبلاغه بصيغة البيان حتى لا يفاجأ به.

وحينما كان عبد الناصر يقوم بزيارته لليبيا أجرينا معه حوارات مكثفة حول جملة من القضايا، وفي أحد هذه الحوارات قال عبد الناصر: "يا معمّر، يا عبد السلام. لقد كان الملك فيصل[8] ابن حلال، كان أول ما فاجأني، حين وقف في مؤتمر الخرطوم[9] وأعلن عن دعم مصر بعشرين مليون دولار". في الواقع، تمنيت ألا أسمع هذا الكلام من عبد الناصر. كنت أعلم أن عبد الناصر كان مضطرًا إلى دفع ثمن غالٍ، هو سحب القوات المصرية من اليمن، والتخلي عن ثورة اليمن. في مؤتمر الخرطوم، رغم "اللاءات الثلاث"، تمّ التخلي عن الثورة، وجرى رفع شعار "وحدة الصف" بدلًا من "وحدة الهدف". وبدأت بعض القوى الراديكالية في الوطن العربي، وعلى رأسها "الجناح الماركسي" في حركة القوميين العرب، في معارضة عبد الناصر، واتهامه بالتخلي عن الثورة.

وفاة عبد الناصر ومرحلة السادات

في 28 أيلول/ سبتمبر 1970، أذاعت وكالات الأنباء نبأ وفاة عبد الناصر المفاجئة. عند سماعنا النبأ، سافرنا على الفور أنا والأخ معمّر ومعنا عدد من أعضاء القيادة إلى القاهرة. كان وقع الوفاة كالصاعقة علينا. كانت فاجعة كبرى

(8) الملك الثالث للمملكة العربية السعودية (1964-1975).

(9) مؤتمر القمة الرابع الخاص بجامعة الدولة العربية: عقد في الخرطوم في 29 آب/ أغسطس 1967 بعد حرب حزيران/ يونيو 1967. وقد عُرفت القمة باسم "قمة اللاءات الثلاث"، لا صلح، ولا اعتراف، ولا تفاوض مع العدو الصهيوني، قبل أن يعود الحق إلى أصحابه.

أو كارثة قومية. لقد أكدت الأحداث بعد ذلك أنها كانت بالفعل فاجعة قومية. كنّا نعتبر عبد الناصر هو الأب الروحي لحركتنا، على الرغم من أننا لم نتصل به قبل تفجير الثورة. كنّا نعرف همومه بعد هزيمة عام 1967، ولم نكن نرغب في إشغاله بهمومٍ أخرى، كما أننا كنّا نحرص على أن تكون الثورة بمنزلة مفاجأة سارة له. كانَ عبد الناصر، على المستوى الشخصي والعاطفي، يعني الكثير لنا؛ أما على المستوى القومي، فقد كان لنا بمنزلة مُلهم للثورة والقومية من عدن إلى الجزائر، ومن المحيط إلى الخليج.

بعد انتهاء مراسم الدفن، وقبل أن نركب السيارات، أمسك السادات بيدي شعراوي جمعة[10] وسامي شرف[11]، وقال لنا: "يا معمّر، يا عبد السلام، خلي شعراوي وسامي شرف يضعوا يدهم في يدي. ونكمل على طريق عبد الناصر". كان تعيين عبد الناصر للسادات نائبًا له بمنزلة مفاجأة لنا. كنّا نعرف السادات، فقد زار ليبيا في طريقه لحضور مؤتمر القمة العربية في المغرب[12]. كانت هزيمة حزيران/ يونيو 1967 كصاعقة نزلت على رأسه، وقد صدق حسين الشافعي[13] حين قال: "عبد الناصر مات عام 1967". استغل السادات، وزوجته، ضعف عبد الناصر في هذا الوقت، وقدّما نفسيهما على أنهما يحرصان ويعطفان عليه. قيل لي إن عبد الناصر كان يحب الجبنة المعصورة، وإن القائمين على خدمته في الفترة الأخيرة، كانوا كلما أحضروها له يكتشفون أنه في بيت السادات، فكانوا يأخذونها إليه هناك".

بعد وفاة عبد الناصر، كثفنا جهودنا مع مصر وسورية من أجل إقامة وحدة. وافق السادات، وكنّا نضغط بقوة من أجل ذلك، ثم اتفقنا على إقامة اتحاد بين

---

(10) شعراوي جمعة (1920-1988): ضابط مصري، شغل منصب نائب رئيس الوزراء ووزير داخلية في عهد جمال عبد الناصر.

(11) سامي شرف (1929-): أحد مؤسسي المخابرات العامة المصرية وسكرتير الرئيس عبد الناصر الشخصي للمعلومات.

(12) مؤتمر القمة العربية الخامس في الرباط، المغرب، 21-23 كانون الأول/ ديسمبر 1969.

(13) حسين الشافعي (1918-2005): عسكري وسياسي مصري، وأحد أعضاء تنظيم الضباط الأحرار ونائب رئيس جمهورية مصر العربية (1963-1974).

الدول الثلاث، لكننا اكتشفنا أن السادات وافق على ذلك في عملية تكتيكية ليوطّد سلطته ويقضي على الناصريين، ثم ليمهد لانقلاب 15 أيار/ مايو 1971[14].

تشكلت لجنة ثلاثية لإعداد دستور اتحاد الجمهوريات العربية، وكنت أرأس الجانب الليبي، بينما ترأّس الجانبَ المصري حسين الشافعي وترأس الجانبَ السوري محمود الأيوبي، نائب رئيس الجمهورية. كان الوفد الليبي يضمّ منصور الكيخيا والمحامي كامل المقهور. وفي هذه الاجتماعات، أبدى الجانب المصري دهشته من وجود قدرات قانونية ممتازة في ليبيا مثل قدرات كامل المقهور. بعد انقلاب السادات عام 1971، أرسل إلينا وفدًا برئاسة محمد عبد السلام الزيات[15] وأشرف مروان، وكان الزيات نائبًا لرئيس الوزراء ونائبًا لرئيس الاتحاد الاشتراكي؛ ففوجئنا بأن السادات يتصل بنا ويقول: "ركزوا في الإعلام على أشرف مروان". شعر السادات بأن الناصريين يتآمرون عليه، وأعتقدُ أن أشرف مروان[16]، مع بعض المسؤولين، هو من أخبر السادات بوجود هذه المؤامرة. وعلى الرغم من أن الناصريين كانوا يسيطرون على أهم مرافق الدولة مثل الداخلية والدفاع والمخابرات والاتحاد الاشتراكي والتنظيم الطليعي، فإنه تمكن من تنفيذ انقلابه من دون أن يكلفه ذلك سوى قطع الهواتف عنهم. خلال

---

(14) انقلاب أيار/ مايو 1971: وقد اصطلح على تسميته "ثورة التصحيح"، حيث قام محمد أنور السادات، بعد تسلمه السلطة في مصر، بإزاحة مراكز قوى الشخصيات الناصرية في النظام السياسي ذات التأثير والنفوذ، بدعوى تخطيطهم لانقلاب عليه. من أبرز الشخصيات التي وقع إبعادها: نائب رئيس الجمهورية علي صبري، ووزير الدفاع محمد فوزي، ورئيس المخابرات العامة أحمد كامل، ووزير الداخلية شعراوي جمعة، ووزير الإعلام محمد فائق، ورئيس البرلمان محمد لبيب شقير، وسكرتير رئيس الجمهورية سامي شرف.

(15) محمد عبد السلام الزيات: عُيّن أمينًا أول للجنة المركزية للاتحاد الاشتراكي، ثم عُين بعد ذلك نائبًا أول لرئيس الوزراء إبان الانقلاب الذي قام به محمد أنور السادات في 15 أيار/ مايو 1971، ثم انقلب عليه السادات فأطاحه من الوزارة، وهوجم بشدة إبان ترشحه لمجلس الشعب في انتخابات 1979؛ لكونه كان رئيسًا لجمعية الصداقة المصرية - السوفياتية، مما ألصق به تهمة الماركسية.

(16) أشرف مروان (1944-2007): سياسي ورجل أعمال مصري، وزوج منى ابنة الرئيس جمال عبد الناصر. عمل بالمعامل المركزية للقوات المسلحة، ثم مساعدًا لجمال عبد الناصر. في عام 1970، أصبح المستشار السياسي والأمني للرئيس الراحل أنور السادات، وذلك بعد وفاة عبد الناصر. ترأس الهيئة العربية للتصنيع (1974-1979)، وتوجه إلى بريطانيا بعد تقاعده كرجل أعمال، وتوفي فيها في 27 حزيران/ يونيو 2007.

هذه الزيارة، طلب الوفد المصري مساعدة بـ 60 مليون دولار، نظرًا إلى حاجة مصر إلى شراء القمح، وقمنا بتحويل المبلغ على الفور.

في أحد اجتماعات مجلس "اتحاد الجمهوريات العربية"[17] في نيسان/ أبريل بالقاهرة، وبحضور السادات وحافظ الأسد والأخ معمّر القذافي وأنا ووزراء الدفاع ورئيسَي الأركان في كل من مصر وسورية، وكانت الجلسة مخصّصة لمناقشة قضية تحرير أراضي عام 1967، فوجئت أنا والأخ معمّر بأن مصر قدّمت خطة عسكرية كلاسيكية. كانت الخطة تقوم على فكرة قيام القوات المصرية بالعبور والهجوم على القوات الصهيونية في سيناء، بينما تهجم القوات السورية في الوقت نفسه على القوات الصهيونية في جبهة الجولان، وهي خطة تقليدية، تعبّر عن جمود العقل العسكري وتكلّسه؛ فهي تتجاهل الجبهة البحرية، مع أنها "جبهة مميتة وقاتلة"، كما أنّ الخطة تستبعد القيام بضربات جوية للكيان الصهيوني؛ فاعترضنا على ذلك. قال الأخ معمّر: "إذا طبقتم هذه الخطة فستقود إلى هزيمة جديدة. شوف شن تسمّوا هزيمة 67؟ نكسة؟ بعدها ستكون نكبة". وقدّمنا خطة بديلة مكتوبة. تقوم الخطة على تثبيت العدو في جبهة سيناء، وشد أكبر قوة له في هذه الجبهة، وإيهامه وخداعه بأن الهجوم الرئيس سيكون من جبهة سيناء، في حين يكون الهجوم الرئيس من الجبهة الشرقية، ولذا يجب نقل أكبر قوة برية وجوية إلى الجبهة الشرقية، كما يجب ألا يتم الهجوم مباشرة على صخرة الجولان، وإنما يتم جنوب الجولان عبر الأراضي الأردنية المتاخمة للحدود السورية والاندفاع بسرعة للوصول إلى أراضي 48، واستخدام القوات الخاصة والفدائيين خلف العدو وفي العمق عن طريق الإبرارات، وشن غارات جويه مكثفة في عمق العدو ومدنه ومطاراته وأهدافه الاستراتيجية، ومهاجمة الشواطئ بالضفادع البشرية والفدائيين والقوات الخاصة.

لمّا قدمنا الخطة، قلنا للسادات وحافظ الأسد: "إذا كنتم جادين في

(17) هو بيان واتفاق وحدة بين ثلاث دول عربية هي سورية ومصر وليبيا في عهد الرؤساء حافظ الأسد ومحمد أنور السادات ومعمّر القذافي. وتم إجراء ثلاثة استفتاءات متزامنة بشأن اتحاد الجمهوريات العربية يوم 1 أيلول/ سبتمبر 1971 في مصر وليبيا وسورية. كان له دور إيجابي في إعلان حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973، لكن عقده انفرط بعد اتفاقية سيناء (أيلول/ سبتمبر 1975).

تحرير أراضي 67 فهذه هي الخطة". فقال السادات: "جرى إيه يا أخ معمّر ويا عبد السلام. هذه الخطة أعدتها مجموعة من قادة الأركان، في أكاديمية ناصر. إزاي (كيف) تشكّكوا فيها؟ نعرف أنكم خبراء في الثورة، أما في العلوم العسكرية فلا"، فرددت عليه وقلت: "التخطيط الاستراتيجي هو وعي وقدرة وتحليل وبعد نظر وفهم للمشكلة. مَن يخطط للثورة يمكنه أن يخطط للسياسة وللاقتصاد والأمور العسكرية. أما تعبئة دبابة وطائرة وصاروخ ومدفع، فهذا عمل تخصصي فنّي". لكن خطتنا رُفضت وأصروا على خطتهم، فقلنا لهم: "هذه الخطة ستقود إلى هزيمة ونكبة وكارثة. ومع ذلك فكل إمكانيات ليبيا تحت تصرفكم، وكل ما هو مطلوب منّا نحن جاهزون، ولكننا لن نتقاسم المسؤولية السياسية والقومية، لا في النصر ولا في الهزيمة".

بعد عودتنا من الاجتماع في القاهرة، ذهبت إلى الجزائر واجتمعت بالرئيس بومدين وقلت له: "السادات يريد أن يقوم بحرب تحريك ستقود بالتأكيد إلى هزيمة، وستعبر القوات الصهيونية قناة السويس وتهدد القاهرة وستشكل حكومة 'فيشي'[18] في مصر، ومن ثمّ سيفرضون الاستسلام على مصر والأمة العربية؛ ولذا نحن نرى أنه إذا ما حدث هذا، فيجب أن تقوم وحدة فورية بين ليبيا والجزائر ونعلن رفضنا للاستسلام. يجب أن تشكل ليبيا والجزائر الجبهة الغربية، ونعلن استمرار الحرب. هذا قد يحرض سورية والعراق على تشكيل الجبهة الشرقية". فوافق بومدين، واتفقت معه على أن نعقد اجتماعًا في حاسي مسعود لتوقيع ميثاق الوحدة. وبالفعل، عقد الاجتماع وحضره من الجانب الليبي الأخ معمّر وأنا، ومن الجزائر الرئيس بومدين وعبد العزيز بوتفليقة[19]،

(18) حكومة فيشي: في إشارة إلى الحكومة الفرنسية التي خلفت الجمهورية الثالثة وأعلن قيامها المارشال فيليب بيتان عقب سقوط فرنسا بيد ألمانيا النازية، وقد استمرت من تموز/ يوليو 1940 إلى أن سقطت في أيلول/ سبتمبر 1944 بعد تحرير باريس، وأعلنت حكومة ديغول إلغاء جميع قوانينها وتشريعاتها.

(19) بعد الاستقلال في عام 1962، تقلد العضوية في أول مجلس تأسيسي وطني، ثم تولى وزارة الشباب والرياضة والسياحة وهو في سن الخامسة والعشرين. وفي عام 1963، عين وزيرًا للخارجية. في عام 1964، انتخبه مؤتمر حزب جبهة التحرير الوطني عضوًا في اللجنة المركزية وفي المكتب السياسي. أصبح رئيسًا للجمهورية (1999-2019).

ووقعنا ما عُرف بـ"ميثاق حاسي مسعود" الذي ينصّ على الآتي: "في حال هزيمة مصر وفرض الاستسلام عليها، تقوم وحدة فورية بين ليبيا والجزائر، ونعلن تشكيل الجبهة الغربية ورفض الاستسلام واستمرار الحرب".

بعد أشهر، وقبيل الحرب، زارنا السادات في ليبيا وكنت أرأس مؤسسة الصناعات الحربية بين مصر وليبيا والكويت، وقال لي: "يا عبد السلام، أريدك أن تذهب إلى صديقك جيسكار ديستان، رئيس الجمهورية الفرنسية، عندي صواريخ القاهر والظافر ينقصها نظام التوجيه، وهي مهمة في الحرب. اطلب من ديستان أن يوافق على تزويدنا بنظام التوجيه لهذه الصواريخ". وبالفعل سافرت إلى فرنسا واجتمعت بجيسكار ديستان وحصلت على موافقته، وأن تقوم شركة "مترا" بتزويد هذه الصواريخ بأجهزة التوجيه لمصر على أن تدفع ليبيا التكاليف. وحينما عدت من فرنسا ذهبت إلى مصر، وعقدت اجتماعًا لمؤسسة الصناعات الحربية، حضره أحمد إسماعيل وزير الدفاع، ووزير الإنتاج الحربي، وأشرف مروان، وعدد من الخبراء والمهندسين. فأبلغتهم بموافقة فرنسا، فصعقت حينما قال وزير الإنتاج الحربي: "دي يا فندم مواسير"، فغضبت غضبًا شديدًا، وقلت لأحمد إسماعيل[20]: "هل لديك قضية؟ هل أخذت مسألة الحرب على محمل الجد؟ أنت لا تملك قضية ولا تشعر بوزر المسؤولية"؛ فانزعج أحمد إسماعيل وقال: "أنا عندي 1800 ماسورة لا يمكن أن ألمّ بها جميعًا"، فقلت له: "1800 ماسورة تعني من الهاون 60 ملم حتى المدفعية الثقيلة. هذه صواريخ استراتيجية حتى في الجيش الأميركي هي تحت سيطرة القيادة". فردّ عليّ: "أنا شاركت في ثلاث حروب، وأنت ملازم. كيف تعلمني العسكرية؟". فعدت للردّ عليه، وقلت: "لهذا نحن خسرنا هذه الحروب بوجود جنرالات مهزومين مثلك". وأضفت: "حينما كان عبد الناصر في ليبيا، قام الصهاينة بتفكيك الرادارات من البحر الأحمر، وكنت أنت مسؤول هذه المنطقة وعبد الناصر اتصل بالهاتف وطلب إعدامك". ثم قلت: "أنت لا تساوي حذائي هذا". ما إن سمع كلامي حتى سقط من على كرسيه مغمى عليه لأنه كان

(20) أحمد إسماعيل (1917–1974): قائد عسكري، وزير الحربية المصري خلال حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973، وكان قد تولى قبلها رئاسة المخابرات العامة المصرية ورئاسة أركان القوات المسلحة. أنهى الرئيس عبد الناصر خدمته بعد حادثة الزعفرانة، ولكنه عاد إلى عمله في عهد الرئيس أنور السادات.

يعاني مرض الضغط والقلب؛ فأحضروا له أقراص الدواء وانفض الاجتماع. قال لي أشرف مروان: "هيّا نذهب لمقابلة السادات في القناطر الخيرية، لأن عقلية السادات غريبة، من يصل إليه أولًا يؤثر فيه. يجب أن تسبق أحمد إسماعيل". وبالفعل، ذهبنا بأقصى سرعة ووجدنا السادات يتناول طعام الغداء، وهو الأرز باللبن الزبادي، فقال لي: "يا عبد السلام، تعال كل معايا هذا كويس للرُّكب وأنت تحتاج له". قال ذلك وهو يضحك، فأخبرته بما جرى، وطلبت منه أن يُقيل أحمد إسماعيل من وزارة الحربية. في هذه الأثناء وصل أحمد إسماعيل، وكان يبكي وقال للسادات: "يرضيك يا ريس الرائد عبد السلام يقول لي أنت لا تساوي جزمتي؟".

فقال لي السادات: "يا لهوتي، ماذا عملت، المصري يمكن أن تضربه أهون عليه من أن تقول له أنت لا تساوي جزمتي". حاول السادات تهدئتي، وقال لي: "يا عبد السلام، أنا أتجه نحو الحرب. الوقت ليس ملائمًا لإقالته؛ فهذا سوف يؤثر في كل شيء، سيؤثر في معنويات القوات المسلحة، لكنني أعدك أنني سوف أقيله بعد الحرب"، فقلت للسادات: "إذا لم تقله الآن لن أدخل مصر بعد اليوم". فقال لي محاولًا دغدغة عواطفي: "أنا أرشحك منذ الآن لتكون رئيس وزراء دولة الوحدة بين مصر وليبيا"، ثم التفت إلى أشرف مروان وطلب منه أن يُعدّ رسالة بهذا المعنى ووقعها أمامي ثم أرسلها إلى القيادة الليبية.

حرب "أكتوبر الكارثية"

في عام 1972، طلب منّا السادات أن تبرم ليبيا صفقة صواريخ متحركة "كروتال"[21] مع فرنسا، لترافق القوات في أثناء تقدمها في سيناء؛ ذلك أن الاتحاد السوفياتي لم يكن يملك صواريخ مماثلة لها، فذهبت إلى فرنسا وأبرمت الصفقة. قامت ليبيا بدورٍ رائد في دعم الجبهة المصرية، فزوّدناها بطائرات "ميراج"، كما

---

(21) "كروتال" (Crotale EDIR): صاروخ أرض-جو قصير المدى مضاد للطائرات في جميع الأحوال الجوية، يمكن استخدامه لاعتراض صواريخ وطائرات وصواريخ مضادة للسفن منخفضة الطيران. وتم تطوير نظام "كروتال" (R440) بواسطة شركة "طومسون" (Thomson-CSF)، و"روكويل" الدولية (Rockwell)، و"مستيرال" (Mistral) في فرنسا.

اشترينا من أوروبا الجسور التي عبرت عليها القوات المصرية "قناة السويس"، واشترينا أيضًا القوارب التي استخدمتها القوات المصرية للعبور، فضلًا عن أجهزة الرؤية الليلية (بالليزر والأشعة الحمراء وفوق البنفسجية)، كما شاركنا بلواء لمدفعية متحركة بقيادة المقدم خليفة حفتر، وهي أول من عبر القناة. ولأن مصر لم تكن تمتلك "مدفعية ذاتية الحركة"، وهذه مدفعية حديثة عيار 155 مليمترًا، فقد اشتريناها من إيطاليا وساهمنا بها في الحرب.

وقبيل حرب 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1973، بأيام (25 أيلول/ سبتمبر 1973)، كنت في مصر أقيم في فندق "الشيراتون". جاءني أشرف مروان وقال لي: "السادات عاوزك بسرعة"، فذهبت إلى منزل السادات بالقرب من الفندق، وجدته في الشرفة يرتدي الجلباب المصري التقليدي والغليون في فمه، وكان يضع ساقيه فوق الطاولة. إنه الخديوي في تصرفاته وعقليته. قال لي: "يا عبد السلام، أنتم مش ح تصدقوني، وأنا مش ح أقول لك عن موعد الحرب؛ إنما لن يزيد عن أصابع اليدين، وأنا بعد الحرب ح أنصفكم أمام الأمة العربية على الدور والجهد الذي قمتم به من أجل المعركة"، ثم أضاف: "أنا عاوز منكم 4 أشياء: أولًا، أن تزودوني بسرب ميراج آخر؛ ثانيًا، أن تزودوني بالنفط والغاز طوال أيام الحرب؛ ثالثًا، أن تشكل ليبيا قاعدة خلفية لي، وأن أنقل كل السفن وطائرات النقل إلى ليبيا؛ وأخيرًا، أن تزودوني برعيل صواريخ 'الكروتال'، لأنني أريد أن أضعه في الإسماعيلية". فقلت له: "أنا موافق على الطلبات الثلاثة الأولى، أما الطلب الأخير بخصوص 'الكروتال'، فهو ثلاث عربات قتال وعربة قيادة، ومعنى هذا أن فرنسا ستلغي الصفقة، أي ستلغي 200 قطعة 'كروتال'. وسوف نخسر الصفقة، وأنتم قلتم إنكم تريدون 'الكروتال' كدفاع جوي متحرك عند التقدم في سيناء". كان السادات يعرف أنه يقوم بـ"حرب تحريك" بالاتفاق مع هنري كيسنجر، ويعرف أنه لن يكون هناك تقدم في سيناء. لما عدت إلى ليبيا، أبلغت الأخ معمّر بالأمر، فقال لي: "هذا صحيح. ولكن حينما يهزم سيقول إن سبب الهزيمة أننا لم نزوده بهذه العربات".

اتفقنا على أن نرسل إليه رسالة نقول فيها: "إن هذا الأمر سيقود فرنسا إلى إلغاء الصفقة، وإن ثلاث عربات 'الكروتال' وعربة القيادة لن تغير شيئًا

من نتيجة المعركة". بعد ذلك، اتصل الأخ معمّر بالرئيس بومدين هاتفيًا وقال له: "السادات قرّر الحرب الكارثية، وطلب منّا أن نبلغك بقرار الحرب". في الواقع، إنّ السادات لم يطلب منّا الاتصال بالرئيس بومدين، ولكن بومدين كان يقول دومًا: "لا يمكن للجزائر أن تشترك في حرب لا علم لها بها، ولم تستشر بشأنها". ولذا، ارتأينا أن نُعلم بومدين بقرار السادات؛ حتى لا يتخذ موقفًا سلبيًا من الحرب، ولأننا حرصنا على أن يقوم بومدين بتنفيذ "اتفاق حاسي مسعود". كنّا نعرف مسبقًا نتيجة الحرب. وبالفعل؛ فبعد مضي أقل من عشرة أيام من اجتماعي بالسادات، سمعنا عبر الأخبار ببداية الحرب. قرّرنا أن يوجد باستمرار أحد أعضاء مجلس قيادة الثورة في مصر، ليتابع عن قرب مجريات الحرب، فذهب أولًا بشير هواري، ثم ذهب عمر المحيشي. وفي أواخر أيام الحرب، سمعنا من **إذاعة القاهرة** بيانًا للقوات المسلحة المصرية يقول: "إن قواتنا تخوض قتالًا ضاريًا غرب القناة"، فعرفنا على الفور أن الكارثة قد حلت، وأن القوات الصهيونية عبرت القناة.

سافرت إلى القاهرة على عجل بواسطة طائرة عسكرية "لوكهيد سي 130"[22]، وهي طائرة يمكنها أن تهبط في أيّ ممرٍّ ممهّد حينما تكون المطارات مغلقة. لمّا وصلت إلى القاهرة، أقمت في قصر الطاهرة[23]، فوجدت السادات وقد أغلق الغرفة على نفسه ومنع أي اتصالٍ به؛ ولذا لم أتمكن من لقائه رغم كل المحاولات. اتصلت بأشرف مروان وكان سكرتير مكتب المعلومات، فسألني إن كنت أرغب في اللقاء بحسين الشافعي، أو عبد القادر حاتم. كان حاتم نائبًا لرئيس الوزراء[24] - أي نائبًا للسادات الذي شغل هذا المنصب - بعد الإفطار،

(22) "لوكهيد سي-130 هيركوليز" (Lockheed C-130 Hercules): طائرات أميركية مهمتها الرئيسة نقل الجنود المظليين للقيام بعمليات هجومية خلف خطوط العدو، كما تستخدم في عمليات فنية كالشحن ونقل المعدات.

(23) قصر الطاهرة: هو القصر الذي عرف اللقاءات والتحضيرات السرية الخاصة بحرب تشرين الأول/ أكتوبر، وتم استخدام أقسام منه كغرف عمليات لمتابعة مسارات المعارك. تجدر الإشارة إلى أن القصر تاريخي، شيده في بدايات القرن العشرين المعماري الإيطالي أنطونيو لاشياك في عهد الخديوي إسماعيل.

(24) شغل منصب نائب رئيس الوزراء في حكومة محمد أنور السادات الأولى (27 آذار/ مارس 1973 - 25 نيسان/ أبريل 1974).

وكان هذا شهر رمضان، ذهبت للقاء حاتم في مبنى التلفزيون، فقلت له: "ماذا يجري يا حاتم؟"، فقال لي: "والله ما ني عارف حاجة، بيقولّي إنه شوية دبابات عملت - برجزة[25] - وقضينا عليها والله أعلم". لم أصدّق الأمر وضحكت، ولمّا عدت إلى قصر الطاهرة، وبعد السحور، دخل عليّ محمد حسني مبارك وهو يلهث وبدا عليه التعب والإرهاق، وبصحبته أشرف مروان فقلت له: "ماذا يجري في الجبهة؟"، فقال لي: "9 دبابات عملت شوية برجزة واديناهم علقة وقضينا عليها"، وبالطبع لم أصدق ذلك أيضًا. في الصباح، وحوالى الساعة العاشرة أو الحادية عشرة، اتصلت بأشرف مروان وقلت له: "أريد أن أذهب إلى غرفة العمليات"، فقال لي: "توجد سيارة لوري روسية ستأتي لإحضار خرائط عن الموقف، والسادات لا يعيرها أي اهتمام ولا يطلع عليها، إذا كنت ترغب في الذهاب إلى غرفة العمليات يمكن لك أن تستقل هذه اللوري"، فقلت: "نعم دع السائق يأتي عندي أريد أن أذهب بأيّ طريقة". وبالفعل، ذهبت إلى هناك.

صعدت في الصندوق الخلفي للسيارة الروسية، وحينما وصلنا إلى البوابة الرئيسة، أوقف الحرس سيارة اللوري، فصاح الجنود الذين كانوا داخل السيارة: "الرائد عبد السلام جلود، الرائد عبد السلام جلود، افتحوا الباب"، فذهل الحرس، وبصعوبة كانوا يصدقون أن الرائد جلود يركب سيارة لوري مع الجنود وفي الصندوق الخلفي. فتحوا لنا الباب. ولمّا وصلت إلى غرفة العمليات، استقبلني أحمد إسماعيل بالأحضان: "أنت ابن حلال"، وكان يشير إلى أنني لم أقابله منذ الصدام بيننا بسبب صواريخ الأنابيب. لقد نسيت في تلك اللحظات كل ما حدث بيني وبين إسماعيل. ثم أطلعني على الموقف الخطير هو والفريق سعد الدين الشاذلي[26] وبقية قادة الأركان. كان الموقف كالآتي: "9 ألوية دبابات ولواءان من المظليين ولواء صاعقة من الصهاينة

(25) برجزة: أي فوضى، جلبة، ضجيج.

(26) سعد الدين محمد الحسيني الشاذلي (1922-2011): قائد عسكري مصري، شغل منصب رئيس أركان حرب القوات المسلحة المصرية (16 أيار/ مايو 1971 - 13 كانون الأول/ ديسمبر 1973). مؤسس وقائد أول لفرقة سلاح مظلات في مصر، والأمين العام المساعد لجامعة الدول العربية للشؤون العسكرية، وسفير سابق لدى إنكلترا والبرتغال، ومحلل عسكري.

عبرت القناة، وحاصرت الجيش الثالث المصري وقطعت عليه خطوط الإمداد. كان المصريون خائفين من اندفاع هذه القوات شمالًا، بحيث تتمكن من محاصرة الجيش الثاني. لقد دمّرت القوات الخاصة الصهيونية منصات صواريخ 'سام'"[27]. كان هناك خلاف شديد بين أحمد إسماعيل والفريق الشاذلي؛ فالشاذلي كان ضد توقف القوات المصرية عند ضفة القناة، وكان يرغب في الوصول إلى المضائق. ولما عبرت القوات الصهيونية القناة، كان الشاذلي يريد من الجيش الثالث المصري أن يهاجم القوات الصهيونية التي عبرت القناة، لكن أحمد إسماعيل رفض هذا الرأي. سألت عن قوة الجيش الثالث والجيش الثاني فقالوا لي: "120 ألف جندي"، وسألت عن قوات الاحتياط فقالوا لي: "يوجد في الخلف فرقتا دبابات".

توقفت القوات المصرية عند ضفة القناة، بحسب اتفاق السادات مع كيسنجر، وكان يريد من ذلك إعطاء نصر معنوي للجيش المصري. وهكذا ركز الصهاينة هجومهم على سورية؛ فكان حافظ الأسد يصرخ ويطالب السادات باستئناف الهجوم لتخفيف الضغط على الجبهة السورية. لقد كانت سورية تريد أن تكون حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973 كحرب تحرير؛ بينما أرادها السادات حرب تحريك. قالوا لي: "تحت إلحاح حافظ الأسد، أمر السادات بأن تقوم إحدى فرقتَي الدبابات بتطوير الهجوم". وأعتقد أن السادات أقدم على ذلك بعد أن تأكد أن قدرات سورية قد دُمرت، وأنه يريد تدمير بقية القوة المصرية حتى يقول للجيش المصري وللشعب المصري: "ليس أمامي أي خيار. هذا ما كتبه الله عليّ". ولأن العدو فاجأ العرب بأن فرقة الدبابات "باتت مؤلفة من أربعة ألوية" خلافًا للوضع في حرب حزيران/ يونيو 1967، بينما ظلت الفرقة المصرية مؤلفة من ثلاثة ألوية؛ لذا حينما هاجمت الفرقة المصرية، فوجئت بأن الفرقة الصهيونية مؤلفة من 4 ألوية، فدمرت الفرقة المصرية. طلبت القيادة العسكرية المصرية ضم بقية الفرقة إلى جناحَي الجيشين الثاني والثالث.

---

(27) صواريخ "سام-6": طور الاتحاد السوفياتي هذا النوع من الصواريخ الدفاعية أرض-جو عام 1959، واستخدمه الجيشان المصري والسوري في حرب تشرين الأول/ أكتوبر 1973.

وفي هذا الوقت، عبر أريئيل شارون[28] قناة السويس على رأس كتيبة دبابات، واستغل ما يُعرف بـ"ثغرة الدفرسوار"[29]، وكان من المفروض أن يصل شارون على رأس الكتيبة إلى الضفة الغربية خلال 8 ساعات، لكنه وصل إليها بعد 18 ساعة بسبب الرياح العاتية. بيد أن هذا لم يغيّر شيئًا لأن القيادة العسكرية المصرية فقدت المبادأة.

وحين تمكن أول لواء صهيوني من عبور القناة والتمركز غربها، شنّت الفرقة المصرية الثانية دبابات هجومًا على القوات التي نجحت في العبور، لكنها دمرت، فقلت لهم: "كنتم تقولون لنا إن عدد الجيش المصري مليون ونصف مليون جندي، أين بقية الجيش؟"، فقالوا لي: "توجد فرقة مشاة – في هاكستِب[30] – من دون آليات، وكذلك الحرس الجمهوري"، فقلت بغضب: "طبعًا إذا كان لكل ضابط 7 أو 8 جنود لخدمته، فإن معظم الجيش يصبح إداريين".

بعد عودتي إلى قصر الطاهرة، اتصلت بالأخ معمّر، وقلت له: "ما توقعناه حصل، والموقف أخطر من خطير". فأسرعت في اليوم نفسه عائدًا إلى ليبيا، ومن المطار ذهبت إلى بيت عوض حمزة عضو مجلس قيادة الثورة، حيث كان الأخ معمّر وأعضاء القيادة في انتظاري. أبلغت الإخوة بالموقف، فاتصل الأخ معمّر بالرئيس بومدين وقال له: "ما توقعناه حصل. القوات الصهيونية عبرت القناة، وهي تحاصر القوات المصرية وتهدد القاهرة، علينا أن ننفذ ميثاق حاسي مسعود ونعلن المقاومة ورفض الاستسلام". ثم طلبنا منه أن يرسل

---

(28) شارك شارون في حرب عام 1967 قائدًا لفرقة مدرّعة. وفي عام 1969 عُيّن قائدًا للمنطقة الجنوبية. اعتزل شارون صفوف الجيش الإسرائيلي في عام 1973، ولكن تم استدعاؤه مجددًا لأداء الخدمة في حرب عام 1973؛ إذ كان قائدًا لفرقة مدرّعة. وكان يقود عملية اجتياز قناة السويس التي أدت إلى تغيير في مسار الحرب.

(29) "ثغرة الدفرسوار": مصطلح أُطلق على حادثة أدت إلى تعقيد مسار الأحداث في حرب تشرين الأول/ أكتوبر، كانت في نهاية الحرب، حينما تمكن الجيش الإسرائيلي من تطويق الجيش الثالث الميداني، وتمتد هذه الثغرة من الضفة الشرقية إلى قناة السويس، بين الجيشين الثاني والثالث الميداني.

(30) منطقة قرب القاهرة.

قوات جزائرية على وجه السرعة. ثم اتصل الأخ معمّر بالرئيس اليوغسلافي جوزيف تيتو وأعلمه بالموقف، وطلبنا منه أن يبيعوا لنا أي كمية من احتياطي دبابات الجيش اليوغسلافي أو من مخزونه، واستطعنا بسرعة فائقة تجهيز ألف دبابة. ثم قررت أنا والأخ معمّر أن نذهب إلى مصر لقيادة المقاومة، وأعددنا لهذا الغرض شيفرة خاصة للاتصال بليبيا. أرسلنا إلى مصر على عجل نحو 40 ألف صاروخ حديث مضاد للدبابات، وقرّرنا تعبئة قواتنا على أمل أن يخلق ذلك موقفًا عربيًا. وبالفعل سافرت أنا والأخ معمّر إلى مصر، وتوجهنا من مطار القاهرة إلى قصر العروبة[31] واجتمعنا بالسادات. كنّا نجلس في الشرفة، وكان السادات يراقب الجسر الجوي الروسي الذي يحمل الأسلحة، يهبط ويطير من مطار القاهرة، فقال السادات: "يا معمّر، يا عبد السلام بكم تريدون أن تساهموا في تعمير مدن القناة؟"، فنظرنا بذهول إليه وقلنا له: "القوات الصهيونية غرب القناة وهي تحاصر القوات المصرية وتهدد القاهرة؟"، فقال: "لا، هذا لا يهم. قولوا لي بكم تريدون أن تساهموا؟"، ثم قال: "روح يا معمّر ويا عبد السلام قولوا عني ما تقولون، أنني انهزامي، استسلامي. توبة. بطلت أحارب اليهود. دول اليهود ما يتحاربوش". ثم اتصل بمحمد الزيات وزير الخارجية - في الأمم المتحدة - وقال له: "جاتك نيلة، أنت مستقيل، ليه ما رحت لكورت فالدهايم[32] يرسل لي شوية جنود من قبرص يجو يحوشوا عني اليهود؟". ثم أغلق الهاتف في وجهه. في هذه اللحظات ترسخت قناعتنا أن الحرب هي بالفعل حرب تحريك متفق عليها بين السادات والصهاينة والأميركيين؛ ولذا عدنا إلى طرابلس. لا شك في أن عبور المقاتل العربي المصري أكبر مانع مائي، ولخط بارليف، يدلان على شجاعته، وهذا ما ليس في حاجة إلى إثبات، فالشعب

---

(31) قصر العروبة/ الاتحادية: قصر تاريخي شيده في كانون الأول/ ديسمبر 1910 المعماري البلجيكي إرنست غاسبار (E. Gaspard). يحمل اسم قصر الاتحادية لأنه أصبح مقرًا دائمًا لاتحاد الجمهوريات العربية (سورية، ليبيا، مصر) في كانون الثاني/ يناير 1972، كما استُخدم كبناء حكومي في ستينيات القرن الماضي.

(32) كورت فالدهايم (1918-2007): دبلوماسي وسياسي نمساوي، شغل منصب الأمين العام للأمم المتحدة (1972-1981)، ورئيس النمسا (1986-1992). عمل في الجيش الألماني (1942-1945) خلال الحرب العالمية الثانية وترقى إلى رتبة ملازم.

المصري شعب حضاري شجاع، وهو شعب مقاوم على امتداد التاريخ، يقاوم المحتل ويقاوم الطغاة، كما هي الحال مع أحداث مثل حريق القاهرة، في 26 كانون الثاني/ يناير 1952، أو العمليات الفدائية ضد الإنكليز، والتاريخ المصري والعربي - الإسلامي حافل ببطولات هذا الشعب العظيم.

أصدر الأخ معمّر أمرًا للمقدم خليفة حفتر بأن لا يلتزم بقرار وقف إطلاق النار، فاتصل السادات بنا وقال بانزعاج: "إيه ده قواتكم غير منضبطة، وخليفة حفتر سياسي، وبيوديني في داهية. أرجوكم اسحبوهم فورًا". لقد تراجعت الحقيقة لصالح التزييف. كانت حرب تشرين الأول/ أكتوبر بكل المقاييس هزيمة عسكرية وسياسية أخطر من نكسة 1967، ومع تقديرنا الكبير للعبور العظيم والتاريخي للجندي المصري، فإن الحرب كانت هزيمة. كانت النتيجة النهائية للمعركة هي عبور القوات الصهيونية لقناة السويس وحصار القوات المصرية وقطع خطوط إمدادها وتهديد القاهرة وتدمير شبكة الصواريخ على الضفة الغربية من القناة، وتحقيق السيطرة الجوية، ثم فرض الاستسلام والاعتراف به، وتحقيق ما لم يحلم به بنو صهيون، أي اعتراف مصر بالكيان الصهيوني. كانت حرب تشرين الأول/ أكتوبر كارثة أو هزيمة سياسية وعسكرية كبرى. لقد قضى السادات على القوة العسكرية التي بناها عبد الناصر. باع السادات تضحيات وبطولات الشعب المصري والجيش المصري. وللأسف، لعب إعلامه ومثقفوه دورًا كبيرًا في تزييف الحقيقة وفي فرض الاستسلام، كما فعل ذلك كثير من المثقفين العرب الذين بشّروا بالهزيمة. لقد زيف هؤلاء، ومعهم القوى الرجعية وقوى الاستسلام، الحقيقة الساطعة. وفي خضمّ هذا التزييف، باع السادات، مدعومًا بالآلة الإعلامية وبالمثقفين المستسلمين، دماء أجيال وأجيال من المصريين والعرب.

لمّا قرّرنا قطع علاقاتنا بالنظام المصري، أبقينا على صلاتنا وروابطنا وعلاقاتنا بشعبنا المصري العظيم. وحين زار السادات الأرض المحتلة في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1977، قُدنا تظاهرة كبرى في طرابلس، وقُمنا بإحراق علم "اتحاد الجمهوريات العربية"، وقرّرنا أن يكون العلم من لون واحد هو اللون الأخضر، حتى لا نكرّس علمًا بألوان أخرى قد تشكل عقبة في طريق الوحدة.

ونتيجة لموقفنا الصلب من هذا الخرق الخطير، قرّر السادات الانسحاب من اتحاد الجمهوريات العربية، بقرار منفرد وغير دستوري، وبدورنا اتخذنا قرارًا بتشكيل "محكمة الشعب العربي" لمحاكمة الخائن السادات. ثم أصدر مؤتمر الشعب العربي قرارًا بتشكيلها، وعقدت أولى جلساتها في طرابلس، وأصدرت حكمًا بإعدام السادات، باعتبار أن الدساتير العربية، وعلى رأسها الدستور المصري، تمنع الاتصال بالعدو الصهيوني. بيد أن الشعب المصري كان قد أصدر قراره بإعدام الخائن السادات، ونفّذ القرار أحد أبطاله وهو خالد الإسلامبولي[33]. كنت أنا والأخ معمّر في مدينة سبها، وكنّا نشارك في احتفال قيام "سلطة الشعب"، سمعنا بنبأ اغتيال السادات من الإذاعة، فأطلق الأخ معمّر بعض الطلقات من مسدسه في الهواء ابتهاجًا. ثم قدنا تظاهرة جماهيرية تعبيرًا عن سعادتنا وفرحنا. بعد التظاهرة، عدنا إلى مقر إقامتنا سألني الأخ معمّر: "ما رأيك في حسني مبارك؟"، فقلت له: "على مستوى القضية القومية سيكون مبارك أسوأ من السادات. السادات كان لديه رصيد من السمعة السياسية وهو محسوب على ثورة 23 يوليو، ومن الممكن أن يتراجع عن الخيانة أو يغيّر مواقفه 180 درجة، أما مبارك فلا يمكن له إلا أن يستمر على طريق السادات، أي طريق الخيانة".

لكن هناك إيجابية واحدة، فحين سقط نظام الشاه[34]، كانت مصر مؤهلة لأن تؤدي دور "الشرطي" في المنطقة العربية والأفريقية، بدلًا من شاه إيران، أما حسني مبارك، فهو بكل تأكيد لا يستطيع أن يؤدي هذا الدور، وهذا أمر إيجابي بالنسبة إلى ليبيا. وبالفعل؛ خلال عهد الرئيس الأميركي رونالد ريغن، طلبت الولايات المتحدة من مصر شن هجوم على ليبيا من الشرق، أو أن تسمح لقوات أميركية بالهجوم عليها، لكن مبارك رفض، وهذا أثبت صحّة تحليلي. وأذكر أننا - أنا والأخ معمّر - كنّا في زيارة لمصر، خلال مرحلة "حرب الاستنزاف" والإعداد للعبور في عهد عبد الناصر، وأن عبد الناصر دعانا لمشاهدة تمرين عبور فرقة مجحفلة من الجيش

(33) خالد الإسلامبولي (1958-1982): ضابط في الجيش المصري خطط لعملية اغتيال الرئيس محمد أنور السادات ونفذها في 6 تشرين الأول/ أكتوبر 1981.

(34) سقط نظام الشاه محمد رضا بهلوي بعد الثورة الشعبية في إيران في عام 1979؛ إذ غادر البلاد إلى المنفى في 16 كانون الثاني/ يناير 1979، تاركًا مهماته لمجلس الوصاية (المجلس الملكي).

المصري لمانع مائي، وكان تنفيذ التمرين سيئًا؛ إذ فقد قائد الفرقة السيطرة على قواته. وحينما كان عبد الناصر يناقش قائد الفرقة، قال له: "الخبير الروسي قال كده؟". شعر عبد الناصر بالإحراج والتفت إلينا قائلًا: "يا معمّر، يا عبد السلام، أنا مش ححارب بدول [بهؤلاء]، الذين سأحارب بهم ما زالوا من الضباط الصغار".

اشتباك عسكري مع مصر على الحدود

قبل أن يقوم السادات بزيارته الشهيرة إلى فلسطين المحتلة في تشرين الثاني/ نوفمبر 1977، افتعل مواجهة عسكرية مع ليبيا على الحدود في حزيران/ يونيو[35]، وكان السبب في ذلك، في رأينا، إدراكه أنه سوف يواجه موقفًا صلبًا من ثورة الفاتح، وأن ليبيا سوف تعتبر خطوته هذه خيانة صريحة للأمة. وهكذا، ومن دون سابق إنذار بدأت قوات مصرية عند الحدود مع ليبيا بمداهمة مقارّ الشرطة الليبية وإلقاء القبض على بعض الأفراد، ونقلهم إلى داخل الحدود المصرية. وردًّا على هذا الاعتداء السافر وغير المبرر، قام العقيد عبد الكبير الشريف، آمر منطقة طبرق العسكرية، بعملية عسكرية خاطفة اجتاز خلالها الحدود المصرية، وتمكّن من إلقاء القبض على بعض الأفراد من الشرطة المصرية، ثم طلب من آمر كتيبة مدفعية 155 - ذاتية الحركة - وصواريخ "غراد"[36] استهداف المواقع المصرية. في هذا الوقت تحركت قوة عسكرية مصرية في اتجاه قرية إمساعد[37]، فاستهدفتها مدفعيتنا. وهاجمت كتيبة الدبابات هذه القوة، وقد تكبدت كتيبتنا بعض الخسائر.

---

(35) ظهر التوتر السياسي في العلاقات الليبية - المصرية شديدًا في حزيران/ يونيو 1977 حين رحّل القذافي العمال المصريين من ليبيا، ونتج عنه نشوب مناوشات عسكرية مصرية - ليبية حدودية حتى 24 تموز/ يوليو 1977، حين توقفت الاشتباكات بوساطة فلسطينية - جزائرية.

(36) يعتبر صاروخ "غراد" (BM-21) ذا مدى قصير وفاعلية تدميرية عالية وتكلفة منخفضة مقارنة بأنواع أخرى من الصواريخ، مما جعله أحد أكثر الأسلحة المستخدمة في الحروب والنزاعات.

(37) قرية إمساعد: هي منفذ ومعبر حدودي ليبي. وإضافة إلى كونها منطقة تابعة لبلدية طبرق، فإنها تقع على الحدود الليبية - المصرية، وتبعد شرقًا عن مدينة طبرق 150 كيلومترًا تقريبًا. كانت إمساعد موقعًا للمناوشات المصرية - الليبية عام 1977، وقد كان لتلك المناوشات، إضافة إلى قطع العلاقات مع مصر، تأثير سلبي جدًّا في هذه المنطقة.

وفي النهاية، انسحب المصريون وتراجعوا إلى داخل الحدود. في الواقع، كنت أشرف بنفسي على هذه المواجهة المقززة والمؤلمة والغريبة وقد وجدتني أمام معادلة صعبة: عدم تمكين السادات من تحقيق أي "انتصار" وهمي، أو شكلي، وفي الآن ذاته محاصرة "المؤامرة" ووأدها في مهدها على الحدود. وهكذا أيضًا قام سلاح الطيران المصري بمهاجمة مهبط الطائرات في قاعدة جمال عبد الناصر، كما قصف غرف نوم الطيارين الليبيين. ولحسن الحظ لم تقع خسائر بشرية لأننا قمنا بتغيير أماكن نومهم. وفي إثر ذلك، أخبرني بعض الضباط الليبيين أن الطيارين المصريين كانوا يقومون بالتحليق فوق قواتنا المنتشرة من طبرق إلى الحدود مع مصر، ولكنهم كانوا يلقون بحمولاتهم من القنابل والصواريخ بعيدًا عن قواتنا. هذا هو معدن الشعب المصري والجندي والضابط المصري.

في إحدى ليالي هذا الاشتباك الحدودي، انقطع الاتصال مع قواتنا في الجغبوب، فقال لي الأخ معمّر: "السادات احتل الجغبوب"، فقلت له: "لا، من المؤكد أن هناك قوة عسكرية محدودة العدد محمولة بطائرات عمودية، جرى إنزالها بالقرب من قواتنا". وأضفت: "إن القوة المتمركزة في الجغبوب كافية للدفاع عنها، وأعتقد أن سبب انقطاع الإرسال أن الجندي المكلف باللاسلكي، ولشدّة حماسته، ترك الجهاز وذهب ليشارك في مقاومة القوة المصرية المهاجمة". وبالفعل، وفي الصباح عاد الاتصال اللاسلكي مع الجغبوب، وأبلغنا آمر المنطقة أن ثلاث طائرات مروحية أنزلت قوة محدودة وتبادلنا معها إطلاق النار، ثم انسحبت. في هذا الوقت قام الأخ ياسر عرفات بدور وساطة بيننا وبين المصريين لوقف إطلاق النار وإنهاء المواجهة العسكرية على الحدود. بعد انتهاء المواجهة، ولأن الأخ معمّر وأعضاء القيادة اعتقدوا أنني أدرت المواجهة على نحوٍ جيد، فقد تقرر منحي شهادة الأركان.

تأسيس "جبهة الصمود والتصدي"

في 19 تشرين الثاني/ نوفمبر 1977، بعد أن أعلنت وكالات الأنباء إقلاع طائرة الخائن أنور السادات إلى فلسطين المحتلة، شاهدت على شاشة التلفزيون

السادات يهبط من الطائرة ويصافح الصهاينة. على الفور، اتصلت بالأخ معمّر، وكان في سرت. قلت له: "لا بد من إقامة تكتّل من الدول العربية التقدمية لمنع انهيار الموقف العربي"، ثم أضفت: "سوف أذهب إلى سورية والعراق والجزائر". فقال لي: "السادات لم يقرر الذهاب إلى الصهاينة لو لم يكن متأكدًا أنه لا يمكن أن تجتمع دولتان ضده". ومع ذلك أصررت على السفر، وقلت: "نحن لا نيأس ولا نستسلم للأمر الواقع، سوف أحاول"، فقال لي مثلًا شعبيًا: "اذهب رشادة في بئر (أي أن محاولتك هذه مثل التفتيش عن حجر في بئر)".

أقلعتْ طائرتي في اليوم نفسه إلى دمشق. حصلت على موافقة السوريين والفلسطينيين على مشروع "التكتل العربي"، ثم سافرت إلى العراق. لكن العراقيين اشترطوا لإقامة "جبهة رفض" أن تعلن سورية رفضها للقرار رقم 242[38]. بعد إلحاح شديد مني، وافق العراقيون على حضور اجتماع بهذا الخصوص، ولكن ليس على مستوى الرئيس. أرسلوا وفدًا من عضوين بارزين في مجلس قيادة الثورة. من العراق سافرت إلى الجزائر واجتمعت بالرئيس بومدين. وافق بومدين على "تشكيل جبهة رفض" وقال لي: "حينما كنت أستمع إلى وكالات الأنباء وهي تبث خبر سفر طائرة السادات إلى فلسطين المحتلة، كنت أقول في نفسي: السادات سيعود من الجو. وأنه لن يكمل الرحلة. ولمّا شاهدت طائرته تهبط في مطار بن غوريون، فقدتُ صوابي وتصرفت كمواطن عادي وكسرت التلفزيون". وبالفعل، نتيجة لهذه المبادرة، اجتمعت ليبيا وسورية والجزائر والعراق واليمن الجنوبي ومنظمة التحرير الفلسطينية في طرابلس في الفترة 2-5 كانون الأول/ ديسمبر 1977، لكن العراق كان غير جادٍّ في تأسيس جبهة صمود، وظل يشترط أن تعلن سورية رفض القرار الأممي رقم 242، وكان ردّ الرئيس الأسد أنه مستعد لرفض القرار، حينما تؤمّن أسباب المواجهة من دعمٍ عسكري واقتصادي؛ ولذلك انسحب العراق. ومع ذلك تشكلت جبهة "الصمود والتصدي". شكر الأخ معمّر الرئيس الأسد وياسر عرفات، فنهضت وطلبت الكلمة وقلت: "لا يا أخ معمّر،

(38) القرار رقم 242: أصدره مجلس الأمن في 22 تشرين الثاني/ نوفمبر 1967، بعد حرب حزيران/ يونيو، وقد جاء في المادة الأولى، الفقرة أ: "انسحاب القوات الإسرائيلية من الأراضي التي احتلتها [في النص الإنكليزي: 'من أراضٍ احتلتها'] في النزاع الأخير".

السادات مثل الطائر الذي طار بجناحين، سورية ومنظمة التحرير". لقد استطاع السادات أن يصوّر خلافنا معه على أنه خلاف ثنائي بين ليبيا ومصر. بعدما خرجنا من الاجتماع، جاءني عبد الحليم خدّام وقال: "نحن حينما يكون الرئيس موجودًا لا نستطيع التحدث، لولا ذلك لرددت عليك"، فقلت له مازحًا: "هذا أحسن لكم أن لا تتكلموا في وجود الرئيس".

المؤتمر الإسلامي والقمة العربية و"عودة مصر"

في الفترة 16-19 كانون الثاني/ يناير 1984، عُقد في الدار البيضاء المغربية مؤتمر القمة الإسلامية الرابع. تمّ الترتيب لعقد المؤتمر بحيث يسبق عقد مؤتمر القمة العربية في الأردن. كان الموضوع الرئيس هو "عودة مصر" إلى المؤتمر الإسلامي[39]. في هذا المؤتمر مثلت أنا ليبيا. كان المؤتمر مسرحية مُعدّة مُسبقًا. وكان من الواضح لي خلال جلسات المؤتمر أن الأمير فهد بن عبد العزيز والملك الحسن الثاني كانا يلقنان كلًّا من الرئيس الغيني أحمد سيكاتوري[40] والرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق[41]، قبيل كل جلسة، بحيث يظهران مسألة عودة مصر كأنها مطلب إسلامي. الحقيقة أن عودة مصر كانت مطلبًا أميركيًّا وعربيًّا رجعيًّا. كان الجميع في طرف، وأنا في طرف آخر. كنت أقاتل ضد "عودة مصر" إلى منظمة المؤتمر الإسلامي، لأنني كنت أعرف جيدًا أنها كانت مقدمة لعودتها إلى جامعة الدول العربية، أو الأصح: عودة العرب إلى مصر المكبّلة بأغلال كامب ديفيد. قال لي الملك الحسن الثاني، رئيس المؤتمر: "سي جلود. لقد أعطيتك الكلمة 17 مرة"، فرددت عليه: "لأنني طرف وأنتم طرف". كان الفصل الأخير في المسرحية قد أعطي لياسر عرفات خلال المراحل الأخيرة من النقاش. طلب عرفات الكلمة، وقال مخاطبًا الملك الحسن الثاني: "يا جلالة الملك. لا يوجد قرار بطرد مصر من المؤتمر".

---

(39) منظمة المؤتمر الإسلامي (منظمة التعاون الإسلامي): تأسست بقرار صادر عن القمة الإسلامية المنعقدة في الرباط بالمملكة المغربية في 25 أيلول/ سبتمبر 1969، على إثر جريمة إحراق المسجد الأقصى، وقد جرى عقد مؤتمر إسلامي لوزراء الخارجية في مدينة جدة السعودية، والذي شكل اللبنة الأساسية لتأسيس المنظمة، حيث قرر المجتمعون إنشاء أمانة عامة يكون مقرها جدة.

(40) الرئيس الغيني (1958-1984).

(41) رئيس جمهورية باكستان الإسلامية (1978-1988).

وممّا يدل على أن المسرحية كانت مُعدّة سلفًا، قول الملك: "أحضروا لنا قرارات الطائف"[42]، فأسرع الحبيب الشطي[43] لجلب المحاضر والقرارات؛ وبما أنني كنت الوحيد الذي يتصدى ويقاتل لمنع عودة مصر، فقد طلبت الكلمة وقلت: "آسف. إن الفصل الأخير من المسرحية قد أعطي لعرفات. أرجوكم احترموا عقولنا، لأننا جئنا على رأس ثورات ونمثل شعوبنا. نحن لم نصل إلى السلطة بالوراثة؛ وإنما نحن ثوريون. ليس المهم ما كُتب، بل المهم هو الإرادة السياسية لمؤتمر الطائف. لا أعتقد أن السادات هو الذي قرر عدم الحضور، ثم إنّ مؤتمر وزراء الخارجية هو امتداد لمؤتمر القمة".

كان كثيرون من المسؤولين ووزراء الخارجية يأتون إليّ، يحيّون موقفي متجرّدين من مناصبهم. كانوا يتصرفون بصفتهم مواطنين يعيشون لحظة صحوة ضمير واضحة وجلية. وفي اليوم الثاني من المؤتمر، وبعد الجلسة الصباحية، وبينما كان الحسن الثاني يودع الملوك والرؤساء، تحدثت مع الرئيس اليمني علي عبد الله صالح[44]، وكان في تلك الفترة متحالفًا مع الإخوان المسلمين، وكان وزير خارجيته عبد الكريم الإرياني[45]، وكان واقفًا إلى جانبه، فقلت له:

(42) القمة الإسلامية الثالثة في مدينة الطائف ومكة في 18 كانون الثاني/ يناير 1981، بعنوان دورة فلسطين والقدس، وقد جاء في البيان الختامي لمؤتمر القمة رفض وإدانة اتفاقيات كامب ديفيد الموقعة في 17 أيلول/ سبتمبر 1978، المعاهدة المصرية - الإسرائيلية الموقعة في 26 آذار/ مارس 1979، وكل النتائج والآثار المترتبة على هذه الاتفاقيات، ويدعو إلى مقاومتها بجميع الوسائل والأساليب. يدين المجتمعون بشدة أي حل جزئي أو منفصل، وكذلك أي اتفاق يضر بحقوق الأمة العربية والشعب الفلسطيني، أو ينتهك مبادئ وقرارات منظمة المؤتمر الإسلامي والجمعية العامة للأمم المتحدة، أو يحول دون تحرير القدس والأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة، أو دون نيل الشعب الفلسطيني وممارسته على وجه تام حقوقه الوطنية الثابتة، كما يدينون بشدة الحكومة المصرية لإقدامها على تطبيع العلاقات مع الكيان الصهيوني ويرى فيه تنكرًا لمبادئ الجهاد وخطرًا على المبادئ والمثل والتراث والثقافة والحضارة الإسلامية، ويقرر تأييد تعليق عضوية مصر في حركة عدم الانحياز.

(43) وزير الخارجية التونسي السابق والأمين العام لمنظمة المؤتمر الإسلامي (1979-1984).

(44) رئيس الجمهورية العربية اليمنية (1990-2012).

(45) عبد الكريم الإرياني (1934-2015): سياسي يمني بارز. شغل مناصب إدارية وحكومية متعددة منذ عام 1968، كان من أبرزها وزارة الخارجية (1990-1993)، ورئاسة مجلس الوزراء بالوكالة ثم بالأصالة (1998-2001). وبعد الثورة اليمنية غدا مستشارًا لرئيس الجمهورية المعترف به دوليًا، وتولى منصب نائب رئيس مؤتمر الحوار الوطني.

"يا أخ علي، الموضوع المطروح خطير جدًا، وإنْ عادت مصر إلى المؤتمر الإسلامي، فسيكون هذا مقدمة لعودتها إلى جامعة الدول العربية، واليمن ليس البحرين أو أبوظبي، لا بد من أن يكون لليمن موقف في هذا الموضوع الخطير"، فالتفت إلى وزير خارجيته وقال لي: "لا داعيَ لكلامنا. يكفي أن عملاء أميركا ووكلاء الاتحاد السوفياتي يتحدثون". فغضبت من هذا المنطق، وكان رد فعلي شديدًا، فأمسكته من ربطة عنقه وقلت له: "يا قرد. أنت عبد العبيد. أنت عميل للسعودية التي هي عميل لأميركا"، فقال وزير خارجيته: "كيف تخاطب الرئيس بهذا الأسلوب"، فقلت له: "اسكت". كان من المفروض أن يزور الرئيس علي عبد الله صالح ليبيا بعد المؤتمر، فاتصل بالأخ معمّر يشكوه ويعتذر عن القيام بالزيارة. وبعد انتهاء جلسة المساء، وبعد عودتي إلى مقر الإقامة، اتصل بي هاتفيًّا من طرابلس الأخ الدكتور مفتاح الأسطى عمر، وكان يشغل منصب أمين الاتصال بالقيادة، وقال لي: "القائد يريد أن يتكلم معك"، وحين اتصل الأخ معمّر قال لي: "شن عملت مع العقيد علي عبد الله صالح (أي ماذا فعلت؟). لقد اتصل بي وهو منزعج ويشكوك"، فرويت له ما جرى بيننا، فقال لي: "هو قال هيكي (أي هو قال هذا؟) يلعن أبوه يستأهل".

انتهى هذا المشهد باقتراح من الحسن الثاني والملك حسين بن طلال[46] بأن يتمّ تعديل لائحة المؤتمر التي تنصّ على أن "التصويت على القرارات علني وبرفع الأيدي"، ليصبح "التصويت في هذه الحالة فقط بطريقة سرية". فطلبت الكلمة وقلت: "يا جبناء مَنْ هو مقتنع بعودة مصر عليه أن يرفع يده 4 أمتار فوق الطاولة. لماذا يا جبناء ترفعون أيديكم تحت الطاولة؟". وقد كان إصراري على عدم عودة مصر إلى منظمة المؤتمر الإسلامي لأن أسباب طردها بقيت موجودة. بعد الانتهاء من التصويت قررت الانسحاب من المؤتمر، وفي أثناء خروجي من القصر، توجهت إلى الصحافيين، وقد حاول الأمن المغربي منعي من الوصول إليهم، لكنني اندفعت في اتجاههم. كان هناك ما لا يقل عن 800 صحافي، سألوني عن المؤتمر فقلت: "الشعار إسلامي والمحتوى أميركي". وتناقلت وكالات الأنباء هذا التصريح الغاضب الذي صوّر المؤتمر أدقَّ تصوير.

(46) ملك المملكة الأردنية الهاشمية (1952-1999).

وهكذا تقررت عودة مصر إلى منظمة المؤتمر الإسلامي، ثم بعد أشهر عُقد مؤتمر القمة العربية في الأردن (8-12 تشرين الثاني/ نوفمبر 1987). لقد صُمم المؤتمر لاتخاذ قرار بعودة مصر إلى جامعة الدول العربية. مثلتُ ليبيا في هذا المؤتمر. وبالفعل، كانت القضية الوحيدة المطروحة في جدول الأعمال هي عودة مصر. وجدتني وحيدًا في مواجهة الجميع ومعارضة عودة مصر، رغم أنني، بكل تأكيد، أكثر الحاضرين وعيًا وإيمانًا بدورها القومي، وإيمانًا كذلك بقيادتها للأمة العربية، بل وأشدّ الحاضرين في القاعة حبًّا لها من الناحية العاطفية، وأكثرهم التزامًا بدورها القومي. لكنّ المؤسف أنّ الرئيس العراقي صدام حسين كان هو المتزعم والمدافع عن عودة مصر، وكذلك الملك حسين والشيخ زايد آل نهيان؛ ولذا سعيت للتنسيق مع الرئيس حافظ الأسد. في البداية لمست منه تعاونًا، لكنه سرعان ما تراجع أمام الضغوط. وكان الموضوع الثاني المعروض على مؤتمر القمة هو الحرب العراقية - الإيرانية[47]. عند مناقشة الموضوع، تحدث الملك حسين باعتباره رئيسًا للمؤتمر، ووجه كلامه إلي قائلًا: "إنني أستغرب وقوف ليبيا القومية إلى جانب إيران الفارسية ضد العراق؟".

وأضاف: "إن معاهدة الدفاع المشترك[48] تُلزم جميع الدول العربية بالوقوف مع العراق"، فقلت للملك حسين ولجميع الحاضرين: "بحسب المفهوم الرجعي، فمعاهدة الدفاع المشترك لا تطبق ضد الصهاينة وأميركا، ولم تطبق ضد نظام الشاه رضا بهلوي حينما كنتم تقفون مع الشاه ضد العراق، ولكن هذه المعاهدة تطبق فقط ضد الإمام الخميني[49] الذي حوّل سفارة الصهاينة إلى سفارة فلسطين

(47) نشبت حرب الخليج الأولى بين العراق وإيران في أيلول/ سبتمبر 1980 واستمرت حتى آب/ أغسطس 1988، انتهت بلا انتصار لطرفَي الصراع وقبولهما بوقف إطلاق النار. وعلى الرغم من ذلك، خلّفت الحرب نحو مليون قتيل وخسائر مالية بلغت 400 مليار دولار أميركي.

(48) معاهدة الدفاع المشترك والتعاون الاقتصادي: هي معاهدة وقعت عليها الدول الأعضاء في جامعة الدول العربية في 18 حزيران/ يونيو 1950 في القاهرة. ونصت على ضرورة فض المنازعات بين الدول المتعاقدة بالطرق السلمية، وتتعاون فيما بينها لدعم مقوماتها العسكرية وتعزيزها. كما أنشأت المعاهدة منظمتين رئيستين لجامعة الدول العربية، هما: مجلس الدفاع المشترك، والمجلس الاقتصادي الذي أعيدت تسميته، في عام 1980، ليصبح المجلس الاقتصادي والاجتماعي.

(49) روح الله بن مصطفى بن أحمد الموسوي (1909-1989): قائد الثورة الإسلامية في إيران (1979) ومؤسس الجمهورية الإسلامية.

في طهران، وقطع النفط عن الصهاينة، والتزم تحرير فلسطين ومقاومة الهيمنة الأميركية". ثم قلت: "يا جلالة الملك إنكم لم تطبقوا المعاهدة عندما اعتدت علينا أميركا، بل لم توافقوا على عقد مؤتمر قمة"، فقال الملك حسين: "أنتم دخلتم في مواجهة مع أميركا ولم تستشيرونا فكيف نقف معكم؟"، فضحكت وقلت له: "بهذا المنطق الرئيس صدام حسين حينما هاجم إيران لم يستشرنا؟ لكن أنت تعرف أكثر من غيرك أنه حينما يتعلق الأمر بالصهاينة وأميركا، فأنتم لا تطالبون بتطبيق المعاهدة. تريدون تطبيقها فقط ضد الثورة الإسلامية في إيران". كانت هناك مؤامرة ضد سورية في لبنان تستهدف سحب البساط من تحت أقدامها، وأن تتولى جامعة الدول العربية "ملف لبنان" بهدف ممارسة الضغوط على سورية، نتيجة وقوفها مع الثورة الإسلامية في إيران، وقد تصدينا لهذه المؤامرة وأفشلناها. لقد قاومت بشدة إحالة الملف إلى جامعة الدول العربية. ولما صوّت المؤتمر على قرار "عودة مصر" رفضته كتابيًّا. كان إلى جواري الرئيس اللبناني أمين الجميّل[50] - وذلك بحسب الترتيب الأبجدي - ولما أردت أن أسجل رفضي للقرار، قال لي أمين الجميّل مازحًا: "أنا اشتغل سكرتير لك"، فأخذ ورقة وقلمًا وأمليت عليه النص التالي: "إنني أرفض هذا القرار لأنه غير شرعي لسببين، أولًا أن الأسباب التي دعت مؤتمر القمة لطرد مصر من الجامعة ما زالت قائمة، وثانيًا وبحسب ميثاق الجامعة، فإن القرارات تؤخذ بالإجماع، لكن لأن هذا طلب أميركي، فقد اتخذ هذا القرار وهو مخالف لميثاق الجامعة"، ثم وقعت على النص وسلمته إلى الملك حسين.

في عام 1989، عقد المؤتمر القومي الإسلامي اجتماعًا في طرابلس، وكان بين الحضور الدكتور حسن الترابي[51]. عقد الاجتماع في مقر أمانة مؤتمر الشعب العام، وألقيت فيه كلمة حماسية، قلت فيها: "لقد جرّبت الأمة النموذج القومي الذي ارتبط بالقمع والدكتاتورية وحكم المخابرات والفساد. وفشل

(50) رئيس الجمهورية اللبنانية (1982-1988).

(51) حسن الترابي (1932-2016): مفكر وزعيم سياسي إسلامي سوداني وأستاذ جامعي، أسس الجبهة الإسلامية القومية. وزير الخارجية السوداني في عام 1988. اختير رئيسًا للبرلمان في السودان عام 1996.

هذا النموذج في تحقيق النهوض الاقتصادي وتحقيق الاشتراكية والعدالة، كما فشل في تحقيق وحدة الأمة وأخفق في تحرير فلسطين"، ثم أضفت: "العروبة جسد والإسلام هو الروح، والآن تريد الأمة أن تجرّب الوجه الآخر من العملة وهو الإسلام، إذا ما أجرينا انتخابات الآن في الوطن العربي ليس تحت إشراف وزارات الداخلية، بل تحت إشراف الأمم المتحدة أو أي منظمات محايدة وذات صدقية، فسوف تفوز الأحزاب والقوى والجماعات الإسلامية في هذه الانتخابات بما فيها ليبيا". كانت كلمتي تنقل على الهواء مباشرة فصعق الجميع، ودارت بينهم تساؤلات عبّرت عن الاستغراب من هذه الجرأة في تقييم الوضع في الوطن العربي كلّه. بعد هذا اللقاء قام حسن الترابي بزيارة لأميركا، وألقى هناك محاضرة في إحدى الجامعات الأميركية، قال فيها: "وشهد شاهد من أهلها، هو أحد القيادات القومية عبد السلام جلود يقول: 'الإسلاميون سوف يفوزون في أي انتخابات تحت إشراف دولي في كل الوطن العربي بما فيه ليبيا'". وأضاف: "نحن لا نريد أن نستخدم القنابل والمتفجرات للوصول إلى السلطة، بل نؤمن بصناديق الاقتراع". ثم نشر هذه المحاضرة في كتاب.

الفصل الرابع

الحرب الأهلية في لبنان

حينما دخلت سورية، في نيسان/أبريل 1976، في مواجهة عسكرية مع فصائل الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، بعد أن كانت تقف معها خلال اندلاع الحرب الأهلية اللبنانية، رأيت في هذا الأمر مؤامرة كبرى تستهدف تدمير سورية معنويًا، وتدمير الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية ماديًا، وشعرنا بأن شيئًا ما يُخطط للمنطقة، وأن هناك مؤامرة ضد "قوى الصمود العربي"، تهدف إلى "تدمير سورية" والثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية. لم نكن في ليبيا نعرف هذا الأمر بالضبط، ولكننا شعرنا بأن ما يجري يخدم المؤامرة. بعد ذلك دعونا إلى اجتماع لقوى الصمود في طرابلس لمناقشة هذه التطورات[1]، وقد حضر إلى طرابلس الرئيس الجزائري بومدين وياسر عرفات، وعقدنا اجتماعًا شاركت فيه أنا والأخ معمّر وبومدين وعرفات، وتقرّر في الاجتماع أن أسافر إلى دمشق للقاء الرئيس حافظ الأسد. بالفعل، توجهت إلى دمشق وكان يرافقني وزير التعليم الجزائري. كانت المهمة في البداية أن أطلب من الرئيس حافظ الأسد باسم ليبيا والجزائر عدم الانجراف في المؤامرة التي تخطط لضرب سورية والفلسطينيين والحركة الوطنية اللبنانية.

ولكن بعد اللقاء مع الرئيس الأسد، ثم الإخوة في القيادات الفلسطينية في سورية، اتخذت قرارًا بعدم العودة إلى طرابلس إلا بعد "القضاء على المؤامرة" وإعادة اللحمة بين سورية والثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية. ولذلك أعطيت الأولوية في هذه الجهود لوقف إطلاق النار. وللتاريخ وللحقيقة، وجدت الرئيس الأسد متألمًا، وكأنّ أمرًا ما فُرض عليه وهو يريد مخرجًا.

(1) تأسست جبهة الصمود والتصدي في تشرين الثاني/نوفمبر 1977، وضمت ليبيا وسورية والجزائر ومنظمة التحرير الفلسطينية واليمن الديمقراطي والعراق. وعقدت أول قمة لها خلال الفترة 2-5 كانون الأول/ديسمبر 1977، وقررت فيها الدول الأعضاء تجميد العلاقات الدبلوماسية مع مصر.

كان الرئيس الأسد واعيًا بالمؤامرة، إذْ طلب مني البقاء في دمشق ومواصلة جهودي للتهدئة. كانت المشكلة التي واجهتني هي أن سورية ترفض أن يُسجل عليها "أنها قاتلت الثورة الفلسطينية" والحركة الوطنية اللبنانية، بينما كان الفلسطينيون يصرّون على الإشارة إلى "أن القتال يدور بين سورية من جهة، والثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية من جهة أخرى". وأخيرًا، بعد 48 ساعة من الحوارات المتواصلة، وبعد التفكير العميق، نجحت في التوصل إلى اتفاق وقف إطلاق النار "بين القوتين المتحاربتين" من دون ذكر اسم هذه القوات، وقد يكون هذا أول وقف لإطلاق النار من دون تحديد اسمي الطرفين المتحاربين، وكان الاتفاق ينصّ على ما يلي:

1 - وقف إطلاق النار فورًا بين القوتين المتحاربتين.

2 - وقف تقدّم القوات المتجهة إلى بيروت وبقاؤها في أماكنها في ضهر البيدر وجزين، حيث توجد فرقتان سوريتان كانتا تتقدمان من الجبل في اتجاه بيروت، وقد وصلتا إلى ضهر البيدر، بينما كانت هناك فرقة أخرى تتقدم على محور جزين - صيدا، والأخيرة تعرضت لكمين فلسطيني خطط له العقيد سعيد مراغة أبو موسى[2]، وتمكن فيه من الاستيلاء على بعض المدرعات.

3 - يفرج الفلسطينيون عن مصباح البديري قائد الجيش الفلسطيني[3] الذي اعتُقل بعد أن انشقت وحدات الجيش وانضمت إلى ياسر عرفات، وبعض القيادات البعثية التابعة لسورية ممن أخذهم الفلسطينيون رهائن.

كانت لسورية كتائب وحدات خاصة في منطقة المطار ورأس بيروت. في اليوم التالي لوقف إطلاق النار، فوجئت بالرئيس الأسد يطلبني على الهاتف، وكان منزعجًا جدًّا، وقال لي حرفيًّا: "هؤلاء الأوباش مش هم اللي يحرروا فلسطين، الجيش السوري هو الذي سوف يحرّر فلسطين، لن أسمح بإهانة

(2) سعيد مراغة (1927-2013): اسمه الحركي أبو موسى، وهو سياسي فلسطيني وأمين سر حركة فتح - الانتفاضة.

(3) العميد مصباح البديري رئيس أركان جيش التحرير الفلسطيني (1968-1980).

الجيش السوري، وأنا مُتحلل من وقف إطلاق النار، وسوف أعطي الأمر للقوات أن تزحف عليهم، وسأطلب من الطيران أن يقصفهم". ثم قال: "هناك كتيبة سورية خاصة في رأس بيروت ما زالوا يحاصرونها، وهناك ثمانية جنود جرحى يمنعوننا من إخلائهم"، فقلت له: "يا أخ الرئيس أعطني فرصة وأرجوك أن تؤجل هذا القرار وأنا أتعهد بحل الموضوع"، فقال: "من هنا، أي من دمشق، لن تتمكن من عمل شيء، والذهاب إلى بيروت فيه خطر حقيقي عليك"، فقلت له: "سأذهب إلى بيروت من أجل هذا، ولكنْ لدي شرطان، الأول أن ترسل معي قيادات سياسية وعسكرية، لأنني لا أريد أن أضع نفسي - أو أجدني - مع ضباط لا يستطيعون اتخاذ قرار؛ الثاني لا أريد أن تضعني في بيروت غطاءً، والصواريخ والدبابات السورية تقصف وتقتل"، فقال لي بكل شهامة: "يذهب معك ناجي جميل ومحمد حيدر". كان ناجي جميل عضو القيادة وقائد القوات الجوية، وكان محمد حيدر عضوًا في القيادة القُطرية ونائبًا لرئيس الوزراء للشؤون الاقتصادية، ثم قال لي: "خلال وجودك في بيروت، القوات السورية ستكون تحت إمرتك، لكن أرجو أن تعطيهم حق الدفاع عن النفس"، فوافقت، وكان إلى جانبي أحمد جبريل[4]، فأخذ الهاتف مني وقال للرئيس حافظ الأسد حرفيًّا: "يا سيادة الرئيس، إذا كنت تعتقد أننا سوف نقابلكم بالورود، فأنتم مخطئون، لا تقل لي زهير محسن[5] والبديري - العميد مصباح البديري رئيس أركان جيش التحرير الفلسطيني في سورية - ولا عاصم قانصوه[6] ولا بطيخ، بدكم تمرّوا على جثثنا". أرسلت سورية برقية إلى قواتها في لبنان، تعلمهم فيها بتوجّهي إلى بيروت، وكذلك فعل الفلسطينيون. لكن ولأن الفلسطينيين غير مُنظمين، فإن البرقية لم تصل إلى القيادات. غادرت أنا وأحمد جبريل ومحمد حيدر وناجي جميل والمرافقون على متن أربع طائرات عمودية. ونظرًا إلى

---

(4) الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة.

(5) زهير محسن (1936-1979): الأمين العام لمنظمة طلائع حرب التحرير الشعبية (قوات الصاعقة)، وتمثل الجناح الفدائي لحزب البعث العربي الاشتراكي في سورية.

(6) عاصم قانصوه (1937-): شغل منصب الأمين القطري لحزب البعث في لبنان فترة طويلة (1966-1970)، و(1971-1989)، و(2001-2006) خلفه بعدها غازي سيف الدين.

أنّ الفلسطينيين ميليشيات غير منضبطة. ولأن البرقية لم تصل، فقد اعتقدوا - ومعهم الحركة الوطنية اللبنانية - أن هذه الطائرات هي طائرات دعم للقوات السورية في بيروت، فأمطرونا بوابل من قذائف مضادات الطائرات ومن كل الجهات.

كنا في حالة خطر حقيقي، بحيث إنّ القذائف كانت تستهدفنا من كل الاتجاهات، وسيطر الخوف على الجميع، وشعرت بأن ناجي جميل ومحمد حيدر كانًا في أشد حالات الخوف، فقال لي ناجي جميل حرفيًّا: "يا أخ عبد السلام أنت تريد أن تموت فلماذا جئت بنا معك؟"، وقال محمد حيدر: "يا أخ عبد السلام لو كان الواحد على الأرض يمكن أن ينبطح أو يختفي خلف عمود أو حائط، أما في الجو فلا شيء". ثم نهض أحمد جبريل واتجه نحو غرفة القيادة وكان شجاعًا ومتماسكًا، وأخذ يوجه الطيّار ويطلب منه القيام بمناورة. وبالفعل، اتجهت الطائرات صوب البحر بعيدًا عن المطار، ثم هبطت على شاطئ البحر بعيدًا عن المدرج. نزلنا مسرعين. بدأ القصف بالمدفعية والهاونات والرشاشات، وممّا زاد الطين بلة أن القوات السورية شرعت في الردّ على مصادر النيران لإسكاتها. استفز القصف الفلسطينيين واللبنانيين، فزادوا من قصفهم لنا. وبعد أن نجونا من موت محقق في الجو، بدأنا رحلة الموت الثانية؛ إذْ تعرضنا لقصف شديد، اضطرّنا إلى الزحف والمناورة والتسلل خفية، وذلك حتى لا نتعرض للقنص، ساعات في اتجاه المطار حتى تمكنت القوات السورية القريبة من المطار من نجدتنا. بعد أن استرحنا قليلًا في مقر القوات السورية في المطار، اتصلت بالفلسطينيين. تحدثت مع نايف حواتمة[7] وأبو إياد (صلاح خلف)[8]، وطلبت منهما إبلاغ بقية القادة بالحضور إلى المطار، لكنهما رفضا هذا الطلب، فغضبت من هذا التصرف وأنهيت المكالمة. بعد منتصف الليل، عاودت الاتصال بالقيادات الفلسطينية وألححت

(7) نايف حواتمة (1935-): سياسي أردني يشغل منصب الأمين العام للجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين التي أسسها في عام 1969.

(8) صلاح خلف (أبو إياد) (1933-1991): أحد مؤسسي حركة التحرير الوطني الفلسطيني (فتح)، وقائد الأجهزة الأمنية الخاصة لمنظمة التحرير الفلسطينية وحركة فتح خلال فترة طويلة.

عليهم أن يحضروا إلى المطار، فلم يوافقوا، فقلت لهم: "أريدُ أن أسألكم سؤالًا محدّدًا، ثم أجيبوا عنه بعد تفكير لأنه في ضوء هذا الجواب سوف أتصرف؟". ثم وجهت إليهم السؤال التالي: "لماذا لا تريدون الحضور. هل أنتم خائفون على حياتكم من السوريين؟ أم تريدون المباحثات في أرض محايدة؟"، فردّوا "أنهم يخشون على حياتهم"، وعندئذ قررت الذهاب إلى بيروت للاجتماع بهم. في الطريق تعرضت مرات عدة للرماية بالرشاشات وقذائف "آر بي جي" (RPG) في الذهاب والعودة. كانت رحلة موت ثالثة حيث كانت النيران تطلق علينا من كل الاتجاهات، واضطررنا مراتٍ عدة إلى أن نختبئ في السيارات، ولولا العناية الإلهية لكان الموت محققًا. ولمّا أنجدتنا القوات السورية، وكانت الاشتباكات متواصلة بقوة، أخذ أحمد جبريل شرشفًا أبيض وبشجاعة نادرة أخذ يهرول بين المقاتلين طالبًا منهم وقف الاشتباكات. وجدت الفلسطينيين متشنجين ومتشككين في نيات السوريين، وكان من الصعب التفاهم معهم. وتجاه خطورة الوضع، قررت أن أهب حياتي لهذه المهمة القومية، وهي إنقاذ سورية من التدمير المعنوي، وإنقاذ الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية من التدمير المادي، وضرورة عودة التحالف من جديد بين سورية والثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية؛ فالتزمت بأن أظل في لبنان وسورية حتى القضاء على المؤامرة. في أحد الأيام قررت أن أذهب لمقابلة بيار الجميّل[9] في بكفيا[10] بالمنطقة الشرقية[11] من بيروت، ورافقني رئيس جهاز أمن عرفات أبو علي حسن سلامة[12] إلى منطقة المتحف، وهناك وجدت بشير الجميّل

---

(9) بيار الجميّل (1905–1984): سياسي لبناني ومؤسس حزب الكتائب.

(10) بكفيا: بلدة لبنانية تابعة لقضاء المتن بمحافظة جبل لبنان. يمثل الموارنة أغلب سكانها. ومن أشهر أعلامها مؤسس حزب الكتائب الشيخ بيار الجميّل ونجلاه رئيسًا لبنان سابقًا بشير وأمين.

(11) بيروت الشرقية: هي الشطر الشرقي لمدينة بيروت عاصمة الجمهورية اللبنانية، والتي سيطرت عليها ميليشيات القوات اللبنانية المسيحية وبعض ألوية الجيش اللبناني.

(12) علي حسن سلامة (1941–1979): أحد القادة الأمنيين في حركة التحرير الوطني الفلسطيني "فتح" واسمه الحركي أبو حسن. يُلقب بالأمير الأحمر. قاد العمليات الخاصة ضد المخابرات الإسرائيلية في العالم من لبنان، واغتالته إسرائيل في لبنان.

(نجله)[13] في انتظاري. ركبت سيارة خاصة بحراسة مشدّدة وكنت أجلس بين بشير [الجميّل] وأبو علي حسن سلامة.

ما إن وصلت حتى عقدت مع بيار الجميّل اجتماعًا مطوّلًا، وقد لاحظت وأنا أدخل وجود كتابات على الجدران بالخط العريض تقول: "لا لسورية لا للفلسطينيين لا للعرب". بعد الاجتماع تحدثنا إلى الصحافيين. قال بيار الجميّل: "سورية أعدى أعدائي، يكفي أنها لم تعترف بلبنان ولا تقيم معه سفارة، ولكن أنا غرقان، امتدت لي يد، أمسكت بها". فاجأتني الكتابات على الجدران كما فاجأتني تصريحات الجميّل. كان بشير الجميّل شابًّا شهمًا وشجاعًا. كانت له عينَا صقر. في البداية أقمت في بيروت في ضيافة أحمد جبريل في شقة بمنطقة الحمراء. والواقع أنني كنت أغيّر السكن باستمرار.

في أحد الأيام، كنت في شرفة الشقة وكانت هناك سيّدة عجوز في شرفة الشقة المجاورة، فجأة سألتني: "هل أنت السيد جلود؟" فقلت: "نعم"، فقالت: "كنا نعتقد أنك كبير في السن وبجسم ضخم. ولكن أنت شاب". ثم سألتني: "هل زرت لبنان من قبل؟"، قلت مازحًا: "لا، يظهر أن عظمي عظم حرب"، فأخذت تحدثني عن لبنان بمرارة وألم ثم قالت: "غريب لم تزر لبنان في أيام عز لبنان"، ثم قالت: "إن شاء الله يعود لبنان وتزوره لترى لبنان على حقيقته"، ثم قالت: "سمعنا في الأخبار أنك تسافر إلى سورية لمقابلة حافظ الأسد"، وأضافت: "أنا مسيحية من منطقة الأشرفية، أُرغمت على ترك منطقتي، وأنا الآن أعيش مع المسلمين، قُلْ لحافظ الأسد إذا كان يريد أن يقف مع المسيحيين فيجب عليه أن يقف مع المسلمين".

استمرت رحلة الموت والجهاد نحو 58 يومًا، كنت خلالها أعقد الاجتماعات المطوّلة مع قيادات الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية

---

(13) بشير بيار الجميل (1947–1982): زعيم القوات اللبنانية خلال الحرب الأهلية اللبنانية ورئيس الجمهورية، انتخبه مجلس النواب رئيسًا للجمهورية في 23 آب/ أغسطس 1982، خلال الاجتياح الإسرائيلي للبنان، إلا أنّه اغتيل في 14 أيلول/ سبتمبر قبل أن يستلم المنصب، حينما انفجرت قنبلة في معقل الكتائب في الأشرفية.

بقيادة شهيد فلسطين كمال جنبلاط. كان محسن إبراهيم[14] وجورج حاوي[15] في موقف انتهازي، يذهبان في الصباح الباكر إلى المختارة للقاء كمال جنبلاط ليعرفا منه كيف يفكر وماذا يريد أن يطرح في الاجتماع، وحينما نجتمع مع قيادات الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، يقوم محسن إبراهيم وجورج حاوي بطرح أفكار جنبلاط، ليقنعَا الآخرين بأن هذه أفكارهما، وأن أفكارهما هي ذاتها أفكار جنبلاط. كان بعض القادة الفلسطينيين يأتي متأخرًا للاجتماع، وكان جنبلاط يقول مازحًا: "الفلسطينيون مثل الأرتستات يناموا بالنهار ويصحوا بالليل". كان الشهيد كمال جنبلاط يقول لي: "في سبيل عروبة لبنان والثورة الفلسطينية قبلنا بتدمير لبنان". وكان يقول لي: "لقد ربحنا شعبًا مقاتلًا، الشاب اللبناني المعروف بطول شعره ونعومة أظافره، أصبح يمتشق الكلاشينكوف و'الآر بي جي' في هذا الشارع قتال، وفي الشارع الخلفي الرقص والغناء. لم يعد اللبناني يخاف الموت".

في هذا الوقت، كانت هناك قوات ليبية بقيادة الشهيد عبد السلام سحبان[16] تقاتل مع الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، وكان الفلسطينيون واللبنانيون يسألونني: "هل كل الليبيين شجعان مثل عبد السلام سحبان؟" وكنت أرد عليهم: "عبد السلام أقل واحد شجاعة بيننا"، فكانوا يقولون لي: "يا أخ عبد السلام. هذا هلبة عليك (أي كثير عليك)".

في أحد الأيام، كنت أتناول الغداء مع عرفات، وبعد دقيقة واحدة فقط من مغادرتنا صالة الطعام، سقط صاروخ في الصالة ودمّرها تمامًا. لقد تعرضت

---

(14) محسن إبراهيم (1935–2020): الأمين العام لمنظمة العمل الشيوعي بلبنان.

(15) جورج حاوي (1938–2005): الأمين العام للحزب الشيوعي اللبناني.

(16) عسكري ليبي من مواليد عام 1951، من الضباط المقربين من القذافي، تخرج في الكلية الحربية في مصر عام 1971، وقد اشترك في حرب تشاد وأظهر شجاعة نادرة. أمر الرئيس التشادي الأسبق حسين هبري بقتله عام 1990، وتم دفنه بمقبرة شهداء معركة الهاني ضد الطليان في العاصمة الليبية طرابلس. أقيمت له جنازة مهيبة، وكان معمّر القذافي على رأس الجنازة وقال: "الرجل لا يموت إن الثوري لا يموت إن الشجاع لا يموت".

للموت مرات كثيرة تجاوزت 14 مرة، وكانت "القوات المسيحية"[17] حين تعلم بأن طائرة عمودية قادمة من دمشق لنقلي، تقوم بقصف مكثف بالقذائف والقنابل لمنعي من المغادرة. فكنت أضطرّ إلى السفر بالسيارة عبر الحواجز، وكان السفر برًّا أمرًا محفوفًا بالمخاطر، لكنني كنت أفضل الموت من أجل أن أتوصل إلى اتفاق نهائي يحفظ الثورة الفلسطينية ويبقي التحالف الثلاثي قائمًا. رفض بعض الفلسطينيين تنفيذ الاتفاق، لأنهم كانوا لا يزالون يشككون في النيات السورية، ورفضوا أيضًا في البداية الإفراج عن الأمين العام لحزب البعث اللبناني عاصم قانصوه وزوجته، وقائد جيش التحرير الفلسطيني في سورية اللواء البديري. وهؤلاء كان يحتجزهم أبو العباس، جبهة التحرير الفلسطينية[18] والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين، ولكن بعد الضغط وبعد جهد مُضنٍ، تمكّنت من الإفراج عنهم واصطحبتهم معي في الطائرة العمودية إلى دمشق، وكانت هذه خطوة مهمة جدًّا ومفتاحًا للحل. ثم ركزت في المرحلة الثانية على سحب القوات السورية من بيروت والمطار؛ إذْ كان يتمركز فيهما نحو ثلاثة ألوية خاصة. وبعد رحلات مكوكية بين بيروت ودمشق، تمكنت من تحقيق المرحلة الثانية وهي سحب القوات السورية، ولم يكن هذا أمرًا سهلًا. ولكن العزيمة، والإرادة الثورية التي لا تكل ولا تمل، والثقة بالنفس، والعناية الإلهية، كانت هي العوامل التي ساعدتني في تحقيق هذا الهدف. كان السوريون يرفضون الانسحاب قائلين: "لن ننسحب بناءً على طلب الفلسطينيين. هذا شأن سوري - لبناني". وكثيرًا ما هددت الإخوة في سورية بقطع مهمتي والعودة إلى ليبيا، بل كثيرًا ما كنت أطلب من الطيارين أن يذهبوا إلى المطار لتجهيز

(17) قوات "الجبهة اللبنانية": هي تحالف ضم عدة أحزاب وشخصيات يمينية لبنانية. تأسست عام 1976 في بداية الحرب الأهلية اللبنانية لمواجهة الحركة الوطنية اللبنانية ومنظمة التحرير الفلسطينية، ومن بين مقترحاتها إقامة نظام فدرالي، ولقبها خصومها بالجبهة الانعزالية. ترأس الجبهة الرئيس الأسبق كميل شمعون زعيم حزب الوطنيين الأحرار.

(18) محمد عباس أو محمد زيدان (1948-2004): أسس عام 1977 جبهة التحرير الفلسطينية مع طلعت يعقوب بعد انشقاقهما عن الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة، مع اندلاع الحرب الأهلية بلبنان في أوساط السبعينيات؛ إذ آثر أبو العباس الوقوف إلى جانب منظمة التحرير والقوى الوطنية اللبنانية، بينما اختار جبريل الوقوف إلى جانب سورية التي دخلت لبنان في حينها.

الطائرة استعدادًا للعودة إلى ليبيا. وبالطبع لم أكن أنوي العودة، ولكنني كنت أمارس الضغط على الأطراف كلّها لإقناعها بضرورة التجاوب مع مبادرتي للحل، وأقول - للتاريخ - إنني وجدت من الرئيس الأسد كل تشجيع، وكان يطلب مني البقاء ومواصلة المهمة. وفي كل مرة كنت أحزم فيها حقائبي وأجهز السيارات للذهاب إلى المطار، يلحق بي عبد الحليم خدام وحكمت الشهابي ومحمد حيدر وناجي جميل لإقناعي بالعدول عن قرار السفر. كان الرئيس الأسد واعيًا بحجم المؤامرة، وكان يريد الخروج من هذا "المأزق" .

في عام 1979، كان صدام حسين نائبًا للرئيس العراقي أحمد حسن البكر، ولكنه كان يتمتع بالسلطة الحقيقية. حينما كنت في دمشق، اتصل بي هاتفيًّا عدّة مرات وقال لي: "السوريون ينفذون مؤامرة ويريدون استخدامك كغطاء. لا تسمح لهم أن يفعلوا ذلك"، وكنت أضحك وأسخر من هذا الكلام وأقول له: "يا أخ صدام أنا أعرف ماذا أفعل. قرار بقائي في دمشق هو قرار شخصي وليس قرار القيادة في ليبيا. اتخذت هذا القرار على مسؤوليتي رغم معارضة القيادة. أرجوك لا تحاول أن تقنعني بأمر آخر".

بعد وقت طويل من العمل الصبور والجهد الصادق والغضب والمشاجرات والمشادات، والأخذ والرّد، تغلب العقل أخيرًا على التهور، وانتصرت إرادة الأمة. لقد قمت بجولات مكوكية بين بيروت ودمشق، تارة بطائرة عمودية، ومرات بواسطة السيارات.

كان الشكّ هو المسيطر في أجواء الأطراف الثلاثة (سورية، والفلسطينيين، والحركة الوطنية اللبنانية)، وبصفة أخصّ بين الفلسطينيين والسوريين. حاول الفلسطينيون أن يستغلوا وقف إطلاق النار مع سورية لتحقيق نصر عسكري على "المسيحيين"، فقاموا بعدّة محاولات هجومية باءت كلها بالفشل رغم التسليح والعدد.

كانت الروح المعنوية القتالية عند الفلسطينيين، عكس الطرف الآخر، شبه منعدمة؛ وقد لاحظت وجود فجوة بين القيادات والمقاتلين، وأن المقاتلين لا يثقون بقياداتهم لأنها كانت تعيش "حياة ترف" وكل زعيم من حوله الخدم والحشم، وأستثني من ذلك الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة،

والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (جورج حبش)[19]، وجبهة النضال الشعبي، وياسر عرفات شخصيًا. لقد كان عرفات، رغم توجهاته الاستسلامية وإفساده المتعمد للثورة والفدائيين والمناضلين، ورغم شرائه للذمم وإمبراطوريته التي خلقها في لبنان وتآمره على الحركة الوطنية اللبنانية، رجلًا بسيطًا ونظيفًا ويعيش حياة بسيطة جدًّا على المستوى الشخصي. لقد كانت كل القيادات السياسية الفلسطينية في بيروت - عدا خليل الوزير (أبو جهاد) الذي كان في الجبل - قد استباحت لبنان، وخاصة المناطق الإسلامية، وعملت على "منع" قيام حركة وطنية قوية. وبالفعل، فقد أضعفتها وحولتها إلى "تابع"، في حين كان ينبغي لها أن تكون هي الأساس الذي يستند إليه التحالف، كما كان من المفترض أن يكون الفدائي الفلسطيني "ملاكًا" على الأرض في سلوكه وتصرفاته. لقد حدث العكس، فالقيادات والمقاتلون الفلسطينيون، يمارسون "سياسة تخويف" اللبنانيين و"يعيثون" فسادًا في لبنان؛ وهكذا غاصت الثورة في المستنقع اللبناني. والواقع أن الثورة الفلسطينية انتهت أخلاقيًّا منذ ذلك الوقت، فجاءت "النهاية السياسية" نتيجة لـ "النهاية الأخلاقية".

وهنا أورد مقارنة واضحة بين الثورتين الفلسطينية والجزائرية: كان المجاهد الجزائري، في الثورة الجزائرية، يعيش حالة من الانضباط العالي، بحيث يبدو "ملاكًا". وأذكر أنني حينما كنت صغيرًا في الخمسينيات، وكان الشعب الليبي يحتضن الثورة الجزائرية بقرار شعبي، وليس بقرار النظام الملكي العميل، كانت العائلات الليبية تسعد باستقبال مجاهد جزائري، بل كانوا يتبركون بوجوده بينهم، لأنهم يرون فيه "ملاكًا على الأرض"؛ وهكذا اكتسب المجاهد الجزائري والثورة الجزائرية سمعة أسطورية.

في الجانب الآخر، كانت سمعة المقاتل الفلسطيني والقيادات سيئة بين الجماهير اللبنانية والعربية. في إحدى المرات حصلت من السوريين على موافقة الانسحاب، وذهبت إلى بيروت. مكثت في العاصمة اللبنانية لأشرف

---

(19) جورج حبش (1926-2008): من أبرز مؤسسي حركة القوميين العرب. شغل منصب الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين منذ تأسيسها عام 1967 حتى عام 2000.

على تنفيذ قرار الانسحاب، ولكنّ السوريين لم يفوا بوعدهم؛ فذهبت للقاء الرئيس الأسد وأنا في حالة غضب عارم. لما وصلت وجدت أن ملك الأردن حسين بن طلال يقوم بزيارة لدمشق، وعلمت أن الرئيس الأسد سيكون في توديع الملك في أحد المطارات العسكرية، فذهبت على الفور إلى المطار، وبقيت بعيدًا عن صالة الضيوف بالقرب من إحدى "الهناجر". لمّا أقلعت طائرة الملك حسين، توجهت وأنا أهرول إلى الرئيس حافظ الأسد، فوصلت وهو يهمّ بركوب السيارة فناديته: "أخ الرئيس، أخ الرئيس أريد أن أتحدث معك". ثم قلت: "الموقف خطير، ويبدو أنه لا توجد رغبة في الوصول إلى حل، وإذا لم تتح لي فرصة اللقاء بكم فسوف أضطرّ إلى المغادرة"، فقال لي: "العراقيون قتلوا أحد أعضاء القيادة القومية وظروفي اليوم صعبة"[20]. وتحت إلحاحي، وكان الرئيس الأسد رجلًا شهمًا على الدوام، قال لي: "سأطلبك، ولكن في وقت متأخر من الليل"، فقلت له: "أنا مجاهد. في أي وقت يسمح وقتكم أنا جاهز". وبالفعل طلبني الرئيس الأسد حوالى الساعة الواحدة والنصف ليلًا، وقال لي: "استمر بمهمتك ولا تيأس وما بيكون إلا الخير". وبالفعل، صدرت الأوامر في اليوم التالي بتنفيذ الانسحاب. بعد أن أكملت القوات السورية انسحابها، بدأت المرحلة الثالثة، وهي المصالحة وعودة التحالف الطبيعي.

جئت إلى دمشق صحبة القيادات الفلسطينية بواسطة طائرة عمودية، وتوجهنا فورًا للقاء الرئيس الأسد. وحينما استقبلنا ألقيت كلمة قلت فيها حرفيًا: "لقد أمضيت مدة ثمانية وخمسين يومًا بعيدًا عن ليبيا، وأنتم تعرفون حاجة ليبيا إلي فأنا رئيس الوزراء، ونحن نخوض حربًا في تشاد وقد تعرضت للموت المُحقق أكثر من 14 مرة، ولكنني سعيد لأنني تمكنت من تحويل الرصاص إلى قبلات". وكنت أشير إلى العناق بين القيادات الفلسطينية والرئيس الأسد وتقبيلهم له، ثم انسحبت من اللقاء وتركت القيادات مجتمعة

---

(20) أحمد العزاوي (أبو الجبن): عضو القيادة العامة للحرس القومي عام 1963. شارك المجاميع البعثية في الرصافة التي شاركت في انقلاب شباط/ فبراير 1963. اغتيل في العاصمة السورية دمشق على يد المخابرات العراقية، عام 1975، حينما فجرت سيارته التي كان يهم بقيادتها.

معه. ومن المؤسف أنّ عرفات حاول أن "يبيع" هذا الإنجاز الثوري والتاريخي للمملكة العربية السعودية. لقد تألمت كثيرًا حين علمت بذلك، ولكن القيادات الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية وقفت ضد محاولة عرفات هذه، فاضطرّ إلى التراجع، ثم صرّح في مؤتمر صحافي: "إن الرائد عبد السلام جلود وثورة الفاتح يستحقان أرفع وأرقى وسام قومي". في هذا السياق، أريد أن أورد شيئًا مهمًا: إن قرار بقائي 58 يومًا كان قرارًا شخصيًا، وكان الأخ معمّر معارضًا لبقائي خارج ليبيا كل هذا الوقت، وخاصة في لبنان، وكان خائفًا عليّ، بل إنه رفض أن يتحدث معي هاتفيًا. وقال لأبو بكر يونس: "سأتحدث مع عبد السلام فقط لمّا يعود من دمشق، وأن يعدني بأنه لن يذهب مرة أخرى إلى بيروت". لقد اتخذت قراري هذا من أجل سورية ولبنان ومن أجل فلسطين، قضية الأمة المقدسة. إن النظام العربي الرسمي عجز عن عمل أي شيء. وكذلك جامعة الدول العربية التي بدت عاجزة هي أيضًا. شكلت جامعة الدول العربية لجنة برئاسة أمينها العام محمود رياض[21] وعدد من الوزراء العرب (وزير خارجية السعودية سعود الفيصل، ووزير خارجية الكويت صباح الأحمد الجابر الصباح) ولكنها لم تفعل أي شيء، وحدث أن اجتمعت باللجنة الوزارية في دمشق قبل سفري إلى بيروت، وأبلغتهم بقرار سفري، فقال لي محمود رياض: "أنت مجنون تذهب إلى بيروت؟"، فقلت له: "لأنني مجنون سأذهب إلى بيروت".

بعد الاحتلال الصهيوني لبيروت عام 1982، كان جورج شولتز، وزير الخارجية الأميركي[22]، يريد شخصيًا أن يحقق "نصرًا" أو نجاحًا على غرار نجاح كيسنجر في كامب ديفيد. كان يريد أن يحقق تصوّر بن غوريون، حين قال: "أنا لا أعرف الدولة العربية الأولى التي ستعترف بإسرائيل، لكن الدولة الثانية ستكون لبنان". سافرت إلى سورية وعقدت اجتماعات عدة مع الإخوة السوريين والفصائل الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية بقيادة كمال جنبلاط.

---

(21) الأمين العام لجامعة الدول العربية (1972-1979).

(22) وزير الخارجية الأميركي (1982-1989) في عهد إدارة رونالد ريغن.

اتفقنا نحن الأطراف الأربعة (ليبيا، وسورية، والحركة الوطنية اللبنانية، والفصائل الفلسطينية باستثناء حركة فتح)، على مقاومة الاحتلال الصهيوني في لبنان والقوات الغربية التي تحتله والمعسكر الانعزالي، القوات اللبنانية والكتائب، واتفقنا على ما يلي:

1 - إنشاء غرفة عمليات مشتركة يوجد فيها ضباط سوريون وليبيون وفلسطينيون والحركة الوطنية اللبنانية.

2 - تزويد ليبيا للفصائل الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية بالسلاح والذخيرة.

3 - تدفع ليبيا مرتبات المقاتلين الفلسطينيين ومقاتلي الحركة الوطنية اللبنانية.

4 - ترسل ليبيا دبابات ومدرعات ومدفعية ووسائط دفاع جوي بأطقمها الليبية على أن تتمركز مع قوات جنبلاط وأحمد جبريل وجورج حبش في منطقة الجبل.

لقد قمت بدور كبير في إقناع الأطراف بضرورة البدء بمقاومة الاحتلال الصهيوني، وقامت ليبيا بتنفيذ ما التزمت به. وبدأت هذه الأطراف في المقاومة بعد أن تخلصت الفصائل والحركة الوطنية اللبنانية من "هيمنة" عرفات على القرار. لقد كان لانتفاضة الضاحية وانتفاضة الجبل الدور الأساسي في انتصار المقاومة وهزيمة العدو الصهيوني والغربي والانعزالي. أسقطت المقاومات الأرضية طائرتين أميركيتين حاولتا شنّ غارات على منطقة الجبل، ووقع أحد الطيارين في الأسر، وأعتقد أنّ الطائرتين أسقطتهما قوات الدفاع الجوي الليبي المتمركزة في منطقة الجبل، حيث كانت عربات "م1" الروسية الصنع متمركزة هناك. ثم كان للعمليات الجهادية الانتحارية التي حدثت في صيدا ضد مركز القيادة الصهيونية هناك، والتي نفذها الفلسطينيون، ثم العمليات الجهادية الانتحارية التي نفذها حزب الله على القوات الأميركية والفرنسية، أثرٌ هائلٌ في بث الرعب في القوات الأميركية والفرنسية والبريطانية والصهيونية، فانسحبت من لبنان، كما

انسحبت القوات الصهيونية من معظم الأراضي اللبنانية نحو الشريط الحدودي. ولكي يعوّض الغرب هزيمته هذه، حشد ما بين أربعين إلى خمسين قطعة بحرية قبالة السواحل اللبنانية، بما فيها حاملات الطائرات.

وكان السؤال: ضد من؟ كل هذا الحشد البحري ضد مقاومة شعبية؟ لقد انتصر لبنان لأنه لا توجد حكومة يمكن إلحاق الهزيمة بها؟ لا يوجد جيش يمكن أن يهزم. كانت هناك مقاومة شعبية وهذه لا يمكن هزيمتها، كان عمودها الرئيس الشيعة والدروز، وبالطبع لا يمكن تجاهل دور الفصائل الفلسطينية في تحقيق النصر وإلحاق الهزيمة بالقوات الصهيونية والغربية والانعزالية، نعم الشعب لا يُهزم أبدًا، ولكن الجيوش تُهزم. لقد أراد الأميركيون الانتقام لهزيمتهم، وانطلاقًا من المثل الشعبي "عصا الذلال طويلة" (أي عصا الجبان طويلة)، أحضر الأميركيون البارجة "نيوجيرسي" وكان ذلك بطلب من أمين الجميّل. صبّ الأميركيون جام غضبهم على لبنان، ووجهت [البارجة الحربية] "نيوجيرسي" قنابلها الضخمة ضد المسلمين ومناطق الجبل في محاولة يائسة. كانت حكومة أمين الجميّل قد وقّعت اتفاقًا مع الصهاينة في 17 أيار/ مايو 1983، وكانت قوات الحركة الوطنية اللبنانية وأمل وحزب الله والفصائل الفلسطينية على بعد كيلومتر واحد أو كيلومترين من قصر بعبدا. وكان يمكن إلحاق الهزيمة بأمين الجميّل ومعسكره الانعزالي، ولكن نظرًا إلى الضغوط الأميركية على سورية، ونظرًا إلى تخوّفها من أن تكون الحرب إسلامية - مسيحية، ولأن سورية تولي أهمية خاصة لأوضاع المسيحيين في المشرق العربي - وحتى لمسيحيي سورية نفسها - فقد امتنعت عن إلحاق الهزيمة العسكرية بالقوات الانعزالية واحتلال قصر بعبدا. وبدلًا من ذلك اشترطنا نحن وسورية لإيقاف القتال أن يلغي الجميّل اتفاق 17 أيار. زار أمين الجميّل العواصم الغربية طالبًا النجدة، زار باريس وواشنطن، ولكن الرعب الذي أصاب هذه العواصم من العمليات الانتحارية جعلها تتخذ موقفًا سلبيًّا من مناشداته، وطلب الرئيس الأميركي ريغن ووزير خارجيته شولتز من أمين الجميّل، العمل على إقناع سورية وليبيا بـ"تجميد اتفاق 17 أيار" بدلًا من إلغائه. بعد باريس، زار الجميّل المغرب وطلب من الملك الحسن الثاني القيام بوساطة مع ليبيا،

وإقناعها باستقبال الجميّل، فاتصل الملك الحسن الثاني بالأخ معمّر عارضًا عليه طلب الجميّل. اتصل الأخ معمّر بي وأجرينا مناقشة عبر الهاتف وتداولنا حول موضوع الزيارة. في الواقع، كنت ضد زيارة الجميّل، ولكن الأخ معمّر قال لي: "زيارته لليبيا تعني اعترافه واعتراف الغرب بأن الحل في طرابلس ودمشق وليس في باريس وواشنطن"، فغيّرت موقفي. وبالفعل، قام الجميّل بزيارة طرابلس، وكنت في استقباله بالمطار، ثم توجهنا مباشرة للقاء الأخ معمّر. حينما وصلنا إلى الخيمة وجدنا الأخ معمّر قد أحضر جهاز فيديو وعرض على الجميّل شريطًا تلفزيونيًا للبارجة "نيوجيرسي" وهي تقصف منطقة الجبل. بعد الترحيب به، ضغط الأخ معمّر على زر الفيديو وقال مخاطبًا الجميّل: "انظر إلى نيوجيرسي وهي تمطر لبنان بالقذائف؟ كيف تستعين بقوة أجنبية ضد شعبك؟ أو ضد جزء من شعبك؟ أنت بهذا العمل أثبتّ أنك لست رئيس كل لبنان. أنت رئيس لجزء من الشعب اللبناني". شعر أمين الجميّل بالحرج الشديد، ثم حاول إقناع الأخ معمّر بأن "نوافق على تجميد الاتفاق" بدلًا من "إلغائه".

وكاد الأخ معمّر يوافق لولا أنني تمسكت بالإلغاء، وقلت له: "هذه خطة أميركية لأن عام 1983 سنة ميتة في السياسة الأميركية لأنها سنة انتخابات، وبعد الانتخابات ونجاح ريغن، سيعود لمحاربتنا بقوة؛ ومن ثمّ يجب أن نغتنم الفرصة". وبالفعل، رفضنا مقترح التجميد وأصررنا على الإلغاء. في الطريق إلى المطار، قال لي أمين الجميّل: "كنت أعتقد أنني سأجد صعوبة في إقناع القذافي، وإذا بي أجد صعوبة في إقناعك أنت".

إن العمليات الفدائية الجهادية ضد القوات الأميركية والفرنسية، وكذلك ضد قيادة القوات الصهيونية في صور، إحقاقًا للحق، كانت بسبب الروح الجهادية التي أطلقتها وبشرت بها وحرضت عليها الثورة الإسلامية في إيران، بقيادة الإمام الخميني. وأذكر أنني قمت بزيارة لإثيوبيا بعد هذه العمليات الجهادية، فقال لي الرئيس منغيستو هيلا مريام[23]: "أنتم العرب قد لا تعرفون قيمة العمل الذي قمتم به. كان العالم قبل هذه العمليات الانتحارية يتغنّى بالعمليات الفدائية

(23) رئيس جمهورية إثيوبيا الشعبية الديمقراطية (1987-1991).

التي قام بها الطيّارون اليابانيون ضد الأسطول الأميركي في ميناء بيرل هاربر في 7 كانون الأول/ ديسمبر 1941. أنتم بهذه الأعمال تقدمون أرقى أنواع العمل الفدائي". كان العمل الفدائي يعني تفجير قنبلة عن بُعد، أو الهجوم الخاطف على هدف محدد، ولكن أن "يُلغم" الإنسان نفسه أو يقود سيارة "مُلغّمة"، وهو أول من يكون الضحية؛ فهذا أمر لم يعرفه النضال من قبل. لقد قمنا بممارسة ضغط شديد، وحرّضنا الفصائل الفلسطينية والحزب السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي اللبناني، وكنّا نضرب لهم المثل بحزب الله والمقاومة الإسلامية لنغيظهم ونستفزهم ونشجعهم ونقول لهم: "أنتم لا تملكون العقيدة ولا الجرأة التي يتمتع بها المقاتل الإسلامي في حزب الله والمقاومة الإسلامية". كل ذلك كان بهدف تحفيزهم على محاكاة تجربة حزب الله في القيام بالعمليات الاستشهادية. وبالفعل، نجحنا مع الحزب السوري القومي الاجتماعي والحزب الشيوعي؛ إذ قاما بعمليات استشهادية. وكنّا نريد أن تستفيد الفصائل الفلسطينية، وأحزاب الحركة الوطنية اللبنانية، من هذه التجربة وهذه الروح الاستشهادية التي خلقتها الثورة الإسلامية في إيران وفي صفوف الشباب الشيعة. لقد كنت معجبًا بهذه الثورة، ومعجبًا بهذه العمليات الاستشهادية وبحزب الله والمقاومة الإسلامية. إنها النموذج الذي كنّا نفتقده. وأذكر أنني في لقاء مع الرئيس الأسد، قال لي: "في إحدى زيارات مساعد وزير الخارجية الأميركية ريتشارد ميرفي، وبينما كنت مجتمعًا به قال لي: نحن في أميركا لا نفهم كيف أن حزب البعث العلماني وسورية القومية تتحالف مع الأصوليين في لبنان، وكان بذلك يشير إلى حزب الله، فرددت عليه بالقول: "إذا كانت الأصولية هي العودة إلى الجذور فأنا أصولي، ثم إنّ هؤلاء يقاتلون عن سورية والأمة".

ذهبت مرة أخرى إلى سورية والتقيت بالإخوة من الفصائل الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية. وبمبادرة من ليبيا، اتفقنا نحن الأطراف الأربعة (ليبيا، وسورية، والفصائل، والحركة) على ضرورة تكثيف العمليات الفدائية ضد القوات الصهيونية في جنوب لبنان وفي فلسطين. التزمت ليبيا، طبقًا لهذا الاتفاق بتمويل العمليات الفدائية فضلًا عن الدعم المقرر أصلًا؛ نظرًا إلى حاجة هذه العمليات النوعية إلى إمكانيات وتقنيات خاصة. اقترحت على الإخوة في سورية

أن نعمل معًا ومع حزب الله وأمل وأحزاب الحركة الوطنية اللبنانية على تفجير "انتفاضة" شعبية مسلحة ضد القوات الصهيونية في الجنوب اللبناني. وللأسف، فإن هذا النوع من الأعمال الجريئة لم يكن يلقى الفهم الكامل ولا التجاوب، نظرًا إلى العقلية العربية المحافظة التي لم تتعلم "روح المجازفة"؛ ذلك أنّ المنهج العام محافظٌ بطبيعته، من البيت إلى الجامعة. حينما تفجّرت ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة، كانت الأمة العربية تقبع تحت كابوس هزيمة 1967. ورغم الشعارات التي شدّد عليها مؤتمر الخرطوم (لا للاعتراف، لا للمفاوضات، لا للصلح)، فإنّ عدوان 1967 لم يكن فقط هزيمة عسكرية للعرب، بل كان هزيمة أيديولوجية أجهضت "فكرة الثورة العربية"، فجرى استبدال شعار "وحدة الهدف" بشعار "وحدة الصف". كان نموذج القومية العربية هو النموذج الفاشي الدكتاتوري، أي حكم الفرد/ الأسرة/ العائلة/ القبيلة؛ لم يكن عند العرب أيّ نموذج سياسي يمكن اعتماده. وبدلًا من ذلك، كانت هناك "إقطاعيات" سياسية خلقت أنظمة تعتمد على أجهزة بوليسية وقمعية وأجهزة استخبارات ووحدات عسكرية قبلية. ولكل هذه الأسباب وقعت الهزيمة. نحن لم يهزمنا العدو، ولكن هزمتنا الدكتاتورية. نحن شعوب مهزومة من الداخل، وأنظمتنا أنظمة عائلية/ عشائرية/ قبلية. كان ياسر عرفات في زيارة لليبيا في عام 1973، وفوجئنا حين طلب منّا طائرة خاصة لنقله إلى القاهرة. وبعد وصوله بساعات، شاهدناه يحضر مع الخائن السادات جلسة ما يسمى مجلس الشعب المصري الذي أعلن فيه "زيارة فلسطين المحتلة"، وشاهدنا عرفات وهو يصفق[24]. لقد تآمر عرفات على تدمير الثورة من الداخل. كان يفسد الذمم والكوادر والمناضلين، وأعتقد أن دول الخليج بدأت بدعمه، حينما تأكدت أن الدعم لا يقود إلى التحرير، وإنما إلى تدمير الثورة وخلق "سلوك غير ثوري". إنه البترودولار، عماد الثورة المضادة.

---

(24) في 16 تشرين الأول/ اكتوبر 1973، ألقى الرئيس المصري محمد أنور السادات خطابًا أمام مجلس الشعب المصري أعلن فيه استعداد مصر لحضور مؤتمر دولي للسلام لوضع قواعد وضوابط السلام في المنطقة. وهو ما مثّل إحدى الحلقات المبكرة في إعلانه في 9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1977 أمام مجلس الشعب المصري استعداده لأن يذهب إلى أقصى العالم لتحقيق السلام حتى ولو كان القدس، وبحث مسألة السلام وجهًا لوجه.

في 21 آب/ أغسطس 1982، قررت منظمة التحرير الفلسطينية الخروج من بيروت. طلبنا من القيادات الفلسطينية أن "ترفض" هذا القرار، وأن يفضل الفلسطينيون "الانتحار" على الخروج المُذل. لقد كان خروجًا مُذلًّا؛ ليس للثورة وحدها، بل لكل الأنظمة العربية والجماهير العربية. في هذا الوقت، أدخل عرفات والنظام السياسي العربي المستسلم الثورةَ في "حمّام للتبريد". قال لنا عرفات مرات كثيرة: "هذا هو عصر الدولار السعودي"، وكان يعبّر بذلك عن الدور التخريبي الذي تؤديه السعودية من شراء ذمم وضمائر السياسيين والمثقفين والصحافيين العرب، وحتى "الثوريين العرب". قاد عرفات والرجعية العربية والملك الحسن الثاني والنظام المصري عملية حمّام الماء البارد أو عملية تدجين الثورة وترويضها. وإذا كانت قرارات القمة العربية تؤكد أن منظمة التحرير الفلسطينية هي الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، فإن هذه القرارات تبدو في ظاهرها تكريسًا للهوية الفلسطينية. أما في الواقع، فإن منظمة التحرير هي "ثوب" مصمم لعرفات، وحينما يقال "منظمة التحرير" فإن المقصود ياسر عرفات. أفرغ عرفات مؤسسات منظمة التحرير الفلسطينية من محتواها، وركّز كل شيء في يده وضمن بطانته. كان يقول في الاجتماعات، وهي عادةً مجردُ "منابر خطابية": "خليهم يتكلمون أنا عندي الشيك والقلم". دغدغ هذا الشعار العواطف الوطنية الفلسطينية، ولكنه كان يحمل أبعادًا تآمرية على قضية فلسطين. استطاع عرفات أن يخدع القيادات الفلسطينية، لمّا تبنى شعار إقامة "السلطة الوطنية الفلسطينية على أي جزء يتمّ تحريره"[25]. وللأسف، نجح عرفات في إقناع الفصائل الفلسطينية. وبعد أوسلو، ها هو يقول: "إنه ينفذ قرارات المجلس الوطني الفلسطيني". بعد شحن "الثورة الفلسطينية" في السفن الغربية، بحماية السفن الأميركية والفرنسية، وبعد أن جرى التآمر على البندقية الفلسطينية والكفاح الوطني الفلسطيني والمقاومة، عُقد "مؤتمر قمة" فاس في الفترة 6-9 أيلول/

(25) أقر المجلس الوطني الفلسطيني عام 1974 برنامج النقاط العشر الذي نص على أن تناضل منظمة التحرير بكافة الوسائل وعلى رأسها الكفاح المسلح لتحرير الأرض الفلسطينية، وإقامة سلطة الشعب الوطنية المستقلة المقاتلة على كل جزء من الأرض الفلسطينية التي يتم تحريرها. وهذا يستدعي إحداث المزيد من التغيير في ميزان القوى لصالح شعبنا ونضاله.

سبتمبر 1982 بطريقة احتفائية، وبأمرٍ من الولايات المتحدة، للإعلان عن نهاية المقاومة والثورة. وبالطبع لم نشارك في هذا المؤتمر. لقد رفض العرب الدعوات المتكررة منّا خلال حصار بيروت في عام 1982، لعقد قمة عربية. لكن بعد أن تحققت المؤامرة، عقدوا قمة، تطبيقًا للمثل القائل: "إذا لم تستحِ فافعل ما شئت". ثم بدأ عرفات بالتآمر في طرابلس، اللبنانية، وفي البقاع والجبل، وفي الجنوب اللبناني؛ فتفجّر الخلاف داخل حركة فتح، وقاد نمر صالح[26] وأبو موسى، سعيد مراغة، وأبو خالد، موسى محمود العملة[27]، حركة الانشقاق، فسافرتُ على عجل إلى سورية وعقدتُ سلسلة اجتماعات مع الإخوة السوريين ومع أبو صالح وأبو موسى وأبو خالد العملة، ومع أحمد جبريل، واتفقنا جميعًا على إخراج عرفات من طرابلس ومخيمات الشمال. وبالفعل، تمكنّا من إخراجه. قامت قواتنا الموجودة في لبنان، بتقديم الإسناد المدفعي في المعركة لإخراج عرفات. شكّلت الخطة الأميركية - الصهيونية، التي أطلقها الملك فهد، أساس "تصفية قضية فلسطين"؛ إذْ طلبت واشنطن من الملوك والرؤساء العرب عقد قمة للموافقة عليها. وبالفعل، عقد اجتماع في فاس بالمغرب يوم 6 أيلول/ سبتمبر 1982، وحضرته كل الدول العربية ما عدا ليبيا. قررنا مقاطعة "مؤتمر الخيانة".

ثم تبنى المؤتمر "خطة السلام" التي عرضها الملك فهد[28]، فأصدرنا بيانًا

(26) نمر صالح (1935-1991): أحد أهم مؤسسي فتح - الانتفاضة. شغل منصب نائب القائد العام لقوات العاصفة، الجناح العسكري لحركة "فتح" وعضو في اللجنة المركزية فيها، وقد كان محسوبًا على ما سمّي التيار اليساري بالحركة. وضعته السلطات السورية قيد الإقامة الجبرية في منزله، حيث توفي بنوبة قلبية عام 1991.

(27) موسى محمود العملة، أبو خالد (1930-2012): نائب أمين سر حركة فتح - الانتفاضة قبل أن يفصل منها على خلفية اتهامه بالارتباط بتنظيم فتح الإسلام. كان أحد أهم القادة العسكريين الفلسطينيين في أثناء الحرب الأهلية اللبنانية.

(28) مشروع الأمير فهد بن عبد العزيز، أو المبادرة السعودية للسلام عام 1981: هو مبادرة سلام طرحها ولي العهد السعودي آنذاك الأمير فهد بن عبد العزيز آل سعود، في محاولة لإيجاد حل للصراع العربي - الإسرائيلي، تنص على انسحاب إسرائيل من جميع الأراضي العربية التي احتُلت في عام 1967 بما فيها القدس العربية، وإزالة المستعمرات التي أقامتها إسرائيل في الأراضي العربية بعد عام 1967، وضمان حرية العبادة وممارسة الشعائر الدينية لجميع الأديان في الأماكن المقدسة، وتأكيد حق الشعب الفلسطيني في العودة، وتعويض من لا يرغب في العودة. ودعت المبادرة أيضًا إلى أن تخضع

رفضنا فيه مقررات قمة فاس. كنت أنا والأخ معمّر في مدينة سبها جنوب ليبيا، وهناك قدنا تظاهرة حاشدة شارك فيها نحو 50 ألف متظاهر. كانت التظاهرة عفوية ومن دون ترتيب أو إعداد. جهزنا صورًا ودمًى للملوك والرؤساء العرب، وأحضرنا فأسًا وقمنا بتهشيم الصور والدمى، باستثناء صورة حافظ الأسد، مراعاة لظروف سورية وجغرافيتها وتعرضها لضغوط غربية، ولأننا نريد أن نبقي على علاقتنا الجيدة مع دمشق وجرّها إلى موقفنا.

كان الملك الحسن الثاني يقول، وهو على حق: "إنّ كل العرب حضروا قمة فاس ووافقوا على مقرراتها ما عدا ليبيا، وبالتالي فمن حقها أن تعارض". وهكذا، بدأ مسلسل التآمر وتصفية القضية الفلسطينية، فقد نبذ عرفات العمل الفدائي، ووصفه بأنه "إرهاب" بناءً على طلب الولايات المتحدة، لما أعلن بالإنكليزية اعترافه بدولة غير شرعية في فلسطين. ومن المؤسف أنني كنت مشغولًا في منطقة الجنوب، نظرًا إلى الإخفاقات التي كانت تعانيها قواتنا في تشاد في فايا ووادي الدوم، وقيام حسين هبري باحتلال قرية أوزو. استغل عرفات هذا الوضع، وكان الأخ معمّر في حالة نفسية سيئة، فقام بخداع الأخ معمّر، ويبدو أن من ساهموا في الخداع جورج حبش ونايف حواتمة، حين اتفقوا على عقد المجلس الوطني الفلسطيني في الجزائر. أدت الجزائر دورًا كبيرًا في التحضيرات لعقد دورة المجلس الوطني الفلسطيني؛ لأن الجزائريين كانوا يرفعون "شعارًا إقليميًّا": لن نكون فلسطينيين أكثر من الفلسطينيين، نقبل بما يقبل به الفلسطينيون. رفضت حركة فتح - الانتفاضة وأحمد جبريل، وحركة فتح - المجلس الثوري والصاعقة، الاشتراك في إعداد الوثيقة الأساسية لدورة المجلس، كما رفضوا المشاركة فيه. لكن - للأسف - أعطى حبش وحواتمة الغطاء لعرفات. لمّا علمت بعقد هذا الاجتماع، ورغم أنني كنت مشغولًا بالعمليات في الجنوب، اتصلت بالأخ معمّر واعترضت على عقد المجلس الوطني في الجزائر وعلى "فكرة" الوثيقة المطروحة. شكلت دورة المجلس

الضفة الغربية وقطاع غزة لفترة انتقالية تحت إشراف الأمم المتحدة خلال مدة لا تزيد على بضعة أشهر، وقيام الدولة الفلسطينية المستقلة بعاصمتها القدس، وتأكيد حق دول المنطقة في العيش بسلام، على أن تقوم الأمم المتحدة أو بعض الدول الأعضاء فيها بضمان تنفيذ تلك المبادئ.

الوطني الفلسطيني في الجزائر بداية التفريط في القضية الفلسطينية؛ إذْ أصدر المجلس قرارات استسلامية، كما أُطلقت يد عرفات لتقديم مزيد من التنازلات.

قبل هذه الأحداث بسنتين، وبعد حرب الخليج الثانية (2 آب/ أغسطس 1990 - 28 شباط/ فبراير 1991)، وتدمير العراق بما يقرب من عشر سنوات، انتزع الأميركيون والصهاينة وقوى الاستسلام زمام المبادرة، واستغلوا الانهيار الذي أصاب الأمة العربية ليفرضوا عليها الاستسلام، وتصفية القضية الفلسطينية؛ فأعلن الرئيس الأميركي جورج بوش[29]، في 30 تشرين الأول/ أكتوبر 1991، عقد مؤتمر مدريد الاستسلامي الخياني، ليفرض المفاوضات المباشرة، إمعانًا في إذلال العرب، ولم يكن اختيار مدريد مجرد مصادفة كما قال جيمس بيكر[30]، وزير الخارجية الأميركي. لقد كان هذا الاختيار زيادة في إذلال العرب؛ إذ صادف مرور 500 عام على "خروج العرب من الأندلس". وكنّا أعلنا في ليبيا أن هذا المؤتمر "مؤتمر خيانة" لقضية فلسطين والأمة، وأنّ الذين يشاركون فيه "خونة"، ورفضنا مُسبقًا ولاحقًا كل قراراته المترتبة عليه، لأنه فُرض على الأمة فرضًا. وأعلنّا أنّ الأمة العربية تتبرأ من المؤتمر ومن نتائجه؛ ولذا فهو لا يكتسب أي مشروعية. وللأسف، قرّر اتحاد المغرب العربي، باستثناء ليبيا، إرسال الأمين العام للاتحاد ممثلًا له في مدريد، وهو تونسي، فأرسلنا لهم احتجاجًا رسميًا، وقلنا حرفيًا: "إنه لا يمثلنا لا من قريب ولا من بعيد، إضافة إلى أن إرساله يخالف اتفاقية اتحاد المغرب العربي التي تنص على الإجماع". أرادت الولايات المتحدة قرارًا إسلاميًّا بالموافقة على مبادرة بوش وعلى عقد مؤتمر مدريد، وطلبت عقد مؤتمر قمة إسلامي. وبالفعل، عُقد المؤتمر في دكار بالسنغال[31]، وتبنى خطة بوش لتصفية القضية الفلسطينية، وأصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قرارًا بإلغاء قرارها السابق الذي يعتبر

---

(29) جورج هربرت بوش (1924-2018): رئيس الولايات المتحدة الأميركية (1989-1993).

(30) وزير خارجية الولايات المتحدة الأميركية (1989-1992).

(31) مؤتمر القمة الإسلامية السادس المنعقد في العاصمة السنغالية دكار، في الفترة 9-11 كانون الأول/ ديسمبر 1991، وقد أعرب قادة الدول الإسلامية عن تأييدهم للجهود والمساعي التي أدت إلى عقد مؤتمر السلام في مدريد لإيجاد حل عادل وشامل للقضية الفلسطينية والنزاع العربي - الإسرائيلي.

الصهيونية شكلًا من أشكال العنصرية، وكذلك فعل المؤتمر الإسلامي في السنغال تماشيًا مع قرار الجمعية العامة للأمم المتحدة. وقد انسحبنا من آخر مؤتمر قمة عقد في الدار البيضاء بالمغرب[32]؛ لأن المؤتمر اعترف بالعدوّ، وفرّط في الحق القومي، وأعطى إشارة الانطلاق لتصفية القضية الفلسطينية، وشكّل بداية الاستسلام للمخطط الصهيوني - الأميركي. وقد أصدرنا أمرًا لمكتب الاتصال الخارجي باستخدام كلمة "الرفض" بدلًا من "عدم الموافقة" أو "التحفظ"، ورفضنا قرارات اجتماع وزراء الخارجية العرب في القاهرة الذي عُقد لمباركة مؤتمر مدريد والموافقة على "المفاوضات المباشرة".

لقد أعطيت القضية الفلسطينية كل وقتي منذ طفولتي، فشبابي. أعطيتها عقلي وقلبي وتفكيري وعرقي ودمي، ولكن - للأسف - ضاع كل هذا وذهب مع الريح، ريح الانهيار العربي. وأنا كلّي ثقة بأن رياح الثورة والتغيير والمقاومة سوف تهبّ من جديد.

حرب المخيّمات في لبنان

حينما اندلعت حرب المخيّمات بين حركة "أمل" المدعومة من سورية، والفصائل الفلسطينية، خلال الفترة أيار/مايو 1985 - تموز/يوليو 1988، سافرت على عجل إلى دمشق لإخماد هذا النزيف القومي المادي والمعنوي، وكان يرافقني الأخ ضو سويدان[33]، الكاتب العام لمكتب الاتصال الخارجي،

---

(32) مؤتمر القمة الإسلامية السابع في المغرب، الدار البيضاء: الذي عُقد في الفترة 13-15 كانون الأول/ ديسمبر 1994، وأعرب المؤتمر عن دعمه وتأييده للمسيرة السلمية في الشرق الأوسط، ورحب بالاتفاقات التي تم عقدها في إطارها، ولاحظ أن نجاح عملية السلام يتوقف على استنادها إلى قرارات الشرعية الدولية، بما فيها قرارات مجلس الأمن رقم 242، ورقم 338، ورقم 425، والالتزام بتطبيقها وبالفهم العربي والدولي لها على أساس صيغة "الأرض مقابل السلام"، وتمكين الشعب الفلسطيني من نيل حقوقه الوطنية والسياسية.

(33) ضو سويدان (1938-2020): سياسي ودبلوماسي ليبي. شغل في عام 1981 منصب الكاتب العام لمكتب الاتصال الخارجي، والأمين المساعد للمكتب الشعبي للاتصال الخارجي والتعاون الدولي. وفي منتصف الثمانينيات، جرى تعيينه أمينًا مساعدًا بالأمانة العامة لجامعة الدول العربية للشؤون السياسية، ثم أمينًا عامًّا لشؤون الإعلام حتى بلوغه سن التقاعد.

أي تمامًا كما حدث عام 1975، وكما حدث في عام 1986. ذهبت إلى دمشق للاجتماع بالرئيس حافظ الأسد وفصائل الثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية، وكنت أعتقد أن زيارتي سوف تستمر أيّامًا، أستطيع فيها وقف هذه الحرب المقززة التي تشكل نزيفًا قوميًّا وتدمي قلب كل مواطن عربي من المحيط إلى الخليج. ونظرًا إلى خطورة الموقف وحساسيته، فقد قرّرت أن "أعسكر" في دمشق حتى أتمكن من إطفاء الحريق. تعاونت مع الإخوة في إيران، حيث كان يوجد أيضًا الثوري الصلب حسين شيخ الإسلام، ممثلًا للثورة الإسلامية، والسفير الإيراني في دمشق، وهو من رجال الدين الثوريين. كان شيخ الإسلام والسفير الإيراني، يتنقلان بين دمشق وبيروت، جيئة ذهابًا. أمضيت قرابة ثلاثة أشهر، كنت أجاهد خلالها في اجتماعات مضنية وطويلة وشاقة وفي أجواء انعدام للثقة تامّ بين الأطراف المتحاربة؛ فالفلسطينيون يعتبرون أنّ سورية تحاربهم بواسطة حركة أمل، وأن الحركة ألعوبة في يد سورية، وهم يشاهدون الشاحنات تنقل إليها الأسلحة والذخائر. كان الإخوة في سورية يقولون، على العكس من ذلك، إنّ حركة أمل هي التي تحاصر المخيّمات، وإنه لا علاقة لهم بالحركة ولا سيطرة لديهم عليها، ويقولون، من جانبٍ ثانٍ، إنّ هناك مؤامرة من عرفات في المخيّمات، ولا يمكن من ثمّ فكّ الحصار من دون استسلام "جماعة عرفات" وأن يخرجوا منها ويسلموا أسلحتهم.

ما أثار إعجابي هو وحدة الفصائل الفلسطينية في مواجهة الحصار، وإجماعها على أن هذه الحرب هي "قرار سوري" و"إرادة سورية" حتى الفصائل التي تناصب عرفات العداء، مثل "فتح - الانتفاضة" وأحمد جبريل، كانوا أكثر صدامية مع سورية، وكانوا من أشد المقاتلين ضد أمل. كل الفصائل رفضت بالإجماع محاولات سورية لشق وحدتها. قاتلت "جماعة عرفات" مع جماعة أحمد جبريل والانتفاضة والمجلس الثوري والجبهة الشعبية والجبهة الديمقراطية؛ لأن حجة سورية كانت أن جماعة عرفات يريدون العودة إلى بيروت، وأن هذه الفصائل ليس لها أي وجود، وأن كل المقاتلين هم من جماعة عرفات، ويدّعون أنه حتى لو كان لهذه الفصائل وجود، فهو "متواضع" داخل المخيّمات.

لقد اشتراهم عرفات، لكن الحقيقة أنه في مواجهة الخطر، جمّد الجميع خلافاتهم وقاتلوا على أنهم إخوة، وكانوا موضع اعتزازي وإعجابي، وكنت أطلب منهم أن يواجهوا المؤامرة بقلب رجل واحد ويد واحدة، وكنت أحثهم على ذلك. كانت سورية تشترط، لتضغط على أمل لرفع الحصار، إخلاء المخيّمات من المظاهر المسلحة، وتسليم الأسلحة وأن تتولى الشرطة اللبنانية الأمن في المخيّمات. كان الإخوة السوريون يقولون إن عرفات "يتآمر على سورية ويخطط للعودة إلى بيروت، وإن سورية لن تسمح بذلك"، بل إنهم قالوا لي عدة مرات إن "جماعة عرفات يخرجون ليلًا إلى بيروت ويخططون لإحداث فتنة فيها". وكنت أقول لهم إن الفصائل الفلسطينية الأخرى مستعدة للسيطرة على المخيّمات ومنع جماعة عرفات من الخروج إلى بيروت بأسلحتهم، وكانوا يردّون قائلين لي: "إن الفصائل الفلسطينية ليست لها سيطرة على المخيّمات. معظم المسلحين هم من جماعة عرفات، وحتى مجموعاتهم القليلة ليس لديها القدرة على فرض السيطرة على المخيّمات. لقد اشتراها عرفات". ولم يكن ذلك صحيحًا.

أمضيت الأيام والليالي والأسابيع والأشهر في اجتماعات مطوّلة، تصل أحيانًا إلى عشر ساعات. كانت أجواء انعدام الثقة هي السائدة بين السوريين والفصائل، وبدا التشنج هو السمة التي تطغى على تصرفات الجميع. لقد وجدت نفسي أمام معادلة صعبة: فمن جهة، الإخوة السوريون يكرّرون أنهم لا يسيطرون على حركة أمل، وبالطبع لم يكن هذا صحيحًا؛ ومن جهة أخرى، يقولون إنه لا بد من خروج مسلحي عرفات من المخيّمات وضرورة تجريدها من السلاح، وإن الأمن اللبناني هو مَن يتولى الأمن فيها، في حين تقول الفصائل الفلسطينية إن قرار الحصار هو قرار سوري تنفذه أمل، ويؤكدون أن الشاحنات التي تحمل الذخائر والسلاح إلى أمل تعبر إلى بيروت، ويقولون إنه حتى لو اتفقوا مع سورية حول "نيات عرفات"، فإنهم، بصفتهم فصائل فلسطينية، يرون أن سورية لم تترك لهم أيّ خيار آخر سوى القتال، وأن محاصرة المخيّمات تخدم مخطط عرفات وتضعف مواجهة نهجه الخياني.

كنت أتبنى وجهة نظر الفصائل الفلسطينية كليًّا، وكنت أطلب منهم أن يقاتلوا معًا. وبالفعل، أثبت الفلسطينيون صمودًا ووحدة قتالية رائعة، رغم محاولة سورية إحداث الفرقة بينهم. وهكذا، تعاونت القوات الفلسطينية داخل المخيّمات مع القوات الموجودة في الجبل، واضطلعت قوات أحمد جبريل والانتفاضة بدور أساسي هناك. حاولت ليبيا إرسال قوات وأسلحة وذخائر. بيد أن سورية رفضت، بل إننا حاولنا استخدام مخزون الأسلحة الذي كنّا نملكه داخل دمشق؛ فرفضت سورية أن تسمح بذلك، ورفضت أن تسمح للفلسطينيين بإرسال أسلحة من سورية إلى منطقة الجبل. ومع ذلك، أدار الإخوة الفلسطينيون المعركة بوحدة متراصة وإدارة عسكرية وسياسية وإعلامية، وكان السوريون منزعجين من هذا الصمود البطولي الذي أيقظ الجماهير العربية وشحذ هممها. ومثّل هذا الأمر ضغطًا على سورية، فأصبحت في نظر الرأي العام العربي "مدانة"، وكان الشارع العربي يغلي غضبًا، وكانت **وكالة الأنباء والمعلومات الفلسطينية** (وفا) تصوّر الوضع في المخيّمات على أنه "وضع مأساوي"، وأن "النساء والأطفال باتوا يأكلون القطط والكلاب والفئران".

كانت هذه الصور الراعبة، سواء أكانت حقيقية أم مبالغًا فيها، تزيد من غليان الشارع العربي وتضاعف من سخطه على سورية. أدت إيران وليبيا وصمود الفلسطينيين، وحسن إدارتهم للمعركة الدعائية، دورًا حاسمًا في وضع سورية طرفًا مُتهَمًا بـ"تنفيذ" مؤامرة ضد الفلسطينيين، وأنها تريد القضاء على "البندقية" الفلسطينية في لبنان، وتريد "إبادة الشعب الفلسطيني"، وهذا ما نجح الإعلام الفلسطيني في تصويره.

كان السوريون منزعجين من قدرة الإعلام الفلسطيني على "تهييج الشارع الفلسطيني" وفي تصوير سورية طرفًا يقوم "بأعمال وحشية ضد المخيّمات". كان عبد الحليم خدام نائب الرئيس الأسد، ومعه حكمت الشهابي رئيس الأركان، وعلي دوبا مدير المخابرات العسكرية، يقولون لي: "خلاص، المخيّمات سقطت"، وكنت أضحك، لأنني أعرف أنها لم تسقط. وفي اليوم التالي، يكرّرون الأسطوانة نفسها، وكنت أقول لهم: "لن يحصل هذا". ثم مارست ضغطًا على

الحركة الوطنية اللبنانية بكل أحزابها برئاسة وليد جنبلاط، الذي تعلّم بسرعة، واكتسب وعيًا قوميًا، لكن الحركة اللبنانية كانت واقعة تحت ضغط شديد من سورية؛ ولذا كان لها موقفان: موقف معلن مساير لسورية، وموقف ميداني داعم للفلسطينيين. كان وليد جنبلاط وبقية الأحزاب يقولون لي: "إن العرب لا يريدون أن يتحملوا مسؤولياتهم، ويريدون من لبنان أن يدفع الثمن"، وكانوا يقولون: "إن الفلسطينيين في ليبيا وفي بقية البلاد العربية لا يسمح لهم بحمل مسدس". كان السوريون يتهمون وليد جنبلاط بالتعاون مع عرفات، وكنت أخشى على سلامته من أن يلقى مصير والده. وكان لعاصم قانصوه الأمين القُطري لحزب البعث السوري في لبنان، موقف مخالف ومغاير للموقف الرسمي في سورية، فقد طلب من عناصره في صيدا أن يقاتلوا مع الفلسطينيين، وقد دفع ثمن ذلك وبات مغضوبًا عليه وتمّت تنحيته من رئاسة الحزب، وكذلك مصطفى سعد[34] الذي كان يتهمه الطرف السوري بأنه "عرفاتي" أو يتعاون مع عرفات، والحقيقة أنه كان يتخذ موقفًا قوميًّا، ويقف مع كل الفصائل الفلسطينية في صيدا. طلبت عدة مرات من وليد جنبلاط أن يذهب إلى صيدا ليضغط على جماعة عرفات للانسحاب من المدينة. كان الموقف الظاهري للحركة الوطنية اللبنانية مسايرًا لسورية، ولكنه فعليًّا كان يتعاطف مع الفلسطينيين. وأخيرًا، نجحت في إقناع الفصائل (جميعها) عدا جماعة عرفات، والتي لم أكن أتعامل معها على أن يتمّ الانسحاب من منطقة مغدوشة[35] وفكّ الحصار عنها، لأن سورية جعلت من هذا الأمر بمنزلة "قميص عثمان" واشترطت لفك الحصار انسحاب الفلسطينيين من هذه المنطقة أي من "خارج المخيّمات" والعودة إلى داخلها، وهو ما أطلق عليه "التمدد الفلسطيني خارج المخيمات".

---

(34) مصطفى معروف سعد (1951-2002): نائب لبناني سابق عن مدينة صيدا، انتُخب أمينًا عامًّا للتنظيم الشعبي الناصري خلفًا لوالده عام 1975. كان عضوًا بارزًا وفاعلًا في قيادة القوات المشتركة اللبنانية - الفلسطينية في الجنوب قبل الاجتياح الإسرائيلي للبنان. قاد جبهة المقاومة الوطنية اللبنانية في منطقة صيدا، منسقًا بين الفصائل المنضوية إليها، وقد اتسم عملها بالفاعلية والنجاح.

(35) إحدى القرى اللبنانية من قرى قضاء صيدا في محافظة الجنوب.

ولم يكن سهلًا عليّ إقناع حبش وحواتمة وجبريل وأبو موسى و"جماعة أبو نضال" والنضال الشعبي، لأنهم كانوا في قمة التشنج. لقد فقدوا الثقة بسورية، وكانوا يقولون إنها تنفذ مخططًا لتصفية "البندقية الفلسطينية" في لبنان، ولكن بعد صبر ومثابرة وإرادة لا تكلّ، وبإرادة ثورية صلبة وحديدية لا تعرف المستحيل، وبعد سلسلة اجتماعات فردية وجماعية، تمكّنت بعون الله وتوفيقه من تحقيق الهدف. لقد استمر بعض الاجتماعات ليالي وأيامًا من الصباح حتى الغروب، وأحيانًا من الغروب حتى الفجر، كنت أجتمع خلالها مع الإخوة السوريين والفصائل والحركة الوطنية اللبنانية، وأحيانًا كنت أعقد اجتماعات ثلاثية، مرة مع الإخوة السوريين والفلسطينيين، ومرة أخرى مع الفلسطينيين والحركة الوطنية اللبنانية. وقد فوجئت يومًا بأن الرئيس حافظ الأسد يطلبني، فذهبت للقائه. قال لي: "نحن نستغرب مَن نصدّق؟ هل نصدقك أنت أم الأخ معمّر؟"، وعرض عليّ برقية من الأخ معمّر موجهة باللاسلكي إلى جماعة عرفات وحواتمة وحبش، يطلب منهم عدم الانسحاب من منطقة مغدوشة؛ فصعقت من هذا التصرف، وقلت له: "يا أخ الرئيس أنا عارف ماذا أعمل، وقرار وجودي هنا قرار شخصي وليس قرار قيادة، وهو ناتج عن التزامي القومي وحبي وحرصي على سمعة سورية، والتزامي بالحفاظ على الثورة الفلسطينية، وأنت تعرف أن قرار بقائي في سورية وذهابي إلى لبنان عام 1975 كان أيضًا قرارًا شخصيًّا ولم يكن قرار القيادة، بل إن القيادة كانت ضد قراري هذا"، فقال لي: "خلاص، ابق واستمر في مهمتك وستجد منّا كل تشجيع". وبالفعل، وجدت كل تشجيع.

خلال مباحثاتي مع الرئيس الأسد كنت أشاهد في وجهه مشاعر الألم والمرارة مما يجري، كان يقول لي: "الفلسطينيون يشيعون بين الناس أن النساء والأطفال والشيوخ في المخيّمات يأكلون الأعشاب والقطط والكلاب"، ثم يضيف مازحًا: "في الدعاية لا أحد يغلب الفلسطينيين". توصلنا إلى "اتفاقات" محدّدة عدة مرات، وكنت خلالها أطلب طائرة من طرابلس للعودة، وكنت أحزم حقائبي استعدادًا لمغادرة دمشق، وفجأة في آخر لحظة "ينهار الاتفاق"، والسبب كان دائمًا هو عدم الثقة بين الأطراف المتصارعة، وبالطبع بسبب

تدخلات عرفات وتخريبه لأي اتفاق. لكن بفضل التصميم الثوري والإرادة الحديدية وسهر الليالي، بأعصاب باردة وأحيانًا متوترة، وبفضل التمسك بهدف محدد هو وقف المؤامرة وإنهاء حصار المخيمات، نجحت أخيرًا، بعد تسعين يومًا من العمل الشاق. كان فضل شرورو من الجبهة الشعبية - القيادة العامة، وأبو ماهر (أحمد حسين) اليماني من الجبهة الشعبية، وياسر عبد ربه من الجبهة الديمقراطية، قد ذهبوا عدة مرات إلى صيدا للإشراف على تنفيذ الانسحاب، لكنهم لم يتمكنوا من تنفيذ الاتفاق؛ ولذا قررت استدعاء مصطفى سعد، وطلبت منه الضغط على الفلسطينيين، وخاصة جماعة عرفات وجماعة أبو نضال. وبعد ضغوط شديدة حسم مصطفى سعد أمره وتردده، فعقدت اجتماعًا آخر معه ومع الفصائل الفلسطينية. كان مصطفى يتعرض لضغط من سورية، وقد قال للفلسطينيين حرفيًّا: "اسمعوا يا شباب، مجال المناورة أصبح محدودًا وعليكم أن تنسحبوا من مغدوشة إذا أردتم أن تجنبوا شعبكم في المخيّمات المزيد من المآسي، لأن حركة أمل ستضع شرط الانسحاب مقابل رفع الحصار".

كان السوريون منزعجين من مصطفى سعد، ويرفضون استقباله ويقولون إنه "يشتغل مع عرفات" ولصالحه، فطلبت من عبد الحليم خدام أن يستقبل مصطفى سعد. وبالفعل، تمّ ذلك. بدا مصطفى سعد مبتهجًا ومرتاحًا للقاء خدام واعتبر ذلك بداية "رضا" السوريين عنه، وهذا ما شجعه على حسم أمره وتردّده. في السابق كان يرفض الحضور إلى دمشق ويرسل شقيقه أسامة سعد[36] بدلًا منه. واتفقت أنا والفلسطينيون ومصطفى سعد على الانسحاب من مغدوشة والعودة إلى المخيّمات. تعهد مصطفى أن يضغط على جماعة عرفات لكي ينسحبوا مع بقية الفصائل. عاد مصطفى إلى صيدا ومعه عبد ربه من الديمقراطية وأبو ماهر من الشعبية وفضل شرورو من القيادة العامة وأشرفوا على الانسحاب.

كنت أتابع عملية الانسحاب بواسطة جهاز اللاسلكي حتى تمّت بنجاح. لقد كانت أيامًا عصيبة تُدمي القلوب. تعبت وسهرت وأُرهقت، لكنني

(36) أسامة سعد (1954-): سياسي لبناني، وعضو في مجلس النواب، وزعيم التنظيم الشعبي الناصري، وهو ابن السياسي الراحل معروف سعد.

كنت مرتاح الضمير، لأنني قمت بواجبي. وأريد أن أشيد هنا بدور إيران الرائد وحزب الله. كان مشهدًا جميلًا ذلك الذي رأيته، في الإذاعة المرئية [التلفزيون]، شاحنات التموين وهي تخترق الحصار في مخيم الرشيدية، يتقدّمها رجال دين شيعة من إيران وحزب الله. كانت صورًا رائعة، فهم كانوا يعرّضون حياتهم للخطر من أجل أن تصل شاحنات الطحين والأرز.

لقد نجح العمل البطولي الجهادي الذي قمت به بالتعاون مع إيران، ممثلة في حسين شيخ الإسلام وسفير إيران في سورية وحزب الله، في رفع الحصار عن المخيّمات ووقفت الحرب. نعم، لقد قضيت حوالى ثلاثة أشهر بعيدًا عن ليبيا، وهي في حاجة إليّ، حيث كانت أسعار النفط قد انخفضت بنسبة كبيرة، ما أثر هذا في الوضع الاقتصادي، وحيث كانت مرحلة الرئيس ريغن من أصعب مراحل المواجهة مع واشنطن. كانت هناك حرب دعائية واقتصادية وسياسية وعسكرية. وما زاد من مصاعب ليبيا في هذا الوقت هو اندلاع الحرب مع تشاد. اختل التوازن في هذه الحرب لصالح العدو، ومنينا بإخفاقات عسكرية. كان الأخ معمّر يطلب مني العودة، نظرًا إلى كل هذه الأوضاع والظروف التي تمرّ بها ليبيا، ولكنني رفضت حتى تحقيق المهمة المقدسة. في هذا الوقت، لم يكن هناك شيء في نظري يعلو على القضية الفلسطينية، وكنت أقول له: "حينما أقاتل التآمر ضد البندقية الفلسطينية في لبنان، وضد الجماهير الفلسطينية في المخيّمات، فإنني أدافع عن ثورة الفاتح". وأذكر أنني فور وصولي طرابلس عائدًا من دمشق يوم 2 آذار/ مارس 1985، ذهبت إلى سبها مباشرة نظرًا إلى وجود الأخ معمّر هناك. كان هذا يوم الإعلان عن "قيام سلطة الشعب"، وكان يحضر الاحتفال الصادق المهدي رئيس وزراء السودان[37]. وجدت الأخ معمّر غاضبًا مني غضبًا شديدًا، نظرًا إلى فترة الغياب الطويلة عن ليبيا وهي تمرّ بظروف صعبة، ثم طلب من وسائل الإعلام نقل اللقاء بيننا مباشرة على الهواء. وبالفعل، تمّ بث الخبر في وسائل الإعلام الليبية، وكان الغرض من ذلك دحض

(37) الصادق الصديق عبد الرحمن المهدي (1935-2020): سياسي سوداني ورئيس حزب الأمة، تولى منصب رئيس حكومة السودان (1966-1967) و(1986-1989).

الشائعات التي راجت في ليبيا، والتي تزعم أن خلافًا نشب بيننا، وأنني قررت العيش في سورية.

كان هناك، بالفعل، قلق حقيقي في أوساط الجماهير الليبية بسبب هذه الشائعات، وهذا عينه ما حدث قبل ذلك بسنوات (1975) حين مكثت ثلاثة أشهر في بيروت؛ وهو الأمر الذي اضطرّ معه الأخ معمّر إلى الإعلان أن عبد السلام جلود يقوم بـ"مهمة قومية" وتاريخية في لبنان، نافيًا الشائعات التي راجت آنذاك حول سبب غيابي عن ليبيا.

لم يكن الوضع الخطير الذي وصلت إليه الثورة الفلسطينية والقضية الفلسطينية وليد اليوم، أو مصادفة. لقد تمّ "تمرير" الثورة الفلسطينية ومنظمة التحرير عبر "حمامات تبريد" قصد ترويضها وتطويعها. وإذا كانت الديمقراطية والتعليم هما أهم عاملين في تقدم الشعوب ونهضتها، فإن الديمقراطية هي الشرط الأساسي والضروري لنجاح أي حركة تحرير في تحقيق أهدافها. وقد نتج من هذه الحمامات الباردة شخصنة الثورة الفلسطينية، ومنظمة التحرير وحركة فتح باعتبارها الحركة الأساسية في الثورة الفلسطينية، قبل أن تنافسها حركة حماس؛ بمعنى أنها أصبحت رهن إرادة شخص واحد. وبدلًا من تفعيل مؤسسات الثورة ومؤسسات منظمة التحرير، جرى إضعافها عن قصد. وتمّ أيضًا تغييبها وتجميدها، وصارت أشكالًا "ديمقراطية ديكورية" تستحضر عند الحاجة إلى إضفاء الشرعية على القرارات الفردية، وحل "القائد" محل هذه المؤسسات، متناسين أن القائد الحقيقي هو الذي يكون من حوله القادة، لا أتباع ومجاملون ومباركون. وصارت منظمة التحرير تحاكي النظام الرسمي العربي في سلوكه وتزييفه وسطوته. لقد أهملت تعبئة الشعب الفلسطيني على طريق التحرير والعودة، وربط حلقاته الثلاث بعضها ببعض: فلسطينيون داخل فلسطين المحتلة، والفلسطينيون في مخيمات اللجوء في دول الجوار، والفلسطينيون في المهجر. وظهرت ثقافة و"قناعة" أن الكفاح المسلح والعمل الفدائي لم يحققا شيئًا ولم يقرّبنا من التحرير، ومن ثمّ فلنجرّب المفاوضات؛ وهنا بدأت عملية تمهيد أرضية للانحراف، وبدأ التعامل مع

المبادرات السياسية الوهمية التي تروّج لها قوى الاستسلام العربي والولايات المتحدة والغرب.

إن تجارب التاريخ تقول لنا إن المبادرات التي تنطلق من موقف الضعف لا تحقق أي شيء؛ المبادرات التي تحقق النجاح هي التي تنطلق من موقف القوة. لقد جرى افتعال تناقض بين البندقية والسلام والعمل السياسي، مع أنه لا تناقض بينها؛ فالبندقية تدعم العمل السياسي، والعمل السياسي يوفّر الأرضية للبندقية. لقد جرى التفريط في أهم عوامل القوة، وهي الوحدة الوطنية الفلسطينية، و"وحدة الهدف والبندقية" تحت وهْم "السلام". وظهرت شعارات تقول إن هذه المرحلة ليست مرحلة العمل الفدائي، بل مرحلة النضال الشعبي السلمي، والتاريخ يعلّمنا أن الانتصار يتحقق بوضع استراتيجيا تعتمد كل هذه الأساليب.

كان من نتاج حمامات التبريد هذه اتفاقات أوسلو، والتي هي أخطر من "كارثية"، لأنها أنتجت السلطة الوطنية الفلسطينية. إنها سلطة من دون سلطة، أو هي في أحسن الأحوال "سلطة بلديات" تخلّص فيها العدو من مسؤوليته بصفته سلطة احتلال تجاه شعب محتل، ووجدت منظمة التحرير نفسها مشغولة بتوفير احتياجات الناس الحياتية والضرورية، بدلًا من أن تهتم بتعبئة الشعب وإعادة بناء مؤسسات ديمقراطية حقيقية، والبحث في كيفية تصعيد الكفاح المسلح والعمل الفدائي. وهكذا دخلت في متاهات المنطقة "أ" والمنطقة "ب" والمنطقة "ج"، وانخرطت أجهزة السلطة في توحيد جهودها مع جهود أجهزة العدو لقمع الشعب الفلسطيني وحراسة الكيان الصهيوني. إنها الطامة الكبرى؛ لأن المطلوب منها أن تقدّم شهادة حسن سيرة وسلوك إلى المجتمع الدولي، "أي أميركا"، لكي تُقبَل طرفًا في "مفاوضات عبثية".

إن قلبي وعقلي يرتعشان من الزج باسم سيدنا النبي إبراهيم عليه السلام في هذا الظلم الصارخ الذي ما بعده ظلم، وهو ما عرف بصفقة القرن واتفاقيات التطبيع مع العدو التي وقعت بينه وبين الإمارات والبحرين. إن سيدنا إبراهيم عليه السلام براء من هذه الترهات وروحه عند خالقها ترتعش من هذا التزييف، ولو قدر له أن يكون على قيد الحياة لدمّر هذه الأصنام التي تتآمر على قضية

فلسطين والأمة العربية والإسلام، كما دمّر أصنام الوثنية. وأقول للمبتهجين بهذا الظلم، إضحكوا، إنكم ستضحكون قليلًا لأنكم ستبكون كثيرًا؛ لأن هذا الكيان المُصنّع في الغرب سينتهي إنْ توقف عنه الدعم الأميركي والغربي.

وفي النهاية أقترح تأسيس صندوق أهلي يقوم على الزكاة والتبرعات لدعم صمود الشعب الفلسطيني، وأن تكون له فروع في كل مدينة وقرية في العالم العربي والإسلامي، كي تستعيد الجماهير العربية والإسلامية قضية فلسطين وتعيشها واقعًا عمليًّا، كما كانت الحال مع الثورة الجزائرية. وأدعو الرموز والقيادات الوطنية والقيادات الدينية والفاعلين الاجتماعيين إلى تبني هذا المشروع والدعوة إليه والترويج له، واعتبار ذلك قضية جهادية بامتياز ووضع الآليات التي تضمن قيامه على أرض الواقع.

المواجهة بين حافظ الأسد وشقيقه رفعت

في أواخر الثمانينيات، تعرّض الرئيس السوري حافظ الأسد لنوبة قلبية حادة ألزمته الفراش. وفي موقف خسيس وانتهازي، قرّر شقيقه رفعت الأسد، وكان قائدًا لقطعات عسكرية تسمى "سرايا الدفاع" – وهي بمنزلة جيش موازٍ للجيش الوطني – تنفيذ "انقلاب" عسكري. فذهبت فورًا إلى دمشق. توجهت من المطار إلى المستشفى حيث يرقد الرئيس الأسد، فوجدته في حالة صحية صعبة، إضافة إلى أنه كان يعيش حالة ألمٍ ومرارة من موقف شقيقه رفعت. قال لي الرئيس الأسد: "أنت يا أخ عبد السلام وليبيا الوحيدون الذين يمكنهم إنقاذ سورية من الدمار الذي ينتظرها"، ثم أضاف: "هو لن ينجح في مؤامرته، ولكننا سنخرج منها محطمين، أرجوك يا عبد السلام أن تبذل كل ما تستطيع من جهد للسيطرة على هذا الوضع، وإقناع رفعت بالتراجع عن موقفه هذا. اضغط عليه للخروج من سورية والذهاب إلى أوروبا للعيش فيها"، ثم أردف قائلًا: "سحبنا ثلاث فرق من الجولان لمواجهته. هذا وضع خطير". وفي طريقي من المستشفى إلى الفندق رأيت عشرات الدبابات والمدرّعات، لكلا الطرفين، وهي تواجه بعضها بعضًا.

طوال سنوات سابقة، كنت أزور دمشق بانتظام، لكنني لم ألتق رفعت الأسد قَط. كان لدي "موقف" منه ومن سلوكه وتصرفاته، ولكنني وجدتني في موقف يفرض عليّ أن أجتمع به. اتصلت برفعت هاتفيًّا وقلت له: "يا رفعت، طوال هذه السنوات كنت أزور سورية وأنت حتى لم تجرب الاتصال بي"، فردّ علي قائلًا: "أنت والأخ معمّر لديكما موقف مني؛ بينما كنت أرى فيكما القيادة القومية للأمة"، فقلت له: "أنا في طريقي إليك". وحين التقيت مع رفعت، استغرق اللقاء الأول بيننا عدة ساعات تخللها عشاء عمل. طوال ساعات اللقاء، كنت شديد القسوة في الحديث معه، وقلت له: "كيف تسمح لنفسك باستغلال ظروف مرض شقيقك. لقد وضعت نفسك في موقف دنيء وأعمى لا يبصر المخاطر. كان الواجب يتطلب منك أن تكون إلى جواره في المستشفى لا أن تنفذ انقلابًا. والآن يا رفعت توقف عن هذا التصرف واسحب القوات وجنّب سورية التدمير". اتفقنا خلال اللقاء على عقد سلسلة لقاءات معمّقة لدراسة الوضع وإيجاد الحلول، ثم عانقني مودّعًا، وقال لي: "من قبل كان لي أخ، والآن لدي اثنان"، فقلت له: "ومَن هما؟"، فقال: "الأمير عبد الله بن عبد العزيز وأنت"، فقلت له: "لا، عليك أن تختار إمّا أنا وإمّا الأمير"، فضحك، والأكيد أنه اختار الأمير عبد الله.

ومع ذلك، وفي هذه الأجواء المشحونة والمتوترة، تواصلت اللقاءات اليومية بيننا ليلًا ونهارًا، كنت خلالها أقوم بتكثيف الضغوط عليه للتراجع. وخلال هذه اللقاءات كنت أحرص على زيارة الرئيس الأسد في المستشفى يوميًا وعقب كل لقاء، كان يقول لي: "هذه مهمة قومية وأنت أهل لها يجب عليك ألا تكلّ ولا تملّ". وبالفعل، وخلال أسبوع كامل مارست كل وسائل الضغط على رفعت ووصل بي الأمر حدّ تهديده، وأخيرًا بدأ يلين وتظهر بوادر على تغير في مواقفه. في لقاء حاسم بعد نهاية أسبوع كامل من اللقاءات اليومية، سألني: "وكيف أغادر سورية إلى الخارج. أنا مُتهم بأنني عميل سعودي وعميل أميركي"، فقلت له: "إذا استمررت في مؤامرتك ونفذت الانقلاب ودمرت سورية فسوف تبرهن للجميع أنك عميل سعودي وأميركي؛ أما إذا ضحيت بنفسك في سبيل سورية فسوف تؤكد للجميع أنك رجل وطني ولست عميلًا".

في أثناء هذا الحوار الساخن، قال لي بصراحة: "وماذا سوف تقول عني أسرتي لو أنني قررت مغادرة سورية، سوف يلحق العار بي وبأسرتي. أنت تعلم أن أسرتي مؤلفة من 48 فردًا، ولذلك سوف أطلب مبلغ 200 مليون دولار لأؤمن على أسرتي في الخارج؛ كما أنني لن أغادر سورية إذا ما كانت هناك تهمة الرجعية أو العمالة موجهة إلي"، فقلت له: "قبل أن تخرج إلى أوروبا سوف نرتب لك زيارة للاتحاد السوفياتي لنفي أي تهمة عنك".

عقب هذا اللقاء، ذهبت مسرعًا إلى زيارة الرئيس الأسد في المستشفى، ونقلت له ما دار بيني وبين رفعت من نقاش، وأنه يرغب في "النفي الطوعي" في أوروبا، لكنه اشترط أن يحصل على 200 مليون دولار. فقال الرئيس الأسد "ليس لدينا ما يكفي من العملة الصعبة. هل ليبيا مستعدة لدفع هذا المبلغ لتحافظ على سورية وتحول دون تدميرها؟" فقلت له: "نحن لا نستطيع أن ندفع المبلغ مباشرة لرفعت، لكن يمكن تقديم هذا المبلغ كمساعدة من ليبيا لسورية، وعليكم أن تتصرفوا". وبالفعل، اتصلت بأحمد رمضان وطلبت منه أن يرسل رجب المسلاتي محافظ مصرف ليبيا المركزي بطائرة صغيرة خاصة. وحين وصل محافظ المصرف إلى دمشق، اجتمعت به وأبلغته أنني قررت منح سورية هذا المبلغ، وطلبت منه لقاء محافظ مصرف سورية المركزي وتوقيع الاتفاقية. وهكذا، أنجزت مهمتي القومية الصعبة والمعقّدة في سورية بمنع رفعت الأسد من تنفيذ انقلابه، كما ساهمت في ترتيب أمر سفره إلى الاتحاد السوفياتي، ثمّ انتقاله نهائيًا إلى أوروبا.

وحدث أنني التقيت بشخص لبناني أرمني على علاقة وثيقة برفعت اسمه إيلي، وعلمت من حديثه معي أن رفعت يعامله بقسوة وبتعالٍ لا مثيل لهما، ولمّا التقينا مصادفة ورأى في شخصي رجلًا بسيطًا ومتواضعًا، عقد في أعماق نفسه مقارنة بيننا؛ ولذا قال لي: "أنا لا أعرف ليبيا ولا الليبيين، ولكن إذا كان الليبيون مثلك فأنا أحبّ ليبيا والليبيين". وفي سياق هذا الحديث قال لي: "أنا رئيس مجلس إدارة شركة "تام أويل" التي يملكها رجل أعمال برازيلي من أصول لبنانية اسمه 'تامرت' وشريكه أمين الجميّل. الشركة تملك مصفاة

في إيطاليا طاقتها 160 ألف برميل يوميًّا ولديها ثلاثة آلاف ميل من خطوط الأنابيب عبر أوروبا لنقل المشتقات النفطية، كما تملك محطات توزيع وقود تنتشر في بلدان أوروبية كثيرة. الشركة مهدّدة بالإفلاس، نظرًا إلى أنها مدينة للمصارف الأوروبية بمبلغ 60 مليون دولار. وبدلًا من أن تشتريها أوروبا، فمن الأفضل أن تشتريها ليبيا. وفي حال اشترتها ليبيا، فأنا أرغب في شراء 15 في المئة من الأسهم".

وعلى الفور اتصلت بأحمد رمضان في طرابلس، وطلبت منه أن يرسل طائرة خاصة إلى دمشق تحمل كلًّا من رجب المسلاتي ومحمد سيالة ومحمد عبد الجواد، ولما وصلوا اجتمعت بهم وقلت: "لن نتحدث في السياسة. إذا كان في مصلحة ليبيا شراء هذه الشركة اشتروها". وبالفعل، تمّت صفقة الشراء. في الواقع اشترينا الشركة بدولار واحد، وتكفلت ليبيا بسداد 60 مليون دولار للمصارف الأوروبية. بيد أن الفريق المفاوض رفض أن يمتلك السيد إيلي 15 في المئة من الأسهم. بعد سبعة أشهر فقط، وصلت قيمة أسهم الشركة "تام أويل" إلى 1,7 مليار دولار، وبعد سنتين وصلت قيمة الشركة إلى 3 مليارات دولار. ثم بعد خمس سنوات أصبحت قيمة أسهمها 5 مليارات دولار. وكانت هذه ثانية أعظم الصفقات الرابحة التي حققتها ليبيا بعد الثورة، بعد صفقة شركة "فيات"[38].

(38) "فيات"، وتعرف أيضًا بـ"مجموعة فيات" (FIAT أو FIAT Group): هي شركة سيارات إيطالية، واسمها اختصار لاسم مصنع السيارات الإيطالي بتورينو (Fabbrica Italiana Automobili Torino)، ويقع مصنعها الأساسي في تورينو. تضم المجموعة عدة شركات، وتمتلك حاليًّا ما نسبته 20 في المئة من شركة كرايسلر الأميركية، واشتهرت بصناعتها للسيارات الصغيرة والاقتصادية.

الفصل الخامس

حركة الثورة: محطات عربية

ليبيا وتحرير الصحراء الغربية

في عام 1972، أعلن الأخ معمّر القذافي، بحضور الرئيس هواري بومدين، تشكيل الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب "البوليساريو" لمقاومة الاحتلال الإسباني للصحراء الغربية[1]، بقيادة المجاهد والثوري الصلب الولي مصطفى السيد الرقيبي[2]. كان هذا الإعلان مفاجأة للرئيس بومدين الذي قابله بابتسامة ساخرة فيها شيء من الاستهزاء. كنّا نرسل السلاح إلى البوليساريو عن طريق التهريب، وكثيرًا ما نجحت سلطات المغرب والجزائر وموريتانيا في اكتشاف الأسلحة المهربة ومصادرتها، وغالبًا ما كانت تحتج علينا بشدّة؛ لأنها كانت ضد تأسيس هذه الجبهة وتحرير الصحراء. ذهبت لمقابلة ملك المغرب الحسن الثاني بن محمد، وطلبت منه أن نتبنى معًا جبهة البوليساريو وقضية الصحراء، فردّ عليّ الملك الحسن الثاني: "سي جلود، أنا عندي من القنابل والمفرقعات (أي المشكلات) ما يكفيني. الصحراء ليست مغربية". ثم قمت بزيارة إسبانيا عام 1973، وقابلت الجنرال فرانشيسكو

(1) تقع الصحراء الغربية في غرب القارة الأفريقية على امتداد شواطئ المحيط الأطلسي. يحدها من الشمال المملكة المغربية، وتحدها الجمهورية الموريتانية من الجنوب، والجزائر من الشرق، وتتقاطع معها في منطقة تندوف، وتقدر مساحتها بنحو 266 ألف كيلومتر مربع. وعلى الرغم من أن الإقليم معظمه صحراء يسكنه شعب يعاني الفقر وتدهور البنية التحتية والحالة الاقتصادية، فإن له أهمية استراتيجية؛ إذ إنّه غني بالثروة السمكية لامتداده علي المحيط الأطلسي، ويزخر الإقليم بالعديد من المعادن، وعلى رأسها الفوسفات والغاز الطبيعي، فضلًا عن اليورانيوم والرصاص والحديد.

(2) مناضل صحراوي قاوم الاستعمار الإسباني، ويُعتبر من مؤسسي جبهة البوليساريو وأحد أبرز الشخصيات الوطنية الصحراوية، أعلن قيام "الجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية" في 27 شباط/ فبراير 1976، بدعم من الجزائر وليبيا. وتوفي في عملية عسكرية شمال اكجوجت الموريتانية على بعد مئتَي كيلومتر.

فرانكو (1892-1975)[3]. وخلال اجتماعي به، أقام غداء عمل استمر 6 ساعات. قلت له حرفيًّا: "يجب ألا تترك للشعب الإسباني القنابل الموقوتة والألغام. يجب أن تقوم بتفجير أكبر عدد منها، وعلى رأسها الصحراء الغربية. من الضروري الانسحاب منها باعتبارها أرضًا عربية، خاصة أن العرب المغاربة حاربوا معك خلال الحرب الأهلية"، فهزّ رأسه وابتسم قائلًا: "الصحراء الغربية ليست معطفًا تلبسه متى تشاء وتخلعه متى تشاء. أعطوني وقتًا لإعداد الرأي العام وتهيئة الشعب الإسباني لقبول قرار من هذا النوع".

وبالفعل نجحت ثورة الفاتح من سبتمبر العظيمة في تحرير الصحراء الغربية من الاحتلال الإسباني، لكن الحسن الثاني كان يعارض بشدّة تأسيس البوليساريو، وفي غالب الأحيان كان الغرب يخشى أن تشكل الصحراء الغربية "انفجارًا ثوريًّا" في خاصرة المغرب وموريتانيا، قد يستغله النظام الثوري في ليبيا والجزائر؛ ولذا طلب الغرب من المغرب أن يقطف النصر والفوز على الأقل حتى لا تتحول الصحراء التي خسرها الغرب إلى انفجار ثوري، ثم قام الملك الحسن الثاني بإطلاق ما سماه "المسيرة الخضراء"[4]، وتقاسمت موريتانيا والمغرب الصحراء الغربية، واعتبراها غنيمة من دون مراعاة مشاعر الصحراويين الذين قاتلوا واستشهدوا أو جرحوا. أدّى ذلك إلى تعزيز موقف الرئيس بومدين الذي انضمّ إلينا، حين تبنّت الجزائر حركة البوليساريو معنا.

(3) قائد انقلاب عام 1936 الذي أطاح الجمهورية الإسبانية الثانية؛ ما قاد إلى اندلاع الحرب الأهلية الإسبانية. وقد حكم إسبانيا حكمًا دكتاتوريًا (1939-1975)، ملقبًا نفسه بالكوديو أو الزعيم، واستمر في هذا المنصب حتى وفاته عام 1975، وترأس الحكومة الإسبانية أيضًا (1938-1973).

(4) المسيرة الخضراء: اعتبرت الجمعية العامة للأمم المتحدة، في 13 كانون الأول/ ديسمبر 1974، أن استمرار الوضع الاستعماري في الصحراء سيهدد الاستقرار في منطقة شمال غرب أفريقيا، وطلبت الجمعية العامة من محكمة العدل الدولية أن تبتّ في الوضع القانوني للصحراء الغربية. وقد دعت المحكمة، في 16 تشرين الأول/ أكتوبر 1975، إلى تطبيق قرار الجمعية العامة 1514 على نحو يتمتع فيه سكان الصحراء بحق تقرير المصير. وفي اليوم نفسه الذي أصدرت فيه محكمة العدل الدولية رأيها، أعلن الملك الحسن الثاني، من خلال خطاب ألقاه بمدينة مراكش، عن تنظيم مسيرة سلمية لاسترجاع الأقاليم الصحراوية الجنوبية، ووضع حدٍّ للاستعمار الإسباني؛ إذ انطلقت يوم الخميس 6 تشرين الثاني/ نوفمبر 1975 نحو الأراضي الصحراوية المغربية بهدف استرجاعها وإنهاء الاستعمار الإسباني فيها. شارك فيها 350 ألف مغربي ومغربية، وتُعتبر حدثًا تاريخيًا مهمًّا في تاريخ المغرب المعاصر.

وهكذا توحّد موقف ليبيا والجزائر وحركة البوليساريو ضد المغرب وموريتانيا، رغم اختلاف الأهداف والأسباب. كانت الأسباب بالنسبة إلى ليبيا أسبابًا قومية تتصل بمواجهة إسبانيا، ولأن الصحراء أرض عربية. كان الرئيس بومدين يريد أن تظل حركة البوليساريو حركة تحرير، بينما كانت ثورة الفاتح ترغب في إعلان قيام الجمهورية الديمقراطية الصحراوية التي أعددنا دستورها في طرابلس مع الرفيق الولي الرقيبي قائد الجبهة، وبقية القادة. كان بومدين معارضًا لإعلان الجمهورية، فاتصل به الأخ معمّر وأقنعه وطلب منه أن تعلن الجزائر اعترافها بها، ثم بعد 24 ساعة تعلن ليبيا اعترافها بها أيضًا. وهكذا أعلنت الجزائر اعترافها، ولكننا نحن الذين أخللنا بالوعد، فلم نعترف بالجمهورية. لقد عارضت بقوة هذا الموقف الذي خذلنا فيه الجزائر والبوليساريو، والذي لم يحترم فيه معمّر كلمته.

كنت أشعر بالخجل. ومع ذلك، حصل تعاون وثيق بيننا لدعم الجمهورية الصحراوية، فكنّا نقدم السلاح والأموال، وكانت الجزائر تقدم التدريب والدعم السياسي والإعلامي. وبحكم الجغرافيا، سخّرت الجزائر أرضها وإمكانياتها لدعم الجمهورية الديمقراطية الصحراوية. ولكن نظرًا إلى أن ثورة الفاتح كانت تقاتل نصف العالم، أي العالم الغربي بقيادة الولايات المتحدة الأميركية والقوى الرجعية والعميلة والصهيونية، فقد ازداد الضغط الغربي والرجعي على الثورة. ولأن المعركة كانت تفوق إمكانيات الشعب العربي الليبي المادية والتنظيمية والإدارية، بل حتى الثورية والبشرية؛ فقد حاول الغرب بقيادة الولايات المتحدة محاصرة ليبيا بواسطة عملائه من العرب، أي جعفر النميري ومحمد أنور السادات والحبيب بورقيبة ونظام العراق. كانت واشنطن تحاصرنا من الشمال وفرنسا من الجنوب، وقد نشط المغرب في التآمر علينا؛ ما اضطر الثورة إلى الدخول في مناورات، بل حتى مساومات، وتبنى النظام الإقطاعي الملكي بعض العملاء الليبيين، كما حشد المغرب النظم العميلة في أفريقيا ضدنا. وقد فرض علينا هذا الأمر أن ندخل في بعض الصفقات مع المغرب، وهو ما أثّر فينا وتسبب في تراجعنا عن وعدنا بالاعتراف بالجمهورية الديمقراطية الصحراوية. لقد خضنا نضالًا مريرًا لإسقاط النظام الإقطاعي في المغرب، بيد أن الجزائر

كانت تخذلنا على الدوام، وكثيرًا ما طلبنا منها أن تشاركنا محاولاتنا لإسقاط هذا النظام الإقطاعي، لكنها ظلت متردّدة.

ثم حاولنا تشكيل تنظيمات ثورية في المغرب، وتشجيع الحركات الثورية والمعارضين المؤمنين بالعنف الثوري، كما حاولنا إقناع الجزائر بتأسيس حركة ثورية تنطلق من الأراضي الجزائرية. لقد ظلت الجزائر مصرّة على الرفض، مُعللة الأمر بعدم وجود حركات ثورية، وكنّا نقول للإخوة الجزائريين "لا بد من أن يقوم مغرب عربي ثوري، وإن واجب الثورة في ليبيا والجزائر هو تثوير الواقع المغربي وتفجير الثورة في المغرب"، وأكدنا لهم أيضًا "أن قيام مغرب عربي غير ممكن من دون تحرير طاقات الشعب المغربي، لما للمغرب من إمكانيات تاريخية وثقافية ونضالية وبشرية واقتصادية". كانت المشكلة تكمن في أن الثورة الجزائرية هي ثورة تحرير، ولم تكن مهيأة لخوض الثورة الاجتماعية في الوطن العربي، وهذه نقطة ضعف كبيرة فيها، على الرغم من تطورها الهائل من ثورة تحرير إلى ثورة اجتماعية في الداخل. وأعتقد أنّ هناك سببًا آخر، قد يكون "أنانيًّا"، فالجزائر كانت تخشى انتقال القيادة إلى المغرب؛ لأن القيادة الجزائرية تعتبر أنها "مربط الفرس" ولها الأحقية في قيادة المغرب العربي. وخلال أحداث الصخيرات "أو الانقلاب"[5] الذي قامت به مجموعة من الجيش المغربي، اتصل الأخ معمّر بالرئيس بومدين، وطلب منه أن تقوم الجزائر بتقديم الدعم العسكري لمساعدة هذه المحاولة وإنجاحها، وضرورة ألا تسمح لها بالفشل، وقرّرنا القيام بما يشبه المغامرة. بيد أن بومدين، رفض طلبنا، ثم طلبنا منه أن يسمح لقواتنا الجوية باستعمال المطارات الجزائرية فرفض، ثم طلبنا منه أن تقوم قاذفاتنا الاستراتيجية بعبور الأجواء الجزائرية لضرب الإذاعة المغربية والقصر الملكي وبعض الأهداف، فرفض.

في سياق هذه الأحداث، كان العدوان على الثورة في ليبيا يشتدّ، وتشتدّ معه

(5) انقلاب الصخيرات أو "انقلاب 1971": هو محاولة انقلابية فاشلة ضد الملك الحسن الثاني، في 10 تموز/يوليو 1971، مدعومة من ليبيا. قادها الكولونيل أمحمد أعبابو قائد مدرسة أهرمومو العسكرية، والجنرال محمد المدبوح.

الضغوط الدعائية والاقتصادية والسياسية من الشمال والجنوب والغرب والشرق، فدخلت الثورة في مساومات مع النظام الملكي المغربي الذي بدأ يستقبل ما يسمى "المعارضة الليبية"، وكان من نتيجة ذلك استمرار عدم الاعتراف بالجمهورية الصحراوية، فأوقفنا عنها الدعم. كنت ضد عدم الاعتراف وضد إيقاف الدعم. ثم سعينا لعقد مؤتمر منظمة الوحدة الأفريقية في طرابلس، ولكن الولايات المتحدة قرّرت منع عقد هذا المؤتمر، وأعلنت أنها لن تسمح للثورة بتحقيق نصر سياسي بترؤس ليبيا لمؤتمر القمة الأفريقية، وأصدرت الأوامر لعملائها بعدم الموافقة على الحضور. وقد قالها رئيس جمهورية تنزانيا جوليوس نيريري (1922-1999) صراحة لي، حينما استقبلته في المطار: "ما كنت سأحضر شخصيًّا، لأن أميركا طلبت مني عدم الحضور؛ لذا قررت الحضور على الرغم من أنني أعرف أنكم لن تحصلوا على النصاب القانوني لعقد المؤتمر".

ونظرًا إلى تدخلنا في تشاد ووقوفنا مع جبهة التحرير الوطني "فرولينا" بقيادة كوكوني عويدي ضد حسين هبري، وتأييدنا للجمهورية الصحراوية ودعمنا إيّاها بالمال والسلاح، ونظرًا إلى إصرارنا، مع الدول الأفريقية، على ضرورة عدم حضور هبري اجتماع القمة، ونظرًا كذلك إلى أهمية عقد القمة في ليبيا وترؤسها لمنظمة الوحدة الأفريقية، فقد قاومت الولايات المتحدة وعارضت بشدة، عقد المؤتمر في طرابلس، وشكلت كتلة من الدول الرجعية في أفريقيا بقيادة المغرب وزائير والسنغال وساحل العاج ومصر، لتحقيق هذا الهدف، واستخدمت ورقة الصحراء الغربية، على الرغم من اعتراف منظمة الوحدة الأفريقية بالجمهورية الصحراوية.

كنا مصرّين على عقد المؤتمر، لنكشف أبعاد القرار الأميركي. لقد قررنا أن نطلب من الجمهورية الصحراوية أن تعلن عدم حضورها طوعيًّا. اجتمعت، لهذا الغرض، مع محمد عبد العزيز[6] رئيس الجمهورية الصحراوية وشرحت له

(6) وُلد بمدينة قصبة تادلة المغربية في 17 آب/ أغسطس 1947، تابع دراسته الثانوية بمدينة مراكش والجامعية في مدينة الرباط، وهو أحد مؤسسي جبهة البوليساريو، وقد شغل منصب الأمين العام للجبهة ورئيس "الجمهورية العربية الصحراوية" حتى وفاته عام 2016.

الموقف، وأن المعركة هي ضد الولايات المتحدة التي كانت تقاوم عقد المؤتمر. ونظرًا إلى التضحيات التي قدمها الشعب الليبي، طلبت منه أن تقرر الجمهورية الصحراوية عدم الحضور، وقلت له: "إن لم تقوموا بهذه الخطوة، فإنكم سوف تجازفون بخسارة ليبيا، وإنّ من مصلحة الجمهورية الصحراوية استمرار ثورة الفاتح في مواجهة أميركا والغرب والدول الرجعية، وإنّ الصحراء لا يحرّرها حضور مؤتمر أو عدم حضوره؛ والأهم هو دعم ليبيا واستمرار الثورة قوية". ونظرًا إلى الموقف الأميركي، وموقف الجمهورية الصحراوية الذي كانت تختفي خلفه الدول الرجعية الأفريقية، فشلت المحاولة الأولى، واتفقنا على تأجيل المؤتمر، وبذل الجهود لمحاولة أخرى، ومع ذلك فشلت المحاولة الثانية للأسباب الظاهرة والخفيّة نفسها، وكادت المنظمة تنقسم إلى منظمتين: تقدمية ورجعية. لكن نيريري والرئيس الزامبي كينيث كاوندا (1924)[7] بذلا جهودًا كبيرة للمحافظة على وحدة المنظمة، وتمّ الاتفاق على عدم حضور الجمهورية الصحراوية وتشاد للمؤتمر، فقال نيريري مازحًا: "هذا الاقتراح يرضي التقدميين والرجعيين".

بيد أن الجزائر والجمهورية الصحراوية أصرّتا على موقفيهما. ثم تشكلت لجنة من سبع دول لتقرير مسألة مكان عقد المؤتمر، من بينها ليبيا وإثيوبيا وكينيا وزامبيا، وعقدت اللجنة اجتماعها في كينيا. حضرت الاجتماع ممثلًا لليبيا، وحضر بقية الرؤساء عن الدول الست الأخرى. قررت اللجنة عقد المؤتمر في دولة المقر، كما قررت عدم حضور الجمهورية الصحراوية وتشاد، وأن تختار ليبيا لرئاسة منظمة الوحدة الأفريقية، ولكنني أصررت على أن يأتي كوكوني عويدي إلى أديس أبابا لشرح وجهة نظر حكومته. طلب مني نيريري وكاوندا والرئيس الإثيوبي منغيستو هيلا مريام (1937-) أن أُقنع العقيد معمّر بالحضور إلى أديس أبابا، مقابل تعهد بضمان اختياره لرئاسة المؤتمر، وقد عقدت اجتماعًا ثنائيًا مع منغيستو، ووضعنا خطة لإنجاح اختيار ليبيا؛ لأن القرار سيكون شبه ملزم للرؤساء في المؤتمر. ووعدتُ جوليوس نيريري[8]

(7) توفي الرئيس كاوندا في عام 2021.

(8) رئيس جمهورية تنزانيا (1964-1985).

وكينيث كاوندا[9] ومنغيستو هيلا مريام بإقناع الأخ معمّر حضور المؤتمر؛ لأنه كان يرفض بقوة. اتفقنا على ممارسة ضغط على الجزائر والجمهورية الصحراوية. وبالفعل، حملت هذه التأكيدات إلى الأخ معمّر وأقنعته بالحضور، ثم ذهبت إلى الجزائر للاجتماع مع الشاذلي بن جديد[10] ومحمد عبد العزيز، لأطلب منهما الالتزام بقرار اللجنة. تحدد موعد عقد المؤتمر، وسافر الأخ معمّر إلى أديس أبابا، ولكن الأمور سارت بعكس الاتفاق بسبب الفيتو الأميركي، وتمّ استبعاد الصحراء الغربية لكي يعقد المؤتمر بالشروط الأميركية.

كان رد فعل الأخ معمّر حادًّا واتسم بالغضب الشديد؛ إذْ من المؤكد أن منغيستو ونيريري وكاوندا، وبقية الرؤساء، رضخوا للأوامر الأميركية، أي ألّا تتولى ليبيا رئاسة المنظمة. اتصل الأخ معمّر برئيس الجمهورية الصحراوية محمد عبد العزيز، وطلب منه الحضور، لكنه رفض، فغادر الأخ معمّر أديس أبابا بعد أن خذلتنا الجزائر والجمهورية الصحراوية والدول التقدمية الأفريقية التي ضحينا من أجلها ودعمناها بالمال والسلاح والرجال. وعلى إثر ذلك، أوقفنا كل أشكال الدعم عن الجمهورية الصحراوية، عدا الجانب الإنساني. كان رد فعلنا قاسيًا جدًّا. وخلال هذه الفترة، جرت اتصالات بين الأخ معمّر والملك الحسن الثاني، وكانا يتبادلان المبعوثين. كان أحمد قذاف الدم ومسعود عبد الحفيظ هما مندوبَي الأخ معمّر. في الواقع لم نكن نعرف أي شيء عن هذه الاتصالات. كانت الاتصالات سرية وشخصية، أمّا الرسمية منها فكانت تجري عن طريق محمد الزوي، المندوب الليبي في المغرب.

وعلمت في ما بعد أن معمّر تخلّى عن الجمهورية الصحراوية مقابل أن يتخلى الحسن الثاني عن دعم هبري في تشاد، ثم فاجأنا الملك المغربي باقتراح تكوين "اتحاد بين المغرب وليبيا". كنّا أمام معادلة صعبة: فمن جهة كيف نرفض الوحدة ونحن دعاة وحدة، وكيف تخاف الثورة من نظام إقطاعي ملكي؟ ومن جهة أخرى، كيف نتوحّد مع نظام إقطاعي ملكي رجعي، إضافة

---

(9) رئيس جمهورية زامبيا (1964-1991).

(10) الشاذلي بن جديد: رئيس الجمهورية الجزائرية (1979-1992).

إلى أنّ الملك هو مهندس الاستسلام والاعتراف بالعدو الصهيوني؟ ومع ذلك، رفضت هذه الفكرة جملة وتفصيلًا. ثم أرسلنا مع الزوي أسئلة للملك: "كيف يمكن توحيد ثورة مع نظام إقطاعي ملكي؟ وهل تسمح لك السعودية بذلك؟ وهل تسمح لك أميركا؟". كان رد الملك كالآتي: "في مواجهة التيارات الفكرية المتطرفة التي تعصف بالوطن العربي والإسلامي، يصبح الاتحاد بين نظامين اجتماعيين، نظام ثوري ونظام ملكي محافظ، أمرًا هامًّا وإيجابيًّا وليس سلبيًّا. أما بالنسبة إلى السعودية، فالقيادة للمغرب، هم يستشيرونني ولست أنا مَن أستشيرهم. أما أميركا، فالمغرب موجود قبل أميركا، وأنا لا آخذ أوامري منها. المغرب هو الذي اعترف بأميركا منذ مئتي سنة".

رغم ذلك، واصلت رفضي، وألقيت كلمة في اللجان الثورية رفضت فيها الفكرة جملةً وتفصيلًا، لكن الأخ معمّر أصرّ على المضي في المشروع. ولأنني رفضت هذا المشروع، فقد أصرّ الأخ معمّر على ألا يظهر هذا الخلاف للعلن، لأنه يُضعف الثورة، وحتى لا نعطي أعداء الثورة أي مبرر لإضعافها، وطلب مني أن نذهب معًا إلى وجدة لتوقيع المعاهدة فرفضت. حاول الأخ معمّر حتى آخر لحظة، إقناعي بالذهاب معه. وحينما حان موعد مغادرته، لم أذهب إلى المطار. لقد اضطرّ الأخ معمّر إلى السفر وحده، وطلب من أبو بكر يونس ومصطفى الخروبي أن يقنعاني باللحاق به وجهزا لي طائرة. وتحت هذا الضغط وافقت على السفر. لما وصلت إلى مكان الاجتماع، قال الأخ معمّر للملك الحسن الثاني: "عبد السلام راكب راسه ورافض لفكرة المعاهدة؛ فإما أن تقنعه أو يقنعك". سلم الملك عليّ قائلًا: "يا أخ عبد السلام ترفض الوحدة وأنت وحدوي؟"، فقلت: "حاولت أن أجد شيئًا يجمعنا بك فلم أجد"، فردّ الملك: "الإسلام"، فقلت: "الإسلام كمفهوم أيديولوجي وسياسي، أنت يمكن أن تفهمه في صورة، وأنا أفهمه في صورة أخرى. أمّا العبادات فهذه قضية شخصية وجدانية بين العبد وربه". جلست إلى جوار الملك وكنت في حالة غضب شديد، ثم تناولنا الغداء، وبعد ذلك وقّع الأخ معمّر والملك الحسن الثاني المعاهدة، فصفق الحضور وامتنعت عن التصفيق. كان الملك يرصدني ولاحظ أنني لم أصفق، فقال: "سي جلود أنت لست وحدويًّا"، فقلت له

بغضب: "إذا كنت أنت وحدويًّا فبكل تأكيد أنا لست وحدويًّا؟ أحدنا بالتأكيد ليس وحدويًّا".

بعد التوقيع خرجنا في جولة عبر شوارع وجدة[11]. خرجت المدينة عن بكرة أبيها شبانًا وشيوخًا، نساء ورجالًا وبصفة عفويّة لتهتف للوحدة. كان من المفترض أن أركب سيارة صحبة رئيس الوزراء، ولكن الأخ معمّر طلب مني أن أكون في السيارة نفسها مع الملك. وفي أثناء تجوالنا في المدينة لاحظت الأعداد الهائلة من الشباب الذين خرجوا يهتفون للوحدة، وكان ذلك سببًا في تغيير موقفي. لقد انقلبت مشاعري من الغضب إلى الإحساس بالنشوة والسعادة لمنظر الجماهير، فهمس الأخ معمّر في أذني قائلًا: "نحن وافقنا على المعاهدة من أجل هذه الجماهير وليس من أجل النظام الملكي. يكفي أن تنجح ثورة الفاتح في خلق هذا المناخ الوحدوي، وأن رياح الوحدة التي تنطلق من ليبيا تعصف بالمغرب العربي". أمضيت أنا والأخ معمّر الليلة في وجدة، وفي الصباح غادرنا إلى الجزائر، وكان الإخوة هناك غاضبين ومنزعجين من المعاهدة. للأسف، العقلية الرسمية الجزائرية لا تريد إقامة وحدة، وفي الوقت نفسه لا تريد أن تكون وحدة مع أيّ قُطر من أقطار المغرب العربي. إنه منطق غريب.

كنا نؤمن بالوحدة مع الجزائر، قبل الوحدة مع مصر عبد الناصر، على الرغم من كل ما يمثله عبد الناصر لنا. وأتذكر أن أول شخص فاتحناه بالوحدة هو بومدين لمّا زارنا أوّل مرة في طريق عودته من أديس أبابا عام 1969. ما إن وصلنا إلى الجزائر حتى عقدنا اجتماعًا مطولًا مع الرئيس الشاذلي بن جديد وأحمد طالب الإبراهيمي وزير الخارجية وأحد مساعديه[12] الذي يشغل

---

(11) معاهدة وجدة: هي المعاهدة المؤسسة للاتحاد العربي الأفريقي، حيث صدر بيان في 18 آب/أغسطس 1984 من مدينة وجدة بالمغرب، معلنًا الوحدة بين المغرب وليبيا. وقام معمّر القذافي بدعوة الدول العربية في عام 1988 للانضمام إلى الاتحاد العربي الأفريقي، معتبرًا إياه بوابة لوحدة عربية شاملة على غرار الاتحاد الأوروبي.

(12) محمد الشريف مساعدية (1924–2002): مناضل في حزب جبهة التحرير الوطني ورئيس سابق لمجلس الأمة. يُعتبر واحدًا من الشخصيات التي كانت مؤثرة جدًّا في حزب جبهة التحرير الوطني والدولة الجزائرية. بعد استقلال الجزائر عام 1962، أصبح محافظًا لحزب جبهة التحرير الوطني

منصب مساعد الأمين العام لجبهة التحرير الجزائرية، وقلنا لهم: "إن الوحدة مكسب للجزائر، انطلاقًا من حقيقة أن أي وحدة تقوم بين قطرين عربيين هي مكسب للأمة العربية"، ثم قلنا: "ليست الوحدة محورًا موجهًا ضد الجزائر، وليست بديلًا من الوحدة معها". حاولنا استفزازهم لتشجيعهم على الوحدة: "لقد حاولنا كثيرًا لكي نحقق الوحدة مع الجزائر، لأنها هي الوحدة الثورية التي نؤمن بها، وعطّلنا محاولاتنا الوحدوية مع الآخرين، لأننا نؤمن بأن الوحدة مع الجزائر لها أسس أيديولوجية ونظرية وثورية. وإذا ما قامت وحدة ثورية بين ليبيا والجزائر، فسوف تقود إلى تثوير المغرب العربي وتوحيده".

ومن الجزائر توجه الأخ معمّر إلى ليبيا، بينما توجهت إلى تونس لأشرح للإخوة هناك مضمون المعاهدة، ثم غادرت تونس عائدًا إلى ليبيا. بعد فترة، اجتمع البرلمان الاتحادي في طرابلس برئاسة أحمد عثمان في إثر أسابيع قليلة من توقيع معاهدة وجدة، فاجتمعت بهم وافتتحت الجلسة بكلمة قلت فيها: "إن معاهدة وجدة مثل الإناء الفارغ، أي إنّها إطار من دون محتوى"، وأضفت: "ولكن إن توافرت الإرادة السياسية واكتسبت الجماهير في البلدين المزيد من الحيوية، فيمكن عندئذٍ أن نملأ الإناء الفارغ بالماء، وإعطاء هذا الإطار المحتوى المطلوب". بيد أن الحسن الثاني سرعان ما قام بتحطيم هذا الإطار، حينما انتهى من استخدامه واستنفد أغراضه وتحت الضغوط الأميركية الشديدة من إدارة رونالد ريغن؛ إذْ صرح قائلًا: "كنت محتاجًا للأوكسجين، وقد جاءني من على بعد 4000 كيلومتر". ولما لم يعد محتاجًا إلى الأوكسجين، استضاف الإرهابي شمعون بيريز[13]، وسبح معه في البحر، متحديًا إرادة الشعب المغربي

بكولومب بشار بين عامَي 1962 و1963 وعنابة عام 1964. كان نائبًا في المجلس الشعبي الوطني عن دائرة الساورة عام 1962 وعضوًا في اللجنة المركزية للحزب منذ 1964. تقلد مسؤولية دائرة التوجيه والإعلام باللجنة المركزية (1967-1977)، قبل أن يعيّن منسقًا للحزب، عيّن وزيرًا للمجاهدين في أول حكومة للرئيس الشاذلي بن جديد سنة 1979، لكن سرعان ما عاد إلى الحزب في 15 تموز/ يوليو 1980 ليخلف محمد الصالح يحياوي ويعين خلال عملية إعادة هيكلة الحزب عضو الأمانة الدائمة للجنة المركزية للحزب. توفي في باريس في الأول من حزيران/ يونيو 2002.

(13) رئيس الحكومة الإسرائيلية (1984-1986 و1995-1996)، ثم الرئيس الإسرائيلي (2007-2014).

والشعب الليبي والأمة. لقد وجد الفرصة المناسبة للتخلص من هذا العبء وأعلن من جانبٍ واحد إلغاء معاهدة وجدة. بعد تحرير الصحراء الغربية من الاستعمار الإسباني، اتخذنا قرارًا بتأسيس "حركة تحرير مدينتي سبتة ومليلة"، ثم ذهبت إلى المغرب لمقابلة الملك الحسن الثاني وعرضت عليه الأمر، وقلت له: "إن ليبيا تتعهد بتمويل هذه الحركة بالمال والسلاح"، لكن الحسن الثاني قال لي مرة أخرى: "أنا عندي من القنابل والمتفجرات ما يكفيني"؛ وهكذا ضاعت فرصة تحرير هاتين المدينتين. بيد أنهما ستتحرران، قصر الزمان أو طال. وخلال الزيارة، قمت بزيارة مسجد الحسن الثاني في الدار البيضاء، الذي موّله الشعب المغربي بجزء من قوته ورغيف خبزه، وقد كتبت في سجل الزيارات: "أنا لا أعرف الخلفية السياسية من وراء بناء المسجد، ولكنه بكل تأكيد معلم ثقافي رائع ومُبهر، كما أنه صرح إسلامي مهيب في أقرب نقطة إلى أوروبا، حيث يعيش العالم حوار الحضارات أو صراع الحضارات أو صدام الحضارات أو التمترس والتخندق خلف قلاع محصنة. حركة العالم ستجيب عن هذا السؤال الكبير والكبير جدًّا".

العلاقة مع الجزائر

حينما قام الرئيس هواري بومدين بتأميم النفط في الجزائر في 24 شباط/فبراير 1971، وكان تحت سيطرة شركات فرنسية، زارنا وزير الخارجية الجزائري عبد العزيز بوتفليقة، طالبًا منّا الوقوف مع الجزائر، وطلب مني إصدار بيان سياسي بهذا الخصوص؛ فوافقت على الفور وقلت له: "اكتب صيغة البيان الذي تريد"، فكتب بيانًا متواضعًا لم أرض عنه فمزقته وكتبت بيانًا قويًّا جاء فيه ما يلي: "إن النفط الجزائري هو النفط الليبي. لا يمكن للنفط الليبي أن يكون بديلًا عن النفط الجزائري. إن ليبيا تقف بقوة مع ثورة الجزائر في خطوتها الشجاعة من أجل القضاء على الاحتكارات النفطية الفرنسية، وتضع ليبيا كافة إمكانياتها المالية تحت تصرف الجزائر، وأيّ إجراء يُتخذ ضد الجزائر سيعتبر ضد ليبيا، وإنّ مقاطعة النفط الجزائري تعني مقاطعة النفط الليبي، وإنّ النفط الليبي لا يمكن أن يحل محل النفط

الجزائري". فترقرقت عينَا بوتفليقة تأثرًا بهذا الموقف واحتضنني بقوة، ثم حولنا وديعة إلى البنك المركزي الجزائري.

لا شك في أن دعم الجزائر لـ "البوليساريو" قد أضاف بُعدًا جديدًا للخلاف بين الجزائر والمغرب. ونظرًا إلى إهمال تسليح الجيش الوطني الجزائري، واجهت الجزائر بعض التحديات خلال هذه المواجهة، وقد حدثت عدة مواجهات، وكان أكثرها حدة تلك التي وقعت عام 1976، وكانت الغلبة للجيش المغربي. وعلى إثر هذه المواجهة، ذهبت على وجه السرعة إلى الجزائر، وأعلنّا انحيازنا الكامل إليها، وعرضنا على بومدين كل إمكانياتنا العسكرية. واعتبرنا أن المشكلة ليست الصحراء، وإنما الصدام بين الثورة الجزائرية والنظام الإقطاعي في المغرب؛ ولذا عرضنا إرسال قوات ليبية، ثم أرسلنا الأسلحة والذخائر، وكانت أول دفعة من دبابات T-62 قد وصلت إلى ميناء طرابلس، فقمنا بتحويلها إلى الجزائر.

ذهبت إلى الجزائر لأطلع على الموقف العسكري وأبحث معهم احتياجاتهم. وجدت أعضاء مجلس قيادة الثورة وكبار الضباط في حالة انزعاج شديد، قالوا لي: "سي بومدين أهمل الجيش وحوّله لشق الطرق والإصلاح الزراعي، والآن نحن في مواجهة ضعيفة مع سي السيد (في إشارة إلى الملك الحسن الثاني)". وخلال اجتماعي مع بومدين، دخل علينا محمد الصالح يحياوي[14] ببزة الشغل العسكرية، وبدا عليه الإعياء والغضب وكان عائدًا لتوه من الجبهة. لمّا شعرت بخطورة الموقف، طلبت من بومدين أن نذهب معًا إلى الاتحاد السوفياتي في زيارة سرية ونطلب، منهم باسم ثورة الفاتح وثورة الجزائر، أن يقفوا مع الجزائر في هذه المواجهة. وكان هذا اقتراحًا مني شخصيًّا ولم يكن مقررًا من القيادة؛ فرحب بومدين بالاقتراح.

(14) هو من الرعيل الأول لضباط جيش التحرير الوطني، قائد عسكري جزائري برتبة عقيد من مواليد 1937 ببلدية عين خضرة بولاية المسيلة، وقد كان عضوًا في مجلس الثورة، والمسؤول التنفيذي لجبهة التحرير الوطني الجزائرية (1977–1980)، وعضو اللجنة المركزية. توفي في 10 آب/أغسطس 2018.

ثم سألني الأخ بومدين: "هل تعتقد أن الأخ معمّر سيوافق على هذا الاقتراح؟"، فابتسمت وقلت: "يا أخ بومدين أنا لست في حاجة إلى أخذ موافقة الأخ معمّر، وأملك حق اتخاذ القرار"، فكلف مدير المراسم، استدعاء السفير السوفياتي وتحميله رسالة إلى القيادة بطلب الزيارة.

سافرنا على عجل حيث توقفنا في براغ للتزود بالوقود. وكان في استقبالنا وزير الخارجية أندريه غروميكو(15)، فتوجهنا مباشرة إلى الكرملين حيث عقدنا اجتماعًا مع المكتب السياسي بقيادة ليونيد بريجنيف(16). أخذت الكلمة في البداية وقلت: "لقد قمنا بهذه الزيارة باسم ثورة الفاتح وثورة نوفمبر، وأنتم تعرفون ما تمثله هاتان الثورتان في العالم العربي، والقوى التقدمية العربية، فهما ضمير الأمة العربية والجماهير العربية. على الاتحاد السوفياتي أن يختار بين الوقوف مع ثورة الجزائر أو النظام الإقطاعي الملكي المغربي. لم تعُد المسألة صحراء غربية أو البوليساريو، بل أصبحت مواجهة بين نظام ثوري ونظام إقطاعي. نحن نطلب من الاتحاد السوفياتي أن يحدد موقفه بشكل واضح وصريح، وأن يتجسد هذا الموقف ماديًّا". أكد السوفيات خلال اللقاء أنه لا وجه للمقارنة، وهم سيقفون بقوة مع الجزائر، فطلبت من بريجنيف تزويد الجزائر بما تحتاج إليه من سلاح، وأن ليبيا مستعدة لدفع ثمنه.

كانت الزيارة ناجحة وقادت إلى تدعيم موقف الجزائر في مواجهته مع المغرب، ثم عدنا إلى الجزائر.

---

(15) أندريه أندرييفيتش غروميكو (18 تموز/يوليو 1909 - 2 تموز/يوليو 1989): كان مسؤولًا مهمًّا في الاتحاد السوفياتي السابق خلال فترة طويلة. فقد عمل وزيرًا للخارجية (1957-1985). وفي عام 1985، أعفي من منصبه وزيرًا للخارجية، وتم تعيينه رئيسًا للجنة التنفيذية الدائمة لمجلس السوفيات الأعلى، وكان منصبًا شرفيًّا إلى حد بعيد. عضو المكتب السياسي للحزب الشيوعي في الفترة 1973-1988. واعتزل غروميكو منصبه عام 1988.

(16) ولد ليونيد إيليتش بريجنيف في 19 كانون الأول/ ديسمبر 1906. شغل منصب الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي (1964-1982)، وكان رئيسًا لمجلس السوفيات الأعلى (رئيس الدولة) مرتين (1960-1964)، و(1977-1982). توفي في 10 تشرين الثاني/ نوفمبر 1982.

أدى توقيع معاهدة وجدة مع المغرب إلى استفزاز الإخوة في الجزائر، وقد قمنا باستغلال ذلك لدفعهم إلى الموافقة على إقامة وحدة معنا. بعد إلحاح شديد، وافقوا على مضض على إقامة وحدة اتحادية. فترأست الجانب العربي الليبي، وترأس محمد الشريف مساعدية الجانب الجزائري. ضمّ الوفد الجزائري طالب الإبراهيمي وزير الخارجية وعددًا من أعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزية لحزب جبهة التحرير. ولاحظت أن الوفد الجزائري كان مترددًا وغير حاسم، وغير منسجم وليس لديه أي تصور أو ثقافة وحدوية، وقد أحرجتهم حين أعلنت قبولنا بميثاق جبهة التحرير كأساس للمحتوى الأيديولوجي والفلسفي للوحدة. ثم أثاروا مسألة موقفنا من الصحراء والحدود، وكذلك الموقف من القضية الفلسطينية، حيث كان الإخوة في الجزائر يوافقون على ما يريده الفلسطينيون انطلاقًا من أنهم لا يمكن أن يكونوا "ملكيين أكثر من الملك"، وهذه بوجه العموم ثقافة مغربية كانت سائدة. قالوا: "أنتم خبراء وحدة وعندكم تجارب كثيرة"، فاقترحوا علينا تصوّرًا عامًا، فقلنا لهم: "هناك ثلاثة تصورات للوحدة، اندماجية، أو اتحادية، أو كونفدرالية". كانت الثقافة السائدة في المغرب العربي هي "التكامل الاقتصادي"، أو "التعاون الاقتصادي"، تأثرًا بالنموذج الأوروبي. وبعد إلحاح منّا، وافقوا على إقامة وحدة اتحادية، وطلبوا من الوفد الليبي تقديم ورقة بالأسس النظرية لدولة الوحدة.

أعددنا ورقة، تمت مناقشتها بصفة مشتركة، فتوصلنا إلى وثيقة بالأسس النظرية للوحدة. ثم اتفقنا على إعداد مشروع "دستور اتحادي". ونظرًا إلى أن الجانب العربي الليبي هو الأكثر التزامًا، إذْ كنّا طوال أكثر من 20 عامًا ندفع في اتجاه الوحدة، فقد طلبوا منّا إعداد مسودة "مشروع الدستور"، وهذا ما فعلناه؛ إذْ قدمنا المشروع وقمنا بمناقشته وحصل توافق بين الطرفين عليه. تمّ الاتفاق بين القيادتين في البلدين على مسودة الدستور، لكن مساعدية وطالب الإبراهيمي شعرا، بعد قبولنا لميثاق جبهة التحرير كأساس للمحتوى النظري والأيديولوجي للدولة الاتحادية، كأننا نريد توريط الإخوة في الجزائر بعمل وحدوي، وأننا لهذا الغرض نوافق على أطروحاتهم. قال مساعدية في إحدى الجلسات: "إذا لم ننجح في إقامة وحدة اتحادية فسوف أستقيل"، ثم أضاف: "أنا من الوفد الليبي".

لكن تحليلاتي لهذا الموقف تذهب إلى أن قادة المناطق العسكرية، وهُم الحكام الحقيقيون في الجزائر، كانوا معارضين للوحدة، وكذلك بعض أعضاء المكتب السياسي، ومن بينهم ميلود حمروش الذي تولى عدة مناصب قبل رئاسته للحكومة (5 أيلول/سبتمبر 1989 - 5 كانون الثاني/يناير 1991) الذي كان عضوًا في المكتب، وكذلك كنت ألاحظ تهربًا وتأجيلًا للاجتماعات وحتى تمييعًا لها.

في أحد الاجتماعات في الجزائر، تأخر الاجتماع بسبب غياب مساعدية وطالب الإبراهيمي. ولما حضرا قال لي مساعدية: "سي جلود. كنّا نناضل من أجل الوحدة"، ففهمت أنهما كانا في اجتماع مع الرئيس، وربما مع بعض القادة العسكريين أو المكتب السياسي.

في هذا الاجتماع، أبدوا موافقتهم على المشروع. ثم اتفقنا أن يعقد الأخ معمّر والشاذلي بن جديد اجتماعًا للموافقة النهائية، ثم نعرض المشروع للنقاش الجماهيري لمدة ثلاثة أشهر، وبعد ذلك يعقد الوفدان اجتماعًا لصياغة المشروع من جديد. واتفقنا أن يقوم بعض الإخوة في الجزائر بالتحدث إلى الجماهير في ليبيا والعكس. والغريب أن القوى السياسية في كلٍّ من المغرب والجزائر وتونس، والتي كانت تقود الشعوب في هذه الدول الثلاث من أجل الاستقلال، كانت قد قرّرت في الماضي إقامة "وحدة سياسية واحدة في المغرب العربي، لكنها بعد الاستقلال، تراجعت عن قرارها هذا، وترافق ذلك مع ضعف في الثقافة الوحدوية عمومًا في أدبياتها وبرامجها. ونظرًا إلى عدم توافر أيّ إرادة وحدوية في الجزائر على مستوى القرار السياسي، ولأن الوحدة لم تكن مطروحة على الشارع - في وسائل الإعلام - وفي النشاطات العامة بصفتها مشروعًا ثقافيًا؛ فقد عطل الإخوة في الجزائر هذا المشروع وأبطلوه خاصة بعد إلغاء الحسن الثاني معاهدة وجدة.

في 31 كانون الأول/ديسمبر 1970، عُقد قراني على زوجتي وكان ذلك في منزل الأخ معمّر، الذي كان لا يزال ثوريًا بسيطًا ومتواضعًا؛ وكان يسكن في منزل رئيس الأركان في العهد الملكي، وهو بيت بسيط ملاصق

لباب العزيزية، وصادف أن كان الرئيس بومدين في زيارة لليبيا، فحضر عقد القران، ووقّع الأخ معمّر عقد القران باعتباره وكيلي، بينما وقّع الرئيس بومدين باعتباره وكيلًا لزوجتي. وقبل أن يوقّع الأخ بومدين قال لي مازحًا: "إذا كنت تريد مني أن أوقّع، فلي شرطان، الأول أي خلاف بينك وبين زوجتك يعني الحرب بين الجزائر وليبيا، والثاني أن تقبل أنت وزوجتك أن تقضيا إجازة الزواج في الجزائر وضيافتي شخصيًّا. وفعلًا، قضينا الإجازة بعد الزواج في الجزائر، فكانت أجمل الأيام التي قضيتها في ضيافة بومدين؛ إذ وضع تحت تصرفي طائرة خاصة وكلف ثلاثة من أعضاء مجلس قيادة الثورة بمرافقتي.

وعبر زيارات بومدين المتكررة لليبيا وزياراتي المتكررة للجزائر، تولدت بيننا صداقة وتقدير عاليان، سمحا لي بأن أدخل معه في نقاشات وحوارات معمقة وصريحة. وكنت في كل لقاء أطالبه أن يضرب المخابرات، ويتخلص من النظام المخابراتي البوليسي وأن يعود إلى الشعب، وأن يبني من جديد حزب جبهة التحرير، لتعود كما كانت في الخمسينيات والستينيات. وفي إحدى المرات قال لي حرفيًّا: "سي جلود، أراك كثرت عليّ، أعدك أن أتخلص من - العفط - وأعود إلى الشعب، وأعيد بناء جبهة التحرير من جديد". وقد فاجأني باستخدام كلمة "عفط" لأنها في ليبيا كلمة شعبية تعني الذين لا قيمة لهم. وأنا لا أعرف إذا ما كان الموت والقدر أسرع منه لتنفيذ ما وعد، أو أن الجنرالات وقوى الدولة العميقة كانوا متمترسين ومستميتين لمنع حصول التغيير. لقد كان الرئيس بومدين شهمًا وعروبي التفكير والهوى. ذات مرة قال لي: "كان الأمراء السعوديون يأتون إلى الجزائر لصيد الطيور، لكنني اكتشفت أنهم كانوا يأتون لصيد المناضلين؛ إذ كانوا يأتون بطائرات ضخمة محمّلة بالهدايا"، ثم أضاف: "عندئذٍ منعت الصيد".

مثلما كان جمال عبد الناصر "مثَلنا الأعلى" في ليبيا والمشرق العربي كله، كان الرئيس الجزائري أحمد بن بلّة[17] ورفاقه الأربعة هم مثَلنا الأعلى في

(17) أحمد بن بلّة (1916-2012): أول رئيس للجزائر بعد الاستقلال (15 تشرين الأول/ أكتوبر 1963 - 19 حزيران/ يونيو 1965).

المغرب العربي. كنّا نطلق عليهم تعبير "الزعماء الخمسة". حينما تمّ الإفراج عن أحمد بن بلّة، اتصلنا به مباشرة. كان ذلك عام 1979 حين انتقل إلى سويسرا، فسارعنا إلى تقديم الدعم المالي والسياسي له، وتواصلنا معه عبر مندوبين ليبيين من طرفنا. وقد أدلى بعد خروجه من السجن، بتصريحات بدت لي صادمة بعض الشيء، لكنه سرعان ما استعاد توازنه. وحين قرّر العودة إلى الجزائر، أرسلت له مندوبين عني ونصحتُه بأن يقوم بتقديم نفسه بصفته "زعيمًا تاريخيًّا" للشعب الجزائري، وأنه رجل "فوق السلطة" و"فوق الأحزاب".

في هذا الإطار، أخبرني بعض قادة الجبهة الإسلامية للإنقاذ[18] أنهم اتصلوا به حين علموا بقرار عودته إلى الجزائر، وعرضوا عليه أن ينظّموا استقبالًا مليونيًا شرط أن "يقدم نفسه كزعيم تاريخيّ" وأن يكون "فوق الأحزاب". بيد أن الأخ أحمد بن بلّة رفض نصيحتي كما رفض عرض جبهة الإنقاذ، وبادر إلى تشكيل حزبه الخاص، ثم دخل الانتخابات. كانت النتيجة مُخيبة للآمال، وأضعفته سياسيًا وأساءت إليه.

حينما زار ليبيا أوّل مرة بعد خروجه من السجن ومكوثه مدّة قصيرة في سويسرا، اجتمعت به أنا والأخ معمّر في مدينة سرت. كان اللقاء مُفعمًا بالمشاعر الودّية، وأجرينا حوارًا رائعًا استعرضنا فيه الماضي واستشراف آفاق المستقبل، وأذكر أنه لام الأخ معمّر على تخليه عن جبهة "البوليساريو" والجمهورية الصحراوية. في نهاية اللقاء التفت إلى الأخ معمّر وقال له: "يا أخ معمّر، أنت محظوظ لأنّ معك رجلًا يشدّك نحو الأمام. لقد كان معي ومع عبد الناصر رجال يشدّوننا إلى الخلف".

(18) حزب سياسي جزائري، تأسس في 18 شباط/ فبراير 1989 بعد الانتفاضة الشعبية التي فرضت على الرئيس الشاذلي بن جديد إجراء تعديلات دستورية تضمن تأسيس الأحزاب السياسية في 5 تشرين الأول/ أكتوبر 1988. وقد جرى حل الجبهة الإسلامية للإنقاذ بقرار من السلطات الجزائرية في آذار/ مارس 1992، التي كان يترأسها آنذاك الشيخ عباسي مدني وينوب عنه الشيخ علي بلحاج، وذلك على خلفية الانتخابات التشريعية التي فازت بها بنتيجة ساحقة، لكن ألغيت نتائجها في ما بعد ونتج من ذلك أيضًا قرار حل الحزب.

في 26 كانون الأول/ ديسمبر 1991، جرت الانتخابات التشريعية في الجزائر، وقد اكتسحت فيها جبهة الإنقاذ الانتخابات بقيادة عباسي مدني[19]؛ إذ حصلت على 188 مقعدًا من مقاعد البرلمان أي بنسبة 82 في المئة من الأصوات في المرحلة الأولى. وحدث أنني كنت في الجزائر في زيارة رسمية، وبعد إعلان النتائج، ذهبت في إحدى سيارات السفارة الليبية إلى مقر جبهة الإنقاذ في العاصمة، وقدمت لهم التهاني.

في اليوم التالي، التقيت الرئيس الشاذلي، وكنت أعلم أن الجنرالات والمتنفذين في الدولة والمستفيدين سيضغطون عليه لإلغاء نتائج المرحلة الأولى من الانتخابات، وتعطيل المرحلة الثانية، وطلبت منه احترام إرادة الشعب الجزائري والاستمرار في العملية الديمقراطية. وإحقاقًا للحق، فقد وجدت الرئيس الشاذلي واعيًا ومدركًا خطورة إلغاء النتائج. بيد أن قوة الجنرالات ونفوذهم ومعهم "الدولة العميقة" كانا أقوى منه. ومن الجزائر سافرت إلى إيطاليا في عام 1990، فأدليت من هناك بتصريحات لوسائل الإعلام، وأجريت مقابلة مع محطة إيطالية، وكذلك مع مراسل جريدة **لوموند** الفرنسية، وأعلنت تأييدي لجبهة الإنقاذ ونتائج المرحلة الأولى من الانتخابات، وقلت: "إنّ جبهة الإنقاذ الآن، هي جبهة التحرير في الخمسينيات والستينيات". وكثيرًا ما قال لي الأخ مساعدية وغيره من المسؤولين: "لقد سمحنا لجبهة الإنقاذ بخوض انتخابات البلديات والولايات، وقبلنا النتائج على أمل أن يفشلوا في إدارتها، لكنهم على العكس أثبتوا نجاحًا في إدارتها". كما كانوا يقولون لي: "إن المواطن الجزائري حين يقارن بين عضو في جبهة الإنقاذ وآخر في جبهة التحرير، سيجد أن من ينتمي إلى جبهة التحرير يسكن في مساكن فارهة، بينما سيجد أن من ينتمي إلى جبهة الإنقاذ يعيش في مسكن بسيط". لم تتقبل حكومة الجزائر تصريحاتي هذه، فأرسلتْ وزير الخارجية إلى ليبيا، واجتمع بالأخ معمّر، وطلب منه "أن تتنصل ليبيا من تصريحات جلود"، فقال الأخ معمّر: "اجتمع بالرائد جلود وأقنعه بذلك". وحينما اجتمع بي، رفضت التنصل من

(19) عباسي مدني (1931-2019): سياسي جزائري، وأحد مؤسسي الجبهة الإسلامية للإنقاذ.

تصريحاتي، وقلت له: "أنا متمسك بموقفي، وسوف أصرّح من جديد بتأييدي لجبهة الإنقاذ".

بعد أشهر قليلة من استقالتي عام 1993، صُدمت لمّا رأيت الأخ معمّر وهو "يورط" أحمد بن بلّة في ما عرف بمهزلة "جائزة القذافي لحقوق الإنسان". ولذا، سارعت إلى إرسال مندوب عني للقاء الأخ بن بلّة ونقل له تأكيدي: "إنني لا أفهم كيف يمكن لك أن تضع نفسك في هذا الموقف البائس، وتتقبّل أن يجعل منك الأخ القذافي مجرد أضحوكة. جائزة القذافي لحقوق الإنسان هي أكذوبة، فالقذافي أعدى أعداء حقوق الإنسان. إنه إنسان فاشيّ. يا أخ أحمد بن بلّة لا تنس أن الشعب الليبي استضاف الثورة الجزائرية، وحينما يشاهد الليبيون عبر التلفزيون أنك تترأس لجنة جائزة القذافي لحقوق الإنسان، فإنهم سوف يشعرون أنك أصبحت جزءًا من أكذوبة كبرى. أرجوك انسحب ولا تلطخ سمعتك. إنها إساءة لك بأكثر مما هي إساءة لليبيين". ومع ذلك تجاهل أحمد بن بلّة نصائحي.

بورقيبة والجمهورية الإسلامية

عاش النظام البورقيبي في تونس، المرتبط بالغرب ثقافيًا وسياسيًا، والمُتنكر للعروبة والإسلام، على التناقض بين ليبيا والجزائر. لم تكن الجزائر تريد إقامة أي شكلٍ من أشكال الوحدة معنا، لكنها في الآن ذاته لم تكن تريد منّا أن نقيم أي وحدة مع أيّ دولة من دول المغرب العربي. لقد فرضت ثورة الفاتح مواقف جديدة في المغرب العربي. كانت صرخات الوحدة التي انطلقت من ليبيا تؤثر في التفكير السياسي والحركة الثقافية وفي الشارع المغاربي في مواجهة الفَرْنسة والارتباط بأوروبا، ما ساهم في تقوية الاتجاه العروبي/ الإسلامي في مواجهة الاتجاه المُتفرنس.

حرصت كل القوى السياسية في تونس على أن تظل المعارضة ليبرالية الطابع على النمط الغربي، والجميع اتفقوا، تقريبًا، على عدم دخول

"عنصر العنف الثوري" في الحياة السياسية؛ ولذا جاءت "انتفاضة قفصة"[20] لتغيير هذه المعطيات، ولتشكل بداية دخول "العنف الثوري" إلى الساحة التونسية. وقد كان دور ليبيا أساسيًا في التخطيط والتسليح، بالتعاون مع القوى الثورية في قفصة. أثّرت انتفاضة قفصة تأثيرًا هائلًا في العقلية التونسية أو في التفكير السياسي، وخاصة في أوساط الشباب، وتجلّى ذلك بوضوح في ثورتَي الخبز عام 1978 وعام 1982، حين نقلت شاشات التلفزيون مئات المشاهد الرائعة للشبان التونسيين وهم يعرّون صدورهم ويتحدّون السلطة والقمع، ويقولون لها: "أطلقوا رصاصكم علينا، لم نعد نخشى رصاصكم ولم نعد نخشى الموت". لقد سمح هذا التراكم النضالي للشعب العربي التونسي بأن يكون السبّاق والرائد لما عُرف بانتفاضات "الربيع العربي". كان من الممكن أن تنجح الانتفاضة لولا موقف الجزائر منها، انطلاقًا من الموقف الجزائري التقليدي للأسف، فقد اعتبرت أن الانتفاضة هي من تدبير ليبيا، وأننا قمنا بها من وراء ظهرها ومن دون تنسيق معها؛ ولذا وقفت منها موقفًا عدائيًا ومنعتنا من إمدادها بالسلاح وأقفلت الحدود، لمنعنا من أيّ تواصل مع الثوريين في قفصة، بل إنها وقفت مع نظام الحبيب بورقيبة[21] انطلاقًا من نظرة إقليمية ضيّقة، واعتبرت أن الانتفاضة موجهة ضدها، لأن تونس هي المجال الحيوي للجزائر.

---

(20) انتفاضة قفصة 1980: شهدت مدينة قفصة، وهي كبرى مدن الجنوب الغربي التونسي وفيها يقع مقر ولاية قفصة، في حدود الساعة الثانية من فجر يوم الأحد 27 كانون الثاني/ يناير 1980، اقتحام عشرات المسلحين مراكز الأمن والحرس الوطنيين وثكنة الجيش بالجهة. وقد استولوا على أسلحة وذخيرة، ثم حثوا الأهالي على الانضمام إليهم عبر مكبرات الصوت، بعد أن أعلموهم بقيام "الثورة الشعبية المسلحة"، لإسقاط نظام بورقيبة. انتهت هذه الأحداث بمقتل وإصابة عدد كبير من العسكريين والمتمردين والمواطنين، وإيقاف عدد من المسلحين وإعدام 11 منهم، من بينهم أحمد المرغني وعبد المجيد السّاكري وعز الدين الشريف المنتمين إلى فصائل المعارضة التونسية ذات التوجهات القومية العربية.

(21) الحبيب بورقيبة: أول رئيس للجمهورية التونسية بعد إلغاء الملكية بخلع الملك محمد الأمين باي، وإعلان الجمهورية في تونس في 25 تموز/ يوليو 1957. وقد جرى عزله بعد انقلاب قاده زين العابدين بن علي في السابع من تشرين الثاني/ نوفمبر 1987، وفرض عليه الإقامة الجبرية حتى وفاته في عام 2000.

وعلى الرغم من أن الانتفاضة فشلت - للأسف - في إسقاط النظام لأسباب كثيرة، فإنها خربت الفرضية التي كانت تحرص عليها كل القوى السياسية في تونس، وهي منع دخول "مبدأ العنف" في الحياة السياسية. وهكذا، دخل العنف الثوري إلى الساحة السياسية التونسية.

نجحت ثورة الفاتح في إحداث إحساس بأهمية الوحدة في الشارع التونسي، وبدأ النظام البورقيبي يعاني مشكلات اقتصادية وسياسية. ولأن الموضوع الذي كنّا نوليه الأولوية في أي محادثات في المغرب العربي كان قضية الوحدة، فإننا نجحنا هذه المرة في إقناع بورقيبة؛ وأدّى كل من محمد المصمودي[22] من موقعه يومئذ ووسيلة بورقيبة حرم الرئيس التونسي، دورًا إيجابيًا في التأثير فيه. وتحت ضغط الدعوات المستمرة للوحدة، وافق بورقيبة في 12 كانون الثاني/ يناير 1974 على توقيع اتفاق الوحدة، وقيام "الجمهورية الإسلامية" بين ليبيا وتونس، على أن يكون بورقيبة رئيس الجمهورية، وأن أكون أنا رئيس الوزراء. خرجت الجماهير وخاصة الشباب في تونس إلى الشوارع وبصفة عفوية، فكانت كالطوفان. اتصل بي الأخ معمّر - بعد التوقيع مباشرة - قائلًا: "أقنعوا الناس أن لا يخرجوا إلى الشوارع، بورقيبة لن ينفذ الاتفاق، ولكن يكفي أن يوقع على الوحدة شخص كافر بالوحدة تحت دعوات وصرخات الوحدة". لكن - للأسف - كانت القوى المعادية للوحدة في تونس قد قاومتها منذ اللحظات الأولى، وعلى رأس هذه القوى الهادي نويرة[23] ومحمد الصيّاح[24].

وقفت الجزائر والمغرب وفرنسا والولايات المتحدة ضد هذا الاتفاق، حتى إنّ الرئيس الأميركي ريغن اتصل بالرئيس بورقيبة وهدده، وكذلك فعل الرئيس بومدين، وتحت هذه الضغوط ألغى الاتفاق. كان موقف الجزائر الرافض

---

(22) وزير خارجية تونس (1970-1974).

(23) محمد الهادي نويرة (1911-1993): سياسي تونسي شغل منصب الوزير الأول (1970-1980).

(24) محمد الصيّاح (1933-2018): سياسي تونسي أدّى دورًا مهمًّا في الحياة السياسية أكثر من ربع قرن في عهد الرئيس الحبيب بورقيبة، بتوليه عدة مهمات وزارية وبإدارته الحزب الاشتراكي الدستوري سنوات طويلة.

للوحدة بين تونس وليبيا، مؤلمًا لنا، لأنها بذلك تكون قد اشتركت مع الغرب والولايات المتحدة في معاداة الوحدة. قبل سنوات قليلة من هذا الحدث، زار بورقيبة ليبيا وشارك في احتفالات الفاتح من سبتمبر، وقد أقيم عرض عسكري ضخم على طريق قاعدة معيتيقة، شاركت فيه أعداد هائلة من الدبابات والمدرعات والمدفعية والصواريخ وطائرات "الميراج" و"الميغ". خلال العرض العسكري فقد بورقيبة صوابه ولم يعد مسيطرًا على غضبه، فخاطب الأخ معمّر قائلًا: "لقد اشتريتم كل هذه الأسلحة الضخمة من أجل السيطرة على تونس، تونس فيها رجال"، فهبّ حراسه وحملوه وهم يهتفون "بورقيبة ... بورقيبة"، وكان ذلك منظرًا محزنًا وسخيفًا ومحرجًا. بعد انتفاضة قفصة وتظاهرات الخبز في تونس (1978/ 1982)، ونظرًا إلى أن بورقيبة أصبح مُسنًا، وبعد ظهور حركة الاتجاه الإسلامي (النهضة لاحقًا)، شعر الأميركيون والفرنسيون بخطر حدوث ثورة شعبية وقيام نظام إسلامي بقيادة حركة الاتجاه الإسلامي؛ ولذا سارع بورقيبة إلى السماح للأميركيين بأن يتواصلوا مع المؤسسة العسكرية والأمنية التونسية.

في عام 1972، قمت بزيارة تونس، وكان الهادي نويرة هو رئيس الوزراء ومحمد المصمودي وزير الخارجية، وكان من المفترض أن تستمر الزيارة بحسب البروتوكول نحو خمسة أيام. في اليوم الثاني لزيارتي، استقبلني الرئيس بورقيبة. جلسنا في مكتبه وقال لي: "أنتم أولادي. انظر، ها هنا صورة معمّر معلقة في مكتبي".

وعقدنا اجتماعًا رسميًا تخللته مأدبة غداء. خلال الاجتماع قال لي بورقيبة: "يزور تونس سنويًا أكثر من مليون سائح ليبي. السائح الليبي ينفق 12 مرة أكثر مما ينفقه السائح الألماني". وكان هذا صحيحًا. وفجأة لاحظت أن بورقيبة انقلب فجأة إلى شخص غاضب وكان يتكلم معي بطريقة هستيرية. في هذا الوقت، كان من المفترض أن أسافر إلى مدينة صفاقس لأفتتح فيها المركز الثقافي الليبي، فقال لي بورقيبة بغضب شديد: "امسكوا عني سمومكم (أي توقفوا عن بث السموم) تونس فيها رجال. أنتم تضعون داخل كل كتاب

عشرة دنانير لكي تغروا الشباب التونسي". صعقتني الكلمات الغاضبة التي تفوّه بها بورقيبة، فقلت له: "سيادة الرئيس. أنا آسف لأن تسمح لنفسك بإهانة الشعب التونسي وشباب تونس وتتبنى أساليب مخابراتية". في هذه اللحظة التفت بورقيبة إلى الطاهر بلخوجة وزير الداخلية (17 آذار/ مارس 1973 - 23 كانون الأول/ ديسمبر 1977)، وقال له بلهجة صارمة "يغلق المركز الثقافي الليبي في العاصمة تونس، والرائد عبد السلام جلود لن يذهب إلى صفاقس لافتتاح المركز هناك". ولذا حين عدت إلى الفندق، طلبت على الفور من مدير المراسم ومن الأخ عبد العاطي العبيدي سفيرنا في تونس أن يأمروا الطيارين بالاستعداد للذهاب إلى المطار لمغادرة تونس، كما طلبت استخدام سيارات السفارة الليبية بدلًا من سيارات المراسم التونسية. في هذه اللحظات علم الهادي نويرة والمصمودي بقراري، ولذا قاما بإبلاغ سلطات المطار بإغلاق المهبط لمنع مغادرة طائرتنا، ثم وصلا المطار وسعيًا بكل الوسائل لإقناعي بالعدول عن فكرة قطع الزيارة، فعقدنا اجتماعًا عاجلًا، لكنه كان اجتماعًا فاشلًا. وهكذا قطعت زيارتي لتونس وعدت إلى طرابلس.

بعد سنوات قليلة، نجح الأميركيون في تدبير انقلاب 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1987، وأصبح زين العابدين بن علي هو رئيس تونس. في هذا الوقت، ألقى الأخ معمّر كلمة قال فيها: "بن علي هو نجم شمال أفريقيا"، فغضبت من هذا الوصف، وألقيت كلمة قلت فيها: "بن علي هو بورقيبة بعمرٍ جديد ولكن على أسوأ". زار الأخ معمّر تونس والتقى الرئيس زين العابدين بن علي الذي طلب منه أن أقوم بزيارة تونس، ثم كرّر الطلب خلال زيارة أخرى قام بها الأخ معمّر لافتتاح حقل النفط البحري. وعند زيارة الأخ معمّر لجزيرة جربة ولقائه زين العابدين، صدر بيان مشترك عن تقاسم حقل البوري مناصفة، لكن الليبيين جميعًا لم يوافقوا على هذا الاتفاق. جاء إليّ كثيرون يشكون وينقلون رأي الشارع الرافض للاتفاق. كان زين العابدين قد أصرّ قبل زيارته لليبيا، على توقيع اتفاقية "المناصفة في حقل البوري"، فاتصلت بالأخ معمّر وكان في سرت وقلت له "أنا ضد مقاسمة الحقل، والليبيون لن يوافقوا على هذا".

ثم قلت: "لا نريد أن نكرّر ما عمله مصطفى بن حليم[25]، حين تنازل عن حقوقنا في شريط أوزو[26]. نحن لسنا ملوكًا، والسيادة الوطنية لا تنتهي إلا بسيادة قومية. فليتفضل زين العابدين ويقيم معنا الوحدة ومن ثم نتقاسم كل النفط، ولا بد من الإصرار على أن تنفذ تونس حكم محكمة العدل الدولية التي حكمت لصالحنا في قضية حقل البوري".

ثم زارنا رئيس الوزراء التونسي الهادي البكوش[27] ومعه وزير الداخلية الحبيب عمار[28]، وقبل وصولهما إلى سرت، اتصلت مجددًا بالأخ معمّر وأكدت له طلبي ورأيي، فقال لي بانزعاج: "سأرسلهما لك في طرابلس فتفاهم معهما". بعد اللقاء مع الأخ معمّر، حضرا إلى طرابلس وعقدنا اجتماعًا مطولًا دام أكثر من ثلاث ساعات. خلال الاجتماع كان أبو زيد دوردة[29] وعبد المجيد القعود وإبراهيم بكار[30] في انتظاري. خلال الاجتماع رفضت مقاسمة الحقل، وأصررت على تنفيذ حكم المحكمة. فقالا لي: "أنت لست وحدويًا "، فقلت: "تفضلوا، اقبلوا الوحدة وسوف نتقاسم كل النفط الليبي وليس حقل البوري وحده". وأخيرًا وتحت إلحاحي وإصراري وافقا على تنفيذ حكم المحكمة على أن تخصّص نسبة من الدخل لتمويل المشاريع الوحدوية في ليبيا وتونس. بعد مغادرتهما، دخل عليّ أبو زيد دوردة والقعود وبكار، وسألوني وهُم في حالة تخوّف من بيان جربة،

(25) ولد مصطفى بن أحمد محمد بن حليم بمدينة الإسكندرية يوم 29 كانون الثاني/ يناير 1921، وهو سياسي ليبي تولى الوزارة الأولى في العهد الملكي في الفترة 1954-1957.

(26) أوزو: هو شريط من الأرض في شمال تشاد على طول الحدود مع ليبيا، ويبلغ طوله نحو تسعمئة كيلومتر، ويمتد جنوبًا إلى عمق نحو 100 كيلومتر، ويختلف عرضه من منطقة إلى أخرى (75-135 كيلومترًا). وهذه المنطقة شاسعة؛ إذ تبلغ مساحتها نحو 80 ألف كيلومتر مربع، وهي تقع في شمال منطقة تيبستي، الغنية باليورانيوم والمنغنيز. دار النزاع بين ليبيا وتشاد حول السيطرة على هذه المنطقة.

(27) الوزير التونسي الأول (7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1987 - 27 أيلول/ سبتمبر 1989).

(28) سياسي وعسكري ووزير تونسي سابق أدى دورًا مهمًّا في إنجاح حركة 7 تشرين الثاني/ نوفمبر 1987. وعُين وزيرًا للداخلية في الحكومة الجديدة.

(29) أبو زيد عمر دوردة (1944-): رئيس جهاز الأمن الخارجي للمخابرات الليبية (2009-2011)، وشغل منصب أمين اللجنة الشعبية العامة (رئيس الوزراء) في ليبيا (7 تشرين الأول/ أكتوبر 1990 - 29 كانون الثاني/ يناير 1994).

(30) كان حتى عام 1979 أمينًا لبلدية بنغازي، واستمر كذلك حتى نهاية عام 1991.

وقالوا لي: "الليبيون غير راضين عن هذا". ولما أبلغتهم بنتائج الاجتماع، فرحوا فرحًا شديدًا وعانقوني وهم يقولون: "الآن سوف يفرح الليبيون". ثم قال لي بكار "كنا ننتظر أكثر من ثلاث ساعات، ولكننا لم نشعر بالوقت حينما علمنا أنك تعقد اجتماعًا مع البكوش والحبيب عمار".

قبيل زيارة زين العابدين بوقت قصير، جاء وفد تونسي للإعداد للزيارة، وتمّ تنفيذ الاتفاق بالتوقيع على حكم المحكمة، مع تخصيص 10 في المئة من الدخل لتمويل المشاريع الوحدوية في تونس وليبيا. وللأسف، لم تكن هناك "ثقافة وحدوية" أو إرادة وحدوية للنظام التونسي، كما أن النظامين مختلفان سياسيًا واجتماعيًا. في هذا الوقت قمت بزيارة تونس، وطلب مني الأخ معمّر أن أبقى أطول وقتٍ ممكن، قائلًا: "لأنهم يريدون التعرّف عليك". وبالفعل، حظيت باهتمامٍ غير عادي حتى من المواطنين الذين كانوا يعتقدون أنني لا أحب تونس؛ والواقع أنني، بصفتي قوميًا وحدويًا، أعتبر الوطن العربي الكبير وطني، وأنا أحب تونس وشعب تونس، مع أنني أختلف مع النظام اختلافًا جذريًا، سياسيًا وقوميًا. عقدت عدّة اجتماعات مع زين العابدين، والطيب البكوش[31]، ومحمد بن يحيى وزير الخارجية. طلب مني الرئيس التونسي قرضًا بمبلغ 250 مليون دولار، فوافقت على منح تونس 100 مليون دولار لمساعدتها في شراء القمح، وقرض قدره 150 مليون دولار بفائدة 2 في المئة، مع فترة سماح. كما عرضت على زين العابدين بن علي إقامة "وحدة بين البلدين" وضغطت في هذا الاتجاه. بعد تردد طويل، وافق من حيث المبدأ. ثم اجتمعت على انفراد بالرئيس بن علي، فقال لي: "خلينا نورط البكوش ونطلب منه تقديم مشروع وحدوي"، فوافقت. وبالفعل، قدّم البكوش مشروعًا يقوم على توحيد القوانين والسياسات والهياكل، أي "وحدة تحتية" تتوّج بوحدة سياسية خلال عام أو عامين؛ فقبلت المشروع مع بعض التعديلات البسيطة.

---

(31) أستاذ جامعي وسياسي وقيادي نقابي وحقوقي ووزير تونسي سابق، أحد الرموز النقابية بتونس، وتقلد خطة الأمين العام للاتحاد العام التونسي للشغل (1981-1984)، كُلف بوزارة التربية في حكومة الباجي قائد السبسي، إلى جانب كونه ناطقًا رسميًا باسمها، كما عُرف بنشاطه في المجال الحقوقي.

نصّ المشروع على تشكيل لجان لتوحيد السياسات والقوانين والهياكل، وتشكيل لجنة عليا للمتابعة برئاستي ورئاسة البكوش، كما نصّ على أن أي خلاف يحصل داخل هذه اللجان، تقوم اللجنة العليا للمتابعة بحله، وفي حال عدم التوصل إلى حل، تجتمع القيادتان لاتخاذ القرار المناسب. ومن أهم اللجان "لجنة إعداد الدستور"، و"لجنة وضع الأسس النظرية للدولة الجديدة". ولكن بسبب اختلاف النظامين سياسيًا وثوريًا واجتماعيًا وفلسفيًا، واجهت اللجان، وخاصة "لجنة الأسس النظرية"، مشكلاتٍ عدّة، فقد كان هناك تباين شديد في بنية النظامين، كما أن الإخوة في تونس كانوا يفتقدون الإرادة السياسية لإقامة وحدة؛ ولذا أدخلوا لجنة المتابعة واللجان الأخرى في دوامة مشكلات التعاون بين البلدين، والواضح أنهم لم يكونوا يريدون حل مشكلاتهم بالاعتماد على ليبيا، وهذا هو "التفكير البورقيبي" عينه ولما عدت إلى طرابلس، عرضت المشروع على الأخ معمّر، فاعتمدنا المشروع ثم سافرنا إلى تونس، ومن تونس اتجهنا نحو صفاقس حيث وقّع الأخ معمّر وزين العابدين المشروع الوحدوي.

بيد أن النظام التونسي سرعان ما بدأ يماطل ويركز على المشكلات الثانوية، و"إقامة تعاون اقتصادي" فقط، لتفريغ المشروع الوحدوي من محتواه. وهكذا جرى إفشال المشروع الوحدوي، ومات في مهده مثله مثل المشروع الأول مع بورقيبة.

وأذكر أنني في أول اجتماع لي مع زين العابدين في القصر الجمهوري، وجدت معه أحد أصدقائه، واسمه محمد هميلة، فقال لي الرئيس: "المباحثات الرسمية معي. أما هميلة فسوف يهتم بأمورك الشخصية". وبالفعل، كان الرجل كريمًا ولطيفًا، وهميلة صديق زين العابدين ولد لأم سورية وأب تونسي، وأخذ منهما أجمل الصفات، وقد عيّنه بورقيبة قائمًا بأعمال السفارة التونسية في الخرطوم، وهناك تزوج بامرأة سودانية، فغضب عليه بورقيبة لأن ذلك مخالف للأعراف الدبلوماسية، فاشتغل بعد ذلك بالتجارة وخاصة في مجال النفط، وتمكن من جمع ثروة طائلة، وكان يمدّ يد المساعدة لزين العابدين والحبيب عمار، وهكذا حينما وصلا إلى السلطة أصبح قريبًا منهما. ويبدو أن بن علي

كان "يغار" من علاقتي بهميلة. بعد مدة من عودتي من تونس، اتصل بي هميلة هاتفيًّا وكان حزينًا وقال لي: "يا أخ عبد السلام أنت تعرف أنني مريض بالقلب والرئيس بن علي سحب مني جواز سفري لمنعي من العلاج في سويسرا"، فغضبت وحزنت واتصلت بالرئيس بن علي وقلت له: "يا أخ زين، أنت الذي عرفتني بالأخ هميلة وطلبت منه أن يهتم بي خلال زيارتي لتونس، وأنا لا أقبل أن يعاقب شخص بسببي، أرجوك أعط هميلة جواز سفره واسمح له بالسفر وأعدك أن لا أتصل به وأن أقطع علاقتي معه". وبالفعل أعطاه جواز سفره.

تجربة اتحاد المغرب العربي

في 17 شباط/فبراير 1989، تأسس "اتحاد المغرب العربي" بمدينة مراكش المغربية، وهو يتألف من خمس دول تمثِّل في مجملها الجزء الغربي من الوطن العربي: المغرب، والجزائر، وتونس، وليبيا، وموريتانيا. لم يتمكن الاتحاد من أن يشق طريقه للحياة وتحقيق أهدافه للأسباب التالية: كانت دول المغرب العربي، باستثناء ليبيا، تريد إطارًا للتعاون الاقتصادي تأثرًا بالنموذج الأوروبي، في حين كانت ليبيا تنظر إليه على أنه أساس "وحدة سياسية". كانت كل دولة من دول المغرب العربي، باستثناء ليبيا، تريد أن تستخدمه لحل مشكلاتها، مثلًا الخلاف الجزائري/المغربي حول الصحراء. لقد رأى كل منهما الوحدة على أنها مشروع تكتيكي وليس عملًا استراتيجيًا. افتقر مشروع اتحاد المغرب العربي إلى العمق الشعبي والمبادرات الشعبية. ومع أن الاتحاد تمكن من توقيع العديد من الاتفاقيات، فإنه ظل مجمّدًا عمليًا، بل نشب خلاف داخل الدول المؤسسة حول المقر والأمانة العامة. وهكذا تمّ تجميد الاتحاد.

وفي الدورة التي عُقدت في المغرب، ترأست الوفد الليبي. وحين وصلت إلى المطار، وجدت الإخوة المغاربة منزعجين لعدم حضور الأخ معمّر. وقد فاجأني الملك الحسن الثاني الذي كان موجودًا في المطار أنه عندما عرف أن المراسم لم تعاملني معاملة الرؤساء، غضب ووبخ المراسم، وطلب منهم أن تكون مراسم استقبال عبد السلام جلود مثل مراسم استقبال الرؤساء. ثم عقدنا

اجتماعًا برئاسة الملك الحسن الثاني، وكان اجتماعًا تمهيديًا. قال الملك: "علينا أن نتوقف الآن وأن نخفف سرعتنا"، فقلت: "نحن لم نبدأ بعد؟"، فقال: "أقصد، أننا وقّعنا الكثير من الاتفاقيات والبرامج، لكننا لم ننفذ منها شيئًا"، فقلت له: "علينا أن نسأل أنفسنا، لماذا لم ننفذ ما قررنا"، فردّ الحسن الثاني: "علينا أن نحسم مسألة المقر ومؤسساته"، ثم أضاف: "لأسباب تاريخية وجغرافية أقترح أن يكون المقر في المغرب، ولأنني مغربي أريد أن يكون المقر هنا. أما الأمين العام فاقترح الأخضر الإبراهيمي وزير الخارجية الجزائري (1934-)[32]، أما الجامعات والكليات فاقترح أن تكون في ليبيا لأنها تتوسط المشرق العربي والمغرب العربي، أما المصرف فيكون في تونس والمحكمة في موريتانيا"، فقلت له: "أما بخصوص المقر فأنا أؤيد أن يكون في المغرب". شعرت بأن الملك الحسن الثاني فوجئ بموقفي هذا وسرّه كثيرًا، ثم أضفت: "أما بقية المقترحات، فأرى أن نجري بشأنها المزيد من الاتصالات والتشاور". في هذه اللحظة، مرّر لي الأخ إبراهيم المشاري، أمين الاتصال الخارجي، ورقة كتب فيها: "الأخ القائد يريد أن تكون المحكمة في ليبيا". قرأت الورقة ومزقتها، لأنني أؤمن بأنّ وجود الجامعات والكليات أهم من وجود المحكمة. اعترض زين العابدين على كل هذه الاقتراحات، لأن تونس كانت تريد المقر والأمانة العامة.

ثم رفعنا الجلسة إلى موعد في المساء، لكن موعد الاجتماع تأخر كثيرًا؛ فذهبت إلى زين العابدين في مقر إقامته، فوجدته منزعجًا حتى إنه قرر مغادرة الاجتماع، لكنني أقنعته بالاستمرار، فقال لي: "اقتراحات الملك غير مقبولة. تونس تتمسك بالمقر والأمانة العامة"، فقلت له: "هذا غير معقول"، فردّ علي قائلًا: "الملك اقترح اسم الأمين العام وهو الإبراهيمي، وهذا يضعنا أمام الأمر الواقع"، فطلبت منه أن يتنازل عن مطلب المقر وسأضمن له منصب الأمانة العامة، فوافق زين العابدين على مضض. ثم ذهبت للقاء الرئيس الجزائري الشاذلي بن جديد، وقلت له: "يا أخ الشاذلي أنت مجاهد، والمهم أن يقوم الاتحاد وأن نضع العربة على السكة لننطلق، فلا بد للجزائر من التضحية

(32) سياسي ودبلوماسي جزائري، شغل منصب وزير الخارجية (1991-1993).

في سبيل هذا الأمل والحلم. ليس المهم الأمانة العامة أو المقر، المهم أن يقوم الاتحاد وينطلق؛ فأرجو منك أن تتنازل عن منصب الأمين العام لصالح تونس، لأن زين العابدين متمسك بالمقر والأمانة". وهكذا انتزعت من الأخ الشاذلي الموافقة على هذا الحل، وقال لي: "لا مانع عندي إذا كان هذا في مصلحة الاتحاد، شرط أن لا تخبر الملك الحسن بموافقتي".

ثم ذهبت إلى الملك الحسن الثاني للقائه في القصر الملكي، وتحدثت معه وقلت: "زين العابدين وعد كوادر حزبه بالمقر والأمانة، ويرى في هذا دعمًا له؛ فأرجوك يا جلالة الملك أن تتفهم هذا الأمر"، فقال لي: "هذا السيد كيف يلتزم أمام كوادره، وكيف له أن يشترط علينا؟". ثم قرّرنا أن ينضمّ إلينا الشاذلي بن جديد. وهكذا استمرت محاولتي معهما. الغريب أن الملك الحسن الثاني كان مُتشدّدًا أكثر من الشاذلي بن جديد؛ فقلت له: "يا جلالة الملك. الرئيس الشاذلي موافق ولا يمكن أن تكون أنت ملكيًا أكثر من الملك"، ففوجئ الحسن الثاني وبدا الحرج على وجه الشاذلي، فقال: "السيد هذا يظل يفرض علينا شروطه"، فقلت: "يا جلالة الملك بحسب المعاهدة تتخذ القرارات بالإجماع، ولهذا كنّا نحن في ليبيا نرى أن تكون معظم القرارات بالأغلبية ما عدا قرارات السلم والحرب"، فاستغرب الملك كلامي وقال: "لا، المعاهدة لا تنصّ على الإجماع؟"، ثم طلب وزير خارجيته عبد اللطيف الفيلالي[33]، وسأله: "هل القرارات بالإجماع؟"، ثم أردف الملك قائلًا: "لا أعتقد"، لكن الفيلالي قال للملك: "لا سيدي ليست بالإجماع"، فأصررت على موقفي؛ ولذا طلب من الفيلالي إحضار نص المعاهدة. بعد نحو ساعتين كان النصّ أمامنا وهو يشير إلى الإجماع، فأردت أن أستغل الموضوع لتعديل المعاهدة، فقلت: "يا جلالة الملك هذا الوضع قد يتكرر"، فقال لي: "سي جلود، ما الحل؟"، فقلت: "تعديل المعاهدة"، فقال: "ماذا تقترح علينا؟"، فقلت: "ما عدا قرارات السلم والحرب؛ فإن بقية القرارات تكون بالأغلبية"، فقال: "أنا موافق. ماذا ترون أيها الإخوة؟". وهكذا وافق الجميع، وتحققت الآلية الضرورية لعمل الاتحاد.

(33) وزير خارجية المغرب (1985-1999).

ما فاجأني هو تأثر الملك الحسن الثاني بموقفي ومحاولاتي لإخراج الاتحاد من الجمود. قال لي: "في البداية كنت زعلان لأن سي معمّر لم يحضر. الآن أشعر أن هذا أمر جيد، فقد حضرت أنت. أنت متحرّر من أي بروتوكولات، وتتحرك بسرعة وتنجح". ثم فاجأني أنه تأثر بتأييدي أن يكون المقر في المغرب. بيد أن أكثر ما فاجأني أنه أخبر أولاده وعمّه ومجلس الوزراء بموقفي هذا، حتى إنهم جاؤوا جميعًا لتقديم الشكر لي، وكانوا يثنون على موقفي، وهذه صفة يتميز بها المغرب العربي، بعكس المشرق العربي الذي يفتقدها. كما تأثر الملك بموقفي هذا فقال لي: "أضع تحت تصرفك مجلس الوزراء المغربي، فليشتغل الطرفان المغربي والليبي تحت رئاستك لوضع تصوّر عن كيفية تنفيذ الاتفاقات الاقتصادية". وبالفعل، حضر رئيس الوزراء مع عدد كبير من الوزراء إلى فندق المنصور، وعقدنا اجتماعًا وضع خلاله الجانبان المغربي والليبي، تصوّرًا عمليًا لتنفيذ الاتفاقات، على أن يجتمع وزراء الخارجية والاقتصاد خلال أسبوعين في الدار البيضاء لاعتماد هذا التصور.

اقترحت إنشاء صندوق لتمويل حركة السلع لتعويض الدول التي تتضرر نتيجة لإلغاء الضرائب والجمارك، وأن يموّل من رسوم الواردات لدول الاتحاد من دول العالم، ومن نسبة محددة على الدخل. ولكن لم تجر تعبئة للجماهير حول الاتحاد، وخاصة في أوساط الشباب؛ إذْ لا توجد أحزاب حقيقية ذات عمق شعبي، كما لا توجد اتحادات ونقابات تعكس إرادة الجماهير، بل هي هياكل وديكورات لأنظمة غير ديمقراطية؛ ولذا فشل المشروع ومات في مهده. خلال وجودي في الفندق، قال لي العاملون، حين كنت أتحدث معهم، إن الشعب المغربي يحب الشعب الليبي، لأن الشخصية الليبية بسيطة ومتواضعة. الليبيون ليسوا مثل الخليجيين الذين يتعاملون باستعلاء. وقالوا لي: "لقد فرحنا حينما قال الأخ معمّر إن الاتحاد سيكون من أجل الفقراء والغلابة". بعد التوقيع، سافر الأخ زين العابدين مباشرة لأنه لم يكن راضيًا عن مجريات الأمور. ذهبنا، أنا والشاذلي بن جديد والملك الحسن الثاني ومعاوية ولد الطايع، لتناول العشاء في مصيف الملك.

كان الملك يمازحني. قال ضاحكًا وهو يتحدث معي ومع الشاذلي: "سي جلود، أنتم وتونس والجزائر أقرب لبعض، ومع ذلك فإن الشعب المغربي والليبي يحبان بعضهما كثيرًا"، فقلت: "يا جلالة الملك الحب يقهر الجغرافيا"، فقال لي الملك مازحًا: "لقد سجلت ضدي نقطة".

في 21 كانون الثاني/ يناير 1992، قدمت بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا مشروع قرار إلى مجلس الأمن بخصوص "لوكربي"[34]، كان المغرب عضوًا في مجلس الأمن. سافرت إلى المغرب للاجتماع بالملك الحسن الثاني. حضر الاجتماع كل من وزير الخارجية الفيلالي، والداخلية إدريس البصري[35]، ومستشار الملك أحمد رضا اكديرة ومندوب المغرب في مجلس الأمن. طلبت من الملك أن يصوت المغرب ضد مشروع القرار، وأن يقوم الملك بنفسه باستدعاء سفراء الدول الأعضاء في مجلس الأمن (الدائمين وغير الدائمين). واتفقنا على أن تشترك كل الدول العربية في المناقشات لدعم موقف المغرب. أكد لي الملك أن المغرب لن يوافق على أي قرار بفرض العقوبات على ليبيا وسيصوت ضده، ثم قال: "سي جلود. لقد كان أمامي خياران. إمّا مصلحتي أو العار فاخترت العار". وفي أثناء توديعه لي قال وهو ينفرد بي: "سي جلود. أنا معتمد عليك في تأييد المغرب بخصوص الصحراء"، وكأنه كان يريد ثمنًا لهذا الموقف، فضحكت لأنه يعرف أنني مؤيد قوي لقضية الصحراء و"البوليساريو". وللأسف، اختار الملك عند التصويت على مشروع القرار "نصف العار" حين امتنع عن التصويت. لا شك في أن الضغوط كانت شديدة، وهذا ما جعل من الصعب على المغرب التصويت ضد مشروع القرار، وشكل ذلك غطاء لامتناع بعض الدول الأخرى عن التصويت.

(34) ارتبطت قضية "لوكربي" بسقوط طائرة الركاب المدنية الأميركية "بان أم" (N739 Pan Am). في مساء يوم الأربعاء 21 كانون الأول/ ديسمبر 1988، أقلعت هذه الطائرة في رحلتها رقم "PA 103"، المتجهة من مطار هيثرو بالعاصمة البريطانية لندن إلى مطار كينيدي في نيويورك بالولايات المتحدة الأميركية، ثم انفجرت في الجو انفجارًا مدويًا، وتناثرت أشلاؤها على بلدة لوكربي الواقعة في مدينتَي دمفريز وغالواي الاسكتلنديتين غربي إنكلترا. وكانت حصيلة القتلى الإجمالية في الحادثة 270 قتيلًا أغلبهم أميركيون.

(35) وزير داخلية المغرب (1979-1999).

الخليج العربي

حين انسحبت بريطانيا من الخليج العربي عام 1971، وتنازلت لإيران عن جزر أبو موسى وطنب الكبرى وطنب الصغرى، كان رد فعل ثورة الفاتح شديدًا، حيث بادرنا إلى تأميم شركة النفط البريطانية التي كانت تنتج مليون برميل يوميًا، وأطلقنا عليها اسم شركة الخليج العربي. توجهت على الفور إلى الخليج العربي بدءًا من الإمارات (العربية المتحدة)، فالسعودية، والكويت والبحرين وقطر، وأخيرًا العراق.

وجدت دول الخليج (من السعودية حتى العراق) قد سيطر عليها الخوف من شاه إيران رضا بهلوي؛ فاقترحت أن يقوم الوطن العربي بعملٍ مشترك ضد بريطانيا باعتبارها المسؤولة قانونيًا عن هذا القرار، وأن نقوم بعمل عسكري لاسترداد الجزر، لكن السعودية ودول الخليج الخائفة عارضت الفكرة. وأذكر أنني أدليت بتصريحات أكدت فيها "عروبة الخليج العربي"، بيد أن وسائل الإعلام السعودية ودول الخليج لم تشر إلى "الخليج العربي" ولم تنشر هذه التصريحات. لقد كانوا خائفين من الشاه، وظلت وسائل الإعلام السعودية ودول الخليج تطلق تسمية "الخليج الفارسي" على "الخليج العربي". وللأسف، وجدت دول الخليج والسعودية غير مكترثة بمصير هذه الجزر، وكانت مُستسلمة للأمر الواقع، ورفضت أي إجراء، سواء ضد الشاه أو ضد بريطانيا. كما فوجئت بأن إمارات الخليج، حكامًا ومواطنين، كانوا ينظرون إلى الإنكليزي على أنه "إله على الأرض". لمّا وصلت إلى مطار أبوظبي، فوجئت بالعسكريين الإنكليز يرتدون الملابس العسكرية مع "الشال" والعقال الخليجي فوق رؤوسهم، وحين دخلت قاعة الاستقبال وجدت مجموعة من العسكريين الإنكليز، فطردتهم من القاعة. وكنت أريد من خلال طردهم أن أقول لهؤلاء إن الإنكليزي ليس "إلهًا على الأرض" وأنه مستعمر. أصيب كل من كان في القاعة بالذهول وهم يشاهدونني أطرد العسكريين الإنكليز، وبدت الدهشة والحيرة على وجوههم، ثم توجهت إلى القصر للقاء الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، وقد أقام مأدبة غداء، وكان حشد من المواطنين خارج القصر. وما إن انتهينا من تناول الطعام وغادرنا القاعة حتى انهالوا على

بقايا الطعام. كانت الإمارات ودول الخليج في ذلك الوقت تعيش في فقر شديد وتخلف. توجهت في بداية زيارتي إلى إمارة دبي للقاء حاكمها راشد بن مكتوم، وعلى الفور عقدت معه اجتماعًا حضره مهدي التاجر - وهو إيراني الأصل - وكان وزيرًا للخارجية. وفوجئت بأن التاجر هذا كان هو الحاكم الفعلي، بحيث إنّه كان يردّ علي ويناقشني، بينما كان بن مكتوم يكتفي بالاستماع؛ فغضبت غضبًا شديدًا وطردت وزير الخارجية مهدي التاجر من الاجتماع. ثم توجهت إلى إمارة الشارقة واجتمعت بحاكمها. كان هناك حشد من المواطنين يحيطون بقصر الأمير، وفوجئت بضابط إنكليزي يرتدي الشال والعقال الخليجي يحضر مع الحاكم، وحين مدّ يده لمصافحتي قال لي بالعربية: "أهلًا وسهلًا"، فلم أمدّ له يدي وقمت بطرده من الاجتماع، فدهش الحاكم وذهل الحاضرون من حاشيته وموظفيه، ثم توجهت بعد ذلك إلى رأس الخيمة واجتمعت بحاكمها، وأمضيت الليل فيها.

لقد وجدت حاكم رأس الخيمة الحاكم الوحيد الذي يشعر بالألم والمرارة من استيلاء إيران الشاه على الجزر الثلاث، وكان يستنفر مقاتليه ويحرص على تسيير دوريات على طول الشاطئ، وكانوا في حدود 150 فردًا بأسلحة خفيفة ومتوسطة. لقد وجدت السعودية ودول الخليج في حالة رعب شديد من شاه إيران، لم يكونوا يفكرون في الخليج العربي ولا في مسألة الجزر. رفضوا جميعًا اتخاذ أيّ إجراء ضد إيران الشاه أو ضد بريطانيا. كان الخوف يتملكهم ويفرض عليهم أن يتغاضوا في بياناتهم ووسائل إعلامهم الإشارة إلى "الخليج العربي"، وحين عرضت عليهم مشروع بيان مشترك يدين احتلال الشاه للجزر، ويشير إلى اسم "الخليج العربي"، رفضوا.

في عام 1972، قمت بزيارة بريطانيا، فوجدت مهدي التاجر[36] وقد أصبح سفير دولة الإمارات في لندن. ولما علم أنني أقوم بزيارة رسمية لبريطانيا، اتصل بسفيرنا في لندن الدكتور محمود المغربي، يسأله إن كان من الممكن أن يكون في استقبالي في المطار ضمن السفراء العرب، لأنه متخوف

(36) مستشار الشيخ راشد بن سعيد آل مكتوم ومدير شؤون البترول في دبي، أول سفير للإمارات لدى المملكة المتحدة في عام 1971. واستمر في ذلك المنصب حتى عام 1987.

من أن يحصل له الموقف القديم نفسه، فقلت للسفير: "الأمر الآن مختلف. هو سفير دولة. لا مانع من حضوره ضمن السفراء العرب".

وفي العام ذاته، حين كنت وزيرًا لثلاث وزارات (الاقتصاد، والخزانة، والصناعة)، زرت الكويت لحضور اجتماع وزراء الاقتصاد والصناعة العرب. وكنت في ذلك الوقت شابًّا مُتحمسًا، فقدمت للمؤتمرين اقتراحات وتصورات للتكامل الاقتصادي العربي. ومن بين هذه التصورات، أن تكون الصناعات البتروكيماوية وصناعة الحديد والصلب والصناعات العسكرية على مستوى قومي، كما اقترحت تأسيس شركة لناقلات النفط، وشركة بحرية لنقل البضائع في الاتجاهين، وربط شبكات الكهرباء بعضها مع بعض، وخاصة الدول المتجاورة، إضافة إلى ربط الوطن العربي بشبكة سكك حديد، وشق الطرق العريضة والمزدوجة لتسهيل نقل الأفراد والتجارة البينية. كما اقترحت إلغاء الضرائب والجمارك على تبادل السلع بين الدول العربية، وتأسيس صندوق لتعويض الدول التي تتضرر أكثر من غيرها، وتمويل الصندوق من زيادة نسبة الضرائب والجمارك على السلع المستوردة من خارج الوطن العربي، نسبة من الدخل القومي لكل بلد، ولكن "لا حياة لمن تنادي".

العلاقة مع السلطان قابوس

درس السلطان قابوس بن سعيد بن تيمور آل سعيد العلوم العسكرية والسياسية في جامعة "ساندهيرست"[37]، ورأى بأمّ عينيه أهمية الديمقراطية ومشاركة الشعب في الحكم، وكذلك التعليم في نهضة الشعوب وتقدمها.

حينما عاد من لندن إلى عُمان في عام 1970، قام بحركته الإصلاحية وأبعد والده سعيد بن تيمور البوسعيدي[38] الذي كان يفرض نظامًا متخلفًا مغلقًا. في هذا الوقت، شعرت كل دول الخليج بالذعر خوفًا من انتشار عدواها.

(37) أكاديمية ساندهيرست العسكرية الملكية (Royal Military Academy Sandhurst): كلية عسكرية بريطانية عريقة تم تأسيسها عام 1802، وهي تُعتبر مركز تدريب أساسي لضباط الجيش البريطاني، مدة الدراسة فيها 44 أسبوعًا، أي أقل من عام واحد.

(38) سلطان مسقط وعُمان (1932-1970).

وقد زارنا بعد نجاح حركته، وكان شابًّا في بداية العشرينيات، حيويًّا ووسيمًا في بدلته العسكرية، وكان معجبًا بثورة الفاتح، وقدمنا له كل الدعم، وأبلغناه أن في إمكانه الاعتماد علينا لإنجاح حركته الإصلاحية، ونصحناه بأن يستمر في الانفتاح على الشعب من دون تردد، ومن دون استسلام لضغوط دول الخليج، وقد تأثر أيما تأثر وشعر بصدق موقفنا معه، وقد زارنا مرتين في ما بعد.

زيارة الملك خالد بن عبد العزيز لليبيا

في تشرين الأول/ أكتوبر 1979، زار ليبيا الملك خالد بن عبد العزيز (1913-1982)[39] يرافقه بعض الأمراء على رأسهم سلطان. في هذا الوقت، كانت ليبيا تعيش قفزة اقتصادية، وكانت مثل ورشة كبيرة للعمل. أراد الأخ معمّر أن يطلع الملك وبقية الأمراء على معالم هذه القفزة، وأمر بأن يُعدَّ برنامج مكثف له. وحينما كان الملك يعود من زياراته إلى قصر الضيافة - ولأنه لم يكن مهتمًا بالسياسة - فقد كنّا نطلب من الأمير سلطان وبقية الأمراء أن نعقد اجتماعًا لبحث القضايا الثنائية وقضايا الأمة، لكن الأمراء كانوا في كل مرة يتذرعون بأنهم في حاجة إلى "وقت للصلاة"، ثم نفاجأ أنهم يتصلون بنا ويقولون: "نحن متعبون ونحتاج أن نستريح". وفهمنا أن قرار الزيارة كان قرار الملك شخصيًا، وأن الأمراء لم يكونوا يرغبون فيها، أو الالتزام بأي شيء خلالها. وأذكر أن الأمير فهد بن عبد العزيز حينما كان وزيرًا للداخلية، زار ليبيا، وفي أحد الاجتماعات، وكان ثلاثيًا (أنا والأخ معمّر والأمير فهد)، قال له الأخ معمّر: "أنتم شباب ونحن شباب، يجب أن نشكل جميعًا مجلسًا لقيادة الثورة العربية وقيادة الأمة"، فردّ الأمير فهد قائلًا: "أنا من الآن اعتبروني معكم عضوًا في مجلس قيادة الثورة". بعد أن انتهى الاجتماع وعاد الأمير فهد إلى قصر الضيافة، قلت للأخ معمّر: "يا معمّر أنا لا أعرف منْ يضحك على منْ. هل أنت تضحك على فهد أم فهد يضحك عليك"، فضحك معمّر ولم يعلق.

أدّى قيام "جبهة الصمود والتصدي" إلى وقف الانهيار العربي، وتمّت محاصرة كامب ديفيد. ونتيجة لقيام الجبهة، عقد مؤتمر القمة العربية، في

(39) ملك المملكة العربية السعودية الرابع (25 آذار/ مارس 1975 - 13 حزيران/ يونيو 1982).

بغداد في الفترة 2-5 تشرين الثاني/ نوفمبر 1978، والتي قررت "طرد مصر" من جامعة الدول العربية، ومقاطعتها سياسيًا وثقافيًا واقتصاديًا، على الرغم من أن الدول الرجعية قاطعت نظريًا. بعد تشكُّل "مؤتمر الشعب العربي"، وهو تجمُّع للأحزاب والنقابات والاتحادات والشخصيات الوطنية والقومية، كان من المفروض أن يشكل رافعة ورافدًا وعمقًا جماهيريًا لجبهة الصمود والتصدي، لكن لضعف قوى المعارضة وضعف النقابات التي كانت مجرد ديكور للأنظمة ولم تكن نتاجًا لجماهير النقابات، لم يتمكن من القيام بأي دور فعال. ولمّا تصدّعت جبهة الصمود والتصدي ودبّ الخلاف بين أعضائها، بعد حرب الخليج الأولى (أيلول/ سبتمبر 1980 -آب/ أغسطس 1988)، وحاجة العراق إلى دعم مصر، تحوّل موقف العراق الذي استضاف المؤتمر، وأصبح من أكبر المنادين بعودة مصر، بل إنه كان أول من أعاد العلاقات معها، وأقام مع الأردن واليمن الشمالي ومصر تجمعًا اقتصاديًا هو "مجلس التعاون العربي". وهكذا، بدأت قوى الاستسلام تأخذ زمام المبادأة، وبدأت بوادر الانهيار العربي.

العلاقة مع اليمن

أعطت ثورة الفاتح اليمن أهمية قصوى، فاستثمرنا الجهد والوقت ودعمناه بالمال والسلاح؛ لأننا نؤمن بقوة بأن بناء دولة ديمقراطية تعددية، تقوم على مؤسسات راسخة، وكذلك تحقيق وحدة اليمن، سيحدثان تغييرًا هائلًا في الخليج العربي، سياسيًا واجتماعيًا؛ ذلك أن الملك عبد العزيز آل سعود (1876-1953)[40] ترك وصية خطيرة لأسرته، قال فيها: "خيركم وشركم من اليمن"، فماذا يعني هذا؟ يعني هذا إبقاء اليمن قَبَليًّا متخلفًا ومجزًّأ، أي "وضع الأسد في القفص". وقد اتخذ التآمر على اليمن أبعادًا أخطر، حين وقّع الملك عبد العزيز مع فرانكلين روزفلت اتفاق ما عُرف بتحالف الأمن مقابل النفط[41]؛

---

(40) مؤسس المملكة العربية السعودية الحديثة وأول ملوكها.

(41) تم التوصل إلى اتفاق كوينسي (Quincy Pact) في 14 شباط/ فبراير 1945، وذلك على متن الطراد "يو أس أس كوينسي" (CA-71)، بين الملك عبد العزيز آل سعود والرئيس الأميركي فرانكلين روزفلت العائد من مؤتمر يالطا.

الأمن في الداخل، والأمن "من اليمن". لقد سهرنا وتعبنا من أجل تحقيق هذا الهدف. ولكن لأن "الوصية" أصبحت استراتيجيا للأسرة السعودية ولبريطانيا والولايات المتحدة بعد هذا التحالف، وأخذت مخابرات هذه البلدان تلعب وتخرب في ميدان اليمن، فاشترت الذمم والولاءات القبلية، واخترقت المؤسسة السياسية الشكلية في اليمن الشمالي، واخترقت أيضًا المؤسسة العسكرية، وقد صُدمنا لمّا اكتشفنا ضعف القوى الوطنية والقومية، فقررنا بذل جهد ثوري مخلص مع القيادات التقليدية خلال مرحلة عبد الكريم الإرياني. لكن على الرغم من العواطف والمجاملات، كنّا نشعر بأنهم غير جادين وأنهم لا يملكون الوعي ولا الإرادة، وكان كل همّهم الحصول على المساعدات والدعم لليمن الشمالي. وقد نجحنا في تشكيل لجان للوحدة بين الشمال والجنوب، لكن هذه المحاولات فشلت بسبب تضافر العوامل الداخلية مع التآمر الخارجي، إضافة إلى اختلاف النظامين في الشمال والجنوب، وكذلك سطوة أسرة آل سعود المالية على اليمن الشمالي، وخاصة على شيوخ القبائل والمتنفذين في الدولة. بعد ذلك، قررنا إقامة تحالف بين القوى القومية والوطنية والناصريين وبعض الرموز الوطنية والقبلية في الشمال، واتخذنا قرارًا ببناء قوة عسكرية تقوم على متطوعين من الشمال بتمويل وتسليح ليبيين، مدعومة بقوات من الجنوب لإسقاط النظام في الشمال وإقامة حكومة وطنية وإعلان قيام الوحدة بين شطري اليمن. ونظرًا إلى هيمنة السعودية والقوى الغربية على شمال اليمن، ولتخوّف النظام الماركسي في الجنوب من أن يكون الخاسر الأكبر من أي وحدة، كان عبد الفتاح إسماعيل[42] وأعضاء المكتب السياسي للحزب الاشتراكي، يقولون لنا: "أتريدون منّا أن نسلم ثورتنا إلى السعودية أيضًا؟". وهكذا، فشلت محاولتنا الثانية لتحقيق الوحدة بالقوة العسكرية. لقد زادت آمالنا بتحرير اليمن الشمالي من سطوة أسرة آل سعود والغرب، بوصول

(42) عبد الفتاح إسماعيل (1939-1986): رئيس هيئة أركان مجلس الشعب الأعلى، ورئيس سابق لدولة جنوب اليمن، ومنظّر سياسي، ومؤسس وزعيم الحزب الاشتراكي اليمني (21 كانون الأول/ديسمبر 1978 إلى 1980). أُعدم في 13 كانون الثاني/يناير 1986 جنبًا إلى جنب مع ثلاثة آخرين بحجة التآمر لقلب نظام علي ناصر محمد.

الأخ الشهيد إبراهيم الحمدي[43] إلى السلطة، وبدا لنا أن ضوءًا بدأ يظهر في نهاية النفق، وأن إمكانية تكسير "القفص وخروج الأسد" أصبحت ممكنة. بيد أن القوى المعادية لوحدة اليمن وتقدمه قضت على هذا الأمل في مهده حين اغتالت الحمدي. وهكذا فشلت كل محاولاتنا لتحقيق هذا الهدف السامي. وأنا آمل من كل قلبي وعقلي أن تضع القوى القومية والتقدمية لا في اليمن وحده، بل في الأمة كلها، هذا الهدف في أعلى سلّم أولوياتها النضالية، لِما لليمن من رصيد حضاري وتاريخ عظيم، إضافة إلى موقعه الجغرافي في الخليج. إن تحقيق هذا الهدف يقلب موازين القوى في الخليج وفي الأمة.

في إحدى زيارات الأخ عبد الفتاح إسماعيل إلى ليبيا، رفقة الأخ علي عنتر وزير الدفاع، وصالح مصلح وزير الداخلية، وعند اجتماعنا بهم - أنا والأخ معمّر - سألهم الأخ معمّر عن الأوضاع في الجنوب، فقالوا لنا: "توجد لدينا قبيلة تسمى قبيلة المقارحة على حدودنا مع الشمال. هذه القبيلة كثيرًا ما تخلق لنا المشكلات، وقبل الزيارة قمنا بـ'تجزير' (أي قتلنا) ثمانين فردًا منهم". فردّ عليهم الأخ معمّر: "أنتم قتلتم ثمانين فردًا من هذه القبيلة وتريدون من ليبيا أن تساعدكم؟"، فردوا: "لا، لا الرائد عبد السلام جلود ليس مثلهم". ولمّا تولى علي ناصر محمد منصب رئيس الدولة[44]، بدأ يجمع من حوله الانتهازيين والموظفين بدلًا من الثوريين، وقد نبهتُه إلى خطورة ذلك. وفي إحدى زياراتي إلى عدن، وحين استقبلني علي ناصر في المطار، لاحظت تغيرًا كبيرًا، فقد كان المطار يعج بسيارات المرسيدس الفارهة من نوع 400 و500، فقلت

---

(43) إبراهيم الحمدي (1943-1977): سياسي وقائد عسكري يمني، كان رئيس الجمهورية العربية اليمنية (13 حزيران/ يونيو 1974 - 11 تشرين الأول/ أكتوبر 1977) لمّا اغتيل هو وأخوه عبد الله في ظروف ما زالت غامضة.

(44) علي ناصر محمد (1939-): رئيس جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية خلال فترتين رئاسيتين، حيث عمل رئيسًا لمجلس الرئاسة (26 حزيران/ يونيو - 27 كانون الأول/ ديسمبر 1978)، ورئيسًا للجمهورية في نيسان/ أبريل 1980 بعد استقالة الرئيس السابق عبد الفتاح إسماعيل وذهابه إلى المنفى في موسكو.

لعلي ناصر: "من أين هذه السيارات الفارهة؟" فقال: "هذه هدية من ياسر عرفات". فقلت له: "عرفات أفسد الثورة الفلسطينية، والآن يريد إفسادكم".

في 13 كانون الثاني/ يناير 1986، نفذ علي ناصر جريمته الشنيعة، حين فجر حقيبة متفجرات بمقر القيادة خلال اجتماعها، وكان قد تخلف عن الحضور عن عمد، فقضى على أعضاء القيادة. ولا أعرف إنْ كانت هذه الجريمة قد دبرها علي ناصر للتفرد بالسلطة، أم إن الأمر كان مخططًا معاديًا لليمن من تدبير قوى خارجية، لكن الأمر الإيجابي الذي حدث أن قيادات الصفين الثاني والثالث في الحزب الاشتراكي، قاومت "انقلاب" علي ناصر ومجموعته، بحيث إنّه هرب خارج اليمن منذ الساعة العاشرة من يوم الجريمة.

وسواء كنّا نختلف أو نتفق على دور هذا الحزب، فإن الحقيقة - بالدليل القاطع - هي أنه متجذر في الشعب، ومبني بطريقة علمية. إنها تجربة تستحق أن تدرَس، وأخيرًا أقول إن حركة التاريخ ستستمر، وسيظل هدف تحرير اليمن وبناء نظام سياسي تقدمي هو الهدف السامي.

لغز اختفاء موسى الصدر

خلال احتفالات الفاتح من سبتمبر كل عام، يحضر العديد من الوفود الرسمية والحزبية والشخصيات المرموقة. في كل عام، وقبيل بدء الاحتفالات بأسابيع، يجتمع معمّر بمدير المراسم وكذلك بمسؤول العلاقات مع الأحزاب والمنظمات في العالم أحمد الشحادتي، ويبلغ إليهما أسماء الشخصيات التي يرغب في حضورها. في احتفالات الفاتح من سبتمبر 1978، كان الإمام موسى الصدر[45] من بين الشخصيات التي دعاها القذافي. وفي الواقع لم أكن أعرف أن القذافي دعا الصدر لزيارة ليبيا، إلا بعد أن أعلنت وكالات الأنباء اختفاءه.

(45) موسى الصدر (1928- اختفى في 31 آب/ أغسطس 1978): رجل دين وزعيم سياسي لبناني. ولد في مدينة قم في إيران. ينتمي إلى عائلة الصدر التي تعود أصولها إلى جبل عامل في لبنان، درس في النجف لإكمال دراسته الدينية، لكنّه عاد إلى إيران بعد الانقلاب في العراق في عام 1958. في 25 آب/ أغسطس 1978، سافر إلى ليبيا مع اثنين من أصحابه للاجتماع مع المسؤولين الحكوميين بدعوة من الرئيس معمّر القذافي. شوهد الثلاثة آخر مرة في 31 آب/ أغسطس، ولم يُسمع عنهم أي شيء بعد ذلك.

ما إن سمعت بالنبأ، حتى اتصلت هاتفيًّا بأحمد رمضان مدير مكتب القذافي وطلبت منه أن يوصلني هاتفيًّا بالأخ معمّر لأتحدث معه، وكنت في حالة غضب شديد. قلت له: "ما هذه الجريمة الشنعاء التي ارتكبتها؟ هل من المعقول أن تدعو شخصًا وهو في ضيافتك وفي بيتك، باعتبار ليبيا هي بيتنا الكبير، ثم ترتكب هذه الجريمة؟ هذا ليس من الشهامة والمروءة والرجولة. إنه عمل خسيس وغير أخلاقي ومدمر"، فقال لي بغضب: "أنت تتهمني بقتل موسى الصدر؟ برّا دوّر عليه (اذهب وابحث عنه) أنا لا أعرف عنه أي شيء"، ثم أغلق سماعة الهاتف في وجهي. وهذه الواقعة ذكرها أحمد رمضان عند التحقيق معه بعد سقوط النظام.

ثم اتصلت بمدير الأمن الداخلي العقيد، محمد الغزالي، وقال لي: "أنا لا علم لدي بهذه القصة. ما أعلمه هو ما تقوله وكالات الأنباء"، ثم اتصلت بأحمد خطاب، وهو مسؤول الأمن في صالة كبار الزوار في المطار، وقلت له غاضبًا: "عليكم أن تخرجوا لي الإمام موسى الصدر من تحت الأرض وإلا فسوف أعدمكم جميعًا"، وهذا ما قاله خطاب في صفحته في "فيسبوك". وبعد ذلك، علمت أن القذافي طلب من أجهزة الأمن أن يختاروا له شخصًا بحجم وطول الإمام الصدر، ليتقمص شخصيته ويلبس ملابسه ليغادر إلى روما. وبالفعل رشحوا له أحد الضباط وهو برتبة عقيد في الأمن الداخلي اسمه إمحمد علي المبروك الرحيبي. وفي هذا السياق، أذكر أنّ الأخ معمّر، خلال لقاءاتي معه، كان يقول لي دائمًا إنه يرفض ويعارض بشدة أن تتولى شخصية شيعية إيرانية زعامة الشيعة العرب في لبنان أو العراق، وكان يقول: "الإمام الصدر هذا إيراني وإنه مدسوس في الطائفة الشيعية، وإن قيادة الشيعة في العالم العربي يجب أن تكون قيادة عربية".

العلاقة مع السودان

استمرت محاولاتنا لإسقاط حكم جعفر النميري[46] في السودان، بالتعاون مع جون قرنق[47] في الجنوب ومع أحزاب المعارضة في الشمال (حزب الأمة

(46) جعفر النميري: رئيس الجمهورية السودانية (1969-1985).

(47) جون قرنق (1945-2005): زعيم الحركة الشعبية لتحرير السودان والنائب الأول السابق لرئيس الجمهورية في السودان قبل الانفصال ورئيس حكومة جنوب السودان.

القومي والحزب الاتحادي الديمقراطي)[48] سنوات طويلة. وكنّا في السابق قد حاولنا إسقاطه من خلال التعاون مع حزبي "الأنصار" بقيادة الصادق المهدي، و"الاتحاد" بقيادة الشريف الهندي. وقد فشلت محاولتان انطلقتا من منطقة الكفرة الليبية، إحداهما كادت أن تنجح، لكنها فشلت لأن القوات المهاجمة لم تتعرف على مقر الإذاعة في الخرطوم. وقد أعدنا بناء هذا التحالف بإعطائه زخمًا أكبر عن طريق زيادة الدعم العسكري والمالي. لقد حاولنا قصف الإذاعة في الخرطوم بطائرات "تو-22" ["توبوليف-22"] القاذفة، لكنها أخطأت هدفها.

وحينما وقع الانقلاب الشيوعي في 19 تموز/يوليو 1971[49]، تمّ اعتقال النميري. كانت طائرة زعيم الانقلاب هاشم العطا في طريقها من لندن إلى الخرطوم عبر الأجواء الليبية، فقمنا بإجبارها على الهبوط في مطار طرابلس. وهكذا فشل الانقلاب وأطلق سراح النميري، فسلمنا هاشم العطا للخرطوم. سببت لنا هذه العملية إحراجًا شديدًا، وأفسدت علاقاتنا مع الأحزاب الشيوعية في العالم وخاصة مع الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية. والغريب أن السادات لم يفعل أي شيء، وعلى العكس من ذلك أرسل السيد أحمد حمروش[50] للاتصال بالانقلابيين. طلبنا من السادات أن نقوم بعمل عسكري مشترك لإعادة النميري إلى السلطة، لكنه رفض. كان عباس زكي نائب الرئيس النميري ووزير الدفاع في زيارة خارج السودان، فجاء إلى مصر، وطلب من

(48) حزب الأمة القومي: تأسس في شباط/فبراير 1945، وقد سعى مؤسسوه إلى تحقيق الاستقلال وبناء الدولة السودانية المستقلة.

أما الحزب الاتحادي الديمقراطي، فيُعتبر من أقدم الأحزاب السياسية في السودان. وهو اتحاد من حزبين سياسيين هما الوطني الاتحادي والشعب الديمقراطي. وكان إسماعيل الأزهري، أول رئيس وزراء لجمهورية السودان بعد الاستقلال، رئيسًا للحزب حينما كان باسم الحزب الوطني الاتحادي، فقاد به معركة الاستقلال.

(49) حركة يوليو: هي حركة تصحيحية عسكرية في السودان بمساعدة الحزب الشيوعي، قادها هاشم العطا، وقامت بانقلاب عسكري ضد نظام النميري في عام 1971، واستلمت السلطة ثلاثة أيام، ثم انقلب عليها النميري وأعدم كل قادتها.

(50) أحمد حمروش (1921-2011): كاتب ومؤرخ مصري، من الضباط الأحرار، ورئيس اللجنة المصرية للتضامن، وأحد أبرز مؤرخي ثورة 23 يوليو.

السادات أن يسمح له بإذاعة بيان من **إذاعة القاهرة**، فرفض السادات أيضًا؛ ولذا وصل إلى طرابلس ومعه محمد صادق وزير الدفاع المصري[51]. أذعنا البيان الذي أعده عباس زكي من الإذاعة الليبية، واتخذنا قرارًا بالعمل العسكري منفردين للقضاء على الانقلاب، وبدأنا التخطيط لتنفيذ هذا العمل، لكن إجبار طائرة زعيم الانقلابيين واعتقاله أفشلت الانقلاب ولم نعد في حاجة إلى التدخل. واليوم أشعر بأن هذا كان خطأً فادحًا.

بعد أن لعب "مسيلمة الكذاب" - أي النميري - كل أوراقه في خداعنا؛ تارة يزعم أنه ناصري وتارة أخرى أنه قومي - وحدوي، وأحيانًا ماركسي وأخيرًا إسلامي حين أعلن نفسه "أميرًا للمؤمنين"، ظهر على حقيقته. ثم بدأت بوادر ثورة شعبية ضده تلوح في الأفق؛ إذا بالنقابات تنظّم نفسها وتشن سلسلة إضرابات وتظاهرات، وقد قادتها نقابتا الأطباء والمهندسين، وشاءت إرادة الله أن يخطئ "مسيلمة الكذاب" في تقدير الموقف فسافر إلى الولايات المتحدة للقاء الرئيس ريغن الذي اجتمع به لمدة خمس عشرة دقيقة. في 6 نيسان/ أبريل 1985، انتفض الشعب السوداني بقيادة قواه الحية، وخاصة النقابية، وزحفت الجماهير نحو القصر. كان الفريق عبد الرحمن سوار الذهب هو القائد العام للقوات المسلحة ووزير الدفاع، فعقد اجتماعًا لقادة القوات المسلحة لدراسة الأوضاع الخطيرة في البلاد.

رفض هؤلاء مواجهة الشعب بالرصاص، وكان سوار الذهب قد أقسم للنميري ألّا يخونه وأن يظل وفيًّا له. أمضى سوار الذهب الليل كله وهو يطوف على الزوايا والتكايا والمزارات، طالبًا من المشايخ تبرئته من هذا القسم ومن أي مسؤولية عن الثورة الشعبية ضد النميري. في هذا اليوم وحوالى الساعة الحادية عشرة صباحًا، كنت أنا والأخ معمّر في الخيمة بمعسكر باب العزيزية، واتصلنا هاتفيًّا بالرئيس الإثيوبي منغيستو، وصادف أن كان معه العقيد جون قرنق. قلنا له: الآن الشعب السوداني انتصر، وتحقق الهدف وعلينا أن نقف

---

(51) محمد أحمد صادق (1917-1991): وزير الحربية والقائد العام للقوات المسلحة المصرية (15 أيار/ مايو 1971 - 15 تشرين الأول/ أكتوبر 1972).

معه، فرد علينا منغيستو: "لا، أميركا أرادت أن تسبق الثورة الشعبية ونفذت الانقلاب"، فقلنا: "لا دخل لأميركا بما يجري في السودان. المجلس العسكري هو مجلس مؤقت لإدارة البلاد إلى حين إجراء انتخابات"، فردَّ منغيستو: "المجلس المؤقت لن يسلم السلطة ولن يتنحى. هذه خدعة". كان من الواضح أننا بدأنا نختلف بشأن الموقف من السودان. سافرت يوم 7 نيسان/ أبريل إلى الخرطوم على رأس وفد كبير، وحظيت وأعضاء الوفد باستقبال شعبي أخوي حار، حيث نظمت لي جماهير حزبي "الأنصار" و"الاتحاد" استقبالات شعبية وألقيت عدة خطابات في الجماهير. في أحد هذه الخطابات قلت: "الحمد لله أن الكلام الذي كنّا نقوله عن النميري في طرابلس، نقوله الآن في الخرطوم، والعميل النميري قابع في القاهرة". وقلت أيضًا: "لقد حان الوقت لكي تهب رياح الثورة والتغيير من جنوب وادي النيل على شماله، بعد أن كانت رياح الثورة تهب من شماله"، وقلت: "إنه دجال يغير جلده كلما دعت الحاجة". في إحدى زياراته لليبيا وكانت في شهر رمضان، فوجئنا بأنه كان مفطرًا ويشرب الخمر في النهار، وحدث أن كان معه وزير اقتصاده، وهو رجل مسيحي، إلا أنه كان يراعي مشاعرنا فلم يكن يأكل أو يدخن أمامنا على عكس "أمير المؤمنين".

خلال زيارتي للخرطوم بعد التغيير، التقيت بحوالى ألفَي مواطن سوداني كان النميري قد قطع أيديهم بسبب السرقة، فقلت لهؤلاء وللجماهير السودانية: "هذا ليس من الإسلام في شيء. قطع اليد تعني منعها من أن تسرق. إن السارق الحقيقي هو النميري وزبانيته الذين امتصوا دم الشعب السوداني"، وقلت: "حين تتاح لكل واحد فرصة العمل ويتم توزيع الثروة بشكل عادل، وتتوافر لكل مواطن حاجته الضرورية، في هذه الحالة تصبح السرقة عادة سيئة ومرضًا. هنا فقط يمكن تطبيق العقوبة". بعد ذلك، أجريت محادثات مع سوار الذهب ووجدته إنسانًا متخلفًا، وكان أعضاء المجلس أكثر وعيًا منه، كما اجتمعت برئيس الوزراء الجزولي دفع الله[52] الذي كان رئيس نقابة الأطباء، وأجريت معه حوارات معمقة،

(52) الجزولي دفع الله: رئيس وزراء الحكومة الانتقالية لجمهورية السودان (22 نيسان/أبريل 1985 - 15 كانون الأول/ ديسمبر 1985).

وأذكر أنني قلت له: "إن الشعب السوداني رائد في تفجير الثورات الشعبية، لكن الدرس المستفاد هو أن الشعب السوداني بعد نجاح الثورة يعود إلى عمله ويسلم السلطة للأحزاب، فيبدأ الصراع بين الأحزاب التي تفشل في إدارة الدولة فيحدث انقلاب عسكري، ثم يفشل العسكر ويقوم الشعب بالثورة من جديد"، وقلت له: "حان الوقت لأن يستلم الشعب سلطته ويقيم السلطة الشعبية". ونظرًا إلى إلحاحي عليه، رد الدكتور الجزولي مازحًا: "يا أخ عبد السلام أعطونا فرصة ولا تضغطوا علينا. الشعب السوداني يرفض كل شيء مفروض عليه"، ثم قال: "حتى الإسلام حينما جاء بالقوة رفضناه وحاربناه".

في وقت سابق وقبل سقوط النميري، كنّا قد وقّعنا مع الصادق المهدي، زعيم حزب الأمة، على اتفاق يقضي بأن الوحدة بين ليبيا والسودان تقوم فور سقوط النميري، ولكن لمّا سقط تنصل المهدي من هذا الاتفاق وقال إن السودان ليس جاهزًا للوحدة؛ "فهو لم يحقق حتى وحدته الوطنية. وحينما يحل السودان مشكلاته سوف يلتحق بركب إخوته العرب الذين ينجحون في تحقيق الوحدة". كانت هذه صدمة قوية لي، وقلت: "لو في إمكان أي قطر عربي أن يحل مشكلاته لما كانت هناك ضرورة للوحدة، ولكنني أخالفك الرأي". كان السادات يقول لنا: "اتركوا لي السودان ولا تزاحموني عليه وسوف أترك لكم تشاد". لقد أعطينا السودان الكثير من وقتنا وتفكيرنا وأنفقنا الأموال الطائلة (أسلحة، وتدريب، وتموين، ووسائل نقل، ومساعدات مالية للأحزاب) فضلًا عن الدعم الاقتصادي السخيّ، ولكن – للأسف – من دون أي مردود وطني أو قومي تقدمي. بيد أن سقوط النميري في السودان وبورقيبة في تونس، كسر الطوق المضروب من حولنا، وسقط هذا الحصار كليًّا مع موت السادات وسقوط هبري. كانت زيارتي للسودان من الزيارات التي أعتز بها، حيث عشت الأيام الأولى للثورة الشعبية، وأجريت حوارات معمقة مع حزبي الأمة والاتحاد ومع الدكتور حسن الترابي، وكانت تتواصل حتى الساعات الأولى من الصباح، كما حضرت الأمسيات الشعرية التي صورت الدعم السخي الذي قدمته ثورة الفاتح للسودان وللشعب السوداني في نضاله من أجل إسقاط حكم النميري. لقد صور الشعراء في لوحة جميلة أعمال المقاومة التي انطلقت من مدينة الكفرة الليبية من جانب مقاتلي

حزبي الأنصار والاتحاد. كانت الزيارة زيارة ممتعة شاركتُ فيها الجماهير السودانية انتصارها وفرحها، وسأظل أتذكر هذه الزيارة ما حييت.

ثم بدأت الدورة نفسها؛ إذْ فشلت الأحزاب في إيجاد حلول لمشكلات السودان، ولم تتفق على مفهوم الحكم وأسلوبه. سأعود بذاكرتي إلى فترة سبقت سقوط النميري تحالف فيها حسن الترابي مع النميري وأصبح الترابي مستشارًا. تمكن الترابي، مستغلًا موقعه، من اختراق الجيش وتشكيل جناح عسكري للجبهة الإسلامية، فقادت الجبهة وجناحها العسكري ما عُرف بـ"ثورة الإنقاذ" في عام 1989 ضد حكومة الصادق المهدي؛ فأصبح عمر حسن البشير[53] رئيسًا للدولة. طرحت الجبهة لأول مرة رؤية تقدمية إسلامية، ركزت فيها على شعارات الوحدة والعدالة والصحوة الإسلامية. لكن نظرًا إلى الضغوط والعقوبات الأميركية ووضع السودان على قائمة الإرهاب، نتيجة علاقة ثورة الإنقاذ بأسامة بن لادن[54]، أصبح السودان في قلب أزمة داخلية وخارجية انتهت بسقوط البشير.

لم يخطر في ذهني حتى لحظة واحدة أنّ الشعب السوداني يمكن أن يسمح بخيانة نضاله وتاريخه وخيانة قضية فلسطين. إنه مثل صارخ على أن هذا الزمن هو الزمن الرديء وأنه زمن البترودولار، وحيث إنّنا أصبحنا نشهد "ثورات الخبز" بدلًا من "ثورات القيم والمبادئ". ماذا حدث لهذه الأمة؟ أصبحت أمة تعيش بالخبز وحده.

صدام حسين واحتلال الكويت

بعد فشل صدام حسين في تنفيذ المهمة التي كلفته بها الولايات المتحدة والرجعية العربية في الخليج، للقضاء على الثورة الإسلامية في إيران، مستغلين "عقليته الطاووسية". وبعد المأساة التي استمرت ثماني سنوات من الحرب

---

(53) رئيس الجمهورية السودانية (1989–2019).

(54) وصل أسامة بن لادن إلى السودان عام 1991 بعد خلافه مع العائلة الحاكمة في المملكة العربية السعودية بشأن دعمها للولايات المتحدة في حرب الخليج ضد العراق، وغادر السودان إلى أفغانستان عام 1996.

العراقية - الإيرانية، أقدم، في 2 آب/ أغسطس 1990، على مهاجمة الكويت. لقد نصبت له واشنطن فخًّا وجرّته إلى احتلال الكويت، كي تدمر ترسانة العراق من السلاح. كانت الولايات المتحدة قد زودته خلال الحرب ضد إيران بأسلحة متطورة، بما في ذلك معدات الحرب الإلكترونية، وزودته أيضًا بكل ما يلزم من معلومات استخباراتية. وكما نشرت وسائل الإعلام، فقد أعطت السفيرة الأميركية[55] في بغداد صدام حسين انطباعًا بأن واشنطن لا تمانع غزو الكويت. في هذا الوقت، وبعد أن اجتاحت القوات العراقية الكويت، وأعلنتها المحافظة العراقية التاسعة عشرة في 28 آب/ أغسطس 1990 وتغيير اسم مدينة الكويت إلى الكاظمية، اتصل بنا الرئيس المصري محمد حسني مبارك[56]، وقال لنا إن السفير الأميركي أبلغه بأن الإدارة الأميركية عازمة على طرد القوات العراقية من الكويت، وترغب في مساهمة مصر وسورية بقوات "رمزية"، وقال: "لقد أخبرت السفير الأميركي وقلت له، كلا إننا لن نشارك بقوات رمزية بل بقوات حقيقية". بعد نحو أسبوع تقريبًا، عاود الرئيس مبارك الاتصال بنا، وقال: "زارنا جيمس بيكر وزير الخارجية الأميركي، وقال لنا إنهم يريدون أن تشارك مصر وسورية بقوات كبيرة، وأن تكون هذه القوات في المقدمة".

لمّا كانت الولايات المتحدة تحشد قواتها لطرد القوات العراقية من الكويت، سعت إلى التغطية على قرارها هذا، بأن تحصل على شرعية لقرارها من الحكام العرب "الذين لا شرعية لهم". أما في الحقيقة، فقد كان هدفها هو "تدمير الترسانة العراقية" بوصفه مطلبًا صهيونيًا وأميركيًّا ورجعيًا عربيًا. وهكذا عقد مؤتمر القمة العربية الطارئة في القاهرة يوم 10 آب/ أغسطس 1990، وتبنى الحكام العرب فيه قرار "طرد القوات العراقية من الكويت"، بحيث بدا كأنه قرار عربي، وهو في الواقع قرار أميركي. لقد واجهت القيادة الليبية موقفًا صعبًا، فقبيل عقد القمة كنّا نعلم مسبقًا أن هذا القرار مُعدّ سلفًا، فكان أمامنا إمّا أن نتغيب عن القمة الطارئة، وإمّا نحضر ونعلن رفضنا. بعد أن درسنا هذين

(55) أبريل كاثرين غلاسبي (April Catherine Glaspie) (1942-): سفيرة الولايات المتحدة الأميركية في العراق، اشتهرت بدورها في الأحداث المؤدية إلى حرب الخليج الثانية.

(56) رئيس جمهورية مصر العربية (1981-2011).

الخيارين، قررنا المشاركة على أعلى مستوى، وقد حضر الأخ معمّر المؤتمر قصد إسقاط القرار إعلاميًا وقانونيًا. لم يكن القرار الذي تبناه الحكام قانونيًا، لأنه مخالف لميثاق الجامعة والنظام الداخلي اللذين يشترطان الإجماع. وبما أن ليبيا رفضت القرار فقد أصبح القرار غير شرعي، فما كان من الأخ معمّر إلا أن نهض ومزّق القرار تعبيرًا عن "قرار الأمة" وقواها الحية.

في هذا المؤتمر، ظهر الحكام العرب على حقيقتهم في وضعٍ مهين وبائس. ومع ذلك، حاولنا الإبقاء على تواصل مستمر مع الرئيس حسني مبارك والرئيس السوري حافظ الأسد، لعلنا نحدّ من اندفاعهما، فقررنا دعوتهما لعقد اجتماع ثلاثي في مصراتة، لكنهما اشترطا عقد اجتماع لوزراء الخارجية (ليبيا ومصر وسورية) في القاهرة، لصياغة البيان الذي سوف يصدر عن الاجتماع. وبالفعل، عُقد الاجتماع وقدمت مصر وسورية مسوّدة "مشروع بيان" معيب وسيئ، لأنه "يلتف" على موقف ليبيا. لقد سعى إبراهيم البشاري أمين الخارجية، وعبد الله السنوسي[57] مدير المخابرات الحربية، وموسى كوسا مسؤول العلاقات مع الحركات الثورية وحركات التحرر الوطني، إلى "حجب" محتوى هذا البيان عنّي. ولمّا علمت بالأمر، اتصلت بالأخ معمّر الذي كان في هذا الوقت في مدينة مصراتة، وقلت له: "إذا تراجعنا عن موقفنا هذا وحضر مبارك والأسد وصدر البيان، عليك أن تعتبرني مستقيلًا". فقال لي: "نحن وافقنا على البيان لكي نضمن مشاركتهم في اجتماع مصراتة، وحين يحضرون لن يصدر أي بيان"، ثم قال: "اركب الطائرة وتعال لحضور الاجتماع". في اليوم نفسه، ذهبت إلى مصراتة، واتفقت مع الأخ معمّر على أن نقول لحسني مبارك والأسد حينما يصلان، إن مواقفنا من القرار الأميركي بـ"تحرير الكويت" قد تحددت، والآن علينا أن نتدارس حال الأمة بعد تدمير القوات العراقية و"احتلال الخليج". وحدث أن علم الرئيس السوداني عمر حسن البشير

(57) عبد الله السنوسي (1952-): عسكري ليبي، تربطه قرابة نسب مع معمر القذافي، فهو زوج أخت صفية فركاش، عقيلة القذافي. وقد أطلق القذافي يد السنوسي في السيطرة الأمنية على البلاد، حيث تولى عدة مناصب أمنية، من بينها قيادة جهاز الأمن الخارجي والاستخبارات العسكرية، وكذلك الجهاز الأمني الذي يقع على عاتقه الحماية الشخصية للقذافي.

بالاجتماع فطلب أن يحضر للمشاركة، فقال لي معمّر: "ما رأيك؟"، فقلت له: "أوافق على دعوته"، ثم أضفت مازحًا: "حينما يحضر البشير سوف نسقط البيان ديمقراطيًا، اثنان ضد واثنان مع. وفي حال تساوي الأصوات يُرجح الجانب الذي فيه الرئيس". وبالفعل حضر الرئيس عمر البشير. في الاجتماع، وعلى الرغم من الود والاحترام اللذين يجمعان بيني وبين الرئيس الأسد، فإنه التفت نحوي وهو في ثورة غضب قائلًا: "أنت أفسدت علينا كل شيء. يومًا ما أنت سوف تحاكَم". وخلال العشاء، كان الرئيس الأسد يحاول الضغط على الأخ معمّر من أجل إصدار البيان، لكن الأخ معمّر بطريقته الخاصة كان يناور لتمييع الموضوع على أساس أن البيان طويل وممل، فقال الأسد: "حسنًا يمكن أن يُختصر ويكون مركزًا وقصيرًا". لكن الأخ معمّر، قبيل العشاء، طلب من أمين الخارجية البشاري أن يغادر إلى طرابلس لمنع أي محاولة لعقد اجتماع لوزراء الخارجية من جديد، وهكذا أحبطنا مشروع قرار سيئ. وفي تلك اللحظات، تبادرت إلى ذهني صورة أناس تلوثت ملابسهم بالقطران وهم يريدون تلويث ملابس الجميع.

الفصل السادس

زياراتي وحواراتي مع قادة دول العالم

قبل أن أتحدث عن زياراتي وحواراتي مع قادة دول العالم، أريد أن أتحدث عن علاقاتي مع المثقفين والكتاب العرب. كنت دائمًا أحرص على اللقاء بهم، وحدث في إحدى المرات أنني التقيت بعدد من المثقفين العرب، فقلت لهم: "يُفترض أن المثقف الحقيقي هو حزب بذاته، فأين أنتم من جان بول سارتر[1]؟ حينما قامت ثورة الطلبة في فرنسا ضد شارل ديغول عام 1968[2]، وحينما شعر ديغول بالخطر أمر باعتقال القيادات الطلابية، وبدأت الثورة تخبو، قرر سارتر النزول إلى الشارع لقيادة الثورة مباشرة، بعد أن كان يدعمها من الخلف. وحين نزل سارتر إلى الشارع، أصدر وزير الداخلية أمرًا باعتقاله، لكن ديغول اتصل به وطلب منه ألّا ينفذ هذا الأمر وقال له: "أنت تريد أن تعتقل ضمير فرنسا. أتريد من الشعب الفرنسي كله أن ينزل إلى الشارع ضدي؟"، فكان ردّ المثقفين والكتاب عليّ: "أنت تطالبنا أن نكون كلنا سارتر. هات لنا الشعب الفرنسي ليحمينا".

في هذا السياق، أذكر أنني في عام 2009، بعد أن مزق الأخ معمّر ميثاق الأمم المتحدة في جلسة الجمعية العامة في أيلول/ سبتمبر من العام

(1) جان بول سارتر (1905-1980): فيلسوف وروائي وناشط سياسي فرنسي. بدأ حياته العملية أستاذًا. درس الفلسفة في ألمانيا خلال الحرب العالمية الثانية. وحين احتلت ألمانيا النازية فرنسا، انخرط في صفوف المقاومة الفرنسية السرية. عُرف سارتر واشتهر لكونه كاتبًا غزير الإنتاج، ولأعماله الأدبية وفلسفته الوجودية، ويأتي في المقام الثاني التحاقه السياسي باليسار، وكان من أبرز المؤيدين للثورة الطلابية في أيار/ مايو 1968.

(2) بدأت الثورة الطلابية-أحداث أيار/ مايو 1968 بسلسلة تظاهرات قمعتها قوى الأمن الفرنسية بشدة، وقاد ذلك إلى توسع الاحتجاجات وانضمام اتحادات النقابات العمالية في فرنسا إليها، والتي دعت إلى الإضراب العام، وتوسعت بسرعة أكبر كثيرًا مما كان متوقعًا لتشمل 11 مليون عامل، أي أكثر من 22 في المئة من إجمالي سكان فرنسا في ذلك الوقت. استمر تأثير أحداث أيار/ مايو 1968 في المجتمع الفرنسي. وتُعتبر هذه الفترة نقطة تحول ثقافية واجتماعية وأخلاقية في التاريخ الفرنسي.

ذاته، التقيت بعدد من المثقفين والكتاب والسياسيين وبعض قيادات أحزاب المعارضة العربية في طرابلس. وكانوا يحتجون على الأخ معمّر ويستهجنون ويدينون تصرفه، وكنت أستغرب تفكير هؤلاء، فكان ردّي عليهم: "نحن مزقنا الورق الذي كتب فيه الميثاق، في حين أن أميركا والدول الغربية مزقت محتوى الميثاق ومضمونه. لقد جهّزوا الجيوش الجرارة لاستعمار أفريقيا وآسيا وأميركا اللاتينية ونهبوا خيراتها وثرواتها، ومصّوا دماء شعوبها، وفرضوا عليها الفقر والجهل والمرض، كما شنت أميركا الحرب على كوريا وفيتنام. إن هذا مثل صارخ على أن معظم مثقفينا يعيشون حالة من التغرب والانبهار بالحضارة والثقافة الغربية، أفقدتهم هويتهم وصاروا ينظرون إلى الأمور بعيون غربية". وأذكر أنني في السبعينيات افتتحت معرض الكتاب في طرابلس، وكان يقام في معرض طرابلس الدولي، وألقيت كلمة قصيرة قلت فيها: "أتطلع إلى اليوم الذي تصبح فيه القراءة عادة اجتماعية، خاصة لدى شبابنا وكوادرنا، وأن أرى الطوابير على المكتبات مثلما أراها الآن على المخابز ومتاجر بيع اللحوم".

والآن سوف أتحدث عن حواراتي مع قادة العالم وزياراتي لمختلف البلدان.

فرنسا

كانت أول زيارة لي لفرنسا في بداية عام 1970، لعقد "صفقة الميراج". لم تكن الصفقة عسكرية، بل كان لها دلالات سياسية مهمة، فقد كنّا معجبين بالثورة الفرنسية والمبادئ التي جاءت بها. كما كنّا نحمل تقديرًا خاصًّا للجنرال شارل ديغول، لإيمانه بالوحدة الأوروبية ولاستقلالية قراره وموقفه من منظمة حلف شمال الأطلسي "الناتو"[3] والولايات المتحدة، وقد أبهرنا ديغول وأثلج صدورنا حين قال: "إن الدولار الأميركي لم يكن له غطاء من الذهب"، وشكك في صلاحية وصدقية الاتفاقية العالمية التي تربط الدولار بالذهب. ولمّا رفضت

(3) منظمة عسكرية دولية تأسست بناءً على معاهدة شمال الأطلسي التي وقعت في واشنطن في 4 نيسان/ أبريل 1949.

الولايات المتحدة التسليم بذلك، جمع ديغول مليارات الدولارات وطالبها بأن تدفع قيمتها ذهبًا. وبالفعل، دفعت، لكنها عام 1973 اعترفت أن الدولار لم يعد مغطًى بالذهب.

تواصلت زياراتي لفرنسا وتكررت في عهد فاليري جيسكار ديستان، وجاك شيراك[4]، اللذين كنت تعرفت عليهما حينما كانا وزيرين، واستمرت هذه العلاقة بعد أن أصبحا رئيسين. كما كان لدي علاقة صداقة قوية بالرئيس فرانسوا ميتران[5]، وحين كان رئيسًا للحزب الاشتراكي الفرنسي في بداية رئاسة ديستان تعاظم تدخلنا في تشاد، ونشأ بيننا خلاف حاد، بل وقعت بيننا "مواجهة استراتيجية" ليس في تشاد وحدها فحسب، بل في أفريقيا الناطقة بالفرنسية أيضًا، وكان لفرنسا باستمرار سفراء متميزون في طرابلس. في إحدى المرات طلب السفير الفرنسي جان بيير كابوات[6] مقابلتي، وفي أثناء اللقاء قال: "بصراحة إن المواجهة ليست بين ليبيا وفرنسا في أفريقيا، وإنما هي بين أوروبا وليبيا"، وأردف قائلًا: "أميركا اللاتينية والوسطى هي حديقة خلفية لأميركا، أما آسيا فهي لليابان والصين. أوروبا لا تملك خامات، ولا طاقة. أفريقيا هي مجالنا الحيوي، ولذا يمكن أن نجد حلًّا بيننا في تشاد، ولكن إذا هددتم مصالحنا في أفريقيا، فهذا يعني الحرب بين ليبيا وأوروبا".

بعد هذه المقابلة، قمت بزيارة فرنسا رفقة السفير عاشور قرقوم - رحمه الله - واجتمعت مطولًا بالرئيس ديستان، واستمر الحوار الساخن خلال غداء العمل. ثم أحضر الرئيس ديستان خريطة تشاد وقال لي: "يا صديقي جلود، يمكن الاتفاق معكم في تشاد، شمال خط عرض 22 لليبيا، وجنوبًا لفرنسا. أما إذا حاولتم أن تقوضوا نفوذنا أو تهددوا مصالحنا في أفريقيا، تكونوا [تكونون] قد قررتم المواجهة". وكان ردي: "أنا أرفض أن

(4) رئيس الجمهورية الفرنسية (1995-2007).

(5) فرانسوا ميتران (1916-1996): شغل منصب رئيس الجمهورية فترتين رئاسيتين (1981-1988) و(1993-1995). كان ينتمي إلى الحزب الاشتراكي الفرنسي، وقد شغل منصب أمينه العام.

(6) جان بيير كابوات (Jean-Pierre Cabouat) (1921-2017): سفير لفرنسا في ليبيا (1975-1979)، وفي كندا (1984-1987).

أتقاسم تشاد معكم، نحن شعب صغير عدد سكانه 6 ملايين ومساحته مليونَي [مليونا] كيلومتر مربع. لسنا في حاجة إلى أراضٍ من تشاد". ثم قلت له: "أنتم تعملون ضد قيم الديمقراطية التي يفترض أنكم تؤمنون بها، حيث تقفون مع مليون ونصف مليون مسيحي تشادي ضد 8 ملايين مسلم تشادي. نحن نقف مع الأكثرية ضد ظلم ودكتاتورية الأقلية". انفض الاجتماع وكان عاصفًا، لكننا اتفقنا على مواصلة الحوار في الزيارات المقبلة. وتكررت زياراتي خلال عهد الرئيس شيراك، حيث كنت ألتقي به بصفة شخصية عند زيارتي لباريس، ونشأت بيننا علاقة صداقة ومودة، وكان يكنّ لي كل تقدير وكنت كذلك أبادله المشاعر نفسها. خلال زياراتي المتكررة لفرنسا، اجتمعت عدة مرات بميتران بصفته رئيسًا للحزب الاشتراكي الفرنسي، وحين كان يستقبلني كان يقول لي: "جلود، ربما كان أحد أجدادي في الماضي البعيد عربيًا"، ثم يضيف مازحًا: "من الجيد أننا هزمناكم في معركة بواتييه"[7]. وحين تولى ميتران الرئاسة، رتب رئيس الوزراء اليوناني أندرياس جورجيوس باباندريو[8] لقاءً بين القذافي وميتران في أثينا، وكانت لنا صداقة قوية مع رئيس الوزراء اليوناني والحزب الاشتراكي، تمّ فيه التوقيع على حل المشكلة التشادية، ولكن - للأسف - لم يلتزم القذافي بالاتفاق. هذا هو معمّر. ونتيجةً لذلك، شهدت علاقاتنا مع فرنسا أسوأ مرحلة في عهد ميتران، لأنه كان يعتقد أن القذافي قد خدعه، ولهذا لم أجتمع بميتران رئيسًا.

في 2 نيسان/ أبريل 1974، توفي الرئيس الفرنسي جورج بومبيدو. مثلتُ ليبيا في مراسم الجنازة، تقديرًا لهذه الشخصية الشجاعة التي قاومت الضغوط

(7) معركة بواتييه/ معركة بلاط الشهداء: دارت في تشرين الأول/ أكتوبر 732م، في مكان يقع بين مدينتي بواتييه وتور الفرنسيتين، وكانت بين قوات المسلمين، بقيادة والي الأندلس عبد الرحمن الغافقي من جهة، وقوات الفرنجة والبورغنديين بقيادة شارل مارتل من جهة أخرى، وانتهت بانتصار قوات الفرنجة وانسحاب جيش المسلمين بعد مقتل قائده عبد الرحمن الغافقي.

(8) أندرياس جورجيوس باباندريو (1919-1996): رئيس وزراء اليونان خلال فترتين (21 تشرين الأول/ أكتوبر 1981 - 2 تموز/ يوليو 1989)، و(13 تشرين الأول/ أكتوبر 1993 - 22 كانون الثاني/ يناير 1996).

الإسرائيلية - الأميركية بخصوص صفقة الـ"ميراج". حضر الجنازة كبار قادة العالم. وبينما كنّا ننتظر خارج الكنيسة قبل دخولها، كنت أتحدث مع السيّد أولوف بالمه رئيس وزراء السويد[9]. كان الدور قد حان ليدخل ولي العهد المغربي محمد السادس، وكان آنئذٍ في العاشرة من عمره، وصحْبته رئيس وزراء المغرب أحمد عثمان[10] وميشيل جوبير وزير خارجية فرنسا. فمازحني بالمه قائلًا: "جلود، جلود. هذا الطفل يمثل الشعب المغربي؟" فقلت: "لا إنه يمثل والده"، فضحك كأنه لم يتوقع مثل هذا الجواب مني. ثم أقام رئيس مجلس الشيوخ حفل استقبال للوفود. الجميع تصافحوا وتجاذبوا أطراف الحديث. كان الرئيس ريتشارد نيكسون[11] يحضر الجنازة، وكذلك الرئيس السوفياتي نيكولاي بودغورني[12]. خلال حفل الاستقبال، لم أصافح الرئيس نيكسون وكنت أنظر إليه عن بُعد، وكان هو يفعل ذلك أيضًا، فقد كان ينظر صوبي. وحدث أن أصبح قريبًا مني، بينما كنت أتحدث مع الرئيس بودغورني، أمسك بودغورني بيدي وبيد نيكسون طالبًا منّا أن نتصافح. شعر الرئيس الأميركي بحرج، فمدّ لي طرف يده، ثم ابتعد مسرعًا متفاديًا المصورين.

ألمانيا

في إحدى زياراتي لأوروبا الغربية عام 1973، قمت بزيارة رسمية لفرنسا، وكان من المقرّر أن أزور بعد ذلك ألمانيا الغربية. استلمت برقية من سفيرنا

---

(9) أولوف بالمه (1927-1986): سياسي سويدي. زعيم حزب العمل الاجتماعي الديمقراطي منذ عام 1969. رئيس وزراء السويد (1969-1976)، أعيد انتخابه عام 1982، اشتهر دوليًا بمواقفه الجريئة وصراحته الشديدة في ما يخص كثيرًا من القضايا الدولية مثل قضايا السلام والديمقراطية والتفاهم الدولي والأمن المشترك. تعرض في 28 شباط/ فبراير 1986 لحادث اغتيال قُتل فيه بطلقات نارية عند خروجه من السينما صحبة زوجته.

(10) أحمد عثمان: رئيس وزراء المغرب (1972-1979).

(11) ريتشارد نيكسون (1913-1994): رئيس الولايات المتحدة الأميركية السابع والثلاثون (1969-1974).

(12) نيكولاي بودغورني (1903-1983): تولى منصب رئيس مجلس السوفيات الأعلى (1965-1977).

في بون، جلال الدغيلي، مفادها أن المستشار الألماني ويلي براندت[13] لن يكون في استقبالي في المطار، وكنت أعتقد أن هذا إجراء استثنائي. ولأنني أمثّل كبرياء شعب، فقد أبلغت سفيرنا أن يبلغ الألمان بإلغاء الزيارة أو تأجيلها. لكن المراسم الألمانية شرحت لسفيرنا في بون أن البروتوكول الألماني يقضي باستقبال رؤساء الوزراء في مقر المستشارية بعد أن تنقلهم طائرة عمودية من المطار إلى مقر المستشارية، استقبلني براندت، ثم أقام لي في المساء حفل عشاء.

كان يرافقني في الزيارة وزير الخارجية علي عبد السلام التريكي[14]، ووزير النفط عز الدين المبروك، وعمر المنتصر رئيس مؤسسة النفط. قبيل العشاء بقليل، قدّم لي براندت الوزراء الألمان المدعوين، وعلى رأسهم وزير الخارجية فالتر شيل[15]، وبدوري قدمت له الوفد الليبي. ولمّا جاء دور عمر المنتصر، وكان شخصًا بدينًا، قدمته بصفته رئيسًا لمؤسسة النفط، فقبض براندت على يديه قائلًا: "هذا فعلًا يعبر عن قوة النفط" ثم سألني براندت في دردشة بيننا قبل العشاء: "أين درست الاقتصاد. في أي جامعة تخرجت؟"، فقلت له: "أنا لم أدرس الاقتصاد وليس لي مؤهلات في هذا المجال، ولكنني منذ صغري أقرأ عن الاقتصاد، أنا وضعت أمام قدري ولا أملك إلا الثقة بالنفس ولأنني أعرف ما أريد"، فضحك ويلي براندت، وقال: "أنت تملك كل شيء".

في هذه الزيارة وقّعنا مجموعة اتفاقيات، من بينها اتفاقية تزويد ألمانيا بالنفط الليبي، وأخرى للتبادل التجاري والتعاون الاقتصادي والتقني. وأسست هذه الزيارة لعلاقات صداقة متينة مع ألمانيا. ونتيجة للزيارات واللقاءات المتكررة الرسمية والخاصة، تكونت بيننا صداقة متينة.

---

(13) ويلي براندت (1913-1992): سياسي ألماني، كان زعيم الحزب الديمقراطي الاجتماعي الألماني (SPD) (1964-1987)، شغل منصب مستشار جمهورية ألمانيا الاتحادية (ألمانيا الغربية) (1969-1974). وكان أول مستشار من هذا الحزب منذ عام 1930.

(14) شغل التريكي منصب وزير الخارجية مرتين في فترتين مختلفتين: الأولى (1977-1982)، والثانية (1984-1986).

(15) فالتر شيل: وزير خارجية ألمانيا الغربية (1969-1974).

السويد

في العام نفسه (1973)، قمت بزيارة السويد. لم أكن في هذا الوقت قد تعرفت على رئيس الوزراء أولوف بالمه، لكنني عرفته عن بعد، فكلانا كان يدعم الثورة الجزائرية. وحدث أنّ الزيارة تمّت بعد "عملية ميونخ"[16]. اتخذت السويد إجراءات أمنية مشدّدة. حينما وصلت طائرتي، كان الاستقبال بسيطًا ووجدت في انتظاري عند سلّم الطائرة شخصًا بسيطًا يرتدي ملابس بسيطة من دون ربطة عنق. ظننت أن هذا الشخص موظف من موظفي المراسم، ليس حتى مديرًا للمراسم. تساءلت: لماذا لا يوجد في استقبالي رئيس الوزراء بالمه؟ وشعرت أن هذا يعتبر إهانة لبلادي، فراودتني فكرة قطع الزيارة، لكنني تمهلت في اتخاذ القرار. ولمّا ركبت السيارة صعد الشخص نفسه وجلس إلى جواري. حينما انطلقت السيارة إلى الفندق، بادرني إلى القول: "أنا أولوف بالمه".

ما إن سمعت الاسم حتى شعرت بالراحة والدهشة والاستغراب من هذه البساطة، كما انتابني شعور بالسعادة أنني سأواصل زيارتي. كان رئيس الوزراء بالمه يرتدي ملابس عادية، وربما أقل من عادية حتى بالنسبة إلى رجل بسيط، وهذا ما أثار فضولي. كانت أغلبيته في البرلمان بنائب واحد؛ ولذا عقدنا كل الاجتماعات في مبنى البرلمان. ثم رتّب لي اجتماعًا مع قيادة اتحاد العمال والشباب، واللجنة المركزية لحزبه حزب العمل الاجتماعي الديمقراطي. تأثرت بتعامله البسيط والمتواضع بلا أي تعقيدات بروتوكولية؛ فهُم بالنسبة إليه كالإخوة. قلت في نفسي: "هذا هو جوهر ومحتوى الإسلام". وجدت مجلس وزرائه كلهم، لا يحملون أي شهادات جامعية عدا أولوف بالمه ووزير دفاعه الذي كان لوقت طويل وزيرًا للخارجية وهو سفين أولوف مورغان أندرسون[17].

---

(16) عملية ميونخ (5-6 أيلول/ سبتمبر 1972): هي عملية احتجاز رهائن إسرائيليين حدثت في أثناء دورة الأولمبياد الصيفية المقامة في ميونخ في ألمانيا، وقد نفذتها منظمة أيلول الأسود، وكان مطلب منفذيها هو الإفراج عن 236 معتقلًا في السجون الإسرائيلية معظمهم من العرب، إضافة إلى كوزو أوكاموتو من الجيش الأحمر الياباني. انتهت العملية بمقتل 11 رياضيًا إسرائيليًا، و5 من منفذي العملية الفلسطينيين، وشرطي وطيار هليكوبتر ألمانيين.

(17) سفين أولوف مورغان أندرسون (Sven Olof Morgan Andersson): وزير الخارجية السويدي (1973-1976).

علمت أنهما كانا يشتغلان ويواصلان دراستهما، وفوجئت بأن وزيرة الصحة كانت ممرضة. حينما سألته، وأنا أعلم نسبة المتعلمين وخريجي الجامعات في السويد: "أنتم لديكم أكبر عددٍ من الأطباء. لماذا اخترتم ممرضة لمنصب وزير الصحة؟"، فقال لي وهو يضرب مثلًا هو نفسه المثل الليبي والعربي: "لا يشعر بالنار إلا من يضع يده فيها". وبالفعل، تتشابه الأمثال الشعبية في العالم، لأنها ناتجة من تفاعلات وجدانية ومعاناة شعبية.

كانت زيارتي قصيرة جدًّا لم تتجاوز تقريبًا 48 ساعة، قضيتها بين الفندق والمطار، ومن مقر البرلمان إلى المطار. بعد عودتي من السويد، سافر عز الدين المبروك وزير النفط، وعبد المجيد القعود وزير الزراعة، لتنفيذ الاتفاقيات في مختلف المجالات الاقتصادية والنفطية. استقبلهما السيّد بالمه وقال لهما: "لقد فاجأنا صديقي الرائد جلود. كنّا نعتقد أنه بعد انتهاء الزيارة الرسمية، سيمكث في زيارة خاصة لمدة أسبوع أو عشرة أيام، وقد نشرنا 3000 شرطي في الأماكن السياحية والعامة نظرًا إلى حادث ميونخ، ولكنه فاجأني بسفره. لقد ذهب من مبنى البرلمان إلى المطار. عبد السلام جعلنا نعرف أن العرب عرَبان. لم يحدث أن زارنا مسؤول عربي رفيع إلا مدّد الزيارة الرسمية وجعلها زيارة خاصة". لمّا أخبرني الوزيران بعد عودتهما بما قاله بالمه، اتصلت به وقلت له: "سيّد بالمه أنا لست ملاكًا، وكم كان بودي أن أمتّع نفسي وآخذ قسطًا من الراحة في بلادكم الجميلة؛ ولكنني سعيد لأنك فهمت رسالتي أن العرب عرَبان".

الصين

في بداية عام 1970، بعد ثورة الفاتح بأشهر، سافرت في زيارة سرية إلى الصين بطائرة تجارية عبر باكستان، وكان معي أستاذي محمد مصطفى المازق الذي كنت أحد تلاميذه في مرحلة الإعدادي. كان السبب الحقيقي لوجوده معي أنه كان يملك وكالة آسيا للاستيراد، وهو أول من فتح السوق الليبية أمام الصادرات الصينية، وكانت له صلات تجارية وعلاقات شخصية مع الصينيين قبل الثورة. نمتُ ليلتي الأولى في باكستان، وفي الصباح سافرت في طائرة

خطوط تجارية إلى بكين. هناك التقيت ياسر عرفات أول مرة حين كان يركب الطائرة نفسها، وكان في طريقه إلى الصين في زيارة رسمية. حينما وصلنا بكين، أُعد لياسر عرفات استقبال رسمي؛ أما أنا فكانت زيارتي سرية، فأخذت طريقي من المطار إلى بيت الضيافة.

في بكين، عقدت اجتماعين مطولين مع تشو إنلاي[18]، واجتماعًا مطولًا مع وزير الدفاع ورئيس أركان الجيش الشعبي الصيني. كان الموضوع الرئيس في زيارتي هو شرح أهداف الثورة، وإقامة تحالف بين الثورة الصينية وثورة الفاتح، لأننا كنّا متأثرين بالثورة الصينية وأفكار ماو تسي تونغ[19]. ثم طلبنا مساعدتنا في عملية التصنيع في ليبيا، ونقل التقنية النووية السلمية إلى ليبيا، فقال لي تشو إنلاي إنهم لكي يساعدونا في ذلك لا بد من قطع شوط طويل في التصنيع، وأن نحقق قفزة تكنولوجية؛ لأن توطين هذه التقنية ونقلها يحتاجان إلى قاعدة صناعية، وخاصة في مجال الصناعات الهندسية. في أيلول/ سبتمبر 1976، قمت بزيارتي الثانية للصين في عهد زعيمها القوي دنغ شياو بينغ[20]، واشترطت قبل الزيارة أن يكون هو شخصيًا في استقبالي بالمطار، وأن تجري المحادثات معه. وبالفعل، وافق الجانب الصيني، وكانت زوجتي ترافقني في هذه الزيارة.

حين وصلت إلى المطار، كان دنغ شياو بينغ على رأس المستقبلين. ثم أقام لي وللوفد المرافق مأدبة عشاء في القاعة الحمراء الكبرى في بكين، تبادلنا خلالها الكلمات. خلال الاجتماعات الرسمية معه أجرينا حوارات مهمة بشأن علاقات بلدينا. كانت الصين تشترط عادة - في أيّ بيان رسمي - لإقامة

(18) تشو إنلاي (1898-1976): أول رئيس وزراء لجمهورية الصين الشعبية (1949-1976).

(19) ماو تسي تونغ (1893-1976): ثوري شيوعي صيني ومؤسس جمهورية الصين الشعبية التي حكمها من خلال قيادته للحزب الشيوعي عام 1949 حتى وفاته عام 1976. يُعرف أيضًا باسم الرئيس ماو، وقد اشتهر بأيديولوجية الماركسية - اللينينية واستراتيجياته العسكرية الخاصة ونظرياته وسياساته؛ إذ شكلت كل هذه الأفكار مجتمعة ما بات يعرف بـ "الماوية".

(20) دنغ شياو بينغ (1904-1997): سياسي ومنظّر وقائد صيني، قاد الصين في عهد رئاسته للبلاد (1978-1992) نحو تبني اقتصاد السوق. تولى قيادة الحزب الشيوعي الصيني بعد إطاحة هوا جيو فينج.

علاقات دبلوماسية واقتصادية معها، أن يتضمن البيان المشترك موضوع "قطع العلاقات مع تايوان"، فقلت له: "هذا موضوع سيادي، وأنا لا يمكن أن أقبل بوضع هذا الشرط. ولكن خلال أسبوع من عودتي سنطرد سفير تايوان"، فقال لي: "أنا أثق بكلمتك". وهكذا توصلنا إلى هذا الاتفاق بعد مباحثات مطوّلة استمرت في اليوم الأخير من أيام الزيارة حتى الساعة الثالثة صباحًا. ولمّا صدر البيان بإقامة "علاقات دبلوماسية" من دون وجود شرط "قطع العلاقات مع تايوان"، تناقلت وكالات الأنباء العالمية الخبر على النحو التالي: "الصين تغيّر من سياساتها". في الصباح خلال توجهي إلى المطار، بدا لي الوضع مختلفًا؛ ففي حين كان الاستقبال رسميًا، كان الوداع رسميًا وشعبيًا، حيث اصطفت الجماهير على جانبي الطريق من بيت الضيافة وعبر الطرق نحو المطار، وكان دنغ شياو بينغ على رأس المودّعين. وكانت حصيلة هذه الزيارة هي التأكيد على ضرورة إقامة العلاقات السياسية بين الصين وليبيا، وطرد سفير تايوان. بعد عودتي إلى طرابلس بأربعة أيام فقط، قمنا بطرد سفير تايوان.

وأذكر أنني في زيارتي الأولى للصين وخلال إقامتي في بيت الضيافة في بكين، حدث موقف طريف حين دعيت للعشاء؛ إذْ أحضروا لي طبقًا كبيرًا من قطع اللحوم الصغيرة، كل قطعة يختلف مذاقها عن القطع الأخرى، فتناولت الطعام بشهية، ثم نهضت وغادرت الصالة، فلحق بي مسؤول التشريفات في صالة العشاء وسألني مستغربًا: "ألا تريد تناول العشاء؟"، فقلت له: "لقد فعلت"، قال لي: "لا هذه مجرد مقبلات"، فضحكنا وعدت وأكملت عشائي.

كوريا الشمالية

في مطلع السبعينيات، قمت بزيارة جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية (الشمالية) رفقة زوجتي، فأحاطنا الزعيم الكوري كيم إيل سونغ[21] وزوجته بكرم وحفاوة، وكانا لطيفين وودودين معنا إلى أبعد الحدود. وقد أجريت

---

(21) كيم إيل سونغ (1904-1994): السكرتير الأول للحزب الشيوعي الكوري السابق، ورئيس جمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية السابق (1948-1994).

مباحثات مطولة ومعمقة معه، وتمكنت من معرفة شخصيته التي تجمع بين العفوية والوضوح والنظرة الثاقبة، كما أن زوجته تجمع بين البساطة والرقي. حين تحدثنا عن علاقاتنا الثنائية، قال لي كيم إيل سونغ: "نحن في كوريا نقدر ثورتكم ودورها في طرد القواعد الأميركية والبريطانية، وفي 'ثورة النفط' ومحاربة سيطرة الغرب على ثروات العالم الثالث، وفي دعمكم لحركات التحرير والحركات الثورية". ثم أردف قائلًا: "ليس لدينا أي تحفظ أو حدود للتعاون معكم. أنتم تحدّدون نوع العلاقة ومستواها". ثم حدثني بمرارة عن وضع الأمة العربية. وقال لي: "أنتم تملكون حضارة عظيمة، ولديكم تاريخ مشرّف، وبلدانكم فيها ثروات هائلة وتسيطرون على أهم المنافذ الاستراتيجية في العالم، ومع ذلك أنتم تعيشون الجهل والتخلف والفقر والفرقة والانقسام. هذا أمر غير مفهوم!". فقلت له: "نعم أتفق معك. هذه المزايا الفريدة، وكل هذه الإمكانيات الهائلة من الثروات والمواقع الاستراتيجية التي تتمتع بها الأمة العربية هي التي دفعت الولايات المتحدة الأميركية ومعها الغرب كله، لتكثيف هجومهم على هذه الأمة، فهم يعرفون أن انتصارها وتحرّرها يعني تحرّر العالم الثالث". كانت الزيارة مثمرة، وللأسف سرعان ما وجدنا أنفسنا في ليبيا أمام ظروف مواجهة مع الولايات المتحدة، قد تكون سببًا في بقاء العلاقات مع كوريا الديمقراطية دون المستوى المطلوب، ولم تتخذ أبعادًا عملية.

العلاقة مع باكستان

تمكنت ثورة الفاتح من بناء علاقة صداقة وتعاون متميزة مع باكستان، في فترة حكم حزب الشعب بقيادة زعيمه التاريخي ذو الفقار علي بوتو[22]. لقد وقفنا مع باكستان سياسيًا واقتصاديًا، ودعمنا برنامجها النووي حتى أصبحت

(22) ذو الفقار علي بوتو (1928-1979): سياسي باكستاني تدرج في المناصب الرسمية، وكان منها منصبا رئيس الجمهورية (1971-1973)، ورئيس الوزراء (1973-1977). أسس حزب الشعب الباكستاني، وأُعدم في عام 1979 بعد محاكمة مثيرة للجدل، لموافقته على اغتيال سياسي معارض، واعتبر البعض أنها بدفعٍ من القائد العسكري الجنرال محمد ضياء الحق.

دولة نووية، كما كانت لنا علاقات قوية وحميمة مع عبد القدير خان[23] الملقب بـ"أبو القنبلة النووية". كان من المفترض أن تساعدنا باكستان في نقل "التقنية النووية السلمية"، لكن نظرًا إلى أن عيون الغرب والولايات المتحدة والصهاينة كانت مصوّبة نحو ليبيا وباكستان، فقد توقف هذا التعاون، ولم يكن في وسع باكستان في ظل هذه الظروف تقديم أي مساعدة في هذا الميدان. كانت باكستان تنظر إلى برنامجها بوصفه مشروع توازن نووي مع الهند، بينما كنّا في ليبيا نرى أنّ وجود دولتين إسلاميتين أو أكثر، في النادي النووي، هو محاولة لإيجاد "توازن إسلامي نووي" في العالم؛ على الرغم من إيماننا بأنّ هذا السلاح وبالٌ وشرٌّ على البشرية، فإنه جعل من الحرب العالمية الثانية آخر الحروب الكونية. كان الأخ بوتو يقوم بزيارات متكررة لليبيا، وكنّا نجري معه حوارات مهمة، وأذكر أنه في كل زيارة كان يقول لنا: "شاه إيران يقول لكم أوقفوا عني قنابلكم"، وكنّا نردّ عليه: "هذه قنابل الشعب الإيراني وليست قنابلنا".

في 5 تموز/يوليو 1977، دبرت المخابرات الأميركية والبريطانية انقلاب الجنرال محمد ضياء الحق[24] الذي تمكن من إسقاط سلطة علي بوتو. كان ضياء الحق ينظر إلى علي بوتو على أنه يشكل خطرًا على نظامه حتى لو كان حيًّا في السجن؛ ولذا سارع إلى إعدامه. إنه شهيد باكستان و"شهيد السلاح النووي" الباكستاني. في عام 1988 قُتل ضياء الحق، ثم جرت انتخابات فاز فيها حزب الشعب بقيادة بينظير بوتو (1953-2007)، فعادت على إثرها العلاقات بين ليبيا وباكستان من جديد إلى سابق عهدها. بعد فوز بينظير بوتو في الانتخابات، زرت باكستان، ثم تكررت زياراتي، وتكونت بيننا صداقة شخصية. لمّا قُتلت

(23) عبد القدير خان (1936-2021): عالم باكستاني في الفيزياء النووية، ومهندس بعلم الفلزات (علم السبائك). يُعتبر الأب الروحي للبرنامج النووي الباكستاني؛ إذ إنّه المؤسس له، والعنصر الأبرز في وجود أول قنبلة نووية باكستانية.

(24) محمد ضياء الحق (1924-1988): جنرال عسكري. شغل منصب الرئيس السادس لباكستان (1978-1988)، بعد إعلان الأحكام العرفية في عام 1977، وكان رئيس باكستان الأطول خدمة. بعد الاضطرابات المدنية، قام ضياء الحق بخلع بوتو بانقلاب عسكري، وأُعلنت الأحكام العرفية في 5 تموز/يوليو 1977. وقد حوكم بوتو على نحوٍ مثير للجدل من المحكمة العليا وأُعدم.

بينظير بوتو عام 2007، تبادر إلى ذهني السؤال المحيّر التالي: لماذا جرت التصفية الجسدية لهاتين الأسرتين التاريخيتين، أسرة غاندي في الهند، وأسرة ذو الفقار علي بوتو في باكستان؟

الفليبين: تأسيس جبهة "مورو"

في عام 1972، قمنا بالتعاون مع القائد الفليبيني الشجاع نوري مسواري[25]، بتأسيس "جبهة تحرير مورو الإسلامية"[26] في طرابلس، وتبنّت ليبيا دعم الجبهة كليًّا بالمال والسلاح، فخاضت الجبهة حرب تحرير شعبية ضد حكم فرديناند ماركوس[27] استمرت سنوات عدة، ما دفع حكومة الفليبين - مضطرّة - بعد أن أنهكتها الحرب، إلى الاعتراف بالجبهة، ودخلت معها في مفاوضات في طرابلس. وقد وضعت الجبهة سقفًا للحل السياسي يقوم على هدفين: الأول، "الاستقلال التام" لإقليم "مورو" ذي الأغلبية المسلمة؛ والثاني، حكم ذاتي موسع بصلاحيات كبيرة. لكن المفاوضات فشلت؛ نظرًا إلى تعنّت الحكومة الفليبينية. صعّدت الجبهة في إثر ذلك من عملياتها العسكرية، ما أرغم حكومة الفليبين على العودة إلى طاولة المفاوضات. نتيجةً للمفاوضات الجديدة، وقّعت الحكومة وجبهة مورو ما عُرف باتفاقية طرابلس الأولى عام 1976، بيد أن الحكومة سرعان ما بدأت تراوغ وتتراجع عن التزاماتها،

(25) نوري مسواري (1939-): سياسي وثوري من شعب المورو، ومؤسس وزعيم الجبهة الوطنية لتحرير مورو.

(26) هي جبهة تسعى لتحرير شعب مورو المسلم، يتزعمها الحاج مراد إبراهيم الذي اختير لرئاسة الجبهة عقب وفاة زعيمها السابق سلامات هاشم عام 2003. قامت الحركة، متأثرة بمنهج جماعة الإخوان المسلمين وفكرها على يد الشيخ سلامات هاشم بعد أن انفصل عن جبهة تحرير مورو عام 1977، وكان سبب الانشقاق - بحسب جبهة مورو الإسلامية - أن تيار الجبهة الوطنية بدأ يقترب من حكومة مانيلا ويتخلى عن المطلب الأساسي لشعب مورو (الاستقلال)، واكتفى بفكرة إقامة حكم ذاتي. وقد اعترفت منظمة المؤتمر الإسلامي بجبهة تحرير مورو الإسلامية ممثلًا لمسلمي الفليبين.

(27) فرديناند ماركوس (1917-1989): كان رئيسًا لجمهورية الفليبين (1965-1986). انتهج حكمًا دكتاتوريًا بموجب الأحكام العرفية (1972-1981). بدأ نظامه عددًا غير مسبوق من مشاريع البنية التحتية والآثار، المعروفة بالعامية باسم "مجمع الصروح" الذي كلف دافعي الضرائب كثيرًا، ولكنه اكتسب سمعة سيئة بسبب فساده الشديد ووحشيته.

فاجتمعنا بقيادة الجبهة وقررنا مضاعفة الدعم العسكري والمالي، لتمكين الجبهة من تصعيد وتيرة العمليات العسكرية كمًّا ونوعًا. وافقت الحكومة نتيجة هذه الضربات على العودة من جديد إلى طاولة المفاوضات. طلبت إميلدا ماركوس، زوجة الرئيس - وهي الحاكم الحقيقي - زيارة ليبيا. وبالفعل، استقبلتها في مكتبي بطرابلس، وكان رفقتها وزيرا الخارجية والدفاع. بعد مرور بضع دقائق على الاجتماع، فوجئت بأن السيدة إيميلدا طلبت من وزيرَي الخارجية والدفاع مغادرة الاجتماع، وأن يكون اجتماعها معي على انفراد. طلبت مني وقف "دعم جبهة مورو" أو على الأقل خفضه، فرفضت وتمسكت بأن الحل يكمن في تنفيذ حكومة الفليبين لاتفاقية طرابلس بطريقة أمينة وإرادة صادقة، لأن البديل هو استمرار الحرب والمعاناة. بعد عودة السيدة إيميلدا إلى بلادها، أبلغتنا الحكومة الفليبينية موافقتها على أن تكون الـ 15 مقاطعة هي "منطقة الحكم الذاتي الموسع"، بينما كانت في السابق تعرض 13 مقاطعة فقط. وبناءً على ذلك، تم توقيع "اتفاقية طرابلس الثانية" عام 1996.

العلاقة مع الأرجنتين

كنّا معجبين بسيمون بوليفار[28]، القائد الأميركي اللاتيني وبأفكاره الوحدوية، وكنّا أيضًا معجبين بالرئيس الأرجنتيني خوان بيرون[29]. وحينما تولّت أرملته إيزابيلا مارتينيز دي بيرون[30] الحكم عام 1974، حاولنا إقامة

(28) سيمون بوليفار: قائد عسكري وسياسي فنزويلي تاريخي، يُسمى جورج واشنطن أميركا اللاتينية وُلد في كاراكاس عاصمة فنزويلا، هو مؤسس كولومبيا الكبرى ورئيسها (1827-1830)، ومن أبرز الشخصيات التي أدت دورًا مهمًّا في تحرير الكثير من دول أميركا اللاتينية التي وقعت تحت سيطرة الحكم الإسباني منذ القرن السادس عشر، مثل كولومبيا وفنزويلا والإكوادور وبيرو وبوليفيا وبنما.

(29) خوان دومينغو بيرون (1895-1974): كان رئيس جمهورية الأرجنتين خلال فترتين؛ الأولى (1946-1955)، والثانية (1973-1974). وقد أنهى انقلابٌ عسكري فترةَ رئاسته الأولى عام 1955، مما اضطره إلى ترك الأرجنتين. ولكنه عاد إلى بلاده عام 1973 وانتُخب رئيسًا لها حتى وفاته عام 1974.

(30) إيزابيلا مارتينيز دي بيرون (1931-): الزوجة الثالثة للرئيس خوان بيرون. وباعتبارها نائبة رسمية لزوجها، تولت السلطة في الأرجنتين عام 1974 خلفًا له حتى قبل أن يتوفى بسبب الاعتلال الشديد لصحته، وبذلك تُعتبر أول امرأة تصل إلى سدة الرئاسة في أميركا الجنوبية قاطبة.

علاقات خاصة معها ومع الحكومة الأرجنتينية، ووجهنا لها دعوة لزيارة ليبيا. وبالفعل، قامت بزيارة ليبيا عام 1975، وكانت لنا معها حوارات مهمة، واتفقنا على العمل المشترك وعلى قيام أفضل العلاقات بيننا، ولكن - للأسف - جرت إطاحتها في انقلاب عسكري عام 1976؛ ولذا تبخّر أملنا في هذه العلاقة.

الهند

بين عامي 1976 و1977، وجهت إليّ الهند دعوة لزيارتها، وكان ذلك خلال فترة حكومة أنديرا غاندي[31]، وللأسف لم أتمكن من تلبية الدعوة بسبب كثافة برنامج زياراتي، لكنني قررت في عام 1978 تلبية الدعوة، وكان ذلك خلال عهد رئيس الوزراء مورارجي ديساي[32]، بينما انتقلت أنديرا غاندي إلى المعارضة. كان سفيرنا في الهند في هذا الوقت محمد يوسف المقريف[33]. كانت زيارة الهند من أكثر الزيارات التي تركت في نفسي أثرًا لا يُنسى؛ إذ أجريت خلالها مباحثات مهمة مع رئيس الوزراء ومعاونيه ومع رئيس الجمهورية وأنديرا غاندي، وقد حظيت باستقبال حافل. بحثت معهم قضية كشمير ووضع المسلمين في الهند. كانت زيارة رائعة على المستويين الرسمي والشعبي، وقّعنا خلالها على اتفاقيات مهمة، منها "اتفاقية التعاون النووي". وأذكر أن رئيس الوزراء لم يُبدِ الموافقة خلال بداية المباحثات،

(31) أنديرا غاندي (1917-1984): سياسية هندية، شغلت منصب رئيس وزراء الهند ثلاث فترات متتالية (1966-1977) وفترة أخرى رابعة (1980-1984)، انتهت باغتيالها بيد أحد المعارضين السيخ المتطرفين من حرسها الخاص. وقد كانت رئيسة حزب المؤتمر الوطني الهندي والشخصية المحورية فيه، وهي ابنة جواهر لال نهرو أول رئيس وزراء للهند.

(32) مورارجي ديساي (1896-1995): سياسي وناشط هندي من أجل الاستقلال، وقد كان الرئيس الرابع لوزراء الهند في الفترة 1977-1979 عن حزب جاناتا.

(33) محمد يوسف المقريف (1940-): أكاديمي وسياسي ودبلوماسي ليبي شغل منصب رئيس المؤتمر الوطني العام الليبي منذ آب/ أغسطس 2012 إلى أن قدم استقالته في أيار/ مايو 2013 امتثالًا لقانون العزل السياسي. ويعدّ المقريف من أقدم وأبرز المعارضين لحكم العقيد معمّر القذافي. فقد عارضه منذ عام 1980 لما قدم استقالته من منصب سفير ليبيا لدى الهند وأعلن انفصاله عن نظام القذافي.

وبدا لي مُتردّدًا، ونظرًا إلى إصراري وإلحاحي وافق أخيرًا ووقعنا الاتفاقية، وذلك بعد أن تمكنّا من تحديد "الخطوط المشتركة العريضة" للاتفاقية. وهكذا اتفقت مع رئيس الوزراء الهندي ديساي على أن يُعدّ الجانب الليبي "مشروع الاتفاقية". كان يرافقني في الزيارة والمباحثات عبد العاطي العبيدي، وجمعة الأبرش، وعبد المجيد القعود، فطلبت منهم - مع السفير محمد المقريف - إعداد "المشروع" وأن يعرضوه عليّ في أسرع وقت. وبالفعل أعدّوا المشروع وأرسلوه إلي، لكنني لاحظت وجود نقائص كثيرة، فطلبت من مدير المراسم أن يتصل بالسفير في منزله ليسأل عنهم، فلم يرد أحد على هاتفه، فكلفته بأن يرسل سيارة إلى بيت السفير. وحين ذهب إلى هناك لم يجد السفير في المنزل، وقالت لهم الخادمة الهندية: "إنهم يسهرون في المدينة" مع بعض أعضاء الوفد، فغضبت غضبًا شديدًا؛ واضطررت إلى إعادة صياغة المشروع بنفسي وكلفت عامل الطباعة بطباعتها، لأنني كنت قلقًا من عدم جاهزية المشروع في الساعة الثامنة صباحًا. ولأن بعض معاوني رئيس الوزراء ديساي كانوا يعارضون الاتفاقية، خشيت ألا تكون جاهزة في هذا الوقت، وقد يكون هذا مبررًا لتعطيلها. ثم طلبت من النقيب فرج بوغالية أن يقوم باعتقال كل الأمناء الذين ذهبوا للسهرة. لقد عادوا الساعة الرابعة والنصف صباحًا، فاستدعيتهم ووبختهم وقلت لهم: "للأسف، أنتم لا تملكون أي قضية أو ضمير"، لكنني في آخر لحظة عدلت عن فكرة "اعتقالهم". ثم أجريت سلسلة لقاءات مع المثقفين والمفكرين الهنود، وألقيت عدة خطابات في تجمعات جماهيرية حاشدة، وكانت الجماهير الهندية المسلمة تغمرني بالحب لي ولثورة الفاتح، وكان أهم هذه اللقاءات اللقاء الحاشد الذي تمّ في أكبر مساجد المدينة، وكانت الجماهير تملأ المسجد والساحات والشوارع المحيطة به. كان العدد هائلًا، ربما تجاوز عتبة ثلاثة ملايين شخص، وكان الخطاب حماسيًا وعاطفيًا ووجدانيًا، فتفجّرت مشاعر الكتل البشرية الهائلة.

تحدثت في البداية عن "صحوة إسلامية" مقبلة، وأن القرن 21 سيكون "قرن الإسلام"، وأنّ لدى الإسلام حلًّا لمشكلات البشرية. ومن هنا جاءت ضرورة تفجير "الثورة الإسلامية" وتنوير أكثر من مليار وسبعمئة مليون مسلم.

في نهاية الخطاب، بلغت الحماسة ذروتها، حين اندفعت الجماهير في ما يشبه البركان، نحو المنصة لتحيتي ومعانقتي. لقد زحفت الجماهير نحوي وحطّمت الحواجز حتى بلغت المنصة، وفشلت قوات الأمن في منع الجماهير من الاقتراب، وبصعوبة بالغة تمكنت، بمساعدة من رجال الأمن، من مغادرة المكان. في الواقع، أدى الأخ السفير محمد المقريف دورًا رائعًا في "إنقاذي" حين حملني مع مجموعة من الحراس الهنود على كتفه. لقد كان الموقف خطيرًا، ولكنه في الآن ذاته كان لوحة رائعة وجميلة عن التلاحم مع الجماهير، عشت خلالها أسعد أوقات العمر، إلى درجة يشعر فيها المرء كما لو أنه "ولد من جديد".

كان السفير المقريف يقول لي: "هذه الزيارة هي فتح إسلامي للهند". في الصباح عقدت اجتماعًا مع رئيس الوزراء الهندي ديساي، ووقّعت معه على "الاتفاقية النووية في المجال السلمي" وغيرها من اتفاقيات التعاون. كنت قد بحثت مع رئيس الوزراء ورئيس الجمهورية وأنديرا غاندي - لمّا أصبحتْ في المعارضة - موضوع حركة عدم الانحياز، وقلت لهم: "إن حركة عدم الانحياز شاخت، وإننا نشكل دمًا جديدًا وشابًّا للمنظمة، وإذا كان عبد الناصر ونكروما ونهرو وسوكارنو وتيتو هم الذين أسّسوا حركة عدم الانحياز، فإن واجبنا أن نجدّد ونطوّر هذه الحركة". بعد التوقيع على الاتفاقيات وصدور البيان المشترك، انتهت الزيارة الرسمية وبدأت الزيارة الخاصة لبعض ولايات الهند، وضعوا تحت تصرفي طائرة "بوينغ"، بدأتها بمدينة بومباي، حيث حظيت هناك باستقبال شعبي ورسمي حاشد. في بومباي نزلت في فندق ضخم وجميل. ما أزعجني هو تصرفات بعض أعضاء الوفد الليبي، وحدث أن جاءني السفير محمد المقريف يشكو من هذه التصرفات؛ فغضبت غضبًا شديدًا، وقمت باستدعاء أعضاء الوفد وقلت لهم: "أنا لست وصيًّا عليكم، ولكن أن تقوموا بهذه التصرفات في الفندق الذي أقيم فيه وخلال زيارة رسمية وتحظى باحترام الهنود على المستوى الرسمي والشعبي، فهذا ما لا يمكن قبوله، وممّا يزيد الطين بلّة أنكم ترتكبون أعمالًا غير لائقة في الفندق نفسه، أي في فندق الضيافة الرسمي، لو قال لي أحدكم إنه يريد إجازة لثلاثة أيام أو أسبوع لأعطيته، لو ارتكبتم هذه الأفعال خارج الفندق الرسمي للضيافة، ولكان لكم الحق في

ذلك، لكن المسؤولية بيني وبينكم مسؤولية سياسية. لقد أسأتم إلى الزيارة!". وفي الحال أمرت بإعادتهم بالطائرة إلى طرابلس.

تجولت في ربوع الهند الجميلة. إنه عالم من المتناقضات، الغنى الفاحش والفقر المُدقع، الأمراء والإقطاعيون، الأثرياء والمحرومون، لكنه شعب عظيم صنع حضارة عظيمة طبعت الشرق بطابعها. تمنيت لو أنني زرت الهند زيارة خاصة كمواطن، فهي أرض العجائب والآيات العجاب. كتبت في سجل الزيارات لمصنع الحديد والصلب ما يلي: "يمكن أن تكون الهند بلدًا فقيرًا، لكن الهند بلد متقدم. أنتم تصنعون من الساعة حتى جهاز الكومبيوتر إلى المفاعل الذري بتقنية وتصميم هنديين. لقد تأثرت بهذا التقدم. الهند تتقدم على الصين ربما بعشرين عامًا".

ويبدو أن الأخ محمد المقريف تأثر تأثرًا شديدًا بوقائع الزيارة، وخاصة استقبال الجماهير الإسلامية لنا، فكتب مذكرة إلى القيادة يثني فيها على الزيارة ويقول: "إنها فتح إسلامي للهند". ومن الطرائف التي حدثت خلال الزيارة أنني تلقيت في اليوم الثالث اتصالًا من رئيس الوزراء مورارجي ديساي، يطلب تأجيل الاجتماع لأنه مضطر إلى افتتاح المؤتمر العالمي للأطباء وقال لي: "من فضلك افتح التلفزيون وشاهد الافتتاح" وهذا ما فعلته، وفوجئت بأن ديساي وقف يخاطب الحاضرين وهو يقول لهم: "انظروا. كم أنا في صحة ممتازة على الرغم من أنني في السابعة والثمانين"، ثم أضاف: "أتعرفون لماذا؟ أنا في كل صباح أتناول كأسًا كبيرًا من بولي"، فضحك الأطباء، فقال لهم: "أرجوكم لا تضحكوا، ادرسوا هذا الموضوع".

مؤتمر عدم الانحياز في الهند

في عام 1982، عُقد مؤتمر قمة عدم الانحياز في الهند، وقمت بتمثيل ليبيا في هذا المؤتمر، وكان معي أمين الخارجية عبد العاطي العبيدي. وكان أول اجتماع لي في هذه القمة مع الرئيس اللبناني أمين الجميّل، وقد حضر اللقاء

رئيس الوزراء شفيق الوزان[34]، كما حضره عبد العاطي العبيدي، وقلت لأمين الجميّل: "أحذرك من توقيع اتفاق الاعتراف بالعدو، لأنك ستدفع الثمن غاليًا، وسيكون الثمن نظامك ونظام حزب الكتائب"؛ فانزعج الجميّل وغضب، ثم نهض وقال لي: "نحن أحرار في ما نفعل. أنتم لستم أوصياء علينا. أنتم دمرتم لبنان. اقفلوا دكاكينكم في بيروت". فقلت له: "إجلس، إجلس أريد أن أحذّرك للمرة الألف". وانتهى الاجتماع الصاخب بهذه الكلمات. وقد ألقيت كلمة مركزة في المؤتمر، قلت فيها: "نحن نشكل جيلًا جديدًا وفكرًا مجددًا سوف يمكّن حركة عدم الانحياز من استعادة دورها التاريخي". كانت أنديرا غاندي رئيسة المؤتمر، وكانت غالبًا ما تترك مقعدها لأحد نوابها في رئاسة المؤتمر، لكنها خلال كلمتي أصرت أن تتابعها بنفسها، وكانت معجبة بكلمتي، وحينما أنهيتها، قالت لي: "أريد أن أشكر الرائد جلود لكلمته المهمة جدًّا"، ثم طلبت ترجمتها وطباعتها وإحضارها لها، وكان المؤتمر منقولًا على الهواء، وقد اتصل آلاف الهنود تلفونيًّا بالسفارة يطلبون نسخة من الكلمة. وحدث ذات مرة لمّا رُفعت الجلسة للاستراحة، وكنت أتمشى مع فيدل كاسترو، صادفني الرئيس محمد حسني مبارك وهو يتمشى مع الرئيس التنزاني جوليوس نيريري، وحاول مصافحتي فلم أصافحه، لأن يده صافحت الصهاينة، وكانت هذه أول مرة أشاهد فيها حسني مبارك منذ تشرين الأول/ أكتوبر 1973.

يوغسلافيا

في مطلع عام 1971 قمت بأول زيارة ليوغسلافيا. كنّا من المعجبين بالرئيس جوزيف تيتو وبقيادته، لسببين: أولهما أنّ تيتو من القادة التاريخيين الذين أسّسوا حركة عدم الانحياز؛ وثانيهما السياسة الاستقلالية التي كان ينتهجها. في الوقت ذاته، كان معجبًا بثورة الفاتح ولديه تقدير خاص للثورة وقيادتها؛ ولذا أسّسنا معًا لأفضل وأقوى العلاقات بين بلدينا، سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، وكنّا ننسق مواقفنا في معظم القضايا الدولية، وكان يدعم القضايا

(34) شفيق الوزان: محامٍ وسياسي لبناني، شغل منصب رئيس وزراء لبنان (1980-1984).

العربية، وخاصة قضية فلسطين. استقبلني الرئيس تيتو في جزيرة بريوني، وكان اللقاء مفعمًا بمشاعر الودّ والتقدير، وأجريت معه حوارًا طويلًا ومُعمّقًا، فكان حوارًا بين قيادتين؛ قيادة تاريخية، وأخرى شابة تطمح إلى ضخ دم جديد في جسم حركة عدم الانحياز التي بدا أنها تشيخ ويضعف دورها.

أقام الرئيس تيتو حفل عشاء رسميًا. قبيل العشاء بقليل، حضرت أربع فتيات صغيرات وكنّ يأخذن السيجار للرئيس تيتو. أخذ تيتو سيجارًا وقال: "هذا السيجار يُصنع بطريقة خاصة لي"، ثم قدّم لي سيجارًا فقلت له: "آسف، لا أدخن". عند تناول العشاء كان يقدّم للضيوف النبيذ العادي، لكنهم أحضروا لتيتو "نبيذًا خاصًا". أخذ زجاجة النبيذ وبدأ يشرح لي مزايا هذا النبيذ الخاص ثم قال: "هذا نبيذ خاص من مزرعتي هنا في هذه الجزيرة"، ثم دعاني إلى تناول كأس، فاعتذرت منه بلطف وقلت: "أنا لا أشرب الكحول". بعد العشاء، بدأت حفلة رقص، فدعاني لأرقص مع إحدى النساء، فعدت لأعتذر منه بتهذيب وقلت: "للأسف، أنا لا أعرف الرقص".

فقال لي مازحًا: "إذا كنت لا تدخن ولا تشرب النبيذ ولا ترقص، فلماذا تعيش؟" فضحكنا. وقد تتابعت زياراتي ليوغسلافيا، كما أن الرئيس تيتو كان يقوم باستمرار بزيارات ليبيا، وكنت أقوم أنا والأخ معمّر بزيارات مستمرة ليوغسلافيا. لقد بذل تيتو وبرونو كرايسكي[35] جهدًا مخلصًا وصادقًا لتخفيف العداء بيننا وبين الولايات المتحدة، ولكنهما لم ينجحا - للأسف - وذلك لتصلّب الموقف الأميركي.

النمسا

في مطلع السبعينيات، قمت بزيارة النمسا والتقيت المستشار برونو كرايسكي، وأجريت معه حوارات مطوّلة وبنّاءة. ثم اصطحبني في جولة

(35) برونو كرايسكي (1911-1990): سياسي نمساوي، من قادة الحزب الاشتراكي النمساوي (SPÖ). شغل منصب وزير الخارجية (1959-1966)، ثم منصب مستشار النمسا (1970-1983)، ويعد أشهر قادة النمسا الاشتراكيين في النصف الثاني من القرن العشرين وأكثرهم تأثيرًا. ميزت فترة رئاسته منظومة الرفاه الاجتماعي في ظل النمو الاقتصادي الذي شهدته النمسا في السبعينيات، وعُرف بسياسة خارجية نشطة.

عبر البلاد بقطار خاص، ولاحظت خلال هذه الجولة أن كرايسكي كان مُهتمًّا بمعرفة كل شيء عن ثورة الفاتح ومنطلقاتها الفكرية وسياساتها وخططها الاقتصادية والاجتماعية. وخلال الحوارات التي أجريناها، سواء في فيينا أو في القطار، طرح عليّ كثيرًا من الأسئلة. في الواقع، تأثرت أشدّ التأثر بشخصية كرايسكي البسيطة والمتواضعة، والتي تؤكد لي أنه قائد يحمل رؤيا وليس مجرد سياسي عادي. وقد وقّعنا عدة اتفاقيات اقتصادية وتجارية، إضافةً إلى عقد بناء مصنع الحديد والصلب في مصراتة. حينما ترأس كرايسكي مجموعة الأحزاب الديمقراطية الاشتراكية في أوروبا، قام بزيارة للمغرب ثم زار ليبيا. كنت في استقباله بالمطار، وفي طريقنا إلى مقر إقامته قال لي: "سيد جلود. لما أعود إلى النمسا سوف أسحب سفيرنا من المغرب"، ثم أردف قائلًا: "لا يوجد نظام سياسي. هناك نظام عبودية، حيث الوزراء والمسؤولون يقبلون جبهة الملك ويديه وحتى قدميه". لقد بذل كرايسكي جهدًا صادقًا ومخلصًا لمساعدة ليبيا، رغبةً في أن يخفف حالة العداء بين أميركا وليبيا. وخلال رئاسة ريغن، بلغت حالة العداء ذروتها مع تفجر المواجهة العسكرية في خليج سرت، كما تصاعد تآمر جعفر النميري وحسين هبري ومبارك وملك المغرب على ثورة الفاتح. قبيل سفره إلى الولايات المتحدة للقاء الرئيس ريغن، زارنا كرايسكي في ليبيا ليطّلع على وجهة نظرنا بخصوص "العلاقة مع الولايات المتحدة"؛ لأنه يريد أن يحاول مرة أخرى، خلال اللقاء مع ريغن، "تحسين العلاقات مع ليبيا".

بعد عودة كرايسكي من واشنطن، التقيته، فقال لي: "الأميركيون متشدّدون ولا يقبلون أي نقاش بخصوص ليبيا"، ثم أضاف أنه تحدث مع ريغن حول برنامج "حرب النجوم". وقال: "لقد قلت لريغن إن هذا البرنامج هو برنامج نظري في رأيي، وأنه من الناحية العملية يبدو غير قابل للتطبيق، فضلًا عن أنه قد يقود إلى حقبة جديدة من الحرب الباردة". ثم قال: "والعجيب أن ريغن قال لي حرفيًا: 'أنا لا أعرف شيئًا عن حرب النجوم ولا أريد أن أعرف، ما أريده هو ما سأقوله لوسائل الإعلام عند سؤالي عن حرب النجوم'".

العلاقة مع فيتنام الشمالية

كانت علاقاتنا بالنظام الاشتراكي الثوري في هانوي متميزة، وكذلك مع الحكومة الثورية المؤقتة في سايغون. وكان هدفنا المشترك إسقاط النظام العميل في فيتنام الجنوبية وهزيمة الولايات المتحدة وتوحيد فيتنام. كان للحكومة الثورية المؤقتة وزيرة خارجية ثورية ومثقفة، تتميز بديناميكية وحركية غير عادية. وقد زارت ليبيا عدة مرات، وكان موقفنا يقوم على عاملين: الأول، الوقوف مع الدول التقدمية والثورية؛ والثاني، الوقوف ضد الولايات المتحدة التي كانت تعادينا وتحاربنا. في أواخر الثمانينيات، زارنا الجنرال فو نغوين جياب[36]، وأجريت معه أنا والأخ معمّر حوارات ثورية مطولة حول التجربة الثورية في فيتنام وحركة الثورة في العالم. كان الجنرال جياب صغير الجسم، لكنه كبير العقل. إنه البسيط الحكيم، وتشعر حينما تتحدث معه أنك لا تريد للحديث أن ينتهي.

الاتحاد السوفياتي

في عام 1971، قمت بأول زيارة للاتحاد السوفياتي ومعي الأخ مصطفى الخروبي. استُقبلت استقبالًا حارًّا ووجدت القيادة السوفياتية مهتمة بمعرفة توجهات ثورة الفاتح وأيديولوجيتها، وعقدت عدّة اجتماعات مع أليكسي كوسيغن وبودغورني وبريجنيف. لا شك في أن أهم هذه الاجتماعات هي تلك التي عقدتها مع بريجنيف. كانت اجتماعات مطوّلة استغرقت أكثر من خمس ساعات. كان بريجنيف شعبيًّا في الحديث والتعامل مع الآخرين. في بداية

(36) فو نغوين جياب (1911–2013): عسكري وسياسي فيتنامي وضابط سابق في الجيش الشعبي الفيتنامي. يُعد من أهم شخصيات حرب فيتنام، وهو أيضًا صاحب خطة معركة ديان بيان فو التي هُزمت فيها فرنسا في 7 حزيران/ يونيو 1954. وقد تولى بعد ذلك منصب وزير الدفاع في بلاده. حقق جياب قمة مجده بوصفه قائدًا في معركة ديان بيان فو التي كانت بمنزلة نهاية حرب الهند الصينية الأولى والاستعمار الفرنسي لفيتنام. وأدى الانتصار على الفرنسيين إلى تقسيم البلاد وبداية عهد جديد من الحروب، وهذه المرة بين الشمال الشيوعي والجنوب المدعوم من قبل الولايات المتحدة. وساهم جياب في تحقيق النصر على الولايات المتحدة الأميركية في عام 1975.

الاجتماع، قال لي: "أنا رجل شعبيّ أحبّ الاستماع والتحدّث في آن واحد"، ثم أردف: "أريد الحديث أن يكون مشتركًا، أنا أتحدث وأنت تتحدث". وهكذا تحدثت معه بصراحة تامّة عن العلاقات العربية - السوفياتية. انتقدت، في بداية الحديث، ضعف موقف الاتحاد السوفياتي من الأمة العربية في صراعها ضد الصهيونية والإمبريالية. قلت له: "إن خط الدفاع الأول عن الاتحاد السوفياتي ليس وارسو، أو جدار برلين، وإنما المنطقة العربية والعالم الثالث. وإنهم من دون أن يدركوا ينفذون الاستراتيجيا الغربية التي تقوم على شدّ الاتحاد السوفياتي نحو أوروبا، بيد أن الصراع الحقيقي يجري في العالم الثالث. وإن صواريخهم النووية ستكون معزولة وليست ذات قيمة، إذا ما خسروا معركة العالم الثالث. إن المعركة الحاسمة والحقيقية تدور هناك، وبالتحديد في المنطقة العربية؛ لأنها ستحدد مصير العالم والاتحاد السوفياتي، إذا ما سقط الهدف الكبير فسوف تسقط بقية الأهداف. هذه المنطقة هي المنطقة الحاسمة في الصراع ضد الإمبريالية؛ لأسباب جغرافية وتاريخية وثقافية، وهي تحتوي على أكثر من 70 في المئة من النفط، عصب الحياة. إن نظرتكم القائمة على أساس أنكم تساعدون العرب تتسم بقصر النظر؛ إذ إننا نخوض معركة واحدة". ثم قلت: "إن ثورة الفاتح من سبتمبر وجهت أكبر ضربة لأميركا والغرب بتحرير 2000 كيلومتر من الشاطئ الجنوبي للبحر المتوسط، وطرد القواعد الأميركية والبريطانية، كما وجهت أكبر ضربة إلى الاحتكارات الرأسمالية، بفضل قيادتها لثورة النفط، والتي قادت في ما بعد إلى 'ثورة الدول المالكة للخامات'". وأردفت قائلًا: "إن أميركا تسلحّ العدو الصهيوني بأحدث الأسلحة، في حين أنتم تقدّمون لنا الأسلحة بالقطارة. تقدّمون الأسلحة الدفاعية ولا تقدّمون أفضل ما لديكم"، ثم قلت: "إنني أشعر بأن الصداقة العربية - السوفياتية ينقصها الوضوح والصدق والجدية. نحن نمثل جيلًا جديدًا قوميًا. نريد أن نضع أسس صداقة وتحالف حقيقي مؤسّس، تتوارثه الأجيال جيلًا بعد جيل، ولا نريد لهذه الصداقة أن تكون 'فوقية'، نريدها أن تكون صداقة تؤمن بها الشعوب وتدافع عنها وتشعر بأهميتها، ولا نريد لها أن تكون عبئًا عليكم، ولا نريدها أن تكون في مصلحة طرف واحد. ولأجل أن تكون كذلك، فلا بد من حوار جاد وصادق

ونزيه بيننا لتحديد نوع هذا التحالف وطبيعته، ونوع هذه الصداقة وطبيعتها، ومسؤولية كل طرف تجاه هذه الصداقة. يجب أن تشعر الجماهير بأهمية هذه الصداقة، وخاصة القوى الفاعلة، المثقفين الشباب والكوادر، والعمال، والفلاحين".

ثم قلت أخيرًا: "هناك شعور حقيقي في أوساط جماهير الأمة العربية بأنكم لا تثقون بهذه الصداقة، وأنكم تعتقدون أن العرب يريدون أن يأخذوا حاجتهم من هذه الصداقة فحسب، كما أن استراتيجيتكم تقوم على أساس ألّا تمكّنوا العرب من تحقيق نصر عسكري ضد العدو الصهيوني والغرب والإمبريالية. تريدون أن تستغلوهم فقط في الحرب الباردة، كما أنكم تريدون اللاحرب واللاسلم حيث يظلون على الدوام في حاجة إليكم". فغضب بريجنيف وردّ عليّ بقوة، قال: "نحن مددنا العرب بكل الأسلحة، والأسلحة السوفياتية متطورة ومتفوقة على مثيلاتها الأميركية، لكن أنتم لا تريدون أن تحاربوا، وأنتم لم تستوعبوا هذه الأسلحة. لا تتوافر لديكم إرادة قتال. القتال شجاعة وإيمان، وأنتم لا تملكون الشجاعة". ثم طلب مني أن أصحبه إلى شرفة الكرملين وقال لي: "انظر. الألمان وصلوا إلى تلك المنطقة على بعد 7 كيلومترات من موسكو، وطلب جنرالاتنا أن نطفئ الأضواء في موسكو فرفضنا لكننا صمدنا وطردناهم. الاتحاد السوفياتي هو الذي هزم أدولف هتلر وليس الغرب. لقد دفعنا 20 مليون قتيل". فرددت عليه بغضب: "أنت تجهل تاريخ العرب. قلْ كل شيء عن العرب عدا أنهم لا يتسمون بالشجاعة. لن أسمح لك أن تتحدث عن العرب بهذه الطريقة المهينة". ثم نهض مصطفى الخروبي وصرخ: "الله أكبر"، ثم صلى ركعتين في الكرملين، فقال لي بريجنيف: "يا رفيق جلود. القادة العرب يسألوننا هل نحارب؟ نحن كدولة عظمى لا نستطيع أن نقول لهم حاربوا أو لا تحاربوا، لا تحرجونا، هذه قضيتكم أنتم. أنتم تريدون منّا أن نحارب معكم، إذا ما فعلنا ذلك فهذا يعني حربًا عالمية ثالثة، وستكون حربًا نووية. نحن وأميركا نملك ما يدمر العالم عشر مرات". بعد الاجتماع وعند خروجنا، عانقني السفير المصري وحياني، قائلًا: "السوفيات لم يسمعوا هذا الكلام من أي مسؤول عربي، حتى عبد الناصر لم يقلْ لهم ما قلت".

بعد ذلك، كلما زرت موسكو والتقيت بريجنيف، يقول لي مازحًا: "أرسلك القذافي لتصارعني. أنا لا أستطيع مصارعتك". وفي إحدى زياراتي لموسكو، وكان يرافقني جاد الله عزوز الطلحي وزير الصناعة، وعلي عبد السلام التريكي وزير الخارجية، وجمعة الأريش وزير الكهرباء. وبينما كنّا نناقش مع كوسيغن القضايا الثنائية، حصل خلاف عارض بيننا، فقد كنّا نؤكد من جانبنا أننا اتفقنا على بعض الأمور وهي مثبتة في المحاضر، لكنه قال: "كلا ليست موجودة في المحاضر ولم نوافق عليها"، والغريب أنّ مساعديه كانوا يغالطونه. وحينما عدنا إلى المحاضر تأكد له صحة الموقف الليبي، فشعر كوسيغن بالحرج الشديد، وغضب غضبًا شديدًا، وأخذ الملفات ورمى بها على مساعديه. بعد وفاة كوسيغن في 18 كانون الأول/ ديسمبر 1980، قمت بزيارة أخرى للاتحاد السوفياتي. وكان هناك رئيس وزراء جديد.

في هذا الوقت حصلت موافقة المكتب السياسي للحزب الشيوعي السوفياتي، وموافقة بريجنيف شخصيًا، على بناء مصنع لتصنيع الماء الثقيل في ليبيا، وسلّمني رسالة الموافقة التي تقول ما يلي: "يسرني أن أبلغكم موافقة المكتب السياسي على بناء المصنع". وفي زيارة أخرى لموسكو، وكنت قد غادرت ليبيا متأخرًا بضع ساعات عن موعد وصولي إلى موسكو، ونظرًا إلى هذا التأخير، لم يتمكن رئيس الوزراء السوفياتي الجديد من استقبالي في المطار؛ لأنه كان في اجتماع للمكتب السياسي، وبدلًا منه كان وزير التخطيط السوفياتي في استقبالي، فانزعجت. كان من المقرر، بحسب برنامج الزيارة، أن ألتقي بريجنيف في الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي. وعند وصولي إلى بيت الضيافة طلبت مدير المراسم وأنا في حالة غضب، وأبلغته برغبتي في قطع الزيارة، وأن عليه أن يبلغ القيادة السوفياتية بذلك، وكان الوفد الليبي يضمّ فوزي الشكشوكي وكامل المقهور وعمر المنتصر.

عاد مدير المراسم ليبلغني أن رئيس الوزراء السوفياتي ومعه وزير الخارجية في طريقهما للقاء بي، فسألني المترجم الروسي: "أين ترغب في استقبالهما؟". كنت أقف في الشرفة الداخلية، فقلت للمترجمين ومدير المراسم

بصوتٍ عالٍ: "اتركوهما يجلسان في المطبخ"، وكنت في حالة غضب شديد. بعد وقت قصير التقيت بهما. قالا لي إنهما يكنّان لي ولبلدي كل الاحترام، وإنني لو وصلت في الموعد المحدد لكان رئيس الوزراء في استقبالي، ولكن نظرًا إلى اجتماع المكتب السياسي، ولأهميته، فقد اضطر رئيس الوزراء إلى مغادرة المطار والالتحاق بالاجتماع. وأضافا أن بريجنيف قرر تقديم موعد اللقاء بك اليوم بدلًا من الغد. في اللقاء مع بريجنيف، عرضت عليه مشروع "معاهدة صداقة"، ترتّب التزامًا أكبر من الطرفين سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، تختلف عن المعاهدات التي وقعوها مع بعض الدول العربية. أبلغني السوفيات بأنهم، من حيث المبدأ، مستعدون للتوقيع معنا على هذه المعاهدة، ولكنهم يفضلون أن تكون على غرار المعاهدات الموقعة مع بعض الدول العربية.

في الواقع، كانوا مترددين كثيرًا لعدة أسباب، أهمها "أفكارنا الراديكالية ومواجهتنا مع الغرب"، كما أنهم كانوا يخشون التورط في هذه المواجهة. وخلال إحدى زياراتي لموسكو أواخر أيام بريجنيف، أوائل تشرين الثاني/ نوفمبر 1982، وكان معي كامل المقهور أمين الاتصال الخارجي وفوزي الشكشوكي وزير التخطيط، فوجئت في الأيام الأخيرة للزيارة بأن مدير المراسم في الكرملين يطلب مقابلتي. قال لي: "الرفيق بريجنيف يرجوكم أن تستقبلوا وزير النفط السوفياتي ووزير المالية والتجارة الخارجية، لتشرح لهم، باعتبارك خبيرًا اقتصاديًا، مستقبل النفط وعلاقة النفط بالدولار ومستقبل الاقتصاد العالمي". فقلت له: "أنا أشكر الرفيق بريجنيف لهذه الثقة، لكنني لم أدرس الاقتصاد". وبالفعل، استقبلت الوزراء وشرحت لهم رؤيتي وتحليلاتي وتوقعاتي، وكنت أردّد مع نفسي: يا إلهي، الاتحاد السوفياتي بجلالة قدره يطلب مني مشورة أو رأيًا اقتصاديًا!". بعد تولي ميخائيل غورباتشوف[37] السلطة، زرت موسكو وعقدت عدّة اجتماعات معه، وكنت أشعر بالفرق بينه وبين بريجنيف وحتى كوسيغن وغروميكو. إنه شخص لا تتوافر فيه مقومات القيادة أو القدرة

(37) ميخائيل سيرغيفيتش غورباتشوف: شغل منصب رئيس الدولة في الاتحاد السوفياتي السابق (1988-1991).

على التحليل. ونظرًا إلى غياب مؤسسات قوية (حزب، برلمان، نقابات)، شعرت بأن مهمة غورباتشوف لقيادة الاتحاد السوفياتي تبدو أكبر منه.

بدا لي كأنه "سادات الاتحاد السوفياتي". في أحد الاجتماعات معه قال لي: "قولوا لأصدقائكم في إيران، نحن لم نحاول أن نعلمهم الثورة؛ فلماذا يريدون تعليمنا الثورة؟"، وكان بذلك يشير إلى الإذاعة الموجهة إلى الاتحاد السوفياتي، وخاصة الجمهوريات الإسلامية. ولمّا عدت قصصت القصة على الأخ معمّر، فقال لي: "يا سبحان الله. الاتحاد السوفياتي بجلالة قدره يخاف من إذاعة؟". في 11 تموز/يوليو 1990، وخلال انعقاد المؤتمر الثالث والعشرين للحزب الشيوعي السوفياتي الذي شاركت فيه، شممت رائحة الردّة؛ فقد أعلن غورباتشوف في المؤتمر، بإعجاب، أن 3 في المئة من أعضاء المؤتمر هم من جيل الثورة. وفي هذا المؤتمر، ألقى بوريس يلتسين[38] خطابًا شن فيه هجومًا على القيادة السابقة، وخاصة بريجنيف. في نهاية خطابه قال مخاطبًا الحضور: "ربما تسألونني أيها الرفاق لماذا لم أقل هذا من قبل؟"، وأجاب: "أقول لكم بصراحة، لم أكن أملك الشجاعة"، فاهتزت القاعة بالضحك. ثم ألقى رئيس أكاديمية العلوم والتكنولوجيا كلمة قال فيها: "لم يكن سرًّا أن أميركا كانت ستهاجمنا بالقنابل النووية عام 1958، ولكنهم فوجئوا بأننا كنا قد قمنا بصنع القنبلة الذرية عام 1944. لقد صنعنا القنبلة الهيدروجينية قبل أميركا، ثم إنّنا سبقناهم في الوصول إلى الفضاء. وهكذا، وضعنا حدًّا لخطة تدمير الاتحاد السوفياتي". ثم ألقى غروميكو كلمة قال فيها: "من حقكم أن تهاجموا الجيل السابق، ولكن هناك حقيقة عليكم إدراكها أنّ هذا الجيل الذي تهاجمونه هو الذي بنى الاتحاد السوفياتي كدولة عظمى". ثم قال: "كل ما كان يصدر عن الكرملين كان يجب على العدو والصديق أن يصغيا إليه".

حينما انخفضت أسعار النفط إلى 7 دولارات في أواخر الثمانينيات، عجزنا عن تمويل صيانة الأسلحة، كما عجزنا عن شراء قطع الغيار. وخلال

(38) بوريس نيكولايفيتش يلتسين: سياسي روسي سوفياتي، أصبح أول رئيس للاتحاد الروسي (1991-1999).

حقبة الرئيس ريغن، وهي الحقبة الأصعب في المواجهة الاقتصادية والعسكرية والسياسية والدعائية مع الولايات المتحدة، لم نتمكن من صيانة واستخدام ما يزيد على 60 في المئة من معداتنا العسكرية، بل كانت رابضة على الأرض لنقص قطع الغيار وعجزنا عن القيام بعمليات الصيانة، ولأنها كانت تحتاج إلى ميزانيات تسيير هائلة. كان الاتحاد السوفياتي يرفض تزويدنا بقطع الغيار، كما رفض القيام بأعمال الصيانة إلا بعد تسديد ما ترتب علينا من مبالغ مالية. وخلال حقبة غورباتشوف، قرّر الاتحاد السوفياتي أن ندفع ثمن قطع الغيار والصيانة نقدًا؛ فقرّرنا وقف تزويده بالنفط، ثم دخلنا في مفاوضات أصررت فيها على ضرورة تخفيض الديون بنسبة 50 في المئة، ثم توصلنا، أخيرًا، إلى اتفاق يسمح بخفض 36 في المئة من الديون، وكان هذا اتفاقًا جيدًا.

لمّا انهار الاتحاد السوفياتي، جمّدنا هذا الاتفاق وتوقفنا تمامًا عن تسديد الديون، لكن روسيا طالبتنا بتسديدها، ونظرًا إلى ظروف ليبيا وكذلك روسيا، المالية الصعبة، عرضنا أن نشتري الديون وقيمتها ملياران وأربعمئة مليون دولار، بمبلغ 500 مليون دولار، واتصل بنا بعض المصارف الأوروبية والسماسرة لهذا الغرض، لكن روسيا طلبت مبلغًا أكبر بكثير.

في عام 1971، طلب الأخ معمّر من العقيد أبو بكر يونس رئيس الأركان، والمقدم حامد الويشاحي مدير إدارة العقود العسكرية، إقامة مصنع للأسلحة الخفيفة والمتوسطة (بنادق، مسدسات، رشاشات) مع ذخائرها. ووقعت إدارة العقود عقدًا مع شركة بلجيكية لإقامة المصنع، بقيمة مليار و700 ألف دينار، أي أكثر من 5,5 مليارات دولار، لكنني ما إن علمت بالعقد حتى أوقفته، واتصلت بالأخ معمّر وقلت له: "الأسعار مبالغ فيها، ويدور كثير من الشبهات حول الصفقة، وإنّ سماسرة ليبيين وأوروبيين وراء إبرامها، إضافة إلى أننا غير مستعدين من الناحية البشرية والعلمية والفنية، ولا نملك الكوادر لتسيير المصنع". وبعد جهدٍ كبير، نجحت في إقناعه بإلغاء المشروع. ثمّ بعد ما يقرب من 15 سنة، تعاقدنا مع الاتحاد السوفياتي على بناء المصنع نفسه، وكانت قيمة العقد في حدود مليار دولار.

حينما زارنا كوسيغن رئيس وزراء الاتحاد السوفياتي في بداية السبعينيات، كان من المفترض أن يستقبله الأخ معمّر في اليوم الثاني من زيارته، ولكنه تأخر في استقباله ذلك اليوم، فاتصل بي كوسيغن وهو في حالة غضب شديد، ولمّح لي بأنه يفكر في قطع زيارته، فاتصلت بالأخ معمّر الذي قرر استقباله على الفور، وقبل أن يستقبله في مكتبه بقصر الشعب، طلب أن يحضروا له كتبًا عن الماركسية ووضعها في رفوف مكتبته. وحين استقبل كوسيغن وقبل أن يعقد معه اجتماعًا، دعاه لمشاهدة الكتب الماركسية التي يقتنيها ويفضلها، وبدا أنه كان يستخف بعقل كوسيغن كعادته دائمًا. لقد كان لزيارة كوسيغن، والانطباع السيئ الذي خرج به عن الأخ معمّر، دورٌ في امتناع قادة الاتحاد السوفياتي عن القيام بأي زيارة لليبيا.

اللقاء مع مهاتير محمد

في منتصف السبعينيات، قام رئيس الوزراء الماليزي الدكتور مهاتير محمد[39] بزيارة ليبيا. وفي هذا اللقاء الأول، شعرنا بأننا نعرف بعضنا بعضًا منذ وقت طويل، فنشأت بيننا علاقات احترام متبادل يسوده الحب ووحدة الأفكار. واتفقنا على ضرورة العمل لإحداث صحوة الأمة الإسلامية. خضنا مع مهاتير محمد حوارات معمقة حول واقع الأمة الإسلامية وآفاق المستقبل. وقد سمحت هذه الزيارة ببناء علاقة ثقة بيننا، وشعرنا كأننا نرتوي من نبع فكري واحد.

العلاقة مع فيدل كاسترو

نظرنا إلى الثورة الكوبية على أنها "ثورة جذرية" و"انفجار ثوري في خاصرة أميركا"، وفي أميركا الجنوبية، الحديقة الخلفية لواشنطن التي تعادينا،

(39) مهاتير محمد (1925-): رئيس وزراء ماليزيا في الفترة 1981-2003، وهي أطول فترة لرئيس وزراء في ماليزيا، ومن أطول فترات الحكم في آسيا أيضًا. كان له دور رئيس في التقدم الكبير الذي شهدته ماليزيا؛ إذ تحولت من دولة زراعية تعتمد على إنتاج المواد الأولية وتصديرها، إلى دولة صناعية متقدمة. وبعد اعتزاله العمل السياسي أعلن عن خوضه من جديد الانتخابات العامة ليفوز بأغلبية المقاعد، ويعلن عن تشكيل الوزارة، وبذلك أصبح سابع رئيس وزراء.

ورأينا فيها "قاعدة ثورية" تستند إليها حركات التحرير. قام فيدل كاسترو بترتيب اتصالاتنا ببعض هذه الحركات، وكان معجبًا وسعيدًا بحيوية ثورة الفاتح، وبالدعم اللامحدود الذي تقدمه لحركات التحرر في العالم. زارنا عدة مرات، وبعض الزيارات كانت تستغرق أكثر من عشرة أيام، يتوزع فيها الوقت بين الحوار والنقاش وممارسة رياضة سباق الخيل. كان كاسترو ضيف الشرف الوحيد يوم إعلان "سلطة الشعب" عام 1977. لقد نشأت بيني وبين كاسترو علاقة شخصية متينة، إلى درجة أنه في إحدى زياراته لليبيا، اتصل بي قائلًا: "رفيق جلود. غدًا سوف تصل صديقتي من إسبانيا، ولا أريد لأحد أن يعرف ذلك، سوف أقول لمعمّر وللمراسم إنها أختي"، فضحكت. وبالفعل، وصلت صديقته إلى طرابلس، فكنت أتصل أحيانًا وأسأله مازحًا: "كيف حال أختك؟"، وكنّا نضحك.

تركيا

في عام 1973، قمت أوّل مرة بزيارة لتركيا، بعد نجدة تركيا للمسلمين الأتراك في قبرص؛ إذْ كانت هذه الجالية تعيش تحت وطأة تصاعد الروح العنصرية. لقد وقفنا بقوة إلى جانب تركيا وإلى جانب القبارصة الأتراك المسلمين سياسيًا ومعنويًا، كما زودنا تركيا بالأسلحة والذخائر وبطائرات "أف 5" (F-5)، وقمنا بتزويدها بالنفط. وقد جاءت زيارتي لتركيا بعد العملية العسكرية التركية في قبرص[40]. وكانت شعبية ثورة الفاتح داخل تركيا، سواء في أوساط الشعب أو على مستوى المسؤولين، قد بلغت ذروتها. وحظيت زيارتي بحفاوة منقطعة النظير، أجريت خلالها مباحثات معمّقة ومطوّلة مع رئيس الجمهورية ورئيس الوزراء وقادة الأحزاب، ومع المفكرين والمثقفين، وكذلك مع قادة

(40) الأزمة القبرصية: سيطرت تركيا عسكريًا على شمال جزيرة قبرص في عملية أطلقت عليها عملية السلام القبرصية، وكان الاسم الرمزي لها عملية أتيلا (Atilla Harekâtı)، وذلك في 20 تموز/ يوليو 1974 في أعقاب الانقلاب القبرصي في 15 تموز/ يوليو 1974. وعلى إثر ذلك، أعلنت جمهورية شمال قبرص التركية استقلالها في عام 1983، وأن تركيا هي البلد الوحيد الذي يعترف بها. ويعتبر المجتمع الدولي إقليم جمهورية شمال قبرص التركية إقليمًا تابعًا للجمهورية القبرصية تحت الاحتلال التركي.

الجيش، والتقيت بالجماهير المسلمة التركية؛ فألقيت خطابات جماهيرية في مئات الآلاف، وكان أهم خطاب ألقيته في نحو مليون ونصف المليون من المسلمين، تجمعوا داخل مسجد ضخم وخارجه، وألقيت أيضًا خطابًا آخر في الجامعة حضره أكثر من 80 ألف طالب وأستاذ جامعي قلت فيه: "الحمد لله الذي جعل الإسلام منحوتًا ومنقوشًا في قلوبكم ووجدانكم وفي عقولكم، وأن ما أراده (مصطفى كمال) أتاتورك، وما كتبه لم يتعدّ الحبر الذي كتب به. لقد ظل على الورق"، فتعالت صيحات الطلبة: "الله أكبر، الله أكبر"، وقلت: "إن الأمم التي قادت الإسلام سياسيًا وفكريًا هي الأمة العربية والأمة التركية والأمة الفارسية، الأمة العربية قادت الإسلام سياسيًا في بداياته، وإيران والجمهوريات الإسلامية في الاتحاد السوفياتي قادته فكريًا، ثم قادت تركيا الإسلام سياسيًا بعد العرب". وأضفت: "ولذا، فاستراتيجية الغرب هي ألا تلتقي هذه الأمم الثلاث؛ لأن لقاءها يعني عودة الإسلام إلى سابق عهده ليقود العالم، والسبب الثاني أن العرب هم أساس الإسلام، والأماكن الروحية - مكة وقبر الرسول صلى الله عليه وسلم، والمدينة المنورة وبيت المقدس - كلها في الوطن العربي. الغرب يريد أن تؤدي تركيا وإيران دور الحاجز، حيث تمنع الإشعاع الروحي الإسلامي من الوصول إلى الكتل الإسلامية في آسيا، وباكستان، والهند، وبنغلاديش، وإندونيسيا". ثم قلت: "إن قضية فلسطين هي قضية كل المسلمين، وليست قضية عربية، وبيت المقدس هو بيت كل المسلمين. قضية تحرير فلسطين وبيت المقدس مسؤولية كل المسلمين". وقلت لهم: "من هنا، من تركيا الإسلام، من تركيا التاريخ المجيد، أدعو كل المسلمين أن يقرروا في موسم من مواسم الحج أن يحج مليون أو مليونان، ويقرروا التوجه إلى فلسطين لتحريرها وتحرير بيت المقدس"، فاشتعل الحماس وتفجّر البركان وتعالت الصيحات المدوية: "مجاهدون، مجاهدون، الله أكبر، الله أكبر".

كانت لحظات لا تُنسى، لحظات من التاريخ شعرت خلالها بأنني أولد من جديد. وكنت أينما ذهبت، أشاهد الجماهير وهي تتجمع للترحيب بي بصفة عفوية. وأحيانًا كنت أذهب للعشاء في المطاعم، فكان المغنون والمغنيات وروّاد المطعم يغنون لثورة الفاتح وليبيا، وأذكر أن إحدى الأغاني تقول

"السعودية منعت عنّا النفط، وليبيا وعبد السلام جلود أعطيانا النفط". لقد استثمرنا في تركيا الكثير من الوقت والجهد والعمل. وساعد الموقف السلبي للغرب من التدخل التركي لصالح المسلمين الأتراك في قبرص على تعاظم الصحوة الإسلامية. كان القساوسة في كل أوروبا يدعون القبارصة اليونانيين إلى "قتل" الأتراك المسلمين ويصرخون: "أطردوهم، أقتلوهم". وخلال حديثي مع المسؤولين والمثقفين وخطاباتي الجماهيرية، كنت أشير إلى الدعوات "الصليبية" ضد المسلمين الأتراك، وأركز على هذا الجانب. كنت أصوّر لهم ما يحدث للمسلمين في قبرص، والدعوات الصليبية ضدهم الصادرة من الغرب، بأنه هو ذاته ما حدث للمسلمين الفلسطينيين عام 1948؛ وهكذا، كنت أربط بين الأحداث في قبرص وما جرى، وما يجري، في فلسطين. والآن، وبعد انتصار "ثورة القرن" بلا منازع، أي الثورة الإسلامية في إيران، وانسلاخ الجمهوريات الإسلامية عن الاتحاد السوفياتي، وإصرار الغرب على أن يكون له "عدوّ" بعد نهاية الشيوعية، بحسب ما أعلن رونالد ريغن ومارغريت تاتشر[41]، فإن هذا العدو أصبح هو الإسلام، لكن تركيا تعيش "صحوة إسلامية" حقيقية يقودها حزب الرفاه.

ثم تكرّرت زياراتي الرسمية لتركيا، وكنت في كل مرة أقف على عمق روابط الشعب التركي مع ثورة الفاتح والشعب الليبي، وأشعر بقربي من المسؤولين الأتراك والجماهير التركية. في الواقع، نجح الغرب في تعميق العداء بين العرب والأتراك، وبوعيٍ أو من دون وعي نفذنا المؤامرة التي رسمها الغرب، ورضخنا لمؤامرة "عدم التقاء العرب والأتراك والفرس". بيد أن بعض المثقفين العرب في المشرق العربي كان له دور في هذا الأمر، حين عمل على تقوية "العامل القومي" على حساب "العامل الديني". وأنا أؤمن بأن العروبة والإسلام وجهان لعملة واحدة؛ فالعروبة هي الجسد والإسلام هو الروح. لقد جرى تصوير عصر "الخلافة العثمانية" على أنه "عصر استعماري"، ولكنه لم

---

(41) مارغريت تاتشر (1925-2013): رئيسة وزراء المملكة المتحدة (1979-1990)، وزعيمة حزب المحافظين (1975-1990)، وهي أول امرأة تولت رئاسة وزراء المملكة المتحدة.

يكن كذلك. كان مرحلة من مراحل التاريخ الإسلامي الذي تولت فيه تركيا القيادة، لكن ثورة الفاتح تنبهت إلى هذه المؤامرة، وأفشلتها وساعدت في عودة تركيا إلى حاضنتها الإسلامية، وبدأت تركيا تنزع عن نفسها "ثوبها الغربي" المزيف، وترتدي "ثوبها الإسلامي".

ورغم الجهد الغربي لدعم القوى العلمانية المرتبطة به، فإن الغرب عمل على تضاؤل دور تركيا في استراتيجيته بعد انهيار الاتحاد السوفياتي وانضمام روسيا إليه، ظل يركز على تركيا لمنعها من العودة إلى جذورها وموقعها في الشرق. إنّ ما حصل في تركيا من صحوة إسلامية، وتطور ديمقراطي ونهوض اقتصادي، يعود في جزء كبير منه إلى اللقاء الذي جرى في طرابلس بيننا وبين الأخ نجم الدين أربكان[42]، حيث عرض علينا أنه يريد تشكيل حزب السعادة الإسلامي في تركيا، ويطلب دعمنا. أجرينا مع أربكان حوارات معمّقة، اتفقنا خلالها على تشكيل حزب السعادة. كان أربكان يملك رؤيا لمستقبل تركيا ومستقبل العالم الإسلامي، وكان مؤمنًا إيمان المجاهد الصلب بالدور القيادي لتركيا في العالم الإسلامي، وبأن يقيم هذا العالم تجمعًا اقتصاديًا وحلفًا عسكريًا موحدًا. كان أربكان يشاركنا قناعتنا بضرورة تحرير فلسطين من النهر إلى البحر، وكان يجمع بين صفات المجاهد الصلب وتواضع النموذج الإسلامي. هذا النموذج الذي كنّا نفتقده، وقررنا الوقوف معه ومع حزبه بكل قوة ماديًا وسياسيًا. اتفقنا معه على استراتيجية "استعادة" تركيا لموقعها ودورها ومكانتها اللائقة في العالم الإسلامي، قصد تحقيق نهضة حقيقية، واتفقنا أيضًا على أن تصبح "قضية فلسطين" قضية مقدسة لكل الشعوب الإسلامية. شجعنا أربكان على العمل بسرعة لإعلان تشكيل حزب السعادة. وفي أول انتخابات، استطاع أربكان الحصول على 51 مقعدًا، ثم حقق

---

(42) نجم الدين أربكان (1926-2011): مهندس وسياسي تركي تولى رئاسة حزب الرفاه ورئاسة وزراء تركيا (1996-1997): عُرف بتوجهاته الإسلامية. أسس حزب السلامة الوطني (في 11 تشرين الأول/ أكتوبر 1972) بديلًا من حزب النظام الوطني الذي حُظر بسبب توجهاته الإسلامية في الجمهورية التركية العلمانية. وقد استمر أربكان في قيادة حزب السلامة الوطني، الذي نما في الأوساط الشعبية التركية، حتى أغلقه الانقلاب العسكري في 12 أيلول/ سبتمبر 1980، فخلفه حزب الرفاه الذي تأسس في عام 1983.

في الانتخابات التالية الأغلبية في البرلمان وأصبح رئيسًا للوزراء عام 1996. حينما زرت تركيا عام 1973، زرته في شقته في اسطنبول عدة مرات، وكانت شقة بسيطة ومتواضعة، تعكس قيم البساطة والتواضع المتأصلة فيه، وكذلك أعوانه. ولأنه مجاهد وصاحب مبادئ لا يحيد عنها ولا يساوم عليها، قام الجيش والقوى المعادية للإسلام في أيلول/ سبتمبر 1980 بحل حزب السلامة الوطني وأُودع أربكان السجن. قامت القيادات الشابة في الحزب، من الصفين الثاني والثالث، بتشكيل حزب العدالة والتنمية بقيادة رجب طيب أردوغان[43]، ونجحت تلك القيادات في جعله متجذرًا في الشعب، واستفادت من تجربة حزب السعادة وكانت أكثر من أربكان قدرة على إتقان لعبة البراغماتية؛ وهذا طبيعي لأن الصراع صراع اجتماعي وصراع أجيال. إن اللقاء التاريخي بيننا هو الذي أعاد تركيا لتتبوأ مكانتها في العالم الإسلامي.

في ثمانينيات القرن الماضي، وبعد الانقلاب العسكري في تركيا، كان توركت أوزال[44] يشكل حزبه الجديد الذي حقق فوزًا في الانتخابات العامة على حساب حزب بولنت أجاويد[45]. فتولى أوزال منصب رئيس الوزراء، ثم أصبح رئيسًا للجمهورية. لقد شكلت حقبة أوزال مرحلة هي مزيج من "العلمانية" و"الإسلامية"، ولكن من دون رؤية واضحة. كان أوزال معجبًا بثورة الفاتح ويكنّ لها الحب والتقدير؛ لذا سعى من خلال علاقاته مع الأميركيين

(43) رئيس الجمهورية التركية منذ عام 2014. وقد شغل سابقًا منصب رئيس الوزراء (2003-2014) ورئيسًا لبلدية اسطنبول (1994-1998).

(44) توركت أوزال (1927-1993): سياسي تركي ليبرالي. كان رئيس الجمهورية التركية الثامن (9 تشرين الثاني/ نوفمبر 1989 - 17 نيسان/ أبريل 1993)، وتولى قبل ذلك رئاسة الوزراء (13 كانون الأول/ ديسمبر 1983 - 31 تشرين الأول/ أكتوبر 1989). تميزت فترة توليه للسلطة بتوجيهه اقتصاد تركيا نحو الخصخصة؛ ما أدى إلى تحسين علاقاته الدبلوماسية مع الغرب، وخاصة الولايات المتحدة الأميركية.

(45) مصطفى بولنت أجاويد (1925-2006): تولى منصب رئيس وزراء تركيا أكثر من مرة. زعيم حزب الشعب الجمهوري (14 أيار/ مايو 1972 - 29 تشرين الأول/ أكتوبر 1980). تولى منصب زعيم حزب اليسار الديمقراطي (13 أيلول/ سبتمبر 1987-1988)، و(1989 - 25 تموز/ يوليو 2004). تدخلت تركيا في قبرص لمنع اليونان من ضمها خلال توليه رئاسة الحكومة عام 1974. على الرغم من أنه كان من أشد المدافعين عن العلمانية، فإنه تحالف مع الإسلاميين لتشكيل حكومته الأولى.

إلى تخفيف العداء ضد ليبيا، ولكنه لم ينجح، وكثيرًا ما كان ينصحنا بالانحناء أمام العاصفة، وكنّا نرفض. وبالمناسبة، أخبرني سفيرنا في تركيا أن عائلة أجاويد تعود في أصولها إلى ليبيا، وأنه من العائلة نفسها التي ينحدر منها سفيرنا في اسطنبول سعد الدين أبو شويرب. وأذكر أن الأخ معمّر لما حضر اجتماع مجموعة العشرين في إيطاليا عام 2009 بوصفه رئيسًا للاتحاد الأفريقي، أخبرني أن أردوغان قال له خلال لقاء بينهما، بأنه قد استمع، حين كان طالبًا في السنة الثانية بجامعة اسطنبول، إلى خطاب جلود في طلبة الجامعة وأساتذتها، وأنه ما يزال يذكره.

غانا: العلاقة مع جيري رولينغز

في 31 كانون الأول/ ديسمبر 1981، قاد جيري رولينغز[46] حركة التغيير في غانا. ولوعينا دور غانا التاريخي في عهد كوامي نكروما، ودور غانا ومكانتها في أفريقيا، سعدنا بحركة التغيير هذه، وسافرت على الفور للوقوف بنفسي على ما يجري، وكيفية دعمه والوقوف معه. ومن المطار، توجهت إلى مقابلة جيري. كان اللقاء حارًّا ومُفعمًا بمشاعر البهجة والفرح لنجاح التغيير. وجدت جيري رجلًا بسيطًا وإنسانًا طيبًا ومتواضعًا، وفوجئت وسعدت حينما وجدت أنه محاط بمجموعة من شباب الجامعات وأساتذتهم. لم أكن أعرف، حتى هذه اللحظة، ما إذا كان هؤلاء الشباب على علاقة مع جيري قبل قيامه بحركة التغيير، أم إنهم التحموا وانضموا إليه بعد انتصار الحركة. أجريت معه ومع هؤلاء الأساتذة والطلبة محادثات مطوّلة ومعمّقة، أكدت خلالها أنّ عليهم أن ينظروا إلى التغيير على أنه "فرصة تاريخية" لاستعادة دور غانا نكروما، وإحياء أفكاره التي كانت، في مجملها، تتبنى نظرية "تحرير أفريقيا" سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا، وإحياء تاريخ أفريقيا وحضاراتها التي تآمر عليها الاستعمار الغربي وطمسها، وأن تكتشف أفريقيا ذاتها من جديد.

(46) جيري رولينغز (1947-2020): ضابط عسكري وسياسي غاني. شغل منصب رئيس جمهورية غانا ثلاث فترات بين عامي 1979 و2001.

طلب مني جيري، والشباب من حوله، أن ألتقي طلبة جامعة غانا وأدعوهم للالتحام بحركة التغيير؛ وأن تتحول هذه الحركة من "حركة جيري ورفاقه" إلى "حركة كل الشباب" والمثقفين في غانا، وأن يعطوا ديناميكية جديدة ويطوروها من أجل أن تسترد غانا دورها القيادي في أفريقيا مثلما كانت أيام نكروما. أكدت لهم وقوف ثورة الفاتح والشعب العربي الليبي معهم، سياسيًا واقتصاديًا وعسكريًا، وأنهم يجب أن يتأكدوا من دعمنا اللامحدود لهم، وتحالفنا معهم من أجل مصلحة غانا وأفريقيا. في هذه الزيارة، نشأت بيني وبين جيري صداقة عميقة، فكان يزورنا في ليبيا ونزوره في غانا بصفة دائمة. ولكن لما اختلفت مع الأخ معمّر واتخذت قراري بالاستقالة - رغم أنني لم أقدمها مكتوبة لأنني شريك في الثورة ولست معيّنًا منه - كان رؤساء الجمهوريات ورؤساء الوزارات حينما يزورون ليبيا، يطلبون منه أن يسمح لهم بلقائي، وكان الأخ معمّر يرفض ذلك، ويقول: "لا تفرضوا عليّ وضعًا لا أريده، وهو وجود سلطة ومعارضة". وفي أول زيارة لجيري لليبيا، بعد توقفي عن العمل، طلب من الأخ معمّر أن يسمح له بمقابلتي، فرفض بشدة، ولكن جيري ركب سيارة السفارة الغانية وجاء إلى منزلي في المصيف البلدي بطرابلس. ولما علم الأخ معمّر بذلك، غضب غضبًا شديدًا واحتج على تصرفه، فقال جيري للأخ معمّر: "جلود أول شخص يصل إلى غانا بعد انتصار حركة التغيير، وهو الذي علمني معنى الثورة والأفكار الثورية".

الثورة الإسلامية الإيرانية وليبيا

في منتصف السبعينيات بدأت بوادر "ثورة إسلامية" في إيران؛ إذ وقعت سلسلة من التفجيرات والأعمال الثورية، وكان واضحًا أن الثوريين الإسلاميين في إيران كانوا قد تأثروا بثورة الفاتح في ليبيا. بعد الثورة (شباط/ فبراير 1979) وحين زرت طهران، قال لي علي خامنئي[47] وعلي أكبر هاشمي

(47) علي خامنئي (1939-): تولى رئاسة الجمهورية الإسلامية الإيرانية (13 تشرين الأول/ أكتوبر 1981 - 3 آب/ أغسطس 1989)، ويشغل حاليًّا منصب المرشد الأعلى لإيران منذ 4 حزيران/ يونيو 1989 بعد وفاة روح الله الخميني.

رفسنجاني[48]: في السجن، كنّا نحتفل بعيد ثورة الفاتح، وحين علم شاه إيران بذلك قام بتعذيبنا. كان الإيرانيون في عهد الشاه يتابعون خطوات الثورة ويستمعون للإذاعة. في هذا الوقت، كان الزعيم الباكستاني ذو الفقار علي بوتو رئيسًا للوزراء، وكان يحمل لنا رسائل من الشاه تقول "امسكوا عني قنابلكم (أي أوقفوا دعمكم للثوار)"، وكنّا نردّ عليه: "هذه قنابل الشعب الإيراني". كان مُحرّمًا على أيّ إيراني زيارة ليبيا، والعكس. وحدث أنني علمت خلال زيارة لطهران أن أحد الشبّان الثوريين الإسلاميين، ممن كانوا يتولون حراستي، كان قد حكم عليه في عهد الشاه بخمس عشرة سنة سجنًا لأنه زار ليبيا. وفي إحدى المرات، كان وزير النفط الليبي عز الدين المبروك في طريقه إلى زيارة بعض الدول الآسيوية، وكان يعبر الأجواء الإيرانية برحلة على طائرة تجارية. وقد أُجبرت الطائرة، لأسباب فنية أو ربما لأسباب تتصل بالطقس السيئ، على الهبوط في طهران، فقامت السلطات الإيرانية بوضع الوزير في غرفة خاصة معزولة، ورفضت السماح له بالتجول داخل المطار.

حينما قرّر النظام في العراق طرد روح الله الخميني من النجف رضوخًا لطلب من شاه إيران، أرسلنا رسالة إلى الخميني قلنا فيها: "نحن نعرض عليك أن تأتي إلى ليبيا، وأن تتخذ منها قاعدة لك، وكل إمكانيات ليبيا تحت تصرفك، كما سنضع تحت تصرفك إذاعة موجهة إلى إيران تديرها كما تشاء"، فردّ قائلًا: "أشكركم، لكن منْ سيسمعني إنْ تكلمت من ليبيا عمّا يجري في إيران؟". وهكذا قرر الخميني أن يذهب إلى باريس، لأنها مركز إعلامي عالمي يستطيع من خلاله أن يقود الثورة منه. لما انتقل الخميني إلى باريس، أرسلنا إليه مبعوثَين خاصين، هما إبراهيم البشاري وسعد مجبر، وعرضنا عليه مرة أخرى أي دعم يمكن أن يطلبه منا، بما في ذلك التسليح. وأريد أن أشير إلى أنّ الذي نصحنا بضرورة الاتصال بالخميني، ومتابعة ما يجري في إيران، هو

(48) علي أكبر هاشمي رفسنجاني (1934–2017): سياسي ورجل دين إيراني. حُكم عليه بالسجن عدة مرات في فترة حكم شاه إيران. بعد انتصار الثورة الإسلامية، شغل مختلف المناصب، بما في ذلك رئاسة البرلمان، ورئاسة الجمهورية لدورتين متتاليتين (1989–1997). وكان منصب رئاسة مجمع تشخيص مصلحة النظام (1989–2017) آخر منصبٍ شغله حتى وفاته.

شخصية إيرانية وطنية كانت تعيش في فرنسا. بعد ذلك، عيّنا إبراهيم البشاري وسعد مجبر مسؤولَين عن العلاقة مع الخميني. فأقاما معه في باريس. قال لي سعد مجبر ذات مرة: "بعض الأشخاص الذين كانوا مع الخميني في ضاحية باريس 'نوفل دي ليشاتو' (Le Chateau) كانوا يدلون بتصريحات ويعلنون أنهم 'مستشارون' للخميني أو 'متحدثون باسمه'، فلما علم الخميني بذلك علق يافطة تقول: 'لا يوجد للخميني متحدثون باسمه. الخميني يتحدث بنفسه'".

حينما سقط نظام الشاه وعاد الخميني إلى طهران، عاد معه على الطائرة نفسها سعد مجبر وإبراهيم البشاري. في اليوم الرابع لوصول الخميني إلى طهران، في 5 شباط/فبراير 1979، وصلتُ إلى أجواء طهران في "زيارة ثورية" رُتبت على عجل عن طريق سعد مجبر وإبراهيم البشاري، وكذلك عن طريق عباس محمد منتظري[49]، هذا الثوري الإسلامي من الطراز الرفيع، والمجاهد الحركي المبادر، وأيضًا عن طريق حسين الخميني[50]. ولما وصلت الطائرة إلى أجواء إيران، رفضت الحكومة العميلة برئاسة مهدي بزركان[51] السماح لها بالهبوط؛ فظلت الطائرة تحلّق في الأجواء، فأبلغ الطيار برج المراقبة أن الوقود يوشك أن ينفد. كان سعد مجبر وإبراهيم البشاري، وبعض الثوريين من الحرس الثوري واللجان الثورية، يضغطون في اتجاه السماح للطائرة بالهبوط ومنع حدوث كارثة. كان صادق طباطبائي[52] نائب وزير الداخلية في حكومة بزركان يقود المعارضة الشرسة لزيارتي،

(49) عباس محمد منتظري (1944-1981): رجل دين إيراني وشخصية عسكرية. كان أحد الأعضاء المؤسسين والرؤساء الأوائل لفيلق الحرس الثوري الإسلامي. قُتل في تفجير عام 1981 في طهران.

(50) حسين الخميني (1959-): رجل دين إصلاحي. وهو حفيد آية الله الخميني.

(51) أول رئيس حكومة في إيران بعد سقوط الشاه محمد رضا بهلوي. تولّى رئاسة الحكومة المؤقتة (1979-1980). كان من أنصار الثورة الإيرانية على الشاه، وأحد القادة البارزين فيها.

(52) صادق طباطبائي (1943-2015): إعلامي إيراني وأستاذ جامعي في جامعة طهران وسياسي، شغل منصب نائب رئيس وزراء إيران في أثناء حكم رئيس الوزراء مهدي بزركان وبعد استقالته. كان نائب وزير الداخلية خلال حكومة بزركان، وعقد استفتاء آذار/مارس 1979. وكان سفير إيران في ألمانيا (1982-1986).

وكان معه قطب زاده وعباس انتظام، وهؤلاء عملاء لواشنطن. كان طباطبائي هو الذي يتولى، من قلب المطار، توجيه الأوامر إلى سلطات المطار لمنع طائرتي من الهبوط وإجبارها على العودة.

كانت سلطات المطار، بتوجيه من طباطبائي، تسأل سعد مجبر وإبراهيم البشاري: "من هذه الشخصية المهمة في الطائرة؟"، فكانا يردان: "شخصية ليبية". كانوا يسألونهما: "منْ دعا هذه الشخصية؟"، وكانا يردان: "بدعوة من الثورة الإسلامية". بعد أن كاد الوقود ينفد، اضطرّت سلطات المطار إلى إعطاء الإذن بالهبوط تجنبًا لحدوث كارثة محقّقة. بعد هبوط الطائرة توجهنا إلى صالة الانتظار، وبقينا هناك أكثر من ثلاث ساعات. جاءني طباطبائي وقال لي: "من وجّه لكم الدعوة؟"، فرد عليه سعد مجبر قائلًا: "الرائد عبد السلام جلود جاء بدعوة من قيادة الثورة الإسلامية". اكتشفنا أن هؤلاء كانوا قد رتبوا "لمؤامرة" قبل السماح لنا بالهبوط؛ إذْ جهزوا طائرتين عموديتين لنقلنا إلى مدينة قم. ولما أجابهم سعد أنني هنا بناء على دعوة من القيادة قال لنا: "القيادة في قم، وقد جهزنا لكم طائرتين عموديتين لنقلكم". شعر سعد مجبر والبشاري بالإحراج، وبدا الموقف معقدًا؛ فبادرت إلى القول وأنا أخاطب سعد وإبراهيم: "لا تنزعجا. أنا مجاهد وأعددت نفسي لكل الاحتمالات". في هذه الأثناء وصل محمد منتظري إلى المطار وبصحبته حسين الخميني ومعهما شباب من الحرس الثوري واللجان الثورية. صفع حسين الخميني وجه طباطبائي ثم طرده من المكان. ثم تعانقنا جميعًا (ليبيون وإيرانيون) وتعالت صيحات "الله أكبر"، وتحول الموقف من موقف تراجيدي إلى عرس ثوري، ولاذ العملاء بالفرار، وانطلق الموكب من المطار إلى قلب طهران.

عند وصولنا إلى الفندق، قابلني في الممر إريك رولو الصحافي الفرنسي ومحرر **لوموند**، والذي أصبح في ما بعد سفير فرنسا في تونس، وكان غالبًا ما يتردد على ليبيا وكنّا نعرف بعضنا جيدًا. سألني رولو بالعربية: "ما رأيك في الثورة الإيرانية؟"، فقلت له: "هذه ليست ثورة إيرانية. هذه ثورة الإسلام. ثورة الشرق ضد حضارة الغرب"، فردّ عليّ بالقول وهو يضحك: "أنت خطير". ثم توجهنا بعد ذلك إلى قاعة الاجتماعات في الفندق حيث أقيم احتفال خطابي.

صباح اليوم التالي، توجهنا بالحافلات إلى مدينة قم للقاء الإمام الخميني. كان محمد منتظري يتميز بحسّ أمنيّ نادر؛ ولذا كان يقوم بتغيير الحافلات طوال الطريق. كنّا نغادر حافلاتنا لنستقل أخرى، حتى إنه غيّر موقع حافلتي ضمن القافلة أكثر من مرة؛ وبينما كنّا نمرّ في شوارع طهران، شاهدت سفارة فلسطين التي حلت محل سفارة العدو الصهيوني. ورأيت الجموع البشرية الهائلة وهي تقبّل العلم الفلسطيني وتبكي. كانت قضية فلسطين تحتل الصدارة في فكر الخميني. كان فكره يتلخص في تحرير فلسطين والصحوة الإسلامية الجماهيرية، والشورى، والعدالة، والانحياز إلى الفقراء ومقاومة الولايات المتحدة والغرب، ووحدة المسلمين، وإيمانه بأن اللغة العربية هي لغة القرآن، وأنها يجب أن تكون لغة المسلمين جميعًا، وهذا ما أكده في دستور الجمهورية الإسلامية، حين تقرر أن اللغة العربية هي اللغة الثانية في إيران. كان يعمل على أن تكون العربية هي اللغة الوحيدة في البلاد في نهاية المطاف. إنه ثوري جماهيري من الطراز الأول. لقد فجّر "ثورة القرن" بلا منازع.

لمّا وصلنا إلى مدخل قم، تمّ تغيير الحافلات مرة أخرى، وجرى استبدالها بسيارات صغيرة وتوجهنا إلى منزل الإمام الخميني. كانت هناك حشود بشرية هائلة تحيط بالمبنى. انتظرت دقائق قبل أن يحضر الخميني. كان معي ضمن الوفد ثلاث فتيات من اللجان الثورية النسائية في ليبيا فأردن أن يسلمن على الإمام الخميني ولكن الإمام الخميني بذكائه المتدفق وسرعة بديهيته، بدا وهو يجامل الفتيات؛ ولذا وضع يده في طرف عباءته وصافح الفتيات من دون أن تلامس الأيدي مباشرة، وكانت تلك التفاتة جميلة ومؤثرة، أما النساء الإيرانيات فكنّ يحيينه بهزّ الرأس. بعد التقاط الصور عقدت اجتماعًا مع الإمام الخميني حضره من الجانب الليبي سعد مجبر وإبراهيم البشاري. في اليوم التالي، عقدت اجتماعًا مع محمود طالقاني[53] الذي كان يتحدث العربية، كما أن أولاده كانوا

(53) محمود طالقاني (1911-1979): عالم دين شيعي وسياسي إيراني، وهو أحد رموز الثورة الإسلامية الإيرانية. دعم الدكتور محمد مصدق في قرار تأميم صناعة النفط الإيراني، ثم التحق بالحركة الوطنية الإيرانية، وبعد أن حلّها الشاه أسس حركة المقاومة الإيرانية وشارك في تأسيس حزب حركة حرية إيران. وأمضى 15 عامًا من عمره في سجون الدولة البهلوية. بعد انتصار الثورة الإسلامية، أصبح

يتحدثونها بطلاقة. وفي اليوم ذاته، عقدت اجتماعًا آخر مع آية الله منتظري، وكان هو أيضًا يتحدث معي باللغة العربية. ومع أن الإمام الخميني يجيد العربية، فإنه كان حريصًا على التحدث معي بالفارسية، لأنه "قائد الثورة". في المساء التقيت في الفندق معظم أعضاء مجلس قيادة الثورة واللجنة المركزية للحزب الجمهوري الإسلامي، باستثناء الأمين العام محمد بهشتي(54)، وأجرينا حوارات ونقاشات فكرية وسياسية معمّقة. ثم تكررت هذه اللقاءات، وكانت تستمر في بعض المرات حتى وقت متأخر من الليل، وكان يديرها ويرتبها الحركي الأول، وشعلة النشاط الثوري محمد منتظري الذي كان يمتاز بقدرة ومهارة تنظيمية مذهلة. في اليوم الرابع، رتب لي منتظري استقبالًا رائعًا وتاريخيًا في مقر حزب الجمهورية الإسلامية، حضره كل أعضاء مجلس قيادة الثورة، وعلى رأسهم بهشتي. ما لفت انتباهي أن منتظري هو الذي رتب هذا الاستقبال، لكنني فوجئت به يجلس بتواضع شديد على كرسي قرب الباب، مع أنه حركي بارز في الثورة والحزب، وكان ذلك أفضل تجسيد لشخصية الثوري البسيط والمتواضع الذي لا يحب المظاهر.

في هذا الاستقبال، ألقى بهشتي خطابًا ثوريًا رائعًا رحب فيه في البداية بي، وأشاد أيضًا بثورة الفاتح العظيمة وبالتلاحم بين الثورتين الإسلاميتين، ثم قدّمني للحاضرين وسط التصفيق والهتاف، وبدوري ألقيت خطابًا مطولًا. ولأن زيارتي استمرت أسبوعين كاملين، فقد شعرت بأنني تعلمت الكثير خلالهما، كما استمتعت بتلك اللحظات الرائعة للثورة. في أحد أيام الزيارة كان من المقرر أن أتحدث إلى الشعب الإيراني عبر الإذاعة المرئية، لكنني فوجئت

عضو مجلس خبراء الدستور، واختاره الخميني ليكون إمام صلاة الجمعة في طهران. توفي بعد أشهر من انتصار الثورة، فنعاه الخميني ووصفه بأنه كان بمنزلة الصحابي أبي ذر الغفاري للثورة الإسلامية.

(54) محمد بهشتي (1928–1981): هو عالم دين شيعي وسياسي إيراني، وأحد مؤسسي الحزب الجمهوري الإسلامي. شغل منصب رئيس السلطة القضائية ورئيس مجلس الثورة الإسلامية ومجلس الخبراء. كان ثاني أقوى الشخصيات في الثورة بعد آية الله الخميني آنذاك، وكان يتقن الإنكليزية والألمانية والعربية، وله الدور الكبير في إعداد الدستور الإيراني. اغتيل في الانفجار الذي أطاح مقر الحزب الجمهوري ومعه اثنان وسبعون من أعضاء الثورة وقادتها.

بقطب زاده[55] يصدر أمرًا بمنعي من دخول مبنى الإذاعة، فألغيت المقابلة التلفزيونية. لقد أكدت خلال لقاءاتي مع الخميني، ثم مع محمود طالقاني ومنتظري ومجلس قيادة الثورة واللجنة المركزية لحزب الجمهورية الإسلامية، والكوادر الإسلامية الثورية، أننا في ثورة الفاتح بشّرنا بالثورة الشعبية في إيران. وفي حين كان النظام السياسي العربي يرى، هو وسائر العالم، أن شاه إيران "قدر إيران"، وأن من المحال القضاء على نظامه، كنّا نؤكد أن هذه أكذوبة، وأن نظامه زائل، وأن الثورة الشعبية سوف تنتصر.

خلال اللقاء مع الخميني، اقترحت أن تجري الثورتان حوارًا فكريًا، وأن نضع بصورة مشتركة المنطلقات الفكرية والنظرية والأيديولوجية والفلسفية لقيادة "الثورة الإسلامية العالمية". واقترحت أيضًا أن تشكّل القيادتان في البلدين قيادة موحدة لهذه الثورة، وتأسيس إذاعة موجهة إلى المسلمين في كل قارات العالم، وتكوين جهاز دعم للحركات الإسلامية، وإنشاء جامعة لتخريج الدعاة وتشكيل "جيش جهاد إسلامي" من المتطوعين لتحرير فلسطين. وافق الإيرانيون على هذه المقترحات، ووعدوا بأنهم سيقومون بعملية تعبئة ثورية. وقد رأيت بعينيّ كيف أن رجال الدين كانوا يلقون المحاضرات التعبوية في عناصر الجيش، كانوا يقولون لهم: "حينما كنتم تخدمون في جيش الشاه، كنتم تخدمون الكفر والإلحاد، ويجب عليكم أن تكفّروا عن ذلك بأن تخدموا الثورة الإسلامية بإخلاص". وكنت أرى الجنود والضباط وهم يبكون ندمًا، وكان ذلك دليلًا على قوة التأثير وفاعلية أسلوب التعبئة الثورية المميز الذي اتبعته الثورة. وللأسف، لمّا شن صدام حسين الحرب ضد إيران، تأجل هذا البرنامج، إضافة إلى عامل آخر هو وجود أقلية تعارضه. وقد لاحظت خلال زياراتي المتكررة لإيران، أن هؤلاء كانوا يعلقون كل شيء إلى ما بعد سقوط صدام، وكان هذا في رأيي خطأً كبيرًا. وأذكر أنني خلال زيارتي الأولى لطهران، علمت أن إحدى أخوات الشاه زوجت ابنتها لجنرال أميركي، وبنت له كنيسة

(55) صادق قطب زاده (1936–1982): أحد الوزراء في بداية ثورة الخميني، وقد عارض ولاية الفقيه، وأيده أحد المراجع الدينية. أُعدم وأُجبر المرجع الديني على الاعتذار علنًا في التلفزيون الرسمي الإيراني، ثم طُرد من المرجعية.

داخل القصر. خلال زيارتي الثانية اجتمعت بالإمام الخميني، وصادف أنّ عُقد الاجتماع في الوقت نفسه الذي أُعلن فيه عن اغتيال المفكر مطهري[56]، وأقيم له تأبين حضره نحو مليونين ونصف مليون شخص. كنت أجلس قرب الإمام الخميني في مقصورة خاصة بالإمام، وكان هناك نحو 10 أو 12 من رجال الدين الكبار (آيات الله) المقربين منه.

كان مهرجانًا خطابيًا تأبينيًا حاشدًا ألقيت فيه خطابا ثوريًا. وقبل مغادرتي طهران بأربعة أيام، وجهت رسالة إلى الإمام الخميني قلت فيها: "إن الثوريين والجماهير الإسلامية في إيران، وكل جماعة ثورية في المجتمع، تفهم الإمام الخميني بشكل مختلف، ولكي تستمر الثورة فلا بد من أن يصبح الانبهار بشخصية الإمام إيمانًا بفكره؛ ولذا لا بد من أن يكتب الإمام الخميني فكره حتى يستمر بعد رحيله. هذا الفكر تتعلمه الجماهير ويتعلمه الثوريون. إن الخطابات والمواعظ لا يمكن أن تشكل فكرًا علميًا، وهذا هو السبيل لاستمرار الثورة واستمرار الإمام بقيادتها حتى بعد وفاته". ثم أضفت: "إن الثورتين في إيران وليبيا تنبعان من منبع واحد وتتجهان نحو هدف واحد. إنهما ثورتان إسلاميتان"، ثم قلت: "إن الإسلام في حركته جماهيريٌّ حتى في العبادات، وإن الشورى ليست في إطلاق اسم مجلس الشورى على مجلس النواب". ثم اقترحت عليه إجراء حوار بيننا، لوضع أسس نظرية إسلامية ثورية والانبعاث الإسلامي لتنوير أكثر من مليار وسبعمئة مليون مسلم في العالم. كانت زيارتي الأولى لطهران مجازفة خطيرة؛ فأنا جاهدت بنفسي حين غامرت وواجهت المخاطر والمصاعب، ولكنها مع ذلك كانت بالقدر نفسه، زيارة ممتعة ومنعشة. عايشت حركة الملايين من البشر. كانت سعادتي لا توصف وقد لا تقل عن سعادتي بنجاح ثورة الفاتح وأيامها الأولى. إنها مدرسة تعلمت منها الكثير، وأعتز بكل دقيقة عشتها وعايشت فيها الأيام الأولى لهذه الثورة، وهي حقًّا ثورة القرن. ولا شك في أنني كنت محظوظًا لأنني عشت الأيام التي يُصنع فيها

(56) مرتضى مطهّري (1919-1979): عالم دين وفيلسوف إسلامي ومفكر وكاتب شيعي إيراني، وهو العضو المؤسس في شورى الثورة الإسلامية في إيران إبان الأيام الأخيرة من سقوط نظام الشاه، ومن المنظّرين للجمهورية الإسلامية الإيرانية.

التاريخ. لقد أصبحتْ جزءًا مني وأصبحتُ جزءًا منها. زرت الكثير من البلدان، ولكنني أعتزّ خصوصًا بزيارة طهران أيام الثورة.

في أحد نقاشاتي مع الإمام الخميني، اختلفت معه حول تسمية "الخليج الفارسي"؛ فقد أصررت على أنه "الخليج العربي" بينما كان هو يسميه "الخليج الفارسي"، ثم أخذ ورقة وقلمًا ورسم خريطة الخليج، وقال مُبتسمًا: "أنتم في هذه الضفة ونحن في الضفة الأخرى، لكننا نختلف على شيء لا نملكه. إنه خليج أميركي، علينا أن نحرره أولًا ثم نسميه ما نسميه، واقترح أن نسميه الخليج الإسلامي". لقد عملت الولايات المتحدة والسعودية ومعهما النظام الرسمي العربي، على مواجهة الصحوة الإسلامية؛ على أساس أنها بداية "عصر الإسلام" ونهوض الشرق. وهكذا، وجدت عقلية صدام حسين الطاووسية الفرصة السانحة لمهاجمة إيران. ولذا، ارتكب جريمته وشن الحرب على إيران. لقد اعتقد صدام حسين والولايات المتحدة والسعودية، والنظام الرسمي العربي، أن "جيش الشاه" انتهى، وأن فرصة القضاء على الثورة حانت، لكنهم نسوا أنهم، ومعهم جيش صدام، سيواجهون أكثر من ثمانين مليون مسلح بالإيمان وحب الموت والاستشهاد.

حين تناقلت وكالات الأنباء خبر هجوم صدام حسين على الحدود الإيرانية في 22 أيلول/ سبتمبر 1980، سافرت على عجل إلى العراق للاجتماع بالرئيس العراقي. وحينما وصلت بغداد اجتمعت به على الفور؛ وجدته يرتدي ملابسه العسكرية وقد تلبّسه الغرور.

أراد أن يصطحبني إلى غرفة العمليات للاطلاع على الموقف، فقلت له: "يا أخ صدام، دعنا نتحدث في السياسة. أنت لست عسكريًا وأنا لست عسكريًا". كانت القوات العراقية قد احتلت شريطًا على الحدود بعمق يراوح بين ثلاثة وخمسة كيلومترات. ثم أضفت ضاحكًا: "يا أخ صدام، إذا كنت تعتقد أنك سوف تقضي على الثورة خلال أربعة أو خمسة أيام، فأنت مخطئ، وإذا كنت تعتقد أن جيش الشاه قد دُمر وأنك تستطيع هزيمة إيران، فأنت مخطئ. سوف تواجه أكثر من ثمانين مليون ثوري، يتسابقون إلى الموت". ثم قلت

له: "لو أرادت تشاد أن تتقدم نحو الحدود الليبية بهذا العمق، من ثلاثة إلى خمسة كيلومترات، يمكنها ذلك، ولكنها لن تتمكن من الاحتفاظ بالأرض أو المناطق التي تحتلها". لقد ضربت له هذا المثل لأقول له: "ليست العبرة في نتائج الحرب خلال الأيام الأولى؛ وإنما العبرة في النتيجة النهائية. أرجوك انسحب فورًا وجنّب العراق وإيران نتائج حرب مدمرة". ثم أضفت: "أنت الذي وقّعت الاتفاقية مع شاه إيران للتنازل عن شط العرب للشاه، عدو العراق والعرب والإسلام، الشاه الذي اعترف بالعدو الصهيوني وكان يزوده بالنفط"، ثم أضفت: "هذه مؤامرة أميركية - سعودية لتدمير العراق وإيران. أنت تنفذ هذا المخطط الأميركي - السعودي - الرجعي سواء أكان ذلك بعلم منك أم لا". رفض صدام حسين بشدة كل ما قلته له وقال: "واجبكم واجب العرب أن تقفوا مع العراق"، فقلت: "نحن حلمنا وبشّرنا بهذه الثورة وعادينا شاه إيران، ولا يمكن لنا أن نقف معك، بل نحمّلك المسؤولية عمّا سيجري".

بعد انتهاء زيارتي لبغداد عدت إلى ليبيا. حاولنا بكل الوسائل الاتصال بالأنظمة العربية من أجل الضغط على صدام حسين لوقف الحرب، ولكننا وجدنا أن معظم الدول العربية كانت تؤيده. لقد تبنيت شخصيًا قضية الوقوف مع إيران سياسيًا وعسكريًا بكل قوة. لقد زودناهم بالأسلحة، كما قمنا بشراء السلاح لصالحهم، وحولنا الحرب من "حرب عربية - فارسية" كما أرادت لها الولايات المتحدة والغرب إلى "حرب ثورية". وهذا ما اعترفت به واشنطن حين قالت: "إن الموقف الليبي حوّل الحرب من حرب فارسية - عربية إلى حرب ثورية". وهكذا أفسدنا استراتيجية الحرب. من بين أخطر القرارات التي واجهتنا في ليبيا قرار تزويد إيران بصواريخ "سكود"، وأعترف بأنني كنت متحمسًا ومؤمنًا بضرورة تزويد إيران بهذا النوع من الصواريخ. كان الأخ معمّر متردّدًا ويقول: "كيف نضرب بغداد بصواريخ ليبية؟ كيف نضرب عاصمة عربية وماذا سيقول عنّا التاريخ"، ولكنني كنت مقتنعًا بتزويد إيران بالصواريخ مع منصات إطلاق وأطقم تشغيل. لا شك في أن الموقف من "المنظور القومي" كان صعبًا، ولكنه من "منظور ثوري" سيبدو قرارًا مفهومًا ومبررًا. لقد اتخذنا هذا القرار بإيمان عميق: أولًا، لأسباب ثورية، لأننا كنّا نرى في هذه الثورة

السند الحقيقي للأمة العربية وفلسطين، فهي تجسيد لـ"صحوة إسلامية"؛ ثانيًا، لأنني كنت أؤمن بأنه إذا ما قُضي على الثورة في إيران، فسوف يكون الدور قد حلّ على ثورة الفاتح.

بهذا المعنى، كان موقفنا "دفاعًا عن النفس"؛ لأن صدام كان حاقدًا على ثورة الفاتح، وكان يعتبرها خصمًا قويًّا له، خصوصًا بعد وفاة عبد الناصر ونهاية ثورة يوليو. كانت ثورة الفاتح هي وريث ثورة يوليو المصرية، وكان صدام متآمرًا على ثورتنا، وتعاون مع الأميركيين والنميري ضدنا. لقد قام النميري وصدام، بدعم ما كان يسمى "المعارضة الليبية"، فأقام النميري معسكرات لتدريب العناصر المتآمرة في السودان، وقام صدام بتسليحها وتمويلها. وأتذكر أن صدام استأجر سفينة لمحاولة القيام بعملية إنزال على الشواطئ الليبية، في منتصف الثمانينيات، ولكنها كانت محاولة عبثية من صنع الخيال واليأس. كما قام صدام بدعم العميل هبري بالسلاح والمال ضد الثورة في ليبيا. لقد تبنيت من منطلق ثوري قرار الوقوف مع الثورة الإسلامية في إيران، سياسيًا وعسكريًا، وكثيرًا ما كان الأخ معمّر يبدو لي مُتردّدًا حيال هذا الموقف، ولكنني كنت أدافع بقوة. أحيانًا كان يرفض مقابلة الوفود الإيرانية، لكنني نجحت في مرات كثيرة في إقناعه بمقابلتهم وألّا يظهر أي تردّد أو تراجع عن موقفنا هذا. لقد كنت أقف بصلابة وبروح ثورية جذرية مع الثورة الإسلامية في إيران، وكنت خلف كل القرارات التي ساندت الثورة. أدّى هذا الموقف الصلب إلى تعاظم تقدير القيادة الثورية والجماهير الإسلامية الإيرانية لثورة الفاتح وقيادتها وللشعب الليبي. كان الإخوة في إيران، بدءًا من طالقاني ومنتظري وعلي خامنئي وهاشمي رفسنجاني، وكل القيادات الثورية، يقولون لي: "لن ننسى هذا الموقف الثوري، وسوف نعلّمه لشعبنا جيلًا إثر جيل، وسوف نردّ هذا الجميل وهذا الموقف الثوري".

كان الإمام الخميني يكنّ تقديرًا واحترامًا كبيرين لثورة الفاتح، وتجلّى هذا خلال استقباله لي نحو أربع مرات متتالية. كان جوهر هذه اللقاءات يدور حول التنسيق بين الثورتين الليبية والإيرانية وتصعيد الصحوة الإسلامية، وكان خلال

كل زيارة يعطيني كل الوقت، والجميع يعلم أن الخميني لم يكن يقابل الوفود الرسمية إلا مدة قصيرة. لكنه كان يلتقي الوفود الشعبية أو القيادات الإسلامية، حتى إنه وجه رسالة موقّعة منه شخصيًا إلى الأخ معمّر للتعبير عن احترام الثورة الإسلامية الإيرانية لثورة الفاتح. وقد قامت وفود إيرانية كثيرة سياسية وعسكرية بزيارات منتظمة لليبيا، كان على رأس هذه الوفود السيد علي خامنئي حينما كان رئيسًا للجمهورية، وهاشمي رفسنجاني حينما كان رئيسًا لمجلس الشورى، والدكتور علي أكبر ولايتي[57] حينما كان وزيرًا للخارجية، وعديد الوفود الثورية من أعضاء مجلس الشورى.

في أواخر الثمانينيات، عُيّن كامل المقهور أمينًا للاتصال الخارجي. وكان اسمه يذاع في الإذاعة المرئية الليبية، فاعترض الطاغية [معمّر] على "اللقب" وقال وهو مسكون بالدجل والتزييف: "لا يوجد في الجماهيرية 'مقهور' من الآن فصاعدًا يذاع اسمه 'كامل المنصور'". كان كامل غير راضٍ عن هذا الإجراء التعسفي. وحدث، خلال إحدى زيارات الدكتور ولايتي، وزير خارجية الجهمورية الإسلامية الإيرانية، أن أبلغته المراسم أن اسم وزير الاتصال هو "كامل المنصور". ولما التقاه ولايتي، كان يخاطبه باسمه ولقبه (كامل المنصور)، فكان كامل المقهور يضطر في كل مرة إلى كتابة ورقة يمررها لولايتي وفيها يقول: "أنا اسمي كامل المقهور". فقال ولايتي: "السيد كامل يقول إن اسمه كامل المقهور وليس المنصور"، والمفارقة أن اللقاء أذيع في نشرات الأخبار.

أوغندا: العلاقة مع عيدي أمين

بعد قيام الجنرال عيدي أمين[58] بانقلابه في أوغندا، زار الكيان الصهيوني ثم سافر إلى أوروبا، ومن هناك اتصل بالأخ معمّر، وطلب زيارة ليبيا. وبعد هذا الاتصال، اتصل بي الأخ معمّر وقال لي: "لقد اتصل الأخ عيدي أمين بي ويريد الحضور إلى طرابلس، ليتحدث معنا. ما رأيك؟"، فرفضت وعللت

(57) وزير خارجية الجمهورية الإسلامية الإيرانية (1981-1997).

(58) عيدي أمين (1925-2003): رئيس أوغندا الثالث (1971-1979).

ذلك بأنه فاشي ودكتاتور سيئ السمعة. ولكن في النهاية اتفقنا على حضوره لسببين: أولهما أن العلاقة معه سوف تمكننا من الوقوف مع الأقلية المسلمة في أوغندا (حوالى أربعة ملايين مسلم)؛ وثانيهما أن الصهاينة يريدون السيطرة على منابع نهر النيل، لتهديد الأمن المصري والأمن القومي العربي. وبالفعل، حضر أمين إلى طرابلس، وتبنينا نظامه كليًّا، وأسّسنا معه علاقة استراتيجية للحفاظ على نظامه. أرسلنا قوة عسكرية بقيادة الرائد أحمد قذاف الدم. في هذا الوقت كان الرئيس المخلوع قد فرّ إلى تنزانيا وزامبيا، وكان صديقًا لنيريري وكاوندا. تبنى نيريري وكاوندا المعارضة بقيادة الرئيس المخلوع ومساعده يوري موسوفيني[59]، وتم تشكيل جيش من المعارضة، بل إن الجيش كان مدعومًا بقوات من تنزانيا وزامبيا. شن هذا الجيش هجومًا كاسحًا على أوغندا. وبعد مدة قصيرة من المقاومة، انهارت قوات عيدي أمين وانفرطت، وبدأت تتخلّى عنه؛ إمّا بالانضمام إلى قوات المعارضة، وإمّا بالبقاء في البيوت. فاتصل بي الرائد أحمد قذاف الدم ونقل لي خطورة الموقف، فاتصلت بعيدي أمين وفهمت منه أنه لم يعد لديه قوة عسكرية، وقال لي حرفيًّا: "سأقوم بتجميع كتيبة وسأبدأ المقاومة". وطبعًا، لم آخذ هذا الكلام على محمل الجد، ثم اتصلت بالرائد أحمد قذاف الدم، وكان موقف قواتنا خطيرًا جدًّا؛ لأن قوات المعارضة بدأت تقترب من العاصمة. أصدرت الأمر للرائد أحمد قذاف الدم، بأن يقوم بتأمين المطار، ويبدأ فورًا بسحب قواتنا إليه، وأرسلت طائرات النقل "سي 130" إلى أوغندا ونجحنا في سحب قواتنا في أكبر عملية انسحاب استراتيجي وفي وقت قياسي عبر آلاف الأميال. في هذا الوقت، أصبح الشاب موسوفيني نائبًا لرئيس الجمهورية ووزيرًا للدفاع، ولكنه سرعان ما اختلف مع الرئيس، وقرر ترك منصبه والذهاب إلى الغابات والأدغال، ومن هناك بدأ المقاومة ضد الرئيس. اتصل بنا وطلب منّا الدعم والوقوف معه، فوافقنا، وقد كلف المقدم عبد الله الحجازي بالإشراف على العملية وقيادتها، وكنّا نقوم بإسقاط الأسلحة والذخائر بالمظلات، وأحيانًا نقوم بهذا ليلًا تحت أضواء السيارات.

---

(59) يوري موسوفيني (1944-): رئيس أوغندا منذ 29 كانون الثاني/ يناير 1986. أُعلن في 16 كانون الثاني/ يناير 2021 عن إعادة انتخابه (فترة رئاسية سادسة).

كانت العملية صعبة ومعقدة لانعدام وجود أي مهابط أو مطارات في الغابات والأدغال، ولكن بتوفيق من الله تمكنّا من تنفيذ المهمة. وهكذا نجح موسوفيني في فترة قصيرة نسبيًا في السيطرة على السلطة، وتولى قيادة أوغندا، وأصبح نظامه صديقًا لنا، وحتى كتابة هذه المذكرات لا يزال رئيسًا لبلاده.

العلاقة مع إثيوبيا

في عام 1974 زرت إثيوبيا. كانت هذه زيارتي الأولى. كانت زيارة ممتعة وغزيرة الحوارات حول مختلف القضايا. وجدت الرئيس منغيستو هيلا مريام إنسانًا مثقفًا ثقافة متميزة، وهو ماركسي - لينيني عقائدي، ولا أعتقد أن هناك، من بين الزعماء في العالم الثالث، من يتميز بثقافة عميقة مثل كاسترو ومنغيستو. لقد كنت أؤمن بأن أفريقيا "قارة إسلامية" باستثناء "جدار مسيحي"، وبعض الجزر المسيحية في شرق أفريقيا، ولأن أكثر من 65 في المئة من سكان إثيوبيا هم من المسلمين، وكانوا في عهد الإمبراطور هيلا سيلاسي[60] مسحوقين ومُهمشين. كان نظام الإمبراطور يمارس ضدهم سياسة "تفرقة دينية" قاسية، وقد جرى إهمال أوضاعهم الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، ومن حسن الحظ أن معظم القيادات المسيحية عارضت نظام منغيستو. قال لي منغيستو إن أول تظاهرة تأييد لنظامه نظمها المسلمون: "لقد تظاهر زهاء نصف مليون مسلم تأييدًا للثورة". ارتبطت المسيحية في ذهن منغيستو بالعمالة للغرب وبالإقطاع والتخلف. وأكثر ما اهتممت بالتركيز عليه، في زيارتي الأولى لإثيوبيا، هو أن أقنع منغيستو بأن يثق بالمسلمين، وأن يجد المسلمون في عهده فرصتهم لينالوا حقوقهم التي حُرموا منها خلال عهد هيلا سيلاسي، وأن ينهض المسلمون بإثيوبيا. شجعت منغيستو على الاهتمام بهذا الأمر، وشرحت له أن الإسلام "دين تقدمي" وهو "دين الفقراء" والعدالة والمساواة والاشتراكية، وأنه "دين الحرية". بعد حوار معمق ومطوّل، قال لي منغيستو: "إن إسلام ليبيا يختلف عن إسلام حكام السعودية، لأنه إسلام أميركا"، فقلت له: "نعم، إن إسلام ليبيا هو

---

(60) آخر أباطرة إثيوبيا (1930-1974).

إسلام الله"، فقال: "أنا أقبل هذا الإسلام لمسلمي إثيوبيا"، فقلت: "نريد أن نبني جوامع ومدارس لتدريس وحفظ القرآن، كما نرغب في إرسال دعاة ووعاظ. وسوف نحث المسلمين وقياداتهم على تأييد الثورة"، فوافق على ذلك. كانت الزيارة الأولى محاولة استكشاف الثورة الإثيوبية عن قرب، ومعرفة نقاط اللقاء، والتعرّف على تفكير منغيستو وفلسفته. لقد كنّا سعداء بانتصار الثورة التي بشّرنا بها وحرّضنا عليها في وقتٍ كان فيه العالم يجمع على أن هيلا سيلاسي هو "قدر" الشعب الإثيوبي، بينما كنّا نرى فيه "صنمًا".

ودخلنا معه في مواجهات عدّة، وقاومنا هيمنته على منظمة الوحدة الأفريقية، كما سخرنا من "طقوسه" التي كان يقوم بها للتأثير في القيادات الأفريقية وفي الرأي العام الأفريقي، حتى إنّ وفودنا كانت تسخر من هذه الطقوس خلال مؤتمرات الوحدة الأفريقية. وسعينا للاتصال بقوى المعارضة التي كانت ضعيفة. وأذكر أننا كتبنا مقالًا في صحيفة **الفجر الجديد** بعنوان "أبرهة الحبشة في القاهرة"، هاجمنا فيه زيارة الإمبراطور هيلا سيلاسي للقاهرة، فانزعج جمال عبد الناصر وغضب منّا. قال لي منغيستو: "لدينا أشرطة فيديو عن الدعارة التي كان القساوسة يقومون بها في الكنائس".

في هذه الزيارة، توطدت صداقة شخصية ونضالية بيني وبين منغيستو، وقد عدت إلى طرابلس بانطباع مفاده أن هناك إمكانية كبيرة لإقامة "تحالف ثوري" مع إثيوبيا. اشتركت أنا ومنغيستو في نقد القيادة السوفياتية، لأنها تخلت عن مبادئ الثورة الاشتراكية، وباتت سياسة الكرملين "سياسة مهادنة" أكثر منها سياسة "عقائدية"، ورأينا في هذا الأمر "خيانة للثورة العالمية، وأن الاتحاد السوفياتي بدأ يهمل البؤر الثورية في العالم الثالث، وغدت امتداداته الثورية مهملة". كما اتفقت مع منغيستو على أن تتصل ليبيا وإثيوبيا بكاسترو وبعض القيادات في أوروبا الشرقية، لكي نتحدث جميعًا بلغة واحدة مع القيادة السوفياتية حول ما نراه سياسة مهادنة للغرب أو "خيانة للثورة".

وجدت منغيستو متألمًا مثلنا من سياسة موسكو. وهكذا، كانت هذه الزيارة أرضية ثورية مشتركة بين البلدين، كما أرست ثقة شخصية متميزة

بيني وبينه، وأصبحنا صديقين بالفعل. قال لي منغيستو: "إذا كان الإسلام مثل ما شرحت لي، فأنا لا أخاف منه وليس لدي مانع من الاتصال بالمسلمين ودعمهم ومساعدتهم". لقد خرجت بانطباع أن منغيستو من الثوريين القلائل الذين يتعلمون بسرعة. لكن علاقاتنا بإثيوبيا تأثرت سلبيًا خلال الحرب بين إثيوبيا والصومال على إقليم أوغادين. كانت نظرتنا قومية، ولذا وقفنا مع الصومال لاستعادة أوغادين، كما تأثرت سلبيًا علاقاتنا مع كوبا؛ نظرًا إلى موقف كوبا من الصراع وإرسالها قوات للقتال إلى جانب إثيوبيا. في الواقع، نظرنا إلى الثورة الكوبية على أنها "ثورة جذرية" وانفجار ثوري في أميركا الجنوبية، الحديقة الخلفية للولايات المتحدة. غضبنا من موقف كاسترو من مسألة أوغادين. ومع ذلك سرعان ما عادت علاقاتنا مع إثيوبيا إلى طبيعتها؛ لعدم ثقتنا بنظام محمد سياد بري[61] في الصومال. لكنني لا أنكر أن قرار بري الاعتراف بعروبة الصومال قد دغدغ عواطفنا القومية. لقد ضغطنا عليه ليعلن اللغة العربية لغة رسمية، ولكنه فضّل "تبني اللغة العربية بالحروف اللاتينية". كان الهدف من إقرار بري بعروبة الصومال دفع العرب إلى الوقوف معه ضد إثيوبيا، ومن أجل البترودولار أيضًا. كان بري رجلًا قبليًّا متقلب الأطوار، مثله مثل النميري. كان يغيّر جلده ولونه كلما اقتضت الحاجة.

جاءت زيارتي الثانية لإثيوبيا (تموز/ يوليو 1976) في أعقاب المحاولات الفاشلة التي قمنا بها مع حزب الأمة السوداني، والحزب الاتحادي السوداني بقيادة الشريف الهندي، لإسقاط نظام النميري. سافرت إلى إثيوبيا وعقدت اجتماعًا مطولًا مع منغيستو، وعرضت عليه "إقامة تحالف ثوري تقدمي" بين ليبيا وإثيوبيا واليمن الجنوبي، يستهدف إسقاط نظامي النميري وسياد بري، وكذلك إسقاط السادات. وأعترف أن منغيستو رفض هذه الدعوات، وبدا في أحيان كثيرة مُتردّدًا، ليس لعدم إيمانه بهذا التحالف، بل لأنه - بوصفه إنسانًا جادًّا وصادقًا ويعرف المسؤولية وأبعاد هذا التحالف وخطورته - كان يخشى

(61) محمد سياد بري (1919-1995): الرئيس الثالث لجمهورية الصومال الديمقراطية (1969-1990).

أن يكون وراء هذا التحالف "هدف تكتيكي" محدود. ونظرًا إلى إلحاحي الشديد وثقة منغيستو بي، فقد قال لي: "جلود. هل أنتم في القيادة متفقون على هذا؟ هل أنتم جادّون؟ وهل تدركون أبعاد هذا العمل وخطورته؟"، فكان ردّي جازمًا وصادقًا. قلت: "نعم"، فوافق على الفور. اتفقت مع منغيستو، على أنه إذا ما نجح هذا التحالف، فهذا يعني أن "جبهة تقدمية" ستقوم من البحر الأحمر حتى الأبيض المتوسط، ثم اتفقنا على ما يلي:

- تقديم مساعدة اقتصادية من ليبيا لإثيوبيا والاستثمار فيها.

- إقامة جيش قوامه مليون جندي، معظم أفراده من الإثيوبيين نظرًا إلى حجم سكان إثيوبيا.

- تقدّم ليبيا قرضًا بفائدة 2 في المئة ومقداره 175 مليون دولار، لبناء المعسكرات، ومراكز التدريب في إثيوبيا.

- تساهم ليبيا بكمية أكبر من السلاح لتسليح الجيش، وخاصة الدبابات والمدفعية والعربات المدرّعة.

- إعطاء الأولوية لإسقاط نظام النميري، وتوحيد المعارضة السودانية في الشمال والجنوب.

ثم عقدنا اجتماعًا ثلاثيًا؛ أنا، ومنغيستو، وقرنق، واتفقنا على ما يلي:

- عروبة السودان، وإيمان العقيد قرنق بالوحدة السودانية؛ لأننا - بوصفنا قوميين - كنّا نخاف من انفصال الجنوب.

- توحيد المعارضة في السودان، شمالًا وجنوبًا.

- أكد العقيد قرنق أنه لا يسعى لحكم السودان، وأنه لا يستطيع إسقاط نظام النميري، ولكنه يمكنه أن يقوم "باستنزافه" تمهيدًا للإجهاز عليه من جانب قوى الشمال حتى إسقاطه والسيطرة على الخرطوم. ونظرًا إلى حساسية الموضوع وأهميته، طلبت تسجيل هذا المحضر بشريط مسجل، للتأكد من تعهدات العقيد قرنق.

سافر قرنق بعد هذا اللقاء إلى جنوب السودان، وبعد يوم واحد ذهبت أنا ومنغيستو بطائرتين يمكنهما أن تهبطا على أرض ممهدة، وكان الهدف من ذلك زيارة قوات قرنق في الجنوب. زرنا ثلاثة معسكرات لقواته، كان يتمركز فيها نحو ثمانية عشر ألف مقاتل. استقبلنا المقاتلون بالهتاف والأهازيج، وأنشدوا نشيد "قذافي أعطانا السلاح، وجئنا للغابة عشان نتدرب على السلاح ونسقط النميري". ألقيت أنا ومنغيستو خطابين ثوريين في المقاتلين، وقد استخدم منغيستو مترجمًا؛ أما أنا فكنت أتكلم العربية مباشرة من دون مترجم، وكان المقاتلون يفهمون ما أقول، لأنهم كانوا يتكلمون العربية إلى الحدّ الذي كانوا فيه يفهمون بالضبط ما أقول. فقال لي منغيستو ضاحكًا ومازحًا: "كيف يا جلود أنت تتكلم العربية ويفهمك المقاتلون، بينما لا يفهمون كلامي إلا بواسطة مترجم؟"، فقلت له: "هذا أمر طبيعي. السودان بلد عربي وهؤلاء عرب". كنت أنا ومنغيستو على توافق تام: بتحالفنا ودعمنا اللامحدود لإسقاط نظام النميري. اتفقنا على أن يحضر قرنق على رأس وفد إلى ليبيا لاستكمال المحادثات، وتقدير الاحتياجات العسكرية والمالية. تعهدت بتقديم الدعم العسكري والمالي الكامل في أسرع وقت، كما اتفقنا على تأسيس غرفة عمليات من إثيوبيا وليبيا وحركة قرنق لإدارة المعركة. ونظرًا إلى وضع إثيوبيا الاقتصادي الضعيف، تقرّر أن يكون الدعم العسكري والمالي من ليبيا، بينما يكون على إثيوبيا تقديم الدعم على المستوى اللوجستي والتدريب، كما اتفقنا على عقد اجتماع يجمع إثيوبيا وليبيا وحركة قرنق وأحزاب الشمال. كنّا نقدّم مساعدات عسكرية ومالية لحركة قرنق قبل هذا الاتفاق، ولكن هذا الاتفاق نصّ على التزام ليبيا بتقديم دعم أكبر وغير محدود، وبحسب ما يحتاج إليه تطور المعركة.

عدت إلى ليبيا وعرضت على الأخ معمّر الاتفاق مع قرنق، ولكنه كان مُتخوّفًا من نياته الحقيقية، انطلاقًا من حرصنا على عروبة السودان ووحدته. ثم وافقني - بعد إلحاحٍ مني وتأكيدي على ثقتي بقرنق - أن أيّ تخوف سيخدم النميري؛ فوافق وقلت له: "أنا أتحمل أي مسؤولية قومية"، وبالفعل، تحملت مسؤولية هذا القرار.

بعد أيام، وصل قرنق على رأس وفد يضمّ أبرز مساعديه، ووقّعنا على الاتفاق النهائي. ثم ذهبت بعد ذلك إلى إثيوبيا. اقترحت على منغيستو تجسيد هذا التحالف بين ليبيا وإثيوبيا واليمن الجنوبي في "معاهدة تحالف". ولهذا الغرض أجرينا محادثات في منتجع سدري الذي يبعد عن أديس أبابا نحو 100 كيلومتر. لم يوافق منغيستو بسهولة على مقترح المعاهدة، ليس لأنه ضد هذا التحالف؛ بل لأنه جاد، يخشى ألا تكون هناك جدية في تحقيق هذا التحالف، وأنه قد يستفز الأعداء، من دون أن ننجح في تجسيده على نحوٍ جادّ وفاعل. لقد بذلت جهدًا غير عادي وأمضيت ساعات وساعات في إقناع منغيستو، وكان يكرّر عليّ الأسئلة نفسها: "هل أنتم في ليبيا جادون؟ هل تعرفون وتقدّرون خطورة وأهمية هذه المعاهدة، وأنها عمل استراتيجي وليس تكتيكيًا أو دِعائيًّا، وأن العدو سيتصرف على أساس أن هذا العمل عمل خطير وجدّي؟ وإذا لم نجسّده حقيقة، نكون قد استثرنا العدو وهو سينظّم نفسه على هذا الأساس، وهذا يجب ألا يحدث"، فأكدت له جديتنا والتزامنا الكامل، ثم وضعنا أسس المعاهدة وإطارها العام. بعد ذلك، انضمّ إلينا الرئيس اليمني الجنوبي علي ناصر محمد، وكلفنا خبراء وقانونيين من البلدان الثلاثة بصياغة المعاهدة، ثم عقدنا اجتماعًا للتصديق على الصيغة النهائية، وبالفعل، تمّت الموافقة على النصّ النهائي. غادرت منتجع سدري رفقة علي ناصر محمد، على متن طائرتي الخاصة واتجهنا إلى عدن حيث أمضيت يومًا واحدًا. بعد وصولي إلى عدن، طلبت لقاء علي سالم البيض[62]، عضو المكتب السياسي للحزب الاشتراكي اليمني، فقيل لي إنه "معاقب حزبيًا لأنه تزوج بامرأة ثانية من دون موافقة الحزب"، فألححت على حضوره، وكان قد مضى وقت طويل من دون أن نلتقي منذ أن كان وزيرًا للخارجية حينما زار ليبيا في الأيام الأولى للثورة.

(62) علي سالم البِيض (1939–): كان الأمين العام للحزب الاشتراكي الحاكم (1986–1990)، وهو الذي وقع على اتفاق الوحدة مع رئيس الجمهورية العربية اليمنية علي عبد الله صالح لتأسيس الجمهورية اليمنية في 22 أيار/ مايو 1990، وقد رفعا معًا علم الوحدة في عاصمة الجنوب – جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية – عدن.

ثم عدت إلى ليبيا، حيث وافقنا على المعاهدة. بعد ذلك، سافر الأخ معمّر إلى عدن للتوقيع. عند وصوله إلى عدن، حصل اشتباك جوي فوق خليج سرت بين الطائرات الأميركية والطائرات الليبية. أسقطت الطائرات الأميركية طائرتين ليبيتين، لكننا تمكنا من إنقاذ الطيارين[63]. ثم حدثت مواجهة بحرية تمكنت فيها البحرية الليبية من محاصرة طراد أميركي. انتهت المواجهة عند هذا الحد. اتصل الأخ معمّر بي مستفسرًا وسألني: "ما رأيك هل أعود إلى طرابلس؟"، فطمأنته على الوضع وقلت له: "لا داعيَ للقلق. كل شيء على ما يرام"، واقترحت عليه أن يستمر في زيارته. بعد توقيع المعاهدة، قام الأخ معمّر بزيارة إثيوبيا، وهي أول زيارة له لهذا البلد، وألقى خطابًا جماهيريًا تجاوز فيه عدد الحاضرين مليونًا ونصف مليون شخص، وقد جسدت هذه الزيارة عمق هذا التحالف.

(63) قصفت الولايات المتحدة الأميركية ليبيا في 15 نيسان/ أبريل 1986، في عملية سميت "عملية إلدورادو" (Operation El Dorado Canyon)، عبر عمليات جوية مشتركة بين القوات الجوية والبحرية وقوات المارينز الأميركية.

الفصل السابع

الحرب في تشاد

في البداية، أريد أن أؤكد أنّ الشعب الليبي وقف، حتى في أيام الملكية، مع الأغلبية المسلمة في تشاد، ضد فرنسا والأقلية المسيحية؛ إذ كان لجبهة فرولينا[1] مكتب في طرابلس، وكان سلطان التبو[2] يتخذ من ليبيا مقرًا له وكان يقيم في مدينة الزاوية. قبل عام 1969، أي قبل الثورة، كان النظام الملكي يدعم فرولينا. صحيح أن الدعم كان متواضعًا، ولكن هذه حقيقة. بعد الثورة أصبحنا ندعم فرولينا بقيادة حسين هبري وكوكوني عويدي، وكان الاثنان يقيمان في ليبيا.

وحين كان الرائد محمد نجم وزيرًا للخارجية، اصطدم خلال أحد الاجتماعات مع هبري وعامله معاملة قاسية، فغضب هبري وغادر طرابلس إلى تيبستي[3]. في وقتٍ لاحق، اختلف هبري مع كوكوني، لمّا جرى اعتقال سائحة فرنسية في تيبستي. طلبت الحكومة الفرنسية منّا استخدام نفوذنا لدى

---

(1) جبهة التحرير الوطني في تشاد (فرولينا) (FROLINAT): نشأت نتيجة للاتحاد السياسي بين الاتحاد الوطني التشادي اليساري بقيادة إبراهيم أباتشا، والاتحاد العام لأبناء تشاد (Union Générale des Fils du Tchad, UGFT) بقيادة أحمد حسن موسى، في مؤتمر نيالا، في السودان في الفترة 19-22 حزيران/ يونيو 1966. كان موسى إسلاميًا مقربًا من جماعة الإخوان المسلمين. وتمت الموافقة على علَم المجموعة في المؤتمر نفسه. وقد عُيّن أباتشا أمينًا عامًا، كما تم اختيار لجنة في المؤتمر مؤلفة من ثلاثين عضوًا بالتساوي من الاتحاد الوطني للعمال وفرولينا تم تشكيل الجبهة حصريًا من المسلمين الشماليين.

(2) قبيلة التبو: مجموعة قبائل وعشائر بدوية ذات هوية زنجية عربية مختلطة. تسكن الصحراء الكبرى، خاصة منطقة جبال تيبستي، وتمتهن تنمية المواشي. وتتألف من قبيلتين أساسيتين هما "التدّا" و"الدازا"، ولكلتيهما لغة خاصة مع تجانس كبير بين اللغتين في مخارج الحروف والمعاني. تقطن في شمال تشاد وجنوب ليبيا والنيجر.

(3) جبال تيبستي: هي مجموعة من البراكين الخامدة، وقد شكلت سلسلة جبلية في وسط الصحراء الأفريقية الكبرى في شمال تشاد وأقصى جنوب ليبيا.

فرولينا لإطلاق سراحها، فضغطنا على كوكوني وهبري. في هذا الوقت، بدأنا بتأييد كوكوني ودعمه ضد هبري. تمكن مقاتلو كوكوني من إطلاق سراح السائحة الفرنسية وأحضرها كوكوني بنفسه إلى طرابلس، حيث قمنا بتسليمها إلى السفارة الفرنسية. وفي هذا الوقت أيضًا، ترك هبري منطقة تيبستي هو وأنصاره واتجه صوب المناطق الجبلية على حدود السودان. كان الهدف من وقوفنا مع فرولينا هو تمكين الأغلبية المسلمة في تشاد من الحكم؛ فقد كانت فرنسا تدعم حكم "الأقلية المسيحية". كان هناك حوالى مليون ونصف المليون من المسيحيين يحكمون 8 ملايين مسلم.

خلال الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي، كان فرانسوا تولمباي[4] يحكم تشاد. بدأ نظام تولمباي يضعف، فسعى إلى كسب ودنا وإقناعنا بالضغط على فرولينا للاتفاق معها على تسوية، لكننا رفضنا ذلك تمامًا. لكن مع تفجّر الخلاف بين هبري وكوكوني، ثم انحيازنا إلى كوكوني، بدا من الواضح أننا انحرفنا عن الهدف الرئيس، وهو تمكين المسلمين من إسقاط حكم الأقلية والوصول إلى الحكم.

في 7 حزيران/يونيو 1982، قام هبري بانقلاب عسكري على الرئيس كوكوني عويدي، وأصبح هو الرئيس وزعيم القوات المسلحة في الشمال. وهكذا بدأ الصراع الإسلامي - الإسلامي، وانقسمت فرولينا إلى جناحين، جناح هبري وجناح كوكوني، ونشأت تحالفات قبلية جديدة؛ فقد سيطر هبري على إنجامينا[5] والجنوب والشرق، بينما سيطر كوكوني، بمساعدتنا، على

---

(4) فرانسوا تولمباي (1918-1975): ولد في جنوب تشاد، وهو مسيحي ينتمي إلى قبيلة سارا، كان معلمًا وناشطًا في اتحاد عمالي، ويُعتبر أول رئيس لتشاد، بعد الاستقلال عن فرنسا عام 1960. وقد أصدر تولمباي بعد عامين من حكمه قرارًا يحظر فيه أحزاب المعارضة من العمل السياسي، وأسس عوضًا عن ذلك حزبًا واحدًا حكم به البلاد، الأمر الذي أدى إلى احتقان سياسي وصل عام 1965 إلى حد الحرب الأهلية، وكان مسلمو تشاد عنصرًا رئيسًا فيها لما رأوه تميزًا وغبنًا لَحق بهم. وأسفرت هذه الاضطرابات عن انهيار نظام حكم تولمباي ثم قتله في عام 1975، ودخلت البلاد في دوامة من العنف.

(5) إنجامينا أو انْجَمِينا عاصمة تشاد، وهي كلمة من أصل عربي مأخوذة من الاستجمام بمعنى استرحنا (انجمينا)، وقد صُحّفت لأنها باللهجة الدارجة التشادية.

الشمال بما فيها عاصمة الشمال فايا. ثم تطور دعمنا وانتقل من تقديم السلاح والدعم السياسي والإعلامي والتدريب إلى التدخل المباشر حين أرسلنا إلى إنجامينا بطاريتَي مدفعية عيار 122 مليمترًا بقيادة المقدم محمد الدعوكي. ثم جاء التدخل الليبي على نطاق واسع، بعد أن بدأ الموقف العسكري يسير لصالح هبري. طلب كوكوني المجيء إلى ليبيا، فوافقنا على قدومه، وطلب منّا التدخل العسكري المباشر فوافقنا على ذلك. وهكذا تغيّر الهدف الأصلي من تدخلنا، وهو دعم الجبهة مجتمعة، فأصبحنا نقف مع جناح من فرولينا بقياد كوكوني ضد جناح آخر بقيادة هبري. وحينما تمكن هبري، بدعم من فرنسا والسودان ومصر والعراق، من احتلال إنجامينا وشرق تشاد وجنوبها، ثم أصبح رئيسًا لتشاد. قرّرنا أن نقف بقوة مع كوكوني. كان المسؤول عن ملف تشاد والعلاقة مع كوكوني هو العقيد مسعود عبد الحفيظ، وكان أمينًا في القيام بواجبه؛ إذْ كان ينقل إلينا الصورة بأمانة تامّة، وينفذ التوجيهات بدقة عالية. كان هبري يحتل شرق تشاد وشمالها الشرقي حتى منطقة أم شعلوبة وكذلك فايا عاصمة الشمال. أما إنجامينا، فقد تمكن من احتلال جزء منها في حين كان كوكوني يحتل الجزء الآخر. وأما منطقة تيبستي من أوزو غربًا حتى أوجنقا شرقًا، فظلّت تحت سيطرة كوكوني. قررنا التدخل بقوة، وتوليت قيادة هذه العملية العسكرية، فقررت أن يتولى المقدم خليفة حفتر الحملة العسكرية. وفي الوقت نفسه، قررت إرسال قوات مشاة ومدفعية إلى إنجامينا لدعم صمود كوكوني، والحيلولة دون سقوط المطار في يد هبري. ثم قررت احتلال فايا لأنه من الصعب التقدم نحو شرق تشاد ما لم تسقط فايا، ووضعت خطة لمهاجمتها من الشرق والغرب، حيث تتقدم من الغرب قوة مجحفلة، من مشاة ومدفعية ودبابات، بقيادة النقيب فرحات، ومن الشرق قوة أخرى بقيادة النقيب محمد العيساوي، وأن يتقدم المقدم حفتر نحو أم شعلوبة وفادا. لكن محاولة الهجوم فشلت؛ لأن قوات هبري في فايا علمت بالهجوم، ونفذت مجموعة من الكمائن ضد القوة المتقدمة من الغرب، فاتصل بي النقيب فرحات وسألني: "ماذا أفعل؟"، فقلت له: "توقف وخذ موقفًا دفاعيًا". في هذا الوقت، لم تتمكن القوات المتقدمة من الشرق من تحقيق أي نجاح؛ لأن

حفتر لم يضع قوة كافية تحت تصرف العيساوي، وهكذا أمرت العيساوي بأن يتوقف أيضًا.

كان الاتفاق مع كوكوني يقتضي أن يشارك بجزء من قواته مع قوات المحور الشرقي، لكن قوات كوكوني هربت ولم تصمد، ووقعت خسائر طفيفة في صفوف قوات محمد العيساوي. استلمت برقيتين، واحدة من النقيب العيساوي وأخرى من المقدم حفتر، تقولان إنّ القوات التي يقودها محمد الدقاش - وهو من قادة كوكوني - قد هربت، وإنّ التشاديين يريدون أن يقاتلوا بآخر ليبي. اتصلت عبر جهاز اللاسلكي بالمقدم حفتر، ووجهت إليه اللوم، وقلت له: "كيف تندفع إلى أم شعلوبة وفادا، وتترك فايا في خاصرتك؟"، ثم أمرته بأن يهاجم فايا من الجنوب لتحقيق المفاجأة، واستغلال مزايا الأرض المفتوحة، ولكن حفتر - للأسف - استخدم كل قواته في هذا الهجوم، وترك أم شعلوبة من دون قوات، فاتصل بي الرائد سيّد قذاف الدم وكان يصرخ ويقول: "إن المقدم خليفة حفتر تركني في أم شعلوبة من دون قوات"، وكان خائفًا من هجوم محتمل تشنّه قوات هبري، فاتصلت بحفتر وقلت له: "كيف تسمح لنفسك باستخدام كل القوات في الهجوم على فايا وتترك أم شعلوبة من دون قوات؟"، وعلى الفور أرسلت كتيبة جنود وسريتين بواسطة طائرة نقل "سي 130". وبالفعل، وصل جزء من القوات ليلًا، وكان علينا أن نستخدم أضواء السيارات لإضاءة مهبط المطار.

قامت قواتنا مع قوات كوكوني بعدة محاولات هجومية على قوات هبري في القسم المحتل من إنجامينا، ولكن نظرًا إلى ضعف الروح القتالية لدى قوات كوكوني، والروح القتالية العالية لدى قوات هبري، ثم صمودها، وحفاظها على مواقعها وقتالها المستميت، بل حتى قيامها بهجمات مضادة، إلى حدّ أن قواتنا في إنجامينا بدأت تشعر بأن قوات كوكوني تريد أن تقاتل بآخر جندي ليبي، وأنها ترغب في أن تحتفظ بقواتها سليمة، وكانت إرادة القتال عندها ضعيفة، ونظرًا إلى أن قواتنا لم تكن عندها خبرة في قتال الشوارع والمدن، كما لم تكن لديها خبرة حتى في الحروب التقليدية، ولأن الثقة بينها وبين القوات الحليفة

اهتزت، فقد فشلت كل المحاولات الهجومية على قوات هبري. بل إن هبري بدأ يحقق بعض النجاح في إنجامينا، وهكذا أصبح هناك خطر حقيقي على المطار الذي يمثل بالنسبة إلينا أهمية قصوى. على الفور، أرسلت العقيد أحمد محمود مدير هيئة العمليات في الجيش، ومعه العقيد عبد الكبير الشريف لتقييم الموقف على الأرض، سواء بالنسبة إلى قواتنا أو إلى القوات الحليفة. قرّرت بعدها تعيين العقيد عبد الكبير الشريف قائدًا لقواتنا في إنجامينا، كما قرّرت دعم قواتنا بقوات جديدة، وشن هجوم منسق وكاسح على قوات هبري في إنجامينا. كانت المشكلة التي واجهتنا هي المحافظة على المطار، وأن يظل تحت سيطرة قواتنا خلال مرحلة حشد القوات الجديدة. تسلّم العقيد عبد الكبير الشريف قيادة قواتنا في إنجامينا، وبدأت القوات تصل إلى العاصمة. اتصلت بالمقدم خليفة إحنيش وسألته عن الرائد عبد السلام سحبان الذي كان يقود "القوات الانتحارية"، وكانت هذه القوات تقوم برحلات بحرية في البحر الأحمر، عبر قناة السويس من أجل التدريب. قال إحنيش: "سوف يصل عبد السلام سحبان مع قواته ميناء طرابلس الساعة 12 ليلًا"، فقلت له: "أبلغ عبد السلام أن يحضر عندي في غرفة العمليات الساعة 7 صباحًا".

وبالفعل حضر عبد السلام. ونظرًا إلى جرأته وشجاعته، فقد قررت إرساله إلى إنجامينا. كانت المفاجأة غير المتوقعة - والتي لم يكن يعرفها أحد حتى القذافي نفسه - أنني قررت إرسال 60 دبابة إلى إنجامينا بكامل أطقمها جرى شحنها بواسطة حاملات دبابات، وكلفت المقدم المهدي العربي قيادة الرتل إلى إنجامينا، وطلبت منه الحرص على أن تصل الدبابات خلال خمسة أيام، وأن يحرص على أن تكون حركته ليلًا ونهارًا وبلا توقف، وكانت طائرة عمودية تتابع الرتل من الجو. لكن رحلة هذا الرتل استغرقت أسبوعًا كاملًا. وحين أوصل المقدم المهدي العربي الرتل، عاد إلى طرابلس. في هذه الأثناء، أخبرني المقدم عبد الكبير أن المهدي العربي قال له: "مهمتي أن أوصل الرتل إلى إنجامينا فقط. أنا لست رجل حرب"؛ وكان صادقًا، فهذه كانت مهمته. ما إن وصلت الدبابات، حتى انهار هبري. كانت مفاجأة كبرى، ليس لهبري فحسب، بل للعالم كله الذي كان يتابع لحظة إثر لحظة تطورات الحرب. ولذا، أخذت

وسائل الإعلام تتساءل، وأخذ المحللون السياسيون والاستراتيجيون يتساءلون: كيف وصلت الدبابات إلى إنجامينا؟ وكيف أمكنها أن تقطع مسافة 4 آلاف كيلومتر من دون أن تُكتشف حركتها؟ في الخرطوم، كان جعفر النميري يرتجف هلعًا من المفاجأة، وفي مصر، شعر السادات بالقلق، وقال: "الدبابات التي قطعت هذه المسافة في أعماق أفريقيا يمكن أن تصل القاهرة". لقد كانت هذه مفاجأة للقيادة في ليبيا، فهي عملية عسكرية سوقية [استراتيجية]. بعد سقوط فايا، أصبح الطريق مفتوحًا نحو الشرق والجنوب الشرقي.

في هذا الوقت قررت قيادة العمليات بقيادة المقدم أحمد المحمود، وكذلك قائد قوات المحور الشرقي المقدم خليفة حفتر، التقدم من فايا وأم شعلوبة في اتجاه أبشة، لكنني رفضت هذه الخطة، وقلت لقادة العمليات وقائد المحور الشرقي حفتر: "إن التقدم من فادا وأم شعلوبة في اتجاه أبشة محفوف بالمخاطر وسوف يعرضنا لخسائر كبيرة، لأن المنطقة هي منطقة أحراش وأشجار، وسوف تتعرض قواتنا لكمائن من العدو، وطبيعة هذه الأرض تصلح لحرب عصابات، فضلًا عن وجود سلسلة جبلية وعرة تطل على المنطقة من الشرق، يمكنها أن تشكل تهديدًا لقواتنا". ثم أضفت: "إنني أرى أن يتمّ الهجوم على منطقة آتية، حيث الأرض مفتوحة وصحراوية، ولا تساعد العدو على المقاومة، كما أن قواتنا يمكن أن تتقدم في هذه الأرض المفتوحة من دون أن تتعرض لكمائن، وفوق كل هذا فإن سقوط آتية يعني سقوط أبشة، وهذا ما سوف يساعد قواتنا في إنجامينا، ويسرّع في انهيار قوات هبري، لأن خطوط مواصلاتها ستقطع. وهذا سوف يخدم قواتنا في إنجامينا".

لكن قادة العمليات، بقيادة المقدم أحمد المحمود وقائد المحور الشرقي المقدم خليفة حفتر، أصرّوا على خطتهم بأن يتم الهجوم على أبشة من محور فايا وأم شعلوبة. ولكنني أصدرت أمرًا بأن يتمّ تطبيق الخطة التي وضعتها، ووافقت قيادة العمليات على خطتي المقترحة، ولكنْ على مضض. قررت أن تكون منطقة طروطرو هي منطقة التحشد، وأن تقوم كتيبة الرائد الرايس الميكانيكية، بقيادة الهجوم على آتية، وأن يكون الجحفل الصحراوي في الاحتياط.

لكن حفتر خالف الأوامر، وشنّ الهجوم بواسطة الكتيبة والجحفل الصحراوي معًا، ومع ذلك لم يواجه هجوم قواتنا في هذه المنطقة أي مقاومة تذكر، عدا أننا خسرنا ثمانية جنود بين قتيل وجريح في الجحفل الصحراوي، وتقدمت قواتنا في أرض مفتوحة لا يستطيع العدو استغلالها ولا نصب الكمائن فيها. وما إن سقطت آتية، حتى سقطت أبشة من دون قتال، فتقدمت قواتنا لاحتلالها. في هذه الأثناء، كانت قوات هبري في إنجامينا تنهار كليًّا. أرسل إلي حفتر برقية يشيد فيها بالخطة التي وضعتها، وبقرار الهجوم على آتية، وأنه "يعتذر عن موقفه" وهذا ما فعله المقدم أحمد المحمود. لكن المشكلات بين قواتنا وقوات كوكوني في مدينة فايا بدأت تتفاقم، وحدثت اشتباكات بين قوات أصيل أحمد[6] وقوات كوكوني؛ أي بين العرب من جهة، والتبو والقرعان من جهة أخرى. وبدأت قواتنا تنحاز إلى قوات أصيل، وبذلك بدأت الشكوك تنتاب كوكوني وحلفاءه من القرعان بقيادة آدم توجوي، في حقيقة الموقف الليبي ونيات الليبيين، وتعاظم شعوره بأنهم ينحازون بالفعل إلى قوات أصيل في الصراعات الداخلية.

ومما زاد الطين بلّة أنّ قواتنا بدأت تتصرف كقوة احتلال، لا كمحرّر وحليف. وهكذا، بدأت الأهداف من التدخل في تشاد تتغيّر، من دون أن نكون قد قرّرنا ذلك أو خططنا له، والأدق من دون أن نناقش - أنا والأخ معمّر - هذه الاستراتيجيا الجديدة، أي تغيير الأهداف. وبدا لي ولآخرين أنّ الأخ معمّر هو الذي فرض هذا التغير في الموقف كأمر واقع. في سياق هذه التطورات، جاءني المقدم مسعود عبد الحفيظ، وهو المسؤول عن ملف تشاد، شاكيًا ومتذمرًا ومحذرًا من مخاطر الانحياز إلى طرف ضد طرف آخر من حلفائنا، وخصوصًا الانحياز إلى قوات أصيل أحمد؛ باعتبارها ممثلة للقبائل العربية.

وخلال وقت قصير، اتضحت معالم "السياسة الصبيانية" التي فرضها الأخ معمّر، وأخذت تؤدي دورًا مدمّرًا. ويبدو أن الغرور أصاب الأخ معمّر، حيث

(6) سياسي تشادي من أصل عربي، شغل منصب وزير للخارجية التشادية في حكومة كوكوني عويدي، وقاد جيش البركان. انضم إلى فرولينا في عام 1976، وانضم إلى المقاومة، ودخل إلى ليبيا مع مجموعة البركان، وكان مدعومًا من ليبيا.

إنّه أقدم، من دون أي تحليل منطقي للأحداث، على "تغيير الاستراتيجيا" في تشاد، وذلك بواسطة مجموعة من الانتهازيين. كانت استراتيجيتنا في بدايات الأحداث تقوم على أساس "تمكين" المسلمين، وهم الغالبية في تشاد، من الوصول إلى السلطة، بينما وقفت فرنسا إلى جانب الأقلية المسيحية. في البداية وقفت ليبيا مع فرولينا بوصفها المنظمة التي تمثل المسلمين بقيادة كوكوني، ثم - بعد الخلاف مع هبري - وقفنا مع كوكوني وحلفائه. وهكذا بدأنا بالتخبط في تشاد مع تغيّر الاستراتيجيا.

ثم سرعان ما بدأ الأخ معمّر يطرح فكرة ضمّ تشاد إلى ليبيا، بل دعا إلى تعريب تشاد، وأخيرًا صار يدعو إلى الوحدة مع تشاد، والسيطرة على بحيرة تشاد واستغلال مياهها، وفي وقت تالٍ بدأ يطرح فكرة "أننا بدلًا من الوقوف مع المسلمين وتمكينهم من الحكم باعتبارهم الأغلبية العظمى، يجب أن نمكّن العرب من حكم تشاد، ثم ضمّ تشاد إلى الأمة العربية ودخولها الجامعة العربية". لقد رفضت بشدة كل هذه الأفكار، ودعوت بصراحة ووضوح إلى السعي من أجل "إيجاد نظام حليف" لا أكثر، أي "حكومة مسلمين" يمكن أن تصبح حليفة "أو عميلة" لنا، وقلت له إنني أرفض بشدة كل هذه الأفكار، "وأقصى ما يمكن لي أن أوافق عليه هو إنشاء نظام حليف لنا في تشاد"، لكنه قال لي: "لماذا إذًا تدخلنا في تشاد؟"، قلت: "لتمكين المسلمين من الحكم. أمّا إقامة جماهيرية في تشاد، فهو أمرٌ غير ممكن؛ لأن الجماهيرية نفسها لم تقم في ليبيا، ثم إنّنا لا يمكن أن نفرضها على الشعب التشادي. أمّا الوحدة مع تشاد أو ضمّها إلى جامعة الدول العربية أو الأمة العربية، فنحن أصلًا لم نتمكن من توحيد الأمة العربية المحدّدة خارطتها. أمّا مسألة ضمّ الامتدادات العربية في أفريقيا وجزر البحر الأبيض المتوسط إلى الجسم العربي، فكيف يمكن ضمّ الأطراف ما دام الجسم غير موحّد؟ لو استطعنا إقامة دولة نواة من مصر والسودان وليبيا، أو توحيد المغرب العربي، فيمكن عندئذٍ أن نتجه نحو الامتدادات العربية في أفريقيا وجزر البحر الأبيض المتوسط لتقوية الاتجاه العربي فيها"، ثم أضفت: "الدول العربية هي التي تحاربنا في تشاد: السادات، النميري، صدام، الحسن الثاني، وحتى الجزائر".

كان الأخ معمّر يطرح مجموعة متزاحمة من الأفكار التي يغذيها الغرور، والتي لا تستند إلى أساسٍ علمي. وحينما فشل في إقناعي، بدأ يروّج لها من خلال الانتهازيين والأتباع، في محاولة لفرضها أمرًا واقعًا. ثم بدأ التآمر على القوات الحليفة، وتأليب بعضها ضد بعضها الآخر في محاولة لتفتيتها وتفكيكها. كانت أولى المعارك بين الحلفاء قد وقعت في منطقة فايا، بين قوات كوكوني وقوات أصيل. وبطبيعة الحال، انحازت قواتنا إلى قوات أصيل، باعتبارها قوات القبائل العربية في تشاد؛ ونتيجةً لذلك، حدثت مذبحة بين الحلفاء. ونظرًا إلى أن العرب في تشاد لم يكونوا مقاتلين محترفين، حققت قوات كوكوني المحترفة انتصارات هزمت فيها قوات أصيل شرّ هزيمة، ولولا تدخّل قواتنا في تشاد لأبيدت عن بكرة أبيها.

وهكذا، وعبر البحث عن مزيد من الأتباع والزبانية والانتهازيين، بدأ معمّر ينتهج سياسة تمزيق الحلفاء، وبات في حاجة إلى مزيد من العناصر العميلة والمعادية للقيادة السياسية للقوات الحليفة، وتنصيبها في المدن التي احتلتها قواتنا. كان أحمد إبراهيم ومحمد المجذوب وحسن أشكال ومحمد قرين، ومعهم كثير من الانتهازيين، هم أداة معمّر الرئيسة في تنفيذ استراتيجية إغراق الحلفاء في تشاد في قتال داخلي شرس ومرير. في هذا الوقت، جاءني كوكوني وتوجوي وقالا لي: "نحن على استعداد للحوار والتنسيق للوصول إلى اتفاق". ومع أنني أعلم علم اليقين أنهما لا يؤمنان بهذه الأفكار، فإن احتياجاتهما واعتمادهما الكامل على دعمنا، سياسيًا وعسكريًا وماليًا، يدفعهما إلى القبول بالتنسيق معنا في ما يخصّ تشكيل لجان شعبية، ومؤتمرات شعبية ولجان ثورية ...إلخ، بل بَلغ بهما الأمر أنهما كانا يتحدثان عن التعريب وإحلال العربية محل الفرنسية، وطالبا بأن يتمّ كل ذلك عن طريقهما حصرًا.

في هذه الأثناء، كانت العناصر الانتهازية من حول الأخ معمّر، ومعها سائر المجموعات الفاسدة، قد ركبت الموجة، وأخذت تُبسّط الأمور، وتقول إن هناك ضرورة لإنشاء لجان شعبية ومؤتمرات شعبية في تشاد، وأخذت تنقل إليه صورًا كاذبة عن ردود الفعل في أوساط الجماهير الليبية التي كانت تسخر من

هذه الأفكار. أصرّ الأخ معمّر على العمل لتحقيق هذه الاستراتيجيا الجديدة، متجاوزًا كوكوني وتوجوي رغم استعدادهما للتنسيق والعمل معنا، بينما شرع فصيل أصيل في رفع هذه الشعارات، وأخذ يوغل في تغذية الخلاف مع كوكوني وتوجوي.

في هذا الوقت، تولّدت لدى كوكوني وتوجوي، ومن خلالهما التبو والقرعان، قناعة بأننا نعمل ضدهم، وأننا نريد استغلالهم كحصان طروادة في صراع تشادي - تشادي. وهكذا تزعزعت كل أسس الثقة بيننا وبين التشاديين من حلفائنا، وبدأ السادات والنميري وفرنسا والولايات المتحدة الأميركية، بالترويج لفكرة أن "القذافي يريد أن يقيم دولة يسيطر عليها العرب في تشاد". استغل حسين هبري هذه الظروف المعقّدة، وبدأ حشد قواته وقوات من التبو والقرعان، وهي القبائل الأكثر شجاعة وعددًا، ووحّدها تحت قيادته. أدّى الصدام بين قوات كوكوني وتوجوي من جهة، وقوات أصيل من جهة أخرى، إلى سيطرة قوات كوكوني وتوجوي على الأرض وهزيمة قوات أصيل. ولذا، طلبا منّا أن نسحب قواتنا من فايا لتفادي الصدام. وبالفعل، قمنا بسحب قواتنا. لما قرّرنا سحب القوات، شعرت قوات أصيل بالذعر، وخشيت من البقاء في فايا، في مواجهة مكشوفة مع قوات كوكوني وتوجوي. ولذا، انسحبت قوات أصيل هي أيضًا؛ لأنها كانت محمية من قواتنا، وحين انسحبنا اضطرت قوات أصيل إلى الانسحاب.

طلبت من العقيد أحمد محمود رئيس غرفة العمليات، والعقيد عبد الكبير الشريف، أن يذهبا إلى إنجامينا لتقييم الموقف على الأرض، بعد أن فشلت عدّة محاولات للهجوم على قوات هبري. قمت إثر ذلك بتعيين العقيد الشريف قائدًا لقواتنا في إنجامينا، واتخذت قرارًا بتعزيز هذه القوات بقوات إضافية، واتخذت قرارًا بالهجوم، ووضعت الخطوط العريضة للخطة وأرسلتها إلى العقيد الشريف، وهو بدوره وضع خطة الهجوم التفصيلية، وأرسلها إليّ، وفضلًا عن ذلك أرسلت بعض الضباط الشجعان إلى إنجامينا، ومن بين هؤلاء الرائد عبد السلام سحبان، وقد كان قائد القوات الانتحارية. بعد سقوط إنجامينا

قال لي العقيد عبد الكبير الشريف إن الرائد عبد السلام سحبان أدى دورًا بطوليًا مميّزًا في الهجوم، وتمكنت قواته من دحر قوات حسين هبري، حين استدرجها لكمين محكم وأطبق عليها وأباد معظم قواته. كانت الخطة تقضي بأن تقوم قوات كوكوني باحتلال معسكر 7 أبريل في إنجامينا. استطاعت قواتنا تحقيق كل أهداف المرحلة الأولى من الهجوم، إلا أن قوات كوكوني أخفقت في هجومها على معسكر 7 أبريل.

أرسل إلي العقيد عبد الكبير الشريف برقية يقول فيها: "إن كوكوني يريد أن يقاتل بآخر جندي ليبي". فغضبت غضبًا شديدًا. كان كوكوني يخطط في أثناء الهجوم للاحتفاظ بقواته سليمة، فأرسلت بواسطة العقيد أحمد محمود رسالة صريحة إلى كوكوني وتوجوي فحواها أن قواتنا سوف تنسحب من تشاد، ونحن لن نكون بديلًا منكما، لكننا سوف نبقي على دعمنا؛ ولذا لا بد من أن تقوم قواتكما بتنفيذ المهمة المحدّدة في الخطة، أي احتلال معسكر 7 أبريل. ما إن وصل العقيد أحمد محمود حاملًا رسالتي واجتمع بكوكوني وتوجوي وأبلغهما فحوى الرسالة ومضمونها، حتى سارعا إلى حسم الموقف واحتلا المعسكر. ولأن توجوي قاد الهجوم بنفسه على المعسكر، فقد تعرض لإطلاق نار وأصيب بجروح بالغة، جرى على إثرها بتر ساقه، فنُقل بطائرة خاصة إلى طرابلس، ومن ثم أرسلناه للعلاج في ألمانيا.

جرى بعد ذلك تطوير الهجوم وسقطت إنجامينا، بيد أن قواتنا – للأسف – سمحت لقوات هبري بالتملص والفرار، وكان يمكن تدميرها تمامًا، لو قامت قواتنا بمطاردتها والقضاء عليها. والمؤلم في هذه الأحداث أن العقيد حسن أشكال – وهو من زبانية الأخ معمّر – قام بتدبير مذبحة مروعة في منطقة أبشة بالتعاون مع قوات أصيل، ضد قوات كوكوني وتوجوي، حيث قتل فيها محافظ المدينة، وكانت تلك هي "القشة التي قصمت ظهر البعير"؛ إذ توصل كوكوني وتوجوي إلى قناعة "أن الليبيين يعملون ضدهما"، وأنهم يخططون للقضاء عليهما وتمكين العناصر العربية من السيطرة على تشاد، وإعلان "حكم عربي" موالٍ لليبيا.

ثم بلغ التوتر بين قواتنا وقوات كوكوني أشدّه، بل بلغ ذروته، وتحوّل إلى مواجهة علنية ومكشوفة، فسافرت على الفور إلى إنجامينا يرافقني العقيد مسعود عبد الحفيظ. حينما وصلت العاصمة التشادية، وجدت أن الموقف بات خطيرًا جدًّا؛ إذ أصبحت قواتنا في مواجهة قوات كوكوني. كان العقيد رضوان صالح هو من يقود قواتنا في تشاد، فسارعت إلى عقد لقاء مع كوكوني وتوجوي بحضور العقيد مسعود عبد الحفيظ. وحين بدأنا الحديث، أبديت لهما غضبي وسخطي مما يجري، وقلت لهما بنبرة قاسية: "أنتما الآن تتصرفان كزعيمين يقودان حركة عصابات ولا تتصرفان كتنظيم سياسي، لأنكما لا تظهران أي احترام للوعود والعهود والاتفاقات". إنني كنت على قناعة راسخة بأن الجانب الليبي وممارساته غير المسؤولة، والأهداف الغامضة، أو غير الواقعية، التي يعمل بها - بل أيضًا تآمر الجانب الليبي ضد كوكوني وتوجوي - كل ذلك أوصل التطورات والأحداث إلى هذا المستوى المخيف من العنف والقتال. ولم يكن كوكوني وتوجوي وحدهما المسؤولين عما جرى، حيث تحوّل الحلفاء إلى أعداء لأن الجانب الليبي كان يتدخل بطريقة سافرة لفرض عناصر بديلة منهما داخل الحركة، وهكذا انفض الاجتماع ونحن جميعًا في حالة توتر وغضب. ولمّا عدت إلى مقر الضيافة، قال لي العقيد مسعود: "هؤلاء ليسوا رجال دولة؛ هم رجال عصابات، أرجوك لا تتحدث معهما بهذه الطريقة، فقد يدبران مكيدة لقتلنا والتخلص منّا".

في هذه الأثناء، عقد مجلس الوزراء التشادي جلسة قرّر فيها أن يطلب من "ليبيا سحب قواتها من إنجامينا"، ولم يعارض القرار سوى وزير الداخلية محمد سعيد، وهو رئيس أحد الفصائل ضمن فرولينا ومن مؤسسيها. حتى أصيل المحسوب على ليبيا، وكان يشغل منصب وزير الخارجية، ومعه الشيخ بن عمر، نائب أصيل ووزير التعليم، أيدا القرار، وهما اللذان كان يراهن الأخ معمّر عليهما، ووقف معهما ضد كوكوني وتوجوي، وكانا يقدمان نفسيهما بوصفهما "البديل العربي في تشاد"، في حين كنت شخصيًا ضد أصيل، ودعوت مرارًا إلى ضرورة الحفاظ على تحالفنا مع كوكوني وتوجوي، ثم إنّ العقيد مسعود عبد الحفيظ كان يحذر من مغبة الصدام معهما، بل إنه وقف ضد أي "عمل أو تنسيق" مع أصيل والشيخ بن عمر. وإمعانًا في الإساءة إلينا، كشف

عن حقيقته أمامنا؛ حين قام كوكوني بتكليف الشيخ بن عمر بصياغة قرار طلب الانسحاب، وكانت هذه بالفعل إساءة بالغة إلينا.

أما الشخص الوحيد الذي عارض القرار، فهو محمد سعيد وزير الداخلية، فقد قال في الاجتماع: "نحن لسنا بالشياطين نستغل الليبيين ثم نتنكر لهم". بعد صدور القرار اجتمعت به مرة أخرى، وكان معه توجوي. بدأ الاجتماع صاخبًا ومتوترًا، وحين أبلغني بقرار مجلس الوزراء، قلت له: "يا كوكوني لا تسخر مني ولا تسخر من نفسك، القوات الليبية لم تدخل إلى تشاد بقرار مجلس الوزراء؛ وإنما دخلت بطلب منك ومن توجوي، وقد تدخلنا لأننا كنّا نثق بكما". ثم أضفت: "أنت لا تعرف الديمقراطية، كما أنكم لستم تنظيمًا سياسيًا ولا حكومة. أنتم عصابات وقطاع طرق، وقرار سحب القوات الليبية هو القرار الديمقراطي الوحيد الذي اتخذته في حياتك، لكن إذا ما أصررت على القرار، فنحن مستعدون لسحب قواتنا".

حينما عدت إلى دار الضيافة، جاءني أصيل وزير الخارجية، وكان معي العقيد مسعود عبد الحفيظ. كان أصيل يرتدي بدلة شغل ليبية في ادعاء انتهازي بأنه ليبي وعربي، وقال لي وهو يضع يديه على حلقه: "إذا كنتم تعتقدون أننا سوف نترككم في تشاد لوقت طويل، فأنتم مخطئون، لا بد لكم من الانسحاب من إنجامينا"، فرددت عليه بلهجة غاضبة: "هل أنت أصيل؟ من المحال أن تكون أصيلًا. إذا كنت خدعت الأخ معمّر مع الانتهازيين الليبيين، ورفعت الشعارات التي يحلم بها معمّر؛ فأنت لم تخدعني". في الواقع، كنت متمسكًا - على المستوى الشخصي وبقناعة تامة - بالتحالف مع كوكوني وتوجوي، وكنت، بطبيعة الحال، ضد استراتيجية وشعارات الإلحاق والضمّ أو إنشاء جماهيرية في تشاد. لكن الأحداث سارت على هذا النحو، وقمنا بسحب قواتنا بناءً على طلب كوكوني وتوجوي، وكنّا قبل ذلك بقليل قد نفّذنا انسحابًا لقواتنا من أبشة، في إثر المذبحة التي راح ضحيتها محافظ المدينة.

وبدعم من النميري والسادات والعراق والسعودية والولايات المتحدة الأميركية، تمكن هبري من إعادة تنظيم صفوفه في السودان وتسليحها، ثم

شن هجومًا كاسحًا وخاطفًا، تمكن خلاله من بسط سيطرته على أبشة وآتية، ثم احتلال إنجامينا وطرد كوكوني وتوجوي منها، حتى فايا ومنطقة تيبستي. ثم احتل فايا في هجوم منسق وكاسح ساعده على الوصول إلى الحدود الدولية مع ليبيا، ليعلن في إثرها أنه قضى نهائيًا على قوات كوكوني وطرد القوات الليبية من تشاد. فعقدنا على الفور - أنا والأخ معمّر - اجتماعًا في غرفة العمليات، وكان معنا العقيد أبو بكر يونس ورئيس غرفة العمليات وقادة الأسلحة وبعض الضباط، وبحثنا هذا الموقف الخطير. قلت في هذا الاجتماع: "علينا أن نقوم بقصف مكثف ومستمر على قوات هبري في فايا، لإرهاقها ومنعها من تطوير هجومها على منطقة تيبستي، وإلحاق أكبر قدرٍ ممكن من الخسائر في صفوفها، حتى نتمكن من حشد قواتنا البرية للهجوم على فايا وطرد قوات هبري"، لكن كان رأي الآخرين "أننا يجب ألّا نقوم بالقصف الجوي، لأنّ هناك وقتًا طويلًا بين القصف الجوي والهجوم البري".

فضلًا عن هذا الرأي، كان هناك اتجاه داخل الاجتماع يرى أن القصف الجوي سوف يرصده الأميركيون، وهذا يعني أن نياتنا وخططنا في الهجوم البري للاستيلاء على فايا قد تنكشف. لقد كنت مصرًّا على القيام بقصف مكثف. وهكذا، انفض الاجتماع من دون اتخاذ أي قرار.

وفي حوالى الساعة الخامسة مساء، اتصل بي الأخ معمّر ليقول لي إنه يؤيد رأيي بضرورة قصف فايا قصفًا مكثفًا بواسطة الطيران. وبالفعل أصدرت الأوامر للقوات الجوية، ببدء عمليات قصف مكثف ومتواصل. في اليوم التالي، ذهبت ومعي العقيد مسعود عبد الحفيظ إلى بلدة قرو شمال شرق فايا للقاء كوكوني وتوجوي. سافرت أنا ومسعود على متن طائرة "فوكر"، وهي طائرة لها ميزة الهبوط في الأماكن الممهدة، وكان يقودها كابتن طيار يدعى العزومي.

والمثير للدهشة أن الكابتن طيار هذا كان جنديًا، ولم يكن قد أكمل تعليمه، ولكنه واصل دراسته في نوادي الطيران الليبية واجتهد، وكان شابًّا ذكيًا حتى تمكن من السفر للدراسة ببعثة حكومية إلى الولايات المتحدة وتخرّج طيارًا محترفًا. حينما كنّا نطير فوق جبال تيبستي الشاهقة، مازحت الكابتن

طيار العزومي، وقلت له: "أتقود الطائرة بفضل التكنولوجيا أم البركة؟"، فقال لي ضاحكًا: "الاثنتان، التكنولوجيا والبركة". كانت الرحلة مغامرة خطيرة، لأن بلدة قرو قريبة من فايا، وكان هناك احتمال أن تكون قوات هبري قد احتلتها أو هي قريبة منها، وهذا يعني أن الطائرة كانت تحت التهديد، ومع ذلك لم يخطر في ذهني التفكير في الخطر، فنحن صنوان. ثم هبطنا في مهبط رملي ممهد. ومن هناك سافرنا بالسيارة إلى البلدة، حيث اجتمعت بتوجوي. وجدته في حالة نفسية سيئة. لم يكن كوكوني موجودًا في البلدة، وتوجوي لا يعرف أين هو الآن. قال لي بلغة عربية ركيكة: "كنت أسمع إذاعة **فرانس أنتر**، قالت إن هناك دبابات وطائرات ليبية كثيرة تتجه نحو فايا. يجب أن تعود فايا"، فأبلغته بوضوح أننا بدأنا القصف المكثف بواسطة الطيران، وأننا سوف نشرع في تنفيذ الهجوم البري لاستعادة فايا. ما إنْ سمع توجوي حديثي، حتى هبّ نحوي وعانقني.

بدأت عملية حشد القوات من حول فايا شرقًا وغربًا، وتمّ تكليف العقيد الريفي علي الشريف بقيادة الهجوم، لكنه بدا مُتردّدًا ويطالب بالمزيد من الوقت لإعداد القوات. قال لي: "الطيارون الذين كانوا ينفذون أوامر القصف في الأيام الأخيرة، وقبل موعد الهجوم البري بأربعة أيام، أفادوا أنهم لم يشاهدوا أي أهداف عسكرية في فايا وهي خالية من أيّ نشاط عسكري"، وعلى الفور استنتجت أن هبري قد فرّ هو وقواته من فايا، لما أدرك أن الهجوم البري بات وشيكًا، فطلبت من العقيد الريفي أن يتقدم نحو فايا من دون أي تأخير، لتدمير قوات هبري قبل انسحابها.

ومع ذلك، ظل العقيد الريفي مترددًا ولا يكاد يصدّق ما أقول له: "إن هبري يوشك أن ينسحب هاربًا من فايا". في هذه الأثناء، كانت الكتيبة المدرعة في الغرب، بقيادة العقيد الهادي مفتاح العجيلي، قد وصلت إلى مشارف فايا، ولكنه توقف هناك، انتظارًا لبدء الهجوم البري؛ ولذا طلبت منه أن يتقدم بأقصى سرعة ويقتحم فايا لأن هبري يوشك أن ينسحب، إنْ لم يكن قد انسحب بالفعل، ويجب تدمير قواته. كنت أتحدث مع العجيلي في اللاسلكي، فقال لي: "هناك مقاومة عنيفة في مواجهتي"، فقلت له: "هذا يعني أن هبري ترك بعض

المقاتلين لإلهائنا وإيهامنا بأنه لم ينسحب، قد يكون عددهم سبعة جنود أو خمسة عشر جنديًا، لا تجعل هذا الأمر يشغلك عن المهمة، فهو يريد أن يحافظ على سلامة قواته". هؤلاء الجنود كانوا جماعة صغيرة تحصنت في الوادي. كرر العجيلي على مسامعي: "هناك مقاومة عنيفة تمنعني من التقدّم"، فقلت له: "ليس هناك مقاومة. هؤلاء جماعة صغيرة من الجنود تركها هبري لإلهاء قواتنا وإشغالها عن التقدم، ودفعكم إلى اعتقاد أن العدو لا يزال في فايا، وكل هذا لأجل أن يفرّ هاربًا".

ثم اتصلت بالعقيد الريفي، وطلبت منه أن يتقدّم بقواته قبل فرار هبري، فقال لي: "هبري لم ينسحب، علينا التريث وإعداد خطة هجوم محكمة وتحضير وتجهيز قوات قادرة على تنفيذ المهمة"، ولذا طلبت منه أن يحضر لي المقدم عبد السلام سحبان على الجهاز لأتحدث معه. بعد لحظات تحدثت معه، فقلت له: "يا مقدّم عبد السلام، استعمل سيارة تويوتا كروز واذهب إلى فايا". وحينما دخل فايا، وجدها خاوية، ووجد أن هبري قد انسحب منها كما توقعت، فاتصلت بالعقيد صالح الفرجاني قائد القوة الجوية، وطلبت منه أن تقوم طائراتنا القاذفة في قاعدة أوزو بملاحقة قوات هبري وتدميرها، فاكتشف الطيّارون، في أثناء التحليق والقصف، أن معظم قوات هبري قد أصبحت خارج مدى طائراتنا.

ومن بين المستندات التي عثرنا عليها في فايا، بعد تحريرها من قبضة هبري، وكذلك من المواطنين المتعاونين معنا - وفايا هي مسقط رأس هبري - وثيقة تؤكد أن خطته بعد احتلال فايا هي التقدم نحو الحدود الليبية ومحاصرة قواتنا هناك، ومن ثم الإعلان عن تحرير تشاد من الليبيين. ولكن قرار القصف الشديد والمركز أفشل الخطة، ومنع هبري من تطوير هجومه حتى شمال فايا؛ نظرًا إلى الخسائر التي تكبّدها من جرّاء القصف والارتباك والفوضى التي عمّت صفوف قواته. وبفضل هذه الخطة الناجحة والنتائج التي حققتها، قررت القيادة منحي وسامَي "نجمة الشجاعة"، و"نجمة الفاتح"، لكنني رفضتهما.

فوجئت بأن العمل نفسه تكرر في فادا، حين قامت قواتنا وقوات أصيل بضرب قوات كوكوني. لقد دبرت العناصر الانتهازية نفسها من حول الأخ معمّر

تنفيذ عمليات صِدام مع قوات كوكوني، وكان هذا أمرًا مريبًا. كان سكان قرية فادا في معظمهم من القرعان؛ وهي قبيلة توجوي وهبري. أدّى هذا التصرف العسكري المريب والتآمري، عمليًا، إلى طرد قوات كوكوني وتوجوي، بل طرد أهالي البلدة كلها، حيث فرّ المدنيون، والأطفال والنساء خوفًا من الموت، واتجهوا نحو الوديان والجبال. وكان هذا التصرف من جانب قواتنا دليلًا آخر على أن الجماعة الانتهازية ذاتها المحيطة بالأخ معمّر هي التي كانت تخطط وتدير "الفتنة" لتبلغ هذه الدرجة المأساوية.

جرت بين كوكوني وتوجوي من جهة، وهبري من جهة أخرى اتصالات سياسية وعسكرية، تمّ التوصّل من خلالها إلى "وحدة عسكرية" وميدانية ضد قواتنا، بحيث أصبح الأعداء أصدقاء في مواجهتنا. لكنّ كوكوني وتوجوي كانا يعرفان جيدًا أهمية الإبقاء على التحالف معنا؛ ولذا طلبا لقاء الأخ معمّر، كما طلبا اللقاء بي أيضًا. وبالفعل استقبلهما الأخ معمّر، لكنه كان مضطرًّا إلى السفر في 2 أيلول/ سبتمبر 1986 إلى زيمبابوي لحضور قمة دول عدم الانحياز. ولذا، بعد أن قمت بتوديع الأخ معمّر في المطار، استقبلت كوكوني وتوجوي وكانا في غاية القلق والتوتر، ويشعران بالألم من سياساتنا في تشاد، وقالا: "نحن نعتبر أن ما حدث في فادا هو عمل قامت به قواتكم"، ثم أضاف كوكوني: "كنت أعرف من أحداث فايا وأبشة أنكم تريدون أن تجعلوا منّا حصان طروادة". ثم طلبا مني تزويدهما بالسلاح لاسترداد فادا من قبضة قوات أصيل، فقلت لهما: "نحن نعطيكم السلاح لتحاربوا هبري، لا لتحاربوا بعضكم بعضًا"، فردّ كوكوني قائلًا: "حسنًا، لا نريد منكم أن تعطونا السلاح، نريد منكم فقط أن تصدروا أمرًا لقواتكم بأن لا تتدخل في المعارك وأن تظل على الحياد". وكان عليّ أن أردّ بالقول: "جميعكم حلفاء لنا، ونحن لن نتدخل في مشكلاتكم الداخلية. قتالكم بعضكم ضد بعض هو في مصلحة هبري، وسيكون المستفيد الوحيد من هذا القتال". وخلال الحوار معهما، طلبا مني أن أصدر أمرًا لقواتنا في فايا وأوجنقا ووادي الدوم، بأن تسمح لقواتهما المتحركة من تيبستي نحو فادا بـ"أن تتقدم من دون أن نتعرض لها"، ثم قال كوكوني: "اعطوا أصيل أي سلاح ترغبون فيه، لكن شرط ألا تتدخل قواتكم في الصراع. سوف نقاتله

بالسكاكين ونستولي على أسلحته". وهكذا انفض الاجتماع من دون التوصل إلى أي اتفاق، ومع هذا أكدت لهما أن قواتنا لن تتدخل في الصراع الداخلي بتشاد.

في إثر ذلك، أصدرت أمرًا للعقيد الهادي امبيرش، قائد قواتنا في شمال تشاد - ومقره في فايا - أن يمنع قوات كوكوني من التقدم نحو قرية فادا. قبل هذا القرار الذي أصدرته، كانت لديّ معلومات تؤكد أن المجموعات الانتهازية من حول الأخ معمّر، تعدّ العدّة "لتنظيم انقلاب" ضد كوكوني وتوجوي في فايا عاصمة الشمال، حيث اتفقتْ - أي هذه المجموعة الانتهازية - مع موسى سوقي، رئيس أركان قوات كوكوني، على القيام بانقلاب وعزلهما معًا، أي عزل كوكوني وتوجوي. ولحسن الحظ فشل الانقلاب، وفرّ موسى سوقي واحتمى بالقوات الليبية هناك. وهكذا، باتت الثقة بين كوكوني وتوجوي من جهة، وبيننا من جهة أخرى، معدومة تمامًا.

هذا ما دفع ضباطنا للشكوى من هذا الوضع الخطير، وبدأوا يشعرون بنذر الكارثة. حاولت جاهدًا، بكل ما أوتيت من قوة، مواجهة هذه "الاستراتيجيا" المدمّرة. ومن المدهش أن الأخ معمّر كان يقول لي دومًا: "لا علم لي بهذه التصرفات". لقد أصبحت لنا سياستان في تشاد، إحداهما معلنة ومتفق عليها، وهي مساندة قوات كوكوني وتوجوي ضد هبري المعادي لنا، وسياسة أخرى هي تدبير المكائد والمؤامرات والانقلابات ضد كوكوني وتوجوي. وبسبب كل ذلك، ولانهيار أيّ ثقة بيننا وبين كوكوني وتوجوي، انتقل كوكوني فجأة إلى الجزائر، ولجأت قواته إلى التحالف العسكري الميداني مع قوات هبري.

وهكذا سهلت قوات كوكوني المتمركزة في أم شعلوبة وفايا الطريق أمام قوات هبري لاحتلالهما، وتكبدت قواتنا هناك بعض الخسائر في الأفراد والمعدّات، وعمل كوكوني بكل الوسائل لمنع قواتنا من التمركز في تيبستي، وكان من الخطأ عسكريًا أن تتقدم قواتنا شرقًا وجنوبًا، تاركة تيبستي في قبضة كوكوني. لمّا اختلفنا مع كوكوني وتوجوي، اضطررنا إلى احتلال تيبستي بالقوة

لتأمين مؤخرة قواتنا. ثم اتخذنا بعد ذلك قرار استعادة قرية فادا، وقررت تعيين العقيد خليفة حفتر قائدًا للهجوم، لكنني لاحظت أنه كان مُترددًا، وبدا ذلك واضحًا في علامات وجهه، وأنه "غير راغب ولا راض" عن المهمة، وقال لي: "يا أخ عبد السلام أنا لست الضابط الوحيد، فقد أديت واجبي في قيادة الهجوم الأول". بيد أنني أصررت على موقفي بتعيينه في هذا الموقع؛ لأنه يملك معرفة جيدة بجغرافية تشاد وتضاريسها، وكذلك طبيعة شعبها. ثم اكتشفت متأخرًا خطأ قراري هذا بعد الإخفاقات التي واجهتنا في تشاد، ربما بسبب سلبية حفتر، وعدم اهتمامه بمسار المعارك وتطوراتها، وكأنه يريد أن يحتجّ على هذا التكليف. في هذه الأثناء، بدأت قوات هبري وكوكوني بعد تحالفهما بالعمل ضد قواتنا في تيبستي، وبدأت في تنفيذ الهجمات خلف خطوطنا. وهكذا تحوّل الحلفاء إلى أعداء. لقد بات علينا أن نقوم بإمداد قواتنا في فايا وكل شرق تشاد جوًّا؛ لأن كل خطوط إمداداتنا مقطوعة، أو باتت مهدّدة بالقطع من جانب قوات كوكوني.

في هذا الوقت، سرّب هبري بعض عناصره خلف خطوط إمدادنا؛ فاتخذنا قرارًا عاجلًا باحتلال مناطق تيبستي وأزوار وبرداي. ورغم كل هذه الظروف، كانت قواتنا تتمتع بمعنويات عالية، خصوصًا خلال السنوات الأولى للتدخل الأول في تشاد، وتمكنت من تحقيق انتصارات باهرة. ولكن في النهاية، حل محل العزيمة القتالية والمعنويات العالية شعور بالإحباط والسلبية.

على هذا النحو، انتقلت مبادأة القتال من قواتنا إلى قوات العدو. ثم شنت قوات كوكوني وقوات هبري التي تسربت نحو تيبستي هجمات عنيفة ضد قواتنا في أزوار وبرداي، وقامت أيضًا بمحاولات متقطعة لمهاجمة قواتنا في فايا. في الواقع، أرهقت هذه الهجمات قواتنا، لأنها كانت تستخدم تكتيك الكرّ والفرّ؛ أي أسلوب حرب العصابات، مستفيدة من التضاريس الجبلية الوعرة والوديان. ولذا، عزّزنا قواتنا في فايا، وبدأنا حشد القوات في وادي الدوم استعدادًا للهجوم. وبسرعة قامت قوات كتيبة مبروك سحبان، وكانت كتيبة نموذجية بالفعل، وقائدها رجل شجاع، باحتلال أزوار على الرغم من تكرار الهجمات عليها.

في هذه الأثناء، أصدرنا قرارًا بتكليف العقيد خليفة حفتر قائدًا لقواتنا في تشاد، والقيام بالهجوم على فادا، انطلاقًا من وادي الدوم. وتكمن أهمية قرية فادا في كونها مدخلًا إلى شرق تشاد كله. ولأجل ذلك، قمنا بحشد قوة قتالية هائلة للدفاع عن وادي الدوم، بوصفه أكبر قاعدة جوية وبرية لقواتنا. كان حفتر مستهترًا بالأوامر، وفقد الإحساس بالمسؤولية ولم يعد يعير المعارك أي اهتمام. ومن المؤسف أن قواتنا فقدت السيطرة على ميدان القتال، وذلك للأسباب التالية:

1 – إن قواتنا ظلت تخوض حربًا سرّية غير معلنة على امتداد 13 سنة. كنّا نقاتل ونموت ونضحّي، نحتل وننهزم وننتصر، ولكننا نعلن وننسب كل الانتصارات إلى قوات فرولينا؛ لأننا لم نكن نعترف بتدخلنا المباشر في تشاد، بل إن قوات فرولينا خرجت من الحرب، بينما بقينا نخوضها نيابة عنها، وهذه حرب سرية لم يقرّرها الشعب.

2 – عدم وضوح "الهدف من تدخّلنا".

3 – بسبب "الاستراتيجيا الجديدة" غير المعلنة وغير القابلة للتطبيق، ونظرًا إلى تدخل العناصر الانتهازية، كنا كلما حققنا نصرًا، نفاجَأ بأن هذه العناصر تقوم بتخريبه وتحويله إلى "هزيمة سياسية"؛ وهكذا صارت الأهداف السياسية للحرب أكثر بعدًا.

4 – بسبب هذه السياسة التي لم نتفق عليها، ولم تكن قابلة للتحقيق، وهي بكل تأكيد نتاج "عقلية جنون العظمة" التي انتابت الأخ معمّر، باتت قواتنا في تشاد لا تعرف العدو من الصديق.

5 – سحب الشعب والقوات المسلحة الليبية تأييدهما لهذه الحرب؛ إذ لا نهاية لها ولا هدف، وقد استغرقت وقتًا طويلًا من دون جدوى. كانت حربًا "عبثية" انتقلنا فيها من داعمين لـ"المسلمين" وفرولينا إلى محتلين، كما أنها أنهكت اقتصادنا واستحوذت على تفكيرنا وجهدنا.

6 – كانت هذه أول حرب تخوضها قواتنا. وكانت حرب عصابات تهزم فيها أقوى وأعرق الجيوش في العالم. لقد حققت قواتنا المسلحة بمعنوياتها

العالية خلال السنوات الأولى من التدخل (1972 - نهاية التسعينيات) انتصارات أبهرت العالم، بيد أن السنوات الأخيرة من التدخل شهدت تراجعًا في المعنويات وفي الإرادة القتالية.

7 - لقد أصبحت اللجان الثورية داخل القوات المسلحة مرتعًا للانتهازيين والفاشلين، وكل الضباط والجنود الفاسدين وغير المنضبطين، وارتفعت نسبة الهروب والغياب، وتداعت قواعد الضبط العسكري، وبلغ الأمر حدًّا مخيفًا من الاستهتار بالحياة العسكرية، حين صار بعض الجنود يستفزون الضباط، بل إن صغار الضباط صاروا يستفزون الضباط الكبار، ويهينونهم. وهكذا بدأت علامات ضعف الروح القتالية.

8 - لقد عمل الأخ معمّر بكل الوسائل على تمزيق الجيش وتدميره حتى لا يشكل خطرًا عليه، وكل هذا ساهم في خلق نوع من عدم الاكتراث في صفوف الجيش والشعب على حدّ سواء، بالتزامن مع انهيار الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والسياسية. ومع انهيار أسعار النفط (1983-1984) (حيث بلغ سعر برميل النفط 7 دولارات؛ بينما ظلت تكلفة الإنتاج تبلغ نحو 3 دولارات)، ازداد الوضع المعيشي للمواطنين سوءًا. وهكذا، لم يتمكن اقتصادنا من "إدامة الحرب"، وبدأت قواتنا المسلحة تعوض عن "إرادة القتال" بإرسال المزيد من الأسلحة والمعدات المتطورة والثقيلة، لمواجهة حرب عصابات تخوضها جماعات صغيرة كانت تتمتع بإرادة قتالية وخبرة وتعرف تضاريس المعركة وجغرافيتها، ولديها فوق ذلك خبرة جيدة في القتال (خصوصًا تجربتها في مقاومة الاستعمار الفرنسي).

في هذا الوقت، كنت مضطرًّا إلى السفر في مهمة قومية لمعالجة "حرب المخيمات" الفلسطينية في لبنان - وهذا ما أفردت له فصلًا خاصًا سابقًا في مذكراتي هذه - فطلب مني الأخ معمّر أن أعود بأقصى سرعة ممكنة؛ نظرًا إلى تدهور الأوضاع عسكريًا في تشاد، لكنني رفضت العودة حتى إنهاء المواجهة بين سورية من جهة والثورة الفلسطينية والحركة الوطنية اللبنانية من جهة أخرى، وإنهاء "الحصار المضروب على المخيمات الفلسطينية في لبنان". بعد عودتي

سارعت إلى متابعة الأوضاع العسكرية في تشاد. بدأنا بحشد قواتنا في وادي الدوم. كان حجم القوات مبالغًا فيه كمًّا ونوعًا. قام العقيد خليفة حفتر بتوزيع قوات الهجوم على قرية فادا في ثلاث مجموعات قتالية، ولكنه ظل غير راضٍ عن مهمته، وبدا عليه عدم الاكتراث، حتى إنّ مقر قيادته كان بعيدًا عن قواته، وترك الأمر لضباطه، كما أنه رفض التعاون مع القوات التي كانت تدافع عن وادي الدوم. قُبَيل الهجوم، طلبت من العقيد عبد الكبير الشريف - وكان رئيس غرفة العمليات في القيادة العامة للقوات المسلحة - الذهاب إلى تشاد ومناقشة خطة الهجوم مع العقيد حفتر، للتأكد من الجاهزية القتالية لهذه القوات. وقبيل وصوله إلى وادي الدوم، أرسل حفتر دورية قتالية مؤلفة من 36 جنديًا إلى مشارف قرية فادا من أجل الاستطلاع. وعند وصول الدورية، تعرضت لهجوم مباغت من قوات هبري، فدفع حفتر إحدى المجموعات القتالية الثلاث لنجدة الدورية. ما إن علمتُ بهذه التطورات، حتى أرسلت له برقية عاجلة قلت فيها: "إن هبري أراد من هذا الهجوم أن يجعل معركة فادا في وادي الناموس، وهو يريد أن يستدرجك إلى مكان المعركة وموعدها، والآن عليك أن تنسحب فورًا. أترك الدورية من أجل ألا تفرض عليك المعركة، وتضطرّ إلى أن تقدم قواتك لهبري مجموعة إثر أخرى مجانًا".

الأمر المثير أن العقيد عبدالكبير الشريف، لما وصل إلى وادي الدوم للاجتماع بالعقيد حفتر، كان القتال يدور في وادي الناموس، ولكنه لم يخبر الشريف بما يدور من معارك في الوادي، بل على العكس من ذلك أخذ يطمئنه بخصوص استعداد القوات للهجوم. في الواقع، لم يكترث العقيد حفتر لكل التحذيرات التي وردت في البرقية التي أرسلتها إليه، ووقع في الفخ الذي نصبه له هبري، كما توقعت، فقد قدّم حفتر قواته "هدية بالتقسيط" لهبري، وهكذا هُزمت قواتنا في معركة وادي الناموس. في هذه الأثناء، أرسل هبري برقية إلى قواته جاء فيها: "نفذوا الخطة 2". التقطنا إشارة البرقية عبر اللاسلكي، وعرفت شخصيًا أن هذه الخطة تعني الهجوم على وادي الدوم، مستغلًا وضع قواتنا التي فقدت السيطرة على الميدان، فأرسلت برقية إلى حفتر، قلت فيها: "الخطة 2 تعني الهجوم على وادي الدوم، إسحب القوات والتحق بقوات وادي الدوم،

وعليكم أن تنظموا صفوفكم للدفاع عن وادي الدوم". كانت قاعدة وادي الدوم محصنة تحصينًا جيدًا، وتوجد فيها قوات كبيرة تمتلك أسلحة هائلة، إضافة إلى الطائرات العمودية والمقاتلة. قال لي قادة الأركان في قوات حفتر الذين انسحبوا بعد معركة وادي الدوم إن حفتر لا يكترث بالبرقيات والأوامر التي تصدر له من قيادة العمليات، بل إنه لم يكن يقرأها، ويبدي حيالها تجاهلًا متعمدًا. في ظل هذا الوضع، تمكنت قوات هبري من اقتحام قاعدة وادي الدوم من دون أي مقاومة تقريبًا وسيطرت عليها. ثم سلّم حفتر ومعه سبعون ضابطًا وجنديًا أنفسهم إلى قوات هبري، وفي هذا الوقت، نجحت طائراتنا في العودة إلى قاعدة السارة جنوب شرق ليبيا قرب الكفرة. وانسحبت بقية القوات انسحابًا غير منظّم. كان الأخ معمّر قد نقل القيادة العامة للقوات المسلحة إلى منطقة الجفرة، وكذلك جرى نقل "أمانة مؤتمر الشعب العام" و"اللجنة الشعبية العامة" إليها أيضًا.

حين ذهبت إلى الجفرة لإدارة العمليات، وجدت أن الجميع هناك كانوا في حالة معنوية سيئة. كان جاد الله عزوز الطلحي هو أمين اللجنة الشعبية. ويعتبر الطلحي في ليبيا نموذجًا في العمل والحرص. ولما دخلت عليه حوالى الساعة الحادية عشرة صباحًا، لاحظت أنّ كل أعضاء اللجنة الشعبية محشورون في شقة شعبية صغيرة لا تتوافر فيها أي وسائل للعمل العلمي الجاد. وممّا ضاعف من درجة ذهولي، أنني حين دخلت مقرّ اللجنة الشعبية، وجدت الأخ جاد الله الطلحي يلعب الورق (الكارطة) مع أمين مؤتمر الشعب العام مفتاح الأسطى عمر، وكان هذا بالنسبة إلي دليلًا قاطعًا على المستوى المريع الذي بلغه تدهور الأحوال المعنوية والسياسية والعسكرية في البلاد؛ فها هنا أعضاء أمانة مؤتمر الشعب العام، واللجنة الشعبية العامة، وقد تُركوا في مكان صحراوي شبه مهجور ومعزول كليًّا عن العالم، لا تتوافر فيه أي ظروف لأي عمل حقيقي.

ثم زرت مقر القيادة العامة، فوجدت الجميع هناك، تقريبًا، حيث كل شخص قد اعتبر نفسه "معاقبًا" من جرّاء وضعه في هذا المكان المعزول، ووجدت أنهم غير مقتنعين بنقلهم؛ لأن كل المؤسسات والأجهزة التي يديرونها

موجودة في طرابلس، بينما هم في الجفرة. كانوا جميعًا في وضع مُزر وبائس ويشعرون بالإهانة. وعلى الفور اتصلت بالأخ معمّر وطالبته بضرورة عودة الجميع إلى طرابلس؛ لأن القيادات معزولة وبعيدة عن مراكز عملها الحقيقية، ومن المستحيل تسيير الأعمال بواسطة الهاتف.

وجدت الأخ معمّر، على الهاتف، مُترددًا في قبول رأيي، ولكنني تشبثت به فوافق على مضض، فأصدرت أمرًا إلى أمانة مؤتمر الشعب العام، واللجنة الشعبية، ومكتب الاتصال، ورئاسات الأركان في القوات المسلحة، بالعودة فورًا إلى طرابلس.

بعد سقوط وادي الدوم، أصدر الأخ معمّر أمرًا، للعقيد أبو بكر يونس والعقيد عبد الكبير الشريف، والعقيد أحمد محمود، بأن يصدروا أمرًا لقواتنا المتمركز في فايا - التي تضمّ 7 آلاف جندي وضابط بقيادة العقيد محمد العيساوي - بالهجوم على وادي الدوم. لكن معنويات هذه القوات لم تكن تسمح لها بالهجوم، على الرغم من أنها تمتلك أسلحة كافية كمًّا ونوعًا، ولو أنها شنّت الهجوم، فإنها سوف تضطرّ إلى الاستسلام، وإذا ما بقيت في فايا فسوف تواجه هجومًا متوقعًا من قوات هبري، وسوف تقع في الأسر. ولذا، اتخذت قرارًا بسحب هذه القوات من جهة الغرب، في اتجاه أزوار عبر أوقي، وألغيت القرار الذي أصدره الأخ معمّر، ثم وقّعت برقية أرسلتها إلى العقيد محمد العيساوي، وتحدثت معه على جهاز اللاسلكي، وأبلغته بضرورة الانسحاب من فايا، كما أرسلت له خطة الانسحاب المنظم، وأمرته بأن يدمّر كل الأسلحة والذخائر التي لا يستطيع سحبها. وبالفعل، انسحبت القوات بشكل منظم، ثم أصدرت لها الأمر بأن تتمركز، مع قوات المقدم مبروك سحبان، في منطقة أزوار. وأرسلت العقيد يوسف أبو حجر ليشرف بنفسه على تموضع هذه القوات.

لمّا أصدرت هذا الأمر المخالف لأمر القذافي، لم يطق أبو بكر يونس والخروبي وأحمد محمود والشريف، وزر هذا القرار وخرجوا من المكتب قائلين إنهم لا يستطيعون تحمّل تبعات هذا القرار. كانت هذه القوات في

وضع نفسي ومعنوي سيئ؛ فقد رفضت التمركز في أزوار وواصلت سيرها نحو الحدود الليبية. ومع هذا، كانت إرادة الله معنا ومع هذه القوات، إذ تحركت قوات هبري من وادي الدوم إلى فايا لمهاجمة قواتنا لأسرها ومنعها من الانسحاب. في هذه اللحظات العصيبة، هبّت عاصفة رملية كبيرة أعاقت تحرك قوات هبري، فانسحبت قواتنا بسلام. لا شك في أن قراري كان صائبًا كما برهنت كل الأحداث والوقائع؛ إذْ لو تمكنت قوات هبري من أسر قواتنا التي تبلغ نحو 7 آلاف جندي وضابط مع أسلحة هائلة، لسبب لنا ذلك أزمة خطيرة في الداخل لم تكن لتحتمل عواقبها الثورة أو البلد، وربما ستشكل بداية معارضة شعبية للثورة. وهذا ما عبّرت عنه وكالة الأنباء الفرنسية بدقة حين قالت: "إن ليبيا قامت بأكبر عملية تملص استراتيجي"، وهو وصف علمي. ثم اتخذنا قرارًا في القيادة بسحب كل قواتنا من جبال تيبستي وإعادة تنظيم الدفاع عن قرية أوزو. لكن تدهور الحالة المعنوية للقوات المسلحة تزامن مع سوء الأحوال المعيشية وتعاظم السخط الشعبي. وممّا فاقم من واقع المصاعب العسكرية التي واجهتنا أنّ القمع والقهر كانا يشتدّان ضد الشعب في هذا الوقت الحرج.

وهكذا، تمكنت قوات هبري بسهولة من احتلال أوزو من دون مقاومة تقريبًا، وباتت القاعدة العسكرية في أوزو مهدّدة بالسقوط. كان الشعب مهزومًا في الداخل والجيش يتراجع في المعارك. ولكن من أجل ألّا تتكرر هذه الهزيمة كما حدث في وادي الدوم ووادي الناموس، عرضت على الأخ معمّر أن أذهب بنفسي إلى وادي الدوم لقيادة الدفاع عنه، أو على الأقل تنظيم الانسحاب المنظم لقواتنا منه، فرفض الأخ معمّر قائلًا لي: "هؤلاء خونة، وهناك مؤامرة، وقد تقع في الأسر لو أنك ذهبت إلى هناك. أنت بالنسبة إلي وإلى البلاد أهم من وادي الدوم ومن فيه".

وهكذا، سقطت قرية أوزو بسهولة. في هذه الأثناء، قرّرت أن أجعل الأخ معمّر أمام الأمر الواقع، فتوجهت إلى المطار وسافرت جوًّا إلى أوزو ومن المطار تحدثت مع الأخ معمّر، وأخبرته أنني أتوجه إلى أوزو. كان الأخ معمّر

غاضبًا ومُنزعجًا من قراري، وكانت القيادة العسكرية والأخ معمّر يعتقدان أن هبري سوف يتمكن من الاستيلاء على الكفرة وربما سبها، وهذا هو بالفعل ما دفعني إلى اتخاذ القرار بالسفر إلى أوزو وقيادة الدفاع وتنظيمه ووضع الخطط العسكرية لاستعادتها. وحين وصلت إلى أوزو، أرسل الأخ معمّر إليّ مجموعة من 70 شخصًا بقيادة محمد المجذوب، لحراستي. كنت قد اخترت العقيد عبد العاطي محمد والعقيد عبد السلام سحبان لقيادة الهجوم واستعادة أوزو. ولأن هذه القوات كانت في وضع معنوي سيئ كما هي حال الشعب الليبي في هذا الوقت، فإنها أخفقت في جميع هجماتها.

كانت آخر محاولة هجومية لاسترداد قرية أوزو هي التي قادها العقيد محمد عبد العاطي قائد المحور الرئيس، والعقيد عبد السلام سحبان قائد المحور الثانوي، ومعهما العقيد أحمد المقصبي قائد منطقة أوزو؛ فما إن وصلت القوات المهاجمة إلى منطقة التماس، حتى توقف الهجوم. كادت قواتنا أن تنجح في اختراق دفاعات العدو، لكنها فجأة توقفت. لم يكن هناك أي سبب لتوقف الهجوم سوى التراخي وانهيار المعنويات في صفوف الضباط والجنود الذين كانوا يشعرون بأن الحرب عبثية. ولذا، اضطرّ العقيد عبد السلام سحبان وبشجاعة، مخالفًا كل قواعد الضبط العسكري، إلى التقدم بنفسه، مخترقًا دفاعات العدو، وهو يصرخ عبر جهاز اللاسلكي "تقدموا، تقدموا، تقدموا ..."، طالبًا من قواتنا مواصلة الهجوم والتقدم. بيد أن القوات لم تتقدم ووجد نفسه معزولًا ووقع في الأسر، بينما كانت قوات العقيد أحمد المقصبي تتردد في مواصلة التقدم حتى إنه صار يضرب رأسه في الحائط غضبًا. سأعود إلى الوراء قليلًا لأروي تفصيلات هذا الحدث الخطير.

خلال هذه الأحداث، اتصل بي العقيد الريفي قائلًا: "القوات انهارت تمامًا. هناك خطر حقيقي على سلامة القاعدة"، ولذا، قررت أن أذهب بنفسي لأمحو هذا العار. لمّا وصلت، وجدت أن كل شيء قد انتهى، وأن القوات في حالة انهيار كامل، وهكذا وجدتني منهمكًا في "إعادة بناء وتنظيم القوات"، فتوليت بنفسي مهمة تحرير أوزو. كان من المفروض أن أرسل البرقيات

إلى قواتنا في محاور القتال، باسم رمزي هو "صقر كبير"، لكنني تجاوزت هذا التقليد العسكري وقمت بتوقيع البرقيات السرية باسمي الصريح: الرائد عبد السلام جلود، وكان هذا، بالنسبة إلي أكبر تحدٍّ للعدو. لمّا رصدت أجهزة رصد اللاسلكي هذه البرقيات، أذاعت إذاعة إنجامينا خبرًا يقول إن "شخصية مهمة في طريقها الآن إلى جبهة أوزو". التقط جهاز الدعم اللاسلكي في طرابلس هذه البرقية وقدّمها للأخ معمّر الذي طلب منهم أن يرسلوا إلي نصّ البرقية لتحذيري؛ فـ"الشخصية المهمة" قد تكون هبري شخصيًا. لما استلمت البرقية ضحكت، وقلت: "لا يمكن لهبري أن يغامر في مثل هذا الظرف. قد تكون هذه الشخصية المهمة هي وزير دفاعه أو محافظ إنجامينا أو وزير الداخلية". وبالفعل، عرفت أن محافظ إنجامينا هو الذي وصل إلى جبال تيبستي. وخلال الإعداد لاستعادة أوزو، كنت أزور الوحدات في موقعها في النهار للقيام بالتعبئة، وبعد كل لقاء ومحاضرة كنت أطالب الضباط والجنود بأن يقسموا على المصحف الكريم بأن يقاتلوا حتى تحرير كل منطقة أوزو، وألّا يخافوا العدو، بينما كنت أقوم بالتحضير للهجوم ليلًا.

في هذا الوقت، فوجئت بوصول الأخ أحمد جبريل الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة، ومعه الأخ أبو موسى قائد حركة فتح - الانتفاضة، ومعهم بعض الإخوة الفلسطينيين رفقة المقدم عبد الله الحجازي. وقد جاءت مجموعة فلسطينية للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين - القيادة العامة في منطقة بير الأربعين شمال قرية أوزو بنحو 40 كيلومترًا. لقد جاؤوا للاطلاع على حقيقة الأوضاع في أوزو، فخصّصت لهم طائرة لاستطلاع أوزو من الجو، وتمكنوا بذلك من مشاهدة ميدان القتال ومسرح العمليات، وهو منطقة وعرة وصعبة جدًّا، حيث الجبال الشاهقة شديدة الانحدار، وهي أصعب مسرح عمليات عسكرية في العالم. وحين عاد الإخوة الفلسطينيون من هذه الجولة، قالوا لي: "هذه المنطقة يمكن أن تكون فخًّا، وصخرة قد يتحطم عليها أي هجوم، وذلك ما يقود إلى خسارة قوات هائلة، فالجبال الشاهقة تحيط بالقرية ولا يوجد إلا ممر واحد عرضه ما بين 200 و300 متر، ومن ثمّ، فأيّ قوات تسيطر على هذا الممر يمكنها أن تدمر

أي قوة مهاجمة بسهولة. إذا حدث هذا - لا سمح الله - فقد تكون له عواقب داخلية وخيمة". وطالبوني بالتخلي عن فكرة الهجوم. ونظرًا إلى انشغالي التّام بالتعبئة والتخطيط للهجوم، طلبت منهم العودة إلى طرابلس، وأن يكتبوا رأيهم هذا في تقرير. وقبيل موعد الهجوم بقليل، قمت بتلقين القوات عناصر هذه الخطة التي وضعتها، على أن يقود العقيد عبد العاطي محمد بنفسه الهجوم، وأن يعاونه في القيادة المقدم عبد السلام سحبان. لكن العقيد عبد العاطي اعترض قائلًا: "أنا وعبد السلام شخصيتان عنيدتان وقيادتان لا ننصاع لأوامر بعضنا، نحن صديقان حميمان، لذا أرجوك يا رائد عبد السلام أن تختار بيننا، إمّا أنا وإمّا هو؟"؛ فقرّرت أن يقود الهجوم العقيد عبد العاطي. كان الهجوم صعبًا بصورة لا توصف، لأن منطقة أوزو أشبه بحفرة عميقة بين جبال شاهقة وممر ضيق.

في الواقع، تمكن هبري من الاستيلاء عليها بقوات نخبة من المقاتلين عالية التدريب والتجهيز، ثم قامت قواتنا الجوية وسلاح المدفعية والصواريخ بقصف تمهيدي ومكثف على قوات هبري، وتقدمت قواتنا البرية تحت غطاء كثيف من القصف الجوي والمدفعي، وتمكنت من تدمير الممر الوحيد المؤدي إلى أوزو، وأبادت القوات المعادية داخله. حينما دخلت قواتنا الممر، شعر هبري بالهزيمة المحتومة، بعد تكبده خسائر فادحة نتيجة هذا الهجوم. أدرك هبري أن قواته أصيبت بالشلل التام. وهكذا، دخلت قواتنا أوزو من دون مقاومة تذكر، وتمكّنا من استردادها. في هذا الوقت، كانت وكالة **فرانس برس** الفرنسية تبث للعالم خبرًا يقول "إنه الانتصار غير المنتظر لليبيين".

سوف أعود إلى الوراء قليلًا مرة أخرى، لأروي بعض التفصيلات الضرورية:

حينما تدخّلنا في تشاد أول مرة عام 1972، دعمًا لفرولينا لتحرير تشاد، وتمكنت قواتنا من السيطرة على البلاد كلها، جُنّ جنون الحكومة الفرنسية، والسادات، والنميري، والحسن الثاني، وحتى صدام حسين في العراق، وبدأت وسائل الإعلام في هذه البلدان تطلق الأكاذيب بأن "ليبيا تريد ضمّ تشاد". قررت الذهاب إلى إنجامينا لزيارة قواتنا، ومنها ذهبت إلى نيجيريا

للقاء الرئيس شيهو شيجاري[7]، فوجدته غاضبًا ومعارضًا لوجودنا في تشاد، وطالبني بالانسحاب، فقلت له: "لسنا في حاجة إلى أراضٍ ونحن لم ندخل تشاد لضمّها أو احتلالها، بل دخلنا لنصرة المسلمين". فقال الرئيس النيجيري: "كان يمكنكم، أنتم العرب، أن تكونوا نموذجًا ومثلًا أعلى للمسلمين، لكنكم مثل سيئ". ثم تركني وخرج وطلب من مدير المراسم إدخال الصحافيين، وأدلى بتصريح قال فيه: "ليبيا لا تريد ضمّ تشاد أو احتلالها وأنا أؤيد ما قامت به". ثم نظر إليّ، وقال: "لا ترسلوا إلينا التريكي - وكان يقصد وزير الخارجية - إنه كذاب وعنصري".

وأتذكر، في هذا السياق، أن خليفة حفتر لمّا سلّم نفسه مع مجموعة من الضباط والجنود إلى قوات هبري، طلب الرئيس الأميركي ريغن من هبري تسليم خليفة ومجموعته للولايات المتحدة. وبالفعل، أرسلت واشنطن طائرة نقل عسكرية نقلتهم من إنجامينا إلى هناك، حيث انضم حفتر إلى ما يسمّى "المعارضة الليبية" التي كانت تحتضنها الولايات المتحدة.

(7) شيهو شيجاري: رئيس نيجيريا (1979-1983).

الفصل الثامن

"لوكربي" والمواجهة مع الولايات المتحدة

في 21 كانون الأول/ ديسمبر 1988، وفي غمرة الحشد العسكري الأطلسي في الخليج العربي، استعدادًا لتدمير العراق واحتلال الخليج، فوجئت في أثناء متابعتي محطة **سي إن إن** (*CNN*) الإخبارية، وهي تنقل خبر اتهام الولايات المتحدة الأميركية لليبيا بتفجير طائرة "بان أميركان"، وهو ما عُرف في ما بعد بـ"قضية لوكربي". في ضوء الحشد الأميركي - الأطلسي في الخليج ابتداءً من عام 1990-1991، وانهيار الاتحاد السوفياتي، وانفراد الولايات المتحدة بالعالم، سيطر الخوف على الجميع في ليبيا إلى درجة فقدان التوازن. لقد سيطر الرعب والخوف على الأخ معمّر وعلى الكثير من الضباط والقيادات، وحتى على الضباط الأحرار والقيادات العسكرية وضباط هيئة أمن الجماهيرية واللجنة الشعبية العامة، بل كل القيادات.

عُقد اجتماع لبعض الضباط الأحرار وضباط أجهزة الأمن والقيادات العسكرية وعناصر من حركة اللجان الثورية والقيادات الشعبية. وقدّم العقيد أحمد المقصبي[1] - الذي كان يشغل منصب قائد قوات الحرب الإلكترونية - تقريرًا عن خطة عسكرية أميركية للهجوم على ليبيا، كما قدّم الرائد أحمد قذّاف الدم[2] تقريرًا أمنيًّا مفاده أن واشنطن سوف تستخدم، خلال الهجوم

(1) أحمد فتح الله المقصبي: أحد الضباط الأحرار، وهو ممن تحركوا من حامية درنة في ليلة الفاتح من أيلول/ سبتمبر 1969، وقد تولى عدة مناصب، منها أمانة الأمانة اللجنة الشعبية لمدينة درنة، وفي وزارة الدفاع، حيث عمل في هيئة العمليات والتدريب والاستطلاع، وفي اللجنة العامة المؤقتة للدفاع وإدارة الأسلحة والذخيرة، إلى جانب مشاركته في حروب التحرير نصرة للشعوب الأفريقية. توفي عام 2010.

(2) أحمد قذاف الدم (1952-): ابن عم معمّر القذافي. ولد في مرسى مطروح، وقيل في البحيرة بمصر، لأب ليبي من القذاذفة وأم مصرية. أخواله يقطنون في محافظة البحيرة في مصر، وهم من قبائل أولاد علي الموجودة تاريخيًا في مناطق قرب الحدود الليبية - المصرية. وقد أدى دورًا محوريًا في تنسيق العلاقات الليبية - المصرية في عهد القذافي.

على ليبيا، غازات بعضها مسيل للدموع وأخرى تسبّب الإسهال. ترأست هذا الاجتماع ووجدت الجميع خائفين ومذعورين وفي حالة من الهستيريا. فاجأت الجميع بالقول: "هذه الخطة هي كلام فارغ"، ثم قلت: "الهدف من كل هذا هو إيقاع الهزيمة بنا، نفسيًا ومعنويًا من الداخل، إرهابنا وتخويفنا ووضعنا في حالة نفسية ومعنوية سيئة، لكي نصدّق أن هناك عملًا عسكريًا كاسحًا. الهدف من كل هذا هو أن نفقد ثقتنا بأنفسنا، وألّا يسمحوا لنا بأي فرصة، يمكن أن نستعيد فيها الثقة بأنفسنا، ثم نفقد توازننا ونقوم بتسليم المُشتبه فيهما". ثم قلت: "أميركا لا يمكن أن تقوم بعمل عسكري لاحتلال ليبيا وإسقاط النظام، ولن تنجح في فرض حظر دولي على النفط الليبي، ولن تفرض حصارًا بحريًا". الجميع كانوا ضدي، بل إن الكثير من القيادات أخذت تطالب بتسليم المشتبه فيهما[3].

ثم ذهبت للقاء الأخ معمّر، فوجدته في حالة معنوية ونفسية سيئة. كان يعتقد أنّ كل شيء انتهى والمسألة مسألة وقت. كان يرتعد خوفًا وهلعًا، وبدا لي منهارًا انهيارًا تامًّا، فقلت له: "أميركا لن تقوم بأيّ عمل عسكري لاحتلال ليبيا وإسقاط النظام، كما أنها لن تفرض علينا حصارًا بحريًا، بل لن تنجح في فرض حظر دولي على النفط الليبي". فقال لي: "هؤلاء الجبناء أثاروا الخوف في قلبي، حرقوا أعصابي. ركبوا ليا الضغط"، فقلت له: "المنطقة العربية لا تحتمل عراقًا آخر، كما أن أوروبا لا يمكن أن توافق على حظر النفط الليبي، على الأقل قبل أن يعود نفط العراق إلى السوق. إنّ حظرًا نفطيًّا يعني على الأقل زيادة في أسعار النفط في حدود 10 دولارات، فضلًا عن أن للنفط الليبي ميزة فريدة هي نوعيته، وبعض المصافي في أوروبا مصمّمة على أساس مواصفات النفط الليبي".

(3) اتهمت الولايات المتحدة اثنين من مسؤولي الحكومة الليبية، وطالبت طرابلس بتسليمهما للمحاكمة خارج ليبيا، والمسؤولان هما: الأمين خليفة فحيمة، وهو موظف سابق في الخطوط الجوية الليبية، من مواليد عام 1956، وعبد الباسط علي محمد المقرحي (1952-2012)، وهو موظف سابق في الخطوط الجوية الليبية، وقد اتهمه الادعاء الاسكتلندي بأنه كان يعمل في المخابرات الليبية. رفض العقيد القذافي بشدة تسليم المشتبه فيهما، واتهم الولايات المتحدة وبريطانيا بالتواطؤ من أجل تقويض "الثورة الليبية العالمية" وتحجيم دور بلاده العالمي في تحرير الشعوب والقضاء على الرأسمالية.

اعتبر الجميع في هذا الوقت أنني متفائل أكثر من اللازم، وظل الخوف والهلع يسيطران عليهم. لقد كنت واثقًا من تحليلاتي. معظم الضباط الأحرار والقيادات العسكرية والمدنية والأجهزة الأمنية، وعلى رأسهم الأخ معمّر، اعتبروا أنّ كل شيء انتهى، وأنّ المسألة مسألة وقت فقط. ولما صدر أول قرار من مجلس الأمن رقم 731[4] بخصوص "لوكربي"، في 21 كانون الثاني/ يناير 1992 بخصوص اتهام ليبيا بتفجير الطائرة، قال الجميع: "المسلسل نفسه سيجري في ليبيا كما جرى في العراق"، وكنت أردّ: "لا أبدًا، لا بد لنا من أن نثق بأنفسنا ونناضل ونتحرك سياسيًا وإعلاميًا. لا ينبغي أبدًا أن نستسلم ونقول إن كل شيء انتهى، والمسألة مسألة وقت؛ لأن هذا يعني التسليم بالأمر الواقع بحيث تشل حركتنا. هذا هو الخطر الحقيقي". بعد تقديم الولايات المتحدة لمشروع القرار، تقرّر أن أقوم بزيارة كل من الصين والهند وباكستان وإيران بعد صدور قرار مجلس الأمن رقم 731 بأسابيع قليلة. قبيل الزيارة بقليل، قدّم الأخ معمّر إلى الأمم المتحدة مذكرة تتعلق بموضوع مواجهة الإرهاب في العالم ومعالجة أسبابه، وتضمنت المذكرة فقرة حول كشمير. كنت رتبت زيارتي لهذه البلدان على عجل، فبدأتها بالصين. لما وصلت إلى بكين، كانت موافقة الهند على الزيارة قد تأخرت،

---

(4) اتخذ قرار مجلس الأمن رقم 731 بالإجماع، في 21 كانون الثاني/ يناير 1992، بعد الإشارة إلى القرارين رقم 286 (1970) ورقم 635 (1989) اللذين دان فيهما الإرهاب، وقد أعرب المجلس عن قلقه إزاء نتائج التحقيقات في تدمير طائرة "بان أم" (الرحلة 103 فوق لوكربي، اسكتلندا)، وطائرة "يو تي إيه" الرحلة 772 (فوق تشاد والنيجر)، التي تورط فيها مسؤولون من حكومة ليبيا.

ودان المجلس حقيقة أن ليبيا لم تقبل المسؤولية عن هذه الأحداث، وحثها على تقديم رد كامل وفعال على طلبات إجراء التحقيقات المتعلقة بالطائرتين للمساهمة في القضاء على الإرهاب الدولي. كما شجع الدول الأعضاء على الضغط على الحكومة الليبية من أجل الاستجابة. والجدير بالذكر أن القرار رقم 731 لم يكن ملزمًا قانونيًا، وذلك لأنه صدر بموجب الفصل السادس من ميثاق الأمم المتحدة، ولم يشر إلى الفصل السابع، إلا أن ذلك سيتم إنفاذه في القرار رقم 748. ولاحقًا قرار مجلس الأمن التابع للأمم المتحدة رقم 1192، الذي اتُّخذ بالإجماع في 27 آب/ أغسطس 1998. وبعد أن أشار إلى القرارات رقم 731 (1992) ورقم 748 (1992) ورقم 883 (1993)، رحب المجلس بمبادرة لمحاكمة المشتبه فيهما أمام محكمة اسكتلندية في هولندا، وأحاط مجلس الأمن علمًا بتقرير الخبراء المستقلين والرسائل المقدمة من منظمة الوحدة الأفريقية، وجامعة الدول العربية، وحركة عدم الانحياز، ومنظمة المؤتمر الإسلامي، وطالب ليبيا، بموجب الفصل السابع من ميثاق الأمم المتحدة، بأن تمتثل لقرارات مجلس الأمن السابقة.

ولم أتلقّ الموافقة عليها؛ فاجتمعت بسفير الهند في الصين وأبلغني أن رئيس الوزراء الهندي غاضب جدًّا من وجود فقرة بخصوص كشمير في مذكرة ليبيا للأمم المتحدة.

كانت الهند عضوًا في مجلس الأمن، فاتفقت مع السفير الهندي على أننا سنقوم بسحب هذه الفقرة، وأننا سنقوم بإبلاغ مندوب الهند هناك بالأمر؛ وبمجرد أن يستلم مندوب الهند نص المذكرة المعدّل، ستقوم سفارة الهند بإبلاغي بالموافقة على الزيارة. وبالفعل، أرسلت إلى طرابلس طلب سحب فقرة كشمير من المذكرة، كما طلبت إبلاغ مندوب الهند بالأمم المتحدة بذلك، وتمّ الأمر على هذا النحو. وخلال إقامتي في الصين، جاءت موافقة الهند رسميًا على الزيارة، كما حصلت على موافقة الهند على معارضة القرار الأميركي. وهذا ما قاله الصينيون لي أيضًا. ولكن - للأسف - اكتفت الصين خلال التصويت بـ"الامتناع عن التصويت" ولم تعارضه. غادرت الصين إلى الهند، وكنت أعرف رئيس الوزراء بامولاپارثي فينكاتا ناراسيمها راو (Pamulaparthi Venkata Narasimha Rao) (1991-1996)، حينما كان وزيرًا للخارجية في حكومة أنديرا غاندي. ولمّا وصلت إلى الهند، كان مجلس الأمن قد اتخذ قراره الأول، وكانت الهند قد وافقت على القرار بعد أن أدخلت مجموعة عدم الانحياز في مجلس الأمن بقيادة الهند عددًا من التعديلات، نصّت على "أن يقوم الأمين العام بدور ما بين الدول الغربية وليبيا".

عند اجتماعي برئيس الوزراء الهندي، قال لي: "لقد وافقت الهند على القرار مقابل تعديل يؤكد على دور للأمين العام في حل الأزمة"، فرددت عليه بالقول: "هذا تعديل شكليّ، خاصة أن الأمين العام هو بطرس غالي"[5]. ثم قلت له: "إنه يؤدي دور المراسل"، فردّ عليّ ضاحكًا كأنه يوافقني الرأي "هذه نافذة" (This is a window)، ثم أضاف: "أعترف أن موافقتنا كانت خاطئة، لكنني أعدك أن الهند لن توافق على أي قرار آخر".

(5) بطرس بطرس غالي (1922-2016): دبلوماسي مصري، والأمين العام السادس للأمم المتحدة (1992-1996)، ثمّ كان أول أمين عام للمنظمة الدولية للفرنكوفونية (16 تشرين الثاني/ نوفمبر 1997 - 31 كانون الأول/ ديسمبر 2002).

ومن الهند توجهت إلى باكستان، واجتمعت برئيس الجمهورية ورئيسة الوزراء بينظير بوتو[6]، كما اجتمعت بزعيم حركة الإخوان المسلمين قاضي حسين أحمد[7] زعيم الجماعة الإسلامية في باكستان في تلك الفترة، وقلت له: "ليبيا تُعاقَب بسبب مواقفها الإسلامية باعتبارها ثورة إسلامية، وأدّت دورًا رائدًا في بعث الإسلام، والآن جاء دور المسلمين ليقفوا معها، وخاصة الحركات الإسلامية". ثم سألته عمّا إذا كان حزبه عضوًا في "القيادة الشعبية الإسلامية"، فقال: "لا"، ثم أردف: "أنتم تبحثون عن تنظيمات ليس لها أيّ فعالية، تبحثون عن المنافقين، والدكتور أحمد شريف أمين حركة الدعوة الإسلامية في ليبيا يبحث عن دمى"، ثم طالبته بـ"موقف مادي" يبدأ بإرسال مذكرات إلى مجلس الأمن والتظاهرات والمسيرات المؤيدة لليبيا، وتقديم المذكرات إلى سفارات الولايات المتحدة وبريطانيا، فضلًا عن ضرب المصالح الأميركية والغربية، فقال لي، وكان جادًّا وصادقًا: "أمّا المذكرات والمسيرات والتظاهرات فهذه يمكن القيام بها، أمّا أعمال العنف وضرب المصالح الغربية، فهذا يحتاج إلى اجتماع قيادة الجماعة والتشاور مع إخواننا في مصر والسودان وإيران". وترتيب أسماء هذه البلدان بهذه الطريقة له مغزاه، فمصر هي القيادة، وقد تنبّه الإخوان إلى دور مصر منذ نشأة الجماعة في الهند.

---

(6) بينظير بوتو (1953–2007): سياسية وابنة سياسي هو رئيس باكستان السابق ذو الفقار علي بوتو، الذي أطاح حكمَه الجنرال محمد ضياء الحق في تموز/ يوليو 1977. وقد شغلت بوتو منصب رئاسة وزراء باكستان مرتين؛ الأولى بعد وفاة ضياء الحق في حادث طائرة في آب/ أغسطس 1988، حيث شهدت باكستان إجراء انتخابات تشريعية، ونجحت بينظير بأغلبية ضئيلة، وشغلت منصب رئيس الوزراء في الأول من كانون الأول/ ديسمبر 1988. وشغلت المنصب للمرة الثانية في الفترة 1993–1996. وفي الحالتين أقالها رئيس الجمهورية من منصبها بعد اتهامها بالفساد. وفي الانتخابات التالية في شباط/ فبراير 1997، مُني حزب بوتو بخسارة فادحة أمام حزب الرابطة الإسلامية بزعامة نواز شريف.

(7) قاضي حسين أحمد (1938–2013): الزعيم السابق للجماعة الإسلامية في باكستان، أدى دورًا مهمًا في فترة الجهاد الأفغاني ضد الاحتلال السوفياتي (1989–1979)، وتميزت جماعته بالقدرة على حشد الرأي العام الباكستاني خاصة في فترة حكومة بينظير بوتو الثانية في تشرين الثاني/ نوفمبر 1996 والذي ساهم في إسقاطها.

ثم قمت بزيارة إيران، واجتمعت برئيس الجمهورية علي أكبر رفسنجاني، ثم بآية الله علي خامنئي مرشد الثورة. جمع خامنئي ممثليه في المحافظات الإيرانية وقال لي: "لقد جمعت لك يا أخي جلود ممثلين في المحافظات، لكي ينقلوا إلى الشعب الإيراني ما تطلبوه منّا". ثم قال لي: "رغم الصورة السوداوية، فإننا نؤمن بأن القرن الواحد والعشرين هو قرن الإسلام". وقال أيضًا: "يا أخي جلود، أميركا مثل كلب العقلة[8]، إذا هربت من أمامه ركض خلفك، وإذا وقفت وتصديت له فسوف يهرب"، ثم قال: "الشعب المسلم في إيران لن ينسى مواقف الشعب الليبي، وسوف نعلّمه للأجيال، جيلًا بعد جيل، وإيران سوف تقف معكم ماديًا وليس بالكلام". ثم قال: "لن يفرضوا عليكم الحظر النفطي، وإذا ما فعلوا، فإن إيران مستعدة لتصدير نصف مليون برميل يوميًا لصالح الشعب الليبي".

حاولت واشنطن إرهابنا ووضعنا تحت ضغط نفسي ومعنوي لترغمنا على تسليم المشتبه فيهما. ولا يريد الأميركيون أن يعطونا أيّ وقت، فقاموا بهجوم دعائي وسياسي من دون أن يسمحوا لنا بوقت للتفكير. طلبوا منّا أن نقوم بتدمير كل أسلحتنا الثقيلة ودباباتنا وصواريخنا، وأن نغلق - على حدّ زعمهم - معسكرات "الإرهاب"؛ أي معسكرات الثورة الفلسطينية، ومعسكرات تدريب حركات التحرر في أفريقيا، وأن نوافق على التفتيش المستمر. وكان القصد من ذلك إذلالنا و"شرشحتنا"، كما يقال بالعامية المصرية، مثلما حصل لصدام حسين، وضرب صدقيتنا وتجريدنا من قيمنا وكبريائنا في أعين جماهيرنا وجماهير الأمة العربية للقضاء علينا. ولكننا قاومنا كل هذا الضغوط وحدنا، ورفضنا رفضًا قاطعًا كل الشروط المذلة. هذه الشروط قدّمها وكيل وزارة الخارجية البلجيكية إلى سفيرنا في بلجيكا؛ إذ كانت بلجيكا ترعى المصالح الأميركية في ليبيا والعكس. قدّمنا اقتراحًا بأن يقوم أعضاء من البرلمان الأوروبي وأعضاء من مجلسي النواب والشيوخ الأميركي، إضافة إلى شخصيات من منظمات دولية لحقوق الإنسان

(8) العقلة: هي تخزين التمور والحبوب في عمق الرمال للحفاظ عليها، وتحرسها الكلاب.

والإعلاميين من سائر بلدان أوروبا، بزيارة "معسكرات التدريب" التي كانت تتدرب فيها فصائل الثورة الفلسطينية وحركات التحرير الأفريقية مرة واحدة فقط، فرفضوا. وكنت واثقًا أننا إذا ما قبلنا بهذه الشروط فسوف يفتشون "غرف نومنا".

حينما وزعت الولايات المتحدة مشروع القرار الثاني، الخاص بالعقوبات، اجتمعت بسفير الصين في طرابلس، وطلبت منه أن تنفذ الصين وعدها برفض أيّ قرار جديد، فقال لي: "موقف الصين متأثر بالموقف العربي وبمجموعة عدم الانحياز، وهي غير متماسكة والموقف العربي غير واضح". ثم اجتمعت بسفير الهند وطلبت منه رفض القرار، وكانت الهند هي منسق مجموعة عدم الانحياز، وطلبت أن تقوم الهند بتصليب دور دول عدم الانحياز، وطلبت منه أن ينقل إلى رئيس الوزراء تذكيري له بوعده، بألّا توافق الهند على قرار جديد، ونقلت له ملاحظة سفير الصين، فقال لي السفير الهندي، وكان سفيرًا نشطًا كعادة كل السفراء الهنود: "الصين وحدها قادرة على منع صدور قرار من الأمم المتحدة"، ثم قال لي: "إذا كنتم تعتقدون أنّ العرب معكم، فأنتم مخطئون، العرب يقولون لكم كلامًا ويقولون لنا ولأعضاء مجلس الأمن كلامًا مغايرًا. يقولون أمامكم إنهم معكم، ويقولون في الواقع إنكم إرهابيون، خلصونا منهم"، فسألت السفير: "مَن مِن العرب يقولون هذا؟"، فقال: "معظمهم"، ثم قال: "أرجوك، لا تحرجني"، ثم أضاف: "بمن فيهم جيرانكم"، ثم قال: "بمن فيهم مصر والمغرب". في هذا اللقاء كان موسى كوسا[9] قد حضر معي وتولى تسجيل محضر اللقاء.

وفي الوقت الذي كان فيه الموقف الرسمي لإدارة الصراع يبدو متماسكًا وفعالًا، كان هناك موقف "خلفي" استخباري يقوده معمّر، وقد سعيت بكل

(9) موسى كوسا (1949-): دبلوماسي وسياسي ليبي، ينتمي إلى عائلة متوسطة معروفة في طرابلس الغرب، حاز شهادة الماجستير في علم الاجتماع من جامعة ميشيغن الأميركية عام 1978. تقلد عدة مناصب سياسية، ففي عام 1979 شغل منصب رئيس دائرة أمن السفارات الليبية في شمال أوروبا. وعمل سفيرًا لليبيا في لندن 1980، ونائبًا لوزير الخارجية الليبي (1992-1994)، وترأس جهاز الأمن الخارجي (الاستخبارات الليبية) (1994-2009)، وأخيرًا شغل منصب وزير الخارجية (2009-2011).

الوسائل لإيقافه، ولكن بلا جدوى. أضعف هذا العمل الحركة الرسمية المُعلنة؛ إذ بدأت الولايات المتحدة تطلق بالونات اختبار لمعرفة كيف نفكر. كما تشكلت - للأسف الشديد - شبكات نصب واحتيال لابتزازنا، ونشطت حركة "المنافقين"؛ كلٌّ يريد تقديم خدمته، ونشط السماسرة في الداخل والخارج واستغلوا سطحية العناصر المحيطة بمعمّر، وهي عمومًا عناصر جبانة، مرتعشة وخائفة.

الجميع كانوا خائفين، ويقولون عني: "إنني متفائل أكثر من اللزوم". وبقدر ما كانت الحركة السياسية التي أقودها تعبّر عن فعالية متزايدة، وعن إدارة ناجحة باعتراف كثير من الدول، كانت "الحركة المخابراتية" التي كان الأخ معمّر يشرف عليها، وتنفذها العناصر المحيطة به، أساءت إلينا كثيرًا وأثرت على نحوٍ سلبي في جهودي وتحركاتي. كان أبطال هذه "الحركة" من المنافقين والانتهازيين والسماسرة وشبكات الاحتيال والنصب.

كان هناك كثيرون يعرضون خدماتهم، أو يزعمون أنهم يملكون مفاتيح "حل مشكلة لوكربي"، أو أن لديهم علاقات بدوائر صنع القرار في الغرب وواشنطن. وقد أثرى كثيرون من هذه الأزمة، وحصلوا على أموال، إمّا نظير "خدماتهم الوهمية"، وإمّا نظير "ادعاءاتهم" أنهم يريدون تقديم هذه الأموال كرشاوى لبعض المسؤولين الغربيين. لقد رفضت هذه الحركة المشبوهة التي يحركها عامل الخوف والهلع، ولكن - ويا للأسف - استغلت شبكات الاحتيال والنصب والسماسرة و"مدّعي الحل"، حالة الخوف هذه. طلبت من الأخ معمّر وقف هذا التحرك المشين الذي يكشف عن ضعفنا وفقداننا للتوازن، وأن كل هذا سوف يشجع الأميركيين على العمل ضدنا أكثر فأكثر، وكان معمّر في كل مرة يوافقني على ما أقول، لكنه لم يلتزم قط بما كان يقول.

ثم عقدت اجتماعًا للجنة المكلفة بالتعامل مع "أزمة لوكربي"، وهي تتألف من: أبو زيد دوردة، باعتباره أمينًا للجنة الشعبية، وجاد الله عزوز الطلحي وعبد المجيد القعود، وكامل المقهور، وعبد العاطي العبيدي، ومحمد الزوي، والعقيد يوسف الدبري، وموسى كوسا، وقلت لهم حرفيًّا: "لا بد من وقف

هذا الابتزاز وهذا العمل الأهوج الذي يسيء إلينا أكثر مما ينفعنا"، وأردفت: "نحن مستعدون لدفع الدم دفاعًا عن شرفنا وحريتنا، واقتصادنا يخسر من 1,5 مليار إلى ملياري دولار سنويًا؛ إذا كان هناك حلٌّ للمشكلة، ونحن مستعدون لدفع من مليارين إلى 3 مليارات دولار، ففي هذه الحالة يجب أن نذهب إلى الشعب الليبي ونأخذ موافقته، أمّا السذاجة والابتزاز وشبكات النصب والإثراء التي تكوّنت خصيصًا لهذه الأزمة، بعد أن اكتشف تجار الأزمات والسماسرة والانتهازيون أننا نعيش حالة هلع وخوف، فهذا يعني أننا نضيّع الوقت والمال، ويجب أن نوقف فورًا كل هذا الابتزاز والتحايل".

على الرغم من أن الحضور كانوا في أغلبيتهم يشكون من هذه التصرفات، فإنهم لم يكونوا، في الواقع، قادرين على قول أي كلمة سوى كلمة "حاضر". وكنموذج لهذا الابتزاز والتحايل والنصب يُذكَر أن مجموعة من السماسرة الليبيين والإنكليز اتصلت بالعقيد عبد الفتاح يونس، وقالت له: "إذا ما دعمت ليبيا الجنيه الإسترليني، وحوّلت من احتياطاتها مليار جنيه، فإن الحكومة البريطانية ستوافق على الحل". وللأسف، أمر الأخ معمّر بالتحويل، ولكنني سارعت إلى وقفه. وقبيل صدور القرار الثاني بفرض العقوبات في 27 آب/ أغسطس 1998، كان عمر المنتصر في جنيف يلتقي مع بعض هذه "الشبكات". ويبدو أن إحدى هذه الشبكات نصبت فخًّا لعمر المنتصر؛ حين ادعت أن الصين مستعدة لاستخدام حق النقض "الفيتو" ضد قرار فرض العقوبات إذا ما دفعت ليبيا 200 مليون دولار، وحوّلتها إلى رقم حساب في أحد المصارف السويسرية، ثم أعطت عمر المنتصر اسم المصرف ورقم الحساب.

اتصل عمر هاتفيًّا بإبراهيم البشاري، أمين اللجنة الشعبية للاتصال الخارجي، وعرض عليه الموضوع. اتصل إبراهيم بالهاتف ونقل لي الموضوع "السخيف" وطلب رأيي. كان عمر المنتصر لا يزال على الهاتف مع البشاري، فطلبت منه ألّا يرد عليه ويغلق الهاتف.

ومن هذه "السخافات" أن مجموعة أميركية زعمت أن لها علاقة بدوائر صنع القرار في واشنطن، وإذا ما دفعت ليبيا 1700 مليون دولار، فسوف تحل

أزمة "لوكربي". في هذا الوقت قام الأخ معمّر بإرسال محمد أبو القاسم الزوي لمقابلة هذه المجموعة في إسبانيا. المفارقة أن الذين رتبوا لهذا اللقاء هم ضباط في المخابرات الإسبانية. وبالفعل، اتفق محمد الزوي معهم، ولكنني اعترضت وأمرت بوقف العملية. قال لي محمد الزوي: "الأميركيون الذين قابلتهم في إسبانيا، قالوا لي: 'لا ضرورة لأن نعمل أي شيء ضدكم. أنتم تقومون بما نريده'".

وقامت أيضًا إحدى مجموعات النصب والاحتيال هذه بإقناع عمر المنتصر، وهذا بدوره أقنع الأخ معمّر، بأنّ لها صلات حقيقية مع الرئيس جورج بوش ومع وزير الخارجية الأميركي جيمس بيكر، وأنها قادرة على "حل المشكلة". بل إن هذه المجموعة زوّرت رسائل باسم بوش موجهة إلى الأخ معمّر، وأخرى باسم بيكر موجهة إلى عمر المنتصر. كان المنتصر يقدّم هذه الرسائل للأخ معمّر ويقرأها أمامه، وكان الأخ معمّر يصدق ذلك؛ بينما كنت أصرخ بأعلى صوتي: "هذه سذاجة إذا ما صدقنا هذه الرسائل". لقد كنت أرفض هذا النوع من العمل وأقلل من قيمته، ولكن الجميع كانوا يصدقون، أو كانوا مستعدين لمجاراة مَنْ يصدقونه. ومن أمثلة ذلك أنّ امرأة أردنية تدعى دعد ادعت أن ثمة علاقة كانت لها بالأخ معمّر، وأنها تعمل في التجارة والسمسرة، وأنّ لها علاقات بدوائر ذات نفوذ في الولايات المتحدة، وأنّ لها "تأثيرًا" في الرئيس بوش شخصيًا، بل في أعضاء بارزين في الكونغرس. ويبدو أنها تمكنت من إقناع الأخ معمّر، فأرسل معها أمين الخزانة محمد بخاري في رحلة إلى الولايات المتحدة لحل مشكلة "لوكربي"، فأحضرت صورًا مزوّرة لبعض الشخصيات في الكونغرس، وقالت له: "حينما كنّا مجتمعين مع أعضاء الكونغرس مرّ بجانبنا الرئيس بوش وحيّانا وهو يبتسم"، والأمر الغريب أن القذافي صدق هذه الكذبة.

وللأسف، حتى التاجر عدنان خاشقجي[10] دخل على الخط واستعان به الأخ معمّر، فحضر إلى ليبيا هو وابنته، فطلب منه الأخ معمّر أن يعمل على

---

(10) عدنان خاشقجي (1935-2017): ملياردير سعودي وتاجر سلاح مشهور بصفقاته ونشاطاته الغامضة. اشتهر بدوره في فضيحة إيران - كونترا.

إيجاد حل. وأعتقد أن خاشقجي هو الذي أشار على الأخ معمّر بأن حل مشكلة "لوكربي" يمرّ عبر طريق الصهاينة في فلسطين، وهو الذي أقنعه بضرورة الاتصال بـ"الكيان الصهيوني"، وأنهم سوف يطلبون من "اللوبي الصهيوني" في الولايات المتحدة الضغط على الحكومة الأميركية. لم أكن أعلم بذلك إلا في الفترة التي أعلنت فيها استقالتي. كان هذا الفخ هو الأخطر من بين ما نُصب من فخاخ، لأنه كان مُدمرًا وطنيًا وقوميًا. وهو ضربة في الصميم لشرعيتنا القومية ويقضي على موقفنا الرافض لأي علاقة مع الصهاينة، كما أنه كان يدمر فكرتنا عن أن "الصراع هو صراع وجود لا صراع حدود". لقد كانت هذه اللحظة هي لحظة الردّة، وقد حققت "لوكربي" هدفها، وهي إخضاعنا وتجريدنا من شرعيتنا. إنها الكارثة.

لقد تصديت لأهم هذه "المطبّات" والفخاخ، وغيرها كثيرٌ كثير، وكان الأخ معمّر يحرّض ويطلب من زبانيته ألَّا يعلموني بأي شيء وأن يخفوا عني كل شيء. وهكذا، أعلنت صراحة، عدة مرات، أنه إذا ما هاجمتنا الولايات المتحدة فسوف نسلّح الحركات الإسلامية والثورية والجهادية، وستكون المعركة شاملة وواسعة مع واشنطن. كانت الاتصالات مع مصر مكثفة، وكان يقوم بها أحمد قذاف الدم وإبراهيم البشاري ويوسف الدبري وإبراهيم بكار. وفي إحدى المرات كانت هذه المجموعة تجتمع بالرئيس محمد حسني مبارك، وكان غاضبًا من تصريحاتي حول "تسليح الحركات الإسلامية"، فقال مبارك للفريق الليبي: "اتصل بي الرئيس بوش الساعة الثانية والنصف صباحًا، أي بعد منتصف الليل، وقال لي: الرائد عبد السلام هذا الأحمق كيف يقول إنه سوف يسلح الجماعات الإسلامية في مواجهة أميركا، وقال: هل هناك في ليبيا رئيسان وسياستان؟".

ثم أضاف مبارك: "تصوّروا بوش زعلان لدرجة أنه يتصل بي الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل؟"، فقال له بكار: "سيادة الرئيس الساعة الثانية والنصف في مصر هي السابعة أو الثامنة مساء في أميركا". وكان هذا غباء ما بعده غباء. ثم اتصل الأخ معمّر، وقال له: "عبد السلام قال إذا ما هاجمتنا أميركا، أليس لنا حق الدفاع عن النفس؟".

في عام 1992، زارنا الرئيس حسني مبارك. كنّا في استقباله أنا والأخ معمّر وأبو بكر يونس. وعند وصولنا إلى قصر الضيافة، جلسنا جميعًا في الصالة. فجأة نهض مبارك وقال لنا حرفيًّا "المطلوب منكم أن تتغيّروا بالكامل"، ثم أردف: "ليس تغييرات شكليّة، لازم تتغيّروا وتقوموا بتغييرات حقيقية". ثم وجّه كلامه إلي، قائلًا: "أما أنت تمشي تروح. امش خذ لك سمّ أو انتحر، أو خذ لك قارب أو اغرق نفسك في البحر، حرقت أعصابنا وبتودي الأمة في داهية". لم يردّ الأخ معمّر على كلام مبارك، فنهضت وقلت: "لم يكن والدي رئيسًا أو ملكًا؛ إذا كان ذهابي في مصلحة الشعب الليبي، وفي مصلحة الثورة فأنا مستعد للذهاب. وإذا كان هذا طلب أميركا، فأميركا لم تعينني. أنا لست موظفًا في وكالة المخابرات الأميركية مثلك". إثر هذا النقاش الساخن، بدأت الصحف المصرية في شن حملة عنيفة ضدي، وأعتقد أن مبارك اتفق مع الأخ معمّر على إظهاري متطرفًا و"يساريًا" و"تقدميًا" ومعاديًا للولايات المتحدة.

وبالفعل أخذ مبارك يروج لهذه الصورة، وبذل جهدًا لإقناع الدول الأوروبية والولايات المتحدة، بل أدلى بتصريحات في ألمانيا وبريطانيا وفرنسا قال فيها: "إن عبد السلام جلود هو الإرهابي الخطير، وإذا لم تساعد الدول الأوروبية وأميركا العقيد القذافي، فإن البديل هو جلود".

لكن زعماء أوروبا قالوا له: جلود رجل حوار ولا يظهر لنا كعسكري، ولكن كرجل أكاديمي محاور ومتفهم. أعتقد أنّ هذه الحملة كانت بالاتفاق مع الأخ معمّر. وحينما كان الفريق الليبي يزور مصر، طلب من حسني مبارك وقف الحملة ضدي، وكان يحضر اللقاء وزير الإعلام ومدير المخابرات المصري، فالتفت حسني مبارك وقال لمدير المخابرات: "مش قلنا لكم أوقفوا الحملة ضده؟"، فقال له إبراهيم بكار: "يا سيادة الرئيس، صارت الحملة بناءً على أوامركم".

وأذكر أن مبارك في إحدى زياراته لليبيا، بينما كنّا نستقبله في المطار، وبعد أن تصافحنا ونحن في الطريق إلى استراحة المطار، التفت إلى الصحافيين المصريين، وكانوا كلهم تقريبًا رؤساء تحرير الصحف المصرية، وقال موجهًا كلامه إلي: "يا جلود. هؤلاء هم الذين يهاجمونك، إمّا تقنعهم وإمّا يقنعونك"،

فرددت عليه قائلًا: "سيادة الرئيس، هؤلاء مأمورون، ثم إنّ الذي تهاجمه مصر في هذا الزمان، هو وسام شرف، لو كانت مصر هي مصر عبد الناصر، ويُهاجَم شخصٌ أو نظامٌ، فمن الممكن أن يكون هذا مزعجًا"، فقال مخاطبًا الصحافيين: "شوفو، شوفو إمّا تزيدوه أوسمة أو توقفوا عنه الأوسمة".

كانت اللجنة السباعية التي شكلتها جامعة الدول العربية، في 24 آذار/ مارس 1995، تعمل ضدنا منذ البداية، باستثناء وزير خارجية سورية فاروق الشرع[11]. كانت تريد أن تحفظ "ماء وجهنا"، كما زعمت، بحيث لا نسلم المُشتبه فيهما مباشرة، وأنّ يتمّ التسليم عن طريق جامعة الدول العربية. بعد تشكيل هذه اللجنة بأيام، أبدت رغبتها في "زيارة ليبيا"، وفوجئت باتصالها بي هاتفيًّا طالبة ضمانات بنجاح مهمتها. وقيل لي على الهاتف: "إذا كان هناك رد إيجابي سوف نحضر إلى طرابلس، أمّا إذا لم يكن لديكم ردّ إيجابي فلن نقوم بالزيارة"، فقلت: "هل مهمتكم هي الضغط علينا وإقناعنا بتسليم المُشتبه فيهما أم الوقوف معنا ودعمنا؟". وحينما جاء وفد "اللجنة السباعية"[12]، اتضح جليًّا أنهم يرغبون في تشكيل غطاء من جامعة الدول العربية لتسليم المُشتبه فيهما، وقد حاولت، باستثناء سورية، الضغط علينا. وهكذا، كانت مهمة اللجنة هي "تسهيل عملية التسليم".

بيد أن اللجنة شهدت، مع مرور الوقت، تطورًا في موقفها نحو الأفضل، ومن ثمّ تخلت عن دورها الأول. في هذا الوقت، حين جرت عملية "ثعلب الصحراء"[13] عام 1998، وهي التي كانت مقدمة لتدمير العراق، ثم تفجّرت

(11) فاروق الشرع (1938-): سياسي سوري، يشغل منصب نائب رئيس الجمهورية العربية السورية منذ 11 شباط/ فبراير 2006، وكان قد شغل قبل ذلك منصب وزير الخارجية (1984-2006).

(12) اللجنة السباعية هي لجنة وزارية شكّلها مجلس جامعة الدول العربية عام 1993. مهمتها الاتصال بأطراف الأزمة الليبية المتعلقة بقضية "لوكربي"، وهي تضم كلًّا من مصر، وتونس، وليبيا، والجزائر، وسورية، وموريتانيا، والمغرب.

(13) عملية ثعلب الصحراء العسكرية: هي قصف جوي استمر أربعة أيام على الأهداف العراقية من 16 كانون الأول/ ديسمبر 1998 إلى 19 كانون الأول/ ديسمبر 1998، وقد نفذته قوات عسكرية أميركية. وكانت الذريعة لتلك العملية العسكرية هي عدم استجابة النظام العراقي لقرارات مجلس الأمن وتدخّله في عمل اللجنة الخاصة التابعة للأمم المتحدة.

أزمة "لوكربي"، دعت الولايات المتحدة إلى عقد مؤتمر باريس، لتوقيع **اتفاقية حظر الأسلحة الكيميائية**[14]. كنت ضد أن توقع ليبيا هذه المعاهدة، لكن تونس والجزائر والمغرب أقنعت الأخ معمّر بأن "توقّع دول المغرب العربي جماعيًا على المعاهدة" فوافق، ولم يكن لي علم بذلك. خلال اجتماع لجنة المتابعة بين ليبيا وتونس برئاستي ورئاسة رئيس الوزراء التونسي، وكان يشارك في الاجتماع الحبيب بن يحيى وزير خارجية تونس، طرح الوزير التونسي موضوع التنسيق قبل الذهاب إلى باريس لحضور المؤتمر، وقال: "اتفقنا مع الأخ معمّر على أن يكون التوقيع جماعيًا باسم دول اتحاد المغرب العربي"، فقلت له: "ليبيا لا يمكن أن توقّع على المعاهدة ما لم يوقّع العدو الصهيوني على معاهدة عدم انتشار الأسلحة النووية". ومع ذلك، علمت أن الأخ عمر المنتصر أمين الاتصال الخارجي كان في طريقه إلى مطار طرابلس للسفر إلى باريس لتوقيع المعاهدة، فسارعت إلى لقاء الأخ معمّر وأبلغته بعدم موافقتي واعتراضي، على الرغم من أنني في هذا الوقت كنت مستقيلًا، فقال لي: "إنْ لم نوقّع عليها سوف نُتَهم بأننا إرهابيون، وتستغل أميركا هذا الوضع ويزداد التآمر علينا"، فقلت له: "من الناحية الاستراتيجية، التوقيع خطأ تاريخي، ومن الناحية التكتيكية، فالتوقيع هو خطأ أيضًا؛ إذْ كيف نعطي أميركا كل شيء وهي لا تعطي أي شيء، ونجرّد أنفسنا من كل الأوراق. ثم إنّ مصر وسورية ترفضان التوقيع؛ فهل تصبح مصر بلدًا إرهابيًا إن لم توقّع؟". وتحت إلحاحي، طلبنا من عمر المنتصر العودة من مطار طرابلس.

في بداية أزمة "لوكربي"، اجتمعت بسفراء الدول الأعضاء في مجلس الأمن، وكانوا تسعة، وقلت لهم: "إن تدمير ليبيا ممكن، لكن إذلال ليبيا غير

(14) قدّم مؤتمر نزع السلاح تقريره للجمعية العامة للأمم المتحدة في 3 أيلول/ سبتمبر 1992، الذي تضمّن نصّ معاهدة حظر الأسلحة الكيميائية. ووافقت الجمعية العامة على المعاهدة في 30 تشرين الثاني/ نوفمبر 1992، ثمّ فتح الأمين العام للأمم المتحدة المعاهدة للتوقيع في باريس في 13 كانون الثاني/ يناير 1993. وبقيت المعاهدة مفتوحةً للتوقيع حتى تاريخ دخولها حيّز التنفيذ في 29 نيسان/ أبريل 1997. تشكّل المعاهدة نسخةً موسّعة من بروتوكول جنيف لعام 1925 بشأن الأسلحة الكيميائية، وتتضمّن إجراءات تحقيقية شاملة، كالتفتيش في الموقع، إلّا أنّها لا تغطّي الأسلحة البيولوجية.

ممكن، وإن مجلس الأمن أصبح فرعًا من فروع وزارة الخارجية الأميركية بعد سقوط الاتحاد السوفياتي"، فقال لي السفير الياباني: "أنا أشعر بالخجل من موقف حكومتي"، بينما قال سفير النمسا، وكان من المتعاطفين معنا، إنه "يشعر بالخجل أيضًا بسبب موقف حكومته"، ثم قال لي باللغة العربية مازحًا: "القرار في مجلس الأمن يستغرق بضع دقائق". وأذكر في هذا السياق أن الأخ معمّر أصدر في أواخر خريف 1990 أمرًا للعميد أبو بكر يونس رئيس الأركان وقادة الأركان، بنشر الدبابات والمدفعية والصواريخ في العراء، وكان ذلك يعني تعرضها للصدأ والتآكل بفعل عوامل التعرية (الأمطار والحرارة). في الواقع، لم تكن عندي معلومات دقيقة عن مبررات هذا القرار، ولكنني اعتقدت أنه ربما اتخذ هذا القرار بالاتفاق مع جهة ما لتدمير الأسلحة الثقيلة كلها بطريقة "ناعمة"، وكأنه يقول لهم "لا تحرجوني، أنا أدمرها بطريقتي".

الفصل التاسع

خلافي مع القذافي

قدمت استقالتي من منصبي عام 1981، وذلك رفضًا للممارسات القمعية التي كانت تقوم بها اللجان الثورية[1]. عارضت بشدة الممارسات السلطوية والقمعية، كما عارضت بقوة مطاردة الليبيين في الخارج، وطالبت بوقفها فورًا، وقلت: "هذا إنهاء للثورة. وعندما تنتهي الثورة أخلاقيًا فسوف تنتهي سياسيًا؛ إذْ لا يمكن لثورة أن تطارد أبناءها وتصفيهم في شوارع أوروبا". كان موقفي هذا صارمًا، حتى إنني قررت الاستقالة من قيادة الثورة، والبقاء في منزلي، ما لم يوقف هذا العمل المشين. ثم قلت للأخ معمّر: "هذا ليس عملًا ثوريًا، بل هو إجرام يقوم به جنود مكلفون منك ومن جماعتك، ليبرهنوا لك أنهم قادرون على تنفيذ ما تطلبه منهم، حتى تكون لهم حظوة عندك".

بعد ستة أشهر، اتصل بي الأخ معمّر في منزلي، وطلب مني إجراء حوار، فوافقت. وحدث، حين كنت في طريقي لمقابلته في مقر اللجان الثورية، أن استوقفني شخص أسمر البشرة اسمه إمحمد الحضيري، وكان رئيسًا لتحرير صحيفة **الزحف الأخضر**[2]. بدا لي متورم الوجه والعينين وأثر اللكمات والضرب واضحة على وجهه. قال لي وهو يبكي: "منذ يومين اتصل بي أحمد رمضان وقال لي إن القائد يطلب منك أن تكتب مقالًا ضد الضابط عبد السلام الزادمة وإخوته، وأعطاني عناصر المقال التي وضعها الأخ معمّر، وفيه وصف لهم بأنهم 'فاسدون ومرتشون'. وحينما صدر عدد الجريدة وهو يحمل المقال، هاجمني عبد السلام الزادمة وإخوته في مقر الصحيفة، وانهالوا عليّ بالضرب

(1) حركة سياسية شبه مسلحة تنادي بإقامة سلطة الشعب استنادًا إلى أفكار النظرية العالمية الثالثة التي يقوم عليها **الكتاب الأخضر** للقذافي، بحيث يمارس الشعب السلطة من خلال المؤتمرات الشعبية الأساسية بصفتها أداة للتشريع، واللجان الشعبية بصفتها أداة للتنفيذ.

(2) صحيفة فكرية عقائدية أسبوعية تصدرها اللجان الثورية.

المبرح، وكانوا ملثمين، ولم أكن أعرفهم أو قد التقيت بهم من قبل". وعلى الفور طلبت إحضار الضابط عبد السلام الزادمة. كان موسى كوسا (الأمين المساعد لأمانة الخارجية في ما بعد) قربي، وهو يقول لي: "أخ جلود، القائد ينتظرك"، فقلت له: "لا يمكنني مواصلة طريقي للقاء به حتى يتمّ إحضار هذا الضابط". حينما حضر سألته: "هل أنت وإخوتك قمتم بضرب إمحمد الحضيري؟"، فقال لي: "نعم سيدي"، وعلى الفور صفعته على وجهه عدة مرات وأرسلته إلى السجن. ثم ذهبت للقاء الأخ معمّر، وما إن دخلت عليه حتى قال لي متهكمًا: "إذا بقيت في بيتك واستقلت، منْ سيكون معك؟ إلا علي فضيل (وهو يقصد مدير مكتبي) حتى قبيلتك معي"، فقلت له: "أنا لا أملك سوى ثوريتي وصدقيتي، وليس لي قبيلة. قبيلتي هي الثورة والعروبة والأمة، لكن يا أخ معمّر، خوفي أن يأتي يوم ولا يكون فيه أحد معك إلا أحمد إبراهيم"[3].

خلال هذا اللقاء، بقيت مصرًّا على موقفي بضرورة وقف "مطاردة الليبيين في الخارج" وتصفيتهم، فوافق وطلب مني أن نذهب معًا إلى خيمته في باب العزيزية[4]. وهناك وجدت المجموعة التي كانت مكلفة بمطاردة الليبيين في الخارج، وأتذكر من بينهم محمد المجذوب وسعيد راشد. فقال لهم الأخ معمّر: "يجب أن تتوقف على الفور أي عمليات مطاردة لليبيين في الخارج". شعرت بسعادة بالغة بهذا القرار، فقلت للأخ معمّر: "أنا منذ الغد سأعود للعمل.

---

(3) أحمد محمد إبراهيم منصور (1955-): من قبيلة القذاذفة ومن مدينة سرت، عمل معيدًا، وأستاذًا في الفلسفة بالجامعات الليبية. كما عمل في الصحافة، وترأس تحرير صحيفة **الزحف الأخضر**. شغل عددًا من الوظائف الرسمية في النظام الجماهيري وعدة أمانات (مكاتب) في اللجان الشعبية، وصولًا إلى توليه منصب الأمين المساعد لمؤتمر الشعب العام (2003-2008). في أواخر آب/ أغسطس 2011 - عند اندلاع الحرب في شوارع طرابلس - ذهب إلى منطقة أبو سليم. ولمّا أوشكت المنطقة أن تسقط في أيدي المجموعات المسلحة، خرج إلى مدينة سرت، والتحق بالقذافي حتى تم اعتقاله في 20 تشرين الأول/ أكتوبر 2011. صدر في حقه حكم بالإعدام عام 2013، ولا يزال مسجونًا في مصراتة.

(4) باب العزيزية: قاعدة تقع في الضواحي الجنوبية لطرابلس عاصمة ليبيا. كانت بمنزلة القاعدة الرئيسة للقذافي حتى استولت عليها قوات الثوار الليبيين في 23 آب/ أغسطس 2011 خلال معركة تحرير طرابلس. كان المجمع في الأساس قاعدة للجيش الإيطالي، قبل الحرب العالمية الثانية وفي أثنائها، ثمّ احتلت القوات البريطانية الثكنات في عام 1948. أعاد الملك إدريس السنوسي بناء المجمع.

يجب أن توجه إلى المعارضين نداء بالعودة إلى ليبيا، وتعطيهم الضمانات بأن لا يتعرضوا لأي مساءلة، والعفو عمّن هو محكوم، أما الذين لا يرغبون في العودة ولهم أعمال ووظائف في الخارج، فعلينا أن نبلغهم بأن المكاتب الشعبية في خدمتهم، وأنهم سوف يحصلون على الرعاية وأي تسهيلات أو خدمات يحتاجون إليها، ثم تصرف لهم جوازات سفر بحيث يتمّ تجديدها تلقائيًا".

منذ نهاية السبعينيات حتى نهاية الثمانينيات (1979-1989)، بدأت الحقيقة في ليبيا تتراجع لصالح التزييف، وبدأ التحوّل من "الصدق الثوري" والوضوح في الخطاب إلى "الدجل والنفاق"، والتحوّل من "الثورة" إلى "حكم الفرد والقبيلة وحكم الأجهزة". كان عمر المحيشي، عضو مجلس قيادة الثورة، مثقفًا ثوريًا، وكانت لديه ميول يسارية، وكان غير راضٍ عن هيمنة معمّر ومحاولة انفراده بالسلطة؛ ولذلك حاول القيام بانقلاب عام 1975 لإطاحة القذافي. كنت أعرف المحيشي منذ أن كنّا في التنظيم المدني، وأعرف طباعه الشخصية. كان من أسرة غنية ومثقفًا، لكنه كان يتصف بالتعالي وافتقاد القدرة على التواصل مع الآخرين. حينما بدأ بالتخطيط لمحاولة الانقلاب، تمكن من إقناع عضوين في مجلس قيادة الثورة، أحدهما عوض حمزة، وبعض ضباط الحرس الجمهوري وخاصة ضباط مصراتة، بالمشاركة في الخطة. كان معمّر محبًّا لمصراتة وأهلها منذ دراسته في مدرستها الثانوية، لأن الكثير منهم كان يعطف عليه ويساعده، حتى إنهم ساعدوه في الحصول على موافقة للدراسة في ثانوية مصراتة، وأن يقيم في القسم الداخلي، وفي ذلك الوقت كانت فرص السكن في القسم الداخلي صعبة. كان عمر المحيشي رافضًا لممارسات معمّر السلطوية وهيمنته وطغيانه وانحرافه عن مبادئ الثورة. لكن هذه المحاولة سرعان ما كُشفت قبل أن تبدأ، حين تمكنت عناصر القذافي من معرفتها والإبلاغ عنها. كانت محاولة الانقلاب من أخطر المؤامرات التي تعرضت لها الثورة، لأنها من قلب قيادة الثورة، ولمشاركة ضباط من الحرس الجمهوري فيها. فهذه القوة كانت مهمتها في الأصل حماية الثورة وحماية معمّر شخصيًا. كان معمّر، حتى لحظة تنفيذ هذه المؤامرة، ثوريًا يثق بالضباط الأحرار والضباط الذين التحقوا بالقوات المسلحة بعد الثورة. كان ضباط الحرس الجمهوري وقوات الردع من

مختلف المدن الليبية، وليس بينهم أي ضابط من قبيلته القذاذفة، وأذكر أن من بين المشاركين في محاولة الانقلاب ضابطًا شجاعًا من أهالي مصراتة يدعى أبو ليفة، وآخر يدعى محمد عبد الوهاب.

قُتل أبو ليفة في أثناء مطاردته بعد فشل محاولة الانقلاب، وهو يتجه نحو الحدود التونسية. قبل فرار المحيشي إلى تونس، جاء إلى مقر قيادة الثورة في باب العزيزية، وكان متوترًا، وأنا لا أعرف إذا ما كان سبب مجيئه قصد اغتيال بعض أعضاء القيادة وعلى رأسهم معمّر، أم أنه جاء للتأكد من أنّ الأمور كلها هادئة وطبيعية في القيادة، بما يسمح له بالفرار نحو الحدود التونسية، وأنا أرجح الفرضية الأخيرة. حينما وصل إلى مبنى القيادة، كنت في هذا الوقت في حي قرجي ألقي محاضرة عن الثورة في شقة شعبية تابعة لفرع الاتحاد الاشتراكي في الحيّ. صحيح أن هذه المحاولة الانقلابية فشلت، لكنها أسست لانقلاب معمّر على الثورة؛ ولذا قاد معمّر انقلابًا "ناعمًا" وماكرًا، ومخادعًا وشيطانيًا، استغرق تنفيذه حوالى تسع سنوات، عاد في نهايته ليصبح "شيخ قبيلة" بامتياز، وحاكمًا وطاغية مطلق الصلاحيات؛ فقد شن حملة شعواء على قيادة الثورة، وشكّك فيها وفي قدراتها، قصد ضرب صدقيتها في أعين الجماهير، كما عمل على "تفسيخ" حركة الضباط الأحرار، وكان يقول لي: "يا عبد السلام، الضباط الأحرار لا يفيدوننا الآن. إنهم سيتعاملون معنا على أساس أنهم شركاء في الثورة. نحن في حاجة إلى ضباط وناس جدد، يكون لنا عليهم جميل". فقلت له: "لا يمكن أن أوافق على هذا التفكير، الضباط الأحرار إخوة وشركاء لنا، ولا يجب أن يشعروا أننا تخلينا عنهم وأبعدناهم وتخلصنا منهم بعد نجاح الثورة ووصولنا إلى السلطة. يجب أن نبحث عن شركاء وأصحاب رأي جدد؛ لأن هؤلاء سيكونون معنا في السراء والضرّاء، أما الأتباع والانتهازيون فسوف يتوارون عن الأنظار ويتبخرون". لكنه، مثل أي طاغية، أخذ يبحث عن الانتهازيين وأنصاف الرجال.

في هذا الوقت، أمر إدارات التعليم بتزوير الشهادات الدراسية لأقاربه من أجل تمكينهم من دخول الكليات والمدارس العسكرية، وأقام تحالفًا قبليًا

بين قبيلته وقبيلة ورفلة[5]، وشرع في تفريغ الحرس الجمهوري وقوات الردع من الضباط الأحرار والضباط الوطنيين، وإحلال أقاربه محلهم. وعيّن أقاربه والأتباع والانتهازيين في مراكز حساسة في أجهزة الأمن والمخابرات. في نهاية عام 1985 وبداية العام التالي، أعلن عن نفسه "شيخ قبيلة"، حين بدأ يحكم ليبيا بهذه العقلية، متعطشًا وجائعًا ونهمًا للمال والسلطة؛ فبعد أن كان يعيش في دارة بسيطة ملاصقة لباب العزيزية - كانت سكنًا لرئيس الأركان في العهد الملكي - ويحاسب نفسه، ويحاسب أعضاء القيادة، على "النفقات الشخصية والعائلية"، أصبح يبني القصور والفيلات الفخمة؛ بدءًا من باب العزيزية، وفي أهم المدن، بل حتى في بعض الوديان، وصار ينفق الأموال بلا حساب على نفسه وعلى أولاده، وانتهى به الأمر أن يعلن عن نفسه "ملك ملوك أفريقيا"، يضع التاج على رأسه والقلائد في رقبته والخواتم في أصابع يديه. كان منظره محزنًا ومبكيًا وفي الآن نفسه مضحكًا. وأنا اليوم أعترف أنه استطاع خداعي، فقد ظننت أن إجراءاته تلك كانت بغرض تأمين الثورة إثر هذه المؤامرة الخطيرة.

منذ مطلع عام 1974، بدأ الأخ معمّر رحلة "الدجل" والظهور في مظهر الزاهد في السلطة، حين شرع في "مسلسل استقالات زائفة"، واحدة تلو الأخرى. وكان مع كل استقالة يطلب من الانتهازيين من حوله، وأجهزة القمع، أن يفرضوا على الجماهير الخروج لمطالبته بالعدول عن استقالته. لقد كانت تسيطر عليه فكرة مفادها أنه كلما أوغل في قمع الجماهير، وعندما تخرج هذه الجماهير إلى الشارع احتجاجًا على تصرفاته، فإنه سيقول لها: "أنا كنت غير راغب في السلطة ورافضًا لها وأنتم أجبرتموني على العودة. إقبلوني كما أنا".

كانت هناك مجموعة من المنافقين والأتباع وموظفي الأجهزة، تقود هذا التلاعب بالجماهير، وكان الغرض من إعلان الاستقالة الزائفة في كل مرة هو أن يقول الأخ معمّر للشعب الليبي: "إمّا أنا، وإمّا أعضاء مجلس قيادة الثورة".

---

(5) قبيلة ورفلة: هي إحدى القبائل الليبية الأمازيغية المستعربة، ويرجع أصلها إلى قبيلة هوارة. وتنتشر على نحوٍ رئيس من منطقة بني وليد غربًا حتى بنغازي شرقًا، وتوجد كذلك في سبها.

أذكر في إحدى استقالاته أنه كان قد سلّم الاستقالة إلى أبو زيد دوردة، وطلب منه أن يسلمها بنفسه إلى الإذاعة، فاجتمعت غالبية أعضاء مجلس قيادة الثورة وقبلت الاستقالة. اتصل بي الأخ معمّر وقال لي: "لقد ظهرتم على حقيقتكم بأنكم تتآمرون عليّ"، ثم أوعز إلى المحيطين به بسحب الاستقالة قبل أن تصل إلى الإذاعة.

لقد بدأ انحراف الثورة منذ لحظة "عسكرتها". في هذا الوقت، كانت الأوضاع المعيشية للشعب الليبي تزداد سوءًا، والناس يشعرون بالحسرة على أيام الرخاء والرفاهية التي شهدتها ليبيا من 1970 حتى بداية عام 1983. وفي هذا الوقت أيضًا، كانت حقبة حكم الرئيس الأميركي ريغن من أصعب الحقب والفترات التي مرّت بها ليبيا وثورة الفاتح، حيث اشتدّت المواجهة مع الولايات المتحدة، وكانت الحرب في تشاد تشتد ضراوة، بينما كانت المواجهة في الشمال مع القوات الأميركية - بسبب القانون الذي أصدرناه والذي تمّ بموجبه اعتبار خليج سرت جزءًا من اليابسة - فقد أصبحت أكثر فأكثر مواجهةً عسكرية، واتخذت واشنطن من هذا القانون ذريعة لتصعيد مواجهتها السياسية والدعائية والعسكرية والاقتصادية.

ابتداءً من عام 1983، تدهورت أسعار النفط حتى وصلت إلى 7 دولارات، بينما كانت تكلفة إنتاج البرميل الواحد 3 دولارات، فأصبح الأمر أكثر صعوبة، حتى إننا واجهنا أزمة اقتصادية كبيرة؛ لأن عائدات النفط تدهورت على نحوٍ حادّ، فعجزنا عن استيراد المواد الضرورية وقطع الغيار والقيام بأعمال الصيانة. وبدأت احتياطاتنا تنضب، ولم نكن بطبيعة الحال مستعدين لهذا الأمر. كان قرار خفض أسعار النفط قرارًا سياسيًا اتخذته الولايات المتحدة مع دول الخليج وخاصة السعودية، لإسقاط الأنظمة الثورية في ليبيا والجزائر وإيران وفنزويلا، وقد نُشرت في هذا النطاق تقارير عن المؤسسات المالية العالمية تتساءل فيها باستغراب "كيف استطاعت هذه الدول مواجهة الأزمات والخروج منها؟". وتؤكد هذه التقارير، صراحةً، أن الهدف من تخفيض الأسعار، بل انهيارها، كان هدفًا سياسيًا تآمريًا؛ وحمدًا لله، فقد تمكنا في ليبيا من مواجهة هذه الأوضاع

باتخاذ إجراءات صارمة وقاسية، مكنتنا من التغلب عليها. بيد أن اقتصادنا وبنيتنا التحتية تعرضا لضربات مؤلمة وموجعة، ومع ذلك أشادت المؤسسات المالية الدولية بهذه التدابير، ودعت بقية البلدان إلى أن تحذو حذو ليبيا، وأنا أعترف بأن الإجراءات والتدابير التي اتخذناها كانت قاسية، مع أنها كانت ضرورية، أدّت إلى ضرر بالغ في مستوى معيشة الشعب، وتسبّبت في تصاعد مشاعر التذمر، وذلك مع تزايد أعمال القمع التي كانت اللجان الثورية تمارسها، فضلًا عن تفشي حالات التسيّب وضعف الإدارة وعدم الالتزام بالقوانين. وكل ذلك كشف عن بداية انهيار الإدارة والهياكل العامة، وبدء "مرحلة التجربة والخطأ" التي آمن بها الأخ معمّر، وكنت أعارضها بشدّة، فضلًا عن تصاعد المواجهات العسكرية في الجنوب، والمواجهات السياسية والاقتصادية والعسكرية في الشمال. وأدّى كل ذلك، منذ نهاية عام 1981، إلى "ظهور عبادة الفرد" التي تمّ الترويج لها على نحوٍ صارخ وسافر ومن دون أي لبس؛ فقد بدأت مرحلة "حكم الفرد والقبيلة" والاعتماد على الأقارب والأتباع من الانتهازيين والمنافقين والدجالين، وتمّ التنكر للقيادة الثورية ولسلطة الشعب.

تبدت "سلطة الشعب" كما لو أنها كانت عملًا تكتيكيًا للتخلص من قيادة الثورة ولإخفاء مشروع حكم الفرد والقبيلة وحكم الأجهزة القمعية، ولسحب البساط من تحت أي إمكانية لظهور معارضة، ومن يعارض معمّر سيقال له أنت تعارض "سلطة الشعب"؛ أي إنّ التهمة جاهزة! لقد شكلت سلطة الشعب حاجزًا نفسيًا في وجه أي معارضة جادة وصادقة، وكل هذا أدّى إلى ابتعاد الجماهير الشعبية عن الثورة. ثم بدأت مظاهر التململ والتذمر، بل حتى مشاعر السخط على الثورة. ومن هنا بدأت رحلة القطيعة شبه الكاملة بين الثورة وجماهيرها، وأخذت الثورة تخسر صدقيتها وشرعيتها وتفقد بريقها. لقد سحبت الجماهير فعليًا ثقتها بالثورة، بعد أن منحتها كاملةً يوم الفاتح من أيلول/ سبتمبر.

كانت الإدارة الأميركية منذ الثمانينيات ترصد وضع احتياطياتنا من العملات الصعبة، ولاحظت أنها وصلت إلى أدنى مستوى لها. حاولت واشنطن ممارسة مزيد من الضغوط علينا، فبدأت بالضغط على أوروبا الغربية

لمقاطعة النفط الليبي؛ نظرًا إلى وجود فائض نفطي في الأسواق العالمية. ونظرًا إلى التوترات في الخليج، وصعود الثورة الإسلامية في إيران، ثم الحرب مع العراق، باءت كل هذه المحاولات بالفشل. لكن واشنطن واصلت ضغوطها على إيطاليا، وخصوصًا على شركة "فيات"، للتخلص من مساهمة ليبيا.

كانت مساهمة ليبيا 14.5 في المئة، وكنت قد اتخذت قرارً ثوريًا أواخر عام 1972 بشراء نحو 9 في المئة من أسهم الشركة بقيمة 138 مليون دينار، فبدأت الشائعات الرامية إلى التشكيك في أهمية هذه الصفقة. خلال فترة ولاية ريغن الثانية، كنت أستمع إلى خبر من إذاعة **بي بي سي** يقول إن إدارة ريغن طلبت من إيطاليا وشركة "فيات" التخلص من مساهمة ليبيا. ويقول الخبر إنّ الخبراء الاقتصاديين يقدرون قيمة مساهمة ليبيا من مليارين إلى مليارين ونصف مليار دولار؛ فقررت على الفور بيع حصتنا في الشركة، واتصلت بالأخ معمّر وأبلغته بالقرار وقلت له إنني سأطلب 3 مليارات دولار، فقال لي: "لا يمكن تحقيق هذا الرقم. أنت تحلم".

وعلى الفور، شكلت فريقًا من المختصين، منهم رجب المسلاتي ومحمد عبد الجواد ومحمد سيالة وعبد الله السعودي. وطلبت من المسلاتي، الذي كان مديرًا للمصرف العربي الخارجي، أن يتصل بعبد الله السعودي، وكان في زيارة للبحرين، أن يعود على وجه السرعة إلى طرابلس. وبالفعل، حضر السعودي، واجتمعت بأعضاء الفريق كله، وأبلغتهم بالقرار، ثم سألتهم: "لقد سمعت بالخبر والسعر الذي يقدره الخبراء من **إذاعة لندن**، لكنني قررت أن يكون السعر 3 مليارات؟"، فقالوا جميعًا: "السعر لن يتجاوز المليارين"، ومع ذلك أصررت على قراري، ثم طلبوا أن ينضمّ إليهم المحامي كامل المقهور بصفته مستشارًا قانونيًا، فوافقت وقلت لهم: "يجب أن نحصل على سعر 3 مليارات دولار صافيًا". كانت المشكلة التي واجهتنا هي كيفية تحويل هذا المبلغ الضخم خارج إيطاليا وبالدولار؛ ذلك أن الإدارة الأميركية كانت قد اتخذت قرارًا بالحجز على أي مبالغ بالدولار تعود إلينا، وكانت مسألة تحويل المبلغ خارج إيطاليا تبدو صعبة جدًّا لا يحتملها إلا الاقتصاد الألماني أو الياباني.

سافر الوفد إلى إيطاليا وبدأ المفاوضات مع كبار مديري شركة "فيات". وبالفعل، تحقق الرقم الذي طلبته وحدّدته. وقبل توقيع العقد بقليل، اتصل بي الوفد لطلب الموافقة على التوقيع النهائي. في هذ الوقت، كنت في منزلي بالمصيف الذي يقع بين السندباد وعين الزرقاء. فاستدعيت على الفور جاد الله عزوز الطلحي، وكان أمينًا للاتصال الخارجي، ومعه قاسم شرلالة أمين الخزانة، ومحمد الزروق رجب محافظ مصرف ليبيا، وفوزي الشكشوكي أمين النفط، وعرضت عليهم الأمر، وكان الفريق الذي يتولى المفاوضات معي على الخط الهاتفي، فرحب الأمناء بالاتفاق واعتبروا أنه إنجاز تاريخي. لكنني لاحظت أن جاد الله كان متحفظًا، ويرى أن في الأمر خدعة نظرًا إلى ضخامة حجم الصفقة. ومع ذلك أعطيت الفريق موافقتي لإتمام الصفقة وإبرام الاتفاق. وبالفعل، تمّ التوقيع على أساس أن يحوّل المبلغ بـ"المارك" الألماني لمصارف ألمانية. اتضح لي أن موقف الإدارة الأميركية ومحاولتها الضغط على الحكومة الإيطالية وشركة "فيات"، كان موقفًا غبيًّا، فقد تمكنّا من "عقد صفقة القرن"؛ إذ لم يسبق لأي دولة في العالم، خلال 150 سنة سابقة، أن حققت عائدًا بهذه الضخامة من استثمار خارجي، وتأكد لنا ذلك، حين تعالت الأصوات الناقدة في الولايات المتحدة التي اعتبرت أن الضغط الأميركي على الحكومة الإيطالية وشركة "فيات" كان خطأً كبيرًا. لقد مكننا قرار بيع حصتنا في "فيات" في هذا الوقت من تحقيق عدّة أهداف، واكتشفت الإدارة الأميركية بعد فوات الأوان الخطأ الذي ارتكبته، فقد تمكنّا من الحصول على عملة صعبة في أحلك الأوقات. كان هدف الاستثمار الليبي في "فيات" الحصول على عائد اقتصادي، والضغط الأميركي على إيطاليا للتخلص منه مكّن ليبيا، على غير توقّع من واشنطن، من تحقيق "العائد الاقتصادي" لليبيا حين حصلنا على احتياطيات جديدة من العملة الصعبة. وبفضل هذا النجاح، تمكنّا من إضافة 3 مليارات دولار لاحتياطاتنا من العملة الصعبة، وهذا ما عزّز قدرتنا على الصمود.

في عام 1986، طلبت من الأخ رجب المسلاتي ومحمد سيالة ومحمد عبد الجواد وكامل المقهور، رفع دعوى قضائية في المحاكم البريطانية ضد السلطات الأميركية وضد قراراتها وقوانينها التي تبيح لها تجميد أموال أي

دولة في العالم خارج الولايات المتحدة. وقد ربحنا هذه القضية وحكمت المحكمة البريطانية بأن القوانين الأميركية لا يجوز أن تطبق ضد سيادة الدول، وهكذا أنهت ليبيا مرحلة طويلة من "قدرة" واشنطن على تجميد أموال أي دولة بالدولار، ومثّل هذا الحكم انتصارًا لكل دول العالم. في هذا الوقت كانت أسعار النفط تتهاوى.

اتخذت بنفسي قرار المساهمة في شركة "فيات"، حينما كنت رئيسًا للوزراء، على الرغم من أجواء الشائعات والتشكيك في جدوى هذا النوع من الاستثمار، وحرصت على أن تتم في سرية تامّة، وهذا ما أكدته وسائل الإعلام الغربية آنذاك. وبالفعل، تمّت عملية البيع.

في هذا الوقت، أي في عام 1986، كان الوضع الاقتصادي في ليبيا قد بلغ مرحلة من التدهور، ووصلت الحالة النفسية للمواطنين في عموم البلاد مستوى من التدني يفوق كل وصف، وتفاقمت الممارسات التي تنتهك حقوق الليبيين وكراماتهم، وشاعت عبادة الفرد. لقد غدت الجماهير في وضع نفسي سيئ مع تدهور مستوى المعيشة، وشيوع "النفاق" والتملق وبطش ما سُمي "حركة اللجان الثورية" وغيرها من الأجهزة القمعية. ونظرًا إلى أن الانضمام إلى هذه الحركة كان مفتوحًا أمام الجميع، فقد دخلها كل مَن هبّ ودبّ: الانتهازيون، والفاشلون، والقبليّون، والمنافقون، وأصبحوا هم كل أعضاء الحركة. ونظرًا إلى هذا الوضع أيضًا، أصبحت الحركة حركة تهريج. لقد انحرفت عن أهدافها وتحولت إلى ميليشيا مسلحة وقمعية، مارست التسلط على الجماهير الشعبية، ثم بدأت مرحة "القوانين الشخصانية"، وانهارت القوانين وحلت محلّها المزاجية والمحسوبية. لقد اكتشفت أن الأخ معمّر لا يريد حركة ثورية؛ وإنما "حركة تصفيق" يقوم كل نشاطها على تكريس عبادة الفرد وممارسة عملية تخويف للجماهير وتوجيهها لاإراديًا.

كان شغله الشاغل أن تقبّل الجماهير جبهته وأنفه ويده، تمامًا كما هو الحال في المغرب والسعودية، أي إنه كان يرغب في رؤية "حركة" تتملق له وتمارس التزييف والخداع والتهريج. كانت استراتيجية الأخ معمّر هي "الأمن

ثم الأمن". وعلى سبيل المثال، حين تتقدم أعداد من الطلبة للدراسة في الكليات والمدارس العسكرية، كانت الأجهزة الأمنية تحيل إليه مباشرة قوائم بأسماء هؤلاء، ليتولى بنفسه مراجعة ملفاتهم، اسمًا، اسمًا، وكان يولي عناية خاصة لمعرفة الانتساب القبلي لهؤلاء، وكان يشطب بنفسه كل أسماء الذين يظن مجرد ظن أن ولاءهم غير مضمون. وأذكر أنه طلب من رئاسة الأركان ترشيح مجموعة من الضباط لنقلهم إلى جهاز الأمن الداخلي، ومن هؤلاء أخي جلود. لمّا علم أخي بقرار الأخ معمّر نقله من الجيش بصفته ضابط إلى جهاز الأمن الداخلي، شعر باستياء شديد فجاء لزيارتي. قال لي: "أريد لقاء الأخ معمّر. اتصلْ به ورتبْ لي موعدًا"، فاتصلت به.

حين التقى أخي جلود بالأخ معمّر قال له: "يا أخ القائد. نحن عائلة بيت جلود لم نشتغل في الأمن؛ لا في عهد الأتراك، ولا في عهد الطليان، ولا في العهد الملكي، ولن نشتغل فيه في عهدك أيضًا"، فردّ عليه الأخ معمّر: "وماذا تريد؟"، فقال أخي جلود: "أنا مواطن وأنت الحاكم، لا يمكن لي أن أقول ما أريد أنت تقرر"، فقال له الأخ معمّر: "ما رأيك في الإحالة للتقاعد؟" فردّ عليه: "موافق".

لقد تحدثت خلال كل اجتماعاتي مع الأخ معمّر، بقوة وصراحة ووضوح، وتناولت بالنقد الوضع الذي تعيشه الثورة والجماهير، ووضعته أمام أحد خيارين: إمّا أن نقف وقفة جادة ونبدأ في إحداث تغييرات جذريّة، وإمّا أن أقدم استقالتي، فقال لي إنه يوافقني الرأي بضرورة إجراء التغييرات الجذرية. وبالفعل، بدأنا حوارات معمّقة في مدينة سرت على امتداد أحد عشر يومًا كانت تستغرق ساعات طويلة من الصباح إلى المساء، وكان العقيد مسعود عبد الحفيظ، والمقدم خليفة إحنيش، والرائد عبد الله السنوسي، والرائد أحمد قذاف الدم، والنقيب عبد السلام الزادمة، يقومون بواجب خدمتنا. بدأت هذه الحوارات في أول يونيو/ حزيران 1986 واتفقت أنا والأخ معمّر على أسس ومرتكزات التغيير، وأن أقوم بإعداد التصورات والحلول العملية. ونظرًا إلى أهمية النتائج التي توصلنا إليها، فقد أطلق العقيد مسعود عبد الحفيظ والمقدم خليفة إحنيش على أيام هذه الحوارات "الأيام المباركة". في

11 حزيران/ يونيو، انتهت الحوارات، وتوجهت بالسيارة أنا والأخ معمّر إلى قاعدة رأس لانوف[6]، للاحتفال بذكرى طرد القوات الأميركية، وكان الأخ معمّر يقود السيارة بنفسه. وصلنا إلى رأس لانوف حوالى الساعة الخامسة مساء، فلم نجد إلا عددًا قليلًا جدًّا من الجماهير في موقع الاحتفال، فأدركت أن الثورة فقدت بالفعل جماهيرها، بل إن الجماهير في الواقع أدارت ظهرها للثورة. وكان يحضر الاحتفال الأخ أحمد جبريل والأخ أبو موسى.

في اليوم التالي، توجهت أنا والأخ معمّر بسيارة إلى منطقة هراوة، حيث تقيم قبيلة أولاد سليمان الذين استقبلونا بحفاوة رجالًا ونساء وأطفالًا، فتناولنا معهم طعام الغداء، ثم عقدنا اجتماعًا مع قيادات القبيلة. في هذا الاجتماع، قال لنا رجال القبيلة بصراحة ووضوح وصدق: "لا نرغب في الذهاب إلى الأسواق العامة، ونفضل الموت على أن نذهب إليها، لأن هناك من يعامل المواطنين كـ"كلاب". ثم أضافوا بمرارة: "هناك تحْدث الكثير من الممارسات غير الأخلاقية. الناس تتشاجر، تتدافع في زحام شديد على بضائع شحيحة، والعاملون في هذه الأسواق يتصرفون مع الناس بوحشية ويفرضون علينا شراء سلع لا نرغب فيها". وقالوا لنا أيضًا: "يا أخ معمّر، يا أخ عبد السلام إذا قلنا لكم إن 15 في المئة من الشعب مع الثورة، فهذا يعني أننا نكذب عليكم. جِدَا حلًّا سريعًا للأوضاع. رغم كل شيء فإننا نفضل الموت على أن نرفع السلاح ضدكم". في هذه الأثناء، جاءت طفلة صغيرة عمرها 6 سنوات تقريبًا، توقفت أمام الأخ معمّر وقالت: "بابا معمّر من عامين لم أتناول شكولاتة أو حلوى أو تفاحة"، فقال الأخ معمّر مخاطبًا الحاضرين: "أحضرت الأخ عبد السلام معي لتحدثوه عن مشكلاتكم لأن أمور الدولة كلها عنده". ثم واصلنا رحلتنا واتجهنا إلى مدينة البيضاء. كان هناك مكان غالبًا ما يستريح فيه الأخ معمّر في هذه المنطقة، فتوقفنا فيه وتناولنا الطعام.

---

(6) رأس لانوف: تقع في الشمال الليبي على خليج السدرة في إقليم برقة، وهي مقر مصفاة رأس لانوف النفطية.

الأوراق الثلاث

قرر الأخ معمّر أن يواصل الرحلة إلى البيضاء، بينما قررت الذهاب إلى بنغازي لأسافر منها بالطائرة إلى طرابلس. ثم شرعت في اليوم التالي في إعداد أوراق العمل لإعادة الثورة إلى مسارها الصحيح، بناء على الأفكار التي طرحتها في حواراتي مع الأخ معمّر في سرت. في هذا الوقت من عام 1986، وبينما كنت منغمسًا في كتابة "برنامج التغيير، فوجئت بوصول الصديق الكاتب الليبي المعروف، الصادق النيهوم[7] وهو يطرق باب منزلي في المصيف. حين استقبلته، طلبت منه أن يقرأ ما كتبت، وأن يطلع بنفسه على أفكار برنامج التغيير الذي أعده، وما إن انتهى الأخ النيهوم من قراءة مسودة البرنامج، حتى هبّ من مقعده وقال لي بصوت بدويّ: "صبيّ يا بطل"، أي قم يا بطل لأعانقك. ثم عانقني وقال لي: "لو تحقق هذا البرنامج فسوف أعود غدًا من سويسرا لأتولى إصدار صحيفة". في اليوم التالي، التقيت بالأخ المقدم يوسف الدبري، وكان صديقًا مقرّبًا لصادق النيهوم، فقال لي: "أمس وحوالى الساعة الثانية ليلًا طرق باب منزلي الأخ صادق النيهوم وهو يقول لي مازحًا: افتح يا عبد (لأن يوسف الدبري رجل من ذوي البشرة السمراء)، أريد أن احتفل ببرنامج عبد السلام جلود على طريقتي". وفي هذا الوقت، كان يزورنا الدكتور جورج حبش، الأمين العام للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين. بعد اجتماعي به طلبت منه أن يقرأ البرنامج، وما إن انتهى من قراءته، حتى قال لي: " أهنئك يا أخ عبد السلام. لم يحصل أن تكون هناك ثورة منتصرة وتمسك بزمام السلطة، تملك الشجاعة وتقوم بهذا النقد الجريء، وتقدم حلولًا أكثر جرأة"، وقال لي: "نحن في فصائل الثورة الفلسطينية، حينما خرجنا من لبنان نتيجة لأخطائنا وتصرفاتنا وفقدنا ساحة لبنان، قام كل فصيل في مؤتمره بنقد تصرفاتنا وأخطائنا، لكن للحقيقة لم نملك الجرأة لننقد أسباب خسارتنا لساحة لبنان مثلك". كانت لدي ثلاث أوراق عمل:

---

(7) الصادق النيهوم (1937–1994): أكاديمي وكاتب وأديب ليبي، درّس مادة الأديان المقارنة بصفة أستاذ مساعد بقسم الدراسات الشرقية بجامعة هلنسكي في فنلندا (1968–1972). له عدد كبير من الروايات والكتب الأدبية.

الورقة الأولى: تضمنت "نقد حركة اللجان الثورية" وممارساتها القمعية، وكذلك "نقد الأجهزة الأمنية" و"الممارسات اللاثورية والتزييف والنفاق، وانعدام الممارسة الديمقراطية" و"غياب النقد" بوصفه "أوكسجين الحياة" لأي ثورة أو حركة سياسية. وفي هذه الورقة، ركزت على أهم الأفكار، ومنها أن الثورة تقوم على الحب والصراحة والوضوح مع الجماهير؛ فإذا ما نجحنا نقول إننا نجحنا، وإن فشلنا فعلينا أن نصارح الجماهير بالفشل وبأسبابه. الثورة ليست توجيهًا "لاإراديًا".

ومن هذا المنطلق، على حركة اللجان الثورية أن تعتمد الحوار مع الشعب، وأن تسعى للإقناع لا للتخويف والتزييف. كما أكدت الورقة الأولى على الفكرة الجوهرية التالية: إذا انتهت الثورة أخلاقيًا، فستكون قد انتهت سياسيًا وأيديولوجيا؛ ولذلك لا بد من احترام الرأي والرأي الآخر، سواء داخل الحركة أو في المؤتمرات الشعبية.

الورقة الثانية: تضمنت هذه الورقة شرحًا للمفاهيم والسياسات الاقتصادية، وقد حللت فيها مقولات **الكتاب الأخضر**، وبيّنتُ أن هناك مسافة بين النظرية والتطبيق، وأشرت إلى أن فهم المقولات اتسم بكثير من الأخطاء التي قادت إلى التطبيق المجزّأ والخاطئ للمقولات نفسها. لذا، وضعت رؤية عملية للتطبيق تقوم على الفهم العلمي الجماعي، وأكدت أن الأسئلة التي واجهت كارل ماركس وفريدريك إنغلز، ليست الأسئلة نفسها التي واجهت فلاديمير لينين. وفي هذه الورقة، اعترضت على الشرح الذي قدمه الأخ معمّر **للكتاب الأخضر**، وقلت: "من الخطأ أن نقدّم الشروح لما جاء في الكتاب"؛ لأن ذلك يعني أن "الكتب أقفلت والأقلام جفت"، وقلت: "يجب ألّا تكون هناك مرجعية وفتاوى لشخص - وكنت أقصد الأخ معمّر - بل إن المرجعية هي النصوص النظرية ضمن قراءة جماعية، وضمن التسليم بالحقيقة القائلة إن هناك بالفعل مسافة بين النظرية والتطبيق".

الورقة الثالثة: تضمنت مقترحات تتعلق بإعادة تنظيم القوات المسلحة التي كانت تضمّ نحو 350 ألف منتسب، يمثلون فعليًا أكثر من ثلث القوة العاملة

في البلاد. كانت هذه القوة معطلة لأنها خارج العملية الإنتاجية، وهي تشكل عبئًا ماليًا يكلف الخزينة مبالغ هائلة. لذا، اقترحت تقليص القوات المسلحة إلى 150 ألفًا، كما اقترحت إيقاف شراء الأسلحة، وإقفال بعض القواعد الجوية، ووضع خطط لتخزين الأسلحة على مدى طويل، كما اقترحت تقليص أعداد الطلبة الذين يتوجهون إلى الانتساب إلى القوات المسلحة.

وهكذا، توجهت إلى بنغازي لمناقشة الأوراق الثلاث مع الأخ معمّر. لمّا وصلت إلى المدينة، اكتشفت أنه توجه إلى مدينة البيضاء؛ فلحقت به على وجه السرعة. وسرعان ما التقيت به في منطقة تفصل بين المرج والبيضاء. وحين قرأ الأوراق، قال لي إنه يوافق على ما ورد فيها من تصورات، ثم قال لي: "كيف يمكن إقرار هذه الأوراق؟"، فقلت: "نعرضها على المؤتمرات الشعبية"، فردّ قائلًا: "يُستحسن أن تُعرض على ملتقى اللجان الثورية أولًا، ولكن يجب ألّا تعرض على أنها صادرة عن القيادة حتى لا يؤثر ذلك في قناعاتهم".

في هذه اللحظات، شعرت بالريبة مما سمعت، وانتابني شعور حقيقي بأن الأخ معمّر لم يكن جادًّا في الموافقة على الأوراق المقدمة، بل شعرت أنه غير جادّ في إحداث أي تغيير جذري. ومع ذلك وافقت على مضض، ثم اتفقت معه على موعد عقد الملتقى العاشر لحركة اللجان الثورية، في يوليو/ تموز 1986، في جامعة الفاتح. حين عقد الملتقى في الموعد والمكان المتفق عليهما، وكنّا قد اتفقنا أن تُعرض الورقتان الأولى والثانية على الملتقى، لاحظت أن جدول الأعمال يتضمن مناقشة هاتين الورقتين، وكنت قد فهمت أن الأخ معمّر سرّب إلى أعضاء الحركة خبرًا يقول إن "الأخ عبد السلام جلود أعدّ هاتين الورقتين وهما تعبّران عن رأيه هو".

في اليوم الأول للملتقى، بدأت "الكولسة" ومقاومة عملية التغيير، وكانت مشاعر الخوف بادية على وجوه أعضاء الملتقى، الذين نظروا إلى عملية التغيير هذه على أنها مسّ بمصالحهم، وأن الأفكار المطروحة توجه النقد الشديد إليهم. في افتتاح الملتقى، ألقى الأخ معمّر كلمة، وكان عدد المشاركين يناهز 30 ألفًا، قال فيها حرفيًا: "نحن قدّمنا نموذجًا سيئًا ودمرنا أنفسنا. المهم أننا

قدمنا نموذجًا ولا نريد أن نتراجع"، فصفق أعضاء الملتقى، وهتفوا: "دوم معمّر هو القايد، الفاتح، الفاتح ثورة شعبية". كانت تلك لحظات صادمة لي. لقد صعقت مما يجري ومن كلام الأخ معمّر وتأييد أعضاء الملتقى له، وهذا دليل آخر على السلوك الانتهازي والمنافق، فتوجهت على الفور نحو الميكرفون وقلت مخاطبًا الأخ معمّر: "لا يا أخ معمّر. الشيء السيئ لا يشكل نموذجًا. الشيء الجيد هو الذي يشكل نموذجًا". أصابت كلماتي الحاضرين بالذهول وبدا واضحًا أن الخلاف بيني وبين الأخ معمّر هو خلاف عميق.

كانت الورقة الثالثة من "مشروع برنامج التغيير الجذري" الذي قدمته، تتضمن تصورات لإصلاح العجز في الميزانية، خصوصًا بعد انهيار أسعار النفط التي وصلت إلى 7 دولارات، بتوجيه مئتي ألف من أفراد القوات المسلحة نحو سوق العمل، وهكذا يمكننا أن نعالج الخلل في الموازنة. لكن دُفنت "محاولة التغيير الجذري" في مهدها، وانتهى الملتقى.

أصبحت المؤتمرات الشعبية بلا جماهير بعد أن تكشف لها الزيف، وأن دورها هو إضفاء "مظهر ديمقراطي" شكلي يغطي على حكم القبيلة وحكم الفرد. وهكذا، باتت المؤتمرات الشعبية مهجورة من الجماهير، بحيث إنّ عدد الحضور في كل مؤتمر لا يتجاوز ثلاثين أو خمسين شخصًا من كبار السن والمتقاعدين والأتباع، بعد أن كانت الجماهير تحضر بكثافة.

في اليوم التالي، فوجئت بأن الإذاعة المرئية تذيع نصّ ما سمي "وثيقة الشرعية الثورية"، وهي وثيقة تُمكن معمّر من حصر السلطة كلها في يده، التفافًا على سلطة الشعب وعلى صلاحيات المؤتمرات الشعبية، بحيث تسمح له باتخاذ أي قرارات باسم "الشرعية الثورية كقائد للثورة". وهي تتضمن ما يلي:

- الشرعية الثورية يجسّدها معمّر.

- إن ما يقوله أو يعمله هو "قانون".

- يكلف أعضاء القيادة التاريخية بالمهمات التي يراها.

فاتصلت بالأخ معمّر هاتفيًّا، وكنت في حالة من الغضب الشديد وقلت له: "ما هذا الكلام الفارغ الذي يذاع؟". ثم أضفت: "هذا فراق بيني وبينك، أنت اخترت هذا الطريق، وأنا اخترت طريقي".

ثم قلت: "سبق لي أن أعلنت بوضوح أنه لا يوجد اليوم أيّ فصل بين الثورة والسلطة. الثورة ممارسة لقرار سياسي، والسلطة كذلك ممارسة لقرار سياسي. وجود القيادة التاريخية شرّ لا بد منه؛ لأن وجودها عمليًا سيكون متناقضًا مع سلطة الشعب، بحيث إنّ الناس سوف يشعرون بالخوف منّا وهم يجاملوننا أو يثقون بنا ويقبلون أي شيء نقوله ونعمله. وبذلك لن يكونوا قادرين على التفكير المستقل. لكن لن يكون هناك نظام وطني ولا تقدمي ولا سلطة شعبية ما إن تختفي القيادة التاريخية، بل ستكون ليبيا أقل تأثيرًا من غامبيا. وإذا افترضنا أن هناك شرعية ثورية، فإن هذه الشرعية ستكون للقيادة مجتمعة وليست حكرًا عليك". وحينما أدرك الأخ معمّر شدة غضبي، وكان يسيطر من منزله ومكتبه على الإرسال التلفزيوني (المرئي) وهو يتحكم في البث، أوقف البث المباشر، ثم قال لي هاتفيًّا: "اكتب الصيغة التي تقترحها للشرعية الثورية". في البداية وافقت، لكنني شعرت بعد لحظات أنه غير جادّ. فاتصلت به وقلت له: "يا أخ معمّر ليس المهم ما أكتب، المهم ماذا في ذهنك؟".

ومع ذلك كتبت صيغة تؤكد على "جماعية الشرعية الثورية"، وهي صيغة تعيد الاعتبار للقيادة التاريخية، فوافق على الصيغة تحت الضغط والإلحاح، ولكن - ويا للأسف - سرعان ما علمت أنه تراجع عن الاتفاق، وقام بتحريف مضمون الصيغة؛ فقد جسّدها في شخصه. وبالطبع، لم يكن الأمر مفاجئًا بالنسبة إلي، فهو شخص لا يؤمن بسلطة الشعب، بل يؤمن بحكم الفرد و"عبادة الفرد"، كما أنه يؤمن بحكم العائلة وحكم القبيلة. كانت سلطة الشعب بالنسبة إليه أكذوبة، قنبلة دخان الغرض منها التغطية على الحقيقة، أي التخلص من "مجلس قيادة الثورة" ومنع ظهور أي معارضة، بحيث يتمكن من البقاء في الحكم طوال حياته ومن بعده أولاده، فهذا الوضع لا يسمح بظهور أي معارضة، ويصبح كل معارض متآمرًا على سلطة الشعب.

في أواخر عام 1989، كنت أمارس لعبة كرة القدم في ملعب تابع لمركز التربية العقائدية في طرابلس. بعد أن غادرت الملعب، وركبت سيارتي، إذا بمجموعة من الشباب يقفون في انتظاري عند الباب، وصاحوا بأعلى أصواتهم: "يا أخ عبد السلام، يا أخ عبد السلام، نريد أن نتحدث معك؟". فنزلت من سيارتي واستمعت لما يريدون قوله. قالوا لي: "نحن طلبة من اتحاد طلبة الجامعات، ونريد أن نخبرك أن أعضاء الاتحاد اجتمعوا في طرابلس لمدة يومين لاختيار قيادة جديدة للاتحاد، لكن عمر أشكال، أمين شؤون المؤتمرات الشعبية، ومحمد المجذوب[8]، وصالح إبراهيم المبروك[9]، فرضوا علينا نقيبًا؛ هو الطالب عبد الله عثمان، وهو من أقرباء القذافي، وقالوا لنا، إن القائد يريده في هذا الموقع". ثم سلموني شريط فيديو للاجتماع. وحينما عدت إلى المنزل، شاهدت الفيديو، وكيف أن هذه المجموعة زورت إرادة الطلبة، وفرضت عليهم الطالب عبد الله عثمان.

في الصباح، استدعيت بشير حويج أمين شؤون المؤتمرات المهنية، كما استدعيت المجذوب وإبراهيم وأشكال، وقلت لهم جميعًا: "ما هذا التزوير لإرادة الطلبة وتخويفهم وتهديدهم؟"، فقالوا: "إن القائد، بحسب تعبيرهم، يرغب في أن يستمر عبد الله عثمان في موقعه على الأقل أربع سنوات أخرى"، فقلت لهم: "لا، لا يمكن أن أوافق على هذا التزوير. أوافق على إرادة الطلبة فقط". وهكذا وضعت حدًّا لمحاولة تزوير إرادة الطلبة، وطلبت منهم دعوة الطلبة للاجتماع من

---

(8) العقيد محمد المجذوب القذافي (1951-2007): ضابط سابق بالجيش الليبي، وهو من قبيلة القذاذفة، ابن عم القذافي. أسندت إليه عديد المهمات العسكرية والأمنية في ليبيا، وكان له تأثير في الحياة العسكرية والسياسية في البلاد؛ إذ كان رئيس حركة اللجان الثورية.

(9) ينتمي صالح إبراهيم المبروك إلى قبيلة ورفلة، إحدى أكبر قبائل ليبيا، وتخرج في كلية الاقتصاد بجامعة قاريونس في بنغازي عام 1980، ثم تحصل على الماجستير من جامعة بواتفورد عام 1984، وهو العام الذي وقعت فيه أحداث السفارة الليبية بلندن. وبعد عودته إلى ليبيا، عمل أستاذًا بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية بجامعة الفاتح في طرابلس، ثم أكمل دراسته ليتحصل على شهادة الإجازة الدقيقة (الدكتوراه) في الاقتصاد من جامعة بلغراد عام 1989. وإلى جانب عمله أستاذًا بالجامعات الليبية، نشط في حركة اللجان الثورية، في النظام الليبي السابق، وخاصة في أثناء ما عُرف بفترة "المواجهة" بين ليبيا والغرب منذ منتصف الثمانينيات حتى تطبيع العلاقات مع الغرب عام 2003 بعد حل قضية "لوكربي".

جديد، وأن يختاروا من يريدون من دون تهديد أو خوف، كما كلفت بشير حويج وصالح والمجذوب أن يشرفوا بأنفسهم على هذا الاجتماع. في اليوم ذاته مساء، جاءني بشير، وقال لي: "هناك مجموعة من أعضاء اللجان الثورية لا يريدون تمكين الطلبة من حرية الاختيار"؛ فذهبت بنفسي، على الفور إلى الاجتماع. ما إن وصلت إلى المكان، حتى خاطبتهم بقولي: "لا بديل من حق الطلبة في الاختيار الحر لقيادتهم، وأنا مستعد لقتالكم من شارع إلى شارع". وهكذا أوقفت هذا التزييف. في نهاية الاجتماع قال لي الطلبة: "هذه هي المرة الأولى التي نختار فيها قيادتنا بأنفسنا"، ثم عانقوني وهتفوا "الفاتح، الفاتح".

في عام 1989، استدعى الأخ معمّر أخي سالم، وكان رئيسًا لاتحاد نقابات العمال، وطلب مني حضور اللقاء. في بداية اللقاء، قال الأخ معمّر لأخي سالم: "يا سالم، أنا لست ضدك. يجب أن تعرف أن أعدى أعدائي هم العمال والطلبة. وعندما تمشي أنت (أي عندما تستقيل) فلن يكون هناك اتحاد عمال". ثم توجه نحوي قائلًا: "يا عبد السلام، أليندي[10] في تشيلي لم تسقطه المخابرات الأميركية عمليًا، وإنما أسقطه العمال حينما أغلقوا الطرق والساحات والميادين بالشاحنات والحافلات وشلّوا الحركة". ثم طلب من سالم أن يقدم استقالته، فقال له سالم: "لا يمكن أن أقدم استقالتي لأنك يا أخ معمّر لم تعيّني. أنا كنت مدة 17 عامًا نائبًا لرئيس اتحاد عمال ليبيا في العهد الملكي الذي كان رئيسه سالم شيتة[11] عضو مجلس النواب". ثم قال سالم: "والآن في عهدك

---

(10) سلفادور أليندي (1908–1973): طبيب وسياسي، ويُعدّ أول رئيس دولة يساري انتُخب ديمقراطيًا. شغل منصب رئيس جمهورية تشيلي (1970–1973). قُتل في الانقلاب العسكري الذي خططت له ونفذته وكالة المخابرات المركزية الأميركية بقيادة الجنرال أوغستو بينوشيه. وارتبط حكم أليندي بتطبيق ما سماه "برنامج الإنقاذ" الذي حقق نجاحات في البداية إلى أن تهاوى تحت موجة الركود والتضخم الذي وصلت نسبته إلى 600 في المئة عام 1973، وتسببت في تظاهرات نقابية عارمة ضده.

(11) يعود تاريخ الحركة العمالية في ليبيا إلى أربعينيات القرن الماضي، إبان الاحتلال الإيطالي في طرابلس، وكانت بقيادة سالم شيتة، ورفاقه من المناضلين النقابيين. وبعد الاستقلال، توحدت الحركة النقابية تحت راية الاتحاد العام لعمال ليبيا. ومن أهم المواقف التاريخية للعمال الليبيين نذكر إضراب عمال نقابة العاملين بقطاع النفط عن العمل وشحن الناقلات، إبان العدوان الصهيوني في عام 1967، على الرغم من تدخّل الحكومة الليبية لإيقاف الإضراب، وقد كان على رأس منظميه محمود سالم المغربي.

العمال هم من اختاروني. يمكنك عزلي ولكن لن أقدم استقالتي". في إثر ذلك مباشرة، شكّل معمّر لجنة برئاسة نقيب الأدباء والكتاب الليبيين أمين مازن، دعت اتحاد العمال لعقد اجتماع في سرت. أشرفت هذه اللجنة على الاجتماع، فقرر اتحاد العمال إقالة سالم، وذلك تنفيذًا لأوامر معمّر. عاد سالم إلى الفندق في مدينة سرت، فأبلغه مدير الفندق قائلًا: "إن سكرتارية الأخ معمّر طلبت مني أن أبلغك ألا تعود إلى طرابلس، لأن القائد يريد الاجتماع بك غدًا في الساعة 12". فقال سالم: "ماذا يريد مني؟ لقد فعل ما أراد"، ثم عاد سالم ليلًا إلى طرابلس. في الصباح اتصلت السكرتارية بالفندق وطلبت التحدث مع سالم، فكان الرد أنه غادر الفندق إلى طرابلس، فغضب الأخ معمّر غضبًا شديدًا، واتصل بأحمد رمضان في طرابلس وطلب منه أن يرسل سالم على متن طائرة صغيرة فورًا إلى سرت. عاد سالم إلى سرت والتقى معمّر، فقال له: "يا سالم، كيف أطلب منك البقاء في سرت للاجتماع بك، ومع ذلك تعود إلى طرابلس. أنت غير معترف بي كرئيس لهذا البلد"، فرد عليه سالم: "ماذا تريد مني يا أخ معمّر. أنت فعلت ما كنت تريده"، فنهره معمّر ووبخه.

أواخر عام 1990، توفي عمي علي، فأقمنا له عزاء في صالة رياضية كبيرة في حي قرقارش بطرابلس بالقرب من نادي الرمال، ولا أبالغ إن قلت إن معظم أهالي طرابلس جاؤوا للتعزية. في اليوم الأول للعزاء، كان إلى جانبي بعض الضباط الأحرار، من بينهم العقيد يوسف الدبري، فقالوا لي: "اليوم حضرت كل طرابلس لتعزيتك". في الواقع جاءت الوفود من كل المدن والقرى والقبائل. ويبدو أن التنابلة وعناصر السوء كانوا ينقلون هذه الصورة للأخ معمّر. وذلك ما زاد في غضبه وحقده على الليبيين؛ لأنه وجد في هذه الصورة شخصًا ينازعه الشعبية. في اليوم الثاني للعزاء، كنت مرهقًا فلم أتمكن من الذهاب إلى مكان العزاء. اتصل بي عبد الله السنوسي وقال لي: "إن القائد سيذهب الليلة لتعزيتك وتعزية عائلة جلود". وبالفعل، بعد صلاة العشاء وصل القذافي إلى مكان العزاء فلم يجدني. اتصل بي السنوسي وآخرون وقالوا لي: "القائد ينتظرك في مكان العزاء". ومع ذلك لم أذهب، وكان هذا الموقف محل استغراب واستهجان منه.

في عام 1990، حاول الأخ معمّر مرة أخرى أن يلتقي بي، حينما علم أن أسرة أخي عمر تريد أن تقيم عرسًا لأحد أبنائها. أرسل سعيد راشد أحد المقربين منه إلى منزل أخي عمر ليخبره أن القذافي سيحضر العرس بنفسه. حين علمت بالأمر، اتصلت بأخي سالم وأبلغته أنني لن أحضر حفل الزواج، وقلت له لن يحضر عندما يعرف أنني لن أحضر. إنه ليس مهتمًا بمشاركة الأسرة أفراحها، بل إن كل همه أن يلتقي بي. وهذا ما حدث بالفعل. وفي أواخر عام 1992، اتخذت قراري النهائي: إمّا التغيير الجذريّ وإمّا الاستقالة.

لكنني قرّرت خوض سلسلة من الحوارات الصريحة والعميقة مع الأخ معمّر، وأبلغته أن الوضع وصل مرحلة اللامعقول، وأنه بلغ مرحلة خطيرة، وأن حالة الجماهير غاية في السلبية، وأنها تعيش ظروفًا اقتصادية واجتماعية وسياسية لا تحتمل، وأن النفاق السياسي والتملق للسلطة ينخران كالسوس في جسد الشعب، وقلت له: "هناك مسلسل تلفزيوني، عنوانه السوس، تمّ بثه في الثمانينيات، وأشعر اليوم أنه سبق زمنه بكثير، وهذه هي مرحلته، المسلسل يعبّر عن هذه المرحلة. هذه مرحلة السوس الذي ينخر في كل شيء".

في نهاية خريف هذا العام، أجريت مع الأخ معمّر حوارًا في منطقة العثعث، خارج مدينة سرت، على امتداد ثلاثة أيام متواصلة، قدمت خلالها تحليلًا مفصلًا وجريئًا، لأنني أعلم أن التحليل الجريء يقود إلى استنتاجات جريئة. في اليوم الأخير من الحوارات اجتمعنا لبلورة الأفكار. وفي نهاية الاجتماع، قال لي، كعادته، إنه يتفق معي؛ ولذا اقترحت عليه آلية لمتابعة إعداد البرنامج:

- أن ننظم دورة يشترك فيها بعض الثوريين من الحركة، وعدد من الكتّاب والأدباء والمفكرين والمثقفين.

- عقد ندوات في الإذاعتين المرئية والمسموعة، تقودها وتديرها القيادات الفكرية والثقافية، وأن يتمكن المواطنون من إبداء آرائهم مباشرة والتعليق عليها.

- أن نعقد ندوات تخصّصية في مجالات الحياة المختلفة (السياسية والاقتصادية والاجتماعية والشبابية ...إلخ).

في أعقاب هذه الحوارات الطويلة، عدنا إلى سرت، وكان معنا المقدم عبد السلام الزادمة يقود السيارة، فقال الزادمة: "يا أخ القائد، أنت دائمًا توافق على التغيير ثم تتراجع، وأنا في هذه المرة شاهد عليك"، فربّت على كتفه وقال له مازحًا: "يا تحفة ... استمر في قيادة السيارة". في اليوم التالي، عدت إلى طرابلس وشرعت في وضع "تصوراتي عن التغيير الجذري". ثم نظمت ندوة اشترك فيها أكثر من سبعين مثقفًا ومفكرًا، وكانت ندوة مغلقة، ثم انتقلت إلى تنظيم ندوة تبث مباشرة على الهواء في الإذاعتين المرئية والمسموعة. رشحت لهذه الندوة كلًّا من: عمر الحامدي، والدكتور شعيب المنصوري، والدكتور صبحي قنوص، والأستاذ أمين مازن، وعلي إخشيم، ومصطفى التير. وحين اجتمعت معهم، تلقيت منهم سؤالًا دقيقًا وواضحًا: "ما هي حدود الحرية؟"، فقلت "الحرية لا حدود لها إلا الضمير والقيم الأساسية في المجتمع".

في اليوم التالي للندوة، بينما كانت تُنقَل مباشرة على الهواء - وكانت ندوة جادة ومسؤولة وصريحة وتشكل بداية مرحلة جديدة في التفكير بصوت عالٍ - اتصل الأخ معمّر هاتفيًّا بالإخوة المشاركين في الندوة، وقال لهم بغضب: "هذه مؤامرة أميركية وخيانة وتشكيك في سلطة الشعب"، وقطع البث. اتصلت به هاتفيًّا وقلت له: "يا أخ معمّر، هل نحن ضعفاء إلى هذه الدرجة، بحيث إنّ بيتنا أصبح من زجاج؟ ولم نعد نحتمل أي رأي آخر؟". ثم أضفت: "مداخلتك الهاتفية تؤكد أنك لا ترغب في التغيير، وأنك ماضٍ في طريقك، ومن الواضح أنك تريد أن تحكم كشيخ قبيلة"، فقال لي: "يا عبد السلام، الإعلام أخطر شيء. عندما تمكن ليخ فاونسا[12] في بولندا من الحصول على ترخيص لإصدار صحيفة **التضامن**، استطاع أن يروج لأفكاره ويصبح رئيسًا للجمهورية".

(12) ليخ فاونسا (1943-): سياسي بولندي ساهم في تحول بولندا إلى النظام الديمقراطي الرأسمالي، وقد شغل منصب رئيس بولندا (1990-1995)، وحاز جائزة نوبل للسلام في عام 1983. عمل اختصاصيًّا في الكهرباء في عام 1970، وهو أحد مؤسسي نقابة العمال "تضامن" (Solidarność) وقد ترأسها (1980-1990).

ثم جاء إليّ المشاركون في الندوة وقد بدا الخوف على وجوههم، وقالوا لي بحرج شديد: "ماذا فعلت بنا؟ كنّا نعتقد أنكما متفقان على هذه النقلة النوعية؟".

لقد تأكد لي من جديد أن الأخ معمّر لم يكن راغبًا ولا جادًّا في إحداث التغيير الجذري المطلوب. وهكذا، أُجهضت المحاولة الثانية لإحداث التغيير في مهدها وقُبرت. وعلمت في ما بعد أنه أمر بالتحقيق مع المجموعة التي أدارت الندوة، ولذلك كتبت ثلاثة مقالات في صحيفتَي **الجماهيرية** و**الزحف الأخضر**، تتضمن نقدًا وتشريحًا للواقع. كانت سلسلة مقالات جريئة، جاء المقال الأول منها بعنوان "لا للقرارات والقوانين الثورية"، والمقال الثاني جاء بعنوان "دعوة لإعادة قراءة **الكتاب الأخضر** من جديد"، أما المقال الثالث فكان بعنوان: "كومونات مع وقف التنفيذ". وكانت كلها باسم مستعار (مواطن). ما قصدته من وراء نشر هذه المقالات كان له هدف محدد، هو تحفيز كوادرنا ومثقفينا على "التفكير الجسور"، والمساهمة في خلق الجرأة في التحليل، وبكل تأكيد كنت أريد لها أن تشكل منهجًا متكاملًا في التفكير. وفي هذا السياق، أذكر أن الأخ معمّر قال لي حين عاد من زيارته للقاهرة، وكان قد التقى خلالها بالصحافيين والمثقفين والمفكرين المصريين: "إن الإخوة في مصر سألوني: هل أنت من كتب هذه المقالات؟ وقالوا إذا ما طبقتم الأفكار التي جاءت فيها، فأنتم تقومون بالفعل بثورة أقوى من ثورة الدبابات والمدفعية، ويمكن لمثل هذه الأفكار أن تشكل بداية منعطف جديد في ثورتكم وأن تشكل نموذجًا للأمة العربية. إنها بالفعل ثورة أخطر بكثير من ثورة الدبابات؟ فقلت لهم: لا، أنا لم أكتبها منْ كتبها عبد السلام جلود". كان الهمّ الوحيد للأخ معمّر، كيف يعمل، باستخدام كل الوسائل المتاحة، لإلهاء الجماهير وإشغالها عن أهدافها الحقيقية، بل أنْ يعيد توجيه إرادتها بواسطة الميليشيات والمحسوبين عليه، وتفضيل القرابات القبلية والأسرية على حساب معايير الكفاءة. وبدا هذا الأمر جليًّا ساطعًا منذ عام 1983، بعد أن تمكن من تزييف إرادة كل منطقة أو قرية أو قبيلة، حين نصّب عليها أرذل من فيها. لقد كان الأخ معمّر يجيد، ببراعة، هذا الأسلوب في التلاعب بإرادة الجماهير، معتمدًا ما يدعى في المثل الشعبي سياسة "هزّ اشكارة" أي "هزّ كيس الفئران". كان يقصد من هذه السياسة إشغال

الجماهير وإلهاءها، بحيث يفرض عليها تغييرات متسارعة ومتزاحمة، وتصبح في وضع نفسي لا يسمح لها بالتفكير.

في هذا السياق، اقترح أن تقوم جماهير النقابات والعاملين في المرافق العامة والمصانع والمصالح باختيار "اللجان الشعبية" على مستوى فرع البلدية والبلدية والمحافظة، بعد أن كانت الجماهير في وقت سابق، بحسب **الكتاب الأخضر**، تقوم باختيار اللجان مباشرة. لقد عارضت هذا الاقتراح لسببين: الأول أنه يخالف سلطة الشعب، والثاني أنه سوف يقود إلى ظهور لجان ضعيفة لأن العاملين في هذه المرافق سوف يختارون من يجاملونهم ويجارونهم على حساب المصلحة العامة. وكنت أقول له: "لا يجوز لجزء من الشعب أن يشكل هذه اللجان، هؤلاء جزء من الشعب؛ ولذا لا يحق لهم أن يشكلوا لجانًا شعبية باسم الشعب، وفضلًا عن ذلك سيكون تشكيل اللجان الشعبية شيئًا، والإدارة بصفتها عملية فنية تخصصية شيئًا آخر، وإن العاملين في هذه المرافق سوف يختارون الشخص الأضعف؛ وبذا سوف تصبح اللجنة عمليًا في خدمة العاملين وليست في خدمة الجماهير التي توجد فيها هذه المرافق والمصالح"، كان يقول لي "هذا صحيح، ولكن المهم أن يلهوا بأنفسهم بدلًا من أن يلهوا بنا".

وحينما كنت أخطب في الجماهير، كنت في الواقع أتحدث إلى الشعب الليبي كله، وأشدّد على أهمية الشباب والكوادر في صياغة وعي ثوري جماهيري، لكن الأخ معمّر غالبًا ما كان يقول لي: "يا عبد السلام، لماذا تميّز الشباب والكوادر عن بقية الشعب؟ هذا الأمر يشجعهم على الشعور بأهميتهم". ثم قال لي باللهجة المصرية: "ياخدوا قلم في أنفسهم"؛ أي دعنا لا نعطيهم دورًا أكبر في المجتمع.

كان الأخ معمّر يمارس سياسة "الشو" (Show)، ويفتعل البرامج والسيناريوهات للضحك على الجماهير والاستخفاف بوعيها. بكلامٍ آخر، كان الأخ معمّر يعتقد في أعماق نفسه أنه أذكى من الجميع، وأنه يستطيع مواصلة التلاعب بالجماهير، وأنها ستردّد كل ما يقوله بلا قناعة، وذلك باستخدام المهرجين والمنافقين. هكذا أصبح أي شخص يمكن أن يعارضه، أمام تهمة جاهزة: خائن، معادٍ للثورة، مرتد، عميل.

في هذه الفترة، ابتداء من عام 1975، عمل الأخ معمّر على تدمير الجيش؛ فهو أعلن "قيام الشعب المسلح" لتنظيم الشعب في "كتائب"، وشكّل أيضًا لجانًا ثورية في قطاعات الجيش المختلفة، وهذه العناصر هي العناصر الفاشلة في الجيش ومن الفوضويين وغير المنضبطين، وبذلك قضى على أهم أعمدة الجيش النظامي، وهي الانضباط والنظام والربط، والذي هو أساس أي مؤسسة عسكرية. و"فسّخ" الجيش، ونشر الخوف والرعب في قلوب الضباط، وأفرغ الجيش من القيادات العسكرية، وأحلّ محلها أقرباءه وأزلامه والمقرّبين منه. وهمّش دور الضباط الأحرار، وأحل محلهم مجموعات من الموالين له في الأجهزة الأمنية. وقضى على أي إمكانية لوجود عقل جماعي؛ فأنهى دور النقابات والاتحادات والجمعيات والنوادي، فلم يترك لأي شخص فرصة تكوين، أو تشكيل، رأي جماعي منظّم. كان الأخ معمّر يرى في ذلك خطرًا داهمًا عليه شخصيًا؛ ولذا خلق حالة من الرعب والإرهاب والخوف إلى درجة أصبح فيها كل فرد مذعورًا وخائفًا حتى من زوجته أو أخيه أو صديقه. لقد خلق مناخًا مخابراتيًا مقيتًا.

في عام 1986، كشف الأخ معمّر عن حقيقته فعليًا، بصفته شخصًا قَبَليًّا متألهًا ورجلًا فاشيًّا معاديًا للشعب، لا يحب سوى المديح لنفسه والتطبيل له. وأظهر أيضًا بجلاء أنه يحبّ الألقاب وأن يُمجده الشعب كإمبراطور من القرون الوسطى، يقبلون أنفه وجبينه ويده، وكان يكره الرجال، ويحبّ أشباه الرجال والسذج والطبّالين والمادحين. ببساطة، لم يكن يريد شركاء. ومع أن أعمال التزييف والانحراف، التي وصلت إلى حدّ الجريمة، بدأت فعليًا عام 1981، فإن الأخ معمّر كشف عن حقيقته على نحوٍ ساطع عام 1986. وسأقول بصدق إنّ الرأي الوحيد الذي كان يصغي إليه هو رأيي، وكان يقول لي: "إن الرجل الوحيد في هذه البلاد الذي احترمه هو أنت"، وفي كل الحوارات كان يكرر ذلك، وكنت أقول له: "إذا أردت أن تحترمني، احترم الشعب"، حتى إنني في إحدى المرات، قلت له: "أهِنّي، لكن احترم الشعب".

وأخطر هذه الانحرافات كانت تتجلىّ في تسليح قبائل ضد قبائل أخرى. وأذكر أن أخي عمر فاجأني بحضوره إلى منزلي وقت الإفطار في رمضان، وكان

يغلي غضبًا. قلت له: "هيا نتناول الإفطار"، لكنه رفض وقال لي: "أريد أن أقابل العقيد متاعك"، وكان يقصد الأخ معمّر، فقلت له: "سأتصل به الآن". وبالفعل، اتصلت بالأخ معمّر وقلت له: "أخي عمر في حالة هستيريا، جنون، ويريد أن يلتقي بك ورفض تناول الإفطار"، فقال لي: "قلْ له يفطر، وبعد الإفطار يأتي لمقابلتي"، فقلت له: "أخ معمّر، أخي عمر لا يريد أن يحضر أي أحد هذا اللقاء حتى الشخص الذي يقدم لك الشاي". وبالفعل ذهب عمر بعد الإفطار للقاء الأخ معمّر. أخبرني عمر أنه في هذا اللقاء قال للأخ معمّر: "يا الأخ القائد، أنت تعلم أن عائلة سيف النصر حاربتنا من خلال قبيلة إرياح، وهي من القبائل العربية الهلالية التي دخلت إلى شمال أفريقيا في القرن الخامس الهجري، في منطقة الأحيمر، واليوم أنت تريد أن تحاربنا بقبيلة الحساونة، فقد قمت بتسليحهم، ونحن سئمنا من القتال المقزز والخسيس، أي حين يأتي أحد أفراد القبيلتين ليقتل الآخر وهو في سيارته أو في منزله. أعطيك اقتراحين: إمّا أن نخرج إلى الصحراء نحن والحساونة لنتقاتل، وإمّا أن نهاجر ونترك لك ليبيا".

في اليوم التالي، أرسل الأخ معمّر مدير الشرطة العسكرية خيري خالد إلى سبها وقام بسحب السلاح من قبيلة الحساونة؛ فانتهت بذلك أكبر فتنة بين القبيلتين، وتنفس الجميع الصّعداء، لأنهم كانوا يعلمون عواقب مثل هذه الفتنة التي دبرها الأخ معمّر.

في بداية عام 1993، قررت القيام بمحاولة أخرى مع الأخ معمّر من أجل إحداث تغيير جذريّ، بعد أن وصلت الأمور إلى مرحلة فظيعة من السوء والتدهور في كل مجالات الحياة بليبيا. في هذا العام، أجريت مع الأخ معمّر حوارًا معمقًا وطويلًا وصريحًا وصادقًا، ومارست ضغطًا شديدًا من أجل إقناعه بضرورة التغيير، وعرضت عليه ملامح الحل وأسسه، ثم اتفقت معه على تقديم تحليل جريء للوضع الراهن، يتسم بالقدرة على تشريح الواقع بجسارة، وبالقدرة على وضع حلول عملية وجذرية. وبالفعل، عكفت على وضع ورقة تحليلية جريئة عن الواقع الراهن قدّمت فيها حلولًا شجاعة. في هذا الوقت، صادف أنّ أحمد قذاف الدم التقى الأخ معمّر، وقال له: "أنا كنت لسنوات خارج

ليبيا. وحينما عدت إلى ليبيا والتقيت بالناس هنا، وتعرّفت على الواقع، فإنني مضطر إلى أن أقول لك إن الوضع خطير جدًّا، فالنفاق والتزييف لا يمكنهما أن يخفيا حقيقة الوضع النفسي والمعيشي. الناس هنا تعيش ظروفًا اقتصادية ونفسية مروّعة، وما لم تبادروا إلى مراجعة الأوضاع الراهنة، فإن الجماهير لن تستطيع تحمل هذه الأوضاع". جاء لقاء الأخ أحمد قذاف الدم بالأخ معمّر، بعد حواري معه؛ ولذا طلب الأخ معمّر من أحمد قذاف الدم أن يلتقي معي ويحدثني عن رأيه في الأوضاع الراهنة. وبالفعل، وصل الأخ أحمد قذاف الدم ووجدني في مكتبي عاكفًا على إعداد ورقة التصورات.

قرأ أحمد الأفكار والحلول المقترحة في هذه الأوراق، فعبّر عن إعجابه بها، وحين عاد للقاء الأخ معمّر قال له حرفيًّا، وهذا ما أخبرني به الأخ معمّر شخصيًا: "الرائد عبد السلام جلود هو الشخص الوحيد الذي يفهم الواقع أكثر من أي شخص آخر، والورقة التي أعدّها واطلعت على جزء منها هي ورقة إنقاذ لليبيا". في هذه الأثناء، وبعد حواري مع الأخ معمّر حين شرعت في وضع أسس التغيير المطلوب وقواعده، اتصل عبد السلام الزادمة بعبد الله السنوسي وببعض المقرّبين منه، وقال لهم حرفيًّا: "كلموا الأخ القائد إذا لم يبادر إلى التغيير راكم بتريحوا في داهية (أي سوف تنتهي الثورة)". فلما علم الأخ معمّر بأمر هذه المكالمة، قال لعبد الله السنوسي وبعض معاونيه "إسألوا عبد السلام الزادمة، هل قابل عبد السلام جلود أو تحدث معه على الهاتف؟". وحين سئل عبد السلام الزادمة عن أمر هذه المعلومة، ردّ قائلًا: "منذ أكثر من أربعة أشهر لم أقابل الرائد عبد السلام جلود ولم أتصل به بالهاتف". كان الأخ معمّر يظن أن ما قاله الزادمة هو ترداد لكلامي، وذلك ما يبيّن بجلاء ساطع الحالة النفسية التي بلغها، إلى الحدّ الذي باتت فيه البطانة في حالة ذعر تام، فأخذت تكشف عن مخاوفها من أن تسوء الأمور أكثر فأكثر؛ بما يفقدها امتيازاتها ومكاسبها.

بعد أن أنهيت إعداد الورقة، ذهبت إلى الاجتماع بالأخ معمّر، وعرضت عليه الأفكار والحلول والمقترحات. وبعد أن قمنا باستعراض أهم الأفكار قال لي: "هذا رأي الثورة وليس رأيك الخاص، وأنا أوافق عليه تمامًا"، ثم بادر على

الفور بقرع الجرس، وطلب استدعاء السكرتارية طالبًا طباعة الورقة. وحين اطلع الأخوان أحمد رمضان وعبد السلام غيث على الورقة خلال طباعتها، تأثرا بها، وحين أحضراها، له قالا: "يا قائد، هذا ما يريده الشعب، والرائد عبد السلام جلود رجل قريب من الشعب ويعرف الواقع بعمق ويدرك خطورة ما يجري في الشارع".

في اليوم التالي في مطلع أيار/ مايو 1993، غادرنا طرابلس برًا عبر بني وليد، في طريقنا إلى سرت لحضور مؤتمر الشعب العام. في هذا الوقت، اطلع بعض ضباط الحرس الخاص على الورقة - وأذكر أن المقدم منصور ضوّ كان من بينهم - فقالوا للأخ معمّر: "هذه الورقة تشكل ورقة إنقاذ ويجب تطبيقها بالكامل من الصفحة الأولى حتى الأخيرة".

وكان هذا، بالنسبة إلي، دليلًا إضافيًا على أن الوضع قد بلغ مداه المأساوي بالفعل، فحتى المستفيدون والأقرباء والمحاسيب باتوا يشعرون بخطورة الأوضاع، وارتعدت فرائصهم من الخوف على امتيازاتهم ومكاسبهم. توقفنا في منطقة السدادة ببني وليد لتناول طعام الغداء، فلحق بنا جاد الله عزوز الطلحي.

بعد الغداء، جرى نقاش بيني وبين الأخ معمّر، فقال لي حرفيًا: "يا عبد السلام لا بد من الاعتراف بإسرائيل". كان وقع الكلمات التي سمعتها من الأخ معمّر كالصاعقة. ثم أردف قائلًا: "الأميركيون لن يسمحوا لنا بإنجاز الوحدة ما دمنا نحن معادين لليهود ولم نعترف بهم"، فقلت بغضب: "ما هذا الكلام يا أخ معمّر؟ أكاد لا أصدّق ما تقول، ما فائدة الوحدة العربية إذا ما كانت ستقودنا إلى الاستسلام للعدو؟ أنا أرفض هذه الوحدة"، فردّ قائلًا: "نعترف بإسرائيل لكي تسمح لنا أميركا بإنجاز الوحدة ثم نحارب اليهود"، فقلت له: "أنا أرفض هذا المنطق كليًّا. إنه منطق غريب عجيب"، فقال لي: "أنت تتصرّف بعقلية الطالب، ليس لديك ما يكفي من المرونة السياسية"، ثم أردف قائلًا: "أنت مَن يقف في وجهي وفي طريقي. لولاك لاعترفت بإسرائيل". عند هذا الحدّ انتهى الحوار الصاخب بيننا، ثم توجهنا إلى سرت.

في اليوم التالي، عقدنا اجتماعًا آخر؛ أنا والأخ معمّر وأبو زيد دوردة، وكان أمين اللجنة الشعبية العامة وجاد الله عزوز الطلحي وعبد الله البدري

أمين النفط ومحافظ مصرف ليبيا المركزي وعبد الحفيظ الزليطني وأمين الاقتصاد والخزانة. كان موضوع الاجتماع مناقشة اقتراح الأخ معمّر "توزيع عائد ثروة النفط على الشعب".

في هذا السياق، أريد أن أعود إلى الوراء قليلًا؛ فقبل ستة أشهر من هذا الاجتماع، اقترح الأخ معمّر اقتراحًا غريبًا هو "أن نقوم بتوزيع عائد ثروة النفط على الليبيين". في هذا الوقت، أبديت اعتراضًا شديدًا وساجلت ضد الفكرة من أساسها، وقلت للأخ معمّر: "الحركات الإصلاحية والثورية التي قامت في العالم، وجدت أوضاعًا ينعدم فيها التوازن الاقتصادي على المستويين الاجتماعي والجغرافي؛ ولذا دعت إلى إصلاح هذا الخلل وعملت على إعادة توزيع الثروة بصفة عادلة، وسعت بذلك إلى القضاء على التفاوت الاجتماعي بين فئات الشعب، وجغرافيًا بين المناطق المختلفة، ثم رصدت الأموال واعتمدت الخطط". شخصيًا كنت مع إعادة توزيع الثروة اجتماعيًا وجغرافيًا بتوجيه نسبة من دخل النفط إلى هذه الفئات والمناطق الجغرافية في شكل خطط وبرامج تنموية خاصة بها، وتقديم القروض والتسهيلات الميسرة والحوافز من أجل الاستثمار في هذه المناطق، والعمل على أن تكون المداخيل متقاربة قدر الإمكان، وأن يكون التفاوت قائمًا على أساس الجهد والقدرة على المثابرة. أمّا "فكرة توزيع الثروة" على الشعب، فهي "دعوة إلى الفقر" ودعوة إلى الكسل، ثم إنّ عائدات النفط انخفضت بسبب انهيار أسعار النفط عالميًا، ونحن لم نتمكن من تسديد الرواتب، ولم نتمكن من "إدامة البنية الأساسية"، كما أننا لم ننجح في توفير مستلزمات الإنتاج أو توفير الاستثمارات الضرورية. الفكرة في جوهرها خاطئة، وعمليًا لا تتوافر لدينا الأموال لتوزيعها على الشعب.

في نهاية الحوار، اتفقنا على أن الفكرة غير قابلة للتنفيذ، لا من حيث المبدأ، ولا من حيث الإمكانيات. ومع ذلك، واصل الأخ معمّر التمسك بفكرته، وأخذ يناقشها مع محافظ المصرف المركزي الدكتور عبد الحفيظ الزليطني وعبد الله البدري أمين النفط، وطلب منهما ألا يخبراني بأمر هذا النقاش أو أن القذافي يواصل مناقشة الفكرة خلافًا لما اتفقنا عليه؛ وهكذا

وصلت إلى قناعة أن الأخ معمّر لا يزال مصرًا على توزيع الثروة؛ ولذا ذهبت للقائه وأنا في حالة غضب شديد، فقلت له: "يا أخ معمّر لقد اتفقنا على توزيع الثروة بطريقة علمية، وكنت أعتقد أننا صرفنا النظر عن مقترحك"، فقال لي: "من أخبرك أنني ما زلت مصرًا على رأيي؟"، فقلت له: "لا الزليطني ولا عبد الله البدري من الذين يمكن اعتبارهم منحازين إلى الشعب. أنا يا أخ معمّر المنحاز إلى الشعب. هؤلاء منافقون ومجرد موظفين مهمتهم أن يقولوا لك حاضر، نعم. لو كانت الفكرة في مصلحة الشعب ويمكن عمليًا تطبيقها لوافقت عليها فورًا. بالنسبة إلي هؤلاء جهلة ومنافقون".

ثم أردفت غاضبًا: "أنا يا أخ معمّر عندما أتحدث في مجال الاقتصاد، فإنني من الناحية العلمية أتحدث عن معرفة. الكثير من المختصين يثقون برأيي وبسلامة تحليلاتي، بمن فيهم الاختصاصيون في أوروبا". فردّ علي: "ما هذا الغرور؟"، فقلت له: "أنا لا أعرف الغرور. هذا تعبير عن ثقتي بنفسي ومعرفتي لإمكانياتي في مجال التحليل الاقتصادي".

كان الأخ معمّر قد عرض فكرة توزيع الثروة على المؤتمرات الشعبية، وفي أثناء عقدها، ذهبت لحضور أحد اجتماعاتها في طرابلس وتكلمت في المؤتمر، فأعدت تكرار رأيي أمامهم. ونظرًا إلى أن المؤتمر كان يُبث على الهواء مسموعًا ومرئيًا، فقد وصلت كلمتي إلى معظم الليبيين والليبيات. وهكذا استوعبت المؤتمرات الشعبية بشكل مباشر رأيي وتبنّته وقال كثير من المشاركين: "نحن لا نريد توزيع الثروة مباشرة، بل نريد تنمية صناعية وزراعية وإسكانًا وتعليمًا وبحثًا علميًا وتخصيص ميزانيات لرفع مستوى الفئات الفقيرة اجتماعيًا وجغرافيًا". وباستثناء ثلاثة مؤتمرات شعبية تبنت رأي الأخ معمّر، فإنّ كل المؤتمرات الأخرى قد تبنت رأيي ومقترحاتي والحلول التي طرحتها. وحدث، خلال كلمتي في المؤتمر، أن الأخ أحمد قذاف الدم جاء للقاء الأخ معمّر في خيمته وقال له: "يا قائد، المؤتمرات الشعبية أعطتك مخرجًا من هذا المأزق، حين تبنت أفكار عبد السلام جلود. لو كانت هناك قوى سياسية معارضة لاستغلت هذا الأمر لتوريطك ولوضعوك في حرج شديد".

في رمضان 1993، استدعى الأخ معمّر بعض الخبراء إلى ندوة في الإذاعة المرئية تبث مباشرة. حينما شاهدت الندوة ورأيت وجوه الخبراء والتقنيين المشاركين فيها، لاحظت أن الخوف يسيطر عليهم جميعًا؛ فظهروا كأنهم مجرد طلبة في فصل دراسي، وتبدى ذلك واضحًا من كلماتهم المنافقة التي تردد أفكار القذافي. كانت الندوة غير جادة، رغم خطورة المواضيع المطروحة، فبادرت بالاتصال بالأخ معمّر وقلت له: "أريد أن أشارك في الندوة"، فوافق.

أعطى حضوري هذا ديناميكية للندوة، أدت إلى تغيير جذري في مسارها، وبات هناك رأيان، رأي الأخ معمّر ورأيي، وهكذا بدت الندوة أكثر جدية وحيوية، حين استند الخبراء والاقتصاديون والتقنيون إلى آرائي العلمية، وشعروا بنوع من التشجيع، وكانوا ينهون كلماتهم بالقول: "كما يقول الأخ الرائد عبد السلام جلود".

كانت المواضيع المدرجة في جدول أعمال الندوة تتضمن أربع نقاط:

1 - توزيع الثروة على الشعب.

2 - تهجير الليبيين إلى مصر والسودان وتشاد، حيث عرض الأخ معمّر فكرة أن ليبيا بإمكانياتها الاقتصادية المتدهورة وتفاقم مشكلة مصادر المياه، لا تحتمل بقاء هذا العدد الكبير من السكان، ويكفي ليبيا أن يعيش فيها مليون أو مليونان.

3 - استثمار جزء كبير من دخل النفط في هذه البلدان.

4 - حل مشكلة نقص المياه والبحث عن حلول للقيام بعمليات تحلية المياه.

في الليلة التي شاركت فيها، طلبت الكلمة من الأخ معمّر وقلت ما يلي: "بالنسبة إلى موضوع توزيع عائدات ثروة النفط على الشعب، فقد سبق لي أن أكدت أن الفكرة من الناحية المبدئية هي دعوة إلى الفقر والكسل، فضلًا عن أن ثروة النفط ليست ملكًا لهذا الجيل وحده، بل هي ملك الأجيال المقبلة ولا ينبغي

أن يكون هذا الجيل أنانيًّا إلى درجة عدم التفكير في مستقبل الأجيال المقبلة. يجب علينا إطالة عمر هذه الثروة بتصدير كميات أقل ووفقًا للحاجات الضرورية ومستلزمات التنمية. كما يتعيّن علينا أن نعمل بخطى ثابتة من أجل تنويع مصادر الدخل واستغلال مصادر أخرى باستعمال أحدث التقنيات لاكتشاف المزيد من الثروات، بما فيها النفط والغاز، وتحسين عمليات الاستخراج الإضافي". ثم قلت: "على الأقل كل برميل نقوم بتصديره يجب أن نكتشف برميلًا يعوضه"، وقلت: "إن توزيع ثروة النفط من حيث جوهر الفكرة، نقديًا، على الشعب في شكل مبالغ مالية هو أمر يخالف الروح الوطنية لأنه إهدار للثروة من دون معنى. يجب أن نوزع ثروة النفط في صورة خطط تنموية تستهدف تطوير البلاد واقتصادها ورفع مستوى الفئات الفقيرة والمحرومة من خلال مشاريع تنموية، بقروض ميسّرة، وخصوصًا الفئات التي لم تحصل على نصيبها من عائدات النفط. يجب علينا أن نتوجه نحو تطوير التعليم والمؤسسات الصحية والثقافية والرياضية والإسكان. من الناحية العملية ليست لدينا أموال يمكن توزيعها. نحن نعاني عجزًا في الميزانية، كما عجزنا عن دفع الرواتب ولم نتمكن من إدامة البنية الأساسية في قطاعَي التعليم والصحة والمرافق الأخرى، وعجزنا أيضًا عن توفير مستلزمات الإنتاج. نحن الآن نواجه أزمة اقتصادية حادة مماثلة لأزمة عام 1986 نظرًا إلى انهيار أسعار النفط"، فردّ الأخ معمّر على مداخلتي بالقول: "نوزع عليهم وكل واحد يدبر رأسه هو يدفع مصاريف التعليم والصحة".

كان واضحًا من الردّ أن الأخ معمّر كان يريد التخلص من كل التزامات الدولة تجاه المواطنين، بحيث تتحول السلطة إلى "شرطي" للقمع. كان يريد أن يتمّ ذلك من خلال: مسرحية توزيع الثروة.

وحين تسنى لي مناقشة فكرة "تهجير الليبيين إلى الدول المجاورة"، قلت للأخ معمّر أمام الجميع: "يا أخ معمّر، كيف نقول لليبيين هاجروا؟ هذا أمر غير معقول ولا يجوز قوله، الارتباط بليبيا ليس مجرد ارتباط مصالح. ليبيا وطن، هواء، ماء، شجرة، خالة، عمّة. أنا ضد هذه الفكرة. هناك نظرية الطرد والجذب وهي التي تتحكم في حركة البشر، مثلًا في السبعينيات حينما كانت

هناك حركة تنمية هائلة جذبت إلى ليبيا ما بين أربعة إلى خمسة ملايين عربي، وما بين مليونين إلى ثلاثة ملايين أجنبي، لكن لمّا تراجعت برامج التنمية وتوقفت الخطط الاقتصادية والاجتماعية بسبب انهيار أسعار النفط، عاد معظم هؤلاء إلى بلدانهم. مالطا مثلًا، مواردها لا تحتمل، ولا مساحتها كذلك، أكثر من 350-400 ألف نسمة، وما زاد على ذلك يهاجر بصفة تلقائية. إذا كان هناك شخص ليبي وبصفة فردية يرغب في الهجرة والعيش خارج ليبيا، فهذا أمر ممكن وجائز. أما أن يكون هناك قرار سياسي بتهجير الليبيين بالجملة، فهذا مخالف لكل منطق وأنا ضده. أما بخصوص توجيه جزء كبير من أموال النفط للاستثمار في هذه الدول، فأنا ضد هذه الفكرة لسبب بسيط؛ أننا نحتاج إلى كل دولار لاستثماره في ليبيا، فضلًا عن أننا في حالة عجز شبه تام عن توفير مستلزمات الإنتاج وصيانة البنى التحتية أو إدامتها. أمّا مشكلة المياه، فهي ليست مشكلة ليبية، بل هي مشكلة عربية وحتى عالمية، وباستثناء مصر والعراق وسورية والسودان، فإن الزراعة في بقية بلدان الوطن العربي هي زراعة سياسية أي إنها تقوم على أسس غير اقتصادية. إذًا، المشكلة لا تكمن فقط في مشكلة المياه، بل في أسلوب الزراعة".

ثم تحدث الأخ معمّر ردًّا على ما قلت: "لن يهنأ لي عيش ولن يهدأ لي بال ولن تنام عيناي إلا بعد أن تنضب المياه في ليبيا"، ثم قال حرفيًّا: "احفروا ما بين كل بئر وبئر، بئرًا. استنزفوا المياه". كان كلام الأخ معمّر صاعقًا، فنهضت وتوليت الرّد عليه وقلت: "هذا كلام غير مقبول. أنا أدعو لسياسة صارمة للتحكم في مخزون المياه، وخاصة في المنطقة الممتدّة من مصراتة حتى صبراتة، أي كامل منطقة سهل الجفارة. يجب ردم ما بين 60 و70 في المئة من الآبار في هذه المنطقة، والتوقف عن الزراعات التي تستهلك كميات كبيرة من المياه، والتركيز على الزراعة الرأسية باستخدام التقنيات، ويمكن زيادة الإنتاج الزراعي في المساحات نفسها حتى 70 في المئة".

كانت الندوة تُبث في الإذاعتين المرئية والمسموعة، وقد استمع الليبيون إلى كل ما قلت. من المثير للاهتمام أن الأخ معمّر طرح خلال الندوة وشاركه

في ذلك بعض الخبراء مسألة تحلية المياه، فعارضت هذه الفكرة، وقلت: "تحلية المياه لا تزال مكلفة الثمن، مثلًا تحلية المتر المكعب تكلّف ما بين 3 و6 دولارات، ويمكن تخفيض المساحة المزروعة إلى 35 ألف هكتار لتوفير مياه الشرب، أو جلب المياه من الأحواض في الجنوب، حيث تكلفة المتر المكعب الواحد ما بين 6 و12 قرشًا". ثم أضفت: "إن أكثر محطات التحلية اليوم متوقفة عن العمل، نظرًا إلى أننا لم نتمكن من تشغيلها بسبب ضعف وقلة عدد الكوادر المطلوبة للتشغيل والصيانة، فكيف يمكننا أن نوافق على إقامة محطات جديدة للتحلية؟ إنني أدعو إلى تأسيس مركز أبحاث في مجال تحلية المياه، وأن يقوم بالتواصل مع مراكز أبحاث وجامعات في أميركا وكندا وأوروبا، وأن تقوم ليبيا بدعم هذه الأبحاث، وأن ترتبط جامعاتنا بها لتحقيق هذا الهدف. كما دعوت إلى تأسيس مركز أبحاث للنباتات والزراعات المقاومة للعطش".

ولأن الندوة كانت تبث على الهواء، نقلت إذاعة **بي بي سي** هذا الخلاف بيني وبين الأخ معمّر، وقالت في تعليقها على النبأ: "إن العالم الثالث لم يعتد هذا النوع من الخلافات داخل القيادة الواحدة أو أن تكون هناك وجهتا نظر تعلنان بهذه الطريقة"، ثم قالت: "قد يكون هذا النوع من الخلافات أمرًا متفقًا عليه". ونظرًا إلى خلافاتنا الشديدة، فقد قرر الأخ معمّر دعوة المؤتمرات للانعقاد من جديد، وعرض عليها ثانية "فكرة توزيع الثروة نقدًا"، وقال "كل أسرة يحق لها عشرة آلاف دولار سنويًا". بيد أن المؤتمرات الشعبية تأثرت بآرائي ومواقفي وعارضت الفكرة مرة أخرى، وطالبت بضمان التعليم والصحة وتحسين مستواهما، ومنح القروض لأجل الاستثمارات والتنمية والسكن والبحث العلمي، وكذلك زيادة المرتبات الشهرية ومرتبات الضمان الاجتماعي ووضع الخطط والبرامج ورصد الأموال اللازمة لتحسين ظروف الفئات والمناطق الفقيرة. ولأن المؤتمرات عارضت قراره، ردّ غاضبًا: "أنا لا يمكن أن أُهزم أمام الجماهير. من الأفضل لي أن أخرج من البلاد"، فقلت له: "لا يا أخ معمّر. من يُهزم أمام الشعب فهو ينتصر في مواجهة العدو، والذي يهزم الشعب سوف يُهزم أمام العدو، وأنا لا أوافقك على ما تقول، فحينما يكون الشعب واعيًا ويتخلص من الخوف سوف يرفض القرارات الخاطئة من حيث المبدأ،

ثم إنّنا من الناحية العملية لا نملك ما يكفي من المال لتوزيعه على الشعب". وأردفت قائلًا: "يا أخ معمّر الحكام العرب انتصروا على شعوبهم فانهزموا أمام العدو لأنهم لم يحاربوا بواسطة الشعب؛ وفي أفضل الظروف حاربوا بشعوب مهزومة من الداخل".

في اليوم التالي، سارعت إلى عقد اجتماع ضمّ أمانة مؤتمر الشعب العام، وأمين اللجنة الشعبية العامة أبو زيد دوردة، وجاد الله عزوز الطلحي، وعبد الله البدري أمين النفط، وعبد الحفيظ الزليطني محافظ المصرف المركزي، وأمين الخزانة سالم محمد بيت المال، وطرحت عليهم فكرة الأخ معمّر بخصوص توزيع الثروة، فقال محافظ المصرف المركزي: "ماذا توزعون؟ هل توزعون 18 دينارًا على كل أسرة؟ ليس لدينا مال يكفي"، فردّ عليه الأخ جاد الله عزوز الطلحي قائلًا: "سلمك أنت، لماذا إذًا تكذب على الأخ معمّر وتقول له أنه يستطيع أن يوزع ثروة النفط على الليبيين بمعدل عشرة آلاف دولار لكل أسرة؟". فور انتهاء الاجتماع، عدنا إلى لقاء الأخ معمّر وعقدنا معه اجتماعًا مطولًا لإعادة دراسة الفكرة، وكان الجميع يتفقون معي في الرأي، لكنهم جميعًا كانوا يخشون المجاهرة بالحقيقة باستثناء الأخوين أبو زيد دوردة وجاد الله عزوز الطلحي.

وهكذا، طرح محافظ المصرف المركزي اقتراحًا جديدًا يقضي بأن يتم توزيع الثروة على الفقراء والذين يتقاضون مرتبات الضمان الاجتماعي فقط، وكان ذلك اقتراحًا مليئًا بالرياء والنفاق، ومكرّسًا لإيجاد مخرج للأخ معمّر، وربما لتوريطه أكثر؛ فعبّرت عن غضبي وسخطي العارم على هذا الاقتراح المرائي، وقلت للأخ معمّر: "كيف تسمح لهذا المنافق أن يستمر في دجله؟" ثم غادرت الاجتماع من دون استئذان؛ ولذلك شعر الأخ معمّر بغضب شديد من مغادرتي الاجتماع. وبعد عودتنا إلى مقر الإقامة ليلًا، استرحنا قليلًا، ثم طلبت اللقاء به، فأرسلت النقيب عبد السلام الزادمة حاملًا له رغبتي باللقاء به الليلة وقلت: "إذا لم نلتق الليلة سأعود حالًا إلى طرابلس". ونظرًا إلى أن الأخ معمّر كان منشغلًا بسهراته، فقد اقترح أن نلتقي في الغد. ولمّا علم أنّ قراري

هو العودة إلى طرابلس الليلة، أمر بإغلاق باب السور، فبعثت له عبد السلام الزادمة مرة أخرى، وقلت: "إذا لم تفتح باب السور فسوف أقفز من [فوق] السور". عندها أمر بفتح الباب، وطلب من عبد السلام الزادمة أن يقود السيارة بي عائدين إلى طرابلس.

لقد تأكدت تمامًا من أن الأخ معمّر غير مستعد - ولم يكن جادًّا بطبيعة الحال - لأي عملية تغيير حقيقية، وأنه يتجه نحو تحويل ليبيا إلى "إقطاعية" سياسية، وأنه لا قيمة للإنسان الليبي في نظره، فلا أهمية لحالته أو مشاعره، وأنّ هذا الإنسان له وظيفة واحدة هي "التطبيل" وممارسة "الرياء" العلني بكيل المديح لشخص "القائد" وترديد قول: "كل شيء على ما يرام". كان الأخ معمّر يتصرف مع الشعب الليبي كسلطان من القرون الوسطى: الجميع يجب أن يسبّحوا بحمده ويكيلوا له المديح.

في هذا السياق، سأروي بعض الوقائع الشخصية المهمة جدًّا والتي توضّح عمق الخلاف بيننا:

في منتصف الثمانينيات، طلب مني الأخ معمّر يد كريمتي الكبيرة لابنه سيف الإسلام[13]. ولأننا من عقليتين مختلفتين، وحفاظًا على مشاعر الأخوّة بيننا، فقد رفضت المصاهرة بطريقة لبقة، حين طلبت من صلاح ابن أخي عمر، وكانت له علاقة شخصية بسيف الإسلام، أن يقول له إنه "خطيب ابنة عمه عبد السلام جلود". ولأنني لا أؤمن بزواج الأقارب، فقد تزوج صلاح بابنة أخي جلود، ولما علم الأخ معمّر، اتصل بي وقال: "صلاح لم يتزوج ابنتك؟"، فقلت له: "يا أخ معمّر. لقد حاولت أن أرفض المصاهرة بطريقة لا تجرح مشاعرك. ولكنني الآن أقول لك بصراحة لا أرغب في هذه المصاهرة".

ثم تكرّر الأمر ذاته في التسعينيات، حين طلبت عائلة القذافي يد ابنتي

(13) سيف الإسلام القذافي (1972-): نجل معمّر القذافي رئيس مؤسسة القذافي العالمية للجمعيات الخيرية والتنمية. ولد في باب العزيزية في طرابلس، حيث تقيم أسرة العقيد معمّر القذافي. وهو الابن الأول للعقيد القذافي من زوجته الثانية السيدة صفية فركاش.

الثانية لابنه الساعدي[14]. جاءت السيدة صفية زوجة القذافي بنفسها ومعها بعض الأقارب إلى منزلي في مصيف عين الزرقاء، وكان معي الأخ راسم بن عثمان والدكتور يوسف المريمي، وهما عديلان لي، فاستأذنت منهما وتركتهما في الصالة ودخلت المنزل لاستقبل السيدة صفية. قالت لي: "جئنا نخطب ابنتك لابننا الساعدي"، فقلت لها: "لا أعرف لماذا كل هذا الإصرار على مصاهرتي، أنتم تعرفون أنني لا أريد هذه المصاهرة. أرجوك يا سيدة صفية، لا تحاولي معي مرة أخرى".

ما إن عدت إلى الصالة بعد أن غادرت السيدة صفية، حتى سألني عديلي راسم بن عثمان: "ماذا كان جوابك؟"، فقلت: "بالطبع رفضت"، فنهض راسم ووضع أصبعه في أذنه وصاح بأعلى صوته: "الله أكبر، الله أكبر، الله أكبر على منْ طغى وتجبّر".

عندما بدأ معمّر بتهيئة ابنه سيف خليفةً أولَ له، وأخذ يقدمه لليبيين والعالم، والقذافي واقع تحت وهم أنه يملك الذكاء والدهاء ليخدع الجميع، وتحديدًا الولايات المتحدة الأميركية والغرب، صار يطلق "بالونات الاختبار"؛ فكان يقرر إصدار تصريحات على لسان ابنه سيف ليعرف كيف تفكر الولايات المتحدة والغرب تجاهه، وقد كان يطلق المواقف والشعارات التي لا يعنيها ولا يؤمن بها؛ مثل ليبيا الغد، الانفتاح، وهكذا.

وفي الوقت نفسه كان يغلق إقطاعيته أكثر ويدمر البلد أكثر فأكثر، وفي إحدى الفترات شعر سيف بالإحراج؛ لأن والده لم ينفذ هذه الشعارات والسياسات، فغضب وذهب إلى أوروبا وتحديدًا إلى لندن.

في اليوم الأول لعيد الأضحى ذهبت إلى منزل الأخ معمّر لتقديم التهاني بمناسبة العيد. وبينما كنّا نجلس معًا، رنّ جرس الهاتف، وإذ بالمتصل سيف.

---

(14) الساعدي القذافي (1973-): النجل الثالث لمعمّر القذافي ومعاون آمر ركن الوحدات الأمنية، كان لكتيبته دور في محاولات نظام القذافي إخماد ثورة 17 شباط/ فبراير. هرب الساعدي إلى النيجر في 6 آذار/ مارس 2014، ثم جرى تسليمه إلى السلطات الليبية.

وبعد أن هنأ والده بالعيد، قال له والده خذ عمك عبد السلام وهنئه بالعيد. وفعلًا فعل، ثم واصل الحديث مع والده الذي حاول إقناعه بالعودة إلى ليبيا. وقال له: "يا سيف إذا لم تعد إلى ليبيا فإن المعتصم سيأخذ مكانك". وأنا أعرف أنّ معمّر يؤمن بسياسة "فرق تسد" حتى النخاع، ويجيد ويتقن أساليب استخدام الواحد ضد الآخر، واستخدام جماعة ضد أخرى، واستخدام قبيلة ضد أخرى. وقد استخدم هذه السياسة وهذه الأساليب ضد أعضاء مجلس قيادة الثورة والضباط الوحدويين الأحرار، ولكن أن يستخدم هذه السياسة وهذه الأساليب مع أبنائه فقد كانت هذه مفاجأة محزنة لي.

في الحقيقة، لم يكن الأخ معمّر مهتمًا بالثورة أو الشعب الليبي. همّه الوحيد كيف يخرج سالمًا هو ونظامه من أزمة "لوكربي"، لأنه اعتبر أنها أكبر تهديد لحكمه. كان معمّر يخطط لحكم ليبيا مدى الحياة ومن بعده أولاده، وبدا مستعدًا لأن يعطي ويتنازل عن كل شيء، لكن من المؤكد أنه قبل أزمة "لوكربي" نجح في "رشوة" الكثير من القيادات الحزبية والسياسية والبرلمانية في أوروبا الغربية، لتسكت على جرائمه، بل إنه تمكن من ضمان "سكوت" منظمات حقوق الإنسان في العالم، وكذلك منظمة العفو الدولية. والسؤال المحيّر الذي كان يواجهني أن هذه المنظمات كانت تقيم الدنيا ولا تقعدها؛ إذا ما اعتقل أو أُعدم مناضل في مصر أو تونس أو العراق مثلًا، بينما ظل الصمت مطبقًا على جرائم القذافي. وأذكر، على سبيل المثال، أن أحد أصدقائي، اسمه يوسف المريمي، وهو دكتور متميز في الهندسة المدنية درس الماجستير والدكتوراه في الولايات المتحدة، ثم قرر العمل والعيش فيها، لكنني نجحت في إقناعه بالعودة إلى ليبيا، كما فعلت مع الكثير من الكوادر، ثم أصبح صهرًا لي. اتصل في إحدى الليالي من عام 1989، في الساعة العاشرة مساءً، وسألني: "هل أنت في المنزل. أريد أن ألتقي بك؟"، فقلت له: "مرحبا بك". وبالفعل، جاء يوسف إلى منزلي وهو في حالة غضب شديد، وسألني: "هل شاهدت نشرة أخبار الساعة التاسعة والنصف؟"، فقلت: "لا"، قال لي وهو يشتم الولايات المتحدة والنظام الأميركي: "هل يخطر في ذهنك في أي لحظة أن نواب من الكونغرس الأميركي، أي نواب أكبر دولة في العالم، ينحنون أمام معمّر ويقبّلون رأسه؟"،

وكان يوسف يشير بذلك إلى وفد من الكونغرس استقبله الأخ معمّر. ثم قال لي ساخرًا: "من المؤكد أن معمّر أعطاهم رشوة، ربما 4 إلى 5 ملايين دولار". وأنا أرجح أن ضعف المعارضة في الداخل، وضعف منظمات حقوق الإنسان في ليبيا، قد ساهما في عدم تزويد المنظمات الدولية بمعطيات دقيقة عن جرائم القذافي.

وأذكر أنني في خريف عام 1994 ذهبت لزيارة صديق عزيز عليّ هو العقيد في البحرية أنور العزابي، كان قد دعاني إلى العشاء مع مجموعة من الأصدقاء، وكان يسكن في حي قرقارش في فيلا جميلة.

وحدث أنني التقيت في بيت العزابي الرسام الليبي العالمي الكبير محمد علي سيالة، وكان هذا أول لقاء لي به. كان سيالة قد درس الرسم في فلورنسا بإيطاليا، واشتهر برسم جسد المرأة، ثم أصبح من كبار رسامي الطوابع البريدية، وحصل على العديد من الميداليات الذهبية في العالم. خلال السهرة تحدث معي، وكان غاضبًا من الوضع الذي وصلت إليه البلاد. قال: "هذه البلاد لا أستطيع العيش فيها، سوف أهاجر إلى أوروبا"، فقلت له: "وكيف تهاجر يا محمد وأنت ثروة ليبيا. أنت أهم من ثروة النفط"، فردّ قائلًا: "لقد سحرني كلامك وإكرامًا لك سأبقى في ليبيا". وحين ساءت الأوضاع أكثر فأكثر، كان سيالة حينما يلتقي بي، يقول لي: "لماذا قلت لي أنت أهم من ثروة النفط؟ الآن أنا نادم لأنني أصغيت إلى نصيحتك بالبقاء في البلاد". كان سيالة قبل عودته إلى ليبيا، يعيش متنقلًا بين بريطانيا والسويد وفنلندا. في لندن تزوج بامرأة أرستقراطية وأنجب منها ولدين ثم افترقا، لكنه ظل على علاقة ود وصداقة مع أسرتها حتى إنه دعا والدة طليقته إلى زيارته في طرابلس، وهذه المرأة كانت تجيد قراءة "الطالع". ذات يوم من خريف هذا العام، كنت أتناول العشاء في منزله وكان معي يوسف الدبري وأنور العزابي. بعد العشاء، طلب منها أن تقرأ لنا الطالع بواسطة "ورق الكوتشينة"، وسألها: "متى تزول هذه المصيبة (يقصد القذافي) عنّا؟". رمت الورق على الطاولة وحركته، ثم قالت لنا: "لا تزال أسهم القذافي في تصاعد، ولم يحن بعد موعد سقوطه"، فانزعج سيالة من نبوءتها،

وقال لها: "فال الله ولا فالك". وأذكر أنه كان في إسبانيا، حينما تعرض لوعكة صحية، فاتصل به صديق مشترك ليطمئن عليه فقال له: "لا تخف لن أموت قبل أن أرى القذافي يموت". وبالفعل، لا يزال سيالة حيًّا يرزق رغم كبر سنه.

في عام 2001، تعرضت لوعكة صحية دخلت على إثرها المستشفى، ثم طلب الأطباء أن أقضي فترة نقاهة في جبال الألب الجميلة في القسم السويسري، حيث تعلمت رياضة التزحلق على الجليد. غادرت على وجه السرعة، وتوجهت مباشرة من المطار إلى مستشفى "لا تور"، وبدأ الأطباء في عمليات الفحص والكشف، وإثر ذلك خضعت للعلاج، ثم طلبوا مني قضاء فترة نقاهة في جبال الألب الجميلة، القسم السويسري، لكنني قبل ذهابي للنقاهة، أمضيت عشرة أيام في جنيف. حجزت لي السفارة جناحًا كبيرًا في فندق "إنتركونتننتال". بعد أربعة أيام، سألت السفير الليبي في جنيف: "كم يكلف هذا الجناح في الليلة الواحدة؟" فقال لي: "يكلف 22 ألف فرنك سويسري"؛ فانزعجت وطلبت أن يستبدل الجناح بغرفة تكلف 950 فرنكًا سويسريًا". جاءني أعضاء السفارة وقالوا لي: "أنت أحق مَن يسكن في هذا الجناح. أموال النفط لا يستفيد منها الشعب الليبي، بل يصرفها القذافي على نفسه وأولاده وعلى الأفارقة". لكنني بقيت مصرًّا على البقاء في الغرفة بدلًا من الجناح.

بعد شهر من النقاهة، سافرت إلى باريس، التي لم أزرها منذ مدة طويلة، فاتصلت سفارتنا في سويسرا بسفارتنا في فرنسا، وأعلموهم أنني سأصل باريس. كان الشخص المسؤول عن الضيافة في سفارتنا بباريس يدعى محمد بعيّو، وهو من مدينة مصراتة. اتصل بعيّو بشركة أمنية فرنسية يملكها أوليفر أنطونيو ليتولى تأمين حمايتي وحراستي، ثم طلب منه أن يذهب بنفسه إلى المطار، وقال له: "أرجوك أن تذهب لاستقبال حبيبنا وبطلنا". كانت السفارة قد حجزت لي جناحًا كبيرًا في فندق "البريستول" فتوجهت إليه، بينما ظل أنطونيو في انتظار حقائبي. في المساء سألني السيد أنطونيو: "أين تريد أن تتناول طعام العشاء هذه الليلة؟"، فقلت له: "أنا متعب وأفضل تناول العشاء في الفندق"، فحجز لنا طاولتين في المطعم، واحدة لي، والأخرى له ولأعضاء فريق الحراسة. نزلت من الطابق

الخامس واتجهت إلى الطابق الأرضي، وجدته ينتظرني أمام باب المطعم، ورافقني إلى طاولة العشاء، ثم قال لي: "أنا وبقية فريق الحماية سنتناول طعامنا في الطاولة الثانية"، فرفضت وقلت له: "تعال وتناول العشاء معي". فبدت على وجهه علامات الدهشة، وقال لي: "لقد عملت في حماية الملوك والرؤساء والشخصيات المهمة ونجوم الفن وعلى رأسهم مايكل جاكسون، ولم يحدث أن دعاني أحد منهم لتناول العشاء معه. حين طلب مني السيد بعيّو استقبالك في المطار، ترددت كثيرًا قبل أن أوافق، لأنني لا أذهب بنفسي عادة لاستقبال أحد. والآن بدعوتك الكريمة فقد امتلكتني. وأريد أن أكون صديقًا لك وأكون إلى جوارك حينما تكون في أوروبا من دون أي أجر".

وكما فعلت في سويسرا، فقد طلبت من السفارة استبدال الجناح بغرفة واحدة تكلفتها ألف يورو، بدلًا من 11 ألف يورو للجناح. وسمعت على لسان أعضاء سفارتنا في باريس وبالخصوص من بعيّو، الكلام نفسه الذي قاله لي أعضاء سفارتنا في سويسرا: "أنت أحق من يسكن في هذا الجناح". كان بعيّو مريضًا بالسرطان، وكان يقول لي: "أتمنى ألّا أموت قبل أن أرى القذافي يسقط ويُعدم"، لكن المرض لم يمهله ليرى مصير القذافي.

بقيت أتلقى العلاج في سويسرا فترة طويلة، ثم كنت أبقى في أوروبا نحو ثلاثة أو أربعة أشهر كل عام. في عام 2002 سافرت إلى لندن. كانت السفارة متعاقدة مع أخ فلسطيني يملك شركة لتأجير السيارات الفارهة. حينما استقبلني في المطار، قال لي: "لقد كونت ثروتي في ليبيا، وأنا أحب ليبيا والليبيين، وأنا مستعد لخدمتك وخدمة الليبيين من دون أجر". خلال وجودي في لندن، تعرفت على مجموعة من الإخوة العرب، قالوا لي: "يا أخ عبد السلام، نحن نعرف الكثير من الليبيين ممن هم في المعارضة، ولم يذهبوا إلى ليبيا منذ أكثر من 30 عامًا. وهم يقولون لنا: أولاد عبد السلام جلود هم الوحيدون الذين يمشون في الشارع ولا يعرفهم أحد".

وأذكر أنني حين كنت أتلقى العلاج في سويسرا عام 2005، أقمت بعد خروجي من المستشفى في فندق "لاريزيرف" بجنيف. وذات يوم كنت مستلقيًا

على سرير شمسي مع مجموعة من نزلاء الفندق حول المسبح، وحينما نهضت وجلست على السرير، جاءني رجل كان يستلقي قربي، وبعد أن حياني قدم نفسه لي قائلًا: "أنا عقيد في المخابرات الأميركية وجئت أحمل لك رسالة. نحن في أميركا نعرف شعبيتك عند الليبيين وخاصة في أوساط الشباب، والحكومة الأميركية ترغب في التعاون معك لتخليص الشعب الليبي وتحريره من حكم القذافي"، ثم أعطاني "كارت" بأرقام هواتفه، ثم قال: "حينما تقرر اتصل بي. سأرتب لك لقاء مع وفد رفيع المستوى من الخارجية والبنتاغون"، فرميت "الكارت" في وجهه وقلت: "أنا قائد لا أتعامل مع السي آي أي".

في هذا السياق، أذكر أن ابني كان في عام 1997 يدرس في جامعة الفاتح في طرابلس. وذات يوم، بينما كان يغادر الجامعة وهو يقود سيارته، وجد أمامه أحد الطلبة وهو يتوقف بسيارته في منتصف الشارع ليتحدث مع زملاء له كانوا يقفون على الرصيف، فأطلق منبه السيارة ليفسح له الطريق، فما كان من هذا الطالب إلا أن نزل من سيارته وضرب ابني بلكمة على عينه، فانتفخت وتورمت. لما وصل ابني إلى المنزل سألته: "ماذا حصل لعينك؟" فسرد عليّ الحادث، ثم قال لي: "يا أبي لا تهتم. هذا أمر يحدث كثيرًا بين الطلبة، وهو لا يعرفني مَن أكون". بعد نحو ثلاثة أو أربعة أيام، اتصل بي مسؤول الحراسة في المنزل، وقال لي: "حضرت أسرة مؤلفة من أب وأم وأربعة أبناء يريدون مقابلتك"، فقلت له: "دعهم يدخلوا". حينما استقبلتهم، قال لي الأب: "منذ أربعة أيام حين اعتدى ابننا على ابنك عشنا حالة رعب وخوف، وكنّا ننتظر ما نتوقعه من تنكيل وعذاب، لكن لم يداهم منزلنا أحد ولم يجر اعتقالنا. قلنا نحن لسنا في ليبيا، لو أن ابننا اعتدى على ابن أحد الضباط الأحرار أو المسؤولين الآخرين، لكان مصيرنا التعذيب والسجن وحتى القتل"، فقلت لهم: "أنتم لستم في ليبيا. أنتم في جزيرة عبد السلام جلود"، فغادروا المنزل وهم يبكون من شدة الفرح.

في عام 2008، كان هنيبعل[15] ابن القذافي في سويسرا، وكان يسكن في

(15) هنيبعل معمّر القذافي (1975-): التحق بأكاديمية الدراسات البحرية في ليبيا عام 1993، وفي عام 1999 حصل على شهادة ضابط مسؤول على نوبة ملاحية، وشهادة بكالوريوس في الملاحة

فندق "لاريزيرف" في جنيف هو وزوجته. وفي إحدى الليالي، اعتدى هنيبعل على زوجته بضربها. ولما سمع مسؤولو الفندق الصراخ، اتصلوا بالشرطة التي جاءت على الفور، وألقت القبض عليه، ثم احتجزته في مركز الشرطة لمدة 48 ساعة. اعتبر القذافي هذا التصرف ضد نجله إهانة له، وحاول تصوير ذلك على أنه "عدوان سويسرا المسيحية والصليبية على ليبيا وإهانة الشعب الليبي"، وأعلن الحرب على سويسرا، ونسي أن القانون في الدول الغربية الديمقراطية هو مظلة يستظل تحتها كل إنسان من المواطن إلى الرئيس، خاصة في سويسرا التي هي قمة الديمقراطية. وإثر هذا التصعيد الخطير، شعرت بالحرج من السفر إلى سويسرا لاستكمال علاجي، واخترت المستشفى الأميركي في باريس بديلًا. في عام 2009، سافرت إلى فرنسا للعلاج، وكنت أركب طائرة الخطوط الأفريقية. قبل نحو أسبوع أو عشرة أيام من مغادرتي، اتصلت هاتفيًّا بالأخ محمد البصير مسؤول حراستي. سألته: "أين أنت؟"، قال لي: "أنا في القيادة بباب العزيزية"، فقلت: "ماذا تفعل هناك؟"، قال: "اتصل بي أحمد رمضان وطلب مني الحضور لمقابلته وأعطاني فواتير بمصاريفك في أوروبا خلال سنوات العلاج الثمانية وقال لي إن القائد يريد أن يطلع عبد السلام على الفواتير"، فاستشطت غضبًا وقلت له: "أعد الفواتير لأحمد رمضان"، ثم اتصلت بمعمّر وقلت له: "أتريد أن تحاسبني. حاسب نفسك وأولادك. وأنا أحاسب نفسي لأني أخاف الله وضميري. أنا أقيم في غرفة في فندق ومعي مجموعة حراستي ومصاريفي هي السكن والطعام والمصاريف اليومية العادية، ويمكنك التأكد من ذلك عبر السفراء".

قبل هذا الوقت، كان القذافي قد قرر تخفيض مرتبات السفراء والدبلوماسيين والموظفين في السفارات، حتى إنهم كانوا يعانون صعوبة الحياة، إلى حدّ أن الدبلوماسيين الليبيين كانوا يتلقون مرتبات أقل من دبلوماسيي أي دولة أفريقية فقيرة؛ وهكذا، وبسبب هذا القرار الجائر، بدأ بعض موظفي السفارات الليبية في استغلال الوفود الرسمية والمرضى من خلال زيادة

البحرية، شغل منصب ما سمي "المستشار الأول للجنة إدارة الشركة الوطنية العامة للنقل البحري"، وقد تم تعيينه في هذا المنصب عام 2007 بعد حصوله على شهادة الماجستير في إدارة الأعمال واقتصاديات ولوجستيات النقل البحري من جامعة كوبنهاغن لإدارة الأعمال.

قيمة الفواتير لقاء نسبة محددة. حينما قررت الذهاب إلى فرنسا للعلاج طلبت من البصير أن يشتري لي تذاكر السفر على حسابي. ويوم سفري إلى باريس في الساعة التاسعة والنصف صباحًا، وبينما كنت في طريقي إلى المطار، وكان البصير يقود سيارتي، رن هاتفه النقال، وكان المتحدث مصطفى الخروبي، فقال له: "أريد أن أتحدث مع عبد السلام". قال لي الخروبي: "كيف تسافر يا عبد السلام، وأنت أمس لطمت القائد على وجهه، في إشارة منه إلى أنني أعدت له الفواتير"، ثم قال: "القلوب ليست على بعضها بين معمّر وبينك"، فقلت له يا مصطفى: "أنا أشعر بالأسى لحالك. أنت مغرم بلعب دور المراسل. أقول لك ولمعمّر من خلالك، إذا وصلت إلى المطار ولم أتمكن من المغادرة؛ فإنني لن أعود إلى منزلي، بل سأذهب إلى السجن".

لمّا وصلت المطار اتجه السائق مباشرة إلى المدرج. قال لي الطيّارون: "الركاب لم يصلوا بعد. نقترح ألّا تظل في سيارتك. انتظر في الطائرة وتناول الشاي والقهوة". كان من الواضح أن معمّر أمر ببقاء الركاب في صالة المطار حتى يبت في الأمر. بعد برهة من الوقت اتصل الخروبي بمحمد البصير، وقال له: "يقول لكم القائد. زينة، توكلوا على الله (أي سافروا)". عند عودتي إلى طرابلس بعد أشهر، طلبت لقاء معمّر، وذهبت إليه في خيمته بباب العزيزية، وكان معه مجموعة من أقاربه. قلت له: "أنا أعطيت طفولتي وشبابي لليبيا والشعب الليبي. كنت رئيس تحرير جريدة **الشمس** يوم كنّا طلبة ولست أنت. وأنا الذي كنت أعلق على مسرحية فولتير وهو يزدري الملكية ولست أنت. أتريد أن تحاسبني؟ أنا من يحاسب نفسي لأني أخاف الله وضميري". ثم أضفت: "أريد منك أن تتصل بأحمد رمضان وتعطيه التعليمات بأن مصاريف عبد السلام وأسرته في الداخل والخارج تتكفل بها القيادة، ولا حاجة لأخذ الإذن مني". وقد فعل ذلك.

الاستقالة و"زيارة الليبيين" للقدس المحتلة

قررت الاستقالة من منصبي يوم 9 أيار/مايو 1992، ولكن من دون تقديم ورقة الاستقالة. ببساطة، لأن ما من أحد قام بتعييني. لقد كنت أحد

صنّاع الثورة. وهكذا قرّرت أن أعتكف في منزلي، ولكن مع الاحتفاظ بعلاقتي الشخصية بالأخ معمّر. بعد استقالتي بأشهر قليلة زارني في منزلي الشيخ عطية، وكان صديقًا لي، وهو رجل ثري وكريم إلى أبعد الحدود، وفي الوقت نفسه بسيط ومتواضع، فلم يغير ثراؤه من طباعه، وكان من أعيان منطقة سوق الجمعة في طرابلس، وقد طلب مني ومن أخي وعديلي راسم بن علي بن عثمان[16] أن نحضر مراسم عقد قران ولديه في المنطقة نفسها. في يوم عقد القران، ذهبت مع راسم، وفوجئت بحضور عشرات الآلاف من المواطنين. لمّا وصلت استقبلني المواطنون بالترحاب والعواطف الجياشة، وغمرني الجميع بالحب والود وقال لي بعضهم: "هذا يوم مبارك لأننا رأيناك فيه"، وكانت النسوة يزغردن. وحينما جلسنا، قال لي الشيخ عطية: "يشرفني، ويشرف أسرتي أن تكون أنت وكيلًا لابني في عقد القران". بعد انتهاء مراسم عقد القران، دعانا الشيخ عطية وبعض أقاربه لتناول طعام الغداء، فصاح الشيخ عطية مخاطبًا المدعوين: "هيًّا، خمسة، خمسة (أي تجمعوا كل خمسة أشخاص حول مائدة)". فتناولت الطعام مع راسم والشيخ محمود صبحي - الذي كان عضوًا في مجلس النواب في العهد الملكي - والشيخ حسن العريبي، وهو أستاذ في موسيقى الأندلسيات. وفي أثناء تناولنا الغداء، قال لي الشيخ العريبي: "يا أخ عبد السلام، عرفت كيف تقبض على عقول وقلوب الليبيين"، فقلت له: "أنا لم أفكر أو أخطط لتكون لي شعبية. الشعبية تأتي بشكل تلقائي وطبيعي، وحينما تحاول القيادات الثورية والسياسية والاجتماعية أو الدينية الحصول على الشعبية، فإنها تفقد الشعبية؛

(16) راسم بن علي بن عثمان: هو عديل جلود وابن رجل أعمال من أثرياء طرابلس قبل الثورة، وقد كان والده شخصًا بسيطًا ومتواضعًا، ولم يغير الثراء أيًّا من طباعه.

[وأذكر حينما كنّا في سعامنة في عام 1968 قررت أنا وأخي سالم شراء أرض لبناء مسكنين لي وله، وكان والد راسم بن عثمان يملك مساحات واسعة مخصصة للبناء في طرابلس، وأذكر أنني ذهبت مع أخي سالم لمقابلته في إحدى مزارعه بمنطقة الفرناج في طرابلس، وكان علي بن عثمان يملك شركة حافلات مدينة طرابلس، وكان أخي سالم سائقًا لإحدى هذه الحافلات، ولذا، فهو يعرف علي بن عثمان. لمّا وصلنا إلى المزرعة وجدنا رجلًا بسيطًا يستلقي على الأرض تحت شجرة، وكان أحد العمال المصريين يعدّ الشاي له على الطريقة الليبية، فاعتقدت أن هذا الشخص هو أحد المسؤولين عن المزرعة، ولكنني فوجئت حين قال له أخي سالم: "كيف حالك يا عمي علي". كان موقفًا مدهشًا وغريبًا بالنسبة إلي، فتأثرت ببساطة هذا الرجل رغم ثرائه، وعادت بي الذاكرة إلى بساطة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب.] (المؤلف)

لأنها في هذه الحالة سيكون لها سلوكان، سلوك ظاهر وسلوك خفيّ، وتبدأ هذه القيادات في محاول التودد إلى الجماهير، وإظهار نفسها على عكس حقيقتها، والجماهير بذكائها الفطري تكتشف ذلك، فتكون النتيجة عكسية تمامًا، لأن من يعمل على الشعبية سيفقدها".

كنت أؤمن دائمًا بأن القائد الثوري أو السياسي هو لكل المواطنين. ولأنني لا أستطيع مشاركة كل مواطن في أعراسه أو أحزانه، فقد كنت أشارك إخوتي فقط مناسباتهم الخاصة، ولكن بعد استقالتي قررت أن أشارك أصدقائي وأحبتي، وكذلك بعض الرموز والشخصيات الوطنية، أعراسهم مجالس عزائهم، كما أنني رأيت في ذلك اتصالًا مباشرًا مع الناس لتحريضهم على مقاومة الطاغية والتخلص من الخوف، وكنت أقول للحضور إن الطاغية يقتل منكم العشرات والمئات سنويًا، ولكن لو أنكم خرجتم ضده وسقط منكم 100 أو 150 شخصًا فإنه سيسقط وتتحررون، كما كنت أقول لهم: "كان الفيلسوف والشاعر الهندي رابندرانات طاغور[17] يقول: عدوّ الشعوب ليس الفقر والجهل والمرض. عدو الشعوب هو الخوف. عندما تنتصر الشعوب على الخوف تنتصر على كل شيء".

في صباح اليوم الأول من عيد الأضحى من عام 1993، اتصلت بالأخ معمّر في منزله نحو الساعة الواحدة والنصف ظهرًا، فردّ عليّ الأخ عبد الله السنوسي. سألته إنْ كان الأخ معمّر مستيقظًا أم لا يزال نائمًا، فقال لي "إنه نائم"، فقلت له: "أبلغه حين يستيقظ أنني أريد أن أزوره للتهنئة بالعيد" ثم قلت له: "انتبه، لا أريد أن يكون هناك أي شخص؛ حتى عامل الشاي يجب ألّا يكون موجودًا. وحدنا فقط أنا وهو"، فردّ عليّ: "حاضر". وبينما كنت مستلقيًا في فراشي وقت الظهيرة في غرفتي، وعادة ما أستمع في هذا الوقت إلى برامج **إذاعة لندن** نحو الساعة الثالثة ظهرًا بتوقيت غرينيتش (الخامسة بتوقيت ليبيا)، إذا بي أستمع إلى الخبر الفاجعة،

(17) رابندرانات طاغور (1816-1941): شاعر ومسرحي وروائي في القسم البنغالي من مدينة كالكتا. درس طاغور اللغة السنسكريتية لغته الأم وآدابها واللغة الإنكليزية، ونال جائزة نوبل في الآداب عام 1913، وأنشأ مدرسة فلسفية معروفة باسم فيسفا بهاراتي أو الجامعة الهندية للتعليم العالي عام 1918 في إقليم شانتي نيكتان غرب البنغال.

الخبر المشؤوم الذي يقول إن مئات من الليبيين يزورون القدس المحتلة للحج، فثارت ثائرتي ونهضت من الفراش غاضبًا حتى إنني قمت بتحطيم المذياع. في هذه اللحظات أخبرتني أسرتي أن الرائد مختار القروي جاء للتهنئة بالعيد وهو في انتظارك في الصالة، وعلى الفور ارتديت ملابس الحداد السوداء وهبطت السلالم من غرفتي متجهًا إلى الصالة.

وفي هذه اللحظات رن الهاتف. كان المتحدث عبد الله السنوسي. قال لي: "الأخ معمّر في انتظارك لوحدكما كما طلبت". أغلقت سماعة الهاتف وقلت للرائد مختار: "لا أريد اللقاء بالأخ معمّر"، لكنه ألحّ علي في الذهاب للقائه. حين ذهبت إلى منزل الأخ معمّر وجدته مع زوجته وعبد الله السنوسي، فقال لي: "ما بك؟ زعلان ولابس أسود"، ثم سألني: "ما رأيك في زيارة الليبيين للقدس؟"، فرددت عليه بغضب "يا أخ معمّر أنت تعلم أنني مستقيل من منصبي ولو كنت في موقعي لقطعت الأرجل التي ذهبت إلى القدس والأيدي التي صافحت الصهاينة"، ثم استدركت قائلًا: "إن الليبيين الذين ذهبوا إلى فلسطين المحتلة هم مأمورون. أما الذين أشاروا واقترحوا عليك ارتكاب هذه الجريمة في حق الأمة، هؤلاء هم الذين سوف أحاكمهم وأطبق عليهم الحكم العادل، لأن كل الدساتير في الدول العربية تحرّم الاتصال بالعدو وتعتبره خيانة وطنية"، فقالت لي زوجته وكانت متألمة: "يا وخيّ تركت أخوك لوحده؟ هؤلاء الذين من حوله حشموه (أخجلوه) وهم الذين دبروا وجهزوا الحافلات"، فقلت لها: "كلا، هذا قرار سياسي اتخذه الأخ معمّر". ثم خاطبته شخصيًا وقلت له: "يا أخ معمّر أنت حوّلت ليبيا إلى إقطاعية سياسية، وفي النهاية ها أنت ترسل الليبيين إلى القدس. لقد حوّلت العيد الكبير عيد التضحية والفداء إلى يوم للخنوع والاستسلام، كما حوّلت يوم الفاتح من سبتمبر من يوم انتصار إلى يوم هزيمة، حين اخترت يوم الفاتح للتوقيع على الاتفاقية مع حسين هبري حول أوزو بتحويلها إلى محكمة العدل الدولية".

سأعود في ذاكرتي إلى موقف مشابه:

حين اقترح الأخ معمّر عام 1989 إحالة ملف شريط أوزو المتنازع عليه مع تشاد إلى محكمة العدل الدولية، كنت قد رفضت هذا القرار، ثم

اتفقت أنا ومعمّر على عدم الموافقة على إحالة الملف. لكنه اتخذ القرار سرًّا وبمفرده، ولم أعلم به إلا خلال استقبال الرؤساء العرب والأجانب الذين توافدوا للمشاركة في احتفالات الذكرى العشرين للثورة في قاعدة الملاحة. وبينما كنّا في صالة الشرف، فتح معمّر المذياع على **إذاعة لندن** باللغة العربية وكانت الساعة الخامسة بتوقيت ليبيا، سمعت النبأ الصاعقة: "ليبيا وتشاد توقعان على اتفاقية لتحويل ملف أوزو إلى محكمة العدل الدولية"، فشعرت بغضب شديد وقلت له: "يا أخ معمّر على ماذا اتفقنا؟ ألم نتفق على عدم إحالة الملف للمحكمة، ها أنت تختار يوم الفاتح من سبتمبر للتوقيع على الاتفاقية. لقد حولت يوم الفاتح إلى يوم هزيمة".

في هذه اللحظات، جاء إلينا مدير المراسم ليقول: "طائرة الرئيس حافظ الأسد بدأت في الهبوط الآن"، فقال لي الأخ معمّر وأنا في حالة غضب شديد: "ليس عندك مرونة يا عبد السلام. ما تزال تفكر بعقلية الطالب في الخمسينيات". ثم أردف قائلًا: "ليس معي شعب وليس معي رجال. أين الثوريون الذين يقولون لي لا؟"، فقلت له: "أنت لم تخلق شعبًا. أنت قهرت الشعب وقمت بتغييبه. لا يوجد شعب شجاع وشعب غير شجاع إلا بقدر ما تبني أي قيادة شعبها وتجعل قضايا القيادة هي قضايا الشعب عن طريق الثوريين والمثقفين المتجذرين في الشعب. والشعب لن يتحمس أو يتفاعل مع أي قرار لأن القيادة احتكرته، وسيكون دوره هو مسايرة القيادة في كل قراراتها. أما الثوريون، فأنت لا تريد شركاء ولا تريد حركة ثورية لديها رأي وموقف، أنت تريد حركة مهرجة مهمتها التطبيل والتصفيق. والذين يدّعون أنهم ثوريون هم ليسوا ثوريين حقيقيين، إنهم منافقون ودجالون ولا رأي لهم".

وغادرت المطار عائدًا إلى منزلي ولم أشارك في مراسم استقبال الرئيس حافظ الأسد.

في اليوم التالي من زيارة الليبيين للقدس، تقدّمت برسالة استقالة أخرى رفضًا للزيارة، وحينما التقينا، أنا ومعمّر ومصطفى الخروبي وأبو بكر يونس، في منطقة المربعات على طريق مطار طرابلس، قلت له: "يا أخ معمّر، يجب

أن نقلل من أضرار هذه الزيارة المشؤومة وأن نعتذر من القوى القومية عن هذه الجريمة، ونؤكد لهم التزامنا بتحرير فلسطين وعدم الاعتراف بالعدو"، فالتفت إلى أبو بكر يونس والخروبي متهكمًا وساخرًا، وقال: "يا بوبكر ويا مصطفى، عبد السلام يريد منّا أن نعتذر لشعراوي جمعة وعبد المجيد فريد وسامي شرف وعبد الرحيم مراد"، وكأن لسان حاله يقول: "مَن هؤلاء، أنا القيادة القومية"، فقلت له: "يا أخ معمّر، لا أوافق على طريقتك هذه في التفكير، لا أحد يستطيع أن يحتكر قيادة الأمة، بالأمس كانت مصر عبد الناصر هي القيادة، واليوم ثورة الفاتح، وغدًا يمكن أن تقوم ثورة في تونس أو المغرب وتصبح هي قيادة الأمة".

في تموز/يوليو 1993، طلب مني الأخ معمّر إجراء حوار آخر؛ فالتقينا في منزله وبدأنا حوارًا صاخبًا وحادًّا، قلت له: "مرة أخرى يا أخ معمّر أقول لك أنت حوّلت ليبيا إلى إقطاعية سياسية أصبح فيها الإنسان الليبي أشبه بسلعة خاصة بك، لا مشاعر له ولا أحاسيس، إنه مثل حذائك أو نظاراتك، تفعل بهما ما تشاء، وهذا ما أوصلك في النهاية إلى قرار زيارة القدس المحتلة". ثم قلت له: "أصبحت مثل شخص أطرش وأخرس وأعمى، لا يرى الحقيقة ولا يسمعها. لقد سيطر عليك الغرور"، فقال لي: "أنت جعلت مني متاع اليهود؟". انتهى الاجتماع من دون الوصول إلى أي نتيجة وكان اجتماعًا محبطًا.

وسأعود إلى الوراء قليلًا:

في عام 1992، جاءني العقيد عبد الفتاح يونس والنقيب أحمد قذاف الدم، بعد أربعة أيام من استقالتي، وكنت في منزلي في مصيف يدعى عين الزرقاء، وقالا لي: "كنا في رئاسة الأركان، وقد استلم الأخ العقيد أبو بكر يونس رئيس الأركان، توجيهات مكتوبة من القائد - بحسب تعبيرهم - تمنع على الضباط زيارة عبد السلام جلود أو الاتصال به، كما جرى تعميم هذه التوجيهات على أمناء اللجان الشعبية وأمناء المؤتمرات والمسؤولين، وجاء في هذه التوجيهات: لا تجعلوا لنا سلطة ومعارضة". ثم قالا: "حين اطلعنا على هذه التوجيهات جئنا مسرعين لرؤيتك على أساس أن هذه التوجيهات لم تعمم بعد ولم نطلع عليها، وخشينا ألا نراك في حياتنا مرة أخرى".

في ليلة الفاتح من عام 1993، كنت في منزلي بالمصيف، وفجأة وصل الأخ معمّر لزيارتي، وقال لي: "من الضروري أن نتفق. الناس معنوياتها سيئة وهي مُحبطة بسبب موقفك وخاصة الشباب والثوريين"، فقلت له: "المشكلة ليست في عودتي عن استقالتي وممارسة مهماتي، المشكلة تكمن في الردّة التي تقودها أنت شخصيًا، فهل لديك الرغبة في التراجع والعودة إلى الشعب والوطنيين والثوريين؟ هذا هو السؤال الكبير الذي يطرح نفسه بقوة على الثورة"، ثم أضفت: "مجيئك إليّ ليلة الفاتح لا يبدو لي مقنعًا أو مفهومًا، لو كنت جادًّا في التوصل إلى اتفاق حول ضرورة التغيير الشامل، لكان علينا أن نرتب لهذا اللقاء قبل عشرة أو خمسة عشر يومًا قبل الفاتح، كان في إمكاننا أن نجري حوارًا معمقًا، ونتفق على أسس التغيير. أما اليوم فيبدو لي أننا لن نتمكن من إنجاز شيء. لقد تأخر الوقت كثيرًا". ولمّا ألحّ عليّ بالظهور العلني أمام الجماهير، قائلًا إنها بدأت تتساءل عن سبب اعتكافي، قلت له: "أنت تعرف رأيي وظهوري العلني متوقف على ما ستقوله غدًا في خطاب الفاتح من سبتمبر". ثم ذكّرته بالحملة التي شنها عليّ هو وحاشيته، وقلت له: "أنتم كنتم تقولون عني بأنني سادات ليبيا، وأنني أريد أن أرث الثورة. الحمد لله، إني رأيتكم أنتم جميعًا ساداتيين، تسيرون على طريق السادات وطنيًا وقوميًا". فردّ عليّ قائلًا: "صحيح معك حق".

كنّا نجلس في المصيف، ولمّا علم المصطافون بلقائنا وشاهدونا معًا، تجمعوا بالقرب منّا فرحين باللقاء وتفاءلوا خيرًا، حتى إنّ بعض النساء زغردن ابتهاجًا، فنهض الأخ معمّر وأطلق بضع رصاصات من مسدسه في الهواء تحية للمتجمهرين المحتفلين بلقائنا.

كنت في أعماق نفسي أعلم جيدًا أن هذا اللقاء ليس جادًّا، وأنه لن يسفر عن أي اتفاق حقيقي، فقد كنّا على طرفَي نقيض. وبالفعل، كان خطاب الأخ معمّر في احتفال الفاتح، كما توقعت، استمرارًا في تأكيد نهجه الفردي.

ويبدو أنه كان يشعر بالضيق من سخرية الجماهير التي راحت تطلق الشائعات والنكات ضده، حتى إنه أشار إليها في خطابه، بأنه سوف يصدر

قوانين تجرّم مروجي الشائعات والنكت. ثم فوجئت في أثناء الخطاب والأخ معمّر يقول: إن اليهود عرضوا عليه إعادة غزة إلى الفلسطينيين إذا ما قام هو بزيارة فلسطين المحتلة. كان هذا الإعلان صاعقًا بالنسبة إلي، وهو ما يؤكد أنه بدأ منذ عام 1991 اتصالات سرية مع إسرائيل.

ما إن انتهى الأخ معمّر من إلقاء خطابه، حتى غادرت مسكني متوجهًا إلى منزله وأنا في حالة غضب شديد، وأذكر أنني ذهبت مسرعًا حتى إنني وصلت قبله بدقائق. حين التقينا قلت له: "أنت لا تزال مصرًا على مواصلة طريق الرّدة والكفر بالثورة، يا أخ معمّر لا فائدة، أنت تحطّم نفسك بهذه الطريقة، فأنت تسير في الطريق الخطأ وخطاباتك تكرار لسياساتك التجريبية التي ستكون نتيجتها انهيار البلاد وتدمير نفسك، كما أن إعلانك أنك سوف تصدر قوانين تجرّم وتمنع النكات والسخرية من قراراتك، أمر يستحيل قبوله. ليس هناك قانون في العالم يحاسب الناس على نياتها وما يدور في عقولها، كما أن إعلانك أن اليهود عرضوا عليك إعادة غزة إلى الفلسطينيين، مقابل زيارة تقوم بها لفلسطين المحتلة، يؤكد للجميع أن قرار زيارة الليبيين للقدس المحتلة هو قرارك أنت". ثم قلت له: "إنني أشفق عليك وعلى حالك".

بعد ستة أشهر من هذا اللقاء، في أول يونيو/ حزيران 1994، طلب الأخ معمّر اللقاء وإجراء حوار بيننا. أرسل إلي أبو القاسم القنقا وخليفة إحنيش وسعيد راشد. في هذا الوقت، كان الأخ معمّر في سرت؛ ولذا قررت السفر إلى هناك للقاء به.

كانت هناك مناسبة عائلية خاصة بزفاف ابنَيْ عمر أشكال، وهو أحد أقارب الأخ معمّر. التقينا في حفل الزفاف وكان يشارك فيه عدد من الشعراء الشعبيين. كانوا يتسابقون في مديحه وتمجيده حتى إن بعضهم رسم له صورة هي أقرب إلى التأليه. كان الأخ معمّر وهو يستمع إلى أشعارهم في غاية السعادة، لأنه شغوف بالإطراء الشخصي والمديح. وأذكر أن أحد الشعراء أعاد قراءة قصيدة شعبية قيلت في السبعينيات، وفي مطلعها يقول الشاعر ناعتًا النظام الملكي بعبارة "يا سارقي النفط يا نهّابة"، فقلت للأخ معمّر: "يا أخ معمّر، حين

كنّا نسمع القصيدة في السبعينيات نشعر بالرضا. الآن نحن نفعل أكثر مما فعل العهد البائد".

في صباح اليوم التالي، ذهبت للقائه في المصيف في سرت. وجدته في خيمة كبيرة ومعه كبار رجالات قبيلة القذاذفة وأعيانها، ويبدو أنه أحضرهم للتأثير فيّ وكان عددهم يراوح بين 70 و80 شخصًا. قال لي بعض شيوخ القبيلة: "كيف تترك أخاك لوحده؟" ثم خاطبوا الأخ معمّر: "يا معمّر، أنت لا تستطيع أن تقود البلد أو تحكم. اترك عبد السلام يقود ويدير البلد وأنت خليك في أعراسك وسهراتك في باب العزيزية".

فرددت عليهم قائلًا: "أنا لم أتركه هو الذي تركنا"، وكنت أعني أن القذافي هو الذي ترك الثوريين والمخلصين والوطنيين، واختار أعداء الشعب والمنافقين، فردّ الأخ معمّر قائلًا: "إذا كنت تركتكم فأنا مستعد أن أعود لكم". شعر المجتمعون بالبهجة حين نطق الأخ معمّر بهذه الكلمات فصفقوا له. في اليوم التالي، عقدنا اجتماعًا استمر لساعات. في نهاية الاجتماع قال لي: "هذه المرة لن أتركك، والبرنامج الذي قدّمته أعتبره برنامج الثورة. أنا موافق عليه كلّه". بعد يوم واحد فقط من هذا الاجتماع، عدنا لاستئناف النقاش حول مختلف القضايا، لكنني فوجئت به ينقلب كليًّا على كل ما أعلنه؛ إذْ قال لي: "إذا وافقت على برنامجك ماذا سأعمل؟ أنا واقع فعليًا تحت رحمة شروطك وشروط اليهود والأميركيين، ثم لو أنني وافقت على البرنامج؛ فهذا يعني أنني كلما حاولت أن أفعل شيئًا ستقول لي هذا مخالف للبرنامج". ثم تابع قائلًا: "أنت تسجل عليّ مواقف (أي أنك تتصيد أخطائي)". كان وقع كلماته كالصاعقة عليّ، فقلت له: "هذا أمر غريب، بالأمس فقط قلت لي إنك توافق على البرنامج، المسألة برمتها هي مسألة تحقيق الثورة لأهدافها، وليست أن نفعل ما نشاء، ثم إنّني عرضت عليك البرنامج في حوار استغرق 6 أيام متواصلة، وطلبت مني أن أقدّمه مكتوبًا وفعلت. هذا البرنامج كما قلت لك مرارًا ليس شروطًا، بل هو خطة تغيير تجعلنا أقوياء بالفعل في أعين شعبنا، وهو ما يجعلنا قادرين على

مقاومة الشروط الصهيونية والأميركية. أنا لا علم لي بأي اتصالات سرية بينك وبين الإسرائيليين ولا علم لي بأي شروط".

وهكذا انفضّ الاجتماع نحو الساعة العاشرة ليلًا من دون أي اتفاق، لكنه قال لي وهو يودّعني: "سنظل على اتصال". في اليوم التالي، عدت إلى طرابلس واعتكفت في منزلي. بعد أسابيع قليلة، تلقيت اتصالًا من الأخ معمّر يخبرني فيه أنه "تحدث مع الرئيس المصري محمد حسني مبارك على مبادرة لتوحيد البلدين ليبيا ومصر، على أن يكون مبارك رئيس دولة الوحدة، وأن يكون عبد السلام جلود رئيسًا للوزراء"، فقلت له: "يا أخ معمّر أنا مستقيل، فكيف تتحدث عن أمر يخصّني، وأنت تعلم أنني تخليت عن منصبي وموقعي. لو أنني كنت لا أزال في موقعي، فبكل تأكيد سوف أرفض هذه الفكرة وأرفض العرض المقدّم لي، لأن القبول بالعرض يعني أنني سوف اعترف بإسرائيل بصورة غير مباشرة"، ثم أضفت: "أنا أرفض أيّ وحدة سياسية مع أيّ نظام عربي يعترف بإسرائيل".

وخلال فترة اعتكافي في منزلي بطرابلس، توصلت إلى قناعة راسخة مفادها أن الأخ معمّر لا يملك أي إرادة حقيقية للتغيير؛ ولذا اتخذت قرارًا صارمًا بمقاطعته وعدم اللقاء به. وبالفعل لم نتحدث هاتفيًّا ولم ألتق به طوال سنتين ونصف سنة، لكنه حاول مرات كثيرة حملي على أن أقبل فكرة اللقاء به وكنت في كل مرة أرفض فكرة أي لقاء. وذات يوم استدعى الأخ معمّر أخي سالم، وطلب منه أن يعدّ لنا عشاء، أنا وهو، فقال له سالم: "ليست المشكلة في إعداد طعام العشاء. المشكلة في إقناع عبد السلام بالحضور".

وحين جاءني أخي سالم وأخبرني برغبة الأخ معمّر، قلت له إنني أرفض الفكرة من أساسها. بعد ذلك جاءني خليفة إحنيش وهو يحمل اقتراحًا من الأخ معمّر أن نلتقي، فقلت له: "لا يمكن أن نلتقي. لن تمتد يدي لمصافحته، ما دام مستمرًا في قمع الليبيين ويمارس جرائمه". وأذكر أن خليفة إحنيش قال لي وهو يسمع ردّي الغاضب: "لا أستطيع أن أنقل إليه ما قلته لي، وأنك ترفض اللقاء، لكنني سأقول له إن عبد السلام يبلغك تحياته، وهو سوف يفهم المقصود".

فأجبته: "أنت حرّ في ما تقول، لكن هذا هو ردّي وهذا هو جوابي من دون لبس". بعد أيام، أرسل إليّ المقدم عبد الله الحجازي طالبًا أن نلتقي، وكان ذلك في شهر رمضان 1996، فرفضت، وقلت له: "لن ألتقيَ به لا في رمضان ولا في شعبان".

سأعود قليلًا إلى الوراء لأتذكر حادثة:

في نهاية شهر الفاتح (أيلول/ سبتمبر) وبداية تشرين الأول/ أكتوبر 1993، التقيت الأخ معمّر في مدينة سرت، وأجرينا حوارًا مطولًا وصريحًا على امتداد عدّة أيام، ناقشنا فيه كل شيء حول الأوضاع في ليبيا. في نهاية المطاف، اتفقنا على أن أعدّ من جديد برنامج "التغيير الجذري والشامل"، بما يضمن عودة الثورة للشعب. حينما وافق الأخ معمّر على أن أقوم بوضع هذا البرنامج، قلت له: "البرنامج متبلور في ذهني، ولكنني أريد أن أسألك في قضية حساسة: هل توافق على أن يساعدني في إعداد البرنامج عناصر ذات كفاءة وجادّة؟"، فقال لي: "نعم استعن بمن تريد وأشرك معك كل العناصر الجادة التي يمكن أن تكون مفيدة"، فعدت إلى طرابلس. وعلى الفور، وضعت قائمة بأسماء الفريق المساعد، ومن بين هذه الأسماء جاد الله عزوز، وأبو زيد دوردة، وعبد القادر البغدادي، ورجب المسلاتي، ومحمد سيالة، وعبد الله السعودي، ومحمد عبد الجواد، والروائي أحمد إبراهيم الفقيه، ونقيب الأدباء أمين مازن، والدكتور علي فهمي إخشيم، وعمر الحامدي، وصبحي قنوص، والدكتور شعيب المنصوري، والدكتور مصطفى عمر التير. كان عدد أعضاء الفريق يراوح بين 30 و35 شخصًا. وبحسب ما علمت، خلال هذا الوقت، كان الأخ معمّر يعتقد أن موافقته على إعداد البرنامج ستكون فرصة لعودتي إلى ممارسة مهماتي، ثم علمت أن موافقته كان يقصد منها توريطي. وكانت تلك بالنسبة إلي مناورة مكشوفة. ويبدو أنه انزعج لمّا علم أنني لم أذهب إلى مكتبي، وأنني كنت أقود فريق العمل من مبنى اللجنة الشعبية، كما علمت أنه كان يسأل العقيد مصطفى الخروبي وأبو بكر يونس: "لماذا لا يعمل عبد السلام من مكتبه؟"، بل إن الأخ معمّر كان يسأل أبو زيد دوردة - وكان في هذا الوقت أمين اللجنة الشعبية

العامة – السؤال نفسه: "لماذا لا يعمل عبد السلام من مكتبه؟". ولمّا أدرك الأخ معمّر أن مناورته هذه لا يمكن أن تمرّ، وأن الأخبار والمعلومات عن الحوار الصريح والطويل الذي دار بيننا – إذ اتفقنا على أن أعد برنامجًا جذريًا – باتت حديث الشارع الليبي، بدا منزعجًا وشديد الحساسية.

في هذه الأثناء، بدأت العناصر الانتهازية التي تلتف حوله بالترويج لمزاعم أن هذا البرنامج "هو برنامج عبد السلام" وليس برنامج الثورة. كان هؤلاء يدركون أن البرنامج يستهدفهم في الصميم؛ ولذا عملوا على نقل الوشايات والأكاذيب، بأن "عبد السلام يريد من خلال هذا البرنامج العودة بشروطه، وهو يريد أن يفرض برنامجه وشروطه على القائد".

بعد ذلك، غادر الأخ معمّر إلى مدينة سبها في فزّان، وحين عاد إلى طرابلس، أبلغته بأنني انتهيت من إعداد البرنامج وأنني جاهز لمناقشته معه، لكن نظرًا إلى سيطرة العقلية المخابراتية على تفكيره، كان هناك متطوعون من ناقلي الأخبار والشائعات ينقلون إليه "أولًا بأول" الحوارات والمناقشات حول البرنامج، ويبدو أنه انزعج من "جذرية البرنامج"، وانتشار أخباره في الشارع الليبي وتعلق آمال الجماهير به، وهذا ما زاد في عناده ورفضه للتغيير. حين وصل الأخ معمّر إلى طرابلس، ذهبت للقائه حاملًا معي "مشروع البرنامج"، وللأسف وجدت أنه قد أعد مناورة جديدة. كنت سبقته في الوصول إلى الخيمة بخمس دقائق. وبينما كنت أجلس داخل الخيمة، رأيته قادمًا رفقة العقيد أبو بكر يونس، وبدا عليه عدم الارتياح، وبعد أن سلّمت عليه جلسنا نحن الثلاثة. قال العقيد أبو بكر يونس حرفيًا: "يا بوي هذا البرنامج مفروض علينا من الخارج"؛ فغضبت غضبًا شديدًا، وقلت له: "أنت لم تطلع على البرنامج فكيف تقول إنه مفروض من الخارج؟ هذا ليس كلامك أنت يا أبو بكر؟"، ثم توجهت بكلامي إلى الأخ معمّر وقلت له حرفيًا: "عيب يا أخ معمّر أن تضع أبو بكر يونس في هذا الوضع المحرج، وهو لا يحسن لعب هذا الدور"، ثم نهضت وحاولت أن آخذ نسخة البرنامج الذي كنت وضعته فوق الطاولة، فأسرع الأخ معمّر وأخذه وهو يقول لي: "اجلس يا عبد السلام"، فقلت له: "لماذا نناور على بعضنا؛ إذا

لم تكن موافقًا على البرنامج فقل لي هذا مباشرة ومن دون لف ودوران، ومن دون أن تضع أبو بكر في الواجهة"، ثم خاطبت أبو بكر مباشرة وقلت له: "عيب عليك أن تقبل بهذا الدور. ما تقوله أنت عن محتوى البرنامج كنّا نقوله معًا في الغرف المغلقة، بل وأكثر بكثير مما ورد فيه"، فقال الأخ معمّر: "إذًا كنتم تتآمرون عليّ؟"، ثم قال للعقيد أبو بكر: "أنت والخويلدي ومصطفى تنزعجون لأصغر وأتفه الأسباب الشخصية وأحيانًا لأسباب لا أهمية لها، بينما عبد السلام حينما يتخذ موقفًا، فهو يتخذه من أجل قضية عامة ومن أجل مصلحة الثورة". انزعج العقيد أبو بكر يونس وردّ حرفيًّا: "أنا أش دخلي تحطوني فيما بينكم. أنتم أكباش تتناطح"، ثم نهض وغادر الخيمة غاضبًا، شاعرًا أن الأخ معمّر وضعه في موقف محرج وتخلى عنه. وهكذا انفض اللقاء من دون أي مناقشة للبرنامج. وفشلت هذه المحاولة كما فشلت أكثر من محاولة غيرها من قبل.

وسأعود مرة أخرى إلى الوراء قليلًا لأروي واقعة مهمة تؤكد ما أقول:

في عام 1990، كنت في منزلي أشاهد الإذاعة المرئية الليبية، وكانت تنقل وقائع ما عُرف بالتحالف التاريخي بين قبيلة ورفلة وقبيلة القذاذفة في منطقة بني وليد في ورفلة. وصعقت حينما رأيت الأخ معمّر يحضر هذا اللقاء، وشاهدته وهو يسلم بيان التحالف، فاتصلت به وقلت: "أن تأمر القبيلتين بعقد هذا التحالف الصوري شيء، وأن تحضره أنت شخصيًا وأن يسلموك بيان إعلان التحالف [شيء آخر]، فأنت تثبت بالصوت والصورة أنك شيخ قبيلة. أنا أشعر بالأسف والحزن للحالة التي وصلت إليها". بعد أشهر من هذا الإعلان، قاد بعض ضباط قبيلة ورفلة مؤامرة لإسقاط النظام. بعد أيام قليلة فقط، وتحديدًا في اليوم الرابع للمؤامرة، طلبني الأخ معمّر للقاء به في خيمته بباب العزيزية وكان معي مصطفى الخروبي. وكانت هذه من أخطر المؤامرات التي وقعت في ليبيا، بعد مؤامرة المحيشي عام 1975. لمّا وصلت إلى الخيمة، وجدت رجلين (شيخين) من أقاربه. حين جلست أنا والعقيد مصطفى، قال لي: "يا عبد السلام سقطت القبيلة وانتصرت قيمك الثورية"، فقلت له: "يا ريت سقطت القبيلة وانتصرت قيمنا الثورية. هذه ليست قيمي أنا، وإنما هي قيمك أنت وقيم كل الثوريين". كان

الأخ معمّر في هذا اللقاء، كما رأيته عن قرب، يشعر بالمرارة والإحباط ويعتصر الألم قلبه؛ فقد كانت المؤامرة خطيرة واستهدفت قتله. قبل هذا الحادث، كان الأخ معمّر قد عقد تحالفًا بين قبيلة القذاذفة وقبيلة ورفلة، وبات يعتمد على قبيلة ورفلة في حمايته وحماية نظامه. ولذا كان يشعر بالمرارة والألم. قال الشيخان وهما يوجهان كلامهما إلي: "قبيلة ورفلة ليسوا إخوتنا من جهة الجد. المقارحة هم إخوتنا"، فقلت بغضب وأنا أوجه كلامي إلى الأخ معمّر: "فكني منهما ومن كلامهما. قبل أربعة أيام لم يكونا يقولان هذا الكلام". أدركت أن الأخ معمّر هو منْ لقّن الشيخين، ليقولا لي إن "المقارحة إخوة القذاذفة"، فقلت للأخ معمّر: "أرجوك أخ معمّر. أنت تعلم أنني مستقيل، ولكنني أنصحك ألا ترتكب مرة أخرى خطأ مصراتة، لمّا تآمر المحيشي وبعض الضباط من مصراتة، اعتبرت أن مصراتة كلها متآمرة عليك. يجب أن تكون العقوبة شخصية. لا تزر وازرة وزر أخرى". ثم تابعت كلامي قائلًا: "لو نفذت هذا البرنامج، أقصد البرنامج الذي أعددته، فلن تعود هناك أي حاجة أو ضرورة إلى محاكمة هؤلاء الضباط والمدنيين. أما إذا لم تنفذ هذا البرنامج، وقمت بإعدامهم، فلن يتغيّر شيء، لأن الأمر الخطير هو أن الجماهير فقدت ثقتها بالثورة وباتت تقاوم مقاومة سلبية، وهي الأخطر"، فقال لي: "هذا البرنامج برنامج الثورة وأنا أوافق عليه كلّه". وقبل أن أغادر أنا ومصطفى الخروبي، قلت له حرفيًّا: "يا أخ معمّر إذا كنت غير جادّ، أو ليس لديك الإرادة السياسية الكافية لتنفيذ البرنامج فقل لي هذا بصراحة. لا أريد أن أبدأ بتنفيذ البرنامج، ثم أتفاجأ بأنك غير جادّ في الموافقة عليه". فقال لي الأخ معمّر: "أنا موافق". كان مصطفى الخروبي إلى جواري فقلت للأخ معمّر: "سأقول لك أمام مصطفى، غدًا سأجمع أمانة مؤتمر الشعب العام، واللجنة الشعبية العامة لأعرض عليهم البرنامج لإثرائه، ثم أبدأ بتطبيقه بحسب الآلية المرفقة".

بعد ذلك، عقدت اجتماعًا لأمانة مؤتمر الشعب العام واللجنة الشعبية العامة لدراسة آلية تنفيذ البرنامج. وكان من بين الآليات أن يُعرض البرنامج على المؤتمرات الشعبية. اتصل بي أحمد رمضان وقال لي: "الأخ القائد يقول لك إنه يرى ضرورة تأجيل طرح بعض الأفكار والقضايا في البرنامج". وقد وجدت

أن الأفكار والقضايا التي يطلب الأخ معمّر تأجيل مناقشتها، أو حتى طرحها للنقاش، هي لبّ البرنامج وجوهره، وتأجيل النقاش حولها لا يعني سوى تفريغ البرنامج من مضمونه ومحاوره، فغضبت غضبًا شديدًا، وطلبت الأخ معمّر على الهاتف وقلت له: "إنْ كنت تريد عودتي عن استقالتي، فلا بد لك من الموافقة على تنفيذ البرنامج من أول صفحة حتى آخرها"، فقال لي: "باهي، باهي (أي حسنًا، حسنًا)"، ثم أغلق سماعة الهاتف. وأتذكر، حين أعيد انتخاب حسني مبارك رئيسًا في 5 تشرين الأول/ أكتوبر 1987، كان الأخ معمّر في هذا الوقت يعيش حالة من الضعف والهوان، فقرر أن يذهب هو وأبو بكر يونس والخويلدي والخروبي إلى منطقة السلوم لتقديم التهنئة لمبارك، فاتصل بي أحمد رمضان وقال لي: "يقول لك أخوك معمّر وش رأيك تلحق بنا؟"، فقلت له: "قل لمعمّر أنا مستقيل. لو كنت في منصبي لرفضت أن تذهب قيادة ثورة الفاتح لتهنئة مبارك، ومنْ هو حسني مبارك؟". وفعلًا ذهبوا جميعًا إلى السلوم.

وأذكر أن الإخوة أبو بكر يونس والخروبي والخويلدي جاؤوا إلى منزلي في عام 1994 يحملون رسالة من الأخ معمّر، مضمونها: "أنت تنتقد سياساتي وتحرض الجماهير ضدي"، فقلت لهم: "سوف أذهب للقاء الأخ معمّر"، فقالوا لي: "سنذهب معك".

فذهبنا في اليوم نفسه للقاء الأخ معمّر، فكرّر أمامي مضمون الرسالة، وقال: "أنا لا أستطيع اتخاذ أيّ إجراء ضدك، ولذا سأترك لك البلد. لا أريد أن أراك وهم يحققون معك ويعذبونك قبل أن تُعدم"، فقلت له: "مَن هم الذين سيحققون معي ويعذبوني، هؤلاء إما أنهم يخافون مني وإمّا أنهم يحترمونني. ولذا، في حال حصول هذا فذلك هو قرارك أنت. أنت تترك البلد؟ هذا مستحيل، أنت مستعد لأن تقتل مليون ليبي أو مليونين لكي تحكم ليبيا. أنا لا أستطيع العيش تحت التهديد والتخويف. لست خائفًا؛ لا من سجونك، ولا من إعدامي. ما يجري في ليبيا لا أوافق عليه إلا أن يمرّ فوق جثتي".

بعد هذا اللقاء بأشهر، عرضت على بعض أعضاء القيادة، ومن بينهم أبو بكر يونس ومصطفى الخروبي ومختار القروي وبعض الضباط الأحرار، أن يعقد

أعضاء مجلس قيادة الثورة والضباط الأحرار اجتماعًا في منزلي لنتخذ فيه قرارًا بفرض التغيير على الأخ معمّر؛ لأن الأوضاع تستحق مجازفة غير محسوبة. وللأسف، رفض الجميع الاقتراح، وقالوا إن هذا يُعدّ تمرّدًا، وقالوا: "ما نسعى إليه هو لقاؤكما معًا واستئناف الحوار". في الساعة الثانية عشرة من يوم جمعة الفاتح من أيلول/ سبتمبر 1995، رنّ الهاتف في منزلي بمنطقة المصيف، فرفعت السماعة وصمتّ، انتظرت قليلًا، وإذا بالأخ معمّر هو المتصل، فقال لي: "يا أخينا لماذا لا تتصل للتهنئة وتبارك"، فقلت له: "ما المناسبة؟"، فقال لي: "الفاتح"، قلت له: "يا أخ معمّر، لم يعد الفاتح يعني لي أي شيء؛ لا لأنني لم أعد في السلطة، وإنما لأن الفاتح لم يعد يعني لليبيين أي شيء، ومن ثمّ فهو لا يعنيني. الفاتح اليوم يعني لليبيين الفقر والجهل والخوف. لك طريقك ولي طريقي"، فردّ قائلًا: "طريقنا واحد منذ 1957"، فقلت له: "ما تفعله بالشعب الليبي من قهر وقمع وتجويع وإذلال، أمر يفوق كل وصف". ثم، قبل أن يغلق الهاتف، قال لي: "مشكلتي أنك زعيم، لولا هذا لحاكمتك وأعدمتك".

في المساء، ألقى خطابًا في الجماهير خلال احتفال بمدينة سرت، قال فيه: "في العالم الثالث منْ يستقيل من منصبه هو الشخص الأول. أما أي شخص آخر، إذا ما استقال فسوف يسجن أو يعدم، لكننا سنقدّره ونحترمه ونعامله كما عاملت روما أبناءها".

في حزيران/ يونيو 1996، وقعت مذبحة سجن "بوسليم"[18] التي ذهب ضحيتها أكثر من ألف شاب ليبي. ولأنني كنت في حالة قطيعة معه، وكنت مستقيلًا، لم تتح لي الفرصة للتحدث معه عن هذه الجريمة. ثم بعد عامين ونصف عام من هذا التاريخ، أي في عام 1998 وقعت محاولة انقلابية، دبرتها مجموعة من أقاربه وحرسه الخاص، وكانت تستهدف اغتياله. قام الأخ معمّر

(18) وقعت مذبحة سجن بوسليم لمّا داهمت قوات خاصة يوم 30 حزيران/يونيو 1996 سجن بوسليم الواقع في ضواحي العاصمة طرابلس - وهو يعدّ الأكثر تحصينًا وحراسة في ليبيا - وأطلقت النار على السجناء بدعوى تمردهم داخل السجن. ثم قامت تلك القوات بدفن الجثث في باحة السجن وفي مقابر جماعية متفرقة في ضواحي طرابلس. وينتمي أغلب السجناء القتلى إلى جماعات إسلامية متعددة المشارب والاتجاهات، ورغم أن غالبيتهم ليبيون فإن من بينهم فلسطينيين وعربًا آخرين.

بإعدام المتآمرين والتمثيل بجثثهم، وسحلها بواسطة سيارة في ميدان باب العزيزية، ثم علقهم من أرجلهم فوق شجرة. بعد يوم واحد فقط من اكتشاف المؤامرة اتصلت به هاتفيًا، وقلت له: "أنا قادم للقائك"، فقال مستغربًا وهو لا يكاد يصدق: "صحيح يا عبد السلام؟". وبالفعل، ذهبت للقاء به، وكان هدفي أن استغل ظروفه النفسية السيئة حيث كان منهارًا تمامًا من أجل إقناعه بالعودة إلى الشعب. ولمّا وصلت عانقني بحميمية وهو يبكي بكاء شديدًا بصوتٍ عالٍ، لمدة نصف ساعة تقريبًا، إلى درجة أن عبد الله السنوسي ومنصور ضو شعرا بالإحراج فغادرا المكان، ثم قام حراسه بذبح خروف أمامنا، وهي عادة بدوية تعبيرًا عن الفرح والاحتفاء بالقادم. بعد ذلك جلسنا، وقال لي: "هل يخطر عليك (أي على ذهنك) يا خوي يا عبد السلام، أن أقاربي وحراسي يريدون قتلي؟"، فقلت له: "يا أخ معمّر، لماذا يتآمر عليك أقرباؤك ويخططون لقتلك؟ هم ليسوا سياسيين. هذا يعني أنك تسير في الطريق الخطأ، حتى إن أقرباءك لم يقبلوا بتصرفاتك. لا أحد يحميك؛ لا الأقرباء ولا الحراس، بل الشعب، فعد إلى الشعب". ثم أردفت: "إن مذبحة سجن بوسليم يمكن اعتبارها أكبر مذبحة منذ مذابح هتلر ضد اليهود"، فردّ عليّ قائلًا: "هؤلاء مكلوبين (ويقصد أنهم مثل كلاب مسعورة)، لو أنني لم أتصرف معهم على هذا النحو لهربوا من السجن وأحرقوا مدينة طرابلس وأحرقوك أنت معها"، فقلت له: "حرق مدينة طرابلس وحرقي أهون من قتل 1400 شاب"، فردّ قائلًا: "هؤلاء - سُنّة - متعصبون"، فقلت له: "أنت ستجعل كل الليبيين سنّة يميلون إلى التشددّ وسوف يقاومونك، الشغب سيقاوم بالسلبية المقيتة، وهؤلاء المتشددون سيقاتلونك بأجسادهم. أنت يا أخ معمّر تدمر نفسك وتدمّر البلد معك. الأنظمة الدكتاتورية والقمعية تستخدم الأساليب المعروفة في القمع. أما أنت فتتفنن وتبتكر أساليب وأدوات قمع جديدة"، فقال لي: "يا عبد السلام. أنت تقود حملة ضدي من النقد والتحريض وأنا أكره النقد وأكره الإطراء والمديح وأحب النصيحة. الدين هو النصيحة؟"، فقلت له: "أنت يا أخ معمّر تكره النقد، لكنك تحب الإطراء والمديح. النقد هو أوكسجين الحياة، والإطراء والمديح هما المستنقع الذي تموت فيه الحياة. نعم الدين النصيحة، لأن الدين علاقة الإنسان بخالقه، أما

في السياسة فهناك النقد وهو حجر الزاوية في كل تطور". فردّ عليّ وهو يضع أصبعه على حنجرته قائلًا: "هذا كله ليس مهمًا. الشيء المهم هو موقفك الذي جعل الغصة في حلقي. ولن أنسى ولن أغفر لك هذا الموقف الذي جعلني مدانًا في الداخل والخارج"، فقلت له: "كل هذا سببه سياساتك التدميرية وليس موقفي. موقفي يستند إلى حقوق الناس ومصالحهم، ولو اختلفت معك، وكانت سياساتك تنال رضا الناس، فإنهم لن يسألوا عن موقفي"، فقال: "لم أعد أستطيع تحمل هذا". وهكذا انتهى آخر حوار صاخب دار بيني وبين معمّر.

وأذكر أنني كنت في منزلي، وفتحت الإذاعة المرئية الليبية، وكانت تنقل على الهواء لقاء الأخ معمّر مع بعض أعضاء اللجان الثورية، واستشطت غيظًا ومرارة حينما رأيت سيدة تنهض من مقعدها وهي تصيح: "يا أخ القائد، يا أخ القائد، يا أخ القائد، جوّع الكلب يتبعك. جوّع الليبيين يتبعوك"، وصعقت لمّا رأيت معمّر يضحك ويصفق ويهز رأسه موافقًا، فاتصلت به بعد انتهاء اللقاء وقلت له: "كيف تسمح لنفسك يا أخ معمّر أن تستمع لهذه المرأة وتسمح لها بمواصلة هذا الكلام، كان من المفروض أن تطردها لا أن تصفق لها"، كان رده عليّ: "يا أخينا أنت تتوقف عند كل شيء، ومهمتك أن تراقبني ماذا أقول وماذا أفعل"، ثم أغلق الهاتف.

بعد عام 1998، جاء إلى منزلي بعض الضباط الأحرار وبعض الثوريين الحقيقيين، وقالوا لي: "إذا أردت أن تنجح في إحداث التغيير، فعليك أن تعطي مخرجًا للأخ معمّر، لأن العناصر السيئة والمستفيدة تعتبر البرنامج ضد مصالحها، وهم يروّجون أنك تريد فرض برنامجك على القائد"، ففكرت، ثم كتبت ورقة قلت فيها: "لقد اجتمعت مع الأخ معمّر وطلب مني أن أستعين بخيرة الكفاءات لإعداد ليبيا والأمة العربية للقرن 21، وأرسلتها إلى مدير مكتبه أحمد رمضان". بعد وقت قصير، اتصل بي رمضان وقال: "أخوك معمّر مسرور بما كتبت". بعد هذه المكالمة، انكببت على إعداد البرنامج في جانبيه الوطني والقومي وأرسلت إليه صورة منه. بعد أن اطلع معمّر على البرنامج ألقى كلمة في أمانة مؤتمر الشعب العام، وفوجئت وهو يقول: "ماذا يعني إعداد ليبيا والأمة

العربية للقرن 21. نحن في ليبيا لا نزال في القرن الرابع عشر"، وقال من دون أن يذكر اسمي: "كيف له أن يدّعي أنه يفهم أكثر من الشعب. الشعب هو الذي يفهم". الغريب، أن الأخ معمّر بعد هذا الخطاب مباشرة، نسب البرنامج في جانبه القومي إليه، وأرسل أبو بكر يونس ليزور المشرق العربي، حاملًا مشروع البرنامج، بينما أرسل الخويلدي إلى المغرب العربي.

في عام 1999، قررت عائلة عدالة، وهي أسرة ليبية مشهورة بأبنائها المتعلمين والمتضامنين اجتماعيًا، وكانت تقيم في قرية قصر بن غشير بالقرب من طرابلس، أن تزوج اثنين من أبنائها، فحضر ثلاثة من أبناء هذه الأسرة إلى منزلي لدعوتي إلى حضور حفل عقد القران. وبالفعل، لبَّيت الدعوة. لمّا وصلت إلى منزل الأسرة، قالوا لي: "سنكون سعداء أن تكون وكيلًا لولدينا". وحينما علم القذافي بالدعوة والاستقبال الحافل الذي حظيت به انزعج انزعاجًا شديدًا، فصبّ جام غضبه على هذه الأسرة. كانت الأسرة تمتلك عيادة طبية متميزة تدعى عيادة العافية في باب بن غشير، وكانت تحظى بثقة الليبيين. أمر معمّر بإغلاقها وبالتحقيق معهم وتهديدهم وتوبيخهم، كما قام بالتحقيق مع كبار الضباط والمسؤولين الذين حضروا عقد القران، وقال لهم: "كيف تظلون في الحفل بوجود عبد السلام؟".

يوم تسليم المغرب عمر المحيشي للقذافي

في أواخر الثمانينيات، ذهبت إلى مدينة سبها في الجنوب الليبي للاجتماع بمعمّر. ولمّا وصلت إلى المطار، استقبلني المقدم السيّد قذاف الدم، واحتضنني ضاغطًا على ظهري وصدري بقوة، وهو يجهش في البكاء، وكأنه يريد أن يُخرج ما في داخله من حزنٍ وألم، وقال لي: "يخطر عليك، يا خوي يا عبد السلام، الملك الحسن الثاني يسلم المحيشي؟ لقد حطت به طائرة ليبية خاصة في مطار سبها قبل وصولك بساعة، وكانت السلطات المغربية قد خدرته بكمية كبيرة وقوية من مادة مخدرة، لم يستطع جسم عمر المحيشي تحملها، وحتى بعد انتهاء مفعول التخدير، ظل المحيشي فاقدًا للوعي. فقد السيطرة على

نفسه حتى إنه صار يتغوّط ويبول على نفسه من دون توقف". ارتسمت أمام عينيّ وعقلي ووجداني، في هذه اللحظات، صورة يندى لها الجبين وتقشعرّ لها الأبدان، فتفجرت في داخلي ثورة من الغضب الشديد. غادرت المطار متجهًا للقاء معمّر، ولمّا دخلت عليه قلت له: "اسمع يا معمّر، أنا كنت دائمًا أمقت الحسن الثاني، والآن أمقته أكثر"، ثم قلت: "كنت متوجسًا ومتخوفًا من علاقاتك السرية بالحسن الثاني، التي كنت تديرها بنفسك. أنت انتهيت يا معمّر"، فابتسم ولم يعلق، وأنا لا أعرف ما إذا كان الأخ عمر المحيشي رحمه الله، قد فارق الحياة بسبب حالته هذه، أو أنه تعافى وتم التحقيق معه للحصول على أكبر كمية من المعلومات قبل أن يُعدم.

في عام 1994، توفيت والدة عبد الله السنوسي، وكانت عائلته تقيم في قرية قيرة بوادي الشاطئ ضمن منطقة فزان، فذهبت لتقديم واجب العزاء. لمّا وصلت، وجدت أن العزاء يقام في صالة كبيرة تتسع لآلاف. جاءني مسرعًا شيخ كبير ورجل فاضل اسمه محمد الفرجاني، وهو من قبيلة القذاذفة ومن فرع أسرة القذافي، فعانقني وهو يبكي ثم توجه إلى الحضور قائلًا بصوت عالٍ: "يا عرب، أنا منش خايف (أي لست خائفًا) إنْ لم ينتصر عبد السلام، ومت، أرموني في برميل الكناسة (أي برميل النفايات) ولا تدفنوني في قبر". لقد صدقت نبوءة هذا الرجل الفاضل، وانتصر الشعب الليبي، لكن قوى الظلام والإرهاب والتطرف أفسدت عليه عرسه، ودمرت حلمه. وأذكر أيضًا أن أحد كبار مشايخ القبيلة، من الفرع نفسه، يدعى نصر حنيش، كان يزورني في منزلي باستمرار، ويقول لي وهو في حالة من الشعور بالألم والمرارة: "معمّر لا يريد رجالًا. إذا لم أصفق له وأتودّد إليه وأنا في سني هذه ومكانتي في القبيلة؛ فإنه سوف يحقق معي ويقول: أنت رافع رأسك علي (أي أنت لا تعترف بي)".

الفصل العاشر

الثورة ضد القذافي

في مطلع كانون الأول/ ديسمبر 2010، كنت في زيارة شخصية لباريس. أرسل لي الأخ معمّر ولدَيْه الساعدي والمعتصم بالله[1] وهما يحملان رسالة منه. استلمت الرسالة وفيها يقول لي ما يلي: "قال لك باتي (وبالبدوية الليبية تعني بابا) أنا تعبت وأريد أن أرتاح وأسلّم لك ليبيا، تعال احكمها وافعل بها ما تشاء، أَجْرِ أيّ تغيير ترغب فيه، أعد تشكيل ليبيا من جديد وبالطريقة التي تريدها". وكان ردّي الفوريّ هو التالي: "حتى لو افترضت أنّ والدكما رجل صادق في ما يقول - لأنه طوال سنوات كان يوافق على التغيير ثم سرعان ما يتراجع لأنه لا يؤمن بالتغيير ولا يفكر فيه - فإن قراره هذا هو قرار متأخر جدًّا، هو اليوم لا يريد الحفاظ على ليبيا، بل يريد مني أن أحافظ عليه وعلى أسرته. ولذلك أرفض هذا العرض ولن أقوم بهذا الدور".

في 30 كانون الأول/ ديسمبر، عدت إلى ليبيا، وبعد عودتي بيومين اتصل بي الأخ معمّر، طالبًا مني اللقاء به، فرفضت. في 17 شباط/ فبراير، بدأت الانتفاضة ضد حكمه، فعاود الاتصال بي هاتفيًّا، وطلب مني أن أظهر على شاشة التلفزيون، نظرًا إلى شعبيتي، لأطلب من الشعب، وخاصة الكوادر والشباب، بأن يقفوا معه لأجل أن "نقضي على الأوباش ونتصدى للمؤامرة" بحسب رأيه، فرفضت طلبه بقوة.

في هذه الأثناء، صدر قرار مجلس الأمن رقم 1973 في 17 آذار/ مارس 2011. ثم هاجمت قوات الناتو معاقل النظام مباشرةً بعد صدور

(1) المعتصم بالله معمّر القذافي (1974-2011): هو الابن الرابع لمعمّر القذافي من زوجته الثانية صفية فركاش. كان ضابطًا في الجيش الليبي ومستشارًا للأمن القومي في ليبيا (2008-2011)، وكان أحد أعضاء دائرته الداخلية. قُبض عليه خلال معركة سرت في 20 تشرين الأول/ أكتوبر 2011، ثمّ إنه قُتل على يد القوات المناهضة للقذافي في ظروف غامضة.

القرار لـ"حماية المدنيين الليبيين"، وقد استندت الدول المتدخلة عسكريًا في ليبيا إلى طلب المجلس الوطني الانتقالي[2] على اعتباره ممثلًا شرعيًا للشعب الليبي آنذاك. فعاد الأخ معمّر للاتصال بي ثانية وقال لي حرفيًا: "ماذا تنتظر؟ الآن بعد تدخّل الصليبيين، ما هي حجتك الآن؟ ليس أمامك سوى أن تظهر في التلفزيون لتطالب الشعب وخصوصًا الشباب بالوقوف معي للتصدي للعدوان". فقلت له: "يا أخ معمّر، في استطاعتك أن تقتلني، ولكنني لن أقف ضد الشعب. إذا خُيّرت بين الموت المعنوي والموت المادي، فبالتأكيد سأختار الموت المادي. هذا ليس عدوانًا صليبيًّا؛ إنما هو دعم من الله للشعب الليبي لأنك كنت مُستعدًا لقتل مليون ليبي أو حتى مليونين من أجل أن تستمر في الحكم. أكثر من هذا أنت مستعد لأن تحكم ليبيا من دون شعب؟" فقال لي على الفور: "حسنًا، سوف أتولى أمرك بعد أن أنتهي من هؤلاء الأوباش". ثم أغلق الهاتف.

حين تفجرت الانتفاضة، اتخذت شخصيًا قرارًا بالوقوف إلى جانب الشعب ودعم الثوار في تاجوراء وسوق الجمعة وفشلوم والظهرة والهضبة الخضراء وجنزور، بالسلاح. وقد وثقت بأخي ناصر الغاوي واعتمدت عليه، وهو رجل شجاع ووطني. في هذه المرحلة من الثورة، قام ناصر بشراء السلاح من السوق السوداء وتوزيعه بين الثوار.

تعرّف ناصر على ضابطين من البحرية في قاعدة أبو ستة، وهما من مدينة ترهونة، واتفق معهما على تزويد الثوار بالسلاح (الرشاشات والبنادق والذخائر) من مخزن القاعدة. كان هذان الضابطان شجاعين؛ إذ انتصرا على الخوف الذي كان يسيطر على الجميع. كان ناصر يستلم من هذين الضابطين الأسلحة والذخائر ويقوم بتوزيعها بين الثوار في عمل بطولي رائع.

في 19 شباط/فبراير، كانت جماهير طرابلس قد انتفضت وتحركت من

(2) تشكل المجلس الوطني الانتقالي الليبي في 27 شباط/فبراير 2011 عقب اندلاع ثورة 17 فبراير في ليبيا. في 5 آذار/مارس، جرى اختيار وزير العدل المنشق عن نظام القذافي مصطفى عبد الجليل رئيسًا للمجلس الوطني الانتقالي المؤقت، وعبد الحفيظ غوقة نائبًا له وناطقًا رسميًا باسم المجلس.

تاجوراء، شرقًا ومرورًا بكل الأحياء حتى وصلت إلى جامع القدس الذي يبعد عن باب العزيزية حوالى نصف كيلومتر، وتحركت جماهير غرب طرابلس من جنزور غربًا، مرورًا بأحياء غرب طرابلس حتى وصلت إلى منطقة المنصورة، وهي لا تبعد سوى مئات الأمتار عن باب العزيزية. لم يكن القذافي ولا نظامه في حالة استعداد لمواجهة انتفاضة مفاجئة من هذا النوع؛ ولذا عمد إلى الدهاء والخديعة لإفشالها، فسرّب خبرًا كاذبًا مفاده أنه "غادر ليبيا متوجهًا إلى فنزويلا". صدقت الجماهير الزاحفة نحو مقرّ إقامته في باب العزيزية هذه الكذبة، فتراجعت عن الاقتحام. في ذلك اليوم، كنت في منزلي بمصيف عين الزرقاء، حين أخبرني أحد الجنود، وهو يدعى مفتاح الورفلي، وقد كان في جهاز المخابرات الحربية ومكلفًا بحراسة استراحة معمّر، القريبة من سكني، قائلًا: "معمّر هرب إلى فنزويلا"، وكنت متأكدًا أن هذه خدعة.

ثم سحب كل الجنود والشرطة من شوارع طرابلس من أجل إيهام المنتفضين بأكذوبته الكبرى، بأنه هرب إلى فنزويلا. وبالفعل، بعد العشاء قررت العودة إلى منزلي في منطقة الظهرة. عدت بصعوبة كبيرة لأن الجماهير كانت في الأحياء والشوارع والميادين بعد انسحاب الجيش والشرطة. ولأنها خافت من انفلات الأمن، فقد تولت مسؤولية الدفاع عن أحيائها وشوارعها، ومواجهة أي عمليات نهب أو اعتداء، وقامت بإغلاق الطرقات والمنافذ بالإطارات المحروقة. في اليوم التالي، استعدّ الطاغية عسكريًا، وجهّز الرشاشات الثقيلة في سيارات رباعية الدفع، وهاجم بوحشية الجماهير المحتشدة في ميدان الشهداء، والطرق الرئيسة في طرابلس. لقد قرّر الطاغية سحق انتفاضة الجماهير في طرابلس وبنغازي ومصراتة والزاوية والزنتان، بل قرر حرق مدينة بنغازي وتدميرها، حينما أرسل أهمّ قواته من الحرس والردع، وهي بإمرة أولاده، ثم أمر كتيبتَي خليفة إحنيش ومبروك سحبان بالمشاركة في قمع انتفاضة الزاوية والزنتان. ولأن مدينة الزاوية تبعد عن طرابلس نحو 40 كيلومترًا تقريبًا، فقد أعطى الأولوية للقضاء على انتفاضتها، وتعامل معها بلا هوادة ولا رحمة. وبالفعل، تمكن من إخمادها والقضاء عليها، وهذا ما أعطاه وقتًا كافيًا، ليتمكن من حشد أهم قواته، والدفع بها إلى مدينتي مصراتة وبنغازي.

كانت هذه القوات بإمرةِ ولدَيه وقد انقسمت إلى قوتين: واحدة تمركزت في زليتن أمام مدينة مصراتة، والأخرى تمركزت في تاورغاء خلف مصراتة. ثم بدأ يشن الهجمات على مصراتة ويضعها بين كماشتين. كما أرسل إلى منطقة الجبل الغربي جزءًا من قوات الردع لمهاجمة انتفاضة الزنتان ومنع تمدّدها، وأرسل إليها كتيبة الحرس بقيادة العقيد مبروك سحبان، وهي كتيبة مقاتلة ومدربة تدريبًا ممتازًا. في هذا الوقت، هاجمت الجماهير في بنغازي كتيبة الحرس بقيادة الرائد امبارك عتيق. اتصل الطاغية باللواء عبدالفتاح يونس[3] قائد قوات الصاعقة في بنغازي، وطلب منه أن تهاجم قواته الجماهير الغاضبة وتمنعها من الاستيلاء على الكتيبة في منطقة البركة، لكن اللواء يونس، في موقف بطوليّ رائع، رفض تنفيذ الأوامر. ثم عاد الطاغية ليطلب، من قائد قاعدة بنينا الجوية، أن يأمر سلاح الجو بمهاجمة الجماهير المنتفضة في بنغازي، فرفض قائد القاعدة، بعد أن أبلغه الطيارون أنهم لن ينفذوا أوامر قصف الجماهير. وهكذا، استحق اللواء يونس، والطيارون في قاعدة بنينا، أن يكونوا أبطالًا شجعانًا، وهذه الحقيقة يجب أن يعلمها الليبيون والليبيات. في هذا الوقت، بعد أن سيطر الشعب الليبي على بنغازي وكل الشرق الليبي تقريبًا، أصبح اللواء يونس رئيسًا لأركان الجيش الليبي، وشكّل قوة لتحرير منطقة رأس لانوف النفطية والبريقة وسرت، والالتحام مع ثوار مصراتة ثم التوجه إلى طرابلس لتحريرها.

قبيل صدور قرار مجلس الأمن بتدخل الناتو في ليبيا، كانت القوات التي أرسلت لقمع الانتفاضة قد بلغت مشارف بنغازي. وكان سيف الإسلام يصرح

(3) عبدالفتاح يونس (1944-2011): أحد قادة حركة الضباط الوحدويين الأحرار عام 1969. شارك في قيادة ثورة الفاتح من سبتمبر، ومنذ ذلك الوقت أصبح قائد القوات الخاصة الليبية. ولاحقًا في عام 2009، حصل على منصب وزير الداخلية في ليبيا، لكنه أعلن رسميًا استقالته من هذا المنصب وجميع مناصبه في الدولة في 21 شباط/فبراير 2011 ردًا على قمع القذافي للحركة الاحتجاجية. ومنذ ذلك الوقت، أصبح له دور مهم في قيادة معارك الثوار، وعُيّن قائدًا ورئيس أركان لجيش التحرير الوطني الليبي. قُتل في 28 تموز/يوليو 2011 في مدينة بنغازي بعد تعرضه لإطلاق نار أمام فندق كان من المزمع إقامة اجتماع للمجلس الوطني الانتقالي فيه.

لوكالات الأنباء أن قرار مجلس الأمن قد تأخر (too late) وأن القوات دخلت بنغازي. في هذا الوقت، أمر الرئيس الفرنسي، نيكولا ساركوزي[4]، القوات الجوية الفرنسية بتدمير هذه القوة، قبل أن تدخل بنغازي، وهذا القرار هو العامل الحاسم في هزيمة الطاغية؛ لأنه - لا سمح الله - لو وصلت هذه القوات إلى بنغازي لدمرتها وأحرقتها. كان قرار الطاغية واضحًا: "اقتلوا مليونًا ونصف أو حتى مليونين من الليبيين لأظل في الحكم".

في هذه الأثناء تشكّل المجلس الانتقالي، فاتصلت باللواء عبد الفتاح يونس وأوضحت له أن الخطة التي يقومون بتنفيذها، والتي تقضي بتحرير رأس لانوف والبريقة وسرت، ثم الالتحام بقوات مصراتة، للقضاء على قوات القذافي في تاورغاء وزليتن، هي خطة عقيمة ولن تنجح؛ لأن الطاغية حشد قوات كبيرة في البريقة ورأس لانوف، وقد حصّنها بالألغام والخنادق ومن الصعب اختراقها، فضلًا عن أن المسافة من بنغازي إلى مصراتة ثم طرابلس هي مسافة طويلة، ستكون معها خطوط الإمداد طويلة، ثم قلت له: "مدينة سرت ستكون صعبة على السقوط بسهولة في قبضتك، لأن فيها قوة كبيرة موالية للقذافي". كانت أولوية عبد الفتاح، والناتو، القتالية، هي جبهة البريقة ورأس لانوف ومصراتة، أمّا جبهة الجبل الغربي فهي جبهة ثانوية.

فقلت للواء يونس: "هذه خطة فاشلة لن تحقق النصر"، ثم عرضت عليه خطة بديلة أساسها أن تكون جبهة البريقة ورأس لانوف جبهة لتجميد قوات الطاغية وإشغالها، وإيهامها بأن الهجوم الرئيس هو البريقة ورأس لانوف، ثم التقدم في اتجاه سرت - مصراتة، في حين تكون جبهة الهجوم الرئيسة والحاسمة هي الجبل الغربي، ومنها إلى طرابلس؛ ذلك أن طبيعة المنطقة الجبلية لا تسمح باستخدام الدبابات والمدفعية خارج الطرق الرئيسة. وبدعم من الناتو، يمكن هزيمة قوات الطاغية في الجبل الغربي وتدميرها. وبعد ذلك، يتوجه المقاتلون إلى صبراتة وصرمان والزاوية، ثم إلى طرابلس؛ ذلك أن الطاغية لا توجد لديه قوات نظامية في المنطقة الممتدة من الخُمس شرقًا

(4) رئيس الجمهورية الفرنسية (16 أيار/ مايو 2007 - 15 أيار/ مايو 2012).

إلى الحدود التونسية غربًا. كان لديه الحرس الشعبي فقط، وهم من كبار السن. اقتنع اللواء يونس بخطتي واتفق مع الناتو على نقل الجهد الجوي إلى الجبل الغربي. وهذه الخطة وفرت الوقت والجهد، وقللت الخسائر إلى حد بعيد، وسرعت في نهاية الطاغية. وحينما وصل الثوار إلى منطقة بئر الغنم ثم الصياد والزهراء، انتفضت مدينة طرابلس ثانية، بجماهيرها وقواها الثورية، متوجهةً إلى باب العزيزية فأسقطت الحصن المنيع، هذا الحصن الذي بناه الطاغية.

في الطريق من ميدان الشهداء إلى باب العزيزية، كان ثوار طرابلس يدوسون بالأقدام صور معمّر وأبو بكر يونس والخويلدي والخروبي، بينما كانوا يرفعون صورتي ويقومون بلصقها على زجاج سياراتهم، وهذا ما نقلته شاشات التلفزيون في العالم كله. وأذكر أنني حينما اتصلت بالأخ الدكتور عزمي بشارة، هنأني على موقفي المنحاز إلى الشعب الليبي وعلى ترفعي عن القبلية والجهوية. وتحدثنا أيضًا طويلًا عن مآلات التيار القومي العربي.

كنت خلال الانتفاضة أجتمع بأخي راسم بن عثمان والدكتور محمود التليسي، وشقيقه جلال التليسي، وقد اتفقنا على أن يذهب الأخ محمود التليسي، للقاء مصطفى عبد الجليل[5] ومحمود جبريل[6] وعلي العيساوي[7] لمناقشة مسألة "كيف يمكن أن أقف وأدعم الانتفاضة". كان رأي المجلس الانتقالي أن أخرج من ليبيا بأسرع ما يمكن، وأُعلن انشقاقي

---

(5) رئيس المجلس الوطني الانتقالي، ويُعتبر رئيسًا مؤقتًا لليبيا بعد اندلاع ثورة 17 فبراير، وهو ممثل مدينة البيضاء في المجلس الوطني الانتقالي. كان عبد الجليل قاضيًا ووزير عدل سابقًا في فترة حكم القذافي (أمين اللجنة الشعبية العامة للعدل)، وقد عمل في نظام القذافي لأربع سنوات (2007 – شباط/ فبراير 2011).

(6) محمود جبريل (1952–2020): سياسي ليبي معارض، عضو في المجلس الوطني الانتقالي لإسقاط نظام معمّر القذافي منذ 5 آذار/ مارس 2011، تقلد منصب أمين مجلس التخطيط الوطني ومدير مجلس التطوير الاقتصادي في عهد حكم معمّر القذافي. بعد الثورة، أسس حزب تحالف القوى الوطنية السياسي. شغل منصب رئيس وزراء ليبيا، وهو حاصل على شهادة الدكتوراه في التخطيط الاستراتيجي والعلوم السياسية.

(7) علي عبد العزيز العيساوي (1966–): سياسي ومثقف ليبي، ووزير سابق للاقتصاد في عهد القذافي، ووزير سابق للخارجية بالمجلس الوطني الانتقالي عشية اندلاع ثورة شباط/ فبراير 2011.

والانضمام إلى الانتفاضة؛ ففي رأيهم أن خروجي وتوجيه خطاب إلى الليبيين سيوفر على الشعب الليبي آلاف الشهداء وعشرات الآلاف من الجرحى، فرددت عليهم:

"أنا منشق من عام 1992، حين أعلنت معارضتي للطاغية، ولم أهرب خارج البلاد، بل بقيت في طرابلس أعيش الموت والخطر كل دقيقة، بينما أنتم لم تكونوا قادرين على إعلان انشقاقكم عن حكم معمّر، لو لم تنجح الانتفاضة في بنغازي لما أعلنتم انشقاقكم، وبعضكم كان موجودًا بالصدفة هناك، والبعض الآخر خارج ليبيا".

ثم اجتمعت بالأخ راسم بن عثمان والدكتور محمود التليسي، وجلال التليسي - صهر الأخ راسم - وقلت لهم: "أريد أن أبعث برسالة إلى المجلس الانتقالي وبصفة خاصة إلى مصطفى عبد الجليل رئيس المجلس، ومحمود جبريل والعيساوي أقول فيها إن لديّ شروطًا: إذا كنتم تريدون مني أن أخرج خارج ليبيا، وأن أوجّه خطابًا إلى الشعب الليبي؛ فهذه شروطي، أولًا: لا تنتهي مهمتي بتوجيه هذا الخطاب، وإنما أريد أن أستمر في مخاطبة الشعب حتى سقوط الطاغية؛ ثانيًا، أريد أن أستغل مكانتي الدولية من أجل الاتصال بالدول والمنظمات لتأمين حشد التأييد. ولا أريد أن أظهر كأنني أعمل بطريقة موازية لعمل المجلس".

اتفقنا أن يحمل الأخ راسم والأخ جلال التليسي هذه الرسالة إلى المجلس الانتقالي. ثم سرعان ما عادا ونقلا لي ما يلي: "إن المجلس يطالبك بالخروج بأقصى سرعة وتوجيه الخطاب، وهم يوافقون تمامًا على شروطك"، ثم أضافوا: "السجادة الحمراء مفروشة لك. إعمل ما تريد، وقلْ ما تريد".

ثم طلبوا مني أن أغادر ليبيا بأسرع ما يمكن عبر البحر، وأكدوا لي أن الناتو سوف يتولى هذه المهمة. في هذه الأثناء، أخبروني أنهم سوف يرسلون، مع الأخوين راسم وجلال، جهاز اتصال بواسطة الأقمار الصناعية للتواصل معهم. ثم أخبرني أخي وصديقي راسم أنه رفض استلام الجهاز لدواعٍ أمنية؛ نظرًا إلى وجود نقاط تفتيش وضعها الطاغية معمّر في الطريق الممتد من

الحدود التونسية حتى طرابلس. لكن أحد الإخوة، وهو المسؤول الأول عن منطقة الجبل الغربي وكان يقيم في تونس، أحضر الجهاز بنفسه من خلال معبر ذهيبة إلى الزنتان. وهذا الأخ، واسمه محمد بشير، جاء من الولايات المتحدة وانضمّ إلى الثورة، وهو أحد الضباط الذين شاركوا في مؤامرة ورفلة. ثم كلف ثلاثة أشخاص، لا يعرف أحدهم الآخر، بنقل الجهاز إلى طرابلس، والشخص الأخير سلّمه إلى جلال التليسي في شارع الاستقلال.

وهكذا استلمت جهاز الاتصال. في البداية رفضت طلب المجلس الانتقالي أن أخرج عبر البحر بواسطة الناتو، وقلت لهم: "لا سمح الله قد يكتشف الطاغية أمري، وسيتهمني أنني عميل للناتو، وبذلك ينهيني سياسيًا ومعنويًا قبل أن يعدمني". لكن المجلس الانتقالي أصرّ على خروجي عبر البحر، وبواسطة الناتو، وقالوا لي: "أنت شخصية معروفة، ولا يمكن أن تخرج عبر البرّ إلى تونس، لأن الحدود مراقبة من الطاغية". وبعد إلحاح المجلس وإصراره، وكذلك إصرار أخي راسم، وافقت على الخروج عن طريق البحر، فتوجهت إلى منطقة الخُمس شرقي طرابلس (نحو 140 كيلومترًا) بذريعة أنني أريد قضاء وقت للراحة في مزرعة ابن خالي القريبة من شاطئ البحر. كانت عائلتي تتألف من ثلاثة عشر شخصًا، وكان أحد إخوة زوجتي يمتلك قاربًا صغيرًا قوته خمسة عشر حصانًا، لكن هذا القارب لم يكن يتسع إلا لشخصين، أحدهما السائق.

لمّا وصلت إلى المكان، اتصلت عبر الجهاز مع سفينة تابعة للناتو، كانت في عرض البحر، طلبت من الجنرال المكلف بالإشراف على خروجي، أن يرسل إليّ قاربًا يتسع لعدد أفراد أسرتي، وحدّدت له موقعي. كان الشخص الذي يتولى الترجمة إيطاليًّا من أصول لبنانية يُدعى أبو ليلى. لكن الجنرال قال لي: "لا يمكننا أن نرسل لك قاربًا لأجل إحضارك إلى هنا. أنت شخصية تاريخية مهمة ومعروفة؛ وإذا ما تمكن نظام القذافي من اكتشاف العملية فسوف يقصف القارب. نحن لا نستطيع تحمل مسؤولية ذلك. على المجلس الانتقالي – وأنت شخصيًا – أن تتحملا مسؤولية حضورك مع عائلتك. حاولوا أن تصلوا إلى مسافة 12 ميلًا، وعندها سوف نرسل لكم قاربًا لإحضاركم إلى

السفينة". فرددت عليه بالقول: "الطاغية معمّر صادر كل المراكب والقوارب ومنع الصيادين من الصيد في البحر خلال الأحداث خوفًا من تهريب السلاح، ولذا ليس لديّ أي وسيلة للوصول إلى السفينة في عرض البحر". وهكذا، فشلت كل محاولاتي، على امتداد ثلاثة أيام متتالية، لإقناع الجنرال بإرسال قارب؛ ولذا عدت إلى طرابلس وقرّرت على الفور شراء قارب كبير. كان القارب مزودًا بمحرك قويّ وسرعته عالية.

طلبت من ابنتي الصغرى، وابني الصغير كذلك، أن يركبا القارب مع السائق ليقوما برحلة خارج الميناء بذريعة القيام بنزهة، وكان ذلك في الحقيقة بهدف التدرّب على طريقة الخروج والوصول إلى عرض البحر. ولمّا تأكدت من إمكانية المغادرة بحرًا بواسطة هذا القارب، عاودت الاتصال بالناتو وطلبت منهم أن ينتظروا وصولي عند الميل 12، ومع ذلك ردّوا عليّ بالقول: "نحن لا نستطيع ضمان سلامتك. هناك خطر حقيقي على حياتك وحياة أسرتك إذا خرجت من طرابلس". في هذه اللحظات المصيرية، كان الثوار قد وصلوا إلى منطقة بئر الغنم، وهي تبعد نحو 40 كيلومترًا عن طرابلس، كما تمكنوا من بلوغ منطقة الصياد والزهراء اللتين تبعدان المسافة نفسها تقريبًا عن العاصمة. تمكنت من التعرّف شخصيًّا على بعض الثوار من منطقة ككلة، وأنا لا أعرف كيف تعرفت عليهم. إنها العناية الإلهية وهؤلاء تكفّلوا بمرافقتي من طرابلس إلى منطقة الصياد، حيث يوجد هناك الثوار. وهكذا، اخترت وقتًا ملائمًا لمغادرتي ليبيا نحو الساعة الثانية والنصف بعد الظهر من يوم 23 رمضان (آب/ أغسطس) حيث الناس يسهرون الليل، وينامون حتى فترة بعد الظهر.

وهكذا تمكنت وأسرتي من بلوغ منطقة الصياد. هناك استقبلني الثوار بالهتافات، وكان استقبالًا رائعًا، ومفعمًا بالمشاعر الدافئة والحميمية، ورأيت الأمل في انتصار الثورة في عيونهم. طلب الثوار مني أن أمضي ليلتي معهم، فقلت لهم: "ليتني أستطيع ذلك، لكن المجلس الانتقالي يريد مني أن أواصل السفر إلى زنتان، ومنها إلى ذهيبة على الحدود التونسية، ثم جزيرة جربة، حيث تنتظرني هناك طائرة خاصة، لتقلّني وأسرتي إلى صقلية".

وبالفعل، بعد أن احتفل الثوار بوجودي معهم، تابعت رحلتي رفقة مجموعة من الثوار صوب الزنتان.

في الزنتان، استقبلني الثوار وجماهير المدينة بالحب والترحاب. بعد الإفطار، تابعت رحلتي إلى ذهيبة رفقة مجموعة من ثوار الزنتان. في ذهيبة اتصل بي الأخ مصطفى عبد الجليل، والأخ محمود جبريل، وقدّما لي التهنئة بوصولي سالمًا، وقالا لي: "إن خروجي من ليبيا، في هذه اللحظات، انتصار للثورة". ثم توجهت نحو مطار جربة رفقة محمد بشير، ورئيس أركان الجيش القطري، ومنها ركبت الطائرة إلى صقلية. حين وصلت إلى صقلية وجّهت خطابًا إلى الشعب الليبي عبر قناة **الجزيرة**. وما إن أنهيت إلقاء الخطاب، حتى بادر الأخوان عبد الجليل وجبريل إلى الاتصال بي، وقالا لي: "كلامك صدر من القلب فوصل إلى القلوب، انظر إلى شاشات التلفزيون وسوف ترى أن جماهير بنغازي ترفع صورة لك بحجم كبير في ميدان المحكمة في بنغازي"، فقلت لهم: "أنا لا أعطي أهمية للصور التي تعلق. الصور الحقيقية هي التي ترسم وتنحت في القلوب والعقول".

ثم انتقلت أنا وأسرتي إلى روما. بعد ثلاثة أيام ذهبت إلى قطر، حيث ألقيت كلمة من خلال فضائية **ليبيا الأحرار**، قلت فيها: "أنوي الوقوف مع الشباب في ليبيا من الجنسين. المرأة الليبية لا تشكل نصف المجتمع فقط، ولكنها رافعة وقاطرة المجتمع نحو الحرية والتقدّم والرقي، وإن الشباب هم المستقبل، وهم يجسّدون مفهوم الجسارة وروح التحدي والمغامرة، وكذلك كوادرنا ومثقفونا، فهم يمثلون الوعي الرصين والعقل الثاقب. وكذلك القيادات الاجتماعية والقبلية التي تجمع بين الذكاء الفطري والتجربة والمعاناة البدوية. أريد أن أقف مع هذه القوى الثلاث لتشكل حزبًا، وأن أعطي تجربتي التنظيمية والسياسية للحزب. هذا الحزب الذي سوف يصبح أحد البيوت السياسية المهمة، سوف يقود ليبيا نحو عصر الديمقراطية والتقدم والحرية والنهضة وأن تصبح ليبيا على المستوى الاقتصادي نمر أفريقيا على غرار نمور آسيا"، واقترحت أن يكون اسم الحزب "حزب الوطن"، ثم قلت: "إنني لا أريد

ممارسة السلطة، ولا أريد أن أكون رئيسًا للحزب أو حتى عضوًا فيه. مهمتي محدّدة، وهي أن أقف مع هذه الفئات الثلاث لبناء الحزب". بعد الخطاب بفترة وجيزة، كلفت بعض القوى الوطنية والليبرالية عبد الرحمن شلقم[8] للاتصال بي. وبالفعل، اتصل بي وقال لي: "يقولون لك اسكت ولا تتكلم. لقد أكلت منّا الجو (وهذا تعبير شعبي بمعنى أنك سرقت الأضواء منّا)". فقلت: "ومنْ أنت يا عبد الرحمن. أنت عبد من عبيد القذافي، وأنت المتصهين الذي رتب زيارة الليبيين لفلسطين المحتلة، بالتعاون مع اليهود الليبيين في روما"، ثم أضفت: "الذين كلفوك بأن تنقل إلي هذه الرسالة، هم أتفه من أن أعيرهم أي اهتمام. إنهم لا يملكون غير أنفسهم، وربما لا يملكون حتى أنفسهم".

وذات يوم اتصل بي جلال التليسي، وهو أحد الثوار الحقيقيين في مدينة طرابلس، وقال لي: "لقد اجتمع المجلس العسكري لمدينة طرابلس، وفي الاجتماع ألقى عبد الحكيم بلحاج[9] كلمة قال فيها بعد أن تحررت ليبيا، أنا لن أمارس السياسة، وسأعود إلى سابق عملي في مجال التجارة". فرددت على جلال التليسي وقلت له: "وهل صدقته؟" قال: "نعم". بعد أشهر اتصل بي التليسي وقال لي: "عندك حق، فالرجل لم يكن صادقًا". ويبدو أن فكرة تأسيس الحزب أشعلت ضدي غضبًا وحقدًا من كل القوى المتطلعة إلى حكم الليبيين، ابتداءً من "تنظيم القاعدة" و"أنصار الشريعة" حتى "الجماعة المقاتلة"، وكل قوى الظلام والتطرف، التي لا تريد أن ترى ليبيا دولة مدنية، تعددية يسود فيها النظام والقانون، ولا تريد أن تقوم فيها دولة مركزية، أو دستور، أو قانون، أو جيش، أو شرطة، بل أن تكون ليبيا قاعدة للإرهاب، بديلًا من أفغانستان والصومال،

(8) عبد الرحمن محمد شلقم: سياسي ليبي تولى منصب أمين للجنة الشعبية العامة للاتصال الخارجي والتعاون الدولي في ليبيا (8 تشرين الأول/ أكتوبر 2000 - 4 آذار/ مارس 2009)، خلفًا لعمر مصطفى المنتصر. وفي تعديل أقره مؤتمر الشعب العام في ختام جلسة عقدها في 5 آذار/ مارس 2009، تم تعيين موسى محمد كوسا أمينًا للجنة الشعبية العامة للاتصال الخارجي والتعاون الدولي خلفًا لعبد الرحمن شلقم. شغل شلقم بعدها منصب مندوب ليبيا لدى الأمم المتحدة. وفي 24 شباط/ فبراير 2011، أعلن انشقاقه عن نظام معمّر القذافي.

(9) عبد الحكيم بلحاج (1966-): ترأس المجلس العسكري في طرابلس بعد 2011 في ليبيا. وهو رئيس حزب الوطن الإسلامي، وكان أمير الجماعة الإسلامية الليبية المقاتلة المنحلة.

نظرًا إلى المزايا التي تتمتع بها؛ فهي تسيطر على 2000 كيلومتر من سواحل المتوسط، وعلى صحراء تمتد من موريتانيا غربًا حتى شمال السودان وجنوب مصر. وعلاوة على ذلك، تبلغ مساحة ليبيا مليون وسبعمئة ألف كيلومتر مربع، بعدد سكان قليل، وتضاريس متنوعة (سهول، جبال، واحات)، فضلًا عن وجود ثروة نفطية وغازية، ترى فيها قوى الإرهاب أنها ليست ملك الليبيين، بل هي لـ "الجهاد"؛ أي لتمويل الإرهاب.

كل هذه المزايا تجعل من ليبيا قاعدة مثالية للإرهاب وقوى التطرف، تهدد شمال أفريقيا ومصر وأفريقيا السوداء وأوروبا والولايات المتحدة والعالم.

في 29 آب/ أغسطس، التقيت سمو أمير قطر الشيخ حمد بن خليفة آل ثاني، وشكرته على دعمه لثورة الشعب ضد الطاغية، وقلت له: "الشعب الليبي لن ينسى وقوفكم إلى جانبه".

كان المجلس الانتقالي يدفع مصاريف إقامتي في روما لمّا كنت أقيم في فندق "بريوني" في العاصمة روما، وفجأة قطعوا عني مصاريف إقامتي من دون إعلامي بذلك، ما اضطر الحكومة الإيطالية إلى تحمّل النفقات. قبل إلقاء كلمتي التي دعوت فيها إلى تشكيل حزب الوطن، كنت حين أتصل بالأخ مصطفى عبد الجليل أو محمود جبريل أجد أنهما كانا يردّان على مكالمتي بسرعة. وحدث أنني حاولت الاتصال بمحمود جبريل، وكان في مدينة ميلانو فلم يرد عليّ، فغضبت غضبًا شديدًا، فاتصلت بمصطفى عبد الجليل، وقلت له: "إذا كنتم تعتقدون أنكم قمتم باستغلالي، فأنتم مخطئون. لقد قمت بواجبي الوطني والثوري الذي يمليه عليّ ضميري"، فقال لي: "خير يا أخ عبد السلام، لماذا تقول هذا؟"، فقلت له: "توقفتم عن دفع تكاليف إقامتي في الفندق؟ وحاولت الاتصال بالأخ محمود جبريل، فلم يرد عليّ"، قال لي: "يا أخ يا عبد السلام، متى اتصلت بي ولم أرد عليك؟"، فقلت: "لا أنت دائمًا ترد على مكالماتي. لكن أنت على رأس السلطة، ومعاونوك وخاصة جبريل لا يردون عليّ"، فقال: "أنا مسؤول عن تصرفاتي، أما الآخرون فهم مسؤولون عن مواقفهم". في هذه الأثناء، أجريت اتصالًا هاتفيًا بثوار مصراتة، فقالوا لي:

"نحن قاتلنا القذافي بشجاعة، ولكن حينما كنّا نستمع لخطابك، أجهشنا بالبكاء من شدة تأثير الخطاب وقوته، وكانت النساء من حولنا يزغردن".

خلال وجودي في روما، دعاني مشكورًا وبإلحاح شديد، الأخ الراحل الباجي قائد السبسي[10] حينما كان رئيسًا للوزراء، لزيارة تونس، وقال لي: "سننظّم لك لقاءات مع القوى الفاعلة في تونس. كما توجد أعداد كبيرة من الليبيين في تونس، وهذه فرصة للقاء بهم والتحدث معهم". لكن الحكومة الإيطالية والمخابرات الإيطالية لم توافقا - للأسف - على القيام بهذه الزيارة وقيل لي: "نحن مسؤولون عن أمنك أمام الشعب الليبي والعالم، وفي تونس هناك الكثير من المتطرفين الليبيين وكذلك من أتباع القذافي، وكل هؤلاء يشكّلون خطرًا على حياتك".

في الأسبوع الأول بعد سقوط الطاغية، اتصلت بكل القوى والثوريين الذين كنت أعرفهم، وقلت لهم: "قبل التفكير في تأسيس أحزاب، اعملوا على بناء خط وطني عريض، يكون قادرًا على تقديم برنامج لبناء ليبيا جديدة، يقوم على الحرية والديمقراطية والتداول السلمي للسلطة، واحترام الرأي الآخر، يكون مقنعًا لليبيين والعالم". وخلال إقامتي في فندق بريوني، اجتمعت بالسفير الأميركي والسفير البريطاني والقائم بالأعمال الفرنسي، والسفير الألماني ومسؤول من الخارجية الإيطالية، وقلت لهم: "أنتم قمتم بدور تاريخي في نجدة الشعب الليبي للتخلص من الطاغية، لكنني أحذركم إذا ما اعتقدتم أن مهمتكم انتهت، فأنتم على خطأ. القاعدة وأنصار الشريعة والجماعة الإسلامية المقاتلة، وكل قوى التطرف، لديهم قرار وخطة أن يجعلوا من ليبيا قاعدة بديلة من أفغانستان والصومال. ثم شرحت لهم مزايا ليبيا، والأخطار التي تشكلها على أفريقيا وأوروبا وأميركا والعالم"، وقلت للسفير الأميركي: "أنا أعرف أن السيد باراك أوباما سيكون مشغولًا بإعادة

---

(10) الباجي قائد السبسي (1926–2019): سياسي ومحامٍ تونسي، تقلّد العديد من المناصب الوزارية في عهد الحبيب بورقيبة، ثم عاد إلى الساحة السياسية بعد الثورة التونسية. ترأس حزب نداء تونس وترشح للانتخابات الرئاسية في عام 2014 أمام الرئيس المنتهية ولايته محمد المنصف المرزوقي، وكان الرئيس الخامس في تاريخ الجمهورية التونسية (31 كانون الأول/ ديسمبر 2014 – 25 تموز/ يوليو 2019).

انتخابه"، وقلت للسفراء الأوروبيين: "أعرف أنكم مشغولون بالأزمة الاقتصادية في أوروبا والعالم، لكنني أحذركم للمرة الألف".

وأذكر أنني في عام 2014 كنت في البرتغال، وتعرفت على السفير العراقي في العاصمة لشبونة. وبمناسبة العيد الوطني العراقي، دعاني لحضور الحفل، وكان من الإخوة الأكراد. ألقى السفير كلمة قال فيها: "حينما كنّا نقاتل صدام حسين، لم يكن معنا غير الجبال وأعشاب وحشائش الجبال وعبد السلام جلود". في هذا الحفل، تسنى لي تبادل الحديث مع السفير الأميركي، وأخبرته بما دار بيني وبين مبعوث الحكومة الأميركية الذي التقيته في سويسرا وكان عقيدًا في وكالة المخابرات المركزية "سي آي أي"، وكيف كان موقفي وردّي، فقال لي السفير: "لقد ضيعت فرصة على الشعب الليبي، وقدمت كرامتك وكبرياءك على مصلحة الشعب الليبي"، منذ هذا اليوم نشأت بيني وبين السفير العراقي صداقة شخصية، وكنت أتردد عليه في منزله.

وذات يوم، أخبرني أنه ذهب إلى العراق، وأن حزب الاتحاد الوطني الكردستاني (جلال الطالباني)، الذي تقوده أرملته وابنه، يرغبان في توجيه دعوة إليّ لزيارة كردستان العراق، لكن مسعود البرزاني رفض توجيه الدعوة إلي، وقال إن عبد السلام جلود كان يوقف الدعم الذي يقدمه القذافي لحزبنا. وبالفعل، فقد كنت أقدم الدعم لحزب الطالباني وغيره من المناضلين، وأوقفه عن البارزاني لعلاقته المشبوهة مع الصهاينة. قبل خمسة أشهر من نهاية فترة حكم باراك أوباما، أدلى بتصريح قال فيه: "إن أكبر خطأ ارتكبته هو أننا تركنا ليبيا بعد سقوط القذافي".

في خاتمة مذكراتي هذه، أريد أن أؤكد أنه كان يمكن ثورة الفاتح من سبتمبر 1969 أن تشكّل فرصة تاريخية للشعب العربي الليبي والأمة العربية، نحو النهوض والتقدم والوحدة، لولا الانقلابان المشؤومان: انقلاب عمر المحيشي، وما أحدثه من صدمة صاعقة في تفكير الطاغية وسلوكه، بحيث فقد توازنه وثقته بالثورة، و"حركة الضباط الوحدويين الأحرار"، وحتى بالشعب الليبي؛ أما الانقلاب الثاني الناعم والماكر والشيطاني فهو الذي قاده الطاغية واستغرق

الإعداد والتنفيذ له نحو 9 سنوات ، ليظهر على حقيقته، شيخ قبيلة وطاغية من طراز عجيب وغريب، وفي النهاية "ملك ملوك أفريقيا"، يضع الخواتم في أصابع يديه والقلائد والعقود حول رقبته والتاج على رأسه. إنه المنظر المحزن والمبكي والمضحك. وأنا مؤمن كل الإيمان بأن الشباب العربي الليبي، وشباب أمتنا، سيظلون مؤمنين بالثورة التي تقود إلى التحول الديمقراطي والنهضة والوحدة وتحرير فلسطين. إنها حركة التاريخ التي لا تتوقف.

كانت حركة الضباط الوحدويين الأحرار تجمع بين الطهر والبساطة، وعلى الرغم من أن تحوّل الحركة المدنية التي تأسست عام 1959 (حركة الوحدويين الأحرار) إلى حركة عسكرية عام 1963 (حركة الضباط الوحدويين الأحرار) قد عمل على إضعاف الحركة ثقافيًا وأيديولوجيًا وتنظيميًا، ومن ثمّ أضعف الوعي العالي الذي تتطلبه أي ثورة جذرية، فإن "ثقافة المعاناة" وحقيقة أن الضباط الأحرار هم من أبناء الفقراء، جعلتانا نتغلب على هذه الإشكالية في الممارسة العملية. وظل أعضاء الحركة الذين أسسوا حركة الوحدويين الأحرار، والذين التحقوا بالكلية العسكرية وأصبحوا جزءًا من حركة الضباط الأحرار، يمسكون ببوصلة الثورة سياسيًا وأيديولوجيًا. وأثبتت التجارب الإنسانية أن من الصعب الحفاظ على هذا الطهر وهذه البساطة إلى الأبد، بعد انتصار الثورات والحركات الإصلاحية في العالم؛ فالإنسان تنازعه عناصر الخير والشر ﴿إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ (يوسف: 53)، والأنانية جزء من تكوين الإنسان، وقد عملت الحركات الثورَية والإصلاحية، وحتى الأديان، على تحجيم هذه الأنانية وتهذيبها. وأكبر خطأ وقعت فيه الشيوعية، والماركسية، أنها افترضت استئصال الأنانية من النفس البشرية، وقد أثبتت العلوم النفسية أن السلطة بمعناها العام، سواء السلطة الثورية أو السياسية، تجعل الحاكم الثوري أو السياسي المستمر فيها أكثر من 10 أو 15 سنة، تحت سيطرة الشعور بأنه على صواب وغيره على خطأ وأنه مصدر الحقيقة. لهذا يصبح التناوب على السلطة في غاية الأهمية، لأن من لا يُسأل ولا يُحاسب سوف "يتألّه". وقد تغلبت النظرية السياسية على هذه الإشكالية في الانتخابات، ولكن في الثورة لا توجد انتخابات؛ ولذا يجب إضافة قانون جديد إلى قوانين الثورة؛ هو ضرورة تجديد القيادة بعد عشر سنوات أو خمس عشرة سنة.

وهكذا يجب أن تعمل قيادة الثورة على خلق مخزون من الثوريين الحقيقيين، واعتماد مبدأ الديمقراطية في القيادة وفي كل المؤسسات الثورية، وأن تؤسس كلية لبناء القادة، وأن تضع الثورة أسس استكمال البناء الثوري في المجتمع، ثم التحول إلى الديمقراطية، بعد أن تكون الثورة قد رسخت مجتمع الحقوق والواجبات والمساواة، بحيث تحل المؤسسات الديمقراطية محل المؤسسات الثورية؛ وبهذا تكون الثورة قد أدت رسالتها. وأنا أرى أن ليبيا مرت بمرحلتين: الأولى، تمتد من الفاتح من أيلول/ سبتمبر 1969 إلى منتصف الثمانينيات، وهي مرحلة الثورة؛ والأخرى تمتد من منتصف الثمانينيات، إبان الانقلابين المشؤومين المشار اليهما، إلى سقوط الطاغية في عام 2011 وهي مرحلة "شيخ القبيلة" والطاغية والدكتاتور، كما سبق أن أشرنا.

لقد احتفظت الثورة في المرحلة الأولى بطهرها وبساطتها ونقاوتها إلى حد بعيد، وكان العقل الجماعي والرأي الجماعي والحوار والصدق والوضوح، المنهَج الذي سارت فيه الثورة مع نفسها ومع جماهيرها. وقد التحمت الجماهير بالثورة على نحو يفوق الوصف، وشكّلت الثورة المعركة النهائية لجهاد الليبيين والليبيات ضد الطليان. وأريد أن أستحضر مشهد شنق شيخ الشهداء عمر المختار، وصورة الطفل وهو يلتقط نظارات الشيخ من الأرض من فيلم "أسد الصحراء - عمر المختار" الذي أخرجه المخرج مصطفى العقاد. إن هذا الطفل يمثل حركة الوحدويين الأحرار المدنية حينما تأسست عام 1959 ومن بعدها حركة الضباط الأحرار.

والثورة حررت ليبيا من القواعد الأميركية والبريطانية، ومن الجالية الإيطالية البغيضة، ومن هيمنة شركات النفط وسطوتها على النظام الملكي العميل. ثم بدأت بإحداث التحولات الجذرية والتاريخية الهائلة في المجتمع، سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا واجتماعيًا. وخاضت المعارك على المستوى القومي والإسلامي والعالمي، ووقفت بقوة مع حركات التحرر والحركات الثورية في العالم التي وجدت في ثورة الفاتح السند والداعم بلا حدود، وشكلت لهم القلعة التي يستندون إليها في نضالهم وكفاحهم، وشكلت قاعدة خلفية في التدريب والتسليح والإمداد. وبالفعل، لا توجد حركة تحرر أو حركة ثورية لم

تصل إليها الثورة. إنها الثورة التي شغلت العالم وانشغل العالم بها، وصارت قبلة المقاتلين والمناضلين من أجل الحرية.

أما على مستوى الأمة، فيجب على قوى الثورة والتغيير والأحزاب الحقيقية الجذرية - لا أحزاب الديكورات وأحزاب "رجل في القصر ورجل في الشارع" - والمفكرين والمثقفين الحقيقيين والشخصيات الوطنية وقيادات المجتمع المدني، أن تضع استراتيجيا للتغيير الحقيقي والعميق، تقوم على فرضيتن: الأولى، فتح الباب للتغيير الديمقراطي السلمي الذي يجب أن يتم في فترة لا تزيد على خمس سنوات، وأن تصل مع السلطة إلى برنامج واضح ومحدد، يبدأ بتهيئة المجتمع لهذا التحول السلمي الديمقراطي، وينتهي بتحقيق الديمقراطية وإحداث تحولات اجتماعية واقتصادية وثقافية. ويجب أن تبدأ هذه القوى بنفسها، بأن تجمد برامجها وأن يصار إلى برنامج وطني عريض وميثاق شرف؛ إذ ليس أمرًا مهمًّا من يحكم، بل المهم هو إحداث التغيير، وذلك أن الدرس المستفاد مما سمّي ثورات "الربيع العربي" أن سلطة القمع وحّدتهم وفرّقهم الانتصار والصراع على الغنيمة وعلى "الكعكة".

إن شرعية أي انتخابات لا تتحقق إلّا عندما تكون متاحة أمام الجميع وعلى قدم المساواة؛ من دون حظر ولا استثناءات، وأن تكون نزيهة وشفافة، وأن تتم تحت إشراف هيئة مستقلة، لا أن تكون ثوبًا مفصلًا على مقاس فرد أو أفراد أو حزب . ومن حيث المبدأ، فإن الحزب الفائز، أو الأحزاب الفائزة، في الانتخابات تشكل الحكومة وتقود البلد. لكنني أرى في الخمس عشرة سنة أو العشرين سنة الأولى، حين تتعلم الأحزاب والنخب والشعب الممارسة العملية للديمقراطية ويتم ترسيخ قيم وثقافة الديمقراطية في هذه الفترة، تشترك كل الأحزاب والقوى الممثلة في البرلمان في قيادة البلد، وأن تجمد الأحزاب برامجها ويتم الاتفاق على برنامج وطني. وتشكل هذه الأحزاب الممثلة في البرلمان مجلسًا سياسيًا وحكومة تقوم على القدرات والكفاءات، بعيدًا عن المحاصصة الحزبية. وفي هذه الفترة، يتم التركيز على بناء بنية أساسية عصرية لأنها أساس أي تقدم وتطور، كما يجب وضع أسس وبدايات نقلة نوعية في التعليم والعلوم والتكنولوجيا، ويتم أيضًا وضع أسس وبدايات تطور ونهوض

اقتصادي واجتماعي وثقافي، بإطلاق طاقات المواطنين وخاصة المبادرين والمبدعين والذين يملكون إرادة وطاقات وحيوية البناء والتغيير. ويجب إقامة توازن بين النجاح والنهوض الاقتصادي والعدالة الاجتماعية، وبعد أن يقطع شوطًا على طريق التطور والنهوض الاقتصادي، نعود إلى مبدأ الديمقراطية من جديد، وهو أن الحزب الفائز أو الأحزاب الفائزة تشكّل الحكومة وتقود البلد.

أما الفرضية الثانية، فإذا لم تتجاوب السلطة، وفشلت الفرضية الأولى، تصبح الثورة هي الحل، وتقوم القوى، المشار إليها آنفًا، بالتخطيط وقيادة الثورات العارمة السلمية للجماهير، ويكون شعارها "لا خوف بعد اليوم".

الخوف يخاف منّا، اقتلوا ما شئتم واجرحوا ما شئتم فإننا لن نتوقف، ويجب على الجيوش في البلدان العربية أن تؤكد خلال تفجير الثورات السلمية العارمة أنها جيوش الشعب وجيوش الأوطان، وأنها أبناء الفقراء، وهي أبناء الأمهات الثائرات وأبناء الآباء الثائرين، وإخوة الفتيات الثائرات وإخوة الشباب الثائرين. على الجيوش ألا تقوم بقمع الجماهير ولا منعها من القيام بثوراتها، وعلى الجيوش أن تتصرف كما تصرف الجيش السوداني حين امتنع عن قمع الجماهير لمّا توجهت إلى قصر النميري. وبعد انتصار الثورات، يتم تطبيق الفرضية الأولى. وأعيد تأكيد أنه ليس من المهم منْ يحكم، لأن السلطة ليست أمجادًا أو امتيازات، بل هي مسؤولية وأمانة ثقيلة. ويجب أن تحتل مسألة تحرير فلسطين والوحدة مساحة واسعة في البرامج. والبديل من عدم حصول التغيير ليس الفقر أكثر فأكثر، وليس التخلف أكثر فأكثر، بل الموت البطيء لهذه الأمة.



ملحق الصور



لقاء بين عبد السلام جلود وعبد الناصر في القاهرة، مصر، 1970.



زيارة عبد السلام جلود لمصر ولقاؤه الرئيس جمال عبد الناصر بالقاهرة، 13/ 3/ 1970.



جانب من لقاء بين عبد السلام جلود والرئيس المصري محمد أنور السادات، بمدينة القنطرة بشأن محادثات وقف إطلاق النار، مصر، 1973.



جانب من محادثات بين حافظ الأسد وعبد السلام جلّود، سورية.



لقاء بين عبد السلام جلود وحافظ الأسد في دمشق، ضمن مساعي جلود لرأب الصدع وتقريب وجهات النظر بشأن الحرب الأهلية في لبنان، سورية، 13/ 7/ 1976.



لقاء بين عبد السلام جلود وهواري بومدين، الجزائر.



وصول عبد السلام جلود إلى بغداد ولقاؤه صدّام حسين، العراق، 3/ 1/ 1976.



عبد السلام جلود أمام المحكمة العسكرية في لبنان إبان الحرب الأهلية، لبنان، 15/ 6/ 1976.



لقاء بين عبد السلام جلود ومجموعة من قادة الفصائل الفلسطينية في لبنان من أجل إحداث تصالح بينهم وبين السوريين، لبنان، 28/ 7/ 1976.



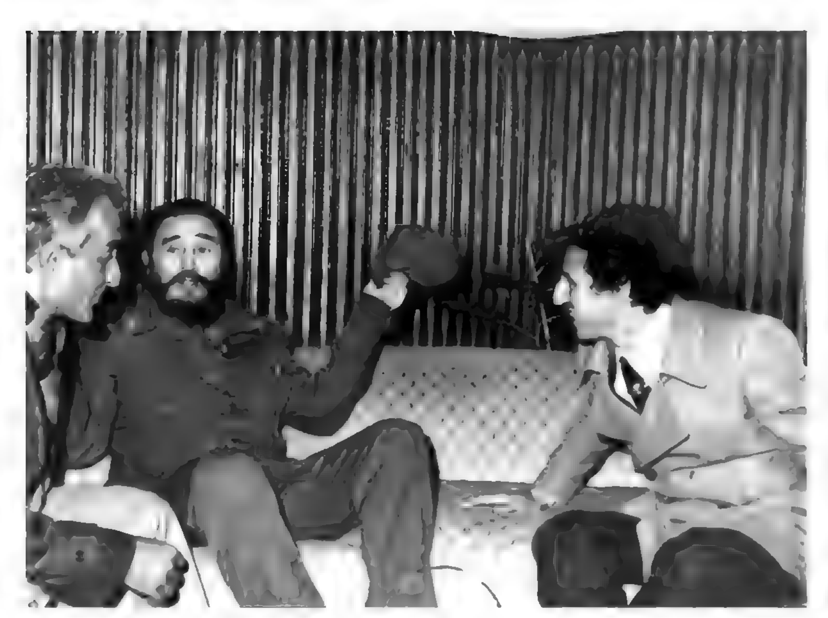
جانب من زيارة رسمية لرئيس مجلس وزراء الاتحاد السوفياتي أليكسي كوسيغن لليبيا،
وفي استقباله عبد السلام جلود، 12/ 5/ 1975.



أثناء توقيع اتفاقات بين رئيس وزراء ليبيا عبد السلام جلود ونظيره الفرنسي جاك شيراك،
في مجالات الاقتصاد والتكنولوجيا والثقافة والاهتمامات المشتركة بين البلدين.



جانب من استقبال رئيس الوزراء الليبي عبد السلام جلود لرئيس الوزراء الفرنسي جاك شيراك ووزير التجارة الخارجية ريمون بار أثناء زيارتهما لطرابلس، ليبيا، 22/ 3/ 1976.



صورة تجمع بين عبد السلام جلود وفيدل كاسترو.



أثناء استقبال رئيس الوزراء الليبي عبد السلام جلّود للزعيم الكوبي فيدل كاسترو
في طرابلس، ليبيا، 2/ 3/ 1977.



جانب من لقاء بين القائد الإسباني فرانشيسكو فرانكو وعبد السلام جلود، إسبانيا، تموز/ يوليو 1970.



جانب من استقبال نائب الرئيس الليبي عبد السلام جلود في باريس من وزير الدفاع الفرنسي ميشيل دوبريه، فرنسا، 22/ 7/ 1971.



عبد السلام جلود مع وزير خارجية النمسا برونو كرايسكي، النمسا.



خلال زيارة عبد السلام جلود للنمسا، وجانب من لقائه رئيس الوزراء برونو كرايسكي، النمسا، مطلع السبعينيات.



زيارة عبد السلام جلود لنيكولاي تشاوشيسكو، رئيس رومانيا، 12/ 3/ 1972.



استقبال رئيس وزراء بولندا إدفارد راتشنسكي لعبد السلام جلود، بولندا.



مباحثات عبد السلام جلود مع إدوارد جيريك في بولندا، 8/ 2/ 1974.



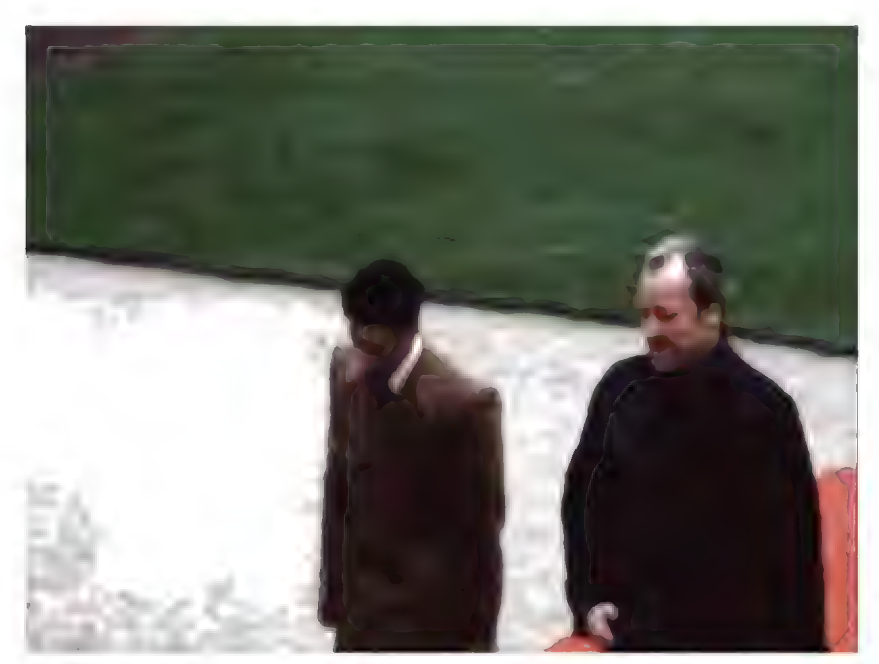
صورة تجمع بين رئيس الوزراء الفرنسي بيير ميسمير ونظيره الليبي عبد السلام جلود
في فندق ماتينيون بباريس، فرنسا، 19/ 2/ 1974.



جانب من مباحثات رئيس وزراء ليبيا عبد السلام جلود أثناء زيارته لروما بشأن البترول مع وزير الداخلية ماريانو رومور، ووزير الخارجية ألدو مورو، إيطاليا، 22/ 2/ 1974.



أثناء زيارة عبد السلام جلود لقصر الكويرناله بروما، وجانب من لقائه الرئيس الإيطالي جيوفاني ليوني، إيطاليا، 23/ 2/ 1974.



أثناء استقبال عبد السلام جلود في ألمانيا الغربية، وجانب من لقائه المستشار الألماني ويلي براندت، 27/ 2/ 1974.



جانب من محادثات بين رئيس الوزراء الليبي عبد السلام جلود
مع الأمير بيرتل غوستاف أوسكار كارل يوجين بالقصر الملكي في ستوكهولم، السويد،
1/ 3/ 1974.



جانب من مؤتمر صحافي بين رئيس وزراء ليبيا عبد السلام جلود ورئيس وزراء السويد أولوف بالمه بعد انتهاء المحادثات بينهما، السويد، 6/ 3/ 1974.



لقاء بين رئيس وزراء ليبيا عبد السلام جلود ورئيس وزراء السويد أولوف بالمه ووزير الاقتصاد في حكومته رون جوهانسون، السويد، 7/ 3/ 1974.



جانب من لقاء بين عبد السلام جلود والرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان، فرنسا، 1976.



أثناء زيارة عبد السلام جلود ليوغسلافيا، وجانب من لقائه الرئيس جوزيف تيتو، 1977.



من لقاء بين عبد السلام جلود والبابا يوحنا بوليس الثاني، الفاتيكان، 27/ 11/ 1988.



جانب من استقبال نيكولاي بودغورني نائب رئيس المجلس الأعلى لاتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية في الكرملين لعبد السلام جلود، الاتحاد السوفياتي، 1/ 3/ 1972.



رئيس الوزراء الليبي الأسبق عبد السلام جلود في موكب لوضع إكليل من الزهور على قبر الجندي المجهول أثناء زيارته لموسكو، 15/ 5/ 1974.



أثناء زيارة عبد السلام جلود للاتحاد السوفياتي، وجانب من لقائه الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي ليونيد بريجنيف، 16/ 5/ 1974.



جانب من لقاء بين الأمين العام للحزب الشيوعي السوفياتي ليونيد بريجنيف ورئيس الوزراء الليبي عبد السلام جلود أثناء زيارته للاتحاد السوفياتي قبل بداية المحادثات الثنائية، 16/ 5/ 1974.



جانب من استقبال عبد السلام جلود في الاتحاد السوفياتي من ليونيد بريجنيف، وأعضاء الوفد في مراسم وضع إكليل من الزهور على ضريح فلاديمير لينين، 15/ 2/ 1978.



زيارة رسمية لعبد السلام جلود لموسكو واستقباله في المطار من قِبل أليكسي كوسيغن، الاتحاد السوفياتي، 15/ 2/ 1978.



جانب من لقاء بين عبد السلام جلود وعضو المكتب السياسي للجنة المركزية للحزب الشيوعي، ورئيس مجلس وزراء اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية نيكولاي تيخونوف، بقصر الكرملين، الاتحاد السوفياتي، 26/ 6/ 1981.



جانب من استقبال عبد السلام جلود في الهند، 17/ 7/ 1978.



خلال زيارة عبد السلام جلود للهند، وجانب من لقائه رئيسها نيلام سانجيفا ريدي.



زيارة عبد السلام جلود لباكستان ولقاؤه الجنرال ضياء الحق، 1978.



استقبال الرئيس التركي بولنت أجاويد لرئيس الوزراء الليبي عبد السلام جلود في أنقرة، تركيا، 22/ 2/ 1978.



لقاء بين عبد السلام جلود والسيد محمد بهشتي في طهران، إيران، 1979.



عبد السلام جلود والمرشد الأعلى للثورة الإيرانية الإمام روح الله الخميني
أثناء زيارته لإيران، 1979.



جانب من زيارة عبد السلام جلود لإيران بعد الثورة الإيرانية، 1979.



عبد السلام جلود يرأس الوفد الليبي للتهنئة بالثورة الإيرانية وإلى جانبه من اليمين السيد محمد بهشتي، ومن اليسار السيد علي أكبر هاشمي رفسنجاني، إيران، 1979.



مؤتمر صحافي يجمع عبد السلام جلود بالمرشد الأعلى للثورة الإيرانية
الإمام روح الله الخميني أثناء زيارته لإيران، 1979.



اجتماع لعبد السلام جلود مع عدد من القيادات الإسلامية في إحدى جمهوريات
الاتحاد السوفياتي.



جانب من استقبال دنغ شياو بينغ لعبد السلام جلود أثناء زيارته للصين، 1976.



خلال استقبال رئيس وزراء كوريا الشمالية باك سونغ تشول لعبد السلام جلود، كوريا الشمالية.



كيم إيل سونغ وعبد السلام جلود أثناء زيارته لكوريا الشمالية.

فهرس عام

ث

ج

ح

خ

د

ش

ـــــــ ص ـــــــ

ـــــــ ض ـــــــ

ـــــــ ط ـــــــ

ـــــــ ظ ـــــــ

ـــــــ ع ـــــــ

— غ —

ـــــ ك ـــــ

ـــــ ل ـــــ

ن

هـ

و

ي


المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات
Arab Center for Research & Policy Studies